بدائع الزهور
في وقائع الدهور



وفى يوم الجمعة ثانى عشره جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل قاصدا آخر مطرّا على جرائد الخيل ، فلما وصل الى الصالحية بات بها تلك الليلة فسرق له من تحت رأسه بقجة فيها قماش القاصد وبعض مبلغ ، ومن جملة ذلك مطالعة ابن عثمان الى السلطان . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وقيل انه قبض على لحيته من شدة غضبه ، وعين فى الوقت والساعة بابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر وعلى يده مراسيم بأن يفحص على من أخذ بقجة هذا القاصد من العربان ، وان ضاعت مطالعة ابن عثمان التى فى البقجة كانت روحه قبالة ذلك . فتوجه اليه البابا ، وأشيع فيما بعد بأن شيخ العرب قبض على من أخذ بقجة القاصد وأعيد اليه ما سرق له بالتمام من يومه . وقيل ان السلطان حلف بحياة رأسه ان لم يحضر شيخ العرب أحمد بن بقر بهذه البقجة بجميع ما فيها والا يوسط الأمير أحمد فى ثيابه ... واستمر الأمر على ذلك حتى يظهر أمر البقجة .

ويقرب من هذه الواقعة ما اتفق فى دولة الملك الظاهر جقمق رحمة الله عليه . وذلك أن فى سنة ثمان وأربعين وثمانمائة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند شاه روخ بن تمرلنك ، فلما حضر أنزله فى مكان بالقرب من بين القصرين . وكان شاه روخ أرسل الى الملك الظاهر على يد هذا القاصد تقدمة حافلة ، فلما طلع القاصد الى القلعة أدخله السلطان الى البحرة ، فأبطأ عند السلطان ، فأشيع فى القلعة أن السلطان قد قبض على القاصد ، فنزلت المماليك الجلبان من الطباق وتوجهوا الى المكان الذى نزل به القاصد فنهبوا كل ما كان فيه . والتف عليهم السواد الأعظم من العوام فلم يبقوا للقاصد شيئا ، وأخذوا التقدمة التى كانت للسلطان حتى أخذوا خيوله .

ولما بلغ الملك الظاهر ذلك نتف لحيته بيده ورسم لحاجب الحجاب وقراجا الوالى بأن يدركوا رد الناس عن النهب ، فنزلوا من القلعة على حمية فلم يردوا من النهب الا بعض شىء ، وراحت على من راح . فقبض الوالى على جماعة كثيرة من العوام وضربهم بالمقارع ، وشىء قطع أيديهم ، وكادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم لهذه الواقعة . ثم ان الملك الظاهر بعث يعتذر الى القاصد مما جرى وأن ذلك من غير علمه ، ثم أرسل الى القاصد عشرة آلاف دينار أكثر مما نهب له ، وصار القاصد كلما شق من القاهرة بسببه جماعة من العوام ويبهدلونه ، وما قاسى خيرا من أهل مصر .

وفى يوم السبت ثالث عشره فيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا يهوديا يقال له خضير ، وكان بالصليبة ، وهو يدعى الطب ، فتوجه الى عليل من أولاد الناس فوصف له حقنة ، فلما احتقن مات عقيب الحقنة بيومين . فقبضوا على ذلك اليهودى وتوجهوا به الى شاد الشراب خاناه ، فقيل انه من خوفه قصد أن يسلم ، ثم رجع الى دينه ، ولم يثبت عليه قتل ذلك العليل وادعى أن العليل كان قد ضربه الخمر على قلبه فمات عقيب الحقنة بأجله ، فلم نثبت على اليهودى قتله ، وقيل ان اليهودى غرم مبلغا له صورة ، وأدبوه ثم خلص من القتل وراح القتل فى كيس العليل . وقد قيل فى المعنى :

ليت شعرى وللزمان خطوب
وبلاء يختص بالأحرار
هل لميت قضى عليه طبيب
من كفيل أو آخذ بالثار

وفى يوم الأحد رابع عشره أرسل السلطان النفقة الى الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات المعينين الى التجريدة ، وذلك على جارى العادة .

وفى يوم الأحد المذكور كانت وفاة القطب العارف بالله تعالى الوالى الزاهد المجذوب الشيخ محمد بن زرعة الأحمدى البدرشينى رضى الله عنه . وكان من أعيان الأولياء ، وله كرامات خارقة ومكاشفات صادقة ، ومات وهو فى عشر السبعين ، وكانت جنازته مشهودة وصلى عليه فى جامع الشيخ سلطان شاه ودفن فى زاويته التى بالقرب من قنطرة قديدار ، وكان معتقدا بالصلاح رضى الله عنه .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر المعين للتجريدة ، فأنفق عليهم جامكية جمادى الآخرة توسعة عليهم خارجا عما أنفقه لهم من الأربعة أشهر المعجلة كما تقدم ذكر ذلك ، وأنفق عليهم عليق ذلك الشهر ، وفرق عليهم الخيول التى كانت لهم فى الديوان ... فجماعة من المماليك أخذوا لهم خيولا شىء فرس وشىء فرسين ، وجماعة منهم أخذوا لهم ثمن فرس خمسة آلاف درهم ، وقد بالغ السلطان فى الاحسان اليهم وما أبقى فى ذلك ممكنا ووعدهم بأن يصرف لهم ثمن اللحم أيضا عقيب ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من العسكر .

وفى يوم الخميس ثامن عشره أشيع موت شمس الدين بن عوض أستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وهو محمد بن أحمد بن عوض ، وأصلهم فلاحون من منية مسير . وكان شمس الدين هذا فى مبتدأ أمره فقيرا جدا فباشر ديوان جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير أزبك الخازندار والأمير أزدمر الدوادار وغير ذلك من الأمراء ، ثم راج أمره فى دولة الأشرف قانصوه الغورى وباشر ديوان السلطان ، وصار أستادار الذخيرة ، وابنه شرف الدين مستوفى على الخزائن الشريفة ، وابنه فخر الدين مباشر عند الأمير طومان باى الدوادار ، فتلاعبت به الدنيا لكثرة هرجه وركب فيها فى غير سرجه ، فأخذ فى أسباب المرافعات فى المباشرين وأعيان الناس حتى ضجت منه الأفلاك والأملاك . وكان انفرد بالسلطان وعول عليه ، فأخذه الله تعالى من الجانب الذى كان يأمن اليه ، فتغير خاطر السلطان عليه وقبض عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى على مائة وخمسين ألف دينار غير ستين ألف أردب شعير . فلما تسلمه شرع يعذبه بأنواع العذاب من ضرب مقارع وعصره فى أكعابه وأصداغه هو وولده شرف الدين ، وصار ابن عوض يقاسى ذلك العذاب الأليم ولم يرد من المال الذى قرر عليه سوى قدر عديم ، فاستمر تحت العقوبة الى أن مات وولى عمره وفات . فمات وهو فى بيت الوالى على حصير والحديد فى عنقه ، فما فكوه من عنقه حتى مات شر موتة « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » فلما مات فى بيت الوالى حمل الى داره فغسل وكفن ولم يمش له أحد فى جنازة ، وفى ذلك عبرة لمن يعتبر ، وقد قيل فى المعنى :

ألا انما الدنيا كمثل أراكة
اذا اخضر منها جانب جف جانب

هى الدار ما الآمال الا فجائع
عليها ولا اللذات الا مصائب

فكم سخنت بالأمس عين قريرة
وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة
على ذاهب منها فانك ذاهب

وكان سبب نكبة ابن عوض قيل وقع بينه وبين الأمير خاير بيك كاشف الغربية من أجل ابن جميل أحد مشايخ الغربية ، فطلع خاير بيك وشكا ابن عوض الى السلطان ، وبالغ فى شكواه حتى غير خاطر السلطان عليه . وقيل ان خاير بيك قال :

أنا أثبت فى جهـــة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار .

وفى يوم الخميس المقدم ذكره صنع الســـلطان وليمة حافلة بالمقياس . واجتمع بها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبـــة والوعاظ وكانت ليلة حافلة . والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل .

وفى سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقيـــاس مثل هذه فزاد الله تعالى فى النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعا دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طومان باى الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر فى الصعيد بسبب ضم المغل .

فلمـــا كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله الى الجيزة فنزل الى المقياس ولاقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان . فلما طلع الى القلعه يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة فى موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر على ذلك حتى دخل الى داره . وخلع عليه السلطان فى ذلك اليوم فوقانى أخضر بطرز يلبغاوى عريض . ومشت الأفيال وهى مزينة قدامه فى ذلك الموكب وشق من الصليبة .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفى الأمير ماماى جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيسا حشما جميل الهيئة قليل الأذى بين الأمراء ، ومات وهو فى عشر الستين ، وقيـــل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشـــتراه الأشرف قايتباى من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباى ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى عليه

وفى يوم الثـــلاثاء المذكور كان وفاء النيـــل المبارك ، أوفى بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذى أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، وقد أوفى الله الست عشرة ذراعا وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثانى عشرين مسرى ، وقـــد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه فى غاية الاضطراب .

وفى يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق لثالث عشرين مسرى ، فتح السد وكان يوما مشهودا قل أن يقع مثله فى الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له فى ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقانى أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، وحصـــل للناس غاية الجبر بكسر الســـد فى ذلك اليوم . وقد قيل فى المعنى :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة
سرت قلوب العـــالمين لبشره
ومن العجـــائب والغرائب أنه
جبرت قلوب المسلمين لكسره

وقيل فى المعنى أيضا :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
اذا رام جريا فى الخليج تقنطـــرا
ولـــكن بعد الكسر زاد تجـــبرا
وأفرط هجما فى القـــرى وتجسرا

ووافق أن النيل زاد بعد فتح الســـد بيومين عشر أصابع فى دفعة واحدة ، ثم فى اليوم الثالث من فتح السد زاد الله فى النيل المبارك احدى عشرة أصبعا فى دفعة واحدة ، ثم فى اليوم الخامس من

فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعا من ثماني عشرة ذراعا وذلك فى أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج جماعة كثيرة من المماليك السلطانية المعينين الى التجريدة ، وقد رسم لهم السلطان بأن كل من انتهى شغله يخرج ويسافر قبل الباش ، فخرجوا أفواجا أفواجا واستمروا على ذلك فى كل يوم تخرج منهم جماعة بعد جماعة .

***

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثالثه خلع السلطان على يوسف البدرى الوزير كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وعلى مقدم الدولة ، خلع الاستمرار ، ونزلوا من القلعة فى موكب حفل ، حتى رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس المذكور أشيع أن السلطان قبض على جانى بيك الأستادار الذى كان دوادار الأمير طراباى ، وكان السلطان ندبه بأن يتكلم فى الأستادارية نيابة عن الأمير طومان باى الدوادار ، فخلع عليه ، فلما تكلم فى الأستادارية أظهر الظلم والجور ، وصار لا يراعى من الأنام خليلا ، فعادى سائر الأمراء والعسكر قاطبة بسبب الحمايات وأمور البلاد . فكان يرسم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات بسبب الحماية ، ويرسل الرسل الغلاظ الشداد الى بيوت الأمراء المقدمين ويطالبهم بالحماية الطلب العسف ، حتى ضج منه الأمراء والعسكر . فكان يأخذ حماية سنة معجلا قبل أن يطلع النيل وكذلك الشياخة ، وكان السلطان قربه أولا وصار لا يقبل فيه شكوى ، وكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقه ، فلا زال بعض أعدائه يتكلمون فى حقه عند السلطان حتى غيروا خاطره عليه بالكلية ، فانقلب عليه كأنه ما يعرفه قط . فلما رسم عليه انتدب الى حسابه نور الدين على البرماوى البرددار بالخدم الشريفة وجماعة من المباشرين ، فدققوا عليه الحساب وحاسبوه على الفتيل والنقير والقطمير والقليل والكثير ، حتى قيل حاسبوه على ما كان يدخل اليه من الضيافات والتقادم وغير ذلك ، فقيل بقوا عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار على ما قيل ، واستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الأحد سادسه جلس السلطان بالميدان وحضر عنده قاصد ابن عثمان وسائر الأمراء المقدمين ، فجلس قاصد ابن عثمان فوق أمير كبير سودون العجمى باذن السلطان له ، عند السلطان فى المقعد ، وساق قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر كما يفعلون فى لعب الرمح عند دوران المحمل فى رجب ، وكان لهم مدة طويلة وهم يدمنون فى لعب الرمح كما جرت به العادة القديمة ، فكان المعلم تمر الحسنى أحد المقدمين الألوف ، ويعرف بالزردكاش أيضا ، وأما الباشات الأربعة وهم الأمير كرتباى بن قصروه والى القاهرة والأمير أزبك بن دولاتباى والأمير اينال الأشقر الأشرفى والأمير مصرباى الأبو بكرى ، فأظهروا فى لعب الرمح الفنون الغريبة حتى تحير القاصد من ذلك وتعجب غاية العجب ، ثم فى أواخر السوق نزل المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارسا وباسوا الأرض للسلطان ، وقد أحدث ذلك الأشرف قايتباى لما كان يسوق فى دوران المحمل فكان

ينزل عن فرسه ويبوس الأرض للسلطان خشقدم في وسط الرمله ، وكان السلطان قصد سوق الرماحة قدام القاصد عمدا حتى يريه فروسية عسكر مصر ، وكان ذلك عين الصواب ، فاجتمع في الميدان فى ذلك اليوم الجم الغفير من الخلائق ، وكان يوما مشهودا ، فساق الرماحة فى ذلك اليوم مرتين ، ثم لعب بعد ذلك جماعة من المماليك خصمانية فى الرمح ، والقاصد ينظر اليهم ويتعجب من ذلك ، فلما انقضى أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل الى البحرة التى أنشأها فى الميدان ، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسمطة حافلة وأظهر أنواع العظمة فى ذلك اليوم الى الغاية ، ثم خلع على قاصد ابن عثمان خلعة سنية وأذن له فى السفر صحبة العسكر ، ثم بدا للسلطان بأن يعوق قاصد ابن عثمان الى أن يحضر اينال باى دوادار سكين ، فلم يخرج صحبة العسكر كما أشيع قبل ذلك أمر سفره مع الأمراء ، ثم خلع السلطان فى ذلك اليوم على الأمير تمر المعلم وأركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وخلع على الباشات الأربعة كما جرت به العادة القديمة ، وقد جدد السلطان ذلك بعد ما كان قد نسى أمره من أيام الأشرف قايتباى ، فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفى يوم الاثنين سابعه خرج الأمراء المعينون للتجريدة وهم الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر المنصور والأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين والأمير أبرك مملوك السلطان أحد الأمراء المقدمين وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، فكان لهم يوم مشهود . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، فأظهروا غاية العظمة فى ذلك اليوم فى تزخرف الأطلاب ، حتى ارتجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وكان طلب أمير آخور كبير غاية فى الحسن ما أبقى فيه ممكنا ، وكذلك بقية الأمراء ، ثم ان السلطان خلع على أمير آخور خلعة السفر ونزل من القلعة فى موكب حفل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين ، فاستمروا صحبته حتى نزل فى الوطاق بالريدانية .

وفى يوم الثلاثاء ثامنه كان أول يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية ، سنة عشرين وتسعمائة الخراجية وكان هذا اليوم عند الأقباط له شأن عظيم وكان يقع لهم فيه أخبار غريبة . وهو أول الأيام من توت من أول الشهور القبطية .

وفى يوم الأربعاء تاسعه أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتسليم جانى بيك الأستادار الى الزينى بركات بن موسى ليعاقبه حتى يستخلص منه الأموال التى قررت عليه . وكان السلطان قرر عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار فامتنع جانى بيك من ذلك وتكلم بكلام يابس . فلما بلغ السلطان ذلك حنق منه ورسم بتسليمه الى الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الخميس عاشره أشيع بين الناس أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم قد انتصر على الصفوى وملك منه أرزنكان وتبريز ، فلم يثق السلطان بهذا الخبر وتثبت حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فيدق الكوسات ، ولكن سر السلطان بهذه الاشاعة وأمر بأن تقرأ عدة ختمات فى أماكن من الجوامع ، فقرىء فى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه سبعون ختمة بالجبرتية ، وقرىء فى مقام الامام الليث بن سعد رضى الله عنه عدة ختمات ، وكذلك فى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وفى جامع أحمد بن طولون ، وفى الجامع الأزهر

وغير ذلك من الجوامع التى بالقاهرة ، وارسل لكل جامع من الجوامع مبلغا بسبب القراء ، وعمل أسمطة للفقراء فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفى يوم الاثنين رابع عشره نزل الزينى بركات ابن موسى من القلعة وقدامه عبد من عبيد ابن عوض وقد رسم السلطان بتوسيطه ، وسبب ذلك أنه قيل عنه كان يعرف ذخائر أستاذه شمس الدين ابن عوض ولم يقر بمكان فيه المال ، وعاقبه ابن موسى وسجنه فى المقشرة مدة ولم يقر بشىء من المال ، فحنق منه الزينى بركات فشاور عليه السلطان فرسم بتوسيطه ، فوسطه عند قنطرة الحاجب ولم يقر بشىء من المال الذى كان يعلم به . فراح ظلما ان علم بالمال أو لم يعلم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو مصر العتيقة بعد أن صلى صلاة الفجر ، فلما وصل الى فم السد نزل من هناك فى مراكب قدمت اليه ، وكان صحبته جماعة من الأمراء منهم الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، والأمير تمر أحد المقدمين والأمير علان الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، وجماعة كثيرة من الخاصكية ، فتوجه الى بر الجيزة واستمر حادرا من هناك الى بولاق فطلع الى البرابخية ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا عزم عليه هناك ، فلما استقر هناك هو والأمراء أحضر كاتب السر بين يدى السلطان مدة عظيمة ما أبقى فيها ممكنا وأتبعها بطوارى حفلة ما بين حلوى وفاكهة ومخبوز وغير ذلك من المآكل الفاخرة ، فبات السلطان عنده تلك الليلة فى البرابخية ، فكان سماط العشاء أعظم من سماط الغداء ، وقيل أحضر فى الطارى بعد الظهر أربعين خروفا شوى وقيل ثلاثين وخمسين جفنه فيها جذابة ، ثم مد له فى اليو الثانى سماطا للغداء فقيل ان القاضى كاتب الس صرف على تلك المدات فوق الألف دينار ، فلد تغدى السلطان عنده نزل هو والأمراء فى المراكب وتوجه الى المقياس فأقام به الى أواخر النهار ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، فلما طلع أرسل اليه القاضى كاتب السر تقدمة حفلة ما بين سمور ووشق وسنجاب وصوف وجوخ وبعلبكى وغير ذلك ، وقيل أرسل اليه ذهب عين ما علم قدره ، ومملوكا جركسيا مليحا . قلت والقاضى كاتب السر هذا هو آخر رؤساء مصر من المباشرين .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره وقعت نادرة غريبة وهى أن قاصد ابن عثمان الثانى الذى جاء وزعم أن العرب سرقوا بقجته من تحت رأسه وفيها مطالعة ابن عثمان وتنكد السلطان بسبب ذلك ، فلما حضر بين يدى السلطان صار يعتذر له مما سرق له ، فأقام فى مصر أياما فأرسله السلطان الى القاصد الذى جاء فى الأول فأنكر أمره وقال ان ابن عثمان لم يرسله وأن هذا القاصد لم يكن من جماعة ابن عثمان ، فاستمر بمصر الى أن طلب الاذن من السلطان فى العود الى بلاده فأذن له فى ذلك وأنعم عليه بمال له صورة ، فلما خرج وسافر وقع بينه وبين رفيقه بسبب المبلغ الذى حصل له فلم يعط رفيقه منه شيئا ، فلما وقع بينهما رجع رفيقه ونم عليه عند السلطان بأن هذا داسوس من عند حسن بن أحمد بيك بن عثمان الذى حضر أبوه الى مصر ومات بها بالطاعون كما تقدم ذكر ذلك ، وهو الآن عند الصفوى مقيم وأرسل هـ القاصد ليستفهم الأخبار بما جرى فى مصر . و هذا القاصد نصب على النواب وأخذ منهم مبلـ له صورة ، فلما تحقق السلطان ذلك رسم

القاصد من الطريق ، فلما حضر بين يدى السلطان قصد أن يشنقه ثم سلمه الى الوالى فشكه فى الحديد ونزل به ماشيا على أقدامه والمشاعلية تنادى عليه هذا جزاء من يكذب على الملوك ، ثم توجه به الى المقشرة فسجن بها ، وقيل رسم السلطان الموالى بأن يعاقبه ويستخلص منه ما كان أخذه من النواب من المبلغ والتقادم التى دخلت عليه .

وفى يوم السبت تاسع عشره نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وأقام هناك الى يوم الأحد أواخر النهار وانشرح الى الغاية .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه أذن السلطان الى قاصد ابن عثمان بالسفر ، وهو الذى حضر أولا ، وكان من أمرائه المقدمين قيل انه أمير آخور كبير عند ابن عثمان ، فلما طلع رسم السلطان بأن يزين باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق ، وكذلك باب القلعة وباب سلم المدرج ، فلما طلع القاصد عمل السلطان الموكب بالحوش وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء ، وكان الموكب حافلا ، ثم خلع السلطان على القاصد خلعة معظمة وهى كاملية جر ذهب شغل القاعة بسمور عال ، وفوقها فوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب ، وخلع على من معه من جماعة ابن عثمان سلاريات صوف بسمور عال ... ونزل القاصد من القلعة فى موكب حافل وصحبته الرءوس النوب ، ثم أخذ فى أسباب الخروج الى السفر .

وفى ذلك اليوم المقدم ذكره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير اينال باى دوادار سكين الذى كان توجه الى سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقد توجه اليه بعد مجىء أقباى الطويل ، فلما قابل ابن عثمان أكرمه وأقبل عليه وميزه على أقباى واستحسن كلامه فى رد الجواب وشكره على أقباى ، فلما قصد التوجه الى مصر خلع عليه خلعة سنية وأنعم عليه بمال له صورة ، وكتب معه مطالعة للسلطان ونعته فيها بأنعات عظيمة وبالغ فى تعظيمه ، وقيل ان ابن عثمان أظهر فى مكاتبته بعض تعاظم بكثرة عساكره وشدة بأسه ، فلم يلتفت السلطان الى شىء من ذلك .

* * *

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فسلموا على السلطان وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم السبت رابعه أشيع بين الناس أن قد حضر ساع ، وأخبر بأن سليم شاه ابن عثمان قد انتصر على الصفوى وملك بعض ضياع بديار بكر وأشيع أنه ملك تبريز أيضا ، فعند ذلك تثبت السلطان ولم يدق الكوسات حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فى ذلك ، وفى هذه الأيام كثر القيل والقال بين الناس بأن ابن عثمان قد أسر الصفوى ووضعه فى حديد وطاف به فى البلاد ، ولم تصح هذه الأخبار بل اشاعات بين الناس .

وفى يوم الاثنين سادسه حضر سيف حاجب طرابلس ، وكان أصله من مماليك الأشرف قيتباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة عاشر شعبان رسم السلطان بفتح سد خليج أبى المنجا ، ووافق ذلك ثانى بابه وقد تأخر فتحه عن العادة الى اليوم وفات أوان ميعاد فتحه . وكان النيل يومئذ فى خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا وقد حصل به غاية المنافع وعم البلاد قاطبة ، واستمر النيل فى ثبات

على ماذكرناه الى أواخر بابه لم يتهبط منه شيء .

وفى ذلك اليوم وقعت حادثة مهولة ، وذلك أن فى يوم فتح سد أبى المنجا توجه الأمير كرتباى والى القاهرة الى فتحه ، فلما توجه الى هنـــاك أوسق مركبين فيهما مطابق فيها آكل حلوى وفاكهة وكان فى المركبـــين شيء من الفـــرش والقمـــاش والأوانى ، فلما وصلا الى قناطر أبى المنجا قوى عليهمـــا تيار الماء ، فانقلب هـــذان المركبان بما فيهما مما ذكرناه فغرقا بكل ما كان فيهما جميعا وغرق للوالى مملوك من مماليكه الخاص وبعض غلمان ، وكان ذلك اليوم مهولا وما جـــرى على الوالى فى ذلك اليوم خير .

وفى يوم الأربعاء خامس عشر شعبان ، الموافق لسابع بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا ، وكان هذا النيل المبارك أزيد من نيل السنة الخالية باحدى عشرة أصبعا .

وفى أثناء هذا الشهر نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وكانت ليلة مقمرة ، فمد له الزينى بركات بن موسى هناك مدات حافلة ، وما أبقى فى ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى وفاكهة وسمك وخرفان شوى وغير ذلك . وحضر عند السلطان مغانى وأرباب آلات وانشرح هناك الى الغاية ، وأقام فى القبة يومين ، وكانت الملقة معمرة بالماء وهى فى غاية البهجة ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر .

وفى هذا الشهر كان الأمير خاير بيك الخازندار مريضا على خطة وأشيع موته غير ما مرة ، واستمر على ذلك وهو مريض ملازم للفراش والاشاعات قائمة بموته فى كل يوم .

* * *

وفى يوم الخميس كان مستهل شهر رمضـــان فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فجلس السلطان بالميـــدان ، وطلع الوزير يوسف البـــدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على رؤوس الحمالين ، فخلع السلطان عليهمـــا وخلع على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الخلع السنية ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وأما فى ليلة رؤية الهلال فحضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصـــورية ، وحضر الزينى بركات بن موسى المحتسب ، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفض المجلس ، ركب الزينى بركات بن موسى من هناك فتـــلاقاه الفوانيس الأكرة والمجانيق والمشـــاعل والشـــموع الموقودة ، فلم يحص ذلك لكثرته ، ووقـــدوا له الشموع على الدكاكين . وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين الى سوق مرجوش الى الخشابين الى سويقة اللبن الى عند بيته ، فارتجت له القاهرة فى تلك الليلة ، وكانت من الليالى المشهودة ، وأطلقوا له مجامر بالبخور بطول الطريق ، وكان ذلك يعادل المواكب السلطانية ، وكان الزينى بركات بن موسى محببا للناس قاطبة فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان له سعد خارق لم يقع لغيره من الناس الا القليل ، ولا سيما ما اجتمع فيه من الوظائف السنية ما لا اجتمع فى أحد من الأعيان قبله منها الحسبة الشريفة واســـتادارية الذخـــيرة وغير ذلك من الوظائف والتحدث على الجهات من البلاد السلطانية .

وفى يوم السبت ثالثه جاءت الأخبار من بلاد الشرق صحبة السعاة من بعض النواب بأن سليم شاه ابن عثمان سلطان الروم وقع بينه وبين شاه اسمعيل الصفوى وقعة مهولة تشيب منها النواصى ،

وقتل من عسكر ابن عثمان نحو من ثلاثين ألفا ، وقيل نحو ستين ألفا ، وقتل مثل ذلك من عسكر الصفوى ، فكان بينهما من الحروب المهولة ما يطول شرحه ، وكان ذلك فى سادس رجب سنة عشرين ، وقيل قتل من أمراء ابن عثمان اثنـا عشر أمـيرا مقدم ألف ، وقتل من عسكر الصفوى أضـعاف ذلك ، وقيل كانت هذه الواقعة بالقرب من تبريز العجم ، وكانت الكسرة أولا على ابن عثمان وآخر الأمر أن الصفوى انكسر كسرة قوية ، وقتل غالب عسكره وانهزم الباقون ولم ينج منهم الا القليل ، وأشيع أن الصفوى قد قتل فى المعركة ووجد تاجه مرميـا على الأرض ، وقد تواترت الأخبار بذلك وقويت الاشاعات بقتله والله أعلم بحقيقة ذلك .

وأشيع أنه واصل عقيب ذلك عدة رءوس ممن قتل من عسكر الصفوى من أعيان أمرائه وعسكره وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصفوى من ممالك الشرق ، فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر ، وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان ، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك الى جهة بلاد السلطان .

وفى يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير خاير بيك الخازندار الكبير ، أحد الأمراء المقـدمين وصهر السلطان زوج أخته قـديما ، فأخرجت جنازته من بيته الذى عند جامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه الى سبيل المؤمنين فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليـه . وكانت جنازته حافلة ومشت فيها قضاة القضاة والأمراء المتقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان ، ودفن فى تربته التى أنشأها بالصحراء ، وكان أصـله من مماليـك الظاهر خشقدم ، وكان متزوجا بأخت السلطان قانصوه الغورى من حين كان جمدارا ، فلما تسلطن الغورى أنعم عليه بامره عشرة ، ثم بقى خازندارا كبيرا عوضا عن عبد اللطيف الزمام بحكم وفاته ، ثم صار أمين السلطان على خزائن الأموال وغيرها ، وصـار لا يقضى أمر من أمور المملكة دون علمه ، ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف فتزايدت عظمته وتضاعفت حرمته ، ونال من العز والعظمة ما لا ناله أغاته الأمير خـاير بيك الخازندار مملوك الظاهر خشقدم فى دولة أستاذه فى أيام خازنداريته . ولكن كان خاير بيك هذا عنده رهج وخفة وبادرة بسفاهة مع حدة زائدة ، وكان اذا رسم السلطان بأمر لا يراجعه فيه الا الأمير خاير بيك ولا يكون الا ما يقوله الأمير خاير بيك ، وكان له محاسن ومساوىء ، وكان له الادلال الزائد على السلطان ، وكان عنده من المقربين . وتوفى الأمير خاير بيك وله من العمـر نحو ثمانين سنة ، ولما مات ظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وسلاح وتحف وخيول وبغال وجمال وغير ذلك من الموجود الحافل ، وقد تكلموا على موجوده بأشياء كثيرة لكننى لم أقف على صحتها فلم أوردها هنـا خوف الاعتراض على فى ذلك ، وهذا القدر كاف هنا .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى مدرسته ، وعرض الأيتام والصوفية الذين بها ، ورسم للأيتام بكسوة ، وأقام هنـاك الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس خـامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة ماماى السلحدار أحـد الأمراء العشراوات ، الذى كان توجه للشام بسبب تزويج ابن السلطان ببنت سيباى نائب الشام ، فتوجه الى الشام بالمهر وعقد العقد لابن السلطان فتعلل نائب الشام وقال أنا ابنتى صغيرة عمرها ست سنين لم تستحى للزواج ، وكان له ابنة أكبر من هذه

توفيت فى السنة الخالية لما وقع الطعن بالشـام وكانت هى المقصودة للزواج ، فلما ماتت قصـد السلطان أن يعقد لابنه على البنت الصغرى فلم يوافق نائب الشام على ذلك وتعلل بأنواع العلل ، فلما طلع الأمير ماماى الى بين يدى السلطان خلع عليه وعلى الخواجا يونس العادلى ونزلا من القلعة فى موكب حافل .

وفى ذلك اليـوم أنفق السـلطان الكسوة على العسكر مع الجامكية . ولما حضر الأمير ماماى الى القاهرة حضر صحبته من الناس ما لا يحصى من أهل حلب وغير ذلك من الناس ، فكان فى هـذا القفل من أهل حلب عدد كبير ، وسبب ذلك أن العسكر لما دخل الى حلب جرى على أهل حلب من مماليك السلطان الجلبان ما لا خير فيه ، نزلوا فى بيوتهم ، ونهبوا أمتعتهم ، وفسـقوا فى حريمهم وأولادهم وعيالهم ولم يسمعوا للبـاش ولا نائب حلب ، فوقع بين مماليك السـلطان الجلبان وبين مماليك نائب حلب فتنـة مهولة وكادت حلب أن تخرب عن آخرها وهم أهلها بالجلاء منها ، وغضب نائب حلب ، وخرج من حلب الى الفضاء وأقام به بسبب مماليك السلطان الجلبان فلم يسمعوا من كبير ولا صغير ، وأشيع بين الناس بأن قرقماس المقرى قد قتل فى هذه المعركة ، وقيل ان مماليك الأتابكى دولات باى هم الذين قتلوه ، فانه كان اتهم بقتل أستاذهم دولات باى بأنه قد أشغله ، والله أعلم بحقيقة ذلك ان كان قتل أم لا .

فلما جرى ذلك بحلب خشى غالب أهلهـا على عيالهم وأولادهم فأرسلوهم الى مصر صحبة ذلك القفـل المقـدم ذكره . واستمر أهل حلب مع المماليك الجلبان فى اضطراب زائد ، وربما يقع بسبب ذلك فتنة كبيرة بين الأمراء وبين مماليـك السـلطان الذين هنـاك ، فان الأحوال مضطربة والأمور غير صالحة

وأما ما أشيع من الأخبار صحبة هذا القفل الذى حضر من حلب ممـا كان بين ابن عثمـان وبين الصفوى من أمر هذه النصرة على الصفوى ، قيل ان فى سادس رجب من هذه السنة وقع بين ابن عثمان وبين الصفوى وقعة مهولة بالقرب من تبريز : فكسر الصفوى ابن عثمان أولا كسرة قوية وقتل من أمرائه الأعيان اثنا عشر أميرا مقـدم ألف غير الأمراء الذين دونهم ، وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفا وفيـل أكثر من ذلك ، وكانت الكسرة على ابن عثمـان أولا . ثم ان ابن عثمـان أحضر اثنى عشر ألف رام بالبندق الرصاص وتلاقى مع الصفوى فكسر الصفوى كسرة قوية ، وقيل انه جرح وولى مهزوما فلم يعلم له خبر ، وقيل ان ابن عثمان أسر أمراء الصفوى وحز رقابهم وأرسلهم الى بلاد الروم ، فزينت له المدائن بالروم ، مدينة اسطنبول وغيرها من المدائن . وقيل قتل من عسكر الصفوى ما لا يحصى عددهم ، ثم ان ابن عثمان ملك تبريز بالأمان ، وكذلك قاشان وسيواس وغير ذلك من البلاد مما كان بيد الصفوى ، وخطب له باسمه بها على المنابر . وكانت هذه النصرة لسليم شاه ابن عثمان على غير القياس ولم يقع لأحد من أجداده مثل هذه النصرة قط ، والكلام فى ذلك كثير ان صحت هذه الأخبار من أمر هذه النصرة .

وفى أثناء هذا الشهر توفى القاضى بدر الدين ابن الانبابى كاتب جيش الشام رحمة الله عليه ، وقرر فى وظيفته الشرف يونس النابلسى الأستادار كان ، وكان بدر الدين لا بأس به .

وفى يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان قلع السلطان البياض ولبس الصـوف ، ووافق ذلك

سابع هاتور القبطى ، وهى العادة القديمة فى لبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الناصرى محمد ابن قجق نديم السلطان ، وكان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصنعة الأنغام ، وكان لطيف الذات عشير الناس ، فكانت جنازته حافلة ومشى فيها أعيان الناس ، حتى أعيان مغانى البلد والآلاتية قاطبة فانه كان شيخهم ، وكان من المقربين عند السلطان .

وفى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن المماليك السلطانية أثاروا بحلب فتنة مهولة وركبوا هناك على الأمراء وطردوهم عن حلب وقالوا لهم : أرسلوا قولوا للسلطان ينفق علينا لكل مملوك خمسين دينارا كما أنفق على مماليكه الجلبان قبل ذلك ، وأشاعوا عنهم أخبارا شنيعة الى الغاية ، وأن الأحوال مضطربة بحلب والأمور غير صالحة . فتنكد السلطان لهذا الخبر الى الغاية ، وضرب مشورة هو والأمراء بسبب هذه الحادثة .

وقيل انه عين الأمير اينال باى دوادار سكين بأن يتوجه الى حلب ، ويكشف عن صحة هذه الأخبار الشنيعة ويطالع السلطان بذلك . وقد كثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم ، وكان ختما حافلا بالمقعد الذى بالحوش السلطانى .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة الأمير شاهين الجمالى شيخ الحرم النبوى ، وكان أصله من مماليك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص علاء الدين بن الامام خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الخميس المذكور حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان تتضمن أخبار هذه النصرة التى وقعت له على اسماعيل شاه الصفوى . وذلك أن فى يوم الأربعاء سادس رجب الفرد سنة عشرين وتسعمائة تلاقى عسكر سليم شاه ابن عثمان مع عسكر اسماعيل شاه الصفوى على مكان بالقرب من تبريز يقال له اسكندران ، فكان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرءوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل ، واستمر الحرب ثائرا حتى حال بينهما الليل ، فسكر القوم من خمر ذلك الحرب ، وتراقصت الخيول على وقع السيوف الداخلة فى الضرب ، فقتل من العسكرين ما لا يحصى عددا ، وانهزم الباقون وتبدد شملهم بددا ، فيالها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، حتى قيل قتل من أمرائه سبعة عشر أميرا أصحاب صناجق ، وقتل من عسكره نحو النصف ، فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة كادت روحه أن تزهق من شدة قهره ، ثم قام على عسكره وحضهم على القتال فقوى عزم عساكر الروم على القتال وأتوا بالصارم البتار ، وقال لسان حالهم الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار ، فوثبوا على عساكر الصفوى وثوب الليث الهمام ، وبايعوا أنفسهم فى

بلوغ المرام ، وقيل ان ابن عثمان كان فى جاليش عسكره اثنا عشر ألف رام بالبندق الرصاص ، فلما زحفوا على عسكر الصفوى عمهم الدهوة ، ولم يحملوا معهم غلوة ، فانكسر الصفوى وولى مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم ، فيقال ان الصفوى جرح وهرب فى نفر قليل من عسكره ولم يثبت أنه قد قتل فى المعركة كما أشيع عنه فيما تقدم ، وقيل قتل من أمرائه جماعة كثيرة منهم صاحب ديار بكر ويسمى سيحلى محمد وأولاده ، وغير ذلك من أعيان عسكره وأمرائه ما لا يحصى عددهم ، وكانت النصرة لسليم شاه ابن عثمان على الصفوى من النوادر الغريبة ، كما يقال :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

ثم ان ابن عثمان حز رقاب من قتل من أمراء الصفوى وأرسلها الى بلاده ، فطافوا بها هناك وعلقت على أبواب مدائن الروم . ولم تقع مثل هذه النصرة لأحد من أجداد سليم شاه ابن عثمان ، ولا لوالده السلطان أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن أورخان ؛ لما زحف تمرلنك كسره وأسره ووضعه فى قفص من الحديد وصار يدخل به البلاد ويعجب عليه ، فما طاق يلدرم ذلك فبلع له فصا من الماس فمات وهو فى القفص الحديد وأمره مشهور .

ووقع لوالده السلطان أبى يزيد لما زحف على البلاد السلطانية فى أيام الأشرف قايتباى ، فكسر الأشرف قايتباى عسكره ثلاث مرات ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، ودخل بجماعة من عسكره أسرى الى مصر فى الحديد وصناجق أمرائه منكوسة ، وحصل على عساكر الروم ما لا خير فيه .

فكان لسليم شاه سعد خارق بهذه النصرة على الصفوى ووقع له ما لا وقع لأبيه ولا لأجداده وهذا أمر الهى .

فلما وقع لسليم شاه ذلك رجع الى بلاده ليشتى بها ، وبعد الشتاء ما يعلم ما يكون بينه وبين الصفوى من الحروب المهولة . فلما رحل ابن عثمان جعل على تبريز نائبا من أمرائه وكذلك على البلاد التى ملكها من أيدى الصفوى ، فاستناب له بها نوابا من أمرائه ثم رحل عن بلاد الصفوى .

فلما حضر قاصد سليم شاه ابن عثمان بين يدى السلطان ، وقرئت مكاتبته بحضرة الأمراء ، خلع على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصرة كاملية مخمل أحمر كفوى بسمور عال من ملابيسه ، ثم نزل القاصد من القلعة ولم يرسم السلطان بدق الكوسات بالقلعة ، ولم يناد فى القاهرة بالزينة لأجل هذه النصرة ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وأشيع عن قرقماس المقرى بأنه فى قيد الحياة ، ولم يثبت موته كما أشاعوا عنه بما تقدم من الاشاعات الفاسدة .

* * *

وفى شوال كان مستهل الشهر يوم السبت ، وكان ذلك اليوم عيد الفطر فخرج السلطان الى صلاة العيد ، فصلى ثم خلع على الأمراء ومن له عادة بالخلع السنية ، وكان موكب العيد حافلا كما جرت به العادة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوادار سكين ، وأذن له بأن يتوجه الى حلب بسبب رد الجواب على الأمراء والعسكر السلطانى فيما أرسلوا يسألون فيه من أمر النفقة ، وهى الخمسون دينارا التى أثاروا الفتنة بحلب بسببها ، وبهدلوا الباش قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وعين له القتل المماليك القرانصة والجلبان ، وقالوا : « أنفق فى السنة الخالية على مماليكه الجلبان لكل واحد منهم خمسون دينارا ولم يعط

المماليك القرانصة شيئا ، فمثل ما أنفق على مماليكه ينفق علينا نحن أيضا والا ننهب أسواق حلب » ! فأرسل لهم السلطان الجواب عن ذلك بما تقتضيه الآراء الشريفة ، فتوجه اينال باى بمراسيم شريفة تقرأ على الأمراء والعسكر بحلب عن الجواب فى ذلك .

ثم ان السلطان بعد أن خلع على الأمير اينال باى ورسم له بالسفر فعوقه عن السفر من بعد ذلك أياما لأمر أوجب ذلك مما عنّ له ، ثم سافر بعد ذلك فى العشرين من هذا الشهر ، وكذلك قاصد ابن عثمان المقدم ذكره .

وفى اليوم المذكور خلع السلطان على قاصد ابن عثمان الذى حضر بأخبار النصرة على الصفوى فخلع عليه وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب بالتهنئة عن أمر هذه النصرة التى تمت .

ومن الحوادث أن السلطان أنشأ سوقا بالقرب من خان الخليلى يباع فيه الرقيق ، وأبطل السوق القديم الذى كان يباع فيه الرقيق ، وصار العمل على هذا السوق من يومئذ .

ومن النوادر الغريبة أن الأمير خاير بيك الخازندار لما توفى رسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار والزينى بركات بن موسى المحتسب ، بأن يتوليا ضبط موجود الأمير خاير بيك الخازندار ، فلما شرعا فى ذلك ظهر له موجود يقرب من موجود سلار الناصرى نائب السلطنة كان ، فظهر له فى أول يوم من الذهب العين ثلاثة وثمانون ألف دينار ، وزعم السلطان أنه لما حصل له التوعك فى عينه أودع عنده خمسمائة ألف دينار فلم يظهر للسلطان منها شىء وخفيت تحت الأرض ولم يعلم مكانها ، ومات خاير بيك عن غير وصية ولم يخلص ذمته فيما عليه من حقوق الناس الذين كان يقطع مصانعتهم ويأكل حقوقهم ، فلما ضاعت على السلطان تلك الوديعة صار يفل الرحمة على الأمير خاير بيك ولم يقرأ له ختمة على قبره ولا صنع له مأتما ولا تصدق عليه برغيف خبز ، ثم ظهر له من بعد ذلك من المعادن والجواهر والفصوص الماس والياقوت الأحمر واللؤلؤ الكبار والتحف الفاخرة ما قوم بمائة ألف دينار ، ثم ظهر له ألف ثوب بعلبكى ومن الأثواب الصوف والأبدان السمور والوشق والسنجاب والقطع الجوخ وثياب البدن من سلاريات وجنينيات جوخ وغير ذلك ما قوم بخمسين ألف دينار ، وظهر عنده بشاخين زركش وأشياء من ثياب النساء تركة وحليهن ما لا يحصى ، وسبب ذلك أنه استولى على ست عشرة من تركات الخوندات والستات وأعيان الرؤساء من الملوك وغير ذلك ممن توفى فى دولة السلطان قانصوه الغورى ، وظهر له من الخيول والبغال والجمال ما لا يحصى ... فدخل ذلك الى الحواصل السلطانية ، وظهر له من الرزق والأملاك والبيوت والربوع والحوانيت وغير ذلك ما عنهم من الخراج وكرا أماكن فى كل سنة فوق العشرة آلاف دينار ، واستمر الحال على ذلك الى يوم تاريخه يظهر له فى كل يوم من الموجود أشياء جديدة ولم ينته ضبطه الى الآن وضاع له تحت الأرض وعند الناس أضعاف ذلك ، فكان موجوده اذا قوم جميعه يقارب أربعمائة ألف دينار ... ومع هذا المال الجزيل لم يلهم الله تعالى الأمير خاير بيك عند موته أن يبر ابن استاذه الظاهر خشقدم بشىء من المال فى الباطن حتى يستعين بذلك على فقره ووفاء دينه ، فعد ذلك من مساوىء خاير بيك ولم يثن عليه أحد بعد موته بخير قط ، فذهبت عنه الدنيا وفاتته الآخرة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

ولما توفى الأمير خاير بيك أشيع أن السلطان عين تقدمه الأمير خاير بيك الى أقباى الطويل امير آخور ثانى ، وأنعم على ولده المقر الناصرى محمد بامرة طبلخاناه ، وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضا عن خاير بيك بحكم وفاته ، فتزايدت عظمة سيدى ابن السلطان وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاث عشرة سنة . وقد تقدم القول على أن السلطان أرسل يخطب بنت ملك الأمراء سيباى نائب الشام الى ولده المذكور ، فتعلل نائب الشام على أن ابنته صغيرة ، وكان اسمها فاطمة وتدعى أيضا شقرا ، وقيل انها جميلة عمرها ثمانى سنين ولم تستحق للزواج ، فأرسل السلطان يقول له : لا بد من ذلك وأرسل له عشرة آلاف دينار مهرها . فلما رأى السلطان قد صمم على ذلك قبل المهر وأجاب بالسمع والطاعة وأذن فى تزويج ابنته الى ابن السلطان . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وفرق على المماليك الذين أخرج لهم الخيل والقماش ، ففرق عليهم فى ذلك اليوم السيوف والزرديات والتراكيش ، وكانوا نحو مائة وستين مملوكا من جلبانه .

وفى يوم الجمعة رابع عشر شوال فيه كان عقد المقر الناصرى محمد بن السلطان على ابنة ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فكان الوكيل عن ابن السلطان الأتابكى سودون العجمى ، والوكيل عن سيباى نائب الشام الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وكان جملة الصداق نحو عشرين ألف دينار : من ذلك عشرة آلاف دينار معجلا وعشرة آلاف دينار حال . وكان العقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمى الشافعى والقاضى شمس الدين السمديسى الحنفى والقاضى جلال الدين ابن قاسم المالكى والقاضى شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وحضر سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا وأعيان المباشرين قاطبة . فلما فرغ السلطان من صلاة الجمعه فرشت له مرتبة على باب المقصورة فجلس عليها ، وجلست الأمراء حوله بالشاش والقماش والقضاة الأربعه ، وجلس نواب القضاة عند المحراب ، ثم خطب قاضى القضاة الشافعى خطبة النكاح ، وطافوا على الحاضرين من الأعيان بنحو عشرين سلطانية صينى فيها سكر ، ثم ان السلطان خلع على القضاة الأربعة كوامل صوف أبيض بسمور ، وخلع على الأتابكى سودون العجمى والأمير طومان باى الدوادار كوامل مخمل أحمر بسمور ، كونهما وكيلين فى العقد ، وخلع على محب الدين الحلبى امام السلطان كاملية صوف بسمور ، ثم قام السلطان وانفض المجلس فى نحو خمس درج ، وقد قال القائل فى المعنى :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهى كما شاء الاله وأظهرا
سنى المعالى يسرت حركاته
اذا الله سنى أمر عقد تيسرا

ولم يقع فى هذا العقد ما هو كبير أمر من الأفعال الملوكية ، وأين هذا مما وقع للخليفة المأمون بن هرون الرشيد لما أن عقد له على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، قال صاحب كتاب « الاكتفاء فى تواريخ الخلفاء » : « ان الحسن بن سهل الوزير لما عقد المأمون على ابنته بوران ببغداد اجتمع أعيان بغداد من العلماء والأمراء والحجاب بالجامع الكبير ، فلما انفض ذلك الجمع نثر الوزير

الحسن بن سهل على رؤوس الأعيـان من الناس رقاعا مكتوب فيها أسماء ضياع وأمـلاك ، فمن وقعت بيده رقعة مكتوب فيها اسم ضـيعة أو ملك بعث الى صاحب الرقعة بتسليم ما فى الرقعة من ضيعة أو ملك » . وهذا من غرائب الأخبار ، وكان ذلك فى سنة عشر ومائتين من الهجرة .

ومما يحكى أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى زوج ابنه الملك السعيد بينت الأتابكى قلاوون الألفى ، وكان الملك الظاهر يظن أنه اذا زوج ابنه ببنت الأتابكى قلاوون يكون له من بعده عونا لولده على تقلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك وأخذ قلاوون الملك من أولاده ونفاهم الى الكرك ولم يفده من تلك المصاهرة شىء ولا راعاهم من بعـده . وكان ذلك فى سـنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فكان كما يقال فى المعنى :

ربمـا يرجو الفتى نفـع فتى
خـوفه أولى به مـن أمـله

رب من ترجو به دفـع الأذى
سـوف يأتيك الأذى من قبله

وفى ذلك اليوم سافر ماماى الغورى الخاصكى ، الذى عينه السلطان للتوجه الى جبل نابلس وغيرها من الجهات ، بسبب أمر المشاة الذين أفرد السلطان الأموال على البلاد بسببهم لأجل التجريدة المقدم ذكرها ... فخرج ماماى هذا ليجبى الأموال التى قررت على البلاد ، حتى قيل قرر على أهل جبـل نابلس من الأموال مائة ألف دينار وأربعة وعشرين ألف دينار بسبب المشاة ، ولم ينفق قط هذا لأهل جبل نابلس بل كان الأشرف قايتباى فى التجاريد التى كان يرسلها ينفق على الرجال المشـاة من حاصله لكل واحد منهم قدرا معلوما ، فلم يوافق السلطان على شىء من ذلك وأفرد على مشايخ جبل نابلس ما تقدم القول عليه من المال ، ومشايخ جبل نابلس يفردون ما قرر عليهم من المال على عربان جهة نابلس ، ولم يقدروا على بعض ذلك وسوف يخلون أهل جبل نابلس منه عن قريب .

وقرر على أهل الشـام مال له صورة بسبب المشـاة ، وكذلك أهل غزة ، وكذلك على اهل صفد وطرابلس ، وكتب بمعنى ذلك مراسيم على يد أمير آخور باش العسـكر بأن يفرد على اهل حلب مال بسبب المشاة ، وكذلك على أهل حماة ، فقيل قرر على كل انسان من هذه الجهات عشرون دينارا بسبب المشاة ، وهذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الأحوال وضعف أحوال الجند وعـدم عمارة البـلاد ... والأمـر فى ذلك الى الله تعالى ما شاء يفعل ، فأطلق النار فى تلك البلاد بسبب أمر المشاة .

وفى يوم السبت خامس عشره خرجت المدورة الى بركة الحجاج .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان الى قبة شـبك التى بالمطرية وبات بها ، ثم ركب يوم الأحد وتوجه الى بركة الحجـاج ، ورتب كيف ينصب الوطاق للأمراء الحاج . وكان ممن حج فى هذه السنة من الأعيان وهم المقر الناصرى محمد ابن السلطان ، وخوند زوجة السـلطان ، والقـاضى كاتب السر محمود بن أجا والأمير نانق الخازن ، وكان هو المتسفر على السنيح وكان من أخصاء السلطان .

أما أمراء الحاج الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين أمير ركب المحمل ، والركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور ابن الملك الظـاهر جقمق أمير الركب الأول ، والأمير جانى بيك قرا أحد الأمراء الطبلخاناه باش المجاورين . فجعل السلطان وطاق ابنه بين وطاق كاتب السر وبين وطاق طقطباى أمير

ركب المحمل ، ثم ان السلطان عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال فيـه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم متسـهود لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين المـاضية وذلك قد انسحب فيه أربعة أطلاب حافلة : طلب جانى بيك قرا باش المجاورين وكان حافلا ، ثم انسحب طلب سيدى عمر بن المنصور أمير الركب الأول وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم أشـياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقـدمون . ثم انسحب طلب المقر الناصرى سـيدى ابن السلطان فخرج بطلب حـربى وقدامه طبـلان وزمران وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتان هجن بأكوار زركش من ذهب بنادقة وبقية الأكوار مخمل ملون ، وانسحب فى طلبه عدة خيول بكنابيش زركش بغواشى حرير أصـفر ، وعـدة خيول نحـو طوالتين ملبسـة ببركستوانات فولاذ مكفتة ، وانسحب فى طلبـه نحو عشرين جملا مزينة بآلات الشراب خاناه من الأوانى الصينى واللازورد والزجاج البلورى وغير ذلك ، وأيضا أحمال مزينة بآلات الطشتخاناه من الأباريق الكفت والطسوت الكفت والشماعد وغير ذلك مما يحير الأبصار ، ومحفة جوخ أصفر مزهر فى آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجـة السـلطان فكانت غاية فى الحسن منتهى ما يعمل من المحفات ، فكانت محمل أحمر كفوى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها وأرضـية الثـوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ وفيها رصعات ذهب بفصوص بلخش وفيروز ، وحول نوب المحفـة بهرجان ذهب وفضة شقاق ، وقدام المحفة أربعة مشـاعل بفوط زركش بشراريب مثلث ، وقيـل صنعوا لخوند حمـاما من نحاس صفايح وداخلها أحواص نحاس وعلايات يصب منها الماء سـاخنا ، فعد ذلك من النوادر ... قيل ان مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار . وأما الرصافيات اللؤلؤ زعموا أنها رصافيات خوند زوجة الأشرف قايتباى صنعتها لما حجت فوجدت فى تركتها ، وكان خلف المحفة أربعة جمال غير الذى تحت المحفة ، وعليها كنابيش زركش على مخمل أحمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفة حاديان ، ونحو عشرين نفرا من الخدام حول المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين محارة مخمل ملون برسم عيال خوند وغيرها ممن يلوذ بها ، فلما شقت من الرملة ارتجت لها ، ولا سيما اجتمع بالرملة الجم الغفير من الأمراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصون لكثرتهم ، ثم طلعت المحفة من الصوة ونزلت من على باب الوزير وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة فى ذلك اليوم رجا .. ولم يكن من العادة القديمة أن محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .

وقد تقدم أن خوند زينب زوجة الأشرف اينال لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، بل طلعت من بين الترب ، وكذلك خوند الأحمـدية زوجة الظاهر خشقدم لم تشق محفتها من القاهرة ، ولا خوند زوجة الأشرف قايتباى لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، ولكن أشيع أن خوند زوجة السلطان لم تخـرج فى ذلك اليوم ولم تنزل من القلعة فشقوا بالمحفة من القاهرة ثم أعادوها من بين الترب الى القلعة حتى تنزل خوند . ويأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، ثم انسحب سنيح خوند وابن السـلطان فكان فيه ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء وغير ذلك من البرق الحافل . ثم انسحب طلب الأمير طقطباى أمير ركب المحمل فكان غاية

فى الحسن ، وهو منتهى ما يعمل فى الأطلاب الملوكية ، فانسحب فيه نحو مائتى فرس ما بين حيول ملبسة بركستوانات فولاذ مكفت ، وغير ذلك من المحمل الملون ، وخيول بكنابيش زركش ، وغير دلك من المحفات والأحمال المزينة ، فارتجت لهذه الأطلاب الرملة . ثم انسحب المحمل وقدامه ابن السلطان والأمراء الحاج والخاصكيه المسافرون الى الحجاز فطلعوا . وكان السلطان فى ذلك اليوم فى شباك القصر ينظر اليهم من القلعة ، فخلع السلطان على ولده متمرة وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، وخلع على امراء الحاج مثمرات ، وخلع على باش المجاورين كاملية صوف بسمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة فألبسه السلطان تشريفا وطرحاه هو وقاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء الحاج وصحبتهم الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين وسائر أعيان المباشرين . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة فى موكب حفل لم يقع مثله فى خروج الحجاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره .

وفى ذلك اليوم أشيع بأن قاصدا ثانيا واصلا من عند ابن عثمان ملك الروم ، فلما سمع السلطان بمجيء القاصد عوق اينال باى دوادار سكين عن السفر الى حلب حتى يسمع ما جاء فيه القاصد من الأخبار ، وقد تقدم القول على أنه خلع على اينال باى وأذن له بالسفر ثم عوقه عن السفر لأمر بدا له فى ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره نزلت خوند من القلعة بعد صلاة الفجر فجلست فى المحفة من باب الستار ، ثم نزلوا بها من دار البقر الى خلف القلعة وقدامها المشاعل والفوانيس ، وركب قدامها سائر المباشرين ومقدم المماليك وسائر الخدام من الطواشية ، وركب خلف محفتها من الخوندات والستات نحو ألف مكارى ، فاستمرت فى هذا الموكب الحافل الى بركة الحجاج .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى كاتب السر محمود ابن آجا فى محفة على بغال وتوجه الى بركة الحجاج وكان عليلا وله مدة على ذلك ، وكان الحاج فى هذه السنة لا يحصون عددا لكثرتهم ، وكان فى الركبين فوق العشر محفات للأعيان والأمراء والستات .

وفى يوم الخميس عشرينه أشاعوا أن اينال باى دوادار سكين قد خرج وسافر الى حلب بسبب ما تقدم ذكره من أمر النفقة التى أرسل يطلبها العسكر ، فمضى اليهم الجواب عن ذلك .

وفى يوم الجمعة حادى عشرينه رحل أمير أول من بركة الحجاج . وكذلك باش المجاورين .

ثم فى ليلة السبت طلوع القمر رحل ابن السلطان وخوند زوجة السلطان والقاضى كاتب السر ، ونادوا فى البركة أن أحدا من الحجاج لا يسافر صحبة خوند فى ركبها .

ثم فى يوم السبت ثانى عشرينه رحل المحمل من البركة ، وقد ضج الناس من كثرة الحجاج فى هذه السنة . وربما يخشى عليهم من موت الجمال وشدة البرد .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرينه جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان وهم باللبس الكامل من آلة السلاح الآدمية والخيول ، فعرض فى ذلك اليوم اربع طباق فعين منهم نحو مائة وخمسين مملوكا . وسبب ذلك أن السلطان كان له مدة طويله وهو يلهج بالسفر الى الاسكندرية

فقوى عزمه فى هــذه السنة على السفر الى ثغر الاسكندرية كما فعل الأشرف قايتباى .

ثم فى ذلك اليوم عرض آلة الطلب وهى الخيول الملبسة بالجواغين الفولاذ المكفت ، وعرض خيول النوبة وهى بالكنابيش الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغــواشى الذهب ، وعــرض التخشنين وهما بغواشى حرير أصفر ، ثم طلع الى الدهيشة وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير . وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبة وجعل مكانه هلالا ذهبا مخرما ، وعرض ست خزائن التى تكون فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، وعرض الجوشنين وهما من آلة الطلب ، وعرض محفة على بغال وهى بغشاء من حرير أصفر .

ثم فى يوم الأربعاء سادس عشرينه ركب السلطان ونزل الى الميدان ليعرض مماليكه الخاصكية الذين يسافرون صحبته ، فوجد الميــدان فيه وحل من المطر ، فخرج الى الرملة ووقف على باب الميدان وهو راكب وعرض مماليكه الجلبان من الخاصكية فعين منهم فى ذلك اليوم مائة وعشرة من الخاصكية ممن يســافر معه الى الاسكندرية ، فصار كاتب المماليك ماشيا على أقدامه فى وسط الرملة وهو يستدعى أسماء المماليك ، فرجت الرملة فى ذلك اليوم وتحقق سفر السلطان ، واضطربت أحوال العسكر بسبب سفر السلطان فى قلب الشتاء وشدة البرد ، فلما طلع السلطان الى القلعة فتح حواصل الذخيرة وأخــرج منها زرديات وخوذا وأتراسا ورماحا بسن فولاذ وسيوفا وجواغين ، ففرق منها على خاصكيته أشياء كثيرة مما يحتاجون اليه من آلة السلاح .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من مماليكه الخاصكية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعين منهم جماعة يسافرون معه الى الاسكندرية . وقد أشيع بأنه يعين معه نحو خمسمائة خاصكى من مماليكه ، وفى ذلك اليوم برز السلطان خامه وتوجه به الى بولاق ثم عدوا به الى بر انبــابة ، ورسم بأن ينصب فى المنصورية ذلك الوطاق .

***

وفى ذى القعدة كان مستهل الشهر يوم الاثنين فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فجلس السلطان بالميــدان وكان فى همة الخروج الى سفر الاسكندرية . فلما قام الخليفة والقضاة الأربعة طلب العــلامة وعلم على بعض مراسيم ، ثم ركب من الميــدان وانسحب قدامه الطلب فكان طلبا حربيا فيه طبلان وزمران والنفير البرغشى ، ثم انسحب فيه خمس وأربعون فرسا عليهــا أجلال شعر وفى رقابها مقاود ، ثم انسحب فيه ثلاث عشرة نوبة هجن بأكوار زركش ومخمل ملون ، ثم انسحب فيه نحو خمسين فرسا بسروج ذهب وكنابيش وغواشى حــرير أصفر وتخشنين بغواشى حرير أصفر ، فكان عدة الخيول به نحو مائة وعشرين فرسا ، ثم تقدمت الخاصكية وبعدهم المباشرون قاطبة ، وبعدهم الأمراء المقدمون وهم : أمير كبير سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير الدوادار الكبير والأمير أنص باى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ، ثم جاء من بعدهم السلطان وهو راكب على فرس بوز ، وعليه سلارى جوخ بنفسجى مفرى وشق ، وعلى رأسه تخفيفة صــغيرة مدورة بغير قــرون ، فشق من الصــليبة فى ذلك الموكب الحفــل ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، فقيل انه توجه فى ذلك اليوم الى المقياس هو والأمراء ومد لهم هناك

مدة حافلة وأقام بالمقياس ذلك اليوم ، وأشيع غير ذلك أن السلطان لما نزل من القلعة توجه الى بولاق ونزل فى مكان يسمى السبكية فبات بها ، وقيل بل بات فى المنية بإزاء انبابة ، والأقاويل فى ذلك مختلفة ، وكان بها الوطاق .

ثم ان السلطان رسم للأمير طومان باى الدوادار بأن يكون نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من السفر ، فتحول من يومه وطلع الى باب السلسلة وأقام به الى أن يعود السلطان الى القلعة .

وفى يوم السبت سادسه رحل السلطان من الوطاق الذى ببر انبابة وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية ، ورجع جماعة كثيرة من هناك من الأمراء والعسكر ، ولم يسافر مع السلطان الا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، فمن الأمراء المقدمين : الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس بن ولى الدين أمير مجلس والأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد المقدمين والأمير قانصوه ابن سلطان جركس ، والأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين والأمير علان بن قراجا أحد المقدمين دوادار ثانى والأمير يخشباى أحد المقدمين والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، وقد قرر فى تقدمة الأمير خاير بيك الخازندار عن قريب ، فكان عدة الأمراء المقدمين الذين توجهوا مع السلطان الى ثغر الاسكندرية عشرة من المقدمين . وأما من توجه معه من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة منهم : الأمير قنبك الشريفى رأس نوبة ثانى والأمير مغلباى الشريفى الزردكاش ، وآخرون منهم ما يحضرنى أسماؤهم . وأما من توجه صحبته من الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة نحو عشرين أميرا ، وقيل كان مع السلطان من خاصكيته نحو خمسمائة خاصكى وقيل أكثر من ذلك ، وأما من توجه معه من المباشرين فالقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش والقاضى شهاب الدين ابن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين كاتب الخزائن الشريفة والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وأولاد الملكى وأبو البقا ناظر الاصطبل ، والقاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وجماعة من كتاب المماليك ، وآخرون من أعيان جماعة المباشرين ، وكان صحبته الشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان ما يحضرنى أسماؤهم الآن .

وقيل كان صحبة السلطان جماعة من المغانى وأرباب الآلات من دواخل البلد فى الغناء ، وخرج السلطان بسنيح عظيم وبرك حافل فى أرغد عيش من التنزه والفرجة حتى رحل ، فنصب له الوطاق بالمنصورية وتوجه اليها على ما نقل من أخباره الصحيحة عن ذلك .

وأشيع أن السلطان أقام فى الوطاق الذى بالمنية ستة أيام . وسبب ذلك أنه كان ينتظر كتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده الذى توجه الى الحجاز وأخبار زوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة بالأمن والسلامة سر لذلك وانشرح ، ورحل من المنية ، وتوجه الى المنصورية ، ونصب بها المخيم الشريف ونزل هناك ، ثم يتوجه من بعد ذلك من مرحلة الى مرحلة حتى يدخل الى ثغر الاسكندرية .

وفى يوم الاثنين ثامنه رسم الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة بأن ينادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلا من المغرب وأن لا مملوكا ولا غلاما ولا عبدا يخرج من بعد العشاء ومعه سلاح ،

وأن لا مملوكا يغطى وجهه اذا خرج الى السوق ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ، فضج الناس له بالدعاء .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى الحاج ياقوت فراش الخزانة ، وكان أصله من عبيد المقر السيفى برقوق نائب الشام وأعتقه ، وساعدته الأقدار حتى صار فى سعة من المال وصار أمين السلطان على الخزائن الشريفة . فلما مات فى غيبة السلطان جاء الزينى بركات بن موسى وختم على حواصله ورسم على ولده وعلى عيـاله الى أن يحضر السلطان ، وكان ياقوت متهما بالمـال الجـزيل ، وكان هو والأمير خاير بيك الخازندار يتصرفان فى الخزائن الشريفة كيف شـاءا منها ، فكان كما يقال فى المعنى :

وقائلة أرى الأيام تعـطى
لئام النـاس من رزق خبيث

تمنع من له شرف وفضـل
فقلت لها خذى أصل الحديث

رأت حل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفى يوم الخميس حادى عشره وسط الوالى شخصا من الغلمان قيل عنه انه كان يخطف العمائم فى الأسواق بعد العشاء ، فلما قبضوا عليه وسطوه فى وسط الصليبة قدام حمـام شيخو ، وقيـل وسطوا آخر من الغلمان عند الكبش ، وفى هذه الأيام كثر هجم المناسر فى الحارات والأماكن من القاهرة وغيرها حتى ضج الناس من ذلك ، ولا سيما كان السلطان غائبا فى السفر الى الاسكندرية فماجت القاهرة لذلك .

وفى يوم الاثنين خامس عشره فرقت الجامكية فى غيبة السلطان ، وحضر تفرقتها القاضى جـلال الدين نائب كاتب المماليك ، وحضر الأمير سنبل مقـدم المماليك ونائبه والزينى بركات بن موسى المحتسب وغير هؤلاء ، وفرقت الجامكية عنـد سلم المدرج ، وكانت فى غاية الانشحات .

وفى يوم الجمعة سادس عشرينه نودى فى القـاهرة بالزينة بسبب عود السلطان من ثغـر الاسكندرية .

وفى يوم السبت سـابع عشرينه سـبق المخيم الشريف ونصب الوطاق فى الريدانية الى أن يحضر السلطان . ثم ان السلطان عدى من بر انبابة باكر النهار ، وطلع الى المكان المسمى بالسبكية ببولاق فتغدى هناك وأقام الى الظهر ، ثم ركب من هناك وشق من بين الغيطان وطلع من على قنطرة الفخر ، وطلع من هناك من على كوم الريش حتى وصل الى قناطر الأوز ، فطلع من عليها الى أن خرج الى الوطاق بالريدانية فأقام به . فلما تسامع به الأمراء أتوا اليه وسـلموا عليه ، ثم جاء اليـه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة فسلموا عليه ثم عادوا الى دورهم ، وكان السـلطان أرسل بأن ينادى فى القاهرة بأن لا أحد من الأمراء والعسكر يلاقى السلطان الا من الوطاق الذى بالريدانيـة فامتثلوا لذلك .

وفى يوم الأحد ثامن عشرينه نادى الأمير الدوادار فى القاهرة بأن يقـووا الزينة ، فزينت القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق مثل سوق الشرب والجملون والجواهرة وسوق الوراقين والباسطية وسوق الحاجب وخان الخليلى وسوق جامع ابن طولون ومرجوش وغير ذلك من أسواق القاهرة ، حتى مصر العتيقة وبولاق وغير ذلك من الأماكن .

وفى يوم الاثنين سلخ ذى القعدة رسم السلطان

بعمل احراقة نفط تحرق فى الوطاق فحرقت ليلة الثلاثاء بالوطاق ، فحصل للناس فى تلك الليلة غاية الضرر وسرق من الوطاق فى تلك الليلة من عـدة خيام ، وأخذ منها بعض قماش وسيوف وبقج ، حتى أشيع بين الناس أن الرصافيات الأربعة التى فى محفة السلطان قد سرقت تلك الليـلة لكثرة الرهج والاضطراب .

* * *

وفى يوم الثلاثاء كان مستهل ذى الحجة الحرام فتوجه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان قد أخذ فى أسباب الدخول الى القـاهرة وصار يرتب الطلب بنفسه وهو راكب على فرسه ، فكان من ملخص أخبار الطلب أنه جر به نحوا من مائة وثمانين فرسا ، منها ببركستوانات مخمل ملون وجواغين فولاذ مكفت بذهب وفضة نحـو ستين فرسا ، ومنها خيـول بسروج ذهب وكنابيش نحو عشرين فرسا ، وكان من جملة السروج ما هو بلور مزيك بذهب وسروج عقيق مزيكة بذهب وسروج مرصعة بفصـوص مثمنة وطبول بازات فضة مينة وشىء بلور ، ومنها خيول بعراقى وسروج بغواشى حرير أصفر وطبول بازات نحو خمسين فرسا ، وجوشنان أحـدهما حرير أصفر والآخر مخمل مزهر ، وتختنان بأغشية حرير أصفر ، وست خزائن بأغشية حـرير أحمر وأصفر ومحفة بغشى حرير أصفر وهى على بغلين ، وكان به حجـورة بسروج بداوى وركب بداوى بعراقى نسيج مغربى نحو عشرين حجـرة . وكان قدام الطلب ست عشرة نوبة هجن ، منهـا ثمانى نوب هجن بأكـوار زركش وكنابيش زركش ، والبقية بأكوار مخمل ملون ، وكان قدام الطلب أربعة طبول وأربعة زمور ووراء الطلب اثنا عشر حمل كوسات ، وكان به الأفيال الكبار وهى مزينة بالصناجق والبركستوانات الحرير الأحمر ، وكان مع الكوسات العصائب السـلطانية ، وكان قدام السلطان أربع أرؤس خيل بسروج ذهب وكنابيش ذهب وريش وعليهـا رقاب ذهب وريش وفوقها غواشى ذهب بطيور ذهب عليها .

فلمـا انتهى ترتيب الطلب ركب السلطان من الوطاق الذى بالريدانية ، فركب على فرس بوز قرطاسى ، وكان عليه الشاش والقماش وكامليـة مخمـل أحمـر بسمور ، وركب ، وسرج ذهب وكنبوش ذهب وريش ، وعلى الفرس رقبة زركش ، فلما تسامعت الأمراء بركوب السلطان ركبوا وهم بالشـاش والقماش ، وجميـع الأمراء المقدمين والأربعينات والعشراوات ، والرءوس النـوب بالعصى ، ثم ان الأتابكى سـودون العجمى تسلم القبة والجلالة ورفعها على رأس السلطان ، ومشى عن يسـاره ، وركب الخليفة محمد المتوكل على الله عن يمينه وهو لابس العمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض بمقلب صوف أخضر ، وركب قدامه القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمى الشافعى وشمس الدين السمديسى الحنفى وجلال الدين بن قاسم المالكى وشـهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وقد تقـدم القول على أنهم أتوا يهنون السلطان بالشـهر وهو فى الوطاق فصادف ذلك اليوم طلوع السلطان الى القلعة فركبوا صحبته ، ولم يكن يحزر ركوب الخليفة والقضاة الأربعة مع السلطان حين جاء من هذه السفرة ، ولكن قصدوا التوجه الى السلطان ليحظوا عنـده بذلك ، وقد اتفق أن الأشرف قايتباى توجه الى ثغر الاسكندرية مرتين ، فكان يجىء من السفر ويطلع الصبح الى القلعة من بين الترب ولم يشعر به أحد من الناس ، ولكن كل أحد له اختيار بذاته .

فلما ركب السلطان من الريدانية رسم للخاصكية الذين كانوا معه فى ثغر الاسكندرية بأن يدخلوا الى القاهرة وهم لابسون آلة السلاح كما دخلوا بثغر الاسكندرية وهم لابسون ، فلبسوا آلة السلاح الزرديات والخوذ ، وألبسوا الخيول البركستوانات المخمل ، وأخذوا الرماح بالشطفات بأيديهم وركبوا وراء السلطان فى الطلب ، وكانوا نحو أربعمائة خاصكى من جلبان السلطان من أعيانهم فعد ذلك من النوادر ، وركب مع السلطان سائر المباشرين من أرباب الوظائف من المتولين والمنفصلين ، فلما تكامل الموكب مشى السلطان وكان الصنجق السلطانى فى كيس حرير أصفر فلم ينشر على رأس السلطان ، فلما وصل الى قبة الأمير يشبك التى فى رأس الحسنية لاقاه الشعراء بالشبابة السلطانية والمزاهر ، ولاقاه الطبردارية وفى أيديهم الأطبار فمشوا قدامه ، ثم لاقاه طائفة اليهود والنصارى وفى أيديهم الشموع موقودة .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما وصل الى رأس سوق الدريس فكان هناك حمل معلق فيه قناديل معمرة بالزيت ، فصدم به الأتابكى سودون العجمى هلال القبة الذى هو عوض عن الطير الذهب ، فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفتة السلطان والكاملية المخمل الأحمر التى عليه فانطرطشوا بالزيت الطيب تطرطشا فاحشا ، فلم يتفاءل الناس بذلك على السلطان ، ووقع له أنه لما دخل لمدينة الاسكندرية سقط هلال القبة الذى على رأسه الى الأرض وانكسر نصفين فى وسط سوق الاسكندرية ، وكذلك رصافية المحفة سقطت الى الأرض فبادروا اليها ووضعوها على المحفة ، فلم يتفاءل الناس بهذا أيضا على السلطان . لكن وقع للأشرف قايتباى أنه لما دخل الى ثغر الاسكندرية وشق من سوقها سقط الطائر الذهب الذى على القبة الى الأرض ، فبادر الأمير يشبك الدوادار الكبير ونزل عن فرسه وركب الطائر على القبة وثبته عليها بيده وأعاده كما كان ، ثم ركب على فرسه ومشى السلطان الى أن خرج من باب البحر ، فتفاءل الناس بزوال السلطان بعد ذلك ، فلم يؤثر فيه هذا التطير ومكث من بعد ذلك دهرا طويلا . ثم ان السلطان لما جرى ذلك كظم فى الباطن وعاب على الأتابكى سودون العجمى حمل القبة والطير ، وقد حملهما على رأس السلطان بغير معرفة وكان لهما طريقة فى حملهما غير ذلك ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب على ما ذكرناه أولا ، فكان النفير السلطانى المسمى بالبرغشى قدام الطلب ووراءه الطبول والزمور ، ثم انسحبت النوب الهجن وانسحب بعدها الجنائب الملبسة بالبركستوانات المخمل الملون ثم انسحب من بعد ذلك الخيول التى بالكنابيش والسروج الذهب والبلور والعقيق المزيكة بالذهب ، وكان فى السروج ما هو مرصع بالفصوص المثمنة ، وكان على الخيول طبول بازات بلور مزيك بذهب وشىء فضة مينة ، فكان من هذه الأصناف نحو عشرة طبول ، ثم انسحب جوشنان حرير ملون وخزائن المال وعدتهم ست بأغشية حرير أصفر وأحمر ، ثم انسحب المحفة بغشى حرير أصفر مزهر عليه بالتقاصيص الحرير ملون ، ثم وراء ذلك جاء المباشرون ثم الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ثم جاء الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، ثم جاء القضاة الأربعة ، ثم مشى الشعراء والشبابة السلطانية ، ثم مشى من بعد ذلك الأمراء الرءوس النوب وبأيديهم العصى . وكان الأمير كرتباى الوالى ماشيا بالشاش والقماش ، ونقيب الجيش

وغير ذلك من الخاصكية ، ثم جاء السلطان وعليه الشاش والقماش وقد تقدم القول على ترتيب الطلب فى الريدانية أولا .

وهذا كان صفته لما شق من القاهرة بالموكب السلطانى وهو لابس كاملية مخمل أحمر بسمور ، والخليفة عن يمينه وهو بالعمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض ، وكان أمير كبير سودون العجمى عن يساره رافعا القبة على رأسه والجم الغفير من الخاصكية خلفه وهم بالخوذ والزرديات وبأيديهم الرماح بالشطفات الحرير الملون ، وكان الصنجق السلطانى مطويا فى كيس حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة كانت مزينة بالزينة الحافلة ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وتركزت له الطبول والزمور على الدكاكين من باب النصر الى رأس الرملة ، فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم رجا وابتهجت الناس أى بهجة ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام .

وكان هذا الموكب من الوقائع الغريبة فى هذا العام ، وكان من المواكب المعدودة والأيام المشهودة ، قل أن بقى يقع لأحد من ملوك مصر مثل هذا الموكب فيما يأتى من الزمان ، ولم يقع للأشرف الغورى من حين تسلطن والى اليوم أنه أوكب وشق من القاهرة هو والأمراء بالشاش والقماش غير هذا الموكب ، فاستمر فى هذا الموكب حتى طلع من على جامع الماردينى ، من على مدرسة السلطان حسن فشق من الرملة ، وقد ماجت له الرملة فى ذلك اليوم من العسكر وكثرة الخلائق ، فاستمر على ذلك حتى دخل من باب الميدان ، فوقف له الخليفة هناك والقضاة الأربعة ، فطوبوا له ورجعوا الى دورهم ، ودخل السلطان الى الميدان هو والأمراء .

وكان الأمير طومان باى الدوادار الكبير نصب له بالميدان الخيمة الكبيرة التى تنصب فى المولد ، ومد بها مدة حافلة قيل كان مصروف تلك المدة فوق الألف دينار ، وفرش تحت حافر فرس السلطان الشقق الحرير من باب الميدان الى الخيمة ، وقيل نثر على رأسه خفائف الذهب والفضة .

ثم ان السلطان جلس فى الخيمة وأكل من المدة هو والأمراء ، فلما انقضى أمر المدة أحضر كوامل مخمل أحمر بسمور فخلعها على الأمراء العشرة الذين كانوا صحبته بثغر الاسكندرية ، وخلع على الأتابكى سودون العجمى كاملية مخمل أخضر بسمور ، وقيل خلع عليهم الكوامل بالريدانية ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور بسبب تلك المدة التى مدها ، وخلع على بعض خاصكية من السقاة من أرباب الوظائف .
ثم ان الأمراء نزلوا من الصليبية فى موكب حافل وتوجهوا الى بيوتهم ، وانقضى ذلك اليوم على خير ، وهذه الواقعة من معظم وقائع سنة عشرين وتسعمائة قل أن يقع فى التواريخ مثلها من الوقائع الغريبة فى أخبار السلاطين ، وقد نظمت فى ذلك هذه القصيدة التى لم ينسج مثلها على منوال ، وهى هذه :

سر الأنام لمقدم السلطان
وتباشروا منه بكل أمان
وتغردت أطيار أزهار الربا
فوق الغصون بأطيب الألحان
والروض أضحى زهره متبسما
كتبسم الحسنا بضوء جمان
وتهللت من مصر دوحة روضها
عند القدوم تهلل الفرحان

وتضاحك الميدان مذ غنت به
أطياره سحرا على العيدان
عاينته لما بدا فى موكب
يزهو على كسرى أنوشروان
لما ارتقى عند الصعود لقلعة
رفعت عليه قبة السلطان
طلع الخليفة والقضاة أمامه
فى الموكب المحفوفه بالفرسان
قالت مراتب عزه لما أتى
لا تعجبوا فالسر فى السكان
لسكندرية كان يوم دخوله
قد عد ذاك اليوم بالسلطان
ما زال أهل الثغر من فرح به
بتباشر فى السر والاعلان
لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكرام والاحسان
واختاره ملكا يلى من بعده
فى سائر الأقطار والبلدان
فاق الملوك بمصر ممن قد مضى
أخباره فى سالف الأزمان
قد عاد للأوطان فى بشر وفى
نصر وتأييد وصفو زمان
فالله يكفيه مؤنة حاسد
ويطيل أياما له بتهان
ما ماس غصن فى الرياض وكللت
أيدى الغمام شقائق النعمان
قد ضاء لابن اياس شعر قاله
فى الأشرف الغورى العظيم الشان
ثم الصلاة على النبى المصطفى
خير البرية من بنى عدنان
والآل والأصحاب ماطرد الدجا
ضوء الصباح وعم للأكوان

وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه الى ثغر الاسكندرية ، فانه نزل من القلعة وسافر فى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا فى المكان المسمى بالسبكية فى بولاق ، فتغدى هناك ثم عدى الى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية ، فأقام به خمسة أيام ، قيل انه كان منتظرا لكتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة اطمأن ورحل من المنية ، وقد قاسى العسكر فى التعدية ما لا خير فيه ، وجرح شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة من المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر .

ثم ان السلطان توجه من المنية الى المنصورية وأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من هناك الى البحيرة فأقام بها يوما وليلة ، واستمر يرحل من مكان الى مكان الى أن نزل بالنجيلة فأقام بها يومين وليلتين ، وأحضر له الصيادون هناك تمساحا فأمر بتوسيطه بين يديه .

فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان ثغر رشيد فأقام به الى يوم الأحد .

ثم أوكب من هناك ودخل الى مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين خامس عشره ، فدخل العسكر وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، وانسحب الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك ، ثم دخلت الأمراء وهم بالشاش والقماش ، ولم يلبس السلطان الكلفتة بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة ، وعليه كاملية محمل أحمر بسمور ، وحمل الأتابكى سودون العجمى القبة والجلالة على رأسه ، وكان السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب عوضا عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من

المدينة فى موكب حافل ، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة ، فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب .

ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكى سودون بالجلالة التى على القبة بعض السقائف التى هناك ، فانكسرت تلك الجلالة نصفين وسقطت الى الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك انكسرت الرصافية التى كانت عليها ، ثم ان السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل اليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية تقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير ذلك ، ثم قدم اليه الخواجا ابن أبى بكر تاجر السلطان تقدمة حافلة ، ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح .

وكانت الاسكندرية من أجل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون ، وفى كل دار منها حمام تختص بها ، وكان بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقولات من بعد العصر الى العشاء ، وكان بها أربعون ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف انسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار ، وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار التى هى بها الآن .

ثم ان السلطان ألبس الأتابكى سودون العجمى الكاملية المخمل الأحمر التى كانت عليه ، وخلع على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبى بكر .

وفى ذلك اليوم ثارت مماليك السلطان الخاصكية على خدا بردى نائب الاسكندرية ، وقالوا له : أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفيا كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى الى الاسكندرية ، فلم يعطهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به وما سلم من القتل الا بعد جهد كبير .

ثم حضرت التقادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام ، فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له مآذن المدينة ، وعلقوا على شراريف الصور كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ، ثم توجه الى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى فطلع فى البرج هو والأمراء ورموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التى بثغر الاسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل .

وفى ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بامرة طبلخاناه .

ثم فى ليلة الأربعاء سابع عشره أحرق السلطان فى الوطاق احراقة نفط حافلة على شاطىء البحر الملح .

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره رحل السلطان

عن ثغر الاسكندرية ا فكان مدة اقامته بها يومين وليلتين .

ففى ذلك اليوم الذى رحل فيه أرسل محمد مهتار الطشتخاناه الى الظاهـر قانصوه الذى فى البرج والى قيت الرحبى الذى فى البرج ورسم له بأن يكسر قيودهما ، وأرسل على يده لكل واحد منهما ألف دينـار وبدنين سمور وبدنين سنجاب وثوبين بعلبكى وغير ذلك من القماش الفـاخر ، وأرسل يقول لهما : « لا تجتمعوا على أحد من خلق الله ولا تكاتبوا أحدا من الأمراء فما يحصل لكما من السلطان خير » . فباسوا له الأرض فى البرج وأجابوا بالسمع والطاعة واستمروا فى البرج بغير قيود . ثم رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية بعد اقامته فيها يومين وليلتين ، ثم توجه الى دمنهور فأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من بعد ذلك الى النجيلة عند عوده أيضا .

ومن الحوادث أنه لما أقام فى النجيلة غرق بها شخص من الخاصكية فى البحر فمات هناك .

ثم توجه منها الى الطرانة فأقام بها يوما وليلة ، ثم نزل بالمنصورية وأرسل يقول للأمير طومان باى الدوادار بأن ينادى فى القـاهرة بأن لا أحـد من العسكر يلاقى السـلطان الا اذا نزل بالريدانية فى الوطاق ، فامتثلوا ذلك ، ثم ان السلطان رحل من المنصورية الى المنية وعدى من هناك وحضر الى الوطاق بالريدانية ، وهذا ما كان من ملخص أخباره فى هذه السرحة .

وكان أول من دخـل الى ثغـر الاسكندرية من السلاطين الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وذلك فى سنة سبع وستين وسبعمائة وكان سبب دخوله الى ثغر الاسكندرية أن الفرنج طرقوا الثغر على حين غفلة وملكوا المدينة ... فلما جاءت الأخبار بذلك خـرج السلطان على جرائد الخيل وصحبته الأتابكى يلبغا العمرى وجماعة من الأمراء ، فلما بلغ الفرنج مجىء السلطان رحلوا عن الثغر بعـد ما نهبوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى ، فدخل السلطان ورد النـاس الى المدينة وطمنهم ورجع بسرعة الى مصر .

ثم دخلها ثانى مرة فى سنة احـدى وسبعين وسبعمائة ... ففى هذه المرة أوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان خليـل بن عرام نائب الاسكندرية ففرش له الشقق الحـرير من باب رشـيد الى باب البحـر الملح ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضـة وكان له يوم مشـهود بالاسكندرية .

ثم دخلها من بعد ذلك الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فأوكب بها موكبا حافلا وحملت القبة والطير على رأسـه . ومما وقع له أنه لـما شـق من مدينـة الاسكندرية وقف له بعض تجـار المغاربة بقصة يشكون فيها من جـور القباض ، فلما قرأ تلك القصة ، رسم بابطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة وكتب لهم بذلك مرسوما شريفا فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

ثم دخلها من بعد ذلك الأشرف قايتباى فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، وأوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه . فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادقة ألف بندقى ذهب فتزاحمت الناس عليه يلتقطون الذهب ، فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر الفـرس حتى أدركه تمراز الشمسى رأس نوبة النوب فضرب النـاس حتى أفسحوا للسلطان ومشى .

ثم دخلها مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة أربع

وثمانين وثمانمائة ، فلم يوكب بها مثل المرة الأولى .
وكان سبب دخوله هذه المرة لأجل انهاء عمارة البرج الذى أنشأه هناك فكشف عليه لما كملت عمارته ورجع بسرعة ، وسافر هذه المرة من البحر وكان أيام النيل والأراضى مغمورة بالمياه فأقام بثغر الاسكندرية ثلاثة أيام ، وكذلك فى المرة الأولى . ثم دخلها من بعد ذلك الملك الأشرف قانصوه الغورى فى سنة عشرين وتسعمائة كما تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، نزل السلطان صبيحة يوم طلوعه وشق من الصليبة وهى مزينة ، ثم توجه الى بولاق وكشف على عمارته التى هناك ، ثم رجع من على باب البحر ودخل من باب القنطرة وتوجه الى البندقانيين وكشف على عمارته التى هناك وكان فى نفر قليل من المماليك . وأشيع عنه أنه قال للعوام : قووا الزينة ولا تفكوها لبعد مضى عشرة أيام ، وجعل يقول لهم ذلك بنفسه ، فعاب عليه الناس ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثه ، ثارت المماليك الجلبان على السلطان بالقلعة ورجموا الأمراء من الطباق ، وقصدوا ينزلون لنهب الزينة ، فأغلق عليهم السلطان أبواب القلعة وباب السلسلة وباب الميدان ، فلما بلغ الناس ذلك ارتجت القاهرة وفكوا الزينة فى لمح البصر ، ووزع الناس الأمتعة فى الحواصل ، وكثر القال والقيل بين الناس ، وقعد الأمراء المقدمون فى بيوتهم وأغلقوا أبوابهم . وكان الأتابكى سودون العجمى مسافرا نحو بلاده وقد سافر بعد حضوره مع السلطان . فلما جرى ذلك تنكد السلطان لهذه الواقعة ، وبلغه أن المماليك يرومون منه نفقة لكل واحد منهم مائة دينار حلاوة السلامة . وشرع المماليك القرانصة يورون المماليك الجلبان على ذلك ، وكان العسكر جميعه غير راض عن السلطان بسبب تعطل اللحم ، فان العسكر قاطبة من نحو سبعة أشهر لم يصرف لهم فيها زبدية لحم ، وحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل . وكانت الدواوين فى غاية الانشحات لكثرة العسكر فى هذه الأيام ، ولا سيما ما جدده السلطان من العسكر فى الطبقة الخامسة . وكانت الاقطاعات خرابا والبلاد معطلة من جور الكشاف ومشايخ العربان وهجاج فلاحى المقطعين عن البلاد ، فصارت المماليك القرانصة ينتظرون حركة مثل هذه الحركة فما صدقوا بهذه الحركة

وفى بقية ذلك اليوم غلقت الأسواق والدكاكين وارتفعت البضائع منها ، ثم فى بقية ذلك اليوم — قرب المغرب — نزل طائفة من المماليك الى الصليبة ونهبوا بعض بضائع من الدكاكين ، ثم ثم ان المماليك قبضوا على شخص من العوام وقالوا له : نادى عن لسان السلطان أن النفقة مع الجامكية لكل مملوك من المماليك السلطانية مائة دينار . فما وسع ذلك الرجل الا أنه نادى لهم كما قالوا له ، ولم تكن هذه المناداة من قبل السلطان .

وفى يوم الجمعة رابعه أشيع أن شخصا من مماليك السلطان يسمى وردبش ، وهو أمير عشرة تدلى بحبل من طبقة الميدان لما ثارت المماليك فانقطع به الحبل ، فسقط الى الأرض فمات من يومه . وقد صارت المماليك فرقتين ، فرقة مع السلطان وفرقة عليه ، فلما كان وقت صلاة الجمعة لم يخرج السلطان ولم يصل صلاة الجمعة ، ولم يطلع من الأمراء غير ثلاثة أمراء مقدمين ، وقد اضطربت أحوال السلطان من بعد مجيئه من هذه السفرة وتكدر عيشه ، وطرقته عين عقيب ذلك الموكب العظيم الذى طلع فيه ، فكان كما يقال فى

أمثال الصادح والباغم :

لا تغتـــرر بالحفظ والســـلامه
فانمـــا الحيـــاة كالمـــدامه
والعمر مثل الكاس والدهر القدر
والصفو لا بد له من الكدر

ومن أمثاله أيضا

فى لمحـــة العـــين بـــكاء وضحك
وناجذ باد ودمـــع منسفك

وفى يوم السبت خامسه ابتدأ فيـــه السلطان بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفى يوم الاثنين سابعه أشيع أن السلطان رسم للوالى بأن يتسلم جانى بيك الأستادار ويعاقبه على بقية المال الذى قرر عليـــه ، فانه كان قرر عليـــه ثلاثة وثلاثين ألف دينار أورد منها ستة عشر ألف دينار ، فباع بيته وخيوله وقماشه ولم يغلق ذلك القدر الذى قرر عليه ، فأظهر العجز فلم يقبـــل له السلطان عذرا فى ذلك وسلمه للوالى ، فأشـــيع أنه قد عصر فى أكعابه وضرب كسارات على ركبه ، واستمر تحت العقوبة الى الآن . وكان جانى بيك هذا من الظلمة الكبار اذا ظفر بأحـــد من الناس لا يرحمـــه — ولا سيما ما فعـــــله فى ولايتـــه للأســـــتادارية ، وما جرى على العســـكر بسبب الحمايات وغيرها — فلما جرى له ذلك لم يرث له أحد من خلق الله تعالى .

وفيه توفى يونس سر آخورى السلطان ، وكان قبل ذلك فى خدمة الأتابكى تمراز الشمسى ، وكان حسن السيرة لا بأس به

وفى يوم الثلاثاء ثامنه جلس السلطان بالميدان وفرق بقيـــة الأضحية ، لكنه شح فى هذه السنة وضاقت عينه ، فقطع ضحايا الزوايا والمزارات التى بالقرافة وغـــيرها من زوايا الأعاجم ، فحصل لهم كسر خاطر بسبب ذلك .

ثم انه رسم لبعض زوايا بالقرافة بصرر فيهـــا دراهم يسيرة مثل مقام الامام الشـــافعى والامام الليث رضى الله عنهما وبعض مزارات بالقـــرافة ، وتوقف فى البقية ، ثم قطع ضحايا الفقهاء والمباشرين الذين لهم ضحايا فى الديوان والذخـــيرة فقطـــع أضحية الذخيرة وأبقى الذى فى الديوان . وكانت الأضحية فى هذه السنة فى غاية الغلو فى الســـعر وهى مشحوتة لم يظهر منها شىء بسبب تشويش المماليك على الفلاحين ، فقل الجالب بسبب ذلك وكانت الأحوال فى هذه السنة غير صالحة .

وفى يوم الخميس عاشره كان عيد النحر ، وكان الســـلطان فى غاية النـــكد من مماليكه ، وكان الأتابكى سودون مسافرا فى اقطاعه وقد هرب من تفرقة الأضحية ، وكذلك الأمـــير تمر الزردكاش ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد فى الجامع ، ثم ركب من هناك ودخل الحوش ولم يضح فى الايوان على العادة القديمة . فلما دخل الحوش لم يذبح بيده شيئا فى ذلك اليوم ، ورسم للأمير مغلباى الزردكاش ويوسف الزردكاش الثانى بأن يذبحا عنه ، ثم جلس فى الحوش ساعة يسيرة وقام ودخل الدهيشة واحتجب عن الناس

وفى يوم الاثنين خامسه [1] أشيع بين الناس بأن الأمير طومان باى الدوادار ضمن للمماليك الجلبان بأن السلطان ينفق عليهم فى شهر صفر لكل مملوك مائة دينار ، فرضوا بذلك وخمدت الفتنة قليلا . ثم ان السلطان نادى للناس فى ذلك اليوم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأسواق تفتح على العادة وأن لا أحد يشوش على أحـــد من المتسببين ، وكانت الأسواق جميعها مقفلة من حين وقعت هذه الحركة بسبب المماليك ، فلما أشهر المناداة بذلك

(۱) خامسه يوم سبت .

ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس وخمدت تلك الاشاعات بالركوب على السلطان .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأنفق على المماليك الكتابية جامكية هذا الشهر ، ثم أحضر أغوات الطباق الأعيان ووبخهم بالكلام وقال لهم : « ان كان لكم قصد أن تسلطنوا أحدا غيرى فأنا أنزل له عن الملك وأرسلونى فى أى مكان تختارونه » . فباسوا له الأرض وقالوا : ما لنا أستاذ الا أنت وما نموت الا تحت رجليك وما لنا حاجة بنفقة من السلطان وقد رضينا بلا نفقة ان شئت تعطى أو لا تعطى . فقال السلطان : « خلى المشاعلى ينادى بأن النفقة بطالة » . فلم يطلع الوالى ولا المشاعلى فى ذلك اليوم ، فقام الزينى بركات بن موسى المحتسب ونادى بنفسه فى الميدان بين العسكر بأن معاشر الأمراء والعسكر المنصور حسبما رسم المقام الشريف بأن النفقة على العسكر بطالة . ثم بعد ذلك طلع المشاعلى فقال له السلطان : « نادى فى القاهرة بأن النفقة بطالة » . فنزل الزينى بركات بن موسى والمشاعلى قدامه ينادى للعسكر بأن النفقة بطالة ، وقد طمعت آمال المماليك بالنفقة وما يعلم ما وراء ذلك الا الله .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، جلس السلطان فى الحوش على المصطبة وأنفق الجامكية على العسكر ، وأشيع أن فى تلك الليلة ثارت المماليك بالقلعة بعد العشاء ، فثار المماليك الذين فى طبقة الطازية على المماليك الذين فى طبقة الزمامية حتى اتقعوا بالدبابيس وقالوا : « انتو عملتوا لكم وجه عند السلطان وقلتوا ما لنا حاجة بنفقة فتصيروا انتو أحبابه ونحن نصير أعاديه ، فأحق ما نكون ونحن وانتوا على كلمة واحدة ، وما نرجع عن طلب النفقة لكل مملوك مائة دينار » . وصمموا على ذلك ، وصار طائفة من المماليك مع السلطان وطائفة عليه .

فلما سمع الناس ذلك شرعوا يوزعون قماشهم وأمتعتهم فى الحواصل ، وكذلك السوقة وزعوا ما فى دكاكينهم من البضائع ، ولهج الناس باقامة فتنة كبيرة ، والأمر فى ذلك لله تعالى .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره ، ثارت المماليك الجلبان بالقلعة بعد صلاة الجمعة ونزل طائفة منهم الى الصليبة فنهبوا ما وجدوه ، واستمروا على ذلك مهما لاح لهم يخطفوه ، فباتوا على أن يصبحوا ينهبوا المدينة وبيوت الأمراء ، وكان أكثر الأمراء وزع قماشهم .

فلما أصبحوا يوم السبت أشيع بأن النفقة عمالة لكل مملوك خمسون دينارا ، وأن القرانصة ما يعطيهم شيئا ، فمن المماليك الجلبان ما رضى بالخمسين دينارا ومنهم من قال : ما نأخذ الا مائة دينار ، وأشيع بأن المماليك القرانصة والسيفية لم ينفق عليهم شىء ، واستمر القيل والقال عمالا بين الناس وقد لهجوا باقامة فتنة كبيرة .

وفى يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وسير نحو المطرية ، ثم عاد من يومه الى القلعة ، وشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وسكن أمر حركة المماليك قليلا من حين نادى لهم بأن النفقة فى شهر صفر مع الجامكية لكل مملوك خمسون دينارا .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه[1] رسم السلطان بسجن جانى بيك الأستادار الذى كان دوادار طراباى ، فتوجهوا به الى المقشرة وهو راكب على بغلة فبات بالمقشرة ليلة واحدة ثم أعادوه الى بيت

(١) فى الاصل : الاثنين ثانى عشرينه . وفى أيام هذا الشهر اضطراب فى الاصل صححناه فى طبعتنا .

الوالى ثانيا ليعاقبه على المال الذى تأخر عليه . وكان صحبته لما ادخلوه المقشرة ابن شمس الدين بن عوض ، وقد تقدم القول على أن والده ابن عوض مات وهو تحت العقوبة ، وصار ابنه هذا تحت العقوبة حتى يقر بالمال الذى قرر على أبيه ، وكان صحبتهما شخص من أولاد ابن عمر مشايخ عربان الصعيد ، فباتوا جميعا بالمقشرة ليلة واحدة ثم عادوا بهم الى بيت الوالى ليعاقبهم على المال الذى تأخر عليهم .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه نزل السلطان وسير الى نحو بولاق وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه وشق من الصليبة ذهابا وايابا .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه دخل جماعة من العسكر من المماليك السلطانية ممن كان مسافرا بحلب فى التجريدة ، وقد أرسل لهم السلطان مراسيم بالمجىء فما صدقوا بذلك ، وقد قاسوا فى هذه السفرة ما لا خير فيه من الغلاء الذى وقع بحلب ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم حتى أكلوا بهم ، وما قاسى منهم أهل حلب خيرا ... نزلوا فى دورهم ونهبوا قماشهم وفسقوا فى حريمهم ، وشوشوا على سوقة حلب وأخذوا بضائعهم منهم غصبا ، حتى قيل ان بعض المماليك الجلبان آزال بكارة بنت صغيرة عمرها نحو ثلاث سنين ، وأشيع أنها ماتت ولم يصح موتها ، وقيل كانوا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفونهن منها غير ما مرة ، وفعلوا أشياء فاحشة من هذا النمط ما فعلها من تقدمهم من المماليك السلطانية ، وثاروا على الباش قانى باى أمير آخور كبير وبهدلوه، وأخرقوا به عدة مرار وما سلم من القتل الا سلامة، وخربوا حلب عن آخرها من الظلم والجور ، وكان ترك رواحلهم الى حلب أصوب وما أفاد من رواحهم شيئا بل أفسدوا ما أصلحوا وما حصل برواحهم نفع قط .

وفى يوم الخميس رابع عشريه حضر مبشر الحاج ، وقد جد فى السير فكانت مسافته فى الطريق اثنى عشر يوما ، فأخبر بالامن والسلامة ، وأن ابن السلطان طيب وكذلك خوند وبقية الحجاج طيبون ، وكذلك القاضى كاتب السر محمود ابن أجا طيب فى خير وسلامة ، وكان أشيع موته فما صح ذلك ، ففرح أكثر الناس بسلامته . وكان محببا للناس قاطبة ، وأخبر المبشر بأن عيد النحر كان هناك يوم الجمعة . ثم ان المبشر طاف على الأمراء والمباشرين وأعيان الناس وأخبرهم بسلامة ابن السلطان فأفيضت عليه الخلع السنية من الأمراء وأعيان الناس قاطبة .

ومما أشيع من الأخبار فى كتب الحجاج أن ابن السلطان لما دخل الى مكة لاقاه السيد الشريف بركات أمير مكة ، فلما وصل ابن السلطان الى باب المعلة دخل مكة فى موكب حافل ، وأشيع أن الشريف بركات نزل عن فرسه ومسك بأزكة لجام ابن السلطان ومشى عن ميمنته ، ومشى الأمير طقطباى امير ركب المحمل عن يساره وهو ماسك بأزكة اللجام ، ومشى أمير ركب الأول ، ثم لاقاه قضاة مكة وأعيان التجار فمشوا قدامه حتى وصل الى باب السلام ، فعد ذلك من النوادر .

ثم ان الشريف بركات أرسل الى ابن السلطان تقادم حافلة ما بين ذهب عين وقماش ورقيق وغير ذلك ، وأرسل لخوند زوجة السلطان أضعاف ذلك ، ثم قدم اليه قضاة مكة وأعيان التجار الذين بها التقادم الحافلة ، وكذلك الأمير حسين نائب جدة ، فدخل على ابن السلطان وخوند من التقادم الحافلة ما لا يحصى ، وأشيع أن الشريف بركات واصل صحبة ابن السلطان بركب المحمل ، وقيل

ان خوند زوجة السلطان لما دخلت الى مكة حملت محفتها على أكتاف جماعة الشريف بركات من باب المعلة الى باب السلام ، هكذا أشيع فعد ذلك من جملة سعد السلطان . وأشيع فى كتب الحجاج بأن الغلاء بمكة فى سائر البضائع ، وأن الشاشات والأزر لم يوجدا بمكة لعدمهما جدا .

وفى يوم الجمعة خامس عشرينه توجه الأمير طومان باى الدوادار الى الخانكاه وقد بلغه أن مماليك جراكسة وصلوا صحبة المفل ، وأن له أقارب جراكسة صحبه المماليك ، وأشيع أن السلطان واصل له أخ جركسى صحبة القفل ، فخرج الأمير الدوادار بسبب ذلك .

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة عشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة هادئة من الفتن ، وأخصب فيها الزرع ووقع فيها الرخاء فى سائر الغلال والبضائع ، ولم يقع فيها الطاعون بمصر ولا أعمالها ، وحصل فيها نصرة عظيمة لابن عثمان ملك الروم على اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، وخرجت من مصر تجريدة بسبب حفظ مدينة حلب ورجع العسكر وهم سالمون من تلك الفتنة .

* * *

سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥م) :

فيها فى المحرم ، افتتاح العام كان يوم الخميس المبارك ، وكان خليفة الوقت يومئذ المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره .

وأما القضاة الأربعة فكان يومئذ القاضى علاء الدين الأخميمى الشافعى والقاضى شمس الدين السمديسى الحنفى والقاضى جلال الدين بن قاسم المالكى والقاضى شهاب الدين الفتوحى الحنبلى .

وأما الأمراء المقدمون فكان عدتهم يومئذ سبعة وعشرون أميرا مقدم ألف وهم : الأتابكى سودون العجمى أمير كبير ، وكانت امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس ، والأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدواداری رأس نوبة كبير ، والأمير طومان باى دوادار كبير ابن أخى السلطان ، والأمير أنص باى ابن مصطفى حاجب كبير ، وأما بقية الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف فالأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تمر الزردكاش ، والأمير أرزمك الناشف والأمير طقطباى نائب القلعة ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك المكحل والأمير تانى بيك النجمى ، والأمير تانى بيك الخازندار ، والأمير نوروز أخو يشبك الدوادار ، والأمير جان بلاط الموتر ، والأمير علان الدوادار الثانى ، والأمير خاير بيك كاشف الغربية ، والأمير بيبرس قريب السلطان ، والأمير يخشباى والأمير قانصوه روح لو نائب قطيا ، والأمير قانصوه أبو سنة الذى كان والى القاهرة ، والأمير أبرك مملوك السلطان ، والأمير خدا بردى نائب الاسكندرية مملوك السلطان ، والأمير خاير بيك العلائى الشهير بالمعمار وهو آخر من قرر مع المقدمين ، والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى .

وأما الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات فازداد منهم جماعة وانتقص منهم جماعة مايحضرنى اسماؤهم الآن .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضى كاتب السر محمود بن أجا صاحب ديوان الانشاء الشريف ، ونائبه الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيوش المنصورة ، وعلاء الدين بن الامام ناظر

الخواص الشريفة ، والجمالي يوسف البدرى وزير الديار المصرية ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب المماليك أيضا ، والأمير طوماى باى الدوادار متكلما فى الأستادارية وغير ذلك من الوظائف ، والقاضى أبو البقا بن المستوفى ناظر الاسطبل الشريف ، وبقية المباشرين على حكم السنة الخالية ، وكانت وظيفة الزمامية شاغرة من حين توفى الأمير عبد اللطيف الزمام ، وبقية أرباب الوظائف على حكم السنة الخالية .

فكان مستهل السنة يوم الخميس المبارك ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، وكان السلطان فى الميدان ، وكان قبل ذلك بأيام نادى للعسكر أصحاب الطبقة الخامسة بالعرض ، وقد أشيع أنه يرسل تجريدة الى بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند ، فلما طلع العسكر وعرضهم فى ذلك اليوم فلم يقع فيه كتابة ولا تعيين بل قال لهم : اطلعوا يوم الأحد أيضا .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة من سليم شاه للسلطان ، فكان من مضمون تلك المكاتبة أن شخصا من أولاد شاه سوار بن ذالغادر حصل بينه وبين عمه على دولات تشاجر بسبب بلاد أبيه فحنق منه وتوجه الى ابن عثمان ، فتعصب له سليم شاه وأرسل يسأل السلطان فى أن يعطى ابن سوار بلاد أبيه التى بيد على دولات ، فلم يوافق السلطان على ذلك ، وتنكد لهذا الخبر فى ذلك اليوم الى الغاية ، واشتور مع الأمراء فى هذا الأمر ، وربما تتسع هذه الفتنة بين ابن عثمان والسلطان ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع من الأخبار بأن ابن عثمان أمد ابن سوار بعساكر وتوجه على حين غفلة وكبس على عمه على دولات وحصل بينهم مقتلة مهولة قتل فيها ابن على دولات وابن ابنه وقتل جماعة كثيرة من عسكره فى المعركة ، وأن على دولات اختفى فى قلعة زمنطوا ، وأن ابن عثمان ما هو راجع عن على دولات ، فشق على السلطان هذه الأخبار ، وأشيع أن ابن عثمان أظهر فى مكاتبته التى أرسلها للسلطان غاية العظمة وقال فيها : ان مقامنا الشريف ، وقال فى حق السلطان : مقامكم العالى ، وهذا من نوع الاستخفاف بالسلطان ، وكان سليم شاه بن عثمان هذا عنده جهل زائد ويحب اقامة الفتن ، وكان سفاكا للدماء فقتل اخوته وأولادهم وكان فيهم من هو مرضع ، عما قيل من جهله .

فلما كان يوم الجمعة ثانى الشهر ، صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم حلا هو والأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان وعلى دولات ، وأشيع أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب ، وأشيع أن السلطان أرسل يقول للأمراء الذين فى حلب : لا تجوا حتى ننظر ماذا يكون من أمر ابن عثمان وعلى دولات . ولكن غالب العسكر من المماليك السلطانية دخل الى مصر ، وكان السلطان قبل ذلك بعث اليهم مراسيم بالمجيء الى مصر لما قلقوا من أمر الغلاء الذى بحلب ، ثم بعد ذلك طرقه هذه الأخبار فندم على حضور العسكر ، وكثر فى ذلك القيل والقال بين الناس عن أمر مجيء العسكر حتى أشيع عودهم الى حلب والأحوال غير صالحة .

وفى يوم السبت ثالثه أنفق السلطان على جماعة الأمراء الذين لهم مرتبات على الذخيرة ، وكان لهم من حين توفى الأمير خاير بيك الخازندار لم يصرف لهم شىء ، فغلق لهم فى ذلك اليوم ما كان منكسرا لهم من المرتبات .

وفى يوم الأحد رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض عسكر الطبقة الخامسة وقال لهم : اعملوا يرقكم الى السفر فى أول ربيع الأول ، وسافروا الى الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند .

وقيل انه وعد الذى له جامكية ألف وخمسمائة درهم بأن يكملها له ألفى درهم اذا بيضوا وجوههم فى هذه السفرة وتصير جامكية الكل ألفى درهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء فى ذلك اليوم ، وقيل انه كتب عسكر الطبقة الخامسه جميعها وهم ما بين أولاد ناس ومماليك وتراكمة وغير ذلك .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى شهاب الدين بن الجيعان وتوجه الى العقبة لأجل ملاقاة ابن السلطان وخوند والقاضى كاتب السر ، فخرج وصحبته جماعة من المماليك السلطانية وغير ذلك من الأعيان ، وكان صحبته أشياء حافلة من مأكل ومشرب برسم المدات التى تعمل هناك ، وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من الأشياء الملوكية .

وفى يوم الاثنين خامسه جلس السلطان بالميدان ونادى للعسكر الذى جاء من حلب بأن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان وعليه أمان الله تعالى ، وكان العسكر من حين حضر من حلب وهو مختف فى البيوت لم يظهر منهم أحد .

وفيه حضر للسلطان شخص من بلاد جركس زعموا أنه ابن أخيه ، فطلع فى ذلك اليوم وقابل السلطان وكان رجلا كاملا شابا مستدير اللحية ، وكان يقرب للأمير الدوادار أيضا .

وفى يوم الخميس ثامنه حضر الى الأبواب الشريفة طراباى نائب صفد بطلب من السلطان ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وقيل كان أصله من مماليك يشبك بن حيدر .

وحضر عقيب ذلك قاصد من عند على دولات وعلى يده مكاتبة للسلطان يذكر فيها ما وقع له مع ابن أخيه سوار ، وأن ابن عثمان منعصب له وقائم معه ، والأمر على ما يراه السلطان . وكان سبب حضور نائب صفد قيل انه وقع بينه وبين أمير كبير حتى يرى الظالم من المظلوم فيحكم بينهم بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

وأشيع أن الشهابى أحمد بن الجيعان لما خرج الى ملاقاة ابن السلطان من العقبة أرسل صحبته السلطان خلعة سنية الى السيد بركات أمير مكة ، وقد بلغ السلطان حضوره صحبة المحمل مع ابن السلطان وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره طلع قاصد على دولات وقابل السلطان ، فلما قرأ مكاتبته جمع الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وقرأ عليهم مكاتبة على دولات ، ولم ينشرح السلطان فى ذلك اليوم ولا الأمراء لهذه الأخبار التى وردت عليه من على دولات بسبب ابن عثمان ، وأنه ما هو راجع عن على دولات وأظهر التعصب لابن سوار ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب الظهر وهم فى ضرب مشورة بسبب ابن عثمان وعلى دولات . وأشيع أن السلطان عين أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب ويقيمون بها زيادة على ما هناك من الأمراء المقدم ذكرهم ، حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان .

وفى هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا كمال الدين ابن قوسان ، وكان عشير الناس بشوشا مستغرقا

فى ملاذ نفسه ، وكان لا بأس به ، فمات وقد قارب السبعين سنة من العمر .

وفى يوم الأحد حادى عشره نزل السلطان وعدى الى المقياس وبات به تلك الليلة وانشرح هناك ، وقيل انه لم يبت بل أقام به الى بعد العصر وهو فى أرغد عيش من مأكل ومشرب ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، عين السلطان خاصكيا يقال له جانم ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان من ذوى العقول ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكتب على يده مطالعة الى ابن عثمان بالجواب عن مطالعته بما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمر على دولات وابن أخيه سوار ، وقرر معه اذا سافر يخرج على جرائد الخيل حتى يعود بسرعة الجواب عن ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره أشيع وصول ابراهيم بن السكر والليمون الى بندر الطور ، وكان قد تغير خاطر السلطان عليه فنفاه الى مكة فأقام هناك نحو ثلاث عشرة سنة ، فلما حصل للسلطان ذلك التوعك فى عينه كما تقدم ورسم باطلاق من فى السجون فتكلم بعض المباشرين مع السلطان وشفع فى عود ابراهيم هذا الى الديار المصرية ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وكتب له مراسيم بالحضور الى مصر ، فلم يحضر الا بعد أشهر ، وقد جاء من البحر الملح فوصل الى الطور على ما قيل ، وقد قاسى شدائد ومحنا عند عوده وأشيع أن أولاده وعياله وجميع ما يملكه غرقوا فى البحر ، وأمره الى الله تعالى .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه توفى القاضى ابن بيرم أحد نواب الحنابلة ، وهو أحمد بن على بيرم ، وكان بينه وبين وفاة أخيه شمس الدين دون السنة ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الأربعاء حادى عشرينه نزل الحاج بالبركة ، فنزل سيدى عمر بن الملك المنصور أمير ركب الأول ، ونزل الأمير طقطباى أمير ركب المحمل ، ونزل سيدى ابن السلطان وخوند زوجة السلطان ، وحضر صحبة ابن السلطان السيد الشريف بركات أمير مكة وولده وصهره عرعر ، وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وحضر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وأخوه بيبرس ، وغير ذلك من أعيان الحجاج ، فخرجت الأمراء قاطبة الى تلقيهم وأعيان الناس ، فكان لدخولهم الى بركة الحاج يوم مشهود ، ولاقاهم القضاة الأربعة فأقام ابن السلطان فى بركة الحاج الى بعد العصر وركب من هناك ودخل الى القاهرة فنزل فى مدرسة أبيه وبات بها ، وكذلك أمراء الحاج .

وأما خوند زوجة السلطان فانها طلعت الى القلعة فى المحفة تحت الليل وحولها المشاعل والفوانيس ، فطلعت من باب الدرفيل ولم يشعر بها أحد من الناس ، ودخل القاضى كاتب السر الى بيته تحت الليل ، وكان عليلا ، فدخل فى محفة الى داره .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشرين المحرم جلس السلطان بالحوش وعمل الموكب بالشاش والقماش وحضر الأتابكى سودون العجمى أمير كبير وسائر الأمراء المقدمين غيرهم وأرباب الدولة قاطبة . ثم ان ابن السلطان ركب من مدرسة أبيه التى بالشرابشيين وركب قدامه الشريف بركات أمير مكة وولده وصهره وهم بكوامل مخمل أحمر بسمور ، وكان السلطان أرسل تلك الكوامل الى الشريف صحبة الشهابى أحمد بن الجيعان الى

العقبة لما خرج الى ملاقاة سيدى ابن السلطان ، فلبس الشريف بركات وولده وصهره تلك الكوامل عند طلوعهم الى القلعة ، ولبس سيدى ابن السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، فلاقاهم رءوس النوب وهم بالشاش والقماش ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى سلم المدرج ، وكان قدامه الشريف بركات وأمراء الحاج ، فلما وصلوا الى سلم المدرج نزل ابن السلطان من على الفرس ، وكان تحتــه فــرس بوز بسرج وكنبوش ، وكذلك الشريف بركات وأمراء الحاج ، من عند المكان الذى تنزل عنده الأمراء المقدمون ، ثم طلعوا بالفرس ثانيا الى عند المصطبة التى يجلس عليها نائب القلعة ، فركب ابن السلطان من هناك ثانيا ، ومشى قدامه الشريف بركات ومسك بأزكة لجامه من على الميمنة ومسك بأزكة اللجام من على الميسرة الأمير طقطباى أمير ركب المحمل ، وكان الأمير طقطباى يومئذ مقدم ألف نائب القلعة ، ومشى قدامه الجم الغفير من الرءوس النوب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومشى قدامــه الشبابة السلطانيــة والشــعراء والشاوشية ، واستمر فى هذا الموكب الحافــل حتى وصل الى باب الحوش ، فنزل على مصطبة مشد الحوش ودخل من باب الحــوش والموكب عمال . وكان ابن السلطان عمره يومئذ نحو عشر سنين .

ولقد أدركت الملك المؤيد أحمــد ابن الأشرف أينــــال لما أن حــج — وكان اذ ذاك أتابك العساكر — فلما حضر من الحجاز وطلع الى القلعة ما وقع له مثل ما وقع لابن الأشرف الغورى هذا من المواكب الحافلة بالحوش ... فلمـــا وصل الى المصطبة التى جالس عليها السلطان تقدم الشريف بركات الى عند الســـلطان فقام له نصف قومة ، وباس أمراء الحج له الأرض ، ثم تقدم ابن السلطان وباس الأرض لأبيه ، فأحضر لهم الخــلع : على الشريف بركات مثمر وأطلسين ، وخلع على ابن الشريف بركات وصـــهره كوامل مخمل أحمــر بسمور ، وخلع على أميرى الحج لكل واحد منهما مثمر وأطلسين لكون أن سيدى عمر ابن السلطان ثم أحضروا لابن السلطان فوقانى حــرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض فوق الكاملية المخمل التى بالسمور ، ثم نزل الشريف بركات وولده وصهره من القلعة ، ودخل ابن السلطان الى دور الحرم ، وانفض ذلك الموكب على خير .

فلما نزل الشريف بركات وأمراء الحــاج من القلعة نزل صحبتهم الأتابكى ســودون العجمى وجماعة من الأمراء المقدمين ، فشقوا من القــاهرة وكان لهم يوم مشهود . فأوصلوا الشريف بركات الى المكان الذى أنزله فيه السلطان ، قيل أنزله السلطان فى بيت الأمير جانم مصبغة الذى بالقرب من مدرســة السلطان ، فأوصل الأمراء الشريف بركات الى ذلك المكان ورجعــوا الى بيوتهم ، وكذلك أمراء الحــاج ، وأما القاضى كاتب السر محمود بن أجا فانه لما رجع من الحجاز كان متوعكا فى جسده فلم يطلع الى القلعة ولا قابل السلطان ، وقد هنيته عند عوده من الحجاز بهــذين البيتين وهما :

عن كاتب السر شــاع فضــل
يستوجب الشــــكر والمحامد

قــــد عم من بره الــبرايا
وحج فى النــاس وهــو قاعد

فكان لهــذين البيتين موقع لما عرضا عليــه وقرأهما ، فلما رجع الحجاج الى القاهرة أثنوا بكل خير على سيدى عمر بن الملك المنصور أمير ركب الأول وشالوا له الرايات البيض فى وسط الرملة ، بخلاف الأمير طقطباى أمير ركب المحمل .

وأما خوند زوجة السلطان وولده فلم يثن عليهما أحد بخير ولا ظهر لخوند فى المناهل مكارم أخلاق كما كانت تفعل خوند الخاصكية زوجة الأشرف قايتباى لما حجت ، فلم ير لهم أحد من الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من كان معهم رد يشكو من الجوع ، فكان كما يقال فى المعنى :

وكم لله من رجل سمين
كثير المال مهزول البذال

كذاك الطبل يسمع من بعيد
وداخله من الخيرات خال

وكان سبب ذلك أن السلطان هذا أخس خلق الله وأبخلهم على الاطلاق ، فلم يمكن أحدا من الناس فى شىء من أمر السنيح ، وكان ابن السلطان صغيرا لا يحكم على شىء من أمور السنيح ، حتى قيل ردوا بالأكل الذى فى السنيح لم ينقص منه الا القليل ، فكان كما يقال :

لا تعجبوا ان سعى كريم
لحاجة فى يدى بخيل

فانه كالخلاء حتما
لابد فيه من الدخول

* * *

وفى صفر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان مستهل الشهر يوم السبت .

وفى يوم الأربعاء خامسه جلس السلطان فى القصر الكبير المطل على الرملة ، وعزم هناك على الشريف بركات أمير مكة ومد له أسمطة حافلة ، وأقام عنده الى أواخر النهار ، وقدم له السلطان تقدمة حافلة ما بين خيول وجمال وغير ذلك .

وفى يوم الخميس سادسه خلع السلطان على الشرفى يونس النابلسى الذى كان أستادارا وقرره فى استيفاء جيش الشام عوضا عن بدر الدين بن الانبابى بحكم وفاته ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى المقياس وعزم على الشريف بركات هناك ، وجلس معه فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، وأقام هناك الى أواخر النهار ، ومد له أسمطة حافلة ، ثم نزل فى مركب وشق من على الروضة وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، واستمر فى المركب حتى طلع من بولاق ثم توجه الى القلعة من هناك .

وفى الاثنين عاشره أشيع بأن فى تلك الليلة سرق من دار الضرب التى هى بالقلعة داخل الحوش السلطانى ثمانية آلاف دينار وكسور من الذهب الجديد الذى ضربه السلطان بسبب النفقة ، فذهبت ولا يعلم من فعل تلك الفعلة ، فلما بلغ السلطان ذلك ألزم المعلمين الذين فى دار الضرب بما سرق من ذلك القدر ، فمضت ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفى يوم ثالث عشره صمم المماليك على استعجال النفقة ، فأخرج السلطان من حواصل الذخيرة أشياء كثيرة من الأمتعة التى كانت فى الحواصل من ترك الخوندات والستات اللاتى متن واحتوى السلطان على موجودهن ، ما بين قماش وبشاخين زركش وعنبر وأوانى بلور وصينى وكفت وغير ذلك ، وأخرج أشياء كثيرة من شاشات وأزر وأثواب بعلبكى وأثواب صوف قبرسى وغير ذلك فقوم ذلك بنحو خمسين ألف دينار ، فطلب التجار ورمى عليهم تلك الأصناف بأغلى الأثمان فأطلق فى التجار النار ، وكان المتكلم فى ذلك محمد مهتار الطشتخاناه وقد جعله السلطان متكلما على حواصل الذخيرة من حين توفى الحاج يافوت

فراش الخزانة ، فشدد محمد المهتار على التجار فى جبى الأموال فجبيت منهم فى مدة يسيرة لأجل النفقة ، وحصل على التجار الضرر الشامل وقد خسروا فى الأثواب الصوف النصف فانها كانت معتوته ، كذلك خسروا فى البعلبكى والأزر والشاشات والأنطاع والمحابس اليمنى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أطلق فى المباشرين النار وضيق عليهم بسبب بواقى فضلات الأموال التى قررت عليهم من فضلات بواقى الحسابات ، فكتبوا له قوائم بما تأخر على المباشرين والعمال والمدركين وأرباب المصادرات فكان ذلك القدر نحو مائة ألف دينار ، فظهر على علاء الدين ناظر الخاص ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب خمسة عشر ألف دينار ، وعلى القاضى شرف الدين الصغير خمسة آلاف دينار ، وغير ذلك من العمال ومن بواقى المصادرات ، فأطلقوا فيهم النار بسبب النفقة على المماليك ، وما قاسى أحد من أرباب الدولة بسبب هذه النفقة خيرا ، وقد استحثهم السلطان فى سرعة ورود المال على النفقة .

وفى يوم الاثنين سابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أبرك أحد الأمراء المقدمين ، وأصله من مماليك السلطان ، وكان خرج الى حلب صحبة التجريدة وقد جعله السلطان باشا على المماليك الجلبان ، فلما رسم لهم السلطان بالعود الى مصر حضر الأمير أبرك قبل مجىء الأمراء فدخل الى مصر وسبق الباش ، ودخل صحبته جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ممن كان ، التجريدة ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وأنفق عليهم النفقة التى كان وعد العسكر بها وجرى بسببها ما تقدم ذكره ، فلم تكن هذه النفقة عامة على العسكر بل كانت لجماعة مخصوصة من المماليك ، فأعطى لمماليكه الجلبان لكل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى مثل ذلك للمماليك الأشرفية القايتبيية الشباب أصحاب الدقون السود دون الشيوخ ، ولم يعط المماليك القرانصة الشيوخ شيئا ، ولا المماليك السيفية شيئا ، ولا أولاد الناس شيئا ، ولاأصحاب الطبقة الخامسة التى تجددت ، فحصل للعسكر فى ذلك اليوم كسر خاطر الى الغاية ، وقيل ان بعض المماليك وقف اليه بسبب النفقة وأغلظ عليه فى الكلام ، فرسم بقطع جامكيته فى ذلك اليوم ولو زاد عليه لرسم بنفيه أيضا ، فلما جرى ذلك اعتبر بقية المماليك عن طلب النفقة .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن لا مملوكا يركب فى سرج بداوى ولا ركب بداوى ولا يتخلل باحرام صوف أبيض ولا يغطى وجهه اذا ركب ، ولا مملوك ولا غلام ولا عبد يخرج من بعد العشاء ، وصار يكرر هذه المناداة يومين موالية ، فشق على المماليك هذه المناداة وكانوا قد زادوا فى الضرر للناس .

ثم ان جماعة من المماليك توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار ليكلم السلطان فى أمر النفقة على بقية المماليك ، فلما كلمه لم يفد من كلامه شيئا ، واستمر السلطان باقيا على عدم النفقة على المماليك الشيوخ والعواجز ، فما وسعهم الا الصبر والسكوت عن ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنفقت عمرى وصحتى شغفا
عليك والصبر آخر النفقة

وفى أثناء هذا الشهر حضر الأمير اينال باى دوادار سكين وكان توجه الى حلب بسبب مجىء

العسكر وغير ذلك من الأشغال السلطانية ، وحضر الأمير خاير بيك المعمار ، وكان توجه الى العقبة بسبب اصلاح العراقيب التى بطريق العقبة لأجل خوند وابن السلطان قبل أن يحجوا الى العقبة .

وفى هذا الشهر كثر الدعاء من المماليك القرانصة على السلطان بسبب منعه لهم من النفقة .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره أرسل السلطان خلف قاضى القضاة الشافعى محيى الدين بن النقيب المنفصل ، فتوجه اليه بعض مهاترة الطشتخاناه ، فلما طلع به أرسل السلطان يقول له : « أورد ثلاثة آلاف دينار وتول وظيفتك على العادة » . فأرسل يقول للسلطان : « ما معى حاضرا غير ألف وخمسمائة دينار فولونى وقسطوا الباقى على كل شهر مائتا دينار » . فما رضى السلطان بذلك وانفصل المجلس مانعا ، فلما نزل ابن النقيب من عند السلطان أتى اليه الزينى بركات بن موسى ، فأخذه من المدرسة الناصرية ، وأركبه على حمار وتوجه به الى داره ورسم عليه حتى يرد ثلاثة آلاف دينار ان ولى أو لا يلى ، فأقام عنده فى الترسيم أياما ثم توجهوا به الى بيت القاضى كاتب السر وأحضروا له شرف الدين بن الأسيوطى الوكيل ، والقاضى شمس الدين بن وحيش ، ويقصدون أن يدعوا عليه بأن تحت يده ثلاثة آلاف دينار ثمن بدل عن وقف ابتاعه وأن ذلك القدر تحت يده ، فاعترف ابن النقيب بذلك وقال : « قد دفعت من ذلك القدر ألفين ومائتى دينار للسلطان » . وأظهر رجعة ذلك ، وذكر أن باقى ذلك المبلغ فقد من حاصله ، فانصرف فى الترسيم الى بيت ابن موسى يرد ثلاثة آلاف دينار فقاسى من البهدلة ما لا خير فيه واستمر فى الترسيم مدة حتى يرد ذلك القدر ، ثم أشيع ولايته الى القضاء أياما وخمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن ، وكان ابن النقيب أرشل قليل الحظ غير محبب للناس .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه كان أول يوم من الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم ، ومن جملة لطف الله تعالى لم يقع فى هذه السنة طاعون بمصر .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وساق قدامه الرماحة كما يسوقون عند دوران المحمل فى رجب ، وكان الشريف بركات أمير مكة حاضرا عند السلطان ، فلما مضى أمر الرماحة دخل السلطان هو والشريف بركات الى البستان الذى بالميدان ومد له أسمطة حافلة .

وفيه عين السلطان شخصا من الخاصكية يقال له جانم بأن يتوجه الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ويكشف عن أخباره هل هو يقصد أن يمشى على بلاد السلطان أم على بلاد الصفوى ، فان الاشاعات كانت كثرت بمشى ابن عثمان على بلاد السلطان ، فخرج جانم هذا بسبب ذلك ، وقيل لأجل أقارب السلطان الذين أتوا من بلاد جركس وأسرهم بعض ملوك التتر ، فتوجه جانم ليشتريهم من ملك التتر بمبلغ له صورة .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه فيه أكمل السلطان أمر النفقة ، واستمر مصمما على عدم اعطاء النفقة للمماليك القرانصة والسيفية وأولاد الناس ، ثم فى أثناء ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن المماليك الذين أخذوا النفقة يعملون يرقهم ويكونون على يقظة فان التجريدة عمالة الى حلب ، فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان عائقا مجرما وله عدة قتلاء ، فشنق على باب الدرب الذى فى السبع سقايات .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة من يومه .

* * *

وفى ربيع الأول طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم عادوا الى بيوتهم .

وفى يوم الاربعاء ثالثه ورد على السلطان أخبار غير صالحة بأن سليم شاه ابن عثمان قد جهز عساكر عظيمة ورمى عدة مراكب فى البحر ، وأنه زاحف على على دولات بنفسه ، فتنكد السلطان لهذا الخبر ورسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ويقول لهم . اطلعوا الى عند السلطان حتى يقرأ عليكم الكتب التى وردت عليه عن أخبار ابن عثمان . فطلعوا الى عند السلطان فى ذلك اليوم ، فلما اجتمعوا قرأ عليهم ما ورد عليه من المطالعات عن أخبار ابن عثمان ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر وهم فى ضرب مشورة بسبب على دولات وابن عثمان ، ثم بعد أيام خمدت تلك الاشاعات واستمر الأمر مبنيا على السكون .

وفى يوم الأربعاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وساقوا قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل فى رجب ، واجتمع فى الميدان الجم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان الشريف بركات حاضرا مع الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم توفى الأمير أسنباى الأصم أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان مماليك الأشرف قايتباى ، وكان علامة فى لعب الرمح وقد فاتته التقدمة من قبل ذلك ، وكان لابأس به ، وقد مات فجأة على حين غفلة .

وفى يوم الخميس حادى عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوى ونصب الخيمة الكبيرة المدورة بالحوش ، قيل ان مصروف تلك الخيمة على الأشرف قايتباى ستة وثلاثون ألف دينار ، فحضر القضاة الأربعة والشريف بركات أمير مكة ، قيل أجلسه السلطان فوق الاتابكى سودون العجمى ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف ومشايخ العلم ، وكان يوما مشهودا على العادة .

وفى يوم السبت ثالث عشره أشيع أن اقطاع أسنباى الأصم أنعم به السلطان على الأمير قايتباى الذى كان نائب الكرك ، فصار من جملة الأمراء الطبلخانات

وفيه حضر الأمير ألماس دوادار سكين الذى كان توجه الى طرابلس بسبب ضبط موجود جانم نائب طرابلس الذى توفى ، وقرر عوضه تمراز مملوك السلطان الذى كان نائب قلعة حلب ، وقرر فى نيابة قلعة حلب قانصوه الساقى عوضا عن تمراز الأشرفى بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس ، وتوجه ألماس أيضا بسبب تقليد تمراز المذكور لما ولى نيابة طرابلس ، وبسبب جبى الأموال التى قررت على عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من البلاد بسبب المشاة ، فأهلك الحرث والنسل .

وفى يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر الذى كان توجه الى حلب ، وحضر الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، وحضر الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكانوا توجهوا فى هذه التجريدة صحبة أمير آخور ، فلما دخلوا الى القاهرة باتوا فى مدرسة السلطان ، ثم طلعوا الى القلعة وقابلوا فى ذلك اليوم السلطان ، فخلع عليهم كوامل بسمور ونزلوا

الى دورهم في موكب حافل ، فكانت مدة غيبة الأمراء في هذه السفرة نحو تسعة أشهر ورجعوا وهم سالمون لم يفقد منهم أحد ، ولا وقع بينهم قتـال بسبب ابن عثمان والصفوى ، لكن قاسى العسكر في هده السفرة مشقة زائدة بسبب الغلاء الذى وقع بحلب وقلة العليق على الخيول ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم ، فدخلوا الى مصر وهم في غاية التعفيش ومنهم من دخل وهو راكب على حمار .

وفى ذلك اليـوم أكمل السلطان على العسكر النفقة المقدم ذكرها على حكم ما شرح فيه ولم يعط المماليك القرانصة العواجز ولا أولاد الناس شيئا ، وصار الذى يأخـذ النفقة يكتبه كاتب المماليك طائفة الى جهة الشرقية وطائفة الى جهة الغربية ، وطائفة الى منفلوط وطائفة لحفظ الجسور ، فصار بعض المماليك يقول : « ما لنا حاجة بنفقة على هذا الوجه » .

فلما أقام قانى باى أمير آخور فى المدينة ثلاثة أيام أهدى الى السلطان تقدمة حافلة على ما قيل ، فكان من جملتها ذهب عين عشرة آلاف دينـار وخمسة وعشرون مملوكا جراكسة وخيول خاصات أربع طوابل وأربعمائة رأس غنم وأثواب بعلبكى وأثواب صوف وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيـل أحضر الى السلطان ثمانين ألف دينار وذلك ممـا جباه من أمر المشاة الذين أفردهم السلطان على الشام وحلب وحماه وغير ذلك من البلاد بسبب المشـاة التى تخرج قدام العسكر فى التجريدة ، فحصل على أهل تلك البـلاد منه الضرر الشامل وأخذ أموالهم بالظلم والعسف ، وقرر على جهات البلاد الشـامية من الاقطاعات والرزق على كل رأس من الفلاحين قدرا معلوما ، كما فعل بعربان جبل نابلس وغيره من البلاد ، فضج منه الأفلاك والأملاك بسبب ذلك ، وكان المحرك لذلك يوسف ابن أبى أصبع .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وأرسل خلف التريف بركات أمير مكة ، وحضر أمير كبير وجماعة من الأمراء المقدمين ، ثم أحضر مماليك يرمون بالنشـاب على الخيل وهم باللبس الكامل فأظهروا أشـياء عريبة فى فنـون الرماية ، وأحرق السلطان احراقة نفط بالنهار فى الميدان ، وأحضر الأفيال الكبار فتصارعت قدامه ، وكذلك السبع والهزبر ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم وكان يوما مشـهودا فأقام فى الميدان الى قريب الظهر

وفى يوم الجمعة تاسع عشره الموافق لسـابع بشنس القبطى ، فيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، وكان الوقت يومئذ رطبا .

وفى يوم السبت عشرينه نزل السـلطان الى الميدان وبات به ليلة الأحد ، فدخل الى البستان الذى أنشأه به فأطلق ماء البحرة ونثر فيها الورد والياسمين ، وفرش حولها الفرش الفاخرة ، وعلق بين الأشجار أحمال قناديل وتعاليق كثيرة ما بين تنانير وأمشاط وغير ذلك حتى أضـاء البستان بالنور ، ثم أرسـل خلف الشريف بركات وبات عنده تلك الليلة ، ومد له أسمطة حافلة وطوارى فاخرة ما بين حلوى وفاكهة وغير ذلك ، ثم أحضر اليه مغانى البلد وأرباب الآلات الدواخل ، فكانت ليلة حافلة من الليـالى الملوكية ، كما قال فيهـا الشاعر :

ومجلس راق من غير واش يكدره
ومـن رقيب له فى اللـوم ايـلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به
على الندامى سوى الريحـان نمام

فلما أصبح صبح يوم الأحد خرج السلطان وجلس فى الميــــدان وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشـــاب على القبق ، فأقام فى الميدان يومين وليلة ثم طلع الى القلعة ، وقد بالغ فى اكرام الشريف بركات بأشياء لم تقع لأحد من أجداده ولا أقاربه .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه ، فيــه خلــع السلطان على أمراء الحاج فقرر الأمير علان أحد المقدمين ودوادار ثانى أيضا أمير ركب المحمل ، وقرر الجنــاب العــلاء على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينـــــال أمير ركب الأول ، فكان لهما موكب حافل .

وفى ذلك اليوم أشيع أن خشـــقدم شــاد الشـــون قد هرب وصحبته جمــاعة من المماليك السلطانية فهيأ له مركبا بستة عشر مقدافا ، وقيل انه أخذ معه نحو عشرة مماليك ، وخرج من مصر على حمية ، فأشيع أنه قد توجه الى عند ســليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقيل ان له أخا عند ابن عثمان أمير من أمرائه فتوجه اليه ، وأصــل خشـــقدم هذا من مماليك الســلطان قانصـــوه الأشرف الغورى من مشترياته ، وكان أنعم عليه بامرة عشرة وجعله رأس نوبة عصاة ثم قرره فى شادية الشون ، وكان قبل ذلك تكلم فى نيابة جدة نيابة عن الأمير حسين نائب جدة فاستمر على ذلك مدة ، ثم ان السلطان صادره وأخــذ منه نحــو خمسة آلاف دينار ، وكان خشقدم هذا متزوجا بينت جانى بيك دوادار طراباى الذى كان ناظر الديوان المفرد ، فلما قبض الســلطان على جانى بيك أمر خشقدم بطلاق بنت جانى بيــك غصبا وقيل كان له منها أولاد وربما آلزمه بما تأخر على جانى بيك من المال ، فما طاق خشقدم ذلك وحمل على نفسه فهرب نحو بلاد ابن عثمــان ، فكان كما يقال فى المعنى :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

فلما أشيع توجه خشقدم الى بلاد ابن عثمان كثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، وقيل ان أخا خشقدم هذا كان مقيما عند ابن عثمــان ســليم شاه وهو من أخصــائه ، فخشى بعض العقلاء أن خشقدم يحسن لابن عثمان أن يمشى على بلاد السلطان ويهون عليه ذلك الأمر ، والله غالب على أمره .

وفى يوم الجمعة سادس عشرين هذا الشــهر كانت وفاة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبــير الذى كان باش العسكر المتوجه الى حلب ، وكان موته بغتة على حين غفــلة ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع أنه مات مسموما من بعض أخصائه ، والعلم عنــد الله تعالى ، وكان أصــل الأمير قانى باى هذا من مماليــك الملك الأشرف قايتباى من مشترياته ، فأعتقه وأخرج له خيــلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى سلحدارا ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة فى سنة ثمــان وتســعين وثمانمائة ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، وقرره فى نيابة صهيون ، وقيل سعى فيها بمال له صورة فأقام بصهيون مدة ، وكان الساعى له فى نيابة صهيون الأمير أزبك الخازندار ، وقيل قرر فى امرية الكبرى بحلب مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر وبقى مقدم ألف فى دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير آخور كبير — بعد وقعة الأمير أقبردى الدوادار — لما قتــل الأمير كرتباى ابن عمة الأشرف قايتباى فى

مدرسة السلطان حسن ، فقرره الملك الناصر فى امريه آخوريه الكبرى عوضا عن الأمير كرتباى بحكم قتله ، وذلك فى المحرم سنه ثلاث وتسعمائة فأقام فى امرة آخورية الكبرى نحوا من ثمـانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميرا جليـلا مبجلا معظما ، فى سعة من المـال والسلاح والبرك والخيول والبغال والجمال والمماليك ، وكان فى ملاءة من كل شيء ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى عند المصنع تجاه سوق الخيل ، والجامع الذى بالقرب من ميدان المهـارة الذى بجوار البركة الناصرية ، وكان له من العمر لما مات نحو ستين سنة .

وكانت صفته طويل القامة ملىء الجسد أسمر اللون جـدا كما وكزه الشيب ، وكان مشـهورا بالشجاعة والفروسية ولعب الرمح بحيث كان يدعى بقانى باى الرماح ، لكنه كان عنـده الطمع الزائد والظلم والعسف ، وكانت معاملته أنحس المعاملات يأكل أموال الناس بغير حق ، وان وضع يده على وقف أو تركة أكلها عن آخرها ، وان اشترى من أحد شيئا أكل ثمنه عليـه ، وان استعمل صنايعيا أو مسببا قطع مصانعته فى أجرته ، ويخرج من بابه غير راض عنه .

وكان السلطان قرره باش العسكر على التجريدة التى توجهت الى حلب ، فاظهر فى البلاد الشامية والحلبية غاية الظلم ، وأفرد الأموال الجزيلة على جهات البلاد الشامية والحلبية بسبب المشاة الذين يكونون أمام العسكر ، فجار على الناس وأخذ جملة من الأغنام لأهل الضياع من الفلاحين نحو ثلاثين ألف رأس غنم ، وقيل أكثر من ذلك .

وكان السلطان فى وقت عينـه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العربان ، فكان اذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلخه من رأسه الى قدميه ، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان العصاة على ما قيل عنه ، وكانت مساوئه أكثر من محـاسنه ، وكان شديد القسوة كثير الجهل ، وقد أراح الله تعالى الناس منه . فلما مات لم يثن عليه أحد من الناس بخير قط ، وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة :

جهنـم منـــذ قالت
لقـانى باى خـذ حذارك
قد زاد نيران وجـدى
من كثرتى لانتظـارك

وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه من ذلك ، ولكن أحببت أن أذكر هنا شيئا من مساوئه حتى يعتبر من بقى لعل أن تحسن أخبارهم من بعدهم .

وكان السلطان متأثرا من الأمير قانى باى هذا فى الباطن ، وقد عين له امرة السلاح غير ما مرة ويترك امرية آخـورية الكبرى فيأبى من ذلك ، وكان السلطان له قصد أن يقرر أحـدا من أخصائه فى أمرية آخوريه الكبرى فيعـارضه فى ذلك ، فلما مرض الأمير قانى باى استمر مقيما بباب السلسلة فى مدة انقطاعه نحو خمسة أيام ، فمـات ببـاب السلسلة ليلة الجمعة بعد العشاء ، فرسم السلطان أن ينزل الى داره وهو ميت فنزلوا به فى تابوت الى بيته الذى عند حدرة البقر .

وكان متزوجا ببنت الأمير يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير فأقامت له نعيا بالطارات ، واستمرت تدق عليه بالطارات ثلاثة أيام متوالية فعز ذلك على السلطان فى الباطن ، وأشيع بين عياله أنه قد مات مسموما ، فحقد ذلك على بنت الأمير يشبك فيما بعد وقرر عليها فوق الثلاثين ألف دينار وزعم أن

قانى باى أمير آخور أودع عندها مالا فشرعت فى بيع جهازها حتى ترد ما قرر عليها من المال .

فلما كان يوم الجمعة حضر القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأخرجت جنازته من بيته وقدامه كفارة ، فطلعوا به من على حدرة البقر ، فلما وصل الى الرملة نهب العوام تلك الكفارة ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وصلى عليه وكانت جنازته حافلة ، ثم رجعوا به من المصلاة ودفنوه فى مدرسته التى تجاه سوق الخيل ، وخلى بعمله وانقضى أمره .

وفى يوم السبت سابع عشرينه فيه ابتدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان على العادة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه وقف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة وباسوا الأرض للسلطان وسألوا بأن يكون سيدى ابن السلطان أمير آخور كبير عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته ، فأعجب السلطان ذلك فى الباطن وقد مشت الأمراء فى غرض السلطان لما رأوا له قصدا فى ذلك ، فأنعم على ولده المقر الناصرى محمد فى ذلك اليوم بامرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى قرا ، فحضر ابن السلطان وباس الأرض على ذلك الانعام له .

***

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد بالغ السلطان فى اكرام السيد الشريف بركات وقام اليه وعظمه تعظيما بالغا .

وفى يوم الخميس ثانى الشهر أكمل السلطان النفقة على جماعة من المماليك القرانصة ، وكان عول قبل ذلك أن لا ينفق عليهم شيئا ، ثم أنفق عليهم ، ولكن أعطاهم السم فى الدسم فكتب منهم جماعة الى الشرقية وجماعة الى العربية وجماعة الى العقبة والأزلم والى منفلوط ثم صرح لهم جهارا وقال : « الذى يطلب يخرج ويسافر من يومه والذى ما يطلب نفقة يقعد ويستريح فى بيته » . فرجع غالب المماليك عن طلب النفقة والذى أخذ النفقة خرج الى السفر من يومه .

وفى يوم الاثنين سادس هذا الشهر عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير ، ودار نقيب الجيش على الأمراء المقدمين وأعلمهم أن الموكب بالقصر الكبير ، وهو بالتساش والقماش ، فلما تكامل الموكب وحضر الأمراء المقدمون طلب السلطان ولده المقر الناصرى محمد وخلع علنه وقرره فى امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته . فلما خلع عليه نزل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فنزل من سلم المدرج وتوجه الى باب السلسلة وقدامه الأمراء قاطبة بالشاش ، ومشت قدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فدخل الى باب السلسلة ونزل على سلم الحراقة وطوب للأمراء وانفض ذلك الموكب الحافل ، وكان سن ابن السلطان يومئذ احدى عشرة سنة .

ولم يسمع فيما مضى من الأخبار المتقدمة أن ابن سلطان ولى أمير آخور كبير سوى هذا ، ولكن الملك الظاهر خشقدم قرر ربيبه الشهابى أحمد بن العينى أمير آخور كبير ولم يكن ابن سلطان ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يسمع فيما مضى من الأخبار أن ابن سلطان ولى الأتابكية فى حياة والده وتسلطن منها سوى الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

وفى يوم الأربعاء ثامنه نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس فى الحراقة ومد بها سماط الغداء ،

ثم عرض مماليك الأمير قانى باى أمير آخور وعرض البوتات التى كانت للأمير آخور ورسم بجميع ذلك الى ولده .

وفى يوم الخميس تاسعه رسم السلطان لولده أن يركب ويتوجه الى بيت أمير كبير سودون العجمى ويتشكر منه الذى تعصب له فى أن يلى أمير آخور كبير ، فنزل وصحبته الأمير طومان باى أمير دوادار كبير وجماعة من الأمراء العشراوات والجم الغفير من المماليك والخاصكية ، فشق من الصليبة وتوجه الى بيت أمير كبير فقام اليه ولاقاه من الحوش ، ثم ألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم شق من الصليبة ثانيا فى موكب حافل فطلع وهو لابس الفوقانى الكاملية ، فباس الأرض للسلطان ثم رجع الى باب السلسلة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه توفى الأمير نانق الغورى الخازن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان عند السلطان من المقربين ، فكان مونه فجأة على حين غفلة ، وكان متهورا بالشح الزائد والبخل وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له بيبردى ابن كسباى وقرره باش المجاورين بمكة عوضا عن جانى بيك قرا الذى كان بها فى السنة الخالية ، وخلع على شخص من الأمراء العشراوات الرءوس النواب يقال له قراكز الجكمى وقرره فى نظر الحسبة الشريفة بمكة ، وكانت الحسبة مضافة لباشية مكة ففصلها السلطان منها وقرر بها قراكز هذا .

وفى يوم السبت خامس عشرينه كان ختام ضرب الكرة ، فلعب السلطان الكرة فى الميدان ، ثم طلع الى القلعة وعزم على الأمراء وجلس فى المقعد الذى أنشأه بالحوش ومد لهم هنالك أسمطة حافلة وطوارى فاخرة ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر ، وكان السيد الشريف بركات أمير مكة حاضرا ذلك المجلس فبالغ السلطان فى اكرامه وتعظيمه الى الناية وأجلسه فوق أمير كبير ، ثم أحضر السلطان ثيرانا وكباشا تتناطح قدامه فى الحوش ، فلما دخل وقت الظهر أحضر جماعة من المماليك لعبوا خصمانية فى الرمح واستمروا على ذلك الى بعد العصر ، ثم انفض ذلك الجمع ونزل الأمراء الى بيوتهم .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقباى الذى كان كاشف الشرقية وكان قد توجه الى نحو طرابلس فى أشغال السلطان ، فلما طلع الى القلعة كان عليه كاملية بسمور من عند نائب طرابلس انعاما .

* * *

وفى جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر ، ثم ان السلطان خلع فى ذلك اليوم على السيد الشريف بركات خلعة السفر وأذن له بالعود الى مكة ، فخلع عليه أطلسين وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية ، وخلع على ولد الشريف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع على عرعر صهر الشريف بركات كاملية صوف بسمور ، وخلع على شخص من أولاد دراج أمير الينبع وقرره فى امرة الينبع ، وجعل للشريف بركات التحدث على بندر الينبع يولى به من يشاء من تحت يده ويعزل من يشاء .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولده المقر الناصرى محمد أمير آخور كبير خلعة الانظار ،

فألبسه أطلسين وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية ، فخـرج من الميدان وقدامه السيد الشريف بركات أمير مكة والأتابكى سودون العجمى وجمـاعة من الأمراء المقـدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فشقوا من القاهرة فى موكب حافل وكان لهم يوم من الأيام المشهودة ، فتوجه ابن السلطان الى المدرسة البرقوقيـة على جارى العادة ، وتوجه السيد الشريف بركات الى تربة الملك الظاهر برقوق فأقام بها الى حين يرحل .

وفى يوم الجمعة ثانى هذا الشـهر أرسـل السلطان الى السيد الشريف بركات تقدمة حافلة وهو فى تربة الظاهر برقوق ، فكان من جملتهـا ذهب عين أربعة آلاف دينار ، وأربعة مماليـك فرسـان وهـم باللبس الكامل ، وكان الشريف بركات اشترى من مصر مماليك ، وأهدى اليـه الأمراء عدة مماليك ، فكان معـه نحو خمسـين مملوكا مكملة بالسلاح ، وأرسل اليـه السلطان ست بقج ضمنها صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعلبكى وتفـاصـيل حـرير سكندرى وأبراد منزلاوى وشقق برق بجر ذهب وأثواب مخمـل ملون وأثواب برصاوى مزهر بقصب ، فأرسـل اليه من كل صنف من هذه الأصناف عشر قطع ، وأرسـل اليه نمچاه زعموا أنهـا نمچاه بعض الصحابة ، فكتب السلطان اسـم الشريف بركات عليها وسقطها بالذهب ، وأرسل اليـه أربعـة أسياف خاص وهى مسقطة بالذهب ، وأرسـل اليه أربع زرديات وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه صنجقين سلطانى بطلعتين فولاذ ، أحدهمـا حرير أصفر مرقوم بالذهب وآخر حـرير أصفر برسم الأسفار ، وأرسل اليه محفة بغشى جـوخ أصفر ، وكان قبل ذلك أرسل اليه عدة خيـول وهجن وجمال بخاتى وبغـال وسلاح برسـم المماليك الذين معه ، وقد أغدق عليه بكثرة الانعام له حتى أدهشه بالعطايا فوق ما أهدى اليه السيد الشريف بركات بأضعاف ، فلمـا وصلت هـذه التقـدمة الى الشريف بركات خلع على غلمـان السلطان والمهتار محمد مهتار الطشتخاناه الخلع السنية وفرق عليهم الدنانير والدراهم ، ولم يقع لأحد من أجـداده ولا أقاربه ما وقع له مع الملك الأشرف قانصـوه الغورى ، وقد بالغ فى اكرامه وتعظيمه جدا .

وفى يوم الأربعاء سابع هـذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبـارك ، وأخـذ قاع النيل فجاءت القاعدة سبع أذرع وأربع أصابع ، أرجح من نيل السنة الخالية بعشرين أصبعا كما قيل .

وفى يوم الأربعاء المذكور توجه القاضى كاتب السر محمود بن أجا ونائبه الشهابى أحمـد بن الجيعان ، فتوجها الى السيد الشريف بركات أمير مكة وعلى أيديهمـا تقيـد بولاية امرة مكة ، وقد بالغـوا فى نعته وترجمته الى الغـاية ، ثم أحضروا له مصحفا شريفا وسيفا وحلفه عليهما أنه لا يخون السلطان ولا يعطى عليه ولا يخرج عن طاعته على ممر الليالى والأيام ولا ولا ... فلمـا حلف كتبوا صورة هذا الحلف فى ورقة وأشهدوا عليه وكتب خط يده على تلك الورقة ، ثم عادوا الى القلعة وعرضوا ذلك الحلف على السلطان ، وكل ذلك وقـع والشريف بركات فى تربة الظاهر برقـوق ، فألبس الشريف بركات القاضى كاتب السر كامليـة مخمل بسمور وكذلك الشـهابى أحمد بن الجيعان .

وفى يوم الجمعة تاسعه نزل الأمير طومان باى الدوادار من عند السلطان الى المقـر النـاصرى محمـد ابن السـلطان وعلى يده منشور باقطاع

الامرية بالتقدمة ، فلما نزل الأمير طومان باى الى عند ابن السلطان بالمنشور ألبسه أطلسين وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض واركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فلما وصل الأمير الدوادار الى بيته أرسل اليه ابن السلطان على يد لالاته سنبل الطواشى خمسمائة دينار وقيل ألف دينار ، فألبسه الأمير الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور ودفع اليه خمسين دينارا ، وقد تعاظم أمر ابن السلطان فى امرية آخورية الكبرى وصار فى كل ليلة يوقد على باب السلسلة فانوسين أكرة وكذلك على باب الميدان وقد عظم أمره جدا ، ورسم السلطان أن أحدا لا يقول له سيدى بل يقولون له أمير آخور كبير .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره جلس السلطان فى الميدان وعرض العسكر أصحاب الطبقة الخامسة ، فكتب منهم جماعة نحو ستمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، وعينهم الى جهة الهند ، وكان فيهم جماعة من مماليك السلطان الجلبان وجماعة من المماليك القرانصة وأولاد الناس وغير ذلك ، وكان السلطان من حين بلغه أن الفرنج تزايد عبثهم فى البحر الملح وطفشت به مراكب الفرنج ، فاهتم بعمارة مراكب فى السويس نحو عشرين مركبا وأوسقهم بالسلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك من آلة الحرب ، وجعل سلمان العثمانى رئيسا لتلك المراكب ، وتحت يده جماعة كثيرة من العثمانية والمغاربة البحارة نحو ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، فلما عين السلطان العسكر فى ذلك اليوم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم أن النفقة تكون يوم الثلاثاء بعد النصف ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابع عشره أشيع بين الناس أنه فى ذلك اليوم حضر هجان من البلاد الحلبية وأخبر أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم مشى على شاه اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، فلما بلغ على دولات أن طائفة من عسكر ابن عثمان قد قربت من بلاده خرج اليها وتحارب معها فانكسرت تلك الطائفة اليسيرة التى من عسكر ابن عثمان وقتل منها جماعة ونهب على دولات ما معهم ، فعند ذلك طمع على دولات فى عسكر ابن عثمان ، فلما بلغ سليم شاه بن عثمان ذلك أرسل الى على دولات عسكرا ثقيلا نحو ثلاثين ألف مقاتل على ما قيل ، ومعهم من الأمراء نحو سبعة أمراء من أمرائه ، ومعهم سبعة صناجق فتحاربوا مع على دولات وكسروه ونهبوا عسكره ، وقتل على دولات فى المعركة هو وولده ، وحزوا رءوسهما على ما قيل وأشيع ، ووقعت الكسرة على على دولات وقد قويت الاشاعات بقتله والعلم عند الله تعالى .

فلما سمع السلطان هذا الخبر تنكد له الى الغاية ، ثم أرسل خلف الأمراء فى ذلك اليوم وأطلعهم على ما بلغه من هذه الأخبار وضربوا مشورة فيما يكون من أمر هذه الواقعة ، والأمر لله فى ذلك ، فكان حال على دولات مع ابن عثمان كما يقال فى المعنى :

لا تأمنن عدوا وان دنا للمنيه
فحية السم تدعى بعد المنية حيه

وقد تقدم القول على أن ابن عثمان كان متعصبا لابن شاه سوار بأن يرد اليه بلاد أبيه سوار من يد عمه على دولات ويوليه مكان أبيه ، فكان يخشى من السلطان . وقد تقدم القول على أنه كان أرسل يسأل فصل السلطان فى ذلك ، وكان الأمر مبنيا على السكون فما يعلم الآن ما يصير من بعد ذلك .

وفى يوم الخميس خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة السيفى جانم الخاصكى الذى كان توجه الى ابن عثمان ، فلما حضر أخبر أن ابن عثمان أكرمه غاية الاكرام وخلع عليه عند عوده الى مصر خلعة تماسيح بسمور ، ولكن هذا الأمر حدث من بعد مجىء جانم من عند ابن عثمان ، والحركات والسكون بيد الله تعالى .

وفى ذلك اليوم خرج نائب بهنسا الذى قرره السلطان بها وهو شخص من الخاصكية خادم السجادة يقال له قانصوه العجمى ، وأصله من مماليك السلطان الغورى ، وقد سعى فى هذه النيابة بمال له صورة حتى وليها .

وفى يوم الخميس المذكور رحل السيد الشريف بركات من تربة الظاهر برقوق وتوجه الى بركة الحاج وعزم على السفر الى مكة ، فخرج معه جماعة كثيرة من الناس يرومون الحج ، فخرجوا صحبته الى مكة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه أنفق السلطان على العسكر المعين للهند نفقة السفر ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينارا ، ووعدهم أن ينفق عليهم جامكية ستة أشهر معجلا قبل أن يسافروا ، وقيل أعفى منهم جماعة من أولاد الناس ممن شكا ضعفا فى جسده أو من به حب أفرنجى[1] ، وصار يصرح لهم جهارا ويقول : « الذى ما يطيق سفر البحر الملح يعلمنى بذلك فأعفيه من السفر » ... فعد ذلك له من محاسنه .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الشيخ يحيى صاحب جربة قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وكان لا بأس به ، وقيل انه مات قهرا من أولاده وقد افتتنوا فى بعضهم وقتل بعضهم بعضا ، فحصل له توعك فى جسده واستمر عليلا الى أن مات .

* * *

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه أنفق السلطان على العسكر المعين للهند جامكية أربعة أشهر معجلا ، ومنهم من تشكى بأن به الحبة الافرنجى وما يقدر يسافر فأعفاه السلطان من السفر وقال له : « أعد النفقة التى أخذتها ولا تسافر » . وربما رسم على بعض أولاد الناس حتى يعيد الخمسين أشرفيا التى أخذها نفقة وقال لهم : الذى ما يقدر على السفر وهو ضعيف يعيد النفقة ولا يسافر ، وكان مجموع هذا العسكر الذى كتب للهند نحو خمسمائة انسان ، غير التراكمة البحارة من جماعة الرئيس سلمان .

وفى يوم الأربعاء سادسه عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى علاء الدين الاخميمى ، فكانت مدته فى هذه الولاية سنة وسبعة أشهر الا يومين ، وكان ماشيا فى منصب القضاة على الأوضاع كما ينبغى ، ومباشرا هذه الوظيفة بعفة زائدة وحسن تصرف ، وجاء فى منصب القضاة كفؤا لذلك ، وعزل من هذه الوظيفة والناس عنه راضية وحاز الثناء الجميل من الدين والخير ومنع الرشوة ، وكان فى مدة ولايته لا يتعاطى شيئا من معلوم الأنظار بل كان ينعم بذلك على طلبة العلم والفقهاء وغير ذلك .

فلما عزل خلع السلطان فى يوم الأربعاء المذكور على قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب وولاه القضاء ، وهذه سادس ولاية وقعت

(1) هو مرض الزهرى .

له بالديار المصرية ، منهـا خمس ولايات فى دولة الأشرف الغورى والولاية الأولى فى دولة الأشرف جان بلاط ، فلما لبس التشريف بالمقعـد الذى بالحوش نزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه القضاة الثلاثة وسائر نواب الشافعية وناظر الجيش وناظر الخاص وغير ذلك من الأعيان ، فتوجه الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، ولكن سعى فى هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار غير خدمة للأمير الدوادار الكبير والدوادار الثانى والقاضى كاتب السر . فقيل نفد منه فى هذه الست ولايات فوق الثلاثين ألف دينار ، وولى هـذه الولاية فى يوم الأربعاء وهو يوم نحس مستمر ، فتفاءل له الناس بعدم اقامته فى هـذه الولاية لكونه ولى فى يوم الأربعاء ، فذهب منه هـذا المال العظيم ، وياليته لو شبع من ماله بنصف رطل سكر او طير دجاج بر به نفسه ، وأخبـاره فى الشح والبخل الزائد مشهورة بين الناس فما يحتاج لشرح ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

ويحبس روثه فى البطن شـهرا
مخـافة أن يجـوع اذا خريه
ويبكى بالدموع لهضـم أكل
كما يبكى اليتيم على أبيـه

وفى يوم السبت تاسعه رسم السلطان بشنق أربعة أنفـار منهم جارية بيضـاء رومية وجارية حبشية وصبى ابن ناس لفاف وشخص قواس . وسبب ذلك أن ابن الناس هذا والقواس أفسدا هاتين الجاريتين وحسنا لهما بأن تقتلا أستاذهما ، وكان أستاذهما شخصا من أولاد الناس مقطع ، فقتلوه ثم ألقوه فى المستراح وأخذوا كل ما فى بيته وسافروا الى نحو اطفيح ، ومضى على هذا الأمر نحو خمسة أشهر ثم فشا من بعد ذلك أمرهم ونمت عليهم جارية صغيرة ، فقبض عليهم بعض مشايخ اطفيح وأرسلهم الى السلطان ، فقررهم فاعترفوا بقتله وأنهم ألقـوه فى المستراح ، ثم رسم السلطان للوالى بأن يفحص عن أمره ، فتوجـه وكشـف المستراح فوجده فيه وقد تقدد جلده فأخرجه من المستراح ، فلما عرضه على السلطان رسم بدفنه وأخرج اقطاعه لبعض المماليك ، ثم رسم بشـنق هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، فلمـا توجهوا بهم الى الشنق ارتجت لهم القاهرة فى ذلك اليـوم ، ثم توجهوا بهم الى المكان الذى قتلوا فيه أستاذهم ، وهو مكان بالقرب من باب سعادة ، فشنقوا هناك الأربع أنفس ومضى أمرهم .

وفى يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير يوسف الذى كان نائب القـدس وقرره فى نيابة صفد عوضا عن طراباى الذى كان بها ، وكان عادة نيابة صفد ما يليها الا مقدم ألف ، وآخر من وليهـا من الأمراء المقدمين الأمير أزدمر المسرطن وأقام بها الى أن مات . فلما وليها الأمير يوسف عز ذلك على الأمراء كونه سـيفيا ، وكان يعرف بيوسف بن سيباى ، ولكن سعى فى نيابة صـفد بمال له صورة حتى وليها ، وما زال الدهر كثير الغلطات .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له قانصوه الساقى ، وقرره فى وظيفة الأمير نانق الخازن على الحواصل السلطانية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير قانصوه حبانية ، ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس فى بعض المهمات الشريفة .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى يوم الأحد خامس مسرى ، وفتح السد فى يوم الاثنين سادس مسرى ، وكان نيلا مباركا قوى العزم ، فلمـا أوفى رسم السـلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه

ويفتح السد ، فتوجه الى المقياس وخلق العمود ونزل فى الحراقة وفتح السد على العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، ووقع فيه محاسن كثيرة على العادة ، فلما فتح السد ومضى طلع الى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، وللناس مدة طويلة لم يروا النيل أوفى فى خامس مسرى ، وقد قيل فى المعنى :

رعى الله مصر كم بهـا من مسرة
ومنزل أنس لاح بالطالع السـعد
رويت الوفا عن سدها يوم كسره
فها أنا مهما عشت أروى عن السد

وفى يوم الاثنين خامس عشرينـه حضر قاصد ملك الروم سليم شاه ، فلما حضر طلع الى القلعة ، فجلس السلطان فى الحوش على المصطبة ، فلما مثل بين يديه أحضر صـحبته رأس على دولات وراس ولده ورأس وزيره وهى فى علبـة ، فلما أحضروا تلك الرءوس بين يدى السلطان شق عليه ذلك وقال : ايش أرسللى هذه الرءوس ؟ هى رءوس ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لى ؟ ثم رسم للوالى بأن يأخذ تلك الرءوس ويدفنها على شاه سوار عنـد الكوم الذى بالقرب من زاوية الشيخ كهنبوش ، فانفض الموكب فى ذلك اليوم والسـلطان والأمراء فى غاية الاضطراب ، وكثر القال والقيل فى ذلك أن قلعة زمنطو وبلاد على دولات جميعها ملكها ابن عثمان واستناب فيهـا ابن سوار ، وقد خرجت بلاد على دولات من يدى السلطان ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وابن عثمان يقصد فى الباطن اثارة فتنة كبيرة بينه وبين السلطان وأظهر التحرش بالسلطان وفتح باب الشر ، فتنكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه لم يخرج السـلطان من الدهيشة ولم ينزل الى الميـدان ، وآشيع آنه قد شرب دواء وأنه متوعك فى جسده ، وكان حصـل له فى يوم الاثنين انزعاج لما حضر قاصد ابن عثمان برأس على دولات ، وحصل فى ذلك اليـوم بين السـلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه فى الكلام وقالوا له : يامولانا السلطان غالب البـلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان وخطب له فيها باسمه وضربت له السكة باسمه وشرع فى بناء برج عند عقبة بغراص وآخر على باب الملك والسلطان يده فى الماء البارد وفسـدت أحوال المملكة وغالب الرعيـة بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم بيميلوا الى ابن عثمان لأجل عدله فى الرعية ، وهذه الأحوال غير صالحة ... فشق عليه كلام الأمراء وكظم لذلك ولم ينزل الميـدان فى ذلك اليوم ولا حكم بين الناس .

ومن الحوادث قد أشيع بين النـاس أن سنبل الطواشى لالا سيدى ابن السلطان وقع بينه وبين جمـاعة من المماليك الجلبان بسبب مملوك كان ساقيا عند ابن السلطان ، فضربه سنبل ضربا مبرحا بسبب فشروى فأقام أياما ومات ، فتعصب له جماعة من المماليك الجلبان وأوعدوا سنبل بالقتل فى ذلك اليوم ، وكثر القيل والقال فى ذلك وأشـيع اقامة فتنة كبيرة بين المماليـك والسلطان لأجل سنبل بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباى بن يشبك الذى كان نائب صفد وعزل عنها فاستقر به حاجب الحجاب بدمشق ، وهذه درجة من حيدر لأسفل ، وقيل انه سعى فى ذلك بمبلغ له صورة .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة من المماليك الجلبـان بسبب

سنبل الطواشى لالا سيدى ابن السلطان ، وقد تقدم سبب ذلك من أجل المملوك الذى قتله ، فلم يطلع من الأمراء فى ذلك اليوم الا القليل ، وقيل ان السلطان لم يخرج ولم يصل الجمعة وكان فى غاية النكد ، وأرسل قبض على سنبل الطواشى وأودعه فى الترسيم واحتاط على موجوده ورسم عليه بالدهيشة أربعة من الخاصكية ، ومن حين وقعت هذه الحادثة رسم السلطان لولده بأن يقيم فوق القلعة ولا ينزل لباب السلسلة ، خوفا عليه من المماليك حتى تخمد هذه الفتنة ويكون من أمرها ما يكون .

* * *

وفى رجب ، كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنئوا السلطان بالشهر ، وكان بالميدان فسلموا عليه ونزلوا الى دورهم .

ومما وقع فى ذلك اليوم من الحوادث المهولة أن المماليك الجلبان لما أصبحوا فى ذلك اليوم استمروا على اثارة الفتنة المقدم ذكرها ، فلبسوا كباشيات مقلوبة ووقفوا على باب سلم المدرج ومنعوا الناس من الطلوع الى القلعة ، وخاف مقدم المماليك وغيب من باب القلعة ، وقصد المماليك أن ينهبوا الدكاكين التى فى خرائب التتار ، وقصدوا أن ينزلوا الى المدينة وينهبوا الأسواق ، فمنعهم من ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة من النزول الى المدينة ، فلما طلع السلطان من الميدان ودخل الى الدهيشة بلغه أمر هذه الفتنة ، ثم اتسع الكلام بين المماليك وبين السلطان بسبب سنبل الطواشى الذى قتل المملوك ، وقد تقدم القول على ذلك ، فأرسلت المماليك تقول للسلطان : « ان لم تسلمنا سنبل الطواشى أو تنفق علينا لكل مملوك منا مائة دينار وتقيم حرمتنا فان السوقة صارت تمسك لجام المماليك فى الأسواق وتبهدلهم وما صار لنا حرمة بين الناس على أيامك » . فلما ترددت الرسل بين المماليك وبين السلطان بسبب ذلك ، وقد رأى السلطان عين الغدر من المماليك ، رسم للوالى بأن يقبض على سنبل ويخرج به الى المماليك ، وكان سنبل من حين جرى منه ما جرى بسبب المملوك الذى قتله وهو فى الترسيم عند السلطان فى الدهيشة ، فأخذه الوالى وخرج به وهو ماشى وعلى رأسه زمط وعليه ملوطة بيضاء وهو مفكك الأطواق ، فلما خرج الى باب القلعة أحاط به المماليك وقصدوا أن يقطعوه بالسيوف ، فصار يسأل قرابة المملوك الذى قتل بألف دينار فأبى من ذلك وقال : ما آخذ الا روحه ، ثم أنزلوه من سلم المدرج وأتوا به الى عند الحوض الذى تحت سلم المدرج فوسطوه هناك ، وأحضروا له تابوتا فحملوه فيه ومضوا به فغسلوه ودفنوه ، ومضى أمره كأنه ما كان .

وكان سنبل هذا من أعيان الخدام حبشى الجنس جميل الصورة يدعى سنبل بن غارى ، وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاثين سنة ، وكان لالا سيدى ابن السلطان وحج معه ورأى من العز والعظمة غاية التعظيم ، وكان خازندار كيس ، وكان من المقربين عند السلطان وافر الحرمة نافذ الكلمة ، ولا سيما لما ولى ابن السلطان أمير آخور كبير فصار سنبل هو المتصرف فى أمور باب السلسلة ويحكم عوضا عن ابن السلطان ، وصار لا يقبل لأحد من الأمراء رسالة ولا شفاعة ، فعادى جميع الأمراء وحملوا منه فى الباطن ، فلما جرى له ما جرى لم يرث له أحد من الأمراء ، ولم يفد سنبل مما ناله من ذلك العز والعظمة شيئا ، ومات هذه

الموتة الشنيعة ، ولم يتفق لأحد من الخدام قبله أنه مات موسطا ، وكان ذلك من الأمور المقدرة .

فلما توسط سنبل خمدت تلك الفتنة وطلعت المماليك الى الطباق وبطل أمر الفتنة ، ثم ان السلطان أشهر المناداة فى القاهرة : بأن لا سوقيا ولا تاجرا يبهدل مماليك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجام فرسه ، ومن فعل ذلك قطعت يده ولا يقل حياه عليهم ، وكانت هذه المناداة من أكبر الفساد فى حق الناس ، وصارت المماليك من بعد ذلك يدخلون الى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد يمنعه من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك فى غاية الضنك والقهر ، وقد أرضى المماليك بقتل سنبل وبهذه المناداة عن طلب النفقة .

وفى يوم الاثنين ثالثه وردت على السلطان أخبار ردية بأن سليم شاه بن عثمان تملك غالب بلاد على دولات وشرع فى بناء أبراج على عقبة بغراص عند باب الملك ، وأرسل نائب الشام ونائب حلب يعاتبان السلطان فى تأخير ارسال التجريدة الى اليوم بسبب حفظ البلاد قبل أن يتمكن منها عسكر ابن عثمان ، فلما وردت هذه الأخبار على السلطان تنكد الى الغاية وطلع الى الدهيشة هو والأمراء وضربوا مشورة فى ذلك الأمر .

وفى يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام بها الى بعد العصر ، فلما رجع الى القلعة شق من على باب اللوق ، فلما شق من هناك وقف له جماعة هناك من التجار وشكوا له من أذى المماليك فى حقهم وخطفهم القماش من على الدكاكين ، فلم يلتفت الى ذلك ، وربما أغلظ التجار على السلطان فى القول ، فطلع الى القلعة وهو فى غاية السودنة من العوام .

وفى يوم الخميس سادسه توفى القاضى أبو الفتح السرم ساحى ، وكان من أعيان الناس ورأس الموقعين العدول ، وكان موته فجأة على حين غفلة .

وفى يوم السبت ثامنه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وبات به ، وأصبح يوم الأحد مقيما هناك ، ومد له الزينى بركات بن موسى أسمطة حافلة وانشرح هناك ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر من يوم الأحد ، وكان النيل يومئذ فى عشرين ذراعا ، فجلس فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس وكان ذلك اليوم بالسلطانى .

وفى يوم الاثنين عاشره جلس السلطان فى الميدان وعرض العسكر المعين الى جهة الهند ، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه ، فلما فرغ من عرض العسكر خلع على الرئيس سلمان العثمانى كاملية مخمل أحمر بسمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند ، وقرر الباش الثانى شخصا يسمى يشبك وهو أمير عشرة ، وقرر الباش الثالث شخصا يقال له دمرداش الاقريطشى ، وكان أصله افرنجى يبيع النبيذ الاقريطشى فاشتهر بذلك ، فأنعم عليه السلطان بامرة عشرة وجعله باش العسكر — وكان ذلك من غلطات الزمان ! — فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعا بالنصر للعسكر . ثم ان العسكر خرج من الميدان ونزل وشق من القاهرة وقدامهم الطبول والزمور ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رءوسهم الصنجق السلطانى ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مجموع هذا العسكر المتوجه الى الهند على تحرر أمره نحو ستة آلاف انسان ، تفصيله : خاصكية خمسون ، جمدارية مائة وخمسون ، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس ومماليك وغير ذلك أربعمائة وخمسون ،

وبحارة ومقاتلين وتراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاف وثلاثمائة أربعة وأربعين على ما قيل ، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا الى الريدانية الى أن يرحلوا من هنــاك الى السويس ، فكان السلطان في مدة اقامتهم في الريدانية يمد لهم أسمطة حافلة من ماله بكرة وعشــيا الى أن رحلوا من هنــاك وتوجهوا الى نحو السويس ، وكان عدة المراكب التى أنشــأها السلطان بالسويس عشرين مركبا ، وقد شحنوها بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزاد بسبب العسكر ، وقد تقدم القول على أن السلطان أنفق على هؤلاء العسكر قبــل ذلك وأعطى لكل مملوك منهم خمسين دينارا ، ووعدهم بأن ينفق عليهم قبل أن يسافروا جامكية ستة أشهر معجلا عند خروجهم الى السفر .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته التى حضرت على يده ، ثم ان السلطان قصد أن يعين له قاصدا من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وقالوا للسلطان . هذا رجل جاهل سفاك للدماء وكل من توجه اليه بهــذا الجواب قتــله ، فلم يوافق الى التوجــه اليه أحــد من العسكر

وفى يوم الخميس ثالث عشره خلع الســلطان على الوزير يوسف البدرى بأن يستمر فى الوزارة على عادته ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بسبب عمل الحساب . وآخر الأمر كتب عليه السلطان مسطورا بخمســة وستين ألف دينار والتزم بأمر الســداد هو والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، فخلع الســلطان عليهما ونزلا فى موكب حافل .

وفى يوم السبت خامس عشره نزل السلطان من القلعة وعدى الى الروضة ونصب له خيمة عند خرطوم الروضة وصواوين ، وأقام هنــاك يومين وليلة ، وأحضر عنده مغانى وأرباب الآلات ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب أسمطة حافلة وطوارى فاخرة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما يهدى للملوك ، فانشرح الســلطان هنــاك الى الغاية وصنع دكة خشب فى وسط الماء وكان النيــل فى قــوة الزيادة ، وجلس عليهــا وحوله الخاصــكية وهم خائضــون فى الماء حتى ابتلت ملاليطهم بالمــاء والطين ، وقــد فتك فى القصف والفرجة حتى خــرج فى ذلك عن الحد ، وكان الســلطان حصــل له قبل ذلك غاية النكد بسبب توسيط الطواشى ســنبل وفتنة المماليك فى طلب النفقة ، فما صــدق باخماد تلك الفتنة عنه فنزل هناك وانشرح فى ذلك اليوم ، واستمر مقيما هناك الى يوم الأحــد آخر النهار ، وكانت ليلة تفرقة الجامكية ، فطلع من هناك الى القلعــة وشق من الصليبة ولم يكن قدامه أحــد من الأمراء سوى جماعة من خاصكيته فقط .

وفى يوم الخميس عشرينــه خرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير وصــحبته الأمير خاير بيك أحــد المقدمين الذى كان كاشف الغربية وبعض أمراء عشراوات وخاصكية ، فخرج فى ذلك اليوم وتوجه الى جبل نابلس بسبب فســاد العــربان الذين هناك ، فانه حصل بينهم وبين نائب غزة فتنة كبيرة وقتل فيها جماعة ، واضطربت أحوال الدرب السلطانى من غزة الى مصر ، وخرج الأمير الدوادار بغير طلب ، وكان ذلك اليــوم يوم نوروز وأول السنة القبطية فلم تتفاءل الناس بخروج الدوادار فى ذلك اليوم وقالوا : يستمر سنته كلها فى هجاج وسفر .

وفى يوم السبت ثانى عشرينه توفى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جانى بيك قرا بن حيدر وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه رحل الأمير الدوادار من الريدانية وتوجه الى الخانكة ، ومما عد من محاسن الأمير طومان باى الدوادار أن شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو يتمنى مائة دينار ذهبا وجملا وعبدا حتى يتوجه الى الحجاز ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، وكان يتلش بالأمراء كلما طلعوا الى القلعة ونزلوا فأصورهم وأبادهم شرا وحرمهم أن يشقوا من الصليبة . ففى بعض الأيام أرسل اليه الأمير طومان باى الدوادار خمسين دينارا ذهبا وجملا وعبدا وقال له : امض الى الحجاز ، فقال له ذلك الفقير : احملنى معك الى القدس فأزوره قبل أن أحج ، فحمله معه لما سافر الى نابلس ، فعد ذلك من النوادر اللطيفة من الأمير الدوادار . وكان فيه الخير ، وكان قليل الأذى بخلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى محيى الدين بن النقيب فكانت مدته فى هذه الولاية خمسين يوما لا غير ، ونفد منه فى هذه الولاية ثلاثة آلاف دينار غير الكلف ولم يقم فيها سوى هذه المدة اليسيرة وعزل فلما عزل لم يرث له أحد من الناس فى سعيه فى هذه الوظيفة ، وقد نفد منه على وظيفة القضاء فوق الثلاثين ألف دينار ، وهو ممقوت عند الناس ولم يمكث فى هذه الست ولايات الا مدة يسيرة نحو السنتين ، وكان أرشل قليل الحظ .

فلما عزل ابن النقيب فى ذلك اليوم خلع السلطان على قاضى القضاة كمال الدين الطويل وأعاده الى القضاء ، وهذه رابع ولاية وقعت لقاضى القضاة كمال الدين ، وقد سعى فى هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار ، وكان الساعى له القاضى علاء الدين ناظر الخاص والشرفى يحيى الشطرنجى نديم السلطان ، فلما لبس التشريف وشق من القاهرة أوقدوا له الشموع على الدكاكين وزينوا له بعض دكاكين فى حارته عند الخانقاه البيبرسية . وكان قاضى القضاه كمال الدين محببا للناس قاطبة ، ولما عاد قاضى القضاة كمال الدين الى منصب القضاء هنئته بهذين البيتين وهما :

الى قاضى القضاة تقول مصر
لقد جاد الزمان بمشى حالى

ولما عاد منصبه أتاها
سرور بالتمام وبالكمال

فلما أحضروا له التشريف وقف السلطان عن لبسه فى ذلك اليوم وصار يعتبه بكلمات مما تقدم منه ، وقال له : « لا تبقى تحكم وترجع عن أحكامك » .

وفى يوم الجمعة ليلة السبت ثامن عشرين رجب كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقد تقدم ترجمة نسبه فى الجزء الثامن من التاريخ ، وكان قاضى القضاة عبد البر اماما فاضلا عالما علامة فى هيبة ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت من أعيان علماء الحنفية ، توفى وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة أو دون ذلك ، ومات وهو منفصل عن القضاة ، وقد أقام فى منصب القضاء نحو ثلاث عشرة سنة وأشهر . ورأى فى دولة الأشرف قانصوه الغورى ما لا رآه غيره من القضاة ، وكان من أخصاء السلطان بحيث انه كان يبات عند السلطان بالقلعة ثلاث ليال

فى الجمعة ، وصار هو المتصرف فى أمور المملكة بحضرة السلطان ، واستمر على ذلك حتى تغير خاطر السلطان عليه بسبب ما تقدم ذكره من عزل القضاة الأربعة فى يوم واحد ، فعزل معهم ، واستمر على عزله والسلطان متغيظ عليه ولا يسمع بذكره قط حتى مات من شدة قهره ، ثم مات رحمة الله عليه ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

طلعت لعبـــد البر أعظم ذبلة
من قهر أحكام القضـــا لما عزل
قد نال ذل الطـــرد من سلطانه
وأتى اليـــه كل عكس متصل

* * *

وفى شـــعبان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس الســـلطان فى الميـــدان ، وطلع القضـــاة الأربعه للتهنئة بالشهر ، وكان الخليفة متوعكا فى جسده فلم يطلع للتهنئة بالشهر

وفى يوم الثلاثاء ثالثه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك النى بالمطرية ، فبات بها وتفرج على الملقة وكانت فى قوة ملوها ، فأقام هناك الى يوم الأربعاء آخر النهار ثم عاد الى القلعة ، ونزل أيضا عقيب ذلك الى القبة وبات بها .

وفى يوم الاثنـــين ســـادس عشره حضر الى الأبواب الشريفة جانم الخاصكى الذى كان أرسله الســـلطان الى ملك التتار بسبب أقارب السلطان الذين أسرهم ملك التتار عنـــده ، فلما مر من على بلاد ابن عثمان أرسل قبض عليه وأخذ ما كان معه من الهدية التى كان أرسلها الســـلطان الى ملك التتار ، وحصل لجانم من ابن عثمان غاية البهدلة ، وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان ، فلما رجع جانم أخبر عن ابن عثمان أمورا شنيعة قالها فى حق السلطان وعسكر مصر ، وأنه جهز عدة مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب فى البحر تجىء ثغر الاسكندرية ودمياط ، وفرقا من عسكره تجىء من على البلاد الحلبية ، فلما تحقق السلطان ذلك أرســـل خلف أمير كبـــير سودون العجمى وبقية الأمراء ، فجلســـوا فى الدهيشـــة وضربوا مشورة بسبب ابن عثمان ، وقيل انه حلف الأمراء فى ذلك اليوم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا يخرجوا عن طاعته ظاهرا وباطنا ، وحلف هو أيضا لهم بمعنى ذلك ، وانفض المجلس بعد الحلف .

ويقال كان سبب اثارة هذه الفتنة الحادثة بين الســـلطان وبين ابن عثمان أن خشقـــدم مملوك السلطان الذى كان مشد الشون . وقد تقدم القول على أنه كان قد حصل له من السلطان حنق بسبب زوجته بنت جانى بيك دوادار الأمير طراباى وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما رأى خشقدم أن الســـلطان محط عليـــه بسبب جانى بيك فر على حين غفلة ونزل فى مركب وتوجه الى عند سليم بن عثمـــان وكان له أخ عند ابن عثمان ، فلما توجـــه خشقدم الى ابن عثمان أكرمه وأنعم عليه بامرية فى بلاده .

فلما استقر خشقدم عند ابن عثمان شرع يحط على السلطان عند ابن عثمـــان ويخبره بأمور من أفعال السلطان من أبواب المظـــالم ، وأخبره بما أحدثه على السوقة من أمر المشاهرة والمجامعة على أرباب البضائع من المال المقرر عليهم فى كل شهر ، وأخبره بأمر الغش الذى فى المعـــاملة فى الذهب والفضة ، وأخبره بأشياء كثيرة من هذا النمط عن أحوال مصر ، حتى أخبره بجملة عساكر مصر وما يشتملون عليه ، وأخبره عن أمر قضاة مصر قاطبة وأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعيـــة ، وحسن له أن يمشى على بلاد السلطان وسهل عليه ذلك الأمـــر ، فعـــرفه كيف يرســـل مراكب على الاسكندرية ودمياط .

فعند ذلك طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب على أمره . فمن حين توجه خشقدم الى ابن عثمان وهو يظهر المشى على بلاد السلطان ، ولا سيما قتل على دولات وملك بلاده وولى فيها ابن سوار وجعله نائبه وصار يكاتب السلطان فى مطالعاته بألفاظ يابسة ، وكل ذلك مما أوحاه اليه خشقدم عن أحوال الديار المصرية .

فلما حضر جانم الخاصكى وأخبر السلطان بما قاله ابن عثمان فى حقه من هذه الأخبـار المقدم ذكرها ، اضطربت أحوال السلطان وتنكد لذلك ، واستمرت الوحشة بينه وبين ابن عثمان عمالة .

وهذه الواقعة تقرب ممـا وقع للملك النـاصر محمد بن قلاوون مع قبجق نائب الشام ، فانه أظهر العصيان على السلطان فأرسل بالقبض عليه ، فلما تحقق ذلك فر من الشام وتوجـه الى غازان ملك التتار وقوى عزمه وحسن اليه بأن يمشى على بلاد السلطان فيملكها من غير مانع ، وكذا جرى فمشى غازان على بلاد السلطان وملك حلب والشـام ، فخرج اليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وتحارب مع غازان فكسر غازان الملك الناصر كسرة مهولة ، فرجع الملك الناصر الى مصر وهو مهزوم ، ثم تحايا عسكر مصر ورجع الملك الناصر وتحارب مع غازان ثانيا فكسره كسرة مهولة وغنم منه أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، وكان هذا كله من فتنة قبجق لما توجه اليه وحسن له ذلك ، ونعـوذ بالله أن تكون فتنة ابن عثمان مثـل ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشره جاءت الأخبار من السويس بأن المراكب التى جهـزها السلطان الى الهنـد غرق منها مركب وقد صدمت فى شـعب فانكسرت وغرق جميع ما كان فيهـا ، وفقد من العسكر الذى كان فيها جماعة ، فلم تتفاءل الناس بذلك .

وفى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوادار سكين وعينـه بأن يسافر الى البلاد الشامية بسـبب أمور تتعلق بأشـغال السلطنة ، فتوجه اليها .

وفى يوم الجمعة عشرينه فتح سد بحر أبى المنجا ، وكان النيل يومئذ فى ست عشرة أصبعا ، من احدى وعشرين ذراعا ، وكان فتحه فى أول يوم من بابه من الشهور القبطية ، وقد تأخر فتحه عن العادة الى ذلك اليـوم ، وكان النيل فى قوة عزمه من الزيادة ، فلما فتح سد أبى المنجا نقص النيل فى ذلك اليوم ولم يزد من بعد ذلك شيئا ، وقد ثبت على ست عشرة أصبعا من احـدى وعشرين ذراعا ، وحصل به غاية النفع وروى سائر البلاد التى قط ما رويت ، واستمر ثابتا الى أوائل هاتور فعد ذلك من النوادر .

ومن العجائب أن مع وجود علو النيل وثباته لم يسكن فى الجزيرة الوسطى ولا بيت واحـد ولم يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، ولكن أشاعوا أنه سكن بالجزيرة عدة مناخات جمال لابن السلطان والأمراء ، فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من النفر الذين هناك ، فهذا كان السبب فى منع الناس من سكنى الجزيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه نادى السلطان فى الحوش للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان السلطان ينفق ويخرج فى جمعته ، وصار فى كل جامكية ينادى للعسكر بذلك فى الحوش ، وأشيع أن السلطان هو الذى يسافر بنفسه بسبب

ابن عثمـــان ، واستمرت الاشـــاعات قائمة بسفر السلطان ثم خمدت تلك الاشاعة قليلا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة القاضى جلال الدين محمد الزفتاوى أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، ومات وهو فى عشر الثمانين سنة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان الى بولاق وتوجه الى ضيافة القاضى كاتب السر محمود ابن أجا بالبرابجية التى هناك فأقام عنده الى يوم الأربعاء وهو فى أرغد عيش ، فمـا أبقى القاضى كاتب السر فى ضيافته ممكنا وأحضر من كل شىء أحسنه ، حتى قيل انه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسـلطان فوق ألف دينـار . وكان ابن السـلطان معـه وجماعة من الخاصكية ، وانشرح السـلطان هنـاك الى الغاية وأحضر بين يديه مغـانى وأرباب الآلات ، وأظهر القـاضى كاتب السر أنواع العظمـة من الفرش الفـاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت وغير ذلك من كل صنف .

ثم ان السلطان صلى العصر يوم الأربعاء وطلع الى القلعـة وكانت لبلة جامكية ، فلما ركب من هناك خلع على القاضى كاتب السر كاملية حافلة من ملابيسه مخمل أحمر بسمور فاخر ، وتشكر منه لما تكلفه له من الأسمطة الحافلة وغير ذلك من المأكل والمشرب والتقادم الحافلة .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه أنفق السلطان الجامكية ، وهى آخر الجوامك ، ثم نادى للعسكر بأن يعمـلوا يرقهم وأن يكونوا على يقظـة فان التجريدة الى حلب عمالة ، فلما تحقق المماليك ذلك نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجـار وهجموا عليهـم الحارات والبيوت ، وأنزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الأسواق وأخذوها من تحتهم ، وأخذوا بغلة الشـيخ برهان الدين بن الـكركى وهو فى الحضور فى المدرسة الأشرفية فبرطل عليها بمبلغ له صورة حتى خلصها ، ثم صارت المماليك تسافر الى نحو بابيس والصالحية ويأخذون بغال المسافرين وأكاديشهم ، حتى صح منهم جميع الناس وتزايد منهم الضرر الشامل فى حق الناس جدا ، وصاروا يبهدلون القضـاة والعلماء بالضرب وينزلونهم من على بغالهم ، وفعلوا من هذا النمط أشياء كثيرة .

* * *

وفى رمضان كان مستهل الشهر يوم الثـلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشـهر ، ثم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رءوس الحمالين مزفوف ، وطلعوا بأغنام وأبقار كما جرت به العادة فخلع السطان على الوزير وناظر الدولة شرف الدين الصغير والمحتسب ... وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رمضـان قوى عزم السلطان بأن يسافر الى ثغر الاسكندرية ورشـيد بسبب تفقد أحوال الأبراج التى هناك ، وأشيع أنه شرع فى بناء سور برشيد على شواطىء البحر الملح فأرسل عدة بنـائين وحجارين بسبب ذلك ، وقد بلغه عن ابن عثمان أنه يقصد يطرق ثغر الاسكندرية ودمياط على حين غفلة ، فلما صلى السلطان الصبح يوم الأربعاء نزل من القلعـة وتوجه الى بولاق وعدى الى بر انبابة ونصب له خيمة هناك حتى يتكامل خـروج العسـكر ، فكان صـحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدواداري

رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب والامير نابى بيك الخازندار أحد الامراء المقدمين ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات منهم الأمير خاير بيك المعمار ، وكان صحبته من المباشرين الشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل ، وآخرون من المباشرين من أرباب الوظائف ، وعين معه نحو خمسين خاصكيا من أرباب الوظائف وألزمهم بأن يصحبوا معهم كل واحد فرسا وبغلا جنيبا . فقاسوا فى المراكب بسبب الخيول ما لا خير فيه ، وكان النيل فى عشرين ذراعا والطرق مقطوعة من كثرة الماء ، فحصل للأمراء والعسكر مشقة زائدة ولا سيما فى رمضان والصيام عمال كل يوم ، فأقام السلطان فى بر انبابة الى يوم الخميس ثالث الشهر فنزل فى مركب ورحل من انبابة هو والأمراء فى عدة مراكب كثيرة ، وكانت هده السفرة على حين غفلة

وفى ليلة الجمعة رابع الشهر سقط سقف زاوية الشيخ أبى العباس البصير رحمة الله عليه ، وهى التى عند باب الخرق المطلة على الخليج ، فقتل تحت الردم رجل وصبى صغير وهرب من كان بها من المصلين وقت العشاء فسلموا ، ولم يقتل غير اثنين كما تقدم .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن المماليك الجلبان ربطوا كلاب حديد فى حبل ، وشلقوه فتعلق فى شباك الطبقه التى على باب الزردخاناه ، وتسلقوا عليه وهم من داخل الحوش السلطانى ، فلما وصلوا الى الشباك وجدوا بالقرب منهم أربع طقزيات بأسقاط فضة فسحبوها وأخذوها .

فلما طلع النهار حضر الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، فأعلموه بذلك ورأى الحبل معلقا فى الشباك فكتب بذلك محضرا ، ولم يفد من ذلك شىء وراحت على من راح .

وفى يوم الأحد ثالث عشره أشيع بين الناس أن الوالى عاقب جانى بيك دوادار طراباى على بقية المال الذى تأخر عليه ، فطالبوه بأن يورد مما عليه شيئا على الحامكية فقال : ما بقى معى شىء من المال غير روحى خذوها ، فضربوه كسارات على ركبه ، وقيل عصروه فى أصداغه ، وهو يقول ما بقى معى شىء من المال ، فاستمر يعاقبه الوالى حتى أشرف على الموت ، وأشيع بين الناس موته ، ولكن ما صح ذلك ، وهذا انتقام من الله تعالى فان جانى بيك هذا كان من وسائط السوء مستحقا لكل الأذى .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشر هذا الشهر حضر السلطان من ثغر الاسكندرية ، وهذه هى السفرة الثانية فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ثلاثة عشر يوما لا غير ، بخلاف السفرة الأولى ، وكان سبب توجهه الى ثغر الاسكندرية فى هذه المرة أنه لما بلغه عن سليم شاه ابن عثمان بأنه قد جهز نحو أربعمائة مركب وهو قاصد الى ثغر الاسكندرية ودمياط الشهير ، فتوجه السلطان الى هناك لتفقد أحوال الأبراج التى هناك وترميم بنائها ، وتوجه الى رشيد وأيضا رسم بأن يبنى عليها سور من جهة البحر الملح ، وأشيع أن السلطان أنعم هناك على خاير بيك العلائى الشهير بالمعمار بتقدمة ألف وجعله متحدثا فى باشية برج الأشرف قايتباى ، وأشيع أيضا أن السلطان حصل له هناك توعك فى جسده وأفطر يوما من شهر رمضان عندما حصل له دوخة وأغمى عليه ، فعند ذلك بادر بسرعة المجىء الى مصر ، فأتى فى مركب لبر مصر عند السواقى التى أنشأها هناك فطلع من عند السواقى هو والأمراء الذين كانوا صحبته ،

فخلع عليهم هناك كوامل مخمل بسمور ، فلما طلع لاقاه من هناك الخليفة والقضاء الأربعة وبقية الأمراء الذين كانوا بمصر ، فشق من السبع سقايات الى قناطر السباع ، ورسم لأمير كبير سودون العجمى بأن يتوجه الى بيته من هناك ، فلما وصل الى المدرسة الصرغتمشية رسم للخليفة بأن يتوجه الى بيته من هناك ، وكان الأمير آركماس أمير مجلس حصل له رمد فى عينه فلم يركب مع السلطان ، فشق السلطان من الصليبة وطلع الى الرملة ودخل الى الميدان ، فطوب الى القضاة وانصرفوا الى بيوتهم ، وكان موكب السلطان هينا بخلاف مواكبه المقدمة .

وفى يوم الخميس رابع عشره فرق السلطان الكسوة على العسكر مع الجامكية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر ابن الشحنة وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن القاضى شمس الدين السمديسى الحنفى بحكم انفصاله عن القضاء ، فكانت مدته فى القضاء سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وكان من أخصاء السلطان وامامه ولكن سعى عليه الحسامى محمود ابن الشحنة بثلاثة آلاف دينار حتى ولى وظيفة القضاء ، وكان الحسامى محمود شابا قليل الرأسمال من العلم ولم يكن فى طبقة علماء الحنفية ممن ولى وظيفة قضاء الحنفية ، ولكن السلطان ما عنده أعز ممن يورد له مالا ويكون مهما كان ، وقد استكثر غالب الناس على محمود وظيفة القضاء ، وفيه يقول القائل :

لا واخذ الرحمن سلطاننا
آفعاله بالطبع رهاجه
ولى علينا للورى قاضيا
ما كان للدهر به حاجة

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى وأعاده الى قضاء المالكية ، عوضا عن جلال الدين ابن قاسم بحكم انفصاله عن القضاء ، وقد سعى عليه محيى الدين يحيى الدميرى بألفى دينار ، وهذه ثانى ولاية وقعت لمحيى الدين بن الدميرى بمصر ، فكانت مدة جلال الدين بن قاسم فى قضاء المالكية سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام مثل مدة السمديسى الحنفى فانهما وليا فى يوم واحد ، وقد تولى الحسامى محمود ومحيى الدين يحيى بن الدميرى فى يوم واحد ، وشقا من القاهرة وعليهما التشاريف ، وكان لهما يوم مشهود .

وفى هذا الشهر كملت عمارة مدرسة الأمير بيبرس قريب السلطان التى أنشأها بقرب حط الجودرية ، وجاءت فى غاية الحسن والظرف ، فخطب بها فى ذلك الشهر .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول هاتور الشهر القبطى . ومن العجائب أن النيل استمر فى ثبات لم ينهبط حتى دخل هاتور ، وكان يومئذ فى تسع عشرة ذراعا ونصف ذراع ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولكن حصل بذلك الضرر الشامل على المزارعين بمكث الماء على الأراضى . ومن العجائب مع وجود ثبات النيل هذه المدة لم تسكن الجزيرة الوسطى فى هذه السنة ولا كرى فيها بيت ولا دكان .

وفى ذلك اليوم توفى الأمير أقبردى الحسنى أحد الأمراء العشراوات من طبقة الزمامية ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفى يوم الأحد سابع عشرينه كان ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وخلع السلطان على القضاة الأربعة وأعيان العلماء ومن له عادة ، وفرقت الصرر على جارى العادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعه فى موكب حافل ، وكانت الخلع فى هذه السنة فى غاية الوحاشه من انشحات ناظر الخاص بخلاف كل سنة .

* * *

وفى شوال كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، وهو يوم عيد الفطر ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، ثم دخل الى الحوش الكبير وجلس على الدكة وخلع على القضاة الأربعة ثم على أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير خاير بك المعمار وألبسه مثمر وأطلسين لكونه بقى مقدم ألف ، ثم خلع على المباشرين ومن له عادة . وكان موكب العيد حافلا . وكان الأمير طوماى باى الدوادار مسافرا فى جبل نابلس ، وكانت الخلع فى هذا العيد فى غاية الوحاشة ، وأبطل ناظر الخاص الطرز النخ الذى كان يعمل فى الخلع ، وكانت الخلع من القماش القطنى الذى مثل القش . ثم نزل ابن السلطان الى باب السلسلة وعليه فوقانى بطرز يلبغاوى عريض ، ونزل فى موكب حافل وقدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فمد بباب السلسلة مدة حافلة وخلع على غلمانه أرباب الوظائف ، ثم خلع الفوقانى الذى كان عليه على الأمير آقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين فلما انقضى أمر المدة بباب السلسلة نزل المقر الناصرى ولد السلطان من باب السلسلة ، وعليه تخفيفة صغيرة وسلارى بعلبكى أبيض ، وقدامه القاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل وبعض جماعة من الخاصكية ، وقدامه ثلاث طوائل خيل بنواشى حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء وأوقدوا له أحمالا وتنانير بالنيار من الورافين الى آخر البندقانيين ، وزدوا له عند بيته زينة حافلة بالخيام والسحائب ، وصنعوا له ردكا على بابه وفيه أشجار وأحواض جلد بفواوير ماء عماله ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ودقت له الكوسات على بابه ، وزفته المغانى بالطارات على الدكاكين ، ولاقته طائفة اليهود بالنسوع موقودة قدامه ، فاستمر فى هذا الموكب حتى دخل الى بيته الذى فى خط البندقانيين ، ومد له هناك مدة ثانية واستمر هناك فى بيته الى أواخر النهار ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثانيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى وأودعه فى الحديد ، وأرسله الى بيت الامير الدوادار حتى عمل حساب الشعير الذى هو متحدث عليه ، فاستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان جماعة من المماليك القرانصة ، وعين منهم جماعة الى العقبة وجماعة الى الأزلم وجماعة الى الاسكندرية والى رشيد وجماعه الى دمياط يقيمون بها ، فغالب المماليك اختار دمياط ورشيد دون تلك المواضع وشرعوا يتشكون من ذلك فقال لهم السلطان : أنا ما شرطت عليكم كل من أخذ منكم الخمسين دينار النفقه يسافر الى العقبة والأزلم وغير ذلك من الأماكن وقلتوا نحن نسافر الى أى مكان أرسلنا فيه السلطان ؟ فحصل فى ذلك اليوم بين السلطان وبين المماليك بعض تشاجر ، وانفض المجلس مانعا ، وحنق السلطان من المماليك القرانصة فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية على عادته .

وفى يوم الجمعة عاشره ، الموافق لتاسع عشر هاتور القبطى ، فيه لبس السلطان الصوف وقلع البياض ، وقد آخر لبس الصوف عن عادته أياما .

وفى يوم السبت حادى عشره قبض السلطان على المعلم خضر معامل اللحم ، وشكه فى الحديد وقيده ، وسجنه بالعرقانة حتى يغلق ما عليه من اللحوم المكسورة للعسكر . وفى ذلك اليوم ورد عبد العظيم الصيرفى مما قرر عليه بسبب الشعير المنكسر ألفى دينار ، واستمر فى الترسيم حتى يغلق ما بقى عليه وهو فى الحديد .

وفى يوم السبت المذكور توفى الأمير نوروز أخو الأمير يشبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين الألوف وكان له مدة وهو منقطع فى بيته عليل حتى مات فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، ووقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب . وسبب ذلك أن السلطان كان عين من المماليك القرانصة خمسين مملوكا يتوجهون الى مكة صحبة باش المجاورين على جارى العادة ، وكان قد عينهم فى ربيع الأول وأخذوا فى أسباب عمل يرقهم ، فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره بدا للسلطان فى ذلك اليوم بأن يبطل هؤلاء الخمسين مملوكا الذين كان عينهم صحبة باش المجاورين وعين غيرهم فى ذلك اليوم وأبطل الذين كان عينهم قبل ذلك ، وكان قد بقى لخروج المحمل يومان ، فحصل الضرر الشامل للمماليك الذين بطلوا بعد أن باعوا خيولهم وقماشهم ، وأكروا لنسائهم على أنهم يقيمون فى مكة سنة ، فتنكدوا الى الغاية بسبب ذلك ، وحصل غاية الضرر للمماليك الذين تعينوا الى مكة فى ذلك اليوم ، وقد بقى لخروج الحجاج يومان فخرجوا على وجوههم ، وفيهم من سافر فى نصف ، وما حصل عليهم خير ، فما شكر السلطان أحد على ذلك وعابوا عليه هذه الفعلة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، وعرض المحمل الشريف ، وكان السلطان فى الحوش جالسا به ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان له يوم مشهود ، وكان أمير ركب المحمل الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين ، وأمير الركب الأول المقر العلاء على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف اينال ، وكان باش المجاورين فى تلك السنة الأمير بيبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات ، ومحتسب مكة الأمير قراكز الجكمى رأس نوبة عصاة ، فارتجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره وقعت فيه نادرة غريبة . وهى أن السلطان نزل الى الميدان وجلس به وأحضر بين يديه شخصا يهوديا يقال له يوسف شنشوا ، وكان أصله تاجرا من تجار الفرنج ، وكان يعرف باللغة التركية ، ثم بقى معلما فى دار الضرب فقيل انه تأخر عليه مال من بقايا المصادرات وحساب قديم ، وهو مبلغ اثنى عشر ألف دينار ، فتكاسل عن وزن ذلك ، فأرسله السلطان الى المقشرة فأقام بها أياما ولم يرد شيئا مما عليه من المال ، فأحضره السلطان بين يديه وأحضر له المعاصير وعصره فى أكعابه فى وسط الميدان بين يديه ، فلما تزايد به أمر الوجع من عصر أكعابه أسلم وقال : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، برئت

عن كل دين بخلاف دين الاسلام » . فكبر الحاضرون من العسكر والناس أجمعين ، فلم يلتفت السلطان الى اسلامه وأبقاه بالعمامة الصفراء ورسم ليحيى ابن نكار دوادار الوالى بأن يتسلمه ويعاقبه ويستخلص منه المال جميعه ، وقال : « المسلمون كثير والاسلام ما له حاجة بهذا ! » . فشكه ابن نكار فى الحديد ونزل به ليعاقبه ويستخلص منه المال فكان كما يقال : اذا تسلط على اليهودى يسلم !

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس أن العجمى الشنقجى الذى كان نديم السلطان يضحك عليه ، وقد تقدم القول على أن السلطان كان أرسله فى أواخر شهر رمضان الى نائب الشام والى نائب حلب ، وعلى يده فيلان تقدمة من عند السلطان : أحدهما الى نائب الشام والآخر الى نائب حلب ، فأشيع بين الناس أن الشنقجى قد مات على غير وجه مرضى ، وقد اختلف القول فى سبب موته والى الآن لم يثبت عنه خبر صحيح فى كيفية موته والأقوال فى ذلك كثيرة . وكان هذا العجمى مشعوذا مضحكا يلعب بالصحون النحاس على جريدة فى الحلق ، فلما قربه السلطان وأحسن اليه صار من جملة أعيان المملكة ، ويركب وقدامه الساعى ويشق من القاهرة وتعظمه الأمراء وتقوم اليه اذا دخل عليها ، وكذلك أرباب الدولة من المباشرين وغيرها . وقيل انه لما دخل الى الشام كان فى موكب حافل وزينت له مدينة دمشق لما شق فيها الفيلان اللذان أرسلهما السلطان . ويقال ان نائب الشام أنعم عليه بنحو ألف دينار وكذلك نائب حلب ، وكسب من السلطان أموالا جزيلة وسلاريات سمور ووشق وغير ذلك أشياء كثيرة ، ومن الأمراء وأعيان الناس ، وكان الناس يسألونه فى قضاء حوائجهم عند السلطان ، ورأى من العز والعظمة بالديار المصرية ما لا رآه أحد قبله من المقربين عند الملوك ، وكانت رياسة هذا العجمى من غلطات الزمان كما قيل :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

ولم يصح موته .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه حضر مبشر الحاج وقد أبطأ عن ميعاده أياما . وسبب ذلك أن العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه حتى الراحلة التى تحته وجميع كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من الناس من حجاجه كتاب فى هذه السنة ، وقيل ان المبشر مشى على أقدامه يومين وهو لابس بشت ، فلما سمع السلطان ذلك تنكد والناس قاطبة لهذه الأخبار المهولة .

فلما حضر المبشر أشيع بين الناس وفاة القاضى زين الدين النابلسى ، أخى الشرف يونس النابلسى الذى كان أستادارا ، وكان القاضى زين الدين مجاورا بمكة فمات هناك .

وفى هذا الشهر أشيع سفر السلطان الى جهة الفيوم ليكشف عن الجسر الذى انهدم من الماء وشرق غالب بلاد الفيوم ، فلما تسامعت المماليك الجلبان بسفر السلطان الى الفيوم تنكدوا لذلك وقالوا : « كيف يسافر السلطان فى قوة الشتاء وخيولنا فى الربيع » . فشق عليهم ذلك وربما أشاعوا وقوع فتنة كبيرة .

وفى يـوم الخميس سـابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفـة ابن على دولات الكبير ، وقد اجتمع أولاد على دولات وأخوه عبد الرزاق الكل بمصر . ولما حضر ابن على دولات حضر صحبته حاجب ثانى بحلب وهو شخص يقال له قانصوه ابن نفيس ، وكان نائب حلب أرسله الى ابن عثمان قاصدا بسبب القلاع التى أخـذها من بلاد على دولات . فلما حضر قانصوه هـذا من عند سليم شـاه ابن عثمان أخبر عنه بأخبار غير صالحة بأنه قال : أنا ما أخذت هذه القلاع الا بالسيف وما أردها الا بالسيف ، وأنه ماهو راجع عن التوجه الى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وهو فى عمل يرق عظيم وجهز مراكب فى البحـر ليجىء على اسكندرية ودمياط . فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمـراء فى ضرب مشـورة بسبب ذلك . وأخبر هذا القاصـد أنه أراد أن يعوقه عنده أو يقتله فما مكنه أمراؤه من ذلك ، وقالوا : القاصد ما يقتل .

وفى ذلك اليوم كان آخـر تفرقة الجامكية ، فأشيع فى ذلك اليوم باقامة فتنة كبيرة من المماليك الجلبان . فلما كانت ليلة الجمعة أثار المماليك فتنة بالقلعة ورجموا من الطباق ، فلما طلع النهار يوم الجمعة نزل السلطان الى الميـدان ، وجلس به وترددت الرسل بينه وبين المماليك ، وقد أرسل لهم جماعة من الأمراء والخاصكية فقـالوا لهم : نحن ما نطلب منـه نفقة ، وانما نطلب أن يبطل المجامعة والمشاهرة التى قررها على السـوقة فى الدكاكين وعلى سائر البضائع حتى ما نلتقى شيئا نأكله ، ويصرف هـذه اللحوم المنكسرة للعسكر ، ففيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له ستة أشهر وأربعة أشهر مكسورة وأن يبطل هذا الظلم الزائد والمصادرات للناس وأن يمشى على طريقة الملوك السالفة ، وأن يعزل ابن موسى من الحسبة ويعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة ويعزل كرتباى الوالى ، فانه قتل من خشداشينا مملوكا وما بقى لنا حرمة بين العوام ، وذكروا أشياء كثيرة من هذا النمط .

وفى رواية أخرى أن المماليك قالوا : ويسلمنا علم الدين الحلبى وجمال الدين بواب الدهيشة ، فان جمال الدين كان متحدثا فى الخزائن الشريفة من بعد موت الأمير خاير بيك الخازندار ، فصار جمال الدين يعارض المماليك فيما رسـم لهم به السلطان من انعـام لهم . فلما طال المجلس على السلطان ، وأعيت الرسـل المترددة بالرسائل بين السلطان وبين المماليك ، قام السلطان من الميدان وقد أدركته صـلاة الجمعـة ، فلما طلع أغلقت المماليك فى وجهه باب السبع حدرات ثم رجموه من الطباق ولم يمكنوه من الدخول الى الحوش ، وقيل جاءته رجمة فى تخفيفته وسبوه من الطباق سبا فاحشا بعبارة قبيحة .

فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفسـه من البهدلة فرجع الى الميدان وخرج من باب الميدان الذى عند حوش العرب وخرج من بين الكيمان وتوجه الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليـوم ، ثم نادى لأصـحاب المراكب أن لا يعدى أحـد من النواتية بأمير ولا مملوك الا بمشورة السلطان .

فلما قرب وقت صلاة الجمعة طلع جماعة من

الأمراء المقدمين الى صلاة الجمعة فلما بلغهم توجه السلطان الى المقياس صلوا الجمعة بالقلعة ، ثم نزل ستة عشر أميرا مقدم ألف ، وتوجهوا الى السلطان فى المقياس لكى يرضوا خاطره على مماليكه مما وقع من المماليك فى حقه ... فلما اجتمعوا بالسلطان قال لهم : « أنا ما بقيت أعمل سلطانا ، ولوا عليكم من تختارونه غيرى » . فبات تلك الليلة بالمقياس ، وبات عنده الأمراء المقدمون .

فلما كان وقت المغرب نزل من القلعة الجم الغفير من المماليك الجلبان ، وقصدوا أن ينهبوا بيوت الأمراء ، فمنعوا بعضهم بعضا من ذلك ، فنهبوا بعض دكاكين من الصليبة مثل الشمع والحلوى والخبز وغير ذلك . واستمر الحال على ذلك بطول الليل وهم يشوشون على الناس ، ويخطفون العمائم والشدود ، وحصل منهم فى تلك الليلة الضرر الشامل من أذى المماليك ، وكان السلطان لما توجه الى المقياس أخذ ولده معه خوفا عليه من المماليك أن ينكدوا عليه .

فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه توجه الأمراء المقدمون قاطبة الى السلطان ، وكذلك الأمراء الطبلخانات والعشراوات من أرباب الوظائف ، فوقف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين وباسوا الأرض للسلطان على أنه يقوم ويطلع الى القلعة ويرضى عن مماليكه ، فشق السلطان ملوطته وبكى حتى أغمى عليه ، ورشوا على وجهه الماء وهو يقول : « ما بقى لى حاجة بسلطنة فأرسلونى أى مكان تختارونه وولو أمير كبير » . فخاف أمير كبير ، وصار يرعب من كلام السلطان وحصل له وهم .

وقد وقع مثل ذلك للملك الأشرف قايتباى لما طلب منه المماليك نفقة عند حضورهم من تجريدة ابن عثمان ، فجمع الأمراء قاطبة والخليفة والقضاة الأربعة ، وأحضر القبة والطير وفرس النوبة وقال : « سلطنوا أمير كبير أزبيك » ، وفكك أزرار ملوطته على أنه يدخل الى البحرة ، وقال للقضاة : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من السلطنة » . وقد تقدم ذلك فى أول التاريخ من أخباره ، فلما خلع نفسه من السلطنة أعاده الخليفة الى السلطنة ثانيا ، وكان سبب ذلك المماليك أيضا .

ثم ان السلطان أرسل خلف أغوات الطباق وهو فى المقياس ، فلما حضروا بين يديه صاروا يشكون له أن اقطاعاتهم لم يصل لهم منها شىء ، وأن الحماية يأخذونها من المقطعين معجلا قبل أوان النيل بمدة ، وأن لحوم العسكر مكسورة بالأشهر ، وأن جميع البضائع غالية بسبب المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة ، وأن كل شىء غال حتى الخام والبعلبكى والتبن ما يوجد ، وصارت الجامكية ما فيها بركة كونها من مال المصادرات ، وأغلظوا عليه فى القول ، وقالوا له : « ليش ماتمشى على طريقه الملوك السالفة وتقل من هذا الظلم » . ثم قرروا معه بأن يصرف للعسكر اللحوم المكسورة وأن يبطل المشاهرة والمجامعة ، ويعزل المحتسب ويولى غيره ، ويعزل الوزير والوالى ويولى غيرهما ، فقال السلطان : « نعم أفعل لكم ذلك جميعه » . وصاروا يشرطون عليه شروطا كثيرة من هذا النمط ، وهو يقول : نعم . وكان ألماس دوادار سكين هو الذى يتردد بالرسائل بين السلطان وبين المماليك .

فلما طاب خاطر المماليك على ذلك أحضر لهم السلطان مصحفا شريفا وحلف عليه آغوات الطباق من الخاصكية ، وكل واحد منهم على انفراده ، بأن يرجعوا بقية المماليك ، ويخمدوا هذه الفتنة ويكونوا تحت طاعة أستاذهم . فحلفوا على ذلك ودخلوا على السلطان ، وباسوا له الأرض . وخمدت تلك الفتنة على خير ... ولولا لطف الله تعالى فى اخماد هذه الفتنة عن قريب ، والا كان قصد المماليك الجلبان أن ينهبوا المدينة وأسواق القماش وبيوت الأمراء وأعيان الناس ويقتلوا من الأمراء من أرادوا قتله ، ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم ، وكل مفعول جائز فى هذه الأيام ، ولكن الله سلم ولله الحمد على ذلك .

سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) :

كان مستهل المحرم يوم الاثنين ، وكان يومئذ خليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما . وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره .

وأما السادة القضاة الأربعة : فالقاضى الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى الحنفى قاضى القضاة حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبى ، والقاضى المالكى قاضى القضاة محيى الدين ابن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى قاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى أيد الله بهم الاسلام .

وأما الأمراء المقدمون فكانت عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميرا مقدمى ألوف ، منهم أرباب الوظائف ستة ، وهم : الأتابكى سودون العجمى أمير كبير ، وكانت يومئذ امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركماس طرباى امير مجلس ، والمقر الناصرى محمد بجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير طومان باى بن قنصوه ابن أخى السلطان أمير دوادار كبير ، وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف .

وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف ، فهم : الأمير بخشباى بن عبد الكريم نائب طرابلس كان ، والأمير قانصوه بن كسباى بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش ، والأمير قانصوه أبو سنة الوالى كان السيفى يشبك ، وقيل ان السلطان عين له تقدمة الأمير حسين نائب جدة وتوجهت اليه البشائر بها من قبل ، والأمير طقطباى العلائى نائب القلعة ، والأمير قانصوه كرت بن تمر باى ، والأمير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير تانى بك النجمى ، والأمير أرزمك الشريفى الناشف ، والأمير تانم بك بن يشبك المعروف بالحازندار ، والأمير قانصوه يشبك المعروف برجلة نائب قطيا ، والأمير خاير بك السيفى اينال ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك بن طراباى المعروف بالمكحل ، والأمير بيبرس ابن عبد الكريم ، والأمير آبرك الأشرفى ، والأمير علان بن قراجا وقد جمع بين التقدمة والدوادارية الثانية ، والأمير خدابردى الأشرفى نائب الاسكندرية ، والأمير آقباى بن قانصوه وقد جمع بين الأمير آخورية الثانية والتقدمة ، والأمير خاير بك العلائى المعروف بالمعمار .

وأما نواب البـــلاد الشامية والحلبية : فالمقر السيفى سيباى بن بخت خجا ، والمقـر السيفى خاير بك بن بلباى نائب حلب ، وتمراز الأشرفى نائب طرابلس ، وجان بردى الغزالى نائب حماه ، ويوسف الذى كان نائب القدس ، وانتقل الى نيابة صفد ، ونائب غزة دولات باى وقد أضيف اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة .

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف : فالأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماه شاد الشرابخانة الشريفـة ، والأمير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، والأمير نوروز تاجر المماليك ، والأمير قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة ، والأمير قانى بك بن بخشـباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طـومان باى قرا حـاجب ثانى ، والأمير كرتبـاى الأشرف والى الشرطة ، والأمير أزدمر المهمندار ، والشريفى يونس نقيب الجيـوش المنصورة ، والأمير بخشباى قرا شاد الشـون ، والأمير يونس الترجمان ، ومعلم المعلمين البدرى حسن بن الطولونى ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد من حين كف بصره وانقطع .

وأما الأمراء الرءوس نوب فكثيرون لم نوردهم هنا خشية الاطالة .

وأما أرباب الوظائف من أعيـان المباشرين المتعممين : فالمقر القاضوى المحبى محمود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشـاء أعزه الله ، ونائبه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، والمقر القاضوى محيى الدين عبـد القادر الشهير بالقصروى ناظر الجيش الشريف ، والزينى عبـد القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكى مستوفيا ديوان الجيوش الشريف ، والمقر العلائى على بن الامام ناظر الخـاص الشريف وناظر الأوقاف ، وكانت الوزارة يومئذ شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى ، فكان حينئذ القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، ومتكلما فى ديوان الوزارة ، وقد جمع بين نظارة الدولة وكتابة المماليك ، وكانت وظيفة الاستادارية يومئذ بيد الأمير طومان باى الدوادار ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل الشريف ومستوفى ديوان الخاص ، والقاضى عبد الباسط تقى الدين ناظر الزردخانة ، والقاضى عبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانة ، والقاضى زين الدين بركات ابن موسى ناظر الحسـبة الشريفة وغير ذلك من الوظائف ، والأمير شرف الدين يونس النـابلسى استادار العالية كان ، وناظر الأحباس بدر الدين العبسى ، ونقيب الأشراف السيد الشريف أفضل الدين محمد والآن صار متحدثا فى استيفاء ديوان الجيش الشامى ، والقاضى كريم الدين أخو القاضى شرف الدين أحمد بن الجيعان ، والشمسى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان متحدثا فى الخزائن الشريفة ، والشمسى محـمد بن ابراهيم الشرابيشى متحدثا فى وظيفة الزمامية ، والعلائى على البرماوى متحدثا فى جهـات الديوان المفرد وبردداربة السلطان ، وعبد العظيم الصيرفى متحدثا فى الشون السلطانية وأمر العليق ، وغير ذلك من المباشرين وأعيان الدولة .

وأما الأعيان من الخدام الطواشية ، فان وظيفة الزمامية لها مدة وهى شاغرة من حين توفى الأمير

عبد اللطيف الزمام ، والآن الأمير بشير بن مصطفى رأس نوبة السقاة ، والأمير مرهف بن قانصوه ساقى خوند ، والأمير سنبل العثمانى مقدم المماليك ونائبه جوهر الرومى ، والأمير سرور الحسنى شاد الحوش الشريف ، وغير ذلك من أعيان الخدام .

وفى هذه السنة تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترياته ، فقرر منهم جماعة أرباب وظائف ما بين دوادارية سكين وسلحدارية وزردكاشية وأمراء آخورية وسقاة وغير ذلك من الوظائف . وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات فوق الثلثمائة أمير وقد كثر العسكر وقلت الرزق

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا الى دورهم .

ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهروا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكثر الكلام وأن كل شىء على حكمه يعنى فى أمر المشاهرة والمجامعة التى قررت على الحسبة ، وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا بزى ولا يغطى وجهه فى الأسواق ، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ، وأن لا أحد من الناس يحتمى على المحتسب . وقد تقدم القول بأن المماليك الجلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان ، وتوجه الى المقياس وأقام به ثلاثة أيام ، فمشت الأمراء بينه وبين مماليكه بالصلح على أن يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة ويبطل المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة أرباب البضائع ، وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك .

فلما أن طلع السلطان الى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ، ولم يفعل شيئا مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان ، فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع باثارة هذه الفتنة ثانيا وكثر القال والقيل بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بابطال المشاهرة والمجامعة فلما نودى بأن كل شىء على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض آغاوات الطباق ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال : « لا تسمعوا للمماليك القرانصة كلاما لأنهم يرمون بينى وبينكم ، ولا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب ، فحصلوا معكم ذهبا ينفعكم اذا سافرتم ، والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة اذا سافرتم فى التجريدة » . فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا أن يثيروا فتنة فى ذلك اليوم وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة . وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم ونادى بأن كل شىء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعفران فى عمائمهم ،

وشق فى القاهرة ، تنكد المماليك الجلبان لذلك ، وقالوا . « لم يطلع بأيدينـا من الاتفاق شىء ، وخلق جماعته بالزعفران جكارة فينا ... والله ما نرجع حتى نقتله ! » . وقـد تقـدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان : « سـلم لنا ابن موسى المحتسب نقتله » ... بسبب غلو البضائع من كل شى فى الأسواق .

وفى يوم الأحـد سابعه توفى الشرفى يحيى بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكانت جنازته حافلة .

وفى أثناء ذلك اليـوم ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوقة أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم فى القاهرة ، وأشهر المناداة فى ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع ، وكل ذلك خوفا من المماليك الجلبان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوارشاه الذى تعصب له ابن عثمان عوضا عن دولات ، فأحضر صحبته تقدمة فشروية للسلطان وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا بخاتى وثمانى أكاديش وستة بغال من غير زيادة على ذلك ، وأرسل يترفق للسلطان فى مطالعته فاستشار السلطان الأمراء بأن يقبل منه تلك التقدمة أم يردها عليه ، فأقامت الأمراء عند السلطان الى قرب الظهر ولم يعلم أحد ما وقع عليه الاتفاق فى ذلك اليوم .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدوادار وصحبته الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين فتوجها الى جهة الفيوم ليكشفا عن الجسر الذى هناك . وقد قيـل انه لما كان النيل عاليا فى هـذه السنة انقلب . وكان السـلطان قبل وقوع فتنة المماليك المتقدم ذكرها قصد أن يسافر الى الفيـوم بنفسه ويكشف عن أمر هذا الجسر . فما تم له ذلك فرسم الى الأمير الدوادار بأن يتوجه الى هناك ويكشف عن أمر هذا الجسر .

وفيه نادى السلطان للعسـكر بأن يطلعوا الى القلعة بسبب اللحوم المنكسرة فطلع الجم الغفير من العسكر الذين معهم وصول باللحم المنكسر ، وقد تجمد للعسكر من اللحـوم المكسورة فى ديوان الوزارة فوق أربعين ألف دينـار ، فثقل أمر هذا على السلطان .

وفيه نادى السلطان بأن الوزير يوسف البدرى يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وكان مختفيا من حين توعدته المماليـك الجلبان بالقتل . فظهر فى يوم الثلاثاء تاسعه ، فلما قابل السلطان خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفى يوم السبت ثالث عشره رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة وقد قبض عليهم شيخ العرب بن أبى الشوارب ، فرسم السلطان بتوسيطهم فى ذلك اليوم وكان فيهم شخص يسمى أبو عزرائيل وهو كبيرهم فوسطهم أجمعين .

وفى هذا الشهر أو الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى الولى المعتقد سيدى محمد بن عثمان رحمة الله عليه ، وكان من أعيـان المشايخ الصوفية وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس .

وفى يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانصوه جانية وكان قد توجه الى طرابلس بسبب المشاة من العربان الذين يخرجون أمام العسكر فى التجريدة فأحضر الأموال صحبته ودخلت الى الخزائن الشريفة .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره ابتدأ السلطان بتفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر فصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، وكان فيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له أربعة .

وفى يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباى أحد الأمراء الطبلخانات — وهو قريب زوجة الأتابكى قانم التاجر — على ابنة الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ، ومدوا فيه أسمطه حافلة من الأطعمة الفاخره وصنعوا شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه دخل أمير ركب الحاج الأول وهو المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد ، فخلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه دخل الأمير علان أمير حاج ودخل صحبته المحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا . فطلع الأمير علان الى القلعة وخلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره فى موكب حافل . وقد أثنى عليه الحجاج خيرا كثيرا بما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والصدقات ، وقد حصل فى هذه السنة للحجاج مشقة عظيمة فى مغارة شعيب بسبب السيل الذى نزل عليهم هناك . وهلك من الحجاج فى هذه السنة جماعة كثيرة وكان معهم الغلاء موجودا . وكان العربان طافشة فى درب الحجاز ولا سيما ما وقع للمبشر فى هذه السنة وقد تقدم القول بأن العربان عروه وأخذوا كل ما معه حتى كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من حاجه فى هذه السنة كتاب ولا علم بهم خبر .

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض فى مكه على شخص يقال له المعلم أحمد الشامى وكان أصله من عتالين الزردخاناه فوجد معه مالا يتجر فيه فى مكة ، فلما بلغ أمره الأمير علان قبض عليه ، وكان له رفيق فهرب من هناك فلما دخل أحمد الشامى هذا الى القاهرة أسفرت القضية عن كونه سرق العملة الضائعة التى كانت بالقلعة ، وسرقت من مال السلطان وهى اثنا عشر ألف دينار وقد تقدم الكلام على ذلك ، وأن السلطان غرمها للمعلم يعقوب اليهودى معلم دار الضرب ، فلما حضر أحمد الشامى بين يدى السلطان اعترف بذلك فسلمه السلطان للوالى يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذى أخذه . ثم ان أحمد الشامى أقر على شخص كان معه لما أخذ المال وهو كان بالقاهرة مقيما ، فلما أقر عليه خاف على نفسه من العقاب فأرسل للسلطان أربعة آلاف دينار ، وقال هذا هو القدر الذى نابنى من المال ولم يخصنى شيء غير ذلك . فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه فى الحديد حتى يحضر بقية المال . وكان هذا الشخص من معلمى دار الضرب أيضا ، وقد ظهر هذا المال الذى سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفى يوم الخميس خامس عشريه حضر قاصد من عند ملك الحبشة وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد الى مصر ، وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك فى سنه ثمانين وثمانمائة . ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وما لهم شغل فى مصر . فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا

قماش ، كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله كل واحد منهم فى منزلته ، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير آزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار ، والبقية كلهم ليسوا من الأعيان ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب .

وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير الحبشة وقيل ان أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى وكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيها بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة وعليه شايات حرير ملون ، وعلى بقية أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رءوسهم شدود حرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفا ... وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا الى مصر نحو ستمائة انسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق . وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة ، فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم . فلما وصلوا الى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان فلم تمكنهم رؤوس النوب من ذلك ، ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان . فلما وصل هذا القاصد الى الحوش قبل الأرض ، فلما وصل الى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا ، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة ، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل انه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب ، فلما قرىء على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان ، وأن قصادنا أتوا الى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعوهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة ، فرسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع الى أن يسافروا ، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل اليهم من العوام .

فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من رءوس النوب فوصلوهم الى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود . فان قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون الى مصر الا قليلا لأن بلادهم بعيدة ، حتى قيل ان هذا القاصد له تسعة أشهر وهو مسافر حتى دخل الى مصر . ثم ان القاصد أرسل الى السلطان تقدمة لم تكن كبيرة أمر ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك ، فلما عاينها السلطان وبخ الذى طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة الى الملوك السالفة مثل الأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغير ذلك من الملوك ، وأحضر له عدة تواريخ

يذكر فيها هـدايا ملوك الحبشة الى ملوك مصر فقرئت عليـه ، ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة بالنسبة الى ما كانوا عليه من قديم الزمان حتى نقـل بعض المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى التى هناك ، والآن قد ضعف أمرهم بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل ذلك . وقد أرسـل بعض ملوك الحبشة تقـدمة للملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى عدت من النوادر . ثم ان قاصد الحبشة أقام فى الميدان ثلاثة أيام وسافر هو ومن معه الى القدس ليزوروا القيامة .

وفيـه حضر الأمير طومان باى الدوادار وقد تقدم القول على أنه سافر الى جهـة الفيوم هو والأمير أرزمك الناشف ليكشفا على الجسر الذى هناك وقد انقلب من الماء . وكان السلطان قصد أن يتوجه الى هناك بنفسه فما تم له ذلك كما تقدم ذكره ، فلما توجه الأمير الدواداار الى هناك قررا على عمارة هذا الجسر نحـو ثلاثين ألف دينار ، فلما رجعا أخبر السلطان بذلك .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين السكندرى وقرره اماما عوضا عن الشيخ محب الدين الشاذلى الامام بحكم وفاته ، قيل ان شمس الدين السكندرى سعى فى هـذه الوظيفة بألف ومائتى دينار حتى قرر بها .

وفيه احتمل السلطان تفرقة ثمن اللحوم التى كانت منكسرة للعسكر ، وقيل ان السلطان أخرج من الخزائن الشريفة خمسة عشر ألف دينار وسلمها للقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ليشترى بها أغناما لأجل تفرقة لحوم المماليك ، وقال مابقيت أكسر للعسكر لحوما بعد هذا اليوم ، وقد ثقل عليه ما صرفه للعسكر بسبب اللحوم التى كانت منكسرة لهم ، حتى قيل انه صرف فى حركة تفرقة اللحوم فوق الأربعين ألف دينار . واستمرت الوزارة شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى .

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه . ومن حين تحقق السـلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السـلطانية وهو يأخـذ بخواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن ، وصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان .

وفيه أخرج السلطان جانبا من مماليكه الغورية وفرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفا وتراكيش وقسيا ونشابا ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك .

وفيه توفى الأمير قنبك بن تربك أحـد الأمراء الطبلخانات ، وهو ابن عم الأتابكى أزبك ، وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه أرسـل السـلطان الى عبد الرزاق أخى دولات والى أولاد على دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم ، وأرسل يقول لهم : « اعملوا بهـذه النفقات برقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة واجمعوا عساكركم من التركمان الى أن أحضر أنا والعسكر » .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حـديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت فى المراكب الى هناك فكانت نحو مائتى مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجىء على السواحل للديار المصرية .

وفيه نادى السلطان فى القـاهرة بأن أصحاب الدكاكين والأملاك يقطعون الأراضى من الأسواق

والشوارع فامتثلوا ذلك وشرعوا فى العمل ، لكن حصل للناس مشقة زائدة فى الصرف على ذلك لجماعة الوالى والترابة فى شيل التراب ، وقد وقع له مثل ذلك فى أوائل سلطنته فى سنة تسع وتسعمائة وقطع الطرقات قاطبة وادعى آن الأراضى قد علت ، وقد تقدم لى أنى قلت فى ذلك :

فى دولة الغورى رأينا العجب
وقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى فى عامنا ما جرى
من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى يوم الخميس خامس عشريه أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطلت ، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة ، وهى أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشترى نصف فضة . وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك فلما تسلطن ابنه الملك الناصر أعاد هذه المظلمة . فلما تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى ، وصار يسمى الموجب ، ثم انتقلوا من الغلال الى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا . فاستمر ذلك مدة طويلة الى أن ألهم الله تعالى السلطان ابطال ذلك جميعه .

وفى يوم السبت سابع عشريه كان دخول الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات على ابنة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، فكان ذلك المهم من المهمات المشهورة ، وحضر فى هذه الوليمة الأتابكى سودون العجمى والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف وسائر الأمراء من كبير وصغير وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشريه آكمل السلطان تفرقة تمن الجيول التى كانت للعسكر فى الديوان وآكمل تفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر وعوق بعض اللحوم التى كانت منكسرة لجماعة من المباشرين الزردخانية .

وفى ذلك اليوم طرق السلطان آخبار رديئة بسبب ابن عثمان فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء يضربون مشورة بينهم فى آمر ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر ، آشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ، وآلا يتأخر عن العرض احد من كبير ولا صغير فاضطربت لذلك أحوال العساكر قاطبة .

* * *

وفى صفر وكان مستهله يوم الأربعاء طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فقال السلطان للخليفة لما جلس عنده : « اعمل برقك الى السفر وكن على يقظة فأنا مسافر الى حلب بسبب ابن عثمان » . وقال للقضاة الأربعة مثل ما قال للخليفة : « اعملوا يرقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى » ... فقالوا : « الأمر لمولانا » .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من القراء يقال له شهاب الدين بن الرومى وقرره اماما عوضا عن عبد الرازق بحكم وفاته ، وقيل انه سعى فى ذلك بألف دينار حتى قرر بها .

وفى يوم الخميس ثانيه جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع ، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحدا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة الأمير خاير بك ابن اينال أحد الأمراء المقدمين ويعرف بكاشف الغربية وأصله من مماليك الأمير اينال الأشقر أمير

سلاح كان ، وقد ساعدته الأقدار حتى صار باش العسكر ثم بقى كاشف الغربية ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، وسافر الى الحجاز باش العسكر فى التجريدة التى خرجت بسبب الجازانى وانتصر على العربان من قبيلة بنى ابراهيم فحز رءوسهم وأرسلها الى القاهرة ، وكان مسعود الحركات . فلما مات نزل السلطان وصلى عليه وكانت جنازته مشهودة ، وكان فى سعة من المال فخلف من الموجود ما لا يحصى .

وفى يوم السبت رابعه عرض السلطان مماليك الأمير خاير بك المتوفى ، وأخـذ منهم ما اختاره وأرسلهم الى الطباق ، ثم أرسل رسم على دوادار خاير بك وعلى مباشريه وشكهم فى الحديد . وكان الأمير خاير بك قد كتب وصـيـة وبرأ جماعته فلم يلتفت السلطان الى وصيته .

وفى أثناء هـذا الشهر كانت وفاة الشيخ نور الدين على المحلى رحمه الله وكان يعرف بقريبة ، وكان من أعيان علماء الشافعية وله شهرة زائدة بين الناس .

ومن الحوادث فى هذا اليوم ما وقع لعلم الدين چلبى السلطان ، وهو أنه كان ساكنا فى الحسينية وكان السلطان رسم للوالى بأن يباشر قطع أراضى الأسواق بنفسه ، فلما انتهوا فى القطع الى الحسينية جاء مماليك الوالى الى الحسينية ، وأخذوا حميرا من حمام الحبالين ليشـيلوا عليهـا التراب الذى قطعـوه ، فمنعهـم من ذلك جماعة علم الدين وتخاصموا مع مماليك الوالى ، فجاء عبـد علم الدين وقال لأستاذه على ذلك ، وكان علم الدين فى الحمام فقال علم الدين : « اضربوا مماليك الوالى وامنعوهم » . ففتكوا بهم وضربوهم ضربا مبرحا حتى شجوا بعضهم وكسروا أيدى بعضهم ، فلما سـمع الوالى بذلك ركب وأتى الى علم الدين ، فأغلظ عليه علم الدين فى القول وربما سفه على الوالى ، فقبض الوالى على عبد علم الدين الذى ضرب مماليك الوالى فوضعه فى الحديد ، ثم طلع الوالى الى السلطان وأحضر مماليكه الذين ضربوا بين يدى السلطان ، فلما عاين السلطان ذلك شق عليـه ما فعل علم الدين فى حق الوالى . ثم طلع علم الدين الى السلطان وظن أن السلطان يقوم فى نصره ، فلما عاين السلطان علم الدين رسم لنقيب الجيش بأن يقبض على علم الدين ويمضى به الى الوالى يوسطه ، وصمم السلطان على ذلك . فقبض نقيب الجيش على علم الدين وقلع سلاريه وفك أزرار ملوطته وأركبـه على بغلة ، ومضى به الى الوالى ليوسطه ، فاستدرك الوالى فرصة فى هذه الواقعة وركب فى أثناء ذلك اليوم وأتى الى الأمير الكبير سودون العجمى ، وترامى عليه بسبب علم الدين بأن يطلع يشفع فيـه عند السـلطان من التوسـيط ، فطلع أمير كبير فشفع فيـه فقبلت شفاعته ، ثم أن الوالى ألبس علم الدين كامليـة صوف بسمور وطلع علم الدين الى السلطان ليبوس الأرض ، فنتر فيـه السـلطان لما رآه وقال له : « الزم بيتك ولا ترنى وجهك أبدا » . فقيل ان علم الدين خدم السلطان بمال له صورة حتى رضى عليه وخدم الوالى أيضا بمال لكنه استمر ممنوعا من الطلوع الى القلعة من بعد ذلك ، وقد تزايد هذا الأمر الفشروى حتى خرج عن الحد . وكان علم الدين لما قرره السلطان طاش ، وكان فى خـدمة السلطان من مبدأ أمره حين كان أمير عشرة . وكان علم الدين عنده بجمقدار وهو صبى أمرد ، فلما تسلطن السلطان صار علم الدين عنده من المقربين

وصار يلبس سلارى بكم قصير مثل الأمراء العشراوات ويشق القاهرة والركبدار يمشى فى جانبه يفسح له الطريق وخلفه بجمقدار وعلى كتفه فوطة حرير وهو راكب على بغلة عالية فكانت المماليك كلما رأوه يلعنونه فى الباطن ، وربما توعدوه بالقتل . وأمه كانت صانعة ، وقيل ان أصله كان من أبناء الساسة التى بالحسينية وعنده كثافة فى طبعه وقلة فضيلة فكان كما قيل :

نقصت عقلا وفهما وزدت شحما ولحما
ورثت طالوت جسما ولم ترث منه علما

وفى يوم الاثنين سادس صفر جلس السلطان بالميدان وعرض من العسكر فى ذلك اليوم أربع طباق . ومن الحوادث اللطيفة فى ذلك اليوم أن السلطان آمر بابطال المشاهرة والمجامعة التى كانت للمحتسب ، وأشهر النداء فى مصر والقاهرة بذلك وان مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال بطال . فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ونقطت الناس المنادين بالفضة على تلك البشارة الحسنة التى سرت القلوب والأسماع وكان يوما مشهودا وقلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات :

قد جاد سلطان الورى بعدله فى القاهرة
مذ رخص الأسعار مع ابطاله المشاهرة
كم جائع من فرحة يدعو له مجاهرة
وكم حزين قلبه بالكسر أضحى جابره
وقد عفا غلالنا من المكوس الجائره
وصرف اللحم الذى أرضى به عساكره
فارتفعت أيدى الورى له بفضل شاكره
وحاز أجرا ناله من الدنا والآخره
وقد علا تاريخه فوق النجوم الزاهرة
لأنه فى عصره بين الملوك نادره
فيالها من سنة خيراتها مبادره
فكم له فى الخير من أفعال بر ظاهرة
يا رب فاجعل يده لكل باع قاهره

وكانت هذه المشاهرة من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين ، فان الوسائط السوء حسنوا للسلطان عبارة بأن يجعل على السوقة فى كل شهر مالا يوردونه للمحتسب فتزايد الأمر الى أن صار مقررا على السوقه فى كل شهر فوق الفى دينار من هذه الجهة وغيرها من الجهات المتكلم عليها الزينى بركات بن موسى ، وكان جماعة من الأمراء الذين بغير أقاطيع محتالة فى كل شهر على الزينى بركات ابن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة ، فكانت السوقة تجور فى أسعار البضائع ولا يجسر أحد من الناس يكلمهم فيقولون علينا مال للسلطان نورده فى كل شهر ، فاستمر ذلك من أول دولة السلطان الى أن ألهمه الله تعالى ابطالها .

وفيه وجد مملوك من مماليك السلطان مقتولا بباب الوزير وكان ذلك المملوك من جلبانه وكان مصارعا ولا يعلم من قتله فتنكدت المماليك بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات وكان قد دار عليهم نقيب الجيش من قبل وأعلمهم أن العرض يوم الثلاثاء فطلعوا جميعا ، فقيل عين فى ذلك اليوم من الأمراء المقدمين ستة عشر أميرا وأما الأمراء الطبلخانات والعشراوات فلم يعف منهم الا القليل وقال لهم : « الذى له عذر يعوقه عن السفر يذكره لى » ... فأعفى منهم جماعة .

وفى يوم الخميس تاسعه أكمل السلطان عرض العسكر قاطبة ولم يعف منهم أحدا .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على القاضى بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض ولم يعد الزينى بركات الى الحسبة ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمير طومان باى الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة واستمرت الحسبة شاغرة الى الآن لم يلها أحد .

وفى يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل الى الميدان ثم خرج من باب الميدان الذى عند باب القرافة وتوجه من هناك الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم . وأشيع أن السلطان يريد أن يتوجه من هناك الى الفيوم ليكشف عن أمر الجسر الذى انقلب هناك من الماء ، وذلك لأنه لم يكتف بتوجه الأمير طومان باى الدوادار والأمير أرزمك الناشف الى هناك قبل ذلك كما تقدم ذكره فصمم على ذلك وتوجه فكان صحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير طومان باى الدوادار والأمير تمراز الزردكاش أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات ، ونحو خمسين خاصكيا وبعض جماعة من المباشرين وأقام فى المقياس الى أن صلى الجمعة وعدى الى الجيزة ونصب له وطاق عند الأهرام ، فأقام ذلك اليوم هناك ثم توجه الى الفيوم من تحت الجبل .

ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين الچلبى بسبب ما تقدم ، واستمر علم الدين ممنوعا من طلوع القلعة قال السلطان لمحمد المهتار : « انظر لى چلبى يحلق رأسى » ... فعرض عليه عدة چلبية فما أعجبه منهم أحد ، فقال له محمد : « بقى عندنا صبى صغير أمرد يسمى عبد الرزاق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يحلق لجماعة من الخدام وهو يحلق مليحا » . فقال السلطان : « أحضره حتى يحلق لى » . فأحضره ، فلما حلق له أعجبته حلاقته ، فاستقر به چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ، فسافر هذا الصبى مع السلطان الى الفيوم وأنعم عليه بكسوة حافلة وأخرج له اكديشا وبغلة وصار چلبى السلطان فى ساعة واحدة . واذا أعطى لا مانع ، والله عند القلوب المنكسرة جابر ، والعبد بسعده لا بأبيه ولا بجده ... فعد ذلك من النوادر !

وفى يوم الاثنين ثالث عشره خرج عبد الرزاق أخو دولات وأولاد على دولات الذين كانوا حضروا الى مصر فلما حضروا أرسل اليهم السلطان ثمانية آلاف دينار ليعملوا بها برفهم ، فتأهبوا وخرجوا وسافروا فى ذلك اليوم وقصدوا التوجه الى حلب .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس نائب القلعة ومقدم المماليك عند باب القلعة ، وصرفا الجامكية على المماليك والعسكر فى غيبة السلطان على جارى العادة .

وفى يوم الأحد تاسع عشره حضر السلطان من الفيوم وعدى من الجيزة فلاقاه الخليفة والقضاة الأربعة فشق من الصليبة وقدامه القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأعيان المباشرين وانسحبت الجنائب قدامه وطلع الى القلعة فى موكب حافل ، وكانت مدة غيبته فى الفيوم تسعة أيام ، فكشف على الجسر الذى هناك وعاد فدخل عليه تقادم كثيرة من الكشاف ومن المدركين ما بين خيول وأغنام وأبقار وجمال وغير ذلك من التقادم الفاخرة . قيل لما توجه الخليفة ليسلم على السلطان لم يجتمع به هناك فطلع بعد

العصر الى القلعة ، وسلم على السلطان وهنأه بالسلامة .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما عدى من الجيزة كان فى ذلك اليوم رياح عاصفة فغرقت مركب قدام المقياس ، وقد ازدحمت فيها الخيول وشبت على بعضها ، فأشيع أن المركب قد انقلبت بمن فيها ثم خمدت تلك الاشاعة عن ذلك الخبر .

وفى يوم الاثنين عشريه كان عيد النصارى وهو أول يوم من الخماسين ، وكانت خماسين مباركة لم يظهر فيها علة بمصر ولا بأعمالها قاطبة .

وفى يوم الخميس ثالث عشريه أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين فطلع ابن أبى الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع وكان النيل يومئذ فى اثنى عشر ذراعا وثلاث أصابع فزاد على ذلك نصف ذراع وكان ذلك فى شهر برمهات . وسبب هذا الزيادة أن الأمطار كانت بأعلى بلاد الصعيد فانحدرت منها السيول الى النيل فزاد هذه الزيادة فى غير أوانها ، وقد وقع مثل ذلك فى بعض السنين الماضية وزاد فى غير أوانه بسبب السيول نحو ذراعين .

وفى يوم السبت خامس عشريه جلس السلطان فى الميدان وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات ورؤوس النوب ، فلما عرضهم قال لهم : « اعملوا برقكم وكونوا على نقظة من السفر فانى أنفق وأخرج فى جمعتى هذه » ... فنزلوا على ذلك .

وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساع وقيل اثنان من عند نائب حلب وأخبرا بأن نائب حلب أرسل مطالعة على يديهما فلما قرئت على السلطان فاذا فيها ان شاه اسماعيل الصفوى ملك العراقين جمع من العسكر ما لا يحصى وهم زاحفون على بلاد ابن عثمان ، وكان فى سنة عشرين وتسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ملك الروم واقعة مهولة ، وقد تقدم القول على ذلك وانكسر اسماعيل شاه الصفوى كما تقدم . فاستمر الصفوى من حين جرى له ما جرى وهو فى جمع عساكر واستعان بملوك التتار فقيل انه جمع الجم الغفير من العساكر ، فان ابن عثمان كان قد قتل غالب عسكره فى الواقعة المقدم ذكرها .

فلما راج أمر الصفوى وجمع العساكر قصد الزحف على بلاد ابن عثمان ، فقيل انه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا فى آمد وقد كان ملكها من يد الصفوى حين محاربته معه فى الواقعة المذكورة وجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله ، فأشيع أن الصفوى كبس على من كان بآمد على حين غفلة ، وقتل من كان فيها من العثمانية ، واستخلصها من يد جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم .

فلما طرق هذا الخبر سمع السلطان اجتمع بالأمراء فى الميدان وأقاموا فى ضرب مشورة بسبب ذلك الى قريب الظهر ، فأشيع أن السلطان قال : « أنا أخرج بنفسى وأقعد فى حلب حتى أنظر ما يكون من أمر الصفوى وابن عثمان فان كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا » .

فانفض المجلس على أنه لا بد من خروج تجريدة تقيم بحلب وتحرس البلاد الحلبية ، وأشيع فى ذلك اليوم باحضار الكشاف ومشايخ العربان والزامهم أن شرعوا فى تحصيل عشرين ألف خيال من العشير وفرسان العرب ، ويوزعوا ذلك على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات الصعيد ، وهذا من أكبر أسباب الفساد فى حق الجند والمقطعين ، فان الكشاف ومشايخ العربان

يأخذون فى هذه الحركة من البلاد المثل عشرة أمثال لأنفسهم .

***

وفى ربيع الأول وكان مستهله يوم الجمعة طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، وقيل ان السلطان أرسل شمس الدين بن ناشى وبركات بن الظريف شيخ القراء الى الخليفة وهو يقول : « اعمل برقك الى السفر فانه لا بد من سفر السلطان الى حلب ، وانه ينفق ويخرج فى شهر واحد » ... فتنكد الخليفة لهذا الخبر .

وفى يوم الأحد ثالثه جلس السلطان بالميدان وعرض الأمراء الطبلخانات وخاصكية الخواص ، وعين منهم جماعة للسفر . ثم طلع ودخل الى قاعة البيسرية وفتح الحواصل وأخرج منها عدة سروج بلور وعقيق وكنابيش زركش وسروج ذهب وبركستوانات فولاذ مكفتة بذهب وغير ذلك ، وأفرد منها ما حسن بباله لأجل الطلب اذا خرج وسافر ... وهذا كله حتى يشاع بين الناس سفر السلطان الى حلب .

وفى يوم الثلاثاء خامسه جلس السلطان بالميدان وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات وألزم كل أمير أن يستخدم عنده مماليك شىء خمسة وشىء ثلاثة وشىء اثنان بحسب اقطاعه ، وقرر معهم أن بعد المولد الشريف يعرضهم قدامه بالميدان وهم باللبس الكامل والخيول الجيدة وكل من لم يفعل ذلك يخرجه عن امريته ويجعله طرخانا .

وفى يوم الثلاثاء المذكور نزل القاضى شهاب الدين بن الجيعان نائب كاتب السر عن لسان السلطان الى أمير المؤمنين المتوكل على الله بسبب عمل برقه ، وقد كشفوا فى الدفاتر القديمة فوجدوا أن الخليفة اذا سافر صحبة السلطان يكون جميع برقه على السلطان ... فكتب الخليفة قوائم بمصروف عمل للبرق فكان ذلك بعشرة آلاف دينار ، وقيل خمسة آلاف دينار فأخذ الشهابى أحمد تلك القوائم وطلع بها الى القلعة ليعرضها على السلطان .

وفى هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباى الذى كان قبل ذلك نائب صفد وأعاده الى نيابة صفد كما كان ، وعزل عنها يوسف الذى كان نائب القدس فكان مكته فى نيابة صفد دون السنة ثم عزل وولى طراباى المذكور .

وفى يوم الأربعاء سادسه جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان قاطبة وعينهم الى السفر صحبته ، ولم يعف منهم سوى المماليك الصغار الكتابية المرد .

وفى يوم الخميس سابعه رسم السلطان للطواشية بأن تدور على المماليك البطالة وأولاد الناس الذين كان السلطان قطع جوامكم ، بأن يطلعوا يوم السبت للعرض ، فالذى يصلح للسفر يعيد السلطان له جامكيته ويكتبه للسفر . ثم من بعد ذلك ظهرت اشاعة رد الجوامك التى قطعت .

فلما كان يوم السبت تاسعه جلس السلطان بالميدان وعرض جماعة من المماليك القرانصة من الشيوخ والعواجز وأولاد الناس أصحاب الجوامك ، فلما عرضهم عين منهم جماعة للشرقية ، وعين منهم جماعة مع كاشف الغربية وجماعة الى البحيرة وجماعة منهم الى الطرانة ، وجماعة الى المنوفية وجماعة الى منفلوط وجماعة الى الجيزة ، وألزمهم بأن يكونوا مع الكشاف لرد العربان اذا ظهر منهم فساد وحفظ البلاد فى غيبة السلطان اذا سافر . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان الى

حلب ، ودارت الطواشية على المماليك القرانصة وأولاد الناس بسبب هذا العرض حتى عين هؤلاء الجماعة الى هذه الجهات المذكورة لا بسبب رد الجوامك التى كانت قطعت للمماليك العواجز وأولاد النـاس ، واستقرت هذه الواقعة على ما ذكرناه .

وفى يوم الأحد عاشره نزل السلطان وعدى الى بر الجيزة وعرض جمال الأمير خاير بك كاشف العربية الذى توفى ، ثم عاد وطلع الى القلعة ودخل الى قاعة البيسرية ، وعرض فى ذلك اليوم بكاير وقرقلات وجواشن وغير ذلك أشـياء كثيرة من آلات السلاح من حواصل الذخيرة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى الشريف على العادة ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الملك الاشرف . وكانت هذه الخيمة كهيئة قاعة فيها لواوين ثلاثة وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة ، قيل لم يعمل فى الدنيا قط لها نظير وهى من قماش ملون ، وهذه الخيمة كان لا ينصبها الا ثلثمائة رجل من النواتية ، وقيل ان مصروفها ستة وثلاثون ألف دينـار ، فنصبها بالحوش ونصب الشربدارية فى الحوش أحواض جلد مملوءة بالماء الحلو وعلقوا شوكات بالكيزان الفاخرة ، وزينوا بالأوانى الصينى والطاسـات النحاس ، وأوسـعوا فى زينة الشرابخانة الزينة الفاخرة أكثر من كل سنة . ثم جلس السلطان فى الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء من المقدمين وغيرهم وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس والمباشرون والوعاظ على العادة ثم مدوا السماط وقد أوسع فى أمره . وكان مولدا مشهودا أبهج مما تقدم من الموالد الماضية .

وفى ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين ابن النقيب رحمة الله عليـه ، وهو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشـافعى ... وكان يقرب للخواجا شمس الدين بن فضا الجوهرى ، وكان من أهل العلم والفضـل ، لكنه كان جاف النفس ، وينسب الى شح زائد وله فى ذلك الامر أخبار شنيعة لم تذكر هنا لكنها شائعة بين الناس ، ومات وله من العمر نحو الثمانين سـنة . وكان سبب موته أنه كان يمشى فى الأسـواق بقبقاب سجك فتوجه الى خان الخليلى فرفسه فرس فوقع على فخذه فانكسر ، فحملوه الى خلوته التى فى المدرسة المنصورية فأقام بها أياما ومات . وكان منفصلا عن القضاء وقد ولى منصب القضاء ست مرات ، ونفد منه فى هـذه الست ولايات ستة وثلاثون ألف دينار ، وكانت اقامته فى الست ولايات نحو سنتين ، وكان قليل الحظ عند الناس قاطبة ، وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاة ، فعزل به قاضى القضـاة زكريا ، وقاضى القضـاة ابن أبى شريف وقاضى القضـاة القلقشـندى وقاضى القضـاة عماد الدين الطويل وبدر الدين المكينى وعلاء الدين بن النقيب ، وكان يسعى بجملة من الأموال ولا يقيم فى منصب القضاة غير أشهر ثم يعزل ، فنفد منه مال له صورة على هذه الطريقة .

وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة :

منصب الحكم فى القضا قال لما
كشف الله ما به من همـوم
زال عنى ابن النقيب وانى
كنت معه فى قبضـة الترسيم

وقيل كان متحصل ابن النقيب هذا فى كل يوم من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك ، وكان يحرم نفسه من المأكل والمشرب والملبوس .

وفى ذلك اليوم توفى المهتار حسن شربدار السلطان وكان فى سعة من المال ، وصادره السلطان غير ما مرة . فلما مات ختم السلطان على حواصله ولم يلتفت الى أولاده .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشره توفى الشيخ محب الدين الحلبى امام السلطان وكان من المقربين عنده وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب السلطان بالشام ، فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان ان البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن لا يوجد ، والزرع فى الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك ، ولا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وان كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية » . فلم يلتفت السلطان الى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر الى حلب .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير برسباى الفيل أحد أمراء الطبلخانات وقرره أمير حاج الركب الأول ، فنزلا من القلعة فى موكب حافل .

وفى هذا اليوم خلع السلطان على الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات ، ويعرف بدوادار سكين وقرره فى ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن الأمير كرتباى بحكم انتقاله الى تقدمه ألف . وكان الأمير كرتباى من أعيان مماليك السلطان ، وولى كشف الشرقية وولاية القاهرة ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف . وقيل ان الأمير ألماس سعى فى الولاية بأحد وأربعين ألف دينار منها عشرون ألف دينار معجلة وواحد وعشرون يدفعها على نقدات متفرقة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه الأمير ماماى الصغير وقرره فى نظر الحسبة الشريفة عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله الى استدارية الذخيرة ، وكانت مدة اقامة الزينى بركات بن موسى فى الحسبة احدى عشرة سنة الا شهرا وعزل عنها والناس عنه راضية . وقيل ان الأمير ماماى الصغير سعى فى الحسبة بخمسة عشر ألف دينار حتى وليها ، وكانت الحسبة والولاية فى قديم الزمان من أقل الوظائف ، ووليها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء ، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين فى هذا الزمان الى الغاية ، وصارتا من أجل الوظائف ، وهذه الأموال العظيمة التى يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من أضلاع المسلمين ودمائهم والأمر الى الله .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة ، فأنفق على كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف وثمن جمل سبعه دنانير ، ثم ان السلطان كتب أولاد الناس قاطبة الى السفر ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف ، وكان سبب ذلك أن القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك قال للسلطان : « انا نظرنا فى بعض التواريخ أن الملك الظاهر برقوق لما خرج الى التجريدة لم ينفق على أولاد الناس شيئا » . فأعجب السلطان منه ذلك ، وقطع نفقة أولاد الناس قاطبة ، فكثر عليه الدعاء من أولاد الناس بسبب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أعظم مساويه فى حق أولاد الناس ، وحصل لهم كسر خاطر شديد .

وفى يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصائغ الذى كان ضد الزينى بركات بن موسى فى الحسبة وكان له مدة وهو مختف ، فظهر فى

ذلك اليوم وقابل السلطان ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره توفيت خوند جان سكر الجركسية مستولدة السلطان وهى أم ولده الذى توفى فى الفصل سنة عشرين وتسعمائة ، وكانت دينة خيرة قليلة الأذى ، فلما أشيع موتها طلع الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان المباشرين ، فصلى عليها الخليفة عند باب الستارة ونزلوا بها من سلم المدرج وهى فى بشمخانة زركش ونهبت الكفارة من قدامها قبل أن تنزل من القلعة ، ومشى الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء قدامها من القلعة الى مدرسة السلطان التى فى الشرابشيين ، فدفنت هناك على أولادها . ولم يدخلوا بها من باب زويلة بل دخلوا بها من خوخة أيدغمش . وكانت جنازتها حافلة ، وكثر عليها الأسف والحزن من الناس .

وفى يوم الخميس حادى عشريه وقف جماعة من أولاد الناس الى السلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ساعدهم الأمير علان الدوادار وبقية الأمراء ، فلم يرث لهم السلطان ، وقال : « أنا ما عندى نفقة لهؤلاء فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة شهور الجامكية التى أخذها وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع عنى جامكيته » . فرد جماعة كثيرة من أولاد الناس جامكية الأربعة شهور التى أخذوها واستمر أمرهم مبنيا على السكوت .

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على بقية العسكر النفقة . وفى يوم السبت ثالث عشريه أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ، ونادى عليهم فى الحوش أن السفر أول الشهر ، فاضطربت أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصار المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء ، وغلقت أسواق القماش بسبب المماليك واختفى الصنائعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة واختفى جماعة من النجار خوفا من المماليك ، واختفى طائفة من الغلمان خيفة السفر ، وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامه كل واحد يقول يارب روحى . وقد عاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى وقع منه ، ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر مع انه لم يكن أمر يستحق هذا الرهج العظيم ، ولا جاءت أخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى حلب ولا جاليشه ولا تحرك على بلاده ، وعابوا على السلطان أيضا عرضه عسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ، وأنفق عليهم مع العرض ، فخشوا أن يشاع فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصفوى أن السلطان الغورى قد عرض عساكره جميعا فى أربعة أيام فينسبونهم الى قلة وانه ما ثم بمصر عسكر ، وربما يطمع العدو اذا سمع بذلك . وما كان هذا الرأى من الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة .

وفى يوم السبت المقدم ذكره أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين ، فأرسل للأتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار ، والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب لكل واحد أربعة آلاف دينار ، وبقية الأمراء المقدمين الذين هم بغير وظائف لكل واحد منهم ثلاثة آلاف دينار . وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم الى

تجاريد ابن عثمان ؟ فكان يرسل للأتابكى آزبك وحده ثلاثين ألف دينار والأمير تمراز أمير سلاح عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ... ولم يفعل الأشرف قايتباى ذلك الا فى آخر تجاريده لابن عثمان سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار .

وفى يوم الأحد رابع عشريه نزل السلطان وتوجه الى مدرسته التى بالشرابشيين فأقام بها الى ما بعد العصر ، وأشيع أنه قد عرض موجود خوند ، فان حواصلها كانت هناك فظهر لها موجود عظيم ما بين ذهب وفضة عين وفصوص وقماش فاخر وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه أنفق السلطان على الأمراء الطلبخانات والأمراء العشراوات ، وصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، فأعطى لكل أمير طبلخانات خمسمائة دينار ، وأعطى لكل أمير عشرة مائتى دينار ، ولم يرسل للخليفة نفقة ، فحصل له غاية المشقة وترامى على جماعة من الأمراء فى أن يقرضوه مبلغا بربح ، ودخل فى جهته ديون كثيرة ... ولم يتفق قط أن السلطان اذا سافر البلاد الشامية وصحبته الخليفة أن يخرج بلا نفقة ، وكانت عادة جميع السلاطين أن برك الخليفة اذا سافر يكون على السلطان ، وكان يرسل اليه خمسمائة دينار لأجل جوامك أتباعه ، فلم يلتفت السلطان لشىء من ذلك وشح معه فى أمر النفقة ، وكان الخليفة مظلوما مع السلطان فى هذه الواقعة . ثم انه عرض المماليك القرانصة الشيوخ والعواجز وكتب منهم جماعة الى الشرقية والغربية والصعيد وألزمهم أن يخرجوا بلا نفقة وكانوا نحو خمسمائة مملوك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشريه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الريدانية ، ورتب الفراشين كيف ينصبون الوطاق اذا برز السلطان للسفر ، ورتب منازل الأمراء وكيف تكون منازلهم بالريدانية .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان لولده أمير آخور كبير بأن يعمل برفه ويسافر صحبته ، وكان فى الأول رسم له بأن يكون مقيما بباب السلسلة الى أن يحضر السلطان ثم بطل ذلك ، ورسم له بأن يشرع فى عمل برفه الى السفر .

وفى يوم الجمعة تاسع عشريه ، الموافق لسادس بشنس القبطى ، خلع السلطان الصوف ولبس البياض . وكانت أول جمعة خوند زوجة السلطان التى توفيت فصنع لها السلطان مادة حافلة وحضر هناك الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من الأمراء المقدمين ، وحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة مشهودة بمدرسة السلطان التى بالشرابشيين .

❊ ❊ ❊

وفى يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر جلس السلطان بالميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوه بالشهر الجديد وعادوا الى دورهم .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولد المهتار حسن الشربدار الذى تقدم ذكر وفاته وقرره فى وظيفة أبيه فى مهتارية الشرابخاناه عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

وفى ثانيه فرق السلطان على مماليكه الجلبان لبوس الخيل من حرير ملون وخود وأتراس وبدلات ما بين زنود وركب فولاذ ، وغير ذلك من آلة السلاح التى فى الزردخانه ، فتزاحمت عليه المماليك

وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم ، ولا يرضون بالذى يفرفه السلطان عليهم ، فعجز عن رضاهم فى ذلك اليوم وكثر تمردهم فى هذه الأيام الى الغاية .

« أعجوبة » قيل ان امرأة ولدت ولدا له رأسان وأربع أيدى وأربع أرجل ، فلما شاهده السلطان تعجب منه وقيل وقع مثل ذلك فى زمن الامام على رضى الله عنه .

ومن جملة انعام الله تعالى على المسلمين أن السلطان أبطل سفر العربان الذين أفردهم على البلاد الشرقية والغربية والصعيد ، وقد تقدم القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه فى التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب يكونون أمام العسكر وقت الحرب ، فأحضر مشايخ العربان والكشاف ، وأفرد عليهم نحو خمسمائه خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا الى البلاد قاطبة ، وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار . فلما سمع أهل النواحى من الفلاحين بذلك الأمر أخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة ... فلما بلغ الأمراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من ذلك ، وأن غالب البلاد تخرب واخلاها الفلاحون وأغلظ الأمراء على السلطان فى القول وقالوا له : نسافر معكم وتخرب بلادنا فمن أين نأكل ونسدد ديواننا اذا سافرنا ؟ فاستحى منهم السلطان وأمر بابطال ذلك ، وأخرج مراسيم شريفة الى الكشاف ومشايخ العربان بابطال ما كان قد رسم به فى الأول ، واعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحى . فخرجت المراسيم الشريفة الى البلاد بمنع ذلك ، ولو استمر على قوله الأول لخربت مصر عن آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد . فلله الحمد على ذلك .

ومن الحوادث فى هذه المدة أن السلطان صادر ابنة الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، وهى زوجة الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وهى التى كان وقع لها ذلك الأمر الفاحش المقدم ذكره ... فلما صادرها قرر عليها مالا ثقيلا له صورة ، فأرسل رسم عليها بجماعة من الطواشية . فلما تحققت ذلك شرعت فى بيع جهازها وجميع ما تملكه من صامت وناطق .

وكان سبب ذلك أنه لما توفى والدها الأمير خاير بك تكلم الأعداء فى حقها بأنها أخذت من موجود أبيها ثلاث قدور فيها مال جزيل له جرم ، فأرسل خلفها فلما حضرت بين يديه سألها عن ذلك فأنكرت وحلفت أنها مارأت تلك القدور الذهب التى اتهموها بها ، فحنق منها السلطان وقال لها : « أنسيتى ذنبك ؟ » يعنى أمر الصبى الذى وجدوه عندها ، فحلف السلطان ان لم تحضر بالمال الذى أخذته من مال أبيها والا يغرقها ، وصمم على ذلك ... فلما جرى ذلك شرعت فى بيع جهازها لتورد المال الذى قرر عليها ، فصار فى كل يوم سبت وثلاثاء يحضر الزينى بركات بن موسى وجماعة من المباشرين ويبيعون قماشها مثل التركة . وقد وقع لابنة يشبك الدوادار زوجة الأمير قانباى أمير آخور كبير كهذه الواقعة بعينها وصودرت وباعت جهازها وقماشها وجواريها مثل التركة ، وغلقت ما عليها من المال . وقد تقدم ذكرها .

وفى يوم الخميس سادسه صرف السلطان للعساكر المتوجهة الى السفر ثمن اللحوم المنكسرة لهم على ثلاثة أشهر لكى يتوسعوا فيها ، ولم

يصرف للذين تأخروا بمصر شيئا ، وأحالهم على الطباخين يصرفون لهم فى غيبته .

وفى ذلك اليوم برز السلطان خيامه الى الريدانية وقد تحقق أمر سفره الى البلاد الشامية ، ثم نادى للعسكر فى الميدان أن كل من جهز برقه ولا بقى له عاقة يخرج ويسافر ويتقدم قبل حروج السلطان ، ولكن الى الآن لم يعلق السلطان الچاليش الذى هو مقدمة الجيش اذا سافروا الى البلاد الشاميه ، وكانت العادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشامية يعلقون الچاليش قبل خروجهم بأربعين يوما ، فلم يمش السلطان على طريقة الملوك السالفة .

وفى يوم الخميس المذكور أرسل السلطان الى أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله نفقة السفر ، على يد حسام الدين الألواحى بواب الدهيشة ، ألف دينار وكان الساعى له فى ذلك الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، ولولا هو ما كان يرسل له شيئا ، فان السلطان أرسل للقضاة الأربعة يقول لهم اعملوا برقكم ، ولم يرسل لهم شيئا من النفقة ، وقد حصل لهم غاية الكلفة والمشقة لأنه من حين سافر الأشرف برسباى الى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة لم يخرج الخليفة ولا القضاة الأربعة الى البلاد الشامية صحبة السلطان ، وكان للخليفة والقضاة الأربعة على السلطان عادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشامية يرسل لهم نفقة السفر ، فتغافل السلطان عن ذلك .

ثم بعد أيام أرسل السلطان للخليفة سيفا مسقطا بالذهب ، على يد شخص من الزردكاشية يقال له محمد العادلى ، وقد تقدم القول على أنه أرسل له نوبة جام جديد ، فكان مجموع ما حصل له من السلطان من الانعام ، ذهب وغير ذلك ، دون ألفى دينار ، وقد تكلف الخليفة فى هذه الحركة على مصروف برقه وغير ذلك نحو الخمسة آلاف دينار أو أكثر .

وفى يوم الجمعة سابعه خرجت جماعة كثيرة من مماليك السلطان ، وتوجهوا الى السفر نحو البلاد الشامية ، وقد نادى عليهم السلطان قبل ذلك أن كل من جهز برقه يخرج ويسافر قبل خروج السلطان ، فصار يخرج فى كل يوم جماعة من العسكر شيئا فشيئا ولم يسافروا .

وفى ذلك اليوم حضر خليفة سيدى أحمد البدوى وقد حضر بطلب من السلطان فلما مثل بين يديه قال له اعمل برقك حتى تسافر صحبتى الى حلب . فلما سمع ذلك تعلل وأظهر أنه ضعيف ولم يقدر يسافر ، فحنق منه السلطان وألزمه بالسفر ولم يقبل له عذرا . وأرسل يقول لخليفة سيدى أحمد الرفاعى رحمة الله عليه اعمل برقك حتى تسافر صحبتى .

فلما تحقق القضاة سفر السلطان أخذوا فى تجهيز أمرهم وعمل برقهم ، وعينوا معهم جماعة كثيرة من النواب ، فتقلقلوا من أمر السفر ، فعند ذلك فرض القضاة الأربعة مبلغا له صورة على نوابهم على كل واحد من النواب قدر معين على قدر مقامه ، فقامت الثائرة والشناعة على القضاة بسبب ذلك . ولما بلغ السلطان ذلك الخبر أنكر على القضاة هذه الفعلة .

وفيه طلع قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وصلى بالناس صلاة الجمعة ، ثم استأذن فى الدخول على السلطان ، فدخل عليه وهو بالدهيشة ، فلما جلس بين يدى السلطان شرع يحلف له أنه لم يدخل كيسه شىء مما قرروه على النواب ، وانما النواب الذين عينوا للسفر قالوا

نجعل كلفتنا على النواب المقيمين بمصر . فلما سمع السلطان ذلك قال : « لا تشوشوا على أحد من النواب ولا تأخذوا أحدا منهم بالغصب ، فالذى يسافر من تلقاء نفسه يسافر والذى لا يسافر لا تغصبوه على السفر » ... فبطلت تلك الحادثة الشنيعة ولله الحمد بعد ما كان جماعة من النواب شرعوا فى بيع قماشهم وكتبهم . وقد حصل لهم الضرر بسبب ما قرروه عليهم كما تقدم ذكره . ولم يقع للقضاة مع نوابهم مثل ذلك لما سافر الأشرف برسباى الى آمد .

وفيه عرض السلطان غلمانا للبيوتات من الفراشين والبابية والركبخانة والحجارين والشربدارية والزردخانية من النفطية وغير ذلك ، وطلب الأمير علم الدين الذى يحكم على الطبالين والزمارين وألزمه أن يصرف على من يسافر صحبته من الطبالين والزمارين والمنقرين من كيسه ، وقال له : أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة عدة سنين فأنفق عليهم من عندك والا فعندنا من يلى هذه الوظيفة ويفعل ذلك . ثم عرض مغانى الدكة وهم أحمد أبو سنة والمحوجب والمحلاوى ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته ، ثم عين جماعة من النجارين والحجارين وأمرهم بالسفر معه ، ثم عرض هؤلاء المذكورين ولم ينفق عليهم شيئا ، بل صرف لهم جامكية أربعة شهور لا غير ، ولم يعطهم نفقة وقال لهم : « أنتم تأكلون جوامك السلطنة كذا وكذا سنة فعند ارادتى سفركم تطلبون منى نفقة » . وكان قبل ذلك لما قرر القضاة على نوابهم مبلغا مساعدة للنواب الذين يسافرون ، أفرد شمس الدين الظريف نقيب القراء على جماعة من القراء والوعاظ والمؤذنين ، وأمرهم أن يسافروا صحبة السلطان كما فعل القضاة مع نوابهم .

وفى يوم الأحد تاسعه حضر الى الأبواب الشريفة العجمى الشنقجى ، نديم السلطان الذى كان توجه بالأفيال الى نائب الشام ونائب حلب وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان أرسله الى شاه اسمعيل الصفوى فى الخفية فى خبر سر بين السلطان وبين اسمعيل شاه كما أشيع ذلك بين الناس .

وفى يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طلب السلطان . وكان من ملخص أمره أنه أخرج الطلب من الميدان قبل طلوع الشمس ومشى به من الرميلة ونزل من حدرة البقر وطلع به من الصليبة ، وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب أنه جر فيه خمس عشرة نوبة هجن بأطوار زركش وكنابيش وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون ، وأما الخيول فثلثمائة فرس ، منها مائة فرس بيركستوانات فولاذ مكفت بذهب وجواغين مكفتة بالذهب وشىء مخمل ملون ومنها ثلاث طوايل بكنابيش زركش وسروج ذهب ومنها ثلاث طوايل بعراقى وسروج بداوى وطبول بازات . وكان فى الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أطلس أصفر وكجاوتين مخمل بزركش وهما الجوشنان ، وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر ، وكان فيه محفتان على البغال بأغشية حرير أصفر ، وكان بالطلب خمسة رءوس خيل خاصة منها اثنان بأرقاب مزركش وكنابيش وسروج بلور مزيكة بذهب وشىء عقيق وطبول بازات بلور مزيكة بذهب ، وكان به فرسان بكنابيش وسروج ذهب عليها غواشى ذهب وعليها هلالات ذهب عوضا عن الطيور ، وكان راكبا بالطلب بعض أمراء عشراوات رءوس بالشاش والقماش ، وبعض خدام من الطواشية ، وكان

راكبا به من المباشرين القاضى محمود بن أجا كاتب السر ، والقاضى محيى الدين القصروى ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان كاتب السر ، والقاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وناظر الدولة ، والشرفى يونس النابلسى الاستادار كان ، والقاضى كريم الدين بن الجيعان ، وأولاد الملكى وغير ذلك من المباشرين . ثم جاء الصنجق السلطانى وانجرت الكئوسات والصناجق السلطانية والخليفة ، وكان به أربعة طبول وأربعة زمور وعشرة أحمال كئوسات ، وكان عادة طلب السلطان أن يكون به أربعون حمل كئوسات ، فشق طلب السلطان من الرميلة واصطف العسكر والجم الغفير من الناس بسبب الفرجة على الطلب ، فلما مر الطلب لم يعجب الناس واستقلوا الخيول التى به .

وقال من أدرك طلب الأشرف برسباى لما خرج الى آمد : كان فى طلبه أربعمائة فرس مزينة بالبركستوانات المخمل الملون والفولاذ ، وميز بعض الناس يشبك الدوادار لما خرج الى شاه سوار على طلب السلطان وشكره على هذا الطلب ، لأنه كان مرتبا عن طلب السلطان ونزل من جهة باب الوزير ودخل من باب زويلة ، وشق من القاهرة وكان يوما مشهودا حتى رجت له القاهرة فى ذلك اليوم . فاستمر ينسحب حتى خرج من باب النصر وتوجه الى المخيم الشريف بالريدانية .

وفى ذلك اليوم خرج سنيح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وكان قدامه طبلان وزمران ونفير . ولم يخرج فى ذلك اليوم غير طلب السلطان فقط ، وكانت العادة القديمة أن يخرج السلطان عقيب طلبه ثم تنسحب أطلاب الأمراء بعده شيئا فشيئا ، فلم يمش السلطان على النظام القديم وخالف عوائد الملوك فى أشياء كثيرة من أفعاله ، منها أنه لم يعلق الچاليش على الطبلخانات كعادة الملوك السالفة فانهم كانوا يعلقون الچاليش ، ويعرضون العسكر ثم ينفقون عليهم نفقة السفر ، ويستمر الجاليش معلقا الى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين .

وقد حكى عن الظاهر برقوق أنه لما جرد الى تمرلنك خرج طلبه ينسحب من باب الميدان وكان الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفى يده طبر ويكر بفرسه من باب الميدان الى الصوة .

قيل أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون الى البلاد الشامية عند ما تنتقل الشمس الى برج الحمل فى أوائل فصل الربيع والوقت رطب ، وأما الغورى فانه سافر فى قوة الحر والشمس فى برج السرطان فحصل للعسكر مشقة شديدة فى الطريق وليس من العادة القديمة أن السلطان يشق عند خروجه القاهرة بل يخرج من الصوة ، وفى العود يشق القاهرة . وكان السلطان الغورى لا يقتدى الا برأى نفسه فى جميع الأمور .

وفى يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان يقال له جانم الأفرنجى ، وكان مجرما عائقا مسرفا على نفسه ، خرج صحبة المماليك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان ، فصار جانم هذا يخطف كل شىء لاح له ، ويؤذى الناس بطول الطريق . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة الى أرباب الادراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حيث وجدوه من غير مشورة ، فقيل انهم قبضوا عليه وشنقوه على شجره فى بلبيس وهو

بقماشة وسـيفه وتركاشـه ، ووضعوا غلمانه فى الحديد الى أن أتوا بهم الى المقشرة .

وفى يوم الجمعة رابع عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، وكان صحبته ولده أمير آخور كبير ، وقيل انه تصدق فى ذلك اليوم بمال له جرم .

وفى ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه الى الريدانية ، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم .

فلمـا كان يوم السـبت خامس عشره خـرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى الى البلاد الشامية والحلبية ، وللناس مدة طويلة لم يروا سـلطانا خرج الى تلك البلاد على هـذا الوجه من حين توجه الأشرف برسباى العلائى الى آمد ، وذلك فى سـنة سـت وثلاثين وثمانمائة ، فكانت المدة نحو سبع وثمانين سنة .

ولما كانت صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان ، وهم بالشاش والقماش ، فخلع السلطان فى ذلك اليوم ميمر وأطلسين على الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقرره فى امرية السلاح ، وكانت شـاغرة من حين قرر الأمير سودون العجمى فى الأتابكية ، فكانت عدة الأمراء المقدمين الذين تعينوا للسفر صحبة الركاب الشريف خمسة عشر أميرا ... منهم أرباب الوظائف خمسة وهم المقر الأتابكى سودون ابن جانى بك الشـهير بالعجمى ، والمقر السيفى أركماس أمـير مجلس سـلاح ، والمقر الناصرى محمد ابن المقام الشريف أمير آخور كبير ، والمقر السيفى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى قانصوه بن سليمان چركس ، ثم الأمير تمر الحسنى الشـهير بالزردكاش ، والأمير علان بن قراجا دوادار ثانى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه كرت ، والأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، والأمير تانى بك الشـهير بالخازندار ، والأمـير بيبرس قـريب السـلطان ، والأمير أبرك رأس الجلبـان الأشرفى ، والأمير آقبـاى الطويل أمير آخور ثانى أحـد المقـدمين ، والأمير كرتبـاى الأشرفى الذى كان والى القاهرة أحد المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخـانات من أرباب الوظائف منهم الأمير يوسف النـاصرى شاد الشرابخاناه ، والأمير مغلباى ، والشرفى يحيى الزردكاش الكبير ، والأمير قانى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات . وأما الأمراء العشراوات فعين منهم جماعة كثيرة يخرجون الى السفر صحبة الركاب الشريف . وأمـا الأمـراء الذين تخلفوا بالقاهرة فهم المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ابن أخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب الغيبـة عن السـلطان الى أن يحضر ، والأمـير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، والأمير أرزمك الشهير بالناشف ، والأمير قانى بك النجمى أحد المقدمين وكان قرر فى امرية الحاج ، والأمير أزبك الشـهير بالمكحل أحد المقدمين ، والأمير قانصوه الفاجر أحد مقدمى الألوف ، والأمير بخشباى أحد المقدمين ، وكان قد توجه الى الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك ، والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بثغر رشـيد بسبب عمارة الأبراج التى هناك والسور ، والأمير خدابردى نائب الاسكندرية أحد المقدمين وكان مقيما بها ، والأمير قانصوه الشهير برجله أحد الأمراء المقدمين نائب قطيا وكان مقيما بها .

فلمـا أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخر المقدم ذكره انسحبت أطلاب الأمراء المقدمين المتوجهين صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباى أحد المقدمين ، وهو الذى كان والى القاهرة ، ثم طلب الأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير تانى بك الخازندار ، ثم طلب الأمير أبرك الأشرفى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير علان بن قراجا الدوادار الثانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير بيبرس قريب السلطان ، ثم طلب الأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، ثم طلب الأمير قانصوه كرت ، ثم طلب الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، ثم طلب الأمير قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم طلب الأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، ثم طلب الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، ثم طلب المقر الناصرى محمد ، نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، ثم طلب الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقد قرر أمير سلاح ، ثم بعد ذلك مشى طلب الأتابكى سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى وكان طلبه غاية فى الحسن والترتيب .

فلما انقضى أمر الأطلاب خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند السلم المدرج ، فخرج وقدامه النفير السلطانى المسمى بالبرغشى وهو فى موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان موكب مثل ذلك الموكب فكان فى أول الموكب الأفيال الثلاثة وهى مزينة بأنواع الزينة ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ثم الأمراء رءوس النوب بالعصى يفسحون الناس ، وقد ترادفت الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين ، منهم المقر القاضوى محب الدين محمود بن أجا كاتب السر الشريف ، والقاضى ناظر الجيش محيى الدين عبد القادر القصروى ، ومنهم ناظر الخاص علاء الدين ابن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف ، والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب العساكر المنصورة ، والقاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار الذخيرة ، والشرفى يونس النابلسى كاتب جيش الشام واستادار العالية كان ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل المعمور ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكى كتاب استيفاء الجيش ، وكاتب الزردخاناه ، وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين ، والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة

وكان حاضرا هذا الموكب السادة الأشراف اخوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا قدام الأمراء المقدمين ، ثم تقدمت الأمراء المقدمون قاطبة وصحبتهم ولد السلطان المقر الناصرى أمير آخور كبير والى جانبه الأتابكى سودون العجمى . ثم من بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الأربعة مشايخ الاسلام وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن الشحنة ، وقاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى الدميرى ، وقاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، ثم بعدهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين ، وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتى ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين خيل بعراقى وسروج

بغواشى حرير أصفر وطبول بازات ، وطوالتى خيل بكنابيش وسروج ذهب وميـاثر زركش وبعضهم بسروج بلور مزيكة بالذهب وشىء عقيق مزيك بفضة ، وقد تقدم ذكر الطلب بما شرح من وصفه قبل ذلك ؛ ثم تقـدمت جماعة من رءوس النوب مشـاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالأطبار ، ولم يكن قدامه لا وطاق ولا شـبابة سلطانية كما هى عادة السلاطين فى المواكب . ثم مشت البقج والمجاميع مغطية بالحرير الأصفر ومشى البخورى بالمبخرة قدامه ، ثم أقبل السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره ، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة . وكان السـلطان راكبا على فرس أشقر بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسـه كلوته وهو لابس قباء بعلبكى أبيض بطرز ذهب على حرير أسود عريض قيـل كان فيه خمسمائة ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليـوم فى غاية الأبهة والعظمة ، فانه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون مبجلا فى المواكب ، وأقبـل والصنجق السلطانى على رأسه ومقدم المماليـك سنبل العثمانى خلفه وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش والجم الكثير من الخاصكية والجمدارية . فدخل من باب زويلة وشق القـاهرة فى ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة فى هذا اليوم ، وضجت الناس له بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا . ثم وصل الى المخيم بالريدانية ، ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلت خوخجانات فيهـا الذهب والفضـة وضمن كل واحـدة من الذهب العين ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التى جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج فى هذه التجريدة ، وفرغ أيضا حواصـل الذخيرة وأخذ ما فيها من التحف وآلات السـلاح الفاخرة التى كانت بها من ذخائر الملوك السـالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك من كنابيش زركش وطبول بازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتـة وأكوار زركش وغير ذلك من التحف الملوكية .

فنزل جماعة من كتاب الخزينة صحبة الخوخجانات وجماعة من الخازندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الخوخجانات محملة على خمسين جملا ، ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ، وقدامها طبلان وزمران وعيـدان نقر على جمال ، فتوجهوا الى الوطاق .

وفى يوم الأحد سادس عشره أرسـل السلطان نادى فى القـاهرة أن الرحيل يوم الجمعة حادى عشريه ، فلا يتأخر أحـد من العساكر الذى تعين للسفر ولا يحتج بحجة ولا عذر ، ولما أقام السلطان فى الوطاق عين جماعة من نواب السادة القضـاة للسـفر صحبة الركاب الشريف . فأما نواب الشافعية : فعين منهم الشيخ زين العابدين نجـل القـاضى كمال الدين الطويل ، والقـاضى شمس الدين بن وحيش ، والقاضى شمس الدين التفهنى امام الأمير أركماس أمير سلاح ، والقـاضى زين الدين الظاهرى ... فجملة ذلك أربعـة من نواب الشافعية . وعين من مشايخ العلم الشافعية جمال الدين الصابونى مفتى المسلمين ، والشيخ صلاح الدين القليوبى قارىء الحديث الشريف ، وسافر صحبة هؤلاء العلماء اخوة الشريف بركات أمير مكة .

وأما من تعين من نواب السادة الحنفية : فالسيد الشريف القاضى البردينى ، والقاضى زين الدين

الشرنقاشى ، والقاضى شرف الدين البلقينى ، والقاضى عز الدين خليل . وأما نواب السادة المالكية فتعين منهم : القاضى شمس الدين المدينى والقاضى معين الدين بن يعقوب . وأما نواب السادة الحنابلة فتعين منهم : القاضى شهاب الدين الهيثمى والقاضى شمس الدين الطرابلسى . وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من مشايخ الصوفية : فمنهم السادة الأشراف القادرية ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، والشيخ محمد بن كشك ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه ، والشيخ عفيف الدين شيخ مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من أئمة السلطان : فقاضى القضاة الحنفية شمس الدين السمديسى ، والشيخ شهاب الدين بن الرومى . وأما من توجه من مشايخ القراء صحبته : فالشيخ شمس الدين بن الظريف ، والشيخ الخواص ، والرومى ، والشيخ حسن الطنتنائى ، وابن القاضى خليل ، والشيخ أبو الفضل الفار ، وابنا عثمان الاثنان . وأما من سافر معه من المؤذنين ، فمنهم : نور الدين الخواص ، ونور الدين الحسنى ، وجلال الدين ، وناصر الدين . وأما من توجه صحبة السلطان من الموقعين : فمنهم القاضى رضى الدين الحلبى ، والقاضى عمر بن معين الدين ، والقاضى علم الدين العباسى ، والقاضى محب الدين الظاهرى ، وشمس الدين الجيزى ، وسعد الدين بن الرومى . وأما من توجه صحبته من كتاب الخزينة فمنهم : القاضى كريم الدين عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد ، والقاضى شمس الدين محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان . وأما كتاب الزردخانة فمنهم : القاضى زين الدين عبد الباسط ، والقاضى عبد الكريم بن الأدنى ، وغير ذلك من المباشرين .

وأما من توجه صحبه السلطان من الاطباء فمنهم . محمد ابن الرئيس شمس الدين القوصونى وهو رأس الاطباء الان ، وصحبته جماعه من الاطباء ، ومن الكحالين عبد الرحمن ابن الشريف ، ومحمد ابن العفيف ، وآخرون . ومن المزينين عبد القادر المرشدى وآخرون من الجرايحية . وأما من توجه صحبته من مغانى الدكة : فهم نور الدين المحوجب وأحمد بن أبى سنة وأحمد المحلاوى . وتوجه صحبة السلطان جماعة كثيرة من البنايين والنجارين والحدادين كما جرت به العادة .

وسافر معه شيخ المشايخ ، المسمى بشيخ الحرافيش ، وجنده وصنجفه وطبله ، وكان هو قدام طلب السلطان لما دخل الى دمشق كما جرت به العوائد القديمة عند خروج التجاريد .

ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر رحل من المخيم الشريف ثلاثة من الأمراء المقدمين وهم الأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة وبقى مقدم ألف ، وكان جملة ما معه من مماليكه أربعين مملوكا ، والأمير أبرك الأشرفى والأمير بيبرس قريب السلطان ، وكان جملة ما معه من مماليكه أربعة وأربعين مملوكا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره رحل من الأمراء المقدمين ثلاثة أيضا وهم : الأمير تانى بك الخازندار وكان جملة ما معه من مماليكه اثنين وستين مملوكا ، والأمير قانصوه كرت وكان جملة ما معه من مماليكه اثنين وخمسين مملوكا ، والأمير قانصوه ابن سلطان جركس وكان جملة ما معه من مماليكه ستة وسبعين مملوكا ، وأما الأمير جان بلاط الموتر فكان جملة ما معه من مماليكه ستة وثلاثين مملوكا ،

والأمير تمر الزردكاش كان جملة ما معه من مماليكه اثنين وسبعين مملوكا .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه رحل من الأمراء المقدمين أرباب الوظائف الأمير أنص باى حاجب الحجاب وكان جملة من معه من المماليك أربعة وستين مملوكا ، والأتابكى سودون العجمى ، وأما المقر الناصرى ولد السلطان أمير آخور كبير والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى فانهما لا يرحلان الا فى ركاب السلطان ، وكان جملة ما مع الأتابكى سودون من مماليكه مائة وخمسة وثلاثين مملوكا ، وولد السلطان عشرين مملوكا كتابية صغارا للخدمة ، وجملة ما مع الأمير أقباى الطويل من مماليكه خمسة وأربعين مملوكا ، فكان جملة ما مع هؤلاء الأمراء الذين توجهوا صحبة السلطان تسعمائة وأربعة وأربعين مملوكا على ما قيل . ويقال ان عدة المماليك الذين خرجوا فى هذه التجريدة من القرانصة والجلبان وأولاد الناس خمسة آلاف نفر ، على ما قيل ، والله أعلم . وقيل تأخر بالقاهرة من المماليك القرانصة والعواجز والشيوخ والمماليك الجلبان فى الطباق والقلعة وأولاد الناس نحو ألفى نفر على ما قيل .

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب واذا فيها : « ان ابن عثمان أرسل قاصدا فعوقناه عندنا وأخذنا الكتاب منه وهاهو واصل لكم » فوصل اليه وهو بالمخيم بالريدانية . ولما فكه السلطان وقرأه فاذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدى وأسألك الدعاء وانى ما زحفت على بلاد على دولات الا باذنك وانه كان باغيا على ، وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب . وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فان حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره ، فالأمر راجع اليكم . وأما التجار الذين يجلبون المماليك الچراكسة فانى ما منعتهم وانما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم ، وان البلاد التى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما ترومونه ويريده السلطان فعلناه » .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان ، فانشرح الأمراء والسلطان لهذا الخبر ، واستبشروا بأمر الصلح والعود الى الأوطان عن قريب ... وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده ، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد .

وفى عقيب ذلك اليوم حضر الأمير اينال باى الدوادار سكين ، الذى كان توجه الى حلب بسبب كشف خبر ابن عثمان ، فلما حضر وجد السلطان قد برز خيامه الى السفر وخرج من القاهرة فأخبر أن قاصد بن عثمان وصل الى حلب ، وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين السلطان ، فقدم لاينال باى هناك تقدمة حافلة .

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريدانية خلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة الى أن يحضر . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبه عوضا عن الأمير ماماى الى آن

يحضر ، وجعل الزيني بركات بن موسى المذكور متحدثا في جميع أمور السلطنة . وفي تلك الليلة أحضر مشاعل موقدة فطارت منها شرارة على خيمة السلطان فاحترق جانب منها ، فلم تتفاءل الناس بذلك بسبب السلطان . فلما دخل الزيني بركات ابن موسى الى القاهرة تضاعفت عظمته الى الغاية وصار في مقام نظام الملك وهو المتصرف في أمور المملكة ، والأمير الدوادار الكبير معه كاللولب يديره كيف يشاء .

وفي تلك الليلة أيضا خلع على الأمير ألماس ، وقرره والى القاهرة وأوصاه بحفظها وعدم الظلم ، وخلع على الأمير ماماى المحتسب ورسم له بالسعر معه الى حلب ، فرجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة في موكب حافل وقدامه المنادون ينادون بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد من الناس يمشي من بعد العشاء بسلاح ، ولا يشوش مملوك ولا غلام على مسبب ، وأن من كانت له ظلامة أو حق شرعي على أحد ولم يدفعه له فعليه بباب الدوادار فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء . وكان الأمير الدوادار محببا للرعية والفقراء ، قليل الأذى في حق الناس . ولما شق الصليبة شق في موكب حافل وقدامه السعاة والسقاءون والجم الكثير من الناس والأتباع والمماليك السلطانية ، وتوجه الى منزله في ذلك الموكب . وقد قلت في ذلك :

لقد شرف الأكوان نائب غيبة
أمير دوادار الى النهى والأمر

كريم شجاع في المعامع فارس
له نصرة في الحرب بالبيض والسمر

اذا ما اشتكى المظلوم من جور ظالم
له طلعة بالعدل تؤذن بالفجر

فيارب كن عونا له ومساعدا
على كل ما يغشاه من حادث الدهر

وأبق ابن موسى للرعية انه
كليم زكي القلب أمن من السحر

جناب كريم ثم ناظر حسبة
ومولده قد كان في ليلة القدر

وللسادة الأشراف ينظر بالتقى
ونال بهذا غاية الفوز بالأجر

وصار لديوان الذخيرة ناظرا
وعامله في أعناق أعدائه يبري

عزيز بمصر حاز طلعة يوسف
أعوذه بالنجم والنور والحشر

وفي يوم السبت ثاني عشري ربيع الآخر رحل السلطان من المخيم الشريف بالريدانية وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصري أمير آخور كبير وأقباى الطويل أمير آخور ثاني فصلى صلاة الصبح ورحل وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، وكانت مدة اقامته في الوطاق بالريدانية سبعة أيام ، فلما توجه الى خانقاه سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشريه .

وفي يوم الاثنين رابع عشريه فرقت الجامكية الثالثة على العسكر الذي تأخر بمصر ، فجلس الأمير طقطباى عند سلم المدرج ، وصرفت الجامكية بحضرته ... وهذه أول جامكية صرفت في غيبة السلطان .

وفي ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمراء المقدمين الذين عينهم السلطان الى الشرقية والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد

من فســاد العربان ، فتوجه الأمير تانى بك الى الشرقيــة ، والأمير أزبك المكحل الى الغربيــة ، والأمير قانصــوه الفاجر الى المنوفيــة ، والأمير قانصوه أبو سنه الى البحيرة ، والأمير بخشباى كان مسافرا الى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك . ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة لجميع المماليك السلطانية المعينين الى البلاد بأن يخرجوا صحبة الأمراء الذين يسافرون الى الشرقية والغربية ولا يتأخر عن ذلك أحــد من المماليك المعينة للسفر فامتثلوا ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه توفى الأمير نوروز تاجر المماليك وأحــد الأمراء الطبلخانات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان قد كبر وثقل فى الشحم حتى عجز عن الحركة ، واستمر على ذلك حتى مات ، فأشيع أن السلطان أنعم على مملوكه ماماى الذى قرر فى الحسبة ببرك نوروز وخيوله وبغاله وخيامه على ما قيل والله أعلم .

وفى ذلك اليوم أظلم الجو وأرعــد وأبرق ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك فى أول بؤونة من الشهور القبطية ، فاستمر المطر عمالا ثلاثة أيام متوالية حتى عد ذلك من النوادر . وقام عقيب ذلك رياح واصفر الجو صفرة عظيمة وقت المغرب فتفاءل الناس بوقوع فتن فى الوجود وقد جرى فيما بعد .

وفى ذلك اليوم جاءت الأخبار من عند السلطان أنه لما رحل من الخانقاه وجد فى وطاقه شخص من الســعادنة ، زعموا بأنه فداوى أرسله علم الدين چلبى السلطان الذى تغير خاطره عليــه كما تقدم ذكر ذلك ، فقال أعداء علم الدين انه أرسل ذلك الفداوى ليقتل الصبى المسمى بعبد الرزاق الذى صــار چلبى الســلطان عوضــا عن علم الدين ، فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا أنه فداوى وأحضروه بين يدى السلطان ، فقرره فأنكر فرسم بشنقه .

ثم ان السلطان أرسل يقول للأمير ألماس والى القــاهرة بأن يكبس على علم الدين وعلى أقاربه ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على بابه ، فلما بلغ علــم الدين الچلبى ذلك اختفى وهــرب من بيته .

ثم ان الوالى قبض على جماعة من الســاسة من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد ، فأشيع بين الناس أنهم شنقوهم فى المقشرة أو سجنوهم حتى يحضر الســلطان . وكان قبــل ذلك حرق للأمراء أيضا عدة شون دريس فى الحسينية بنحو ألفى دينار ، فنسبوا ذلك لفعل جماعة من الساسة من أقارب علم الدين الچلبى ، واذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها ، واســتمر الطلب الحثيث على علم الدين الچلبى الى أن ظفروا به ، فقيــل ان الوالى لما هرب علم الدين أرسل مماليكه باللبس الكامل فى طلب علم الدين فلم يظفروا به .

وفى يوم الجمعــة ثامن عشريه خــرج الأمــير الدوادار وسافر بسبب سد جسر الفيض وجسر أبى المنجا وقد أعيا الخولة سدهما ، وكان النيل قد زاد قبــل المناداة ، وكان فى اثنى عشر ذراعا فتعب الأمير الدوادار فى سد تلك الجسور غاية التعب ، وكسر مراكب فى أساس هذين السدين والمــاء بقوى على ما يصنعون الى أن أعان الله وسدهما ورجع .

* * *

وفى جمادى الأولى خرج الأمير ماماى الصغير المحتسب وسافر ولحق السلطان ، وخرج صحبته صبى صغير عمره ثلاث عشرة سنة ويقال له قاسم

ابن أحمد بك بن أبى يزيد بن عثمان وكان عمه سليم شاه ابن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك فر ابنه قاسم هذا هو ولالاه ، ودخل الى حلب فى الخفية ثم جاء الى مصر وأقام بها الى أن خرج السلطان الى جهة البلاد الشــامية ، فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده ، فلم يفد من ذلك شىء . ولما خرج صحبة الأمير ماماى خرج وقدامه جنائب ، وكان السلطان قد قام له بمصالح البرق ، وتكلف عنـه بنحو ألفى دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره فى بلاد بنى عثمان بأن فى مصر من أولاد بنى عثمان ولدا ذكرا ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان اذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون الى هذا الصبى قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة ولا أفاد ما قصده شيئا ، فشق من الصليبة وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر ملوكى . وقيل كان فى أذنه بلخشة مثمنة ، وصحبته جماعة من العثمانية . وخرج صحبته الأمير ماماى والأمير اينال باى دوادار سكين الذى كان قد حضر من البلاد الشــامية ، فرسم له السلطان بالعود ثانيا صحبته الى حلب .

ومن الحوادث التى جرت فى غيبة السلطان أن الأمير ألماس والى الشرطة صار يحجر على الناس ، ويأمرهم بأن يعمروا على الحارات والأزقة دروبا فى أمــاكن شتى ، فعمروا دربا فى رأس ســوق الدريس ودربا فى الحســينية ودربا على قنطـرة الحاجب ودربا عنــد الفراين وآخر عند خوخة القطانين وآخر عند المقس وعدة دورب فى أماكن شتى ، وسد عدة خوخ كانت بالقاهرة فصار على رأس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق بالقاهرة ، وأمرهم بأن يعلقوا على كل دكان قنــــديلا ، وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء ولا يمشى بسلاح .

ومن الوقائع اللطيفة أن الأمــير الدوادار لم يشوش على أحد من أجنــاد الحلقة ولا ألزمهم بالمبيت فى القلعة فى غيبة السلطان ، وكانت العادة القديمة أن السلطان اذا سافر نحو البلاد الشامية تتسلط نقباء القصر على أولاد الناس من نقبــاء الحلقة ويلزمونهم بالمبيت فى القلعة فى كل ليلة فى مدة غيبة الســـلطان الى أن يحضر من الســـفر ، فيحصل لهم مشقة زائدة ويقاسون تعبا شــديدا بســبب طلوعهم كل ليلة الى القلعة ليبيتوا بهــا بعيدا عن بيوتهم فى الشتاء ، والذى لا يبيت يقيم له بديلا يبيت عنه بالقلعة . وكان ذلك يعمل الى أيام الأشرف قايتباى لما كان يسافر ، فلم يتعرض الأمير الدوادار لما ســافر الغورى الى أحــد من الناس من أجنــاد الحلقة ، فكتب ذلك فى صحيفة الأمير الدوادار ودعا له أولاد الناس الذين أبطل عنهم هذه السنة السيئة .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان قصد أن يشترى قمحا من مركب على شــاطىء البحر ، فلما اشتراه لم يجــد تراسا فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة ومعه حمار وزكيبة ، فأمسك المملوك ذلك الحمار والزكيبة فلم يعطه الفــلاح اياهما ، وتنازع معــه فضربه المملوك ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه ، فألقى الرجل نفسه فى البحر فأغمى عليــه فمات ، فعند ذلك تكاثر الناس على ذلك المملوك فمســكوه وأتوا به الى بيت الأمــير الدوادار ، فوضعه فى الحديد وأرسله الى الوالى ... فلما بلغ خشداشينه أتوا الى بيت الدوادار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده ، فقيل للمماليك

ان ذلك المملوك سلمه الأمير الدوادار الى الأمير ألماس الوالى ، فعنــد ذلك نزل من الطباق الجم الكثير من المماليك الجلبان لأجل أن ينهبوا بيت الوالى ويحرفوه ويطلقوا المملوك ، فتغافل الأمير الدوادار عن أمر ذلك القتيــل وراحت على من راحت .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية ، وكان ســاكنا بالقلعة فى خرائب تتر وكان متهما بالمال ، وكان عنده ودائع من جوامك المماليك ، فنزل عليه بعض الحراميــة وهو راقد فى بيته ليلا وضربوه على رأســه بالجلبات حتى مات ، وأخذوا جميع ما فى بيته ، وقتلوا عبده وجاريته ولم ينتطح فيها شاتان ، حتى تحير الأمير طقطباى نائب القلعة من ذلك ، وكيف جرى فى وسط القلعة والأبواب تغلق من بعد المغرب ... فعد ذلك من العجائب !

وفى يوم الثلاثاء تاســعه توفى قاضى القضــاة الشافعية جمال الدين ابراهيم ابن الشــيخ علاء الدين القلقشندى رحمة الله عليه ، وكان من أهل الدين والعلم والفضل وله ســند عال فى الحديث الشريف ، وولى منصب القضاة فى أيام الأشرف الغورى مرتين . وكان قد كبر وشــاخ وقارب التسعين سنة ، وكان من أعيان علماء الشــافعية رحمة الله عليه .

وفيه وردت الأخبــار بأن السلطان دخل الى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر . قيل انه لما أراد الرحيل منها أذن للخليفة والقضاة الأربعة أن يتقدموا الى غزة ، ثم لما وصــل الى قطيا لاقاه الأمير قانصوه رجلة نائب قطيا ومد له هنــاك مدة حافلة ، وقدم له تقدمة جيــدة على ما قيل .

ومن الاشاعات التى أشيعت فى أثناء الطريق أنه سرقت بغلة قاضى القضــاة الحنفية ثم ظهرت بعد ذلك وتكلف عليها الحلوان حتى رجعت اليه . وأشيع أن بقجة فيها قماش قاضى القضاة الحنبلى سرقت من خيمته . وأشيع أنه قد سرق للسلطان جمل عليــه مال له صورة ، فقبض على من فعل ذلك ، ووسط من الجمالة ثلاثة أنفار ... وكل ذلك اشاعات ليس لها صحة .

* * *

ثم وردت الأخبار أن السلطان دخل مدينة غزة المحروســة يوم الخميس رابع جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة حافلة ، وقدم له تقدمة عظيمة ، وقيل انه أقام بها خمسة أيام ورحل عنها .

وأشيع أن السلطان لما كان بغزة خلع على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشــة وقرره معلــم المعلمين عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى بحكم انفصاله عنها ، وكان هذا من غلطات الزمان فى تولية الوظائف غير أهلها .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، فأخذ القاعدة فجاءت اثنى عشر ذراعا وهذا من النوادر ، وقد بقى على الوفاء ستة أذرع . هكذا نقله المقريزى فى الخطط ، وزاد الشــيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه المسمى بكوكب الروضة أربعا وعشرين اصــبعا . وكان الناس من أيام الناصر محمــد بن قلاون ما رأوا القاعدة جاءت اثنى عشر ذراعا ، فان أيامه سنة احدى وستين وسبعمائة جاءت القاعدة اثنى عشر ذراعا وكان الوفاء سادس مسرى وبلغت الزيادة فى تلك السنة الى ما يقرب من أربعة وعشرين ذراعا ، فحصــل للناس بسبب ذلك الضرر الشــامل ،

واستمقوا فى هبوطه حتى هبط بعد ما مكث الى آخر توت .

ثم فى أيام الأشرف برسباى فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة جاءت القاعدة أحد عشر ذراعا وعشر أصابع . وكان الوفاء ثانى مسرى وبلغت الزيادة فى تلك السنة عشرين اصبعا من الذراع العشرين ، وثبت الى أواخر بابه . فلما جاءت القاعدة فى هذه السنة اثنى عشر ذراعا حسبت الناس أن النيل يمكث على الأراضى وقت أوان الزرع وأنه يبقى فى غير أوانه ، فما حصل فى هذه السنة الا كل خير ، ووفى النيل فى أوانه ، وسيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفى يوم السبت سابع عشريه توفى الأمير جانى باى من طبقة الزمامية ، وكان من أمراء الطبلخانات وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرجوا فلوسا جددا وأبطلوا الفلوس العتق ، ونادوا بأن الفلوس العتق بنصفين الرطل والجدد معاددة ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الثلاثاء ، توجه جماعة من نواب القضاة وأعيان الناس الى بيت الأمير الدوادار وهنوه بالشهر .

وفى هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير سيباى نائب الشام ودخل فى موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الكثير من العسكر والناس . ولاقاه أمراء الشام وعساكرها ، وحمل على رأسه القبة والجلالة كما جرت به عوائد الملوك من قديم الزمان ، فزينت له مدينة دمشق زينة حافلة ودقت له البشائر بقلعة دمشق ، ونثر على رأسه بعض تجار الأفرنج ذهبا وفضة وفرش له سيباى تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، وازدحمت عليه المماليك بسبب نثار الذهب والفضة ، فكاد السلطان يسقط عن ظهر فرسه من شدة زحام الناس عليه ، فمنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقق الحرير تحت حافر فرسه ، فكان له بدمشق يوم مشهود وعد ذلك من المواكب المشهودة . فاستمر ذلك الموكب الحفل حتى دخل من باب النصر الذى بدمشق ، وخرج الى الفضاء منها ، وتوجه الى المصطبة التى يقال لها مصطبة السلطان ، وهى بالقابون القاقونى ، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها ، وكانت قد تشعثت من مرور السنين . وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف برسباى لما توجه الى الشام فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى الملك الأشرف قانصوه الغورى .

ثم ان السلطان أقام بالمصطبة التى بالقابون تسعة أيام . وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين الطويل خطب بجامع بنى أمية جمعتين ولم يحضر السلطان هناك لصلاة الجمعة . وقيل استمرت مدينة دمشق مزينة سبعة أيام ، ثم ان السلطان رحل عنها وتوجه الى حمص ، ثم رحل عنها وتوجه الى حماه فلاقاه نائبها جان بردى الغزالى . قيل انه مد له هناك مدة حافلة أعظم من مدة أمير الشام على ما أشيع . وقيل ان السلطان لما رحل من حماه نزل بها قاسم بك بن أحمد بن عثمان الذى تقدم ذكره عندما خرج من مصر وسافر صحبة الأمير ماماى المحتسب كما تقدم .

وقيل انه فى ليلة الاثنين رابع عشر هذا الشهر خسف جرم القمر خسوفا فاحشا ، حتى أظلمت

الدنيا وأقام فى الخسوف فوق خمسين درجة ، وتغطى بالسواد جميعه ، واستمر فى الحسوف الى ثلث الليل الأخير .

وفى يوم الاثنين رابع عشره رسم الأمير الدوادار بشنق شخص من العربان المفسدين على قنطرة الحاجب .

وقد ضبط الأمير الدوادار أحوال الديار المصرية فى غيبة السلطان ضبطا جيدا ، ورسم للأمير آلماس والى القاهرة بأن يطوف فى كل ليلة من بعد العشاء ، وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان يطوفون معه : كل ليلة تنزل جماعه من المماليك من طباقهم بالنوبة ويطوفون مع الوالى الى طلوع الفجر ، فلم يقع فى غيبة السلطان فى القاهرة الا كل خير ، وكان ذلك على غير قياس .

وكان الأمير الدوادار فى كل وقت يقمع الأمير آلماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لأجل الدورب ، وقد أفحش فى الظلم فى هذه الحركة ، فكان يتفق مع أرباب الأدراك والخفراء فيجبون له من سكان الخطط والحارات لأجل عمارة الدروب ، فجبوا له من الناس أموالا لها صورة ... فكانت الخفراء اذا وقفوا على باب أحد من السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما يختارونه من ذلك ، فاذا هرب صاحب الدار سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع لهم ما قرروه عليه ، والمرأة الأرملة يسمرون بابها عليها ويتركونها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم من الطاقة اللحاف أو الطراحة أو البساط أو غير ذلك ، فكانوا يقررون على الفقراء من الناس شىء أشرفى وشىء أشرفيين ، وأما أعيان الناس فكانوا يقررون عليهم شىء خمسة أشرفية وشىء عشرة أشرفية بحسب ما يختارونه ... ففعلوا مثل ذلك بخط المقس وخط باب البحر وسويقة اللبن بالحسينية وسوق الدريس وخط بركة الرطلى وغير ذلك من الأماكن والخطط ، ففعلوا فى هذه الحركة ما لم يفعله هناد ، من وجوه الظلم والفساد ، وهم يزعمون أن فى ذلك نفعا للمسلمين فى عمارة الدروب . فجبوا من هذه الحركة مالا له صورة ، ولم يصرفوا منه الا القليل .

ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع ابن طولون الى منسهد السيدة نفيسة الى آخر السوق الطولونى على جميع الأملاك والدكاكين التى هناك ، وزعموا أنهم ينشئون سورا على حدرة ابن قميحة الى باب القرافة ، وزعموا أن ذلك يمنع هجمة العربان على حين غفلة ، وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس . فشرعوا فى كتب أسماء الدكاكين والأملاك التى بتلك الحارات الطولونية والقرافية . فلما بلغ الأمير الدوادار زجر آلماس وحط عليه . وكان أشاع ذلك على لسان الأمير الدوادار فحلف الأمير الدوادار أيمانا مغلظة أنه ما له علم بذلك ، وأبطل هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة .

ثم ان جماعة حاجب الحجاب قصدوا أن ينشئوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم يجبون من سكان بركة الرطلى مالا له صورة بسبب قطع الطين الذى فى فم البركة ، فانه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول المراكب للبركة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك أبطل هذه الفعلة أيضا ورسم بسد فم البركة رأسا حتى لا تدخل اليها المراكب .

وفى يوم السبت تاسع عشره حضر الأمير الدوادار وكان قد توجه الى الفيوم ليكشف عن الجسر الذى عمره الأمير بخشباى هناك ، فكشف عليه وعاد بعد أيام .

وفى غيبة السلطان كان الأمير الدوادار يركب كل يوم ومعه الأمراء العشراوات الدين بمصر ويسيرون نحو المطرية وبركه الحاج ، فاذا رجع يدخل من باب النصر ، وقدامه الجم الكثير من الأمراء والعسكر ، وكل هذا لأجل العرب والفلاحين حتى لا يظنوا أنه ما بقى فى مصر عسكر ولا يطمعوا فى آمر العامة ، وكان هذا من الآراء الحسنة .

وفى يوم الاثنين حادى عشرى جمادى الآخرة الموافق لسابع عشرى أبيب كان وفاء النيل المبارك ، وفتح السد يوم الثلاثاء ثانى عشريه الموافق الثامن عشرى أبيب ، وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام ، وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس وأربعين وثمانمائة ما رأوا النيل وفى سابع عشرى أبيب الا فى تلك السنة . فصنف منادى البحر هذه الكلمات : « ياحبيب اهنا وطبب ، النيل أوفى فى أبيب ، وقد بقينا فى هنا ، يافرحنا » . وكلمات أخر غير ذلك .

فلما وفى النيل توجه الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة لفتح السد فنزل فى مركب الحراقة وتوجه الى المقياس وخلق العمود . ثم نزل من المقياس فى الحراقة المذكورة وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر ، منهم الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وآخرون من الأمراء ... فتوجه لفتح السد وكان يوما مشهودا . فلما فتح السد عاد الأمير الدوادار الى بيته فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وجماعة من المباشرين . فلما فتح السد جرى الماء فى الخلجان بعزم قوى ، وسر الناس فى ذلك اليوم بوفاء النيل قبل ميعاده ، وقد قيل فى المعنى :

تمتع بماء النيل قبل وفائه
فقد طاب منه الشرب وهو لنا طب
وقد سكبت منه الجنادل فيضها
فأضحى بلا شك حلاوته سكب

ومن الحوادث أن الأمير الدوادار نائب الغيبة منع الناس آن يسكنوا الجسر الذى ببركة الرطلى والحلجان فاطبة ، وعمل جسرا على خليج الزربية عند موردة الجبس ، فآل آمر الجزيرة الوسطى الى الخراب . فلم يكن بها بيت ، ولا فتح فيها دكان ، ومنع المقاصفية آن ينصبوا مقصفا فى الجسر ، ولا فى الزربية ، فلم يكر فى الجسر ولا فى الزربية بيت ولا دكان ، ولم يسكن المسطاحى ولا حكر الشامى ولا الزربية ، وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها ولا سيما بيوت أولاد الجيعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الأعيان ، فحصل للناس فى هده السنة غاية الأنكاد بسبب ذلك ، وخسر الناس كراء بيونهم . وأشيع سد خوخة الجسر ، فتلطف القاضى بركات بن موسى المحتسب بالأمير الدوادار فى آن يسمح للناس فى دخول المراكب على العادة ، وأن يسكنوا الجسر فأبى من ذلك ، وقال ان العوام يفسدون نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان فى هذه النيلية ، واستمر مصمما على منع ذلك .

ثم فى أواخر النيلية شفع القاضى بركات بن موسى فى خمسة مراكب للبياعين آن تدخل فى البركة على العادة ، فدخل الحلوانى والجبان والفاكهانى والعداس والسويخاتى لا غير ، فأقاموا أياما يسيرون فلم يجدوا من يبيعون عليه ، فمضوا الى حال سبيلهم . واستمرت بركة الرطلى ليس بها ديار ولا نافخ نار ، فعند ذلك عمل الشيخ بدر

الدين الزيتونى هذه المرثية اللطيفة فى واقعة الحال فقال :

سألت اله العرش ينعم بالنصر
لسلطاننا الغورى فهو أبو النصر
مليك عزيز أشرف ومظفر
مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضحى على الكون وحشة
فها بركة الرطلى مدمعها يجرى
يحق لنا نرثى المقاصف بالبكا
خصوصا من المسطاح مع لذة الجسر
لقد كان فيه للخليع تواصل
لعمرك ان الوصل خير من الهجر
وكان بها جميزة طاب ظلها
فناح عليها الطير والوحش فى القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت
وصاحت بقلب صار فى غاية الكسر
ودوحته تبكى بجامعه دما
وقد أصبح الشامى يبكى على الحكر
وأضحت بيوت الجسر خالية فلا
لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا
فياوحشة السكان من كل ذى قصر
على بركة الرطلى نوحوا وعددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسى حلاوة
مشبكها يشدو من المسك والعطر
وكان بها الفكاه يسعى بمركب
بخوخ ورمان يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر
لها بهجة للمرء طيبة النشر
وكان بها الجبان يقلى بمركب
فيجمع بين النار والماء فى البحر
وكان بها للآكلين قطايف
بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق فى الصحن من فستق بها
وسكرها يروى حديث أبى ذر
وكان بها للراكبين مراكب
مسترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد
بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة للمطربين عهدتها
وجنك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعاهد كلها
وناحت بها الغربان والبوم فى الوكر
وشق شقيق الروض فيها ثيابه
وأرمى غصين الدوح مافيه من زهر
وقد لبس الشحرور سود ثيابه
وأبدى خرير الماء لطما من النهر
وسالت دموع السحب من أعين السما
وصار ضياء الصبح كالليل اذ يسر
وقد كسفت شمس الضحى فى سمائها
وأظلم نور البدر بالخسف للفجر
جزيرتنا الوسطى خراب لأنها
بها وضعوا سد الماء بها يجرى
وقد أخذوا أنقاضها لمبيعها
ولم يبق فيها من بناء سوى الجدر
وقد أصبح النوتى فى غاية الضنا
ولا يلتقى فيها معاش ولا مكرى
وباع قماش الستر منها وقلعها
وباع المدارى حيث يدرى ولايدرى

فيامقلتى جودى بدمع تحسرا
ويامهجتى صبرا وناهيك بالصبر
رعى الله أياما تقضت بطيبها
ونحن بمصر فى أمان وفى بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذى
أشار بهذا المنع بالنهى والأمر
أراد بهذا المنع صون حريم من
غدا صحبة السلطان والبنت فى الخدر
فكان بهذا الأمر أكرم صائن
حريم جميع الناس من آفة الدهر
ولولا ابن موسى كان فى البعض شافعا
وقد نال شكر الشاكرين مع الأجر
لما سمحوا فيها بمركب بائع
ولا لاح فيها من جليس على الجسر
فياربنا أنعم علينا بنصرة
لسلطاننا الغورى والعسكر المصرى
وأنعم بعود الكل فى خير مقدم
الى الأهل والأوطان فى غاية الجبر
وصل على المختار من آل هاشم
محمد الهادى الى الخير والبشر
كذا الآل والأصحاب والتبع الأولى
لهم غاية الاحسان فى موقف الحشر
عليهم صلاة الله ما هبت الصبا
صباحا على عود وما غرد القمرى
وناظمها العوفى يدعو لكل من
رأى عيب زيتونى وينعم بالستر

وفى يوم الجمعة خامس عشريه توفى الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله وكان من أعيان مشايخ الصوفية ، وله شهرة طائلة بالصلاح والاستقامة بين الناس ، وكان لا بأس به .

***

وفى شهر رجب توفى الأمير طراباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان مستهله يوم الخميس فتوجه جماعة من نواب القضاة والكتاب والأعيان الى بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة وهنئوه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثامنه توفى تغرى بردى المعروف بالشمشمانى وكان يدعى أنه من الأمراء العشراوات ، قيل انه كان من جملة السقاة فمات عن عدة أقاطيع ورزق مشترياته ، وكان فى سعة من الرزق ، وكان ينسب الى شح زائد وبخل .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شخص من الأمراء العشراوات يقال له مساي ، وكان مسافرا صحبة السلطان فى التجريدة ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا فى نواحى الشرقية والغربية كما تقدم ذكر ذلك فرجعوا عندما أوفى النيل وتقطعت الطرقات بالمياه .

وفيه قلق الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت البضائع تباع بسعرين ، ووصل صرف النصف الفضة بالفلوس العتق الى ستة عشر درهما وكانت الفلوس الجدد تصرف معاددة وهى فى غاية الخفة ، فتضرر الناس لذلك وغلقت الدكاكين بسبب ذلك وتشحط الخبز وسائر البضائع ، وكادت أن تنشأ من ذلك غلوة .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل الى حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة . فكان لدخوله يوم مشهود ، وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه بالشام ، وحملت القبة والجلالة على رأسه ، وكان حاملها ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباى نائب الشام .

وفى حال دخول السلطان الى حلب حضر قصاد

سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فقيل انه أرسل اليه قاضي عسكره — وهو شخص يقال له ركن الدين — وأحد أمرائه يقال له قراجا باشا ، وصحبتهم سبعمائه عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب . وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين يديه قاضى ابن عثمان وقراجا باشا شرع يعتبهم على أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه وما جرى منه فى حقه ، وأخذه لبلاد على دولات ، فقال له القاضى وقراجا باشا : « نحن فوض لنا أستاذنا أمر الصلح ، وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى » ... وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال وينثنى عزمه عن ذلك . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد .

ثم ان قاضى ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء بلادهم ، وقد أفتوا بقتل شاه اسمعيل الصفوى ، وأن قتله جائز فى الشرع . وأرسل يقول فى كتابه للسلطان : « أنت والدى وأسألك الدعاء ، لكن لا تدخل بينى وبين الصفوى » .

ومن جملة مخادعة السلطان ابن عثمان للسلطان الغورى أنه أرسل يطلب منه سكرا وحلوى فأرسل له الغورى مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار وهذه حيلة منه ، وأرسل يقول فى كتابه : « انى لا أحول عن اسمعيل شاه أبدا حتى أقطع أثره من وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا فيما يكون فى أمر الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصفوى ليحاربه والأمر بخلاف ذلك فى الباطن . وذكروا له أنه على القيسارية يقصد التوجه الى الصفوى .

ثم ان السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وقيل ان السلطان ابن عثمان أرسل الى السلطان الغورى تقدمة حافلة ، وللخليفة وأمير كبير سودون العجمى ، فكان ما أرسله ابن عثمان من التقدمة أربعين مملوكا ، وأبدان سمور وأثواب مخمل وأثواب صوف وأثواب بعلبكية وغير ذلك .

وكان ما أرسله الى الخليفة بدنين سمور وثوب مخمل بكفوف قصب وثوبين صوف عال . وأرسل اليه قاضى عسكر ابن عثمان ثوبين صوف وسجادة وبغلة . وأرسل ابن عثمان الى أمير كبير أيضا تقدمة حافلة ما بين سمور ومخمل وصوف ومن المماليك اثنين .

ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى دوادارسكين بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب عن ذلك . وقد نظمت هذه القصيدة فى معنى واقعة سفر السلطان من حين خروجه من مصر الى دخوله مدينة حلب فقلت :

ادعو بنصر للمليك الأشرف
سلطان مصر ذى المقام الأشرف

قد قدر الرحمن نقل ركابه
نحو الشآم وحسنها المستظرف

اختار أن يطأ البلاد لكشفها
فغدت تجود له بجود متحف

خضعت له النواب طوعا باللقا
من غير حرب أو حسام مرهف

لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكرام والفضل الوفى

تاريخه فاق الملوك تعاظما
فاصغى له واسمع بغير تكلف

عاينته يوما مضى فى موكب
يزهو على برقوق وهو الأشرف

ركب الخليفة والقضاة أمامه
وجيوشه منها الأساود تختفى
عودت طلعته بسورة يوسف
وجميع عسكره بآى الزخرف
فى غزة قد كان يوم دخوله
يوم الخميس بعسكر مترادف
قالت دمشق لفرحها لما أتى
أهلا بسلطان الأنام المنصف
وتهللت بالنور جبهة ربوة
لما اكتست بالزهر حلة يوسف
وحماة أحماها بصائح عدله
فأطاعه العاصى بغير توقف
واشتاقه نهر الفرات وقد أتى
تياره بالماء فى عزم وفى
واستأنست حلب به مذ زارها
واستوحشت مصر له بتكلف
شرفت به حلب وقالت فرحة
يا حبذا من قادم مستظرف
سلطاننا الغورى صار مؤيدا
مذ حفه الرحمن باللطف الخفى
فالله يبقيه على طول المدى
ما أسكرت ريح الصبا كالقرقف
قد صار لابن اياس شعر قاله
لكن نظمى قد أتى بتضعف
ثم الصلاة على النبى المصطفى
خير البرية ياله من مسعف
والآل والأصحاب ما جن الدجى
أو ضاء صبح بعد ليل أوطف
وختام مسك قد شذا لما بدا
سلطان مصر ذو المقام الأشرف

وحكى أن السلطان لما دخل الى حلب رسم لقاضى القضاة كمال الدين الطويل بأن يخطب فى الجامع الكبير الذى بحلب ، فاجتمع الجم الكثير من أهل حلب فى الجامع المذكور ، فخرج قاضى القضاة كمال الدين الطويل ورقى المنبر وخطب خطبة بليغة ، وأورد أحاديث شريفة فى معنى الصلح . وأذن المؤذنون بالجامع وقرأوا حزب السلطان هناك ، وعملت الوعاظ . وكان يوما مشهودا بالجامع المذكور ، ولم يحضر السلطان ولم يصل صلاة الجمعة هناك كما فعل بدمشق ، فعابوا عليه ذلك . وكان قاضى القضاة كمال الدين يخطب بالجامع الكبير مدة اقامة السلطان بحلب .

ومن الحوادث التى وقعت من السلطان بحلب أنه أنعم على قانصوه نائب حلب بتقدمة ألف ، وعلى يوسف الناصرى شاد الشرابخاناه الذى كان نائب حماه ، وعلى طراباى نائب صفد ، وعلى تمراز نائب طرابلس .

ومنها أنه أنفق على أولاد الناس الذين توجهوا صحبته بلا نفقة ، لكل واحد منهم ثلاثون دينارا . وكان رسم لهم قبل ذلك لكل واحد بخمسين دينارا ، فعارض فى ذلك كاتب المماليك وجعلها ثلاثين دينارا . وصرف العسكر ثمن اللحم عن ثلاثة شهور .

ثم ان السلطان فرق على مماليكه الجلبان من حواصل قلعة حلب عدة سلاح لم يعبر عنها ، وفرق عليهم خيولا ما لها عدد ، وصار ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة من مال وخيول خاص وسلاح بطول الطريق ، ولم يعط المماليك القرانصة شيئا فعز ذلك عليهم فى الباطن .

ثم ان السلطان قرأ ختمة فى الميدان الكبير بحلب يوم الخميس مع ليلة الجمعة ، وحضر أمير المؤمنين

المتوكل على الله والقضاة الأربعة ومشايخ الزوايا ، وصلى أمير المؤمنين بالسلطان فى الخيمة صلاة العصر وصلاة المغرب .

وأنعم السلطان فى ذلك اليوم بأربعمائة دينار ، ومائة رأس غنم ، وأنعم على قاضى القضاة الشافعى بسبعين دينارا ، وعلى نوابه ومن معه من العلماء بسبعين دينارا ، والقاضى الحنفى كذلك . وأنعم على القاضى المالكى بخمسين دينارا ، وعلى نوابه الثلاثة بثلاثين دينارا ، وكذلك القاضى الحنبلى . وأنعم على مشايخ الزوايا لكل واحد منهم خمسون دينارا ، ، وأنعم على الفقراء الذين سافروا صحبته لكل واحد منهم عشرة دنانير ، وأنعم على القراء الذين حضروا هذه الختمة من قراء حلب وغيرها لكل واحد خمسة دنانير . وفى عقيب ذلك أحضر السلطان الأمراء المقدمى الألوف والنواب والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وحلفهم على المصحف الشريف بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه ، فحلفوا كلهم على ذلك .

ثم نادى للعسكر بالعرض فى الميدان الذى فى حلب فعرضوا وهم باللبس الكامل وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة ، كما هى عادة الأتراك . وعندهم أن هذا هو القسم العظيم .

ثم ان السلطان أرسل خلف قاسم بك فى حماة فلما حضر خلع عليه وأشهر أمره بحلب .

ثم وردت الأخبار الى حلب بأن سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، وهو الأمير مغلباى أحد الدوادارية ووضعه فى الحديد . وكان السلطان جهز الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة الى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضى عسكر ابن عثمان ووزير قراجا باشا الذى تقدم ذكرهما خلعة سنية بطرز يلبغاوى عريض ، وأذن لهما بالعود الى بلادهما . وكان هذا هو عين الغلط من السلطان الغورى ، حيث أطلق قصاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباى ويظهر له من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه .

ثم لما وصل الأمير كرتباى الى عنتاب بلغه أن السلطان ابن عثمان أبى الصلح وقبض على الأمير مغلباى ووضعه فى الحديد بعد أن قصد شنقه ، فشفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته . وقد قاسى منه من البهدلة ما لا يمكن شرحه . فلما تحقق الأمير كرتباى ذلك رجع الى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه ابن عثمان بالأمير مغلباى ، وأن طوالع عسكره قد وصلت الى عنتاب وملكت قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغير ذلك من القلاع . ولما وصل الأمير كرتباى بهذه الأخبار الردية الى السلطان اضطربت أحواله وأحوال الناس وأحوال العسكر قاطبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير عبد الرزاق وولاه على اقليم أولاد ذو الغادر ، فخرج من حلب وصحبته ملك الأمراء خاير بك فى موكب حافل . فخرج نائب حلب وأمراؤها وعساكرها ونزلوا عن حلب بيوم ، وصحبتهم من المشاة خمسة آلاف ماش ، وأنفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد . ثم خرج بعدهم ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة ، فخرجوا من حلب يوم السابع عشر من شهر رجب . وقد أشيع أن ابن عثمان ماش من جهة وابن سوار ماش من جهة .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بالرحيل من

حلب والنزول على جيلان لقتال الباغى ابن عثمان ، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون الى القتال ، والدى يريده الله هو الذى يكون ... وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الى ولده أمير المؤمنين يعقوب .

ثم ذكر فيه عن أمر الأسعار فى حلب ، فقال : الشعير كل أردب بسبعة وعشرين نصفا ، والخبز كل رطل بثلاثة دراهم ، والجبن بنصفين الرطل ، واللحم بتسعة دراهم كل رطل مصرى ، والدبس بنصف فضه الرطل المصرى ، وتناهى سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، والكرسنة عليق الجمال بمائة وأربعة وعشرين درهما الأردب

ثم ان السلطان أرسل مثالا شريفا الى الأمير الدوادار يتضمن الوصيه بالرعية ، وأن المماليك الجلبان الذين بالطباق يكفون الأذى عن الناس ولا يشوشون على أحد من المتسببين ، وأن الأمير الدوادار يعرض جميع من فى الحبوس قاطبة من رجال ونساء ، ويطلق المديونين وغيرهم ، ولا يترك بالحبوس غير أصحاب الجرائم ممن عليه دم . وأرسل أيضا يقول له ان كان درب الحجاز آمنا من العربان فجهز الحاج من القاهرة ، وان كان مخوفا فلا يسافر أحد من الحجاج فى هذه السنة .

وأرسل أيضا مثالا شريفا الى المماليك الجلبان الذين بالطباق بأنهم لا ينزلون من الطباق الى المدينة ، ولا يشوشون على أحد من الناس قاطبة ، ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ، فقرىء عليهم هذا المثال بالقلعة بين يدى الأمير طقطباى نائب القلعة ، وأرسل بالسلام على الأمراء والعسكر قاطبة .

* * *

وفى شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — ووافق ذلك يوم النوروز من السنة القبطية فعد ذلك من النوادر ، وقد دخلت سنة قبطية فى أول يوم من الشهور العربية ، ولا سيما يوم الجمعة وهو يوم فيه ساعة الاجابة .

وفى يوم السبت خلع الأمير الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له جانى بك القصير وهو من مماليك السلطان وقرره فى كشف منفلوط عوضا عن اينال بن جانى بك الذى كان بها ، وقد ضعف بصره .

وفى يوم الأحد ثالثه عرض الأمير الدوادار المحابيس الذين بالسجون وعرض النساء اللاتى بالحجرة فأطلق منهم جماعة ممن عليهم دين ، وصالح أرباب الديون من ماله وأرضاهم ، واستتاب جماعة من الحرامية وأطلقهم ، ورسم بتوسيط جماعة ممن عليهم الدم ، وأبقى منهم جماعة فى السجون الى أن يحضر السلطان .

ثم ان الأمير الدوادار تصدق على الفقراء بمبلغ له صورة ، ورسم بقراءة ختمات فى جميع مساجد القاهرة ، وقال ادعوا للسلطان بالنصر .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع الأمير الدوادار على يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان ، وهذه رابع ولاية له بالوزارة .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بسفر الحاج على العادة ، وكان أشيع عدم خروج الحاج فى هذه السنة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه مع ليلة الأربعاء توفى قاضى الحنفية كان برهان الدين ابراهيم بن الكركى وهو ابراهيم بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الكركى الحنفى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان الحنيفة ، سمع على الشيخ محيى الدين الكافيجى ، والشيخ سيف الدين وآخرين

من علماء الحنفية . وكان امام الأشرف قايتباى ، ورأى فى أيامه غاية العز والعظمة ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أنه ولي مشيخة أم السلطان التى فى التبانة ، ومنها استيفاء الصحبة ، ثم ولى قاضي قضاة الحنفية مرتين ، ثم ولى مشيخة المدرسة الأشرفية وقاسى محنا وشدائد من الأشرف . وكان بشوش الوجه عنده رقة حاشية ولطافة ، غير كثيف الطبع ومات وهو فى عشر الثمانين ، وعاش سعيدا ومات شهيدا ، وكان فى أرغد عيش من المال والجاه . وكان سبب موته أنه كان ساكنا على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون وفى رجله قبقاب ، فزلقت رجله بالقبقاب ، فوقع فى البركة وكانت فى قوة ملئها أيام النيل ، ولما وقع ثقلت عليه الثياب فمات من وقته رحمة الله عليه ومات شهيدا .

وفيه خلع الأمير الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له قجماس وقرره فى كشف المنوفية عوضا عن قانصوه الذى كان بها .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة شمس الدين محمد بن ناشى شيخ سوق الكتبيين ، وكان مقربا عند السلطان ، وقد حاز عدة وظائف سنية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الأمير يوسف الشهير بالمقطش الذى كان نائب صفد وعزل عنها ثم توفى بحلب . وأشيع وفاة أبرك الذى كان كاشف اقليم الجيزة وكان من الأمراء العشراوات . وأشيع وفاة جماعة كثيرة كانوا صحبة السلطان بسبب وخم حصل لهم . فمات فى غزة وفى انشام وفى حلب من الأمراء العشراوات والخاصكية والغلمان وغير ذلك مالا يحصى عدده ماتوا من كثرة الأوخام التى كانت معهم بطول الطريق .

وفيه جاءت الأخبار بصحة ما تقدم ذكره . وأن السلطان لما كان بحلب أنعم بتقادم آلوف على جماعة من الأمراء منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرابحاناه ، ومنهم طراباى بن يشبك نائب صفد ، ومنهم قانصوه استادار الصحبة ، ومنهم قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب ، ومنهم تمراز نائب طرابلس ، وآخرون . والذى يظهر من أمر السلطان أنه كان يريد ابطال جماعة من الأمراء المقدمين العواجز ويجعل هؤلاء عوضا عنهم .

وفى يوم الجمعة خامس عشر شعبان ، توفى الحاج على البرماوى بزددار السلطان والمتحدث على جهات الديوان المفرد ، وقد رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من البزددارية ، وساعدته الأقدار حتى وصل الى ما لم يصل اليه غيره فى هده الوظيفة ، وكان سبب موته أنه طلع له شفة فى ظهره فانقطع اثنى عشر يوما ومات .

وكان أصله من فلاحين برمة يبيع الخام والطرح فى الأسواق وهو راكب على حمار الى آن فتح الله عليه ، وكان لا بأس به ، وعنده لين جانب مع تواضع زائد ، وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العين خمسمائة ألف دينار وستمائة دينار . ووجد له فى مكان اثنا عشر ألف دينار ذهب عين برسبيهية ، ووجد له من الحجورة والمهارة نحو خمسة وأربعين رأسا ، ومن الجاموس مائة رأس ، ومن الغنم الضأن ألف رأس ، ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور ، وضاع له عند الفلاحين بالبلاد أكثر مما تقدم ذكره ، فقوم ذلك الموجود بمائة ألف دينار .

وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ... وما ذاك الا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مجرد مطرد من عند الأمير علان دوادار ثانى أحد

الأمراء المقدمين وضمنه أن السلطان كان يكذب فى أمر سليم شاه بن عثمان تارة ويصدق أخرى ، الى أن حضر الأمير مغلباى دوادار سكين من عنده وهو فى حال نحس ، بزنط أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عتيق دنس ، وهو راكب على اكديش هزيل ، وقد نهب جميع بركه ، وأخذت خيوله وقماشه . وأخبر أن ابن عثمان أبى الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق » . وأخبره أنه وضعه فى الحديد ، وقصد أن يحلق لحيته ، وقدمه الى الشنق ثلاث مرات فشفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه ، وقاسى منه من الهوان والأهوال ما لا خير فيه . فلما سمع السلطان هذه الحكاية تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان . فقيل انه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش فى نظير ما ذهب له .

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان انه صلى الظهر وركب ، وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب .

فلما خرج السلطان من حلب توجه الى جيلان فبات بها ، فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرى رجب رحل السلطان من جيلان وتوجه الى مرج دابق ؛ فأقام الى يوم الأحد خامس عشرى رجب — وهو يوم نحس مستمر — فما يشعر الا وقد دهمته عساكر سليم شاه ابن عثمان ، فصلى السلطان صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه الى زغزغين وتل الفار ، قيل ان هناك مشهد نبى الله داود عليه السلام .

فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وصار يرتب العسكر بنفسه . وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان ، وعلى رأسه الصنجق الخليفتى . وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس حرير أصفر وعلى رءوس جماعة أشراف وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود ، وكان الصبى قاسم بك ابن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفا بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أصفر وقيل أحمر ، وكان الصنجق السلطانى خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحته مقدم المماليك سنبل العثمانى والسادة القضاة الأربعة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وكان على ميمنة العسكر الأمير سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب ، فقيل أول من برز الى القتال فى الميدان الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة منكرة ، وأخذوا منهم سبع صناجق وأخذوا المكاحل التى كانت على العجل ورماة البندق . فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشر آلاف انسان ، وكانت النصرة لعسكر مصر أولا ويا ليته تم ذلك . لكنه قد بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان :

« لا تقاتلوا أبدا ، وخلوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم » ...

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك واذا بالأتابكى سودون العجمى قتل فى المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم فى الميمنة من العسكر جانب كبير . ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب ، فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل قتل . وقيل ان خاير بك كان موالسا على السلطان الغورى فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان هو أول من هرب قبل العسكر قاطبة وأظهر الهزيمة ، وكان ذلك من الله تعالى خذلانا لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر . وصار السلطان واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك ، فشرع ينادى : « يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة » فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله ، وهو يقول للفقراء : « ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم » وصار لا يجد له معينا ولا ناصرا ، فانطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال ، وشخصت منهم الأبصار . وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات :

لما التقى الجيشان مع سلطاننا
فى مرج دابق قال هل من مسعفى
فله أجاب لسان حال قائلا
عرضت نفسك للبلا فاستهدف
واشتد بالجلبان رعب قلوبهم
وغدوا يقولوا أى أرض نختفى
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم
حتى أتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق السلطانى فأنزله وطواه وأخفاه . ثم تقدم الى السلطان وقال له : « يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب » . فلما تحقق السلطان ذلك غلبه فى الحال خلط فالج ، أبطل شقه وأرخى حنكه ، فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وألفت فرسه على أنه يهرب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر .

فلما أشيع موته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية وغلمان السلطان ممن كان حوله ، وأما السلطان من حين مات فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكأن الأرض قد ابتلعته فى الحال ، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر . فداس العثمانية وطاق الغورى بما فيه من الأمتعة والأرزاق التى كانت حوله بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثمانى ، وداسوا أعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب فى أرزاق عسكر مصر وبرقهم ، وزال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

فاضمحل أمره وزال ملكه ، بعد ما تصرف فى ملك مصر وأعمالها ، والبلاد الشامية وأعمالها ، وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر

وعشرين يوما ... فانه ولى ملك مصر فى مستهل شــوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك وقد قلت فى المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى
مذ تنــاهى ظلمه فى القــاهرة
زال عنــه ملكه فى ســاعة
خسر الدنيـــا اذن والآخــره

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، وانتهى الحال الى الأمر الذى قد قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الواقعة من عسكر السلطان ابن عثمان ومن عسكر السلطان الغورى ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم : الأتابكى سودون العجمى ، وبيبرس قريب السلطان ، وآقباى الطويل ، وأسروا قانصوه بن سلطان چركس ، وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص وغير ذلك جمــاعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة . ولم يقتل من المماليك الجلبان الا القليل فانهم لم يقاتلوا فى هذه الواقعة ولا ظهر لهم فروسية ولا جذبوا سيفا ولا هزوا رمحا فكأنهم خشب مسندة . وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميرا ، وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القــادر القصروى وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد . فكان مرج دابق فيه جثث مرمية وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة بالتراب قد تغيرت محاسنها ، وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى ، وسروج مفرقة وســيوف مســقطة بذهب وبركستوانات فولاذ بذهب وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت اليها أحد ، وكل من العسكرين قد اشتغل بما هو أهم من ذلك ، وقال بعض المواليا فى المعنى :

صفق جوادى وقد جسيت يوم الحرب
عودى فغنت صوارم شرقها والغــرب
ضربت عادة تنقط فى ســماع الضرب
رءوس الأعادى وترفص داخله فى الحرب

ثم ان ابن عثمان زحف بعسكره وأتى الى وطاق السلطان ، ونزل فى خيامه وجلس فى المــدورة ، واحتــوى على الطشتخاناه وما فيهــا من الأوانى الفاخرة ، وعلى الزردخاناه وما فيها من السلاح ، وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمــير من أمرائه فى وطاق أمير من أمراء الغورى واحتوى على ما فيها ، فاحتوى على وطاق خمســة عشر أميرا مقــدمى ألوف خارجــا عن أمــراء الطبلخانات والعشراوات ، واحتوى العسكر على خيام العسكر المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

ولم يقع قط للملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة ، بل ان تمرلنك زحف على بلاد ابن عثمان وحارب أحد أجداده وهو شخص يقال له يلدرم . فلما حاربه انكسر فأسره تيمور ووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد العجم ، فما طاق ابن عثمان ذلك فابتلع فص الماس فمات وهو فى ذلك القفص الحديد . ولم يقع قط لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ، ومات

تحت صنجقه فى يوم واحد وانكسر على هذا الوجه أبدا ، ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله وبركه بيد عدوه غير فانصوه الغورى . وكان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان السلطان والأمراء ما منهم أحــد ينظر فى مصالح المسلمين بعين العدل والانصاف ، فردت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلط عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى كما قيل فى المعنى :

أين الملوك الأولى فى الأرض قد ظلموا
والله منهم لقـــــد أخلى أماكنهم

ثم ان السلطان ابن عثمان تحول من مرج دابق فدخل الى حلب فملكها من غير مانع ونزل بالميدان الذى بهــا فى المكان الذى كان به السلطان الغورى ...

وهـــذا ما انتهى الينــا من ملخص هـــذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ونقصان ، فهذا ما كان من أمر السلطان الغورى وابن عثمان . وأما ماكان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فانهم توجهوا الى حلب وأرادوا الدخول بها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جمــاعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبرقهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان .

وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب صحبة قانى باى أمير آخور كبير . فنزلوا فى بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر والأذية لأهل حلب ، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هــذه الكسرة فأخذوا بثأرهم منهم ... فلما رأى الأمراء وبقية العسكر ذلك خــرجوا من حلب على حمية وتوجهوا الى دمشق ودخلوها وهم فى أفحش حال ، لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر الى الشام وبعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل وبعضهم عريان وعليه عباءة أو بشت . ولم يقع لعسكر مصر مثل هــذه الكائنة ، فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر فى الشام حتى تتكامل البقية ويظهر السالم من العاطب ... قيل ان الأمراء لما دخلوا الى الشام وصاروا فى حــر الشمس لم يجــدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغــلمان عرايش من فروع الشجر يستظلون بها .

وأما ما كان من أمر سليم شاه ابن عثمان فانه أقام بالميدان الذى فى حلب فتوجه اليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى . وأما قاضى القضاة محمود بن الشحنة فانه هرب مع العسكر الى الشام ونهب جميع بركه وقماشه ، ودخل الى الشام فى أنحس حال .

قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان عظمه وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع انه قال له : أصلكم من أين ؟ فقال له : من بغداد ، فقال له ابن عثمان : نعيدكم الى بغداد كما كنتم . والأقوال فى ذلك كثيرة ... فلمــا أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة سنية من ملابسه ، وأنعم عليه بمال له صورة ورده الى حلب ووكل به ألا يهرب .

وقيل لما دخل عليه القضــاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام ، وقال لهم أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء ، وما منكم من أحد يرشد الى الخير ، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظــالم التى كان يفعلها بالنــاس ، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه .

وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب ، والمعول فى ذلك على الصحة .

وأخبرنى من رأى سليم شاه ابن عثمان أنه مربوع القامة واسع الصدر أقنص العنق مكرفس الأكتاف مترك الوجنتين واسع العينين درى اللون وافر الأنف ملىء الجسد حليق اللحية ليس له غير الشوارب ، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمائم أمرائه . فلما جاء الى حلب سلمه أهلها المدينة من غير نزاع ، وهرب قانصوه الأشرفى نائب القلعة ، وتوجه الى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة حلب مفتحة ... فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أجرود وفى يده دبوس خشب ، فطلع الى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا يرده . فختم على الحواصل التى بها واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك ، وقد فعل ابن عثمان ذلك ليقال انه أخذ قلعة حلب شخص أعرج وفى يده دبوس خشب وهو أضعف من فى عسكره وقد قيل فى المعنى :

لا تحقرن صغيرا فى مخاصمة
ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على مدينة حلب لم يدخلها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها وطلع الى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما عرضت عليه رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف ، وكان فيها من المال نحو مائة ألف ألف دينار ، ورأى من الكنابيش الزركش والرقاب الزركش والطبر والسروج الذهب والبلور وطبول البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسقطة بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح ما لم يره قط ، ولا فرح به أحد من أجداده ، ولا أحد من ملوك الروم ، لأن الذى جمعه الغورى من الأموال من وجوه الظلم والجور ، والتحف التى أخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك الترك الچراكسة ، احتوى عليه جميعه السلطان سليم شاه ابن عثمان من غير تعب ولا مشقة . هذا خارج عما كان للأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل انه ملك ثلاث عشرة قلعه من بلاد السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك ، فكان الذى ظفر به سليم بن عثمان فى هذه الواقعة من الأموال والسلاح والتحف وغير ذلك لا ينحصر ولا يضبط ، وقد قسم له ذلك من القدم ... واحتوى على خيول وبغال وجمال لا يحصى عددها ، واحتوى على خيام وبرك ولا سيما ما كان مع السلطان وأمراء العسكر ، كما يقال فى المعنى :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة فى جامع الأطروش الذى بحلب وخطب باسمه ودعى له على المنابر فى مدينة حلب وأعمالها ، وزينت له مدينة حلب وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وهو مار عند عوده من الجامع ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، وانتمى اليه الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقجى . وكان هؤلاء من أخصاء الغورى ، وكانوا مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار

المملكة . فلما فقد السلطان الغورى أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان ، وصاروا من جماعته ونسوا احسان الغورى اليهم كما يقال فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم منكر للمرء أو عار
لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه الى حماه . ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر اليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ولبس زى التراكمة — العمامة المدورة والدلامة — وقص ذقنه وسماه السلطان « خاين بك » لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان . فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المعتصم بالله وملك هولاكو بغداد وقتل الخليفة ، فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاكو ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : « أنت ما فيك خير لأستاذك فما يكون فيك الخير لى » . وربما يقع لخاير بك مثل ذلك .

ثم ان ابن عثمان دخل الى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام وأنعم على المعلم بمبلغ له صورة ... واستمر الخليفة والقضاة الثلاثة الشافعى والمالكى والحنبلى فى الترسيم بحلب لا يخرجون منها الى ان يأذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة منهم : القاضى عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخيرة أحد كتاب المماليك ، وعبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والرئيس محمد بن القيسونى امام السلطان الغورى ، والسمديسى الذى كان قاضى القضاة الحنفية وامام السلطان ، والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ، ويحيى بن بكير ورفيقه ، وجماعة آخرون لم تحضرنى أسماؤهم الآن ... فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة حتى يؤذن لهم .

وقيل لما دخل ابن عثمان الى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وكل من كان عنده للأمراء والعسكر شىء من خيول أو سلاح أو قماش يحضر ما عنده ، وان لم يحضر ما عنده وغمز عليه شنق من غير معاودة .

وأما من قتل فى هذه المعركة من الأمراء وأعيان الناس ، فالذى يحضرنى من ذلك وتحققته : الأتابكى سودون العجمى ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام ، والأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل لم يقتل وأسر الأمير بيبرس قريب السلطان وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من الجودرية ، والأمير أقباى الأشرفى الطويل أحد المقدمين أمير آخور ثانى ، فهؤلاء الذين قتلوا من الأمراء المقدمين فى هذه الواقعة .

وأما من قتل من النواب : فتمراز الأشرفى نائب طرابلس ، ونائب صفد ، وأصلان نائب حمص ، وجماعة كثيرة من نواب الشام وحلب .

وأما من قتل من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة : منهم طومان باى ابن قرا حاجب ثانى وجانى بك العادلى شاد الشرابخاناه كان ، وقانصوه حبانية ، وبرد بك رأس نوبة عصاه ، ونوروز رأس نوبة عصاه ، وقانصوه الذى كان أستادار الصحبه ، وبخشباى قرا شاد الشون ، وقيت الأحول ، وقرقماش المقرى توفى بالشام ، ويوسف المفتش الذى كان نائب صفد . ومن الأمراء العشراوات جانم المحمدى ، وجان بردى الذى كان كاشف الرميلة ، وبرسباى أحد الأمراء العشراوات ، وتوفى أقباى الطويل الذى كان كاشف الشرقية ، وملاج الذى كان نائب القدس ، وجان بردى وطراباى أخو الأتابكى قيت الرحبى ، وخدا بردى ، وقانم الأعرج ، وجانم الطويل ، وقايتباى أخو اصطمر . وتوفى مسايد ، وتوفى طراباى قرا ، وأقطوه الطويل خادم السادة ، وجان بلاط الذى كان والى قطيا ، وبرسباى أحد الأمراء العشراوات وصهره ، وتوفى لاجين ناظر مقام سيدى أحمد البدوى بغزة ، وقانصوه الناصرى ، وطراباى الأشرفى ، وتوفى الأمير أينال خازندار الأمير قانى باى أمير آخور كبير وكان من أمراء الطبلخانات ، وغير ذلك ممن يأتى ذكره ، حتى قيل انه مات فى هذه الواقعة من أمراء مصر والشام وحلب وغير ذلك نحو أربعين أميرا لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وقتل أزبك العجمى أمير طبلخانات ، وقتل جان بلاط الساقى أمير طبلخانات ، وتوفى شاد بك نائب المهمندار ، وتوفى الأمير اياس المشطوب رأس نوبة عصاه من العشراوات .

وأما من توفى من المباشرين فالقاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، وقتل بوطاق السلطان .

وقتل محمد العفيف رئيس الكحالين ، وتوفى جلال الدين أحد كتاب المماليك بغزة عند العود ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وغير ذلك ممن لا تحضرنى أسماؤهم ، وأما القاضى جمال الدين عبد الله مباشر وقف قانى باى الجركسى فقد قيل انه قتل فى الواقعة .

وأما من توفى من أولاد الناس فالشرفى يونس ابن قانصوه أحد أولاد بنت قرقماس الطبردارية وشخص يقال له محمد بن قرقماس الجمالى أحد الطبردارية أيضا ، وقتل ابراهيم قريب الشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وآخرون من الأعيان ممن لا تحضرنى أسماؤهم الآن . وقتل بعد الواقعة بحلب عبد الكريم الأدمى مستوفى الزردخاناه ، وقتل ابن على الزردى .

ومن هنا نرجع الى أخبار القاهرة بعد هذه الواقعة ، فانه لما ورد كتاب الأمير علان الدوادار الثانى بما وقع من هذه الأمور المهولة فى تلك الواقعة وقتل الأمراء والأعيان والقضاة ، قام العزاء والصراخ فى بيت الأتابكى سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب ، وكان يعرف بسودون بن جانى بك وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية منها امرية مجلس ، وامرية سلاح ، والأتابكية ، واصطلى الحرب وأظهر الفروسية فى هذه الواقعة ، واستمر يقاتل حتى قتل على ظهر فرسه رحمة الله عليه .

وقام نعى السلطان فى ذلك اليوم ، ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء بسبب من قتل من العسكر وغيرهم ، ورجت القاهرة

وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القال والقيل .

وفى يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعائم نهبوا ضياع الشرقية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار ودخلوا وادى العباسة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج اليهم وصحبته خمسمائة مملوك ، فكبس عليهم ، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشى والغلال وغير ذلك ، فرجع الأمير الدوادار الى داره .

وفيه خلع الأمير الدوادار على الزينى بركات ابن موسى ، فشق القاهرة وأشهر النداء بالأمان والاطمئنان وأن المشاهرة والمجامعة بطالة ، وجميع المظالم الحادثة بطالة ، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتمى عليه أحد ، وقد تضاعفت حرمته ، ونفذت كلمته فوق ما كان ، واجتمع معه عدة وظائف سنية ، وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده يد .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره أنفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذين فى القاهرة ، فجلس الأمير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج ، وأنفق الجامكية هناك ، والاشاعات فاشية بموت السلطان ، والأحوال مضطربة .

وفيه رسم الدوادار بعرض من فى السجون حتى النساء اللاتى بالحجرة ، فلما عرضوا عليه أفرج على جماعة كثيرة منهم جان بك دوادار الأمير طراباى ، وكان له مدة وهو فى السجن بالمقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان متحدثا فى نظر الديوان المفرد ، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط ، وكان له مدة فى المقشرة على بقايا من مال المصادرة ، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين ، وأفرج عن صلاح الدين ابن كاتب غريب ابن أخى أبى الفضل ، وأفرج عن المعلم شنشو اليهودى الذى كان يهوديا وأسلم وقد تقدم سجنه ، وأفرج عن المعلم يعقوب الصائغ معلم دار الضرب ، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، حتى أفرج عن النساء اللاتى كن بالحجرة ، وعمن كانوا فى السجون من الأعيان . ولم يبق فى السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم . وقطع أيدى جماعة وأطلقهم ، ثم وسط جماعة من المجرمين منهم شخص يقال له عبدالقادر أبو دية وآخرون منهم ، وقطع أيدى جماعة من الحرامية ، وأفرج عن القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة ، وكان له مدة وهو فى الحديد فى بيت الزينى بركات بن موسى فى الترسيم ، وأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه ، وكان سبب ذلك شخص يقال له ابراهيم السمرقندى ترافع معه عند السلطان حتى قال انه لقى خبيئة بمكة فيها مال كثير ، وأرسل السلطان أحضره على غير صورة مرضية من مكة ، ولما حضر قال له : « المال الذى لقيته أحضره لى » فأنكر ذلك فوضعه السلطان فى الحديد وسلمه الى الزينى بركات ، فأقام عنده فى الترسيم فى الحديد مدة طويلة بغير ذنب .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره خلع الأمير الدوادار على الشهابى أحمد بن المنذرى حسن ابن الطولونى وأعاده الى وظيفته معلم المعلمين ، وكان السلطان أخرجها عنه وجعل جمال الدين

بالواحى بواب الدهيشة متكلما فى المعلمية عوضا عن ابن الطولونى .

وفيه رسم الأمير الدوادار نائب الغيبة باشهار المناداة فى القاهرة بأن جميع المكوس الحادثة بطالة ، وتجرى على ما كانت عليه أيام الأشرف قايتباى من غير زيادة على ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

وفى ذلك اليوم شق الزينى بركات بن موسى القاهرة ، وسعر جميع الأسعار ، حتى الكنافة سعرها بدرهمين الرطل ، وكانت بأربعة دراهم كل رطل ، وسعر الأجبان واللحوم .

وفى أثناء ذلك الشهر فتح سد أبى المنجا ، وكان النيل يومئذ فى عشرين ذراعا ، ووافق ذلك ثانى عشرى توت أول الشهور القبطية . وكان الأمير الدوادار فى مدة غيبة السلطان يركب فى كل يوم ويسير نحو المطرية ، فاذا رجع يدخل من باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الأمراء المقدمون الذين تخلفوا بمصر ، والجم الكثير من العسكر . فيشق القاهرة وقدامه السعاة والعبيد النفطية ومماليكه متقلدون بالسيوف وبأيديهم رماح بشطفات حرير ملون ، فترتج له القاهرة وترتفع له الأصوات بالدعاء من الناس ، فكانت نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها ، وقد عظم أمره جدا وهابه الناس هيبة عظيمة .

وفى يوم الجمعة ثانى عشريه لما تحقق موت السلطان لم تدع الخطباء فى ذلك اليوم على المنابر باسم السلطان ، بل دعوا باسم الخليفة فقط ولم يذكروا اسم السلطان ، وبعضهم قال : « اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » . واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا سلطان ، وكذلك البلاد الشامية .

وفى تلك الأيام وقع الفساد من العربان فى الشرقية وغيرها من البلاد ، فنهبوا عدة بلاد من المنزلة وغيرها من ضواحى الشرقية ، ولم يبقوا لهم مواشى ولا بقرا ولا غنما ، حتى أخذوا صيغة النساء ، وقتل من الفلاحين فى هذه الحركة ما لا يحصى عددهم ، وكذلك من القصاد وغيرهم . وانقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما لما تحققوا موت السلطان ، وصارت مصر فى اضطراب والاشاعات قائمة بالأخبار الرديئة عما جرى للسلطان والعسكر .

وكان أكثر من شن هذه الغارات أولاد شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وجماعة من العشير ، وفعلوا ما عظم خبره فى العساكر والتجار الذين دخلوا صحبة القفل الشامية ، فقتلوا من العساكر والتجار ما لا يحصى عددهم ، وأخذوا أموالهم وجمالهم ، والذى سلم من القتل عروه ، وجرى على العسكر من هؤلاء العربان ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطيا والصالحية عند ما وصلوا الى الأمان .

وفى هذا الشهر أشيع أن المماليك الجلبان قصدوا أنهم ينزلون من الطباق ، وينهبون خان الخليلى ثم يحرقونه ، ويقتلون من به من تجار الأروام ، وقالوا : هؤلاء التجار من جهة ابن عثمان وقد شمتوا بأستاذنا لما مات ... فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك أحضر أغوات الطباق وقال لهم : « لا أطلب خمود هذه الفتنة الا منكم » . فمنعوهم من النزول من الطباق ، ولولا أن الأمير الدوادار قام فى هذا الحركة حتى خمدت هذه الفتنة لخربت مصر عن آخرها من المماليك الجلبان .

وفيه اهتم الأمير الدوادار بعمل طوارق خشب وكفيات وبندقيات وغير ذلك من آلات الحرب ... وأشيع أنه يتسلطن قبل مجىء العسكر ، وكان

القائم فى ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير علان الدوادار الثانى .

وفى يوم الجمعة الثانيـة لم تذكر الخطباء اسم سلطان فى الدعاء كما فعلوا فى الجمعـة الماضية ، ومن حين ورد كتاب الأمير علان بما جرى للعسكر من أمر الكسرة وأمر السلطان لم ترد من بعـد ذلك أخبار صحيحة ، وانقطعت الأخبار عن مصر نحو أربعين يوما ، وكثر القال والقيل فى ذلك على أنواع شتى .

ومن جملة ما أشيع أن جان بردى الغزالى نائب الشام منع أن يصل الى مصر أحد ، وعوق العسكر بالشام .

وفيه وردت أخبـار من عنـد الأمير حسـين نائب جدة ، والرئيس سلمان العثمانى ، أنهما لما توجها الى الهند صحبة العسكر المقدم ذكرهم ، ووصلا الى كمران ، وهى ضيعة من ضياع الهند ، أنشئوا هناك قلعة ذات أبراج ، فكمل بناؤها فى نحو خمسة أشهر . ثم ان الأمير حسين أرسـل طائفة من العسكر نحو مكان يسمى اللحيـة ، وأرسل طائفة من العسكر الى مكان يسمى مورا ، وأقام الأمير حسـين هو وبقية العسكر فى مكان يسمى « بيت الفتية » فأقاموا بها نحو شهر . ثم ان الأمير حسـين والأمـير سلمان والعسـكر توجهوا الى نحو زبيد ، وحاصروا صاحبها عبد الملك أخا الشيخ عـامر فملكوا منه زبيـد وذلك صبيحة يوم الجمعة فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فوجدوا بها من الأمم ما لا يحصى عددهم ، ثم ذكروا فى الكتاب أن الأمير حسين لما أن فتح زبيد توجه الى حصار مدينة عدن ، وأنه أشرف على أخذها ، ولما ملكوا زبيد أقاموا بها شخصا من مماليك الأشرف الغورى وهو من آمراء العشراوات يسمى برسباى ، ومعه بعض جماعـة من المماليك وأولاد الناس الذين كانوا صحبتهم ، والتف عليهم جماعة من العربان نحو عشرة آلاف انسان . ولما ملك برسباى زبيد تسلطن بها ورتب له دوادارا وخازندارا وأرباب وظائف كعادة السلاطين ، وغنم منها أموالا جزيلة هو ومن معه من العسكر . ولما توجه الى حصار عدن أيضا ملكها كما قيل .

وفى هذا الشهر عرض الأمير الدوادار العسكر الذين فى القاهرة وكان ذلك العرض فى بيته وكان سبب هذا العرض أنه بلغ الأمير الدوادار أن عدة مراكب وصلت الى ثغر اسكندرية ورشيد ، فخشى أن تكون من عند ابن عثمان ، فبـادر الى عرض العسكر وقال لهم : كونوا على يقظة وعبوا برقكم حتى يتضح هـذا الخبر ، وانفصل المجلس على ذلك ... فانصرف العسكر فى هرج .

❊ ❊ ❊

وفى شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ، توجه لبيت الأمير الدوادار جماعة من نواب القضاة وهنئوه بالشهر وكانت القضاة الثلاثة والخليفة فى أسر سليم شاه ابن عثمان بحلب لا يمكنهم العود الى مصر .

وفى يوم الأحد ثانيه كان أول بابه من الشهور القبطيـة ، فثبت فيه النيل المبـارك على عشرين ذراعا ، وكان فى العام المـاضى أرجح من ذلك ، واستمر فى ثبات الى أول هاتور ، ثم وردت الأخبار على يد ساع بأن الأمـراء والعسكر دخلوا الى الشـام وهم فى أنحس حـال ، وقد نهب بركهم وخيولهم وجمالهم وجميع مايملكونه ... وأخبر ذلك الساعى أن أهل الشام لما تحققوا موت السلطان وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشـام ، وأخذوا أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية غاية الاضطراب .

وفيه دخل قاضي القضاة محمود بن الشحنة وقد نهب جميع بركه وكل ما يملكه ، وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة ، وخطب باسمه فيها ومشى حكمه من الفرات الى حلب . وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى أسر ابن عثمان بحلب ، ولولا أنه هرب مع العسكر والا كان آسر معهم .

وأخبر أن ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقجى — الذين كانوا من أخصاء السلطان — لما مات الغورى التفوا على سليم شاه ابن عثمان ، وصاروا من جماعته ، وصاروا يتقربون اليه بذكر مساوى أستاذهم الغورى وأمرائه ، ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا من احسان الغورى لهم لا جليلا ولا حقيرا ، وكأنه لم يكن سلطانا لهم ولا أستاذا ، ونسوا جميع انعامه واحسانه اليهم ، ولا سيما ما أحسن به الى العجمى الشنقجى من سلاريات وشقق حرير وسمور ومال وانعامات جزيلة ، فلم يثمر ذلك فيهم . فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك رسم للوالى أن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى ، فتوجه اليهم الوالى وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادلى وحريمهما وحاشيتهما ، ووضع عبد السمرقندى فى الحديد ، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى ، وظهر أنهم كانوا موالسين على السلطان ، وكانوا يكاتبون سليم شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة ... وصاحب البيت أدرى بالذى فيه .

* * *

وفى يوم الجمعة سابعه صلى الأمير الدوادار صلاة الجمعة ، وخرج الى ملاقاة الأمراء المقدمين الذين حضروا من الشام ، وقد بلغه وصولهم الى بلبيس ، فدخل القاضى محمود بن أجا كاتب السر وهو فى محفة وصحبته الشهابى أحمد بن الجيعان ، ودخل الأمير أركماس أمير سلاح وهو فى محفة عليل ، ودخل الأمير أنص باى حاجب الحجاب وتمر الزردكاش والأمير علان الدوادار الثانى وآخرون ، ثم دخل بقية العسكر وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع والضعف ، ودخلوا وأطواقهم مفككة ، وأظهروا الحزن على السلطان ، وصار الأمراء والعسكر يدخلون شيئا فشيئا .

وفى يوم الخميس ثالث عشره دخل الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، والأمير كرت قانصوه والأمير جان بردى الغزالى نائب حماه ، ودخل المقر الناصرى محمد نجل السلطان الغورى ، والأمير جان بلاط الموتر والأمير آبرك الأشرفى والأمير تانى بك الخازندار والأمير كرتباى .

وفيه تكامل دخول الأمراء فسلم عليهم الأمير الدوادار ورجع الى منزله ، ودخل صحبته الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب قلعة حلب ، وهو الذى سلم القلعة بما فيها من المال والسلاح والقماش والكنابيش الزركش والسروج الذهب وغير ذلك من التحف ، فتسلمها ابن عثمان من غير أن يحاصر القلعة ، فخرج قانصوه هذا والأمراء الذين معه فارين الى جهة الشام ، مع أن قلعة حلب حصينة مانعة ... فلما قابله الأمير الدوادار وبخه بالكلام ، ورسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، واستوعده بكل سوء .

فلما دخل الأمراء الى القاهرة اجتمع رأى الجميع على سطنة طومان باى الدوادار . وترشح أمره لأن يلى السلطنة ، فصار يمتنع من ذلك غاية الامتناع ، والأمراء كلهم يقولون : « ما عندنا من نسلطنه الا أنت ، ولا محيد لك عنها طوعا أو كرها » .

ثم ان الأمير الدوادار ركب وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير علان والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير طقطباى نائب القلعة وآخرون من الأمراء وتوجهوا الى العارف بالله تعالى الشيخ أبى السعود الذى فى كوم الجارح ، فلما تكامل المجلس عنده ذكروا له أمر سلطنة الدوادار وانه امتنع من ذلك ، فأحضر لهم الشيخ مصحفا شريفا ، وحلف الأمراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم اذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله ... فحلف الجميع على ذلك .

ثم ان الشيخ حلفهم ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كان على الدكاكين من المشاهرة والمجامعة ، وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسبا ... فحلفوا على ذلك .

ثم ان الشيخ ذكر للأمراء أن الله تعالى ما كسركم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ، فقالوا : « تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم » . ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود على أن يسلطنوا الأمير الدوادار ، وأخذ الشيخ عليهم العهد بجميع ما حلفهم عليه بحضرته كما تقدم . وترشح أمر الأمير الدوادار الى السلطنة ، وتسلطن كما سيأتى ذكر ذلك فى موصعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف الغورى ، فانه خرج من القاهرة خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، واستمر نافذا الكلمة وافر الحرمة الى أن دخل الى حلب وأقام بها ، وأرسل اليه ابن عثمان عدة قصاد بالخلع السنية ، وأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة الى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده وهو فى غاية التحقير كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا الى ابن عثمان فى هيئة تشعر بالشدة والقوة ، لابس آلة الحرب باللبس الكامل . فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر الى الغورى أعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح .

فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان يريد الشر معه نادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة ، من آلة السلاح والخيول الفاخرة ، وكل فارس مقوم بألف فارس من عسكر ابن عثمان ، ولكن الله تعالى يعطى النصر من يشاء ... فتوجهوا الى مرج دابق يوم الأحد خامس عشرى رجب من هذه السنة ، فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه الى قتال ابن عثمان ، وكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر ، وعادت الكسرة على عسكر مصر .

ولما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يلفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعترته سارقة من الرجفة فأغمى عليه فسقط عن ظهر فرسه الى الأرض فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وصار ملقى على الأرض ، فزحفت عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان ،

والسلحدارية والمماليك الجلبان ، وتركوا جثته على الأرض فكان آخر العهد به ولم تر له جثة ولا عرف له مكان قبر ، فكأنما ابتلعته الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب انه لم يدفن فى مدرسته التى صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، وظن أنه يدفن بها على عزة وحفظ مقام ، فكان المقدور خلاف ذلك ، وصار مرميا فى البرارى تنهشه الذئاب والنمور ، ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وكانت هذه المدة على الناس كل يوم كألف سنة مما يعدون .

وكانت صفته أنه طويل القامة ، غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب الا قليلا . وكان ملكا مهيبا جليلا مبجلا فى المواكب ، تملأ العيون منه فى المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية لكان خيار ملوك الچراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان فى يومى الاثنين والخميس ينزل الى الحوش السلطانى ، ويومى السبت والثلاثاء بالميدان . فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش زركش . وكان يكثر فى الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض ، وكان يشد فى وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكى ، وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت والفيروزج والزمرد والألماس وعين الهر ، وكان مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر ، وكان ترفا فى ملبسه ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل الى أبناء العجم وربما كان يميل الى مذهب النسيمية من ميله الى معاشرة الأعاجم ، وكان مولعا بغرس الأشجار وحب الرياضيات وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزهار العطرة . وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهما فى الأكل والشرب ، وكان يغوى طيور المسموع .

وكان يعرف بقانصوه بن بيبردى الغورى ، واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده لم يختلف عليه اثنان فى كلمة ، الى أن وقعت الواقعة بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، فخرج اليه كما ذكرنا وجرت له هذه الكائنة التى لم تقع لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا . وقد قلت فى معنى ذلك :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى
فيما سمعت حوادثا مما جرى

لا زالت الأيام يبدو فعلها
بعجائب وغرائب بين الورى

لكن هذى وقعة ما مثلها
سبقت لسلطان ولا متأمرا

والأشرف الغورى كان مليكنا
لكنه قد جار فينا وافترى

والموت أوجب هزمه مع جيشه
قد كان ذلك فى الكتاب مسطرا

أعماله ردت عليه بما جنى
والدهر جازاه بأمر قدرا

وكان للغورى محاسن ومساوى ، لكن مساويه أكثر من محاسنه ...

فأما ما عد من محاسن الغورى فانه كان رضى الخلق ، يملك نفسه عند الغضب ، وليس له زيادة حدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد فى الفقراء والصالحين . ومنها انه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن سب الناس فى شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وليس له هرج . وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان قريبا من الناس ، يحب المزح والمجون فى مجلسه ، غير أنه كثف من حيث النظر الى ذاته . وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا كبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالها .

وأما ما عد من مساويه فانها كثيرة لا تحصى : منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضه والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها : زغل ونحاس وغش ، لا يحل بها بيع ولا شراء . ولا معاملة فى ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار . وكانت السوقة تبيع البضائع بما يختارونه من الأثمان ، ولا يقدر أحد أن يكلمهم ، فان كلمهم أحد يقولون علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالا له صورة فى كل شهر ، فكانوا يضيفون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهارا . فكان الأشرفى الذهبى اذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى اثنى عشر نصفا . وقد سلم السلطان دار الضرب الى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب فى أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة ، وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين فرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى ، فمشى على طريقة جمال الدين . وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته الى أن مات . وقد ورد الحديث الشريف « من غشنا فليس منا » .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ كل منهم المثل أمثالا ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية . وكان يفرد عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة فيأخذونها من الرعية وزيادة بالظلم والعسف ... فكان كل واحد من الرعية أصحاب الأقطاع والأوقاف يتمنى الرحيل من بلاده الى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل لأهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره الى الخراب . وعز وجود الشاشات بمصر ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الافرنج ، والأرز والأنطاع ، وخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية ، وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم .

وكان كل أحد من أراذل الناس يتقرب الى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل اردب ثلاثة

أنصاف من البائع والمشترى ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى حرج على بيع الملح ، وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط لم يفعلها هناد فى زمانه ، ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره .

وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل فى جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس الدين ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، واعطاء ذلك الى مماليكه الجلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك . ومنها أنه أرسل فك الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس من الديوان المفرد من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى ، وكانت المقطعين تقاسى من الهوان والذل ما لا خير فيه . ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا وشحه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة ، والخولة الذين فى سواقى الميدان ، على الجلة وروث الأبقار وما يتحصل فى كل يوم مما يبيعونه ، وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة . وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضيق ، لا يغفل عنهم من المصادرات يوما واحدا . وكان من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار يباشر ضبط أمر الخزانة بنفسه ، ما يدخل اليها وما يخرج منها وما يعرضون عليه من الأمور فى ذلك جميعه من الوصولات ، وما يصرف من الخزائن فى كل يوم . وكانت هذه الأموال العظيمة التى تدخل له يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان والسقوف بالذهب ، وهذا عين الاسراف لبيت مال المسلمين ... وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من المكتب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضى ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمر القتلى ويدفعهم الى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها . وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم الا قليلا ، فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشترى العلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوائج . ولو شرحنا مساويه كلها لطال الشرح فى ذلك .

وأما من تولى الخلافة فى أيامه فأمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ، نجل امين المؤمنين المستمسك بالله يعقوب .

وأما قضاة الشافعية فأولهم شيخ الاسلام قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة محيى الدين عبد القادر النقيب ، تولى وظيفه القضاء فى ايامه خمس مرات ، وقاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، وقاضى القضاة ابن فرفور المقدسى ، وقاضى القضاة جمال الدين القلقشندى ، تولى القضاء فى أيامه مرتين ، وقاضى القضاة كمال الدين بن محمد بن على الشهير بالطويل القادرى ، وقاضى القضاة بدر الدين المكينى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن النقيب ، ثم أعيد

قاضي القضاة كمال الدين الطويل ، وقد ولى القضاء في دولته أربع مرات .

وأما قضاة الحنفية فالقاضي سرى الدين عبد البر ابن الشحنة ، ثم القاضي برهان الدين بن الكركى ، ثم القاضي شمس الدين محمد السمديسى ، ثم القاضي حسام الدين محمود بن الشحنة .

وأما قضاة المالكية فالقاضي عبد الغنى بن تقى الدين ، ثم القاضي برهان الدين الدميرى ، ثم ولده محيى الدين يحيى ، ثم جلال الدين بن قاسم ، ثم أعيد محيى الدين بن الدميرى ثانيا .

وأما قضاة الحنابلة فالقاضي شهاب الدين أحمد الششينى ، ثم ولده عز الدين محمد ، ثم شهاب الدين الفتوحى .

وأما كتاب سره فالقاضي محب الدين الحلبى .
وأما نظار جيشه فالقاضي شهاب الدين أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، والقاضي عبد القادر القصروى وأما نظار خواصه فالقاضي علاء الدين ابن الصابونى أولا ، ثم علاء الدين ابن الامام ، ثم ناصر الدين الصفدى ، ثم أعيد ابن الامام ثانيا .

وأما وزراؤه فالأمير طقطباى بن ولى الدين ، وجمع بين الوزارة والأستادارية ، ثم الأمير تغرى برمش ، ثم الأمير يوسف البدرى .

وأما استادارياته ، فالأمير تغرى بردى بن بلباى القادرى ، ثم الأمير تمرباى حاربدار الملك العادل طومان باى . ثم الشرف يونس النابلسى . ثم قرر الأمير طومان باى الدوادار فى الأستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى ، واستمر بها الى أن تسلطن .

وأما من ولى الحسبة فى أيامه فالأمير قرقماس المقرى ، والأمير جان بردى الغزالى . ثم أعيد قرقماس المقرى ، ثم الزينى بركات بن موسى ، ثم الأمير ماماى الصغير .

وأما أتابكيته فأولهم قيت الرجبى ، وقرقماس ابن ولى الدين ، ودولات باى بن أركماس ، وسودون العجمى .

وأما دواداراياته فأولهم مصرباى ، ثم أزدمر بن على باى ، ثم طومان باى الذى تسلطن بعده .

وأما حجابه فالأمير خاير بك بن باى الذى قرر فى نيابة حلب ، والأمير أنص باى بن مصطفى .
وأما بقية الأمراء وأرباب الوظائف فعلى حكم ما تقدم من أخبارهم .

وأما نوابه بالشام : فالأمير دولات باى بن أركماس ، ثم قانصوه المحمدى الشهير بالبرجى وسيباى بن بخت خجا . وأما نوابه بحلب : فأركماس بن طراباى ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وسودون بن يشبك ، وجانم ويشبك وأبرك الأشرفى ، وتمراز الأشرفى . وأما نوابه بصفد : فقانصوه بن قرا ، وتانى باى العثمانى ، وسودون الدوادار . وأما نوابه بغزة : فالأمير صلاح الدين الذى كان نائب القدس ، وأزبك القسوق الذى كان نائب القدس أيضا ، وأقباى الذى كان كاشف الشرقية . وآخر من ولى بها فى أيامه دولات باى الأعمش ، وقد جمع له بين نيابة القدس والكرك ونيابة غزة ، وولى بها آخرين غير هؤلاء .

وأما ما أنشأه بالقاهرة : فمن ذلك الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما عند الشرابشيين ، والوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ... ومن انشائه المئذنة التى عمرها بالجامع الأزهر وهى برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التى بخان الخليلى ، وجدد عمارة

خان الخليلى ، وأنشأ به الحواصل والدكاكين ... وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وكذلك الربعين اللذين بين السورين والطاحون عند المصبغة ... وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين لولده ، وتناهى فى زخرفته . وأنشأ هناك ربعا ووكالة .

وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ، ونقل اليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجرى اليه ماء النيل من سواق نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة والمقعد والمبيت برسم المحاكمات ... وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومئذنة ، وجدد عمارة بالقلعة منها الدهيشة ، وقاعة البيسرية ، وقاعة العواميد ، وقاعة البحرة . وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش ، وجدد عمارة المطبخ الذى بالقلعة ، وجدد عمارة سبيل المؤمنين ، وجعل سقفه معقودا بالحجر . وأنشأ الربع والدكاكين التى بسويقة عبد المنعم . وأنشأ الربع والوكالة التى فى الجسر الأعظم . وجدد عمارة ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع ، وبناه بالحجر الفص المشهر بعد ما كان بالطوب اللبن . وأنشأ المجراة ونقلها من درب الخولى الى موردة الحلفاء .

وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر على تلك البسطة التى كانت هناك . وأنشأ بها المقعد المطل على البحر ... وجدد عمارة قنطرة بنى وائل ، والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب ، وقنطرة الخرنوبى وأعلاها ، حتى صارت تدخل المراكب من تحتها . وجدد عمارة قناطر السباع . وأنشأ المساطب وعليها الدعائم عند قبة الأمير يشبك التى بالمطرية .

وأنشأ بالطينة على ساحل البحر المالح قلعة لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة . وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر ، وجدد عمارة الأبراج بالأسكندرية ، وأصلح طريق العقبة ، ودوار حقن .

وأنشأ هناك خانا وأبراجا على بابه ، وجعل فيه حواصل لأجل ودائع الحجاج . وأنشأ فى الأزلم خانا وجعل فيه حواصل مثل الخان الذى فى العقبة ، وحفر هناك الآبار فى عدة مواضع من مناهل الحجاج .

وأنشأ بسكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك ، وأجرى عين بازان بعد ما كانت انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا على ساحل البحر المالح ، وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج ، وجاء هذا السور من أحسن المبانى هناك . وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين .

وبالجملة أن السلطان الغورى كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه ، ولم يجىء من بعده أحد من الملوك يشابهه فى أفعاله وعلو همته وعزمه فى الأمور . وكان كفؤا تاما للسلطنة ، مبجلا فى المواكب ، تملأ منه العيون .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ، ومشايخ الاسلام ، وقضاة القضاة ، فمنهم : الشيخ بدر الدين ابن عبد الرحمن الديرى رحمة الله عليه ، وكان من أعيان علماء الحنفية مفتيا مدرسا عريقا ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، وكان من خيار أبناء الديرى . وتوفى الشيخ شهاب الدين ، خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الحقيقة . وجاءت الأخبار بوفاة قاضى القضاة الحنبلى بهاء الدين بن قدامة ، توفى بدمشق وولى قضاء الحنابلة بمصر والشام . وتوفى الشيخ ابراهيم المواهبى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفى العلامة تقى الدين الأوجاقى شيخ الحديث ، رحمة الله عليه . وتوفى الحافظ العلامة جلال الدين عبد الرحمن الأسيوطى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، بلغت

مصنفاته ستمائة مؤلف ، وكان بارعا فى علم الحديث ، توفى فى جمادى الأولى سنة احدى عشرة وتسعمائة . وتوفى قاضى قضاة المالكية برهان الدين الدميرى سنة ثلاث عشرة وتسعمائه . وتوفى القاضى ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من أعيان علماء الحنفية . وتوفى الشيخ علاء الدين العجمى الشافعى شيخ تربة جانى بك نائب جدة ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفى قاضى قضاة الحنابلة شهاب الدين أحمد الششينى ، وكان علامة فى مذهبه ، توفى سنة تسع عشرة وتسعمائه . وتوفى الشيخ عبد الباسط بن خليل المؤرخ ، وكان من أعيان الحنفية ، وكانت وفاته فى ربيع سنة عشرين وتسعمائة . وتوفى الشيخ العارف بالله تعالى ، محمد ابن عنان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفى قاضى قضاة الشافعية كان ، محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . وتوفى قاضى القضاة كان ، جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين القلقشندى الشافعى ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفى الشيخ نور الدين على المحلى وكان يعرف بفريبه ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفى الشيخ تاج الدين الذاكر ، وكان من أعيان الصوفية . وتوفى قاضى قضاة الحنفية ، وكان يسمى برهان الدين بن الكركى ، وكان من أعيان علماء الحنفية ، مات غرقا فى أيام دولته . ومات غير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم هنا خشية الاطالة . ولا بأس بايراد هذا الزجل الذى عمله الشيخ بدر الدين أبقاه الله تعالى ، يرثى به الملك الأشرف قانصوه الغورى عند وقوع تلك الفتنة المقدم ذكرها وما جرى له ، وهو قوله :

غربت شمس دولة الغورى
وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل داير
ابن عثمان باداه بأخذ القلم
ويمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا الى مصر مملوك
ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا
ومن الصوف ماعاد يجينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين
ما يجى من عدو ولا تاجر
والأمارة جو للملك قالوا
ابن عثمان باغى عليك جاير
الأمير الكبير سمى سودون
للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرف العالى
هو أمير سلاح سمى أركماس
وبسودون رأس نوبة النواب
لو رياضه مع سائر الأجناس
وأنص باى هو حاجب الحجاب
لو شجاعة فى الحرب بالساتر
ومحمد يدعى أمير آخور
نجل سلطان أشرف عزيز ناصر
والدوادار تانى أمير علان
وان أردت المقدمين تذكر
ابن جركس مقدم كبير
وتمر بالزردكاش يشهر
وكذا جنبلاط معو كرتباى
وأربعين فى ذى العدد واكثر
وتبعهم من الاساوة كثير
طبلخاناه بالنصر تتباشر

والعساكر معهم كثير فرسان
عشراوات من ترك تتكاثر
ضرب الكل بينهم مشورة
قالوا ملت منا القلوب والنفوس
نحن نخرج جميع لاجل القتال
بالجنائب والسلاح واللبوس
ونجرد لنصرة السلطان
نكسر الروم والأراضى ندوس
راهنوا بالنفوس وهم أقمار
كل واحد بمهجتو قامر
ولا يدرى ما قد خبى فى الغيب
من تقادير القادر القاهر
خامس العشر من ربيع آخر
لتسعماية اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى
شافع الخلق فى نهار الزحام
كان خروج السلطان بتجريدة
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والامارة فى خدمتو موكبين
بالماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفة خرج معو القاضى
كاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلو الجميل محمود
وقضاة القضاة ومن معهم
كل نائب قد أبذل المجهود
خرج معو لاجل الخلع
ناظر الخاص الناهى الآمر

هو المباشر للخاص وهو العامل
وكذا القصروى للجيش ناظر
دخلوا الشام أوكب بهم موكب
ما سمعنا موكب رئى مثله
ولا نالوا ملك ولاسلطان
فى المواكب ولا أحد قبله
ومن الشام خرج دخل فى حلب
وقطع من وعره الى سهله
وسليم شاه لما سمع أظهر
أن طبعو منها بقى حاير
طلب الصلح أرسل لهم قاصد
بالهدايا والملبس الفاخر
قالوا دا الصلح سيد الأحكام
من يخالف يرجع هداه فى ضلال
والأمانة فى محمل الانسان
وأبى حملها عوالى الجبال
وقضى ربنا بحقن الدما
وكفى الله المؤمنين القتال
جو جواسيس الأشرف الغورى
أعلموه انو عليه ماكر
قالوا احذر تركن الى صلحو
واعلم انه خاين عليك غادر
حقق القول ومن حلب برز
والعساكر معو لاجل القتال
وجد الروم مجهزين بالسلاح
والتراكيش معمره بالنبال
ووقع بين العسكرين وقعة
للفريقين شابت لها الأطفال

نصر الله المصرى على الرومى
وبحيلو أضحى عليه غاير
ولا يدرى ما قد خبى فى الغيب
ولا يدرى ما هو اليه صاير
ابن عثمان كان لو من العسكر
خلق كانوا على الشمال كامنين
فى اشتغال العسكر بنهب الروم
خرجوا فى القتال لاجل السبين
فاستغاث الملك وبو سارقه
ارتمى على الأرض عن جوادو ينين
جا ابن عمو بيبرس واقباى الطويل
كل واحد لنصرته بادر
والشجاعه ما تغلب الكثره
قطعوهم بالصارم الباتر
جل ربى محرك الحركات
جعل الله لكل قتله سبب
والعجب كان فى قتلة الغورى
فى التواريخ تكتب بماء الذهب
تسعمائة اثنين وعشرين عام
ما جرى لو خامس وعشرين رجب
نسأل الله آن يحسن العاقبه
وبعيد الرابح هو الخاسر
يكشف العار عنا بأخذ التار
ويرد الكسره على الكافر
أشتهى التار لقتلة الغورى
ولعلى آن أبلغ الأوطار
والتهانى ذاك النهار عندى
ويعنوا على وتر او طار

بعد هذا ما أخشى غراب البين
ان زعق فى دارنا آو طار
والعجائب فى قتلة الغورى
راح برجلو لقتلتو خاطر
وحسنا كل الحساب الا
ما جرى لو ما مر بالخاطر
دمعة العين منى على الغورى
من دماها يجرى لحزنى عين
أرتجى عين فى الناس تساعدنى
من صباحى حتى تغيب العين
كان عليه ترقب زمان ملكو
والسعاده حتى أصابو عين
الجواد غاب بين العدا آرماه
مات ودمعو من العيون غاير
كل من غار منو بقى فرحان
بعد ما كان غاير على الغاير
ذى العساكر شبهتها روضه
فيها أغصان فرسان عليها زهور
والنسيم فى النهر فصل زرد
واذا هو كالسيف ظهر مشهور
واللبوس من فوق الحديد تحكى
وود آحمر بين الرياض منثور
ومن البان شطفات غصون مذهبه
وحماها صناجق الباتر
وحكى الياسمين بدن مجروح
وشقيق النعمان عليه داير
فى سما حرب عسكر السلطان
تطلع انجم فرسان تزين اللبوس

والأسـنة تحكى شهب ثاقبـه
وخودهم مثل النجوم فى الشموس
والملك بينهـم قمر مخسـوف
وحكى الرعد ضربهم فى التروس
خلت أسهم من قوس قزح ترمى
للعسـاكر فى ليل غبـار عاكر
السحاب صار يمطر سـهام خارقه
للأعادى ولـم يـزل ماطـر
ذى العساكر بستان وفيه فاكهه
ودماهـم خمـر العنب مدفوق
واحد اصفر لونو حكى مشمش
وذا لون العنـاب وذا معشـوق
ما رأى حد مثـل ذى الوقعـة
لا تقـل لى النـاصر ولا برقوق
والأمارة تحكى شـجر مثمـر
فى رياض نشروا غـدا عاطـر
والمدافع ترمى سـفرجل كبـار
ول رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسـلى قلبى على الغورى
وأقـلو يا قلب اتفـكر
أين سـليمان وأين هو النمرود
وأين هو فرعون وأين هوا قيصر
وأين ملوك الزمان وذو القرنين
واللى يسمى ان صح الاسكندر
وأين كسرى آنو شروان وايوانه
مات والايوان بعـدو بقى داثر
كل حادث بأمر القـديم راحل
والاقـامة للأول الآخـر
لو يكن فى هـذا البلد حمـال
ويراهـن فى واجب الملعـوب
نحن عصبه نحـزن على غلبـه
لما يبقى دستو عليـه مقلوب
فايش تقـل سلطاننا الغـورى
لما جرد قتـل ومات مكروب
بعد ملكو خمسه وعشر سـنين
تسـعة أشهر بالكاتب الحـاصر
ويليهـا خمسـه وعشرون يوم
عـز كاتب حاسب أمين ذاكـر
العجب كان فى قتـلة الغـورى
كل مقـدور لا يمنعه المحـذور
ويوم خروجو من البـلد أوكب
ولا يدرى ما فى الجبين مسطور
بالمقـدر قال لو لسـان الحال
قد بقى من عمـرك ثلاث شهور
انتبـه من رقـدة الغفـلة
واحمـل الطول من الأمل قاصر
بعـد الاشـهر عدة تسـعة أيام
والمنيـة تكون فى العـاشر
ذى الملك كان رئيس وهو مقدام
وابن عثمـان مؤخر ولاح كسره
خندس الريح عليـه وحل مركبو
وابن عثمـان عوم وبان نصره
غرق السـفن واخرب السـفان
وبسيفو رمى الجميـع بحـره
من جثثهم ومن دماهـم صـار
بحـرهم بر بالجثت صـادر

وتركهم لما رجع مقلع

برهم بحر بالدما حادر

قد جلا لو عروس جمال ملكو

خالق الخلق ربنا دو الجلال

وجبا لوانو يقع ميت

عن جواد ويوم الحروب والقتال

وزوى لوانو يموت مقهور

ولا يعرف قبره ليوم الزوال

كم تطير بالرمل والرمال

طاير الله هو أعظم الطاير

طار حسابو وكل ما أمل

وبهذا ما طار عليه طاير

ابتداى فى النظم والخاتم

بمديحى فى المصطفى المختار

كلمو الضب والذراع والبعير

وسعت لو فى خدمتو الاشجار

والغزاله حديثها مشهور

ونطق لو فى راحتو الاحجار

والقمر انشق له نصفين

بعد ما كان كامل صحيح ناير

وأشبع الجيش كلو ببعض الزاد

وجرى الما من اصبعو فاير

ان يقولوا أبو النجا العوفى

فى نظامو ما فى البلد مثلو

يا الذى جا يسمع عقود نظمه

خذ وحرر عنو بديع نقلوا

وان آتالك من يطلب التاريخ

والوقايع عن الملوك قلو

غربت شمس دولة الغورى

وابن عثمان نجمو طلع ساير

وبهذا رب السما قد حكم

والفلك دار ولم نزل داير

وهذا آخر ما انتهى الينا من أخبار دولة الملك الأشرف أبى النصر قانصوه الغورى رحمة الله عليه . وقد افتتح أوائل دولته بمصادرات وظلم ، وأخذ أموال بغير حق ، واختتمت أواخر دولته بفتن وضرب سيف وذهاب أموال وأرواح ، وأمور مهوله وحوادث غريبة ، وفتن عظيمه ليس لها آخر . والأمر الى الله تعالى من قبل ومن بعد ، يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل .

واستمر سليم شاه بن عثمان مستوليا على البلاد الشامية والحلبية وملك قلاعها وأعمالها ، وحكم من الفرات الى الشام ثلاثة شهور ، وملك ثلاث عشرة قلعة بالأمان من غير حرب ولا قتال ، وملك قبل ذلك عدة قلاع من أعمال شاه اسمعيل الصفوى . والذى وقع لسليم شاه ابن عثمان من السعد والنصرة على الصفوى وسلطان مصر ، وأخذ أموالهم وبركهم وخيولهم واحتوائه على بلادهم ، وخزائن أموال الأمراء وأموال السلطان الغورى وناهيك بها — ما وقع قط لأحد من ملوك الروم قبله ولا بعده ، وهذا الأمر من الله تعالى ، وقد وعده بذلك من القدم ، ان وعد الله حق وهو لا يخلف الميعاد .

الأشرف أبو النصر طومان باى

وهو السابع والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادى والعشرون من ملوك الچراكسة وأولادهم فى

العدد وكان أصله من كتابية الأشرف قايتباى ، اشتراه الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وكان يود له بصرابه . فلما اشتراه قدمه الى الأشرف قايتباى ، ولهذا يدعى طومان باى بن قانصوه . فصار من جملة مماليكه الكتابية ، واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد ابن قايتباى ، فأخرج له خيلا وقماشا وغلمانا وصار من مستخرجات الناصر ومعاتيقه . وبقى جمدارا ثم بقى خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى سلطن قريبه قانصوه الغورى ، فأنعم عليه بامرية عشرة ، واستمر على ذلك الى سنة عشر وتسعمائة ... فلما توفى ابن السلطان المقر الناصرى فى الفصل الذى جاء بها أنعم عليه السلطان بامرية طبلخاناه وجعله شاد الشرابخاناه عوضا عن ولده بحكم وفاته ، واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة .

فلما توفى الأمير أزدمر بن على باى الدوادار الكبير فى جمادى الأولى وهو مسافر بجبل نابلس ، خلع عليه السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن الأمير آزدمر بحكم وفاته ، فاستمر فى الدوادارية الكبرى الى أن خرج السلطان الى التجريدة بسبب ابن عثمان ... فجعله نائب الغيبة عوضا عن نفسه الى أن يحضر من السفر ، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وأطاعه العسكر الذين تخلفوا بمصر قاطبة . وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف ونائب الغيبة .

وكان يركب فى كل يوم اثنين وخمس ويسير نحو المطرية ، ويدخل من باب النصر ، ويشق القاهرة وقدامه الجم الكثير من العسكر والأمراء المقدمين ، وقدامه سعاة وعبيد نفطية يرمون بالنفط من المكاحل فترتج له القاهرة كلما شق منها وفتح السد فى غيبة السلطان ، وكان له يوم مشهود ولم يزل على ذلك حتى ثبت موت السلطان الغورى ، ورجعت الأمراء من التجريده ، فوقع الاختيار منهم على سلطنته ، فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، والأمراء تقول ما عندنا سلطان الا أنت ، وهو يمتنع من ذلك

ثم ركب هو والأمير علان وجماعة من الأمراء المقدمين وتوجهوا الى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود ، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك تعلل الأمير طومان باى على السلطنة بأنواع من العلل . منها ان خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم ولا دينار ، فاذا تسلطنت ما انفق على العسكر شيئا . ومنها أن ابن عثمان ملك البلاد الشاميه وهو زاحف على مصر ، وأن الأمراء لا يطاوعونى على الرجوع الى السفر ثانيا ومنها أنه اذا تسلطن يغدرون به ، ويركبون عليه ، ويخلعونه من السلطنة ، ويرسلونه الى السجن بثغر الاسكندريه ، ولا يبقونه فى السلطنة الا مدة يسيرة ثم ان الشيخ أبا السعود احضر بين يدى الأمراء مصحفا شريفا وحلف عليه الأمراء الذين جاءوا بصحبته بأنهم اذا سلطنوه لا يتآمرون عليه ولا يغدرونه ، ولا يثيرون فتنا .. وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم على المصحف الشريف بمعنى ذلك فلما تحالفوا ترشح أمر طومان باى الى السلطنة ، وانفض المجلس على ذلك ، وتوجه الأمراء الى بيوتهم .

فلما كان يوم الجمعه رابع عشر شهر رمضان من هذه السنه صلى الأمير الدوادار صلاة الفجر ، وركب ومعه الأمراء المقدمون وقدامه الفوانيس والمشاعل ، فطلع الى باب السلسله وجلس به .

فلما ركب من بيتــه الذى فى درب البابا شق من الصليبة . وهو بتخفيفــة صغيرة وملوطة بيضاء ، وكذلك الأمراء الذين طلعوا صحبته . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت النساء له بالزغاريت من الطيقان .

فلما استقر بباب السلسلة أرســل خلف أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فحضر وصحبته ســيدى هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله واولاد ابن عمهم خليل ، وحضر قاضى القضــاة الحنفى حســام الدين محمود بن الشحنة ، والقاضى شرف الدين يحيى ابن البرديبى أحد نواب الشــافعية ، وجمــاعه نواب القضاة الذين بالقاهرة ، فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر والأصاغر والعسكر أظهر أمير المؤمنين يعقــوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه وكله فى جميــع أموره ، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها ، وكالة مفوضة ، وثبت ذلك على يد القــاضى شــمس الدين بن وحيش ، فاكتفوا بذلك ... وكان أشيع أن يولو الخلافة الى أحد من أولاد سيدى الكبير خليل ، فان الخليفة المتوكل على الله كان فى أسر ابن عثمان ، ووالده يعقوب عزل نفسه من الخلافة ، فلما أحضر هــذه الوكالة عن ولده اكتفــوا بذلك ... وكان قاضى قضــاة الشافعية كمال الدين الطويل فى أسر ابن عثمــان وكذلك قاضى قضاة المالكية محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة الحنبلى الشــهابى الفتوحى . فلم يحضر هذه المبايعة من أعيان نواب الشــافعية الا الشرفى يحيى بن البرديبى . فبايع السلطان الخليفة أمير المؤمنين يعقوب ، وشهد عليه بذلك الشرفى يحيى بن البرديبى وجماعة من نواب القضاة نيابة عن محمد المتوكل ، وحضر فى آخر المجلس قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة .

فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة ، وهى الجبة السوداء والعمامة الســوداء والسيف البداوى ، فأفيض عليه شعار الملك ، وتلقب بالملك الأشرف ، مثل قريبه الغورى . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا له فى الزردخانات لا قبة ولا طيرا ، ولا الغواشى الذهب . فركب من ســلم الحراقة التى بيــاب السلســلة ، والخليفــة قدامه . فطلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على كرسى المملكة ، وقبل له الأمراء الأرض ، ودقت له البشــائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته .

وكان محببا للعوام ، فانه كان لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متكبر ولا متجبر . فلمــا انتهى أمر المبايعة خلع السلطان على أمير المؤمنين ونزل الى داره فى موكب حفل . وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه و لايغير على طول المدى . وقد قال محمد بن قانصوه :

قد ذهب الغــورى الى ربه
وذا الــذى قــدره الله

الملك لله فمــن شــاء من
عبــاده للمــلك ولاه

فلما كان وقت صلاة الجمعــة فى ذلك اليوم خرج السلطان وصلى صــلاة الجمعه ، وخطب به الشرفى يحيى بن البرديبى ، واستمر يخطب به فى كل يوم جمعة . ثم ان الخطباء خطبوا باســمه فى ذلك اليوم على منابر مصر فى القاهرة بعد ما كان الخطباء لم يذكروا فى الخطبة اســم سلطان ، ولم

يدعوا نحو خمسين يوما ، بل كانوا يدعون للخليفة فقط

وفى هذا اليوم قبض السلطان على قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب الذى سلم القلعة الى ابن عثمان من غير حرب ولا محاصرة ، فلما حضر قانصوه هذا صحبة العسكر تغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك ، فقبض عليه وأودعه فى البرج بالقلعة ، حتى يكون من أمره ما يكون

وفى يوم السبت خامس عشر رمضان حضر جماعة من الأمراء ممن تخلف بعد العسكر بدمشق ، فحضر الأمير جان بردى الغزالى نائب حماه وقد ترشح امره أن يلى نيابة الشام ، والامير سودون الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمير قانصوه كرت أحد المقدمين وكان مريضا فلما حضروا وجدوا الدوادار قد تسلطن فعز ذلك على الأمير سودون الدوادار . وكان قد ركن الى السلطنة وهو بالشام فلم يتم له ذلك فلما حضروا طلعوا الى القلعة وقبلوا الأرض للسلطان . ونزلوا الى دورهم

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان حماه الأمير ناصر الدين بن الحنش بلغه أن ابن عثمان أرسل چالش عسكره وصحبته ابن سوار — الذى كان تعصب له — فلما وصلوا الى قابون بالقرب من دمشق ، تقيهم ابن الحنش ، وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة ، وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من أنهر دمشق ، حتى صار كل من دخل فى تلك المياه بفرسه يوحل ، فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة حسبما أشيعت بذلك الأخبار . وقد قلت فى المعنى :

قل لابن عثمان اذا قابلته
اقبل نصيحة ناصح ودع الطيش
واحذر تعارض شاميا بجهالة
نخشى عليك اللدغ من ابن الحنش

فلما دخلت الأمراء دخل صحبتهم جماعة كثيرة من أعيان أهل دمشق وأولادهم وعيالهم ، وسبب ذلك أنه لما حصل لعسكر مصر هذه الكسرة ، وقتل سيباى نائب الشام ، واضطربت الأحوال ، وثب أهل الشام بعضهم على بعض . ونهبوا حارة السمرة ، وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم وكذلك فعلوا بتجار الفرنج الذين هناك ، ونهبوا اموالهم ، وكانت فتنة مهولة . ونهبوا بيوت اعيان الناس بدمشق من القضاة والتجار . فخرج غالب أعيان دمشق منها بسبب ذلك ، وبسبب فتنة ابن عثمان وفساد الاحوال بمصر والبلاد الشامية فلما بلغ السلطان ما فعله ناصر الدين بن الحنش مع عسكر ابن عثمان رسم له بنيابة حمص ، وقيل برزت له المراسيم الشريفة أنه اذا كسر عسكر ابن عثمان قرره السلطان فى الأتابكية بدمشق ، فان ابن الحنش أرسل يقول للسلطان . « مدنى ببعض عسكر وأنا أجمع العربان وضمان كسرة عسكر ابن عثمان على » وكان فى قديم الزمان بعض أجداد الحنش متوليا على نيابة حمص . .

وفيه حضر شخص يقال له اينال الأعور وكان جان بردى الغزالى قرره فى نيابة صفد فلما بعث اليها دواداره ومباشريه وثب عليهم اهل صفد ، ولم يمكنوهم من الدخول الى المدينة ، وربما قتلوا منهم جماعة فحضر الى مصر ليلبس خلعة ويمضى الى صفد ، ليقتص من أهلها

وفى يوم الاثنين سابع عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر فى الحوش ، وحصل فى

ذلك اليوم بين الأمراء خلف بسبب الوظائف ، وحصل بين الأمير علان الدوادار الثانى وبين جان بردى الغزالى تشاجر حتى خرجا فيه عن الحد .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض وهم الذين كانوا مقيمين بمصر ولم يحرجوا فى التجريدة صحبة السلطان . ونادى أيضا أن كل من أخذ شيئا من نهب سلاح العسكر أو قماشهم يرده ، ومن لم يرد شيئا وغمز عليه شنق من غير معاودة . وقد بلغه أن جماعة من الغلمان والعبيد ممن كان فى التجريدة نهب أشياء كثيرة من مال وسلاح وقماش وغير ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما تسلطن أمر بهدم المسطبة التى كان أنشأها السلطان الغورى بالحوش أيضا عوضا عن الدكة التى كان يجلس عليها الأشرف قايتباى ، فهدم السلطان المسطبة وأعاد الدكة كما كانت فى أول الأمر وجلس عليها ، وكانت قد تكسرت فأصلحوها وجعل لها غشاء من الجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما كان يجلس الأشرف قايتباى ، وقد قلت فى المعنى :

قد عادت الدكة للحكم
وانهدمت مسطبة الظلم
وصار طومان باى بين الورى
يمشى به الذيب مع الغنم
فياله من ملك عدله
قد شاع بين العرب والعجم

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، جلس السلطان على الدكة وعرض العسكر بالحوش ، وكتب منهم نحو ألفى مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر نحو ستة مقدمين . وعين الأمير جان بردى الغزالى باشا على العسكر ، وقد ترشح أمره بأن يلى نيابة الشام .

وفيه قبض السلطان على المهتار محمد القجولى ، وعلى أخيه على مهتار الطشطخاناه بحدمة السلطان الغورى ، وقبض على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشة ، وهذا كان أول حكم للسلطان طومان باى . وسبب ذلك أن السلطان لما تسلطن عرض الخزائن فوجدها فارغة ليس فيها درهم ولا دينار . وكان محمد المهتار وجمال الدين البواب من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار جعلهما السلطان الغورى متحدثين فى أمور الخزائن الشريفة ، فصارا يتصرفان فيها كيف يختاران ، فطاشا وركبا فى غير سرجيهما ، وما كانا يظنان أن السلطان الغورى يموت فى هذا الزمان . فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقهما كما يقال فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى يوم الخميس عشرى شهر رمضان ، عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس على الدكة بالحوش ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم المقر السيفى سودون الدواداري الدوادار ، وقرره آتابكى العساكر عوضا عن سودون العجمى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على المقر السيفى جان بردى الغزالى ، وقرره فى نيابة الشام عوضا عن سيباى بن بخت خجا بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على المقر السيفى أركماس بن طراباى ، وقرره فى امرية سلاح على عادته . وخلع على المقر السيفى بخشباى بن عبد الكريم وقرره أمير مجلس عوضا عن أركماس بحكم ولايته فى امرية سلاح . وخلع على المقر السيفى أنص باى ابن مصطفى وقرره أمير آخور كبير عوضا عن نجل المقام الشريف الغورى بحكم انفصاله عنها . وخلع على تمر الحسنى وقرره رأس نوبة النوب عوضا

عن سودون الدواداري بحكم انتقاله الى الأتابكية . وخلع على طقطباى العلائى نائب القلعه وقرره حاجب الحجاب عوضا عن آنص باى بحكم انتقاله الى امريه آخور الكبرى . وخلع على الأمير علان ابن قراجا وقرره أمير دوادار كبير عوضا عن المقام الشريف بحكم انتقاله الى السلطنة . وخلع على الأمير أبرك الأشرفى وقرره وزيرا واستادارا وكاشف الكساف عوضا عن المقام الشريف . وخلع على كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين وقرره دوادارا ثانيا مقدم ألف كما كان علان . وخلع على ماماى دوادار قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، وقرره أمير آخور ثانيا عوضا عن آقباى الطويل بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على شخص من الأتراك يقال له تنم السيفى مغلباى الساقى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن خدا بردى الأشرفى ، بحكم أنه بقى مقدم ألف . وخلع على شخص يقال له بخشباى الذى كان كاشف البهسنا وقرره فى نيابة صفد . وخلع على شخص آخر من الأتراك وقرره فى نيابة طرابلس . وخلع على شخص يقال له تانى بك الأشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم انتقاله الى الحجوبية الكبرى . وخلع على آقطوه وقرره كاشف الشرقية ثم أبطل ذلك فيما بعد . وخلع على الأمير بشبك الفقيه وقرره خازندارا كبيرا عوضا عن خاير بك الذى توفى . وخلع على جنتمر وقرره خازندارا ثانيا . وخلع على ماماى الصغير وأقره فى الحسبة على حاله . وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة وقررهم فى وظائف معلومة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين ، فخلع على القاضى محمود كاتب السر ابن أجا وأقره على حاله . وأقر الشهابى أحمد ناظر الخاص ابن يوسف متحدثا فى نظارة الجيش عوضا عن القصروى بحكم قتله هناك . وخلع على سائر المباشرين من أرباب الوظائف باستمرارهم على وظائفهم . وخلع على نقيب الجيش ، وأزدمر المهمندار ، والماس والى الشرطة ، وسنبل مقدم المماليك ، باستمرارهم على عادتهم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشريه خلع السلطان على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر باستمراره على عادته . وقد حصل من أولاد أحمد بن بقر فى هذه السنة من الفساد ما لا يحصل من بلاد الفرنج ، من قتل النفوس ونهب الأموال ، ولا سيما ما فعله ابن الجذامى بالعسكر لما رجع وهو مكسور ، وما فعله أولاد عبد الدائم بالشرفية من نهب الأموال وقتل النفوس ، ولم تنتطح فيها شاتان . وخلع عليه وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سابع عشريه ، خلع السلطان على مصرباى الأقرع أحد أمراء الطبلخانات وقرره فى الحجوبية الثانية عوضا عن طومان باى قرا بحكم قتله فى واقعة عثمان . وخلع على تمرباى العادلى وقرره تاجر المماليك عوضا عن نوروز بحكم وفاته . وخلع على شادبك وقرره شاد الشرابخاناه عوضا عن يوسف الناصرى بحكم انتقاله الى التقدمة . وخلع على على بك وقرره على نظر الجوالى عوضا عن القصروى . وخلع على فخر الدين بن عوض واستقر به ثالث قلم فى كتابة المماليك عوضا عن جلال الدين بحكم وفاته . وخلع على حاجب الحجاب بدمشق باستمراره على عادته .

وفى أواخر هذا الشهر قرىء عهد السلطان بحضرة أمير المؤمنين يعقوب وقاضى القضاة الحنفى ، وجماعة من النواب ، وحضرت جماعة من المقدمين على العادة . ثم ان السلطان أنعم على أمير المؤمنين يعقوب لما بايعه بالسلطنة بحصة

ونصف وثلث فى منشية دهشور ، فأنعم عليه فى ذلك اليوم بما ذكرناه .

وفى يوم السبت تاسع عشريه طلع ناظر الخاص بخلع العيد وعرضها على السلطان وهى مزفوفه على رءوس الحمالين .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصرى محمد ابن بلباى المؤيدى حاجب ميسره بدمشق وأخبر بأن سليم شاه بن عثمان قد ملك مدينـه دمشق وملك قلعتها ، وقتل على باى الأشرفى نائب القلعة ، وقتل سته وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام .

وحضر ابن بلباى هذا وهو فى زى العرب ببشب وزنط على رأسه . فلما أشيعت الأخبار فى القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت النـاس فى أمر مريب بسبب ذلك ، وقالوا ما بقى بعد أخذ الشام الا مصر ، وجزموا بهذا الأمر . وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد ... فتنكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولا سيما أنها ليلة عيد الفطر ، والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر ، والأشلة قائمة بسبب من قتل من العسكر ، وقد قلت :

يا ابن عثمان كف عن أخذ مصر
بلد شرفت بخـير امام
حبرنا الشـافعى قطب ولى
نجل ادريس عمدة الاسلام
هى تدعى كنـانة من غزاها
قصم الله ظهـره بالحسام

***

وفى شوال ، وكان مستهله يوم الاثنين ، صلى السلطان صلاة العيد ، وخلع على الأمراء ومن له عادة . فخطب بالسلطان فى ذلك اليوم الشرفى يحيى ابن البردينى ، وكان موكب العيد حفلا .

وفى يوم الجمعة خامسه ، الموافق لرابع هاتور القبطى ، قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد عجل بلبس الصوف .

وفيه توفى الأمير جانم الابرنهيمى أحد الأمراء الطبلخانات .

وفى يوم السبت سـادسه طلع الى السـلطان شخص يقـال له على الشعبانى نقيب المحتسب ، وشخص آخر يقال له ابن خبيز السمسار فى الغلال ، فلما وقفا بين يدى السلطان تكلما معه بأن يجعل على الحسبة مالا معينا ، وعلى الغلال أيضا ، ولا يحصـل من ذلك ضرر للمسلمين ... فلم يلتفت السلطان الى كلامهما وضرب على الشعبانى بالمقارع وابن خبيز ، وأشهر الشعبانى فى القاهره وهو ماش مكشـوف الرأس ، وقد ضرب بالمقارع ونودى عليه : هذا جزاء من يتعاون فى انشاء المظالم فى الدولة العادله بعد ما بطلت ، وأمر السلطان بعزل الشـعبانى من التحدث فى أمر الحسـبة ، فأقام الشعبانى بعد ذلك أياما يسيرة ، وأشيع موته من الضرب الذى حصل له كما تقدم .

وفى يوم الاثنين ثامنه ، حضر دوادار نائب غزة المسمى بعلى بك الأحدب ، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل الشام تلاشى أمره ووقع الوخم فى عسكره ، فصار يموت منهم فى كل يوم جماعة ، وعز عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف . وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتبن ، وكل من خرج من عسكره الى الضياع قتله العرب ، وقد تجون بدخوله فما بقى يمكنه الخروج منها ، وسارت خيول عسكره سائبـة تأكل من ورق الأشـجار وهى فى غاية الحصر .

وفيه حضر خدابردى نائب الاسكندرية وخرج اليها نسم الدى قرر بها ، وحضر الأمير خاير بك المعمارى الذى كان توجه الى ثغر رشيد بسبب عمارة السور والأبراج التى هناك كما تقدم .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له ملبـاى المشرف وقرره فى استادارية الصـحبة عوضا عن قانصوه الأشرفى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات ابن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا مدابغيا يبيع الجلود ، يقال له الدمراوى ــ مكاسا على بيع الجلود ــ فجار عليه ابن موسى ، فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس ، فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتمى به ، فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك ، وقد شنع فيها ، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى . فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره ، فما حضر عنـده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : « ياكلب كم تظلم المسلمين » . فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا ، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال . فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ، ثم وضـعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير ... فلما حضر قال له ضعه فى الحـديد ، واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين .

فلما طلع الأمير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جـرى له مع الشيخ أبى السـعود ، أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود : مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر باشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنقوه على باب زويلة . فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبر طاق وهو فى الحديد ينادى عليه : « هذا جزاء من يؤذى المسلمين » . فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتيقة وهم ينادون عليه الى أن وصل الى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية ... فأراد أن يوقع فيه بشنق أو تغريق . ثم عاودوا الشيخ فى أمره بأن عليه مالا للسلطان ومتى شنق ضـاع على السلطان ماله ، فعفا الشيخ عنه من القتل ، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى يكون من أمره ما يكون . وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ أبى السعود ، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكائنة على الهـلاك . وقد قلت فى هـذه الواقعة :

تعجبوا مما جرى فى الوجود
بين ابن موسى كان وأبى السعود

تشـاجر قد طال ما بينهمـا
واشـتعلت نيرانه بالوقـود

فصرح الشـيخ بعـزلانه
وأكد القـول بألا يعـود

ويغلب الله عـلى أمـره
ويرغم القـاهر أنف الحسود

ليت شعرى ذا الهبوط الذى
نال ابن موسى بعده من صعود

ولما جرى لابن موسى ما جرى ، ظهـر غريمه شهاب الدين بن الصائغ ، وكان يسعى عليـه فى أيام الغورى . فلما وقعت هذه الكائنة لابن موسى

انتدب الى مرافعته ابن الصائغ وقال : أنا أثبت فى جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار .

ثم ان ابن الصائغ توجه الى بيت ابن موسى وصحبته طواشية وقواسة وجماعة كثيرة ، وكبس على نساء ابن موسى . وقبض عليهن ونهب ما فى بيوتهن من قماش وأمتعة . وقبض على عبيده وغلمانه وحاشيته .

فلما رأى السلطان ما قد حل به توقف عما كان فيه من أذى ابن موسى ... ثم ان ابن موسى قال أنا أثبت فى جهة ابن الصائغ مائتى ألف دينار ، وقال للأمير علان . أرسل خلف ابن الصائغ وضعه فى الحديد حتى يعمل حسابه . فلما حضر ابن الصائغ وضعه الأمير علان فى الحديد حتى يقيم حسابه مع ابن موسى .

وأما ما كان من أمر الشيخ أبى السعود ، فانه لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه النائرة والأشلة وأنكر عليه الناس والفقراء ، وقالوا . ايش للشيخ شغل فى أمور السلطنة ؟ واستقلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى .

وفى يوم الأحد رابع عشره طلعت الى القلعة خوند بنت الأمير أقبردى الدوادار ، وهى زوجة السلطان ، وأمها بنت خاص بك أخت خوند زوجه الأشرف قايتباى فطلعت وقت صلاة الصبح بالفوانيس والمشاعل . ومعها الجم الكثير من الخوندات والستات وأعيان نساء الأمراء والمباشرين . فاستمرت فى موكبها حتى طلعت الى القلعة ودخلت الى قاعة العواميد . فحمل الأمير بشير الطواشى رأس نوبة الستارة على رأسها القبة والطير ، حتى جلست على مرتبتها . وكان لها يوم مشهود بالقلعة .

وفى يوم الأحد عرض الأمير علان الدوادار ابن موسى ، وابن الصائغ ، وكان قرر على ابن موسى عشرين ألف دينار ، وأن يورد منها على الجامكية عشرة آلاف دينار ، فلم يورد منها شيئا فبطحه على الأرض . وضربه نحو عشرين عصا ، فوعد أنه يورد ذلك القدر .

ثم طلب أحمد بن الصائغ وضربه فوق أربعمائة عصا حتى كاد أن يهلك ، وأشيع بين الناس موته .

وفى يوم الخميس ثامن عشره لم يخرج المحمل من القاهرة ولم يحج أحد من الناس قاطبة بسبب فتنة ابن عثمان ، وأشيع أنه يرسل جماعة من عسكره الى مكة المشرفة وصحبتهم كسوة الى الكعبة ، فلم يثبت ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الطواشى مرهف من البحر المالح وصحبته كسوة الكعبة المشرفة والصرر لأهل مكه المشرفة والمدينة . فتوجه الى الطور ونزل من هناك الى البحر .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن الشيخ أبا السعود أرسل خلف ابن موسى وفكه من الحديد وأظهر أنه قد رضى عليه ، وصار يتصرف فى أمور المملكة من عزل وولاية ، فأنكر عليه الناس ذلك .

وفى يوم السبت عشريه طلع الزينى بركات بن موسى الى السلطان على أنه يعيده الى وظائفه فلم يلتفت اليه ، ونزل من عنده بغير طائل وهو فى التوكيل به حتى يغلق ما قرر عليه من المال ، فتوجه الى بيته وهو فى غاية الذل بعد ما زينت له حارته فى سويقة اللبن ، وتخلقت جماعته بالزعفران فنزل عليهم خمدة بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشريه ، خلع السلطان على شرف الدين بن عوض وقرره فى استادارية

الذخيرة عوضا عن ابن موسى بحكم انفصاله عنها

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة .

وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك ، وأنه قد وقع بين الرئيس سليمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جدة ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له قجماس — وكان شادا فى بنها العسل — وقرره فى كشوفية الشرقية ، وأبطل من كان قرر بها .

وفيه أنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينار ، فردوها عليه وقالوا « بق ، بق » ، وخرجوا من باب الحوش على حمية ، وقصدوا أن ينشئوا فتنة ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يرضيهم ، وأن ينفق عليهم كل واحد مائة دينار على جارى العادة . فاسترد من خرج من العسكر على غير رضا ، ثم لما ردوا أنفق لكل مملوك مائة دينار وجامكية ثلاثة شهور عبارة عن مائة وعشرين دينارا لكل مملوك . فأنفق فى ذلك اليوم على أربع طباق ، وأشيع أن هذا العسكر لما يخرج يقيم فى غزة هو والأمراء ويحرسون المدينة الى أن تخرج التجريدة الكبيرة بعد الربيع .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على جماعة من الأروام الذين كانوا فى خان الخليلى ، وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة ، وعندهم جواسيس لابن عثمان ، فأرسل بالقبض عليهم ووضعهم فى الحديد .

وفيه أشيع أن السلطان طلب ابن عثمان الصبى الصغير الذى يقال له قاسم بن أحمد بك ابن عثمان الذى توجه مع السلطان الغورى الى التجريدة ، فلما انكسر العسكر رجع مع الأمراء الى مصر ، فبلغ السلطان أن جماعة يقصدون قتله ، فحاف عليه السلطان من القتل ... فطلع به الى القلعة وأسكنه فى مكان بالبحرة ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وجماعته .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الشرفى يحيى ابن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان مقيما بحماه ، فلما ملكها ابن عثمان فر منها وجاء الى مصر من البحر المالح من جهة طرابلس .

وفيه خلع السلطان على الأمير طقطباى حاجب الحجاب ، وجعله متحدثا فى كشوفية البحيرة عوضا عن يوسف البدرى مضافا لما بيده من الحجوبية الكبرى .

وفى يوم الجمعة سادس عشريه حضر الى الأبواب الشريفة القاضى عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان فى الأسر عند ابن عثمان بالشام ، ففر منه وحضر الى مصر وهو فى زى جمال وعليه بشت وعلى رأسه زنط . وحضر صحبته شخص يقال له أحمد الدمياطى وهو تاجر فى الوراقين ، وأخبر السلطان بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره ، وأن عساكره مختلفون ؟ وأن ناصر الدين ابن الحنش ضيق عليه الطرقات . وصارت العربان تقتل كل من انفرد من عسكره فى الضياع ، وأخبر أنه ملك مدينة الشام وقلعتها ، وملك قلعة طرابلس وصفد وأعمالها ، وصار بيده من الشام الى الفرات ، وأناب فى هذه المدن التى ملكها جماعة من أمرائه كما فعل فى حلب وحماه وحمص وغير ذلك من البلاد . وقيل ان ابن

الحنش أرسل الى السلطان مطالعة ستحثه فى ارسال تجريدة بسرعة قبل أن يزحف ابن عثمان الى غزة . ثم ان السلطان خلع على القاضى عبد الكريم ونزل الى بيته .

وفى يوم الاثنين تاسع عشريه خلع السلطان على ابن خليفة سيدى أحمد البدوى الذى قتله ابن عثمان فى حلب وقرره عوضا عن أبيه بحكم قتله ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وعلى رأسه الأعلام وقدامه سائر الفقراء الأحمدية .

* * *

وفى ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وخلع فى ذلك اليوم على الشرف يحيى بن البرديني وقرره فى قضاء الشافعيه عوضا عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل بحكم أسره عند ابن عثمان . وخلع على قاضى القضاة الحنفية حسام الدين محمود ابن الشحنه وقرره فى قضاء الحنفيه على عادته وخلع على الشيخ شمس الدين التتائى وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن القاضى محيى الدين الدميرى بحكم اسره عند ابن عثمان وخلع على قاضى القضاة عز الدين الششيبى وأعاده الى قضاء الحنابله عوضا عن شهاب الدين الفتوحى بحكم أسره عند ابن عثمان ... وهذه ثانية ولايه وقعت لعز الدين بن الششيني . فلما خلع السلطان على القضاة الأربعه فى يوم واحد ونزلوا من القلعه وعليهم التشاريف رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة . وقد تولى هؤلاء القضاة والقاهرة فى غاية الاضطراب بسبب ابن عثمان .

وفى ذلك اليوم أكمل السلطان النفقة على العساكر المعينة للتجريدة ، وأخذوا فى أسباب عمل البرق والخروج الى غزة ... قيل ان السلطان أنفق على نحو ألفى مملوك ، وهم المعينون للسفر .

وفى يوم الجمعه رابعه طلع ملك الامراء جان بردى الغزالى نائب الشام الى القلعة فصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع عليه السلطان وجعله باشا على العسكر المعينين للتجريدة . فلما نزل من القلعة توجه الى وطاقه الذى بالريدانية وخرج من غير طلب ، بل قدامه بعض جنائب خيول بعراقى وطبول بازات ، وقدامه عبيد نفطية ، فتوجه الى الريدانيه فى ذلك اليوم قبل خروج الأمراء والعسكر .

وفى يوم السبت خامسه نادى السلطان للعساكر المعينة للتجريدة بأن يخرجوا صحبه الباشا فى ذلك اليوم ، ومن لا يخرج يستاهل ما يجرى عليه فوقف له جماعة من المماليك المعينة وقالوا لا نخرج ولا نسافر حتى تنفق علينا ثمن جمل ستة أشرفية ، وتصرف لنا العليق ، وثمن اللحم المنكسر . فحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب ، وخرج المجلس مانعا ، والعسكر غير راض ، والأحوال غير صالحة ، وابن عثمان زاحف الى غزة ، ونائب غزة أرسل يقول : أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ، وتتعبوا فى خلاص البلاد من يده

وفى يوم الأحد سادسه خرج شخص من الأمراء المقدمى الألوف المعينين للسفر ، وصار فى كل يوم يخرج منهم الى الوطاق جماعة شيئا فشيئا ، والباشا جان بردى مقيم بالريدانية حتى يكمل خروج العسكر .

وفى يوم الاثنين سابعه أنفق السلطان على العسكر المعين للسفر ثمن اللحم عن ثلاثة أشهر ، فخص كل مملوك نحو أربعة أشرفية ونصف توسعة عليهم ليستعينوا بذلك .

وفى ذلك اليوم حضر شخصان من المماليك السلطانية وكانا فى بعض الضياع عند العرب .

فدخلا مصر فى هيئة الغلمان بأبشات وعليهما زنوط ، فأخبرا بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره وأن عسكره مختلف عليه ، وقد وقع بينه وبين خاير بك نائب حلب ، وربما أشاعوا قتله . ولم يكن لهذا الخبر صحة فى أمر ابن عثمان ولم تثبت صحة هذه الأخبار .

وفى يوم الأربعاء تاسعه حضر دوادار خاير بك نائب حلب ، وزعم أنه قد فر من ابن عثمان ، وأخبر أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ غزة ، بل أشاعوا أخذها ، وان نائب غزة قد هرب . فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار ، وتنكد السلطان الى الغاية ، ونادى فى ذلك اليوم بالخروج من غير تأخير ، ومن تأخر يستاهل ما يجرى عليه .

فلما كان فى ذلك اليوم خرجت العسكر على وجوههم مسرعين ، وأشيع سفر السلطان بنفسه وصحبته الأمراء قاطبة ، وأنه هو الذى يلاقى ابن عثمان بنفسه وصحبته نائب حلب أمير كبير ، وهو فى الحديد ، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة ، وهم فى الحديد ، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا ابن عثمان بأن يحضر الى غزة ويملكها من غير مانع .

فلما حضروا بين يدى السلطان حلفوا له أن هذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان ، وانما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس ، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة ، فصدقهم السلطان على ذلك . وأرسل جان بردى الغزالى نائب الشام يشفع فيهم ويبرئهم مما قالوه فى حقهم بالباطل ، ففكهم السلطان من الحديد ، وأرسلهم الى نقيب الجيش حتى يتبصر فى أمرهم .

وفى يوم الخميس خلع السلطان على الأمير يوسف البدرى الذى كان وزير وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ، ووكيل بيت المال عوضا عن الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الجمعة حادى عشره تزايد أمر الاشاعات بأن ابن عثمان أرسل الى عزة عسكرا صحبه جماعة من أمرائه ، منهم شخص يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى داود باشا ، وآخرون من أمرائه . وأشيع أنهم قد ملكوا مدينة غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت . وأن نائب غزة هرب وعسكر ابن عثمان زاحف على مصر ، وأن الاحوال غير صالحة

فلما تحقق السلطان هذه الأخبار ، أشيع أنه يخرج الى لقاء ابن عثمان بنفسه . ونادى فى ذلك اليوم بأن الزعر والصبيان الشطار والمغاربة وكل من كان مختفيا على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه امان الله ، والعرض عليهم فى الميدان ، وان السلطان يصرف لهم الجوامك والمرتوب ويكونون صحبة الزردخانات اذا سافر السلطان . فلم تعجب الناس هذه المناداة لقوله ولو كانوا قتلوا القتلى يظهرون وعليهم أمان الله — وكان السكوت عن هذا أجمل — فاضطربت الأحوال فى ذلك اليوم ، وارتجت القاهرة ، وخرج العسكر المعين للسفر على وجوههم مسرعين .

وفى ذلك اليوم خرج الأمير خدا بردى الأشرفى أحد المقدمين الذى كان نائب الاسكندرية ، فخرج فى موكب حفل بعير طلب ، وقدامه الجنائب الحربية ، وصحبته الجم الكثير من العسكر من مماليكه . وقيل كان عنده ثلثمائة مملوك ... فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، والنصرة للعسكر على ابن عثمان . وقد صارت الناس فى وجل بسبب ابن عثمان .

وفى يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على

الدكة بالحوش ، وحضر الأمراء فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الأمير طقطباى حاجب الحجاب : أنا عزمت على السفر الى البحيرة ... وكان السلطان قد جعله متحدثا فى كشوفية البحيرة . فقالت الأمراء : الخروج الى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج الى البحيرة ، وأنت ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ، ولا نهب لك برك ولا قماش . فتعلل أنه ضعيف ، فحصل بينه وبين الأمراء فى ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان ، وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا فينهبوا بيته ويحرقوه ... وقيل ان بعض المماليك لكمه وقاسى من البهدلة ما لا خير فيه ، فتقرر الحال على أنه يخرج الى التجريدة صحبة الأمراء ، ومنع السلطان المماليك من نهب بيته .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة .

وفى ذلك اليوم خرج الأمير نائب حماه الذى قرر عوضا عن جان بردى الغزالى فخرج بطلب حربى .

وفى ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلبا حربيا ، وكان قدامه جنائب وطبلان وعلى رأسه صنجق ، وصارت الأمراء تخرج شيئا بعد شىء الى قتال ابن عثمان .

وفى يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذين كانوا مسافرين الى التجريدة ، فكتبهم الى السفر ثانيا ولم يترك منهم الا القليل . فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من المماليك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص ... وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك . وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب . فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال ، وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان ، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الأمراء شيئا ، وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فان بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار ، وأنا واحد منكم ، ان خرجتم خرجت معكم ، وان قعدتم قعدت معكم ، وما عندى نفقة أنفقها عليكم .

وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى وأعاده الى الترسيم بعد ما كان ترشح أمره الى اعادته فى وظائفه . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما حصل قرر عليه مالا فلم يورد منه الا القليل ، وادعى العجز . فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ، ضيق على أصحاب المصادرات ، منهم : ابن موسى ، ومحمد المهتار ، وجمال الدين بواب الدهيشة ، وآخرون ممن بقيت عليهم بواقى الأموال المنكسرة ليستعين بذلك على نفقة العسكر ... ومن حين قرر يوسف البدرى فى وظائف ابن موسى آل أمره الى العكس والزوال .

وفيه خرج الأمير قانصوه الفاجر أحد المقدمين وتوجه الى السفر .

وفى يوم الاثنين المتقدم ذكره خرج الأمير طقطباى حاجب الحجاب وتوجه الى السفر ، فطلب طلبا وقدامه طبلان وزمران وبعض جنائب ، كما خرج أرزمك الناشف .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره جلس السلطان بالميدان وعرض بقية العسكر ثم نادى فى ذلك اليوم بأن الأمراء وبقية العسكر يخرجون فى هذا اليوم ومن تأخر لا يسأل عما يجرى عليه . وقد خرج هذا العسكر فى قلب الشتاء فى وسط الأربعانية وقاسى غاية المشقة .

وفى هذا اليوم خرج الأمير تانى بك النجمى أحد الأمراء المقدمين بطلب حربى .

وفى يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير آلماس والى القاهرة وبرز الى السفر فى ذلك اليوم .

وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك عند قناطر السباع ، فوجدوه قد عمد الى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وعمل منه السنبوسك ، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير ماماى المحتسب ، فضرب العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبته ، فطافوا به فى المدينة ثم سجنوه فى المقشرة ولم تزل الأعجام تقع منهم هذه الفعلة الشنيعة من قبل .

وفى يوم الاثنين حادى عشريه وقع فيه من الحوادث ان بعض المماليك السلطانية خرجوا يسيرون نحو المطرية ، فرأوا جماعة مقبلين من نحو بركة الحاج ، فلما قربوا منهم فاذا هم من جماعة ابن عثمان ، فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو خمسة عشر انسانا ، وفيهم القاصد الكبير ، وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخملة . ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر ابن محاسن ، كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى ، فلما قتل وملك ابن عثمان حلب والشام ، تحشر فيه بواسطة يونس العادلى والسمرقندى ، فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسروا يجيئون من جهة غزه ، فان نائب الشام جان بردى الغزالى كان بالقرب من غزة يحاصر جماعة ابن عثمان الذين بغزة ، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق الدرب السلطانى وطلعوا بهم من التيه وأتوا بهم الى عجرود فما شعر بهم أهل مصر الا وهم فى وسط المدينة فلما صادفهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد الكبير وعلى جماعته وعلى محاسن ، ووجدوا معهم ثلاثة من العربان ، فقبضوا على الجميع فبينما هم على ذلك اذ رأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين فى خان الخليلى قد أتوا اليهم وسلموا عليهم ، وباسوا أيديهم ، فقبض عليهم هؤلاء المماليك وقالوا لهم : « من اين علمتم أن هذا القاصد يجىء اليوم حتى أتيتم اليه ؟ ما أنتم الا جواسيس من عند ابن عثمان » . فقبضوا عليهم بعد ما أشبعوهم ضربا ، وأتوا بالكل الى بيت الأمير علان الدوادار الكبير .

فلما دخل القاصد بيت الأمير علان ، قالوا له انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار ، فلم يوافق على ذلك ، وأغلظ عليهم فى القول . ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار .

فلما راى الدوادار الكبير ذلك ، رسم للمماليك أن ينزلوه عن فرسه غصبا ، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه ، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية ، وضربوهم ومسكوهم وعروهم من ثيابهم ، ووضعوهم فى الحديد بعد ما قاسوا غاية البهدلة من جماعة الدوادار .

فلما بلغ السلطان ذلك رسم للأمير مغلباى دوادار سكين — الذى كان أرسله السلطان الغورى الى ابن عثمان وحصل منه فى حقه غاية البهدلة — فقال

له السلطان « انزل وبهدل قاصد ابن عثمان كما بهدلوك » . فأخذ خشداشينه وتوجه بهم الى بيت الأمير علان على أنهم يوقعون فى جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهدلة ، أو يقتلونهم ، فما مكنهم الأمير علان من ذلك .

[illegible] ابن محاسن الذى حضر صحبتهم ، فلما مثل بين يدى السلطان شرع يطنب فى أوصاف ابن عثمان وفى تزايد عظمته . فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل الى حلب قطع فى يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة اهل مصر من جملتهم خليفة سيدى أحمد البدوى وآخرون من الأعيان ممن تخلفوا بحلب . وأخبر أن عسكر ابن عثمان فوق الستين ألف انسان ، وأنه خطب باسمه من بغداد الى الشام ، وأن معاملته ماشية من بغداد الى الشام ، وأنه لما دخل الى الشام وملكها شرع فى عمارة سور وأبراج من القابون الى آخر مدينة دمشق . ويجعل فى ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة ، ويقول فى همة زائدة ، ويقول ما أرجع حتى أملك مصر ، واقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة ... وأخبر أن ابن عثمان يحتجب عن عسكره أياما لا يظهر لهم ، ففى هذه المدة يقتل عسكره جماعة فى المدينة ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون [illegible] والبوزة ، ويستعملون [illegible] ، ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى صلاة الجمعة الا قليلا ... وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الاخبار الشنيعة من غير ابن محاسن ممن شاهد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام .

فلما أطنب ابن محاسن فى أخبار ابن عثمان ، حنق منه السلطان ، وقال له : « أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف أخبارنا وتطالعه بذلك » . فرسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، فسجن به أياما حتى طلع الأتابكى سودون الدواداري وشفع فيه حتى أطلقه من البرج ، وقد قطع قلب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان .

ثم ان السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التى كانت مخفية عليهم . وأشيع أنه حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا ، فاختفوا فى القاهرة . فلما بلغ السلطان ذلك نادى فى خان الخليلى « بأن لا أحد يأوى عنده غريبا من جماعة ابن عثمان ، ومن غمز عليه بأن عنده أحد من العثمانية شنق من غير معاودة » .

ثم ان السلطان أرسل أخذ المطالعات التى حضرت على يد القاصد ، ولم يقابله . فوجدوا معه عدة مطالعات للامراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية . فالذى أشيع من مطالعة السلطان أن غالب ألفاظها تركية ، وكان من مضمونها : من مقامه السعيد الى الأمير طومان باى ، أما بعد ، فان الله قد أوحى الى بأنى أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر ذو القرنين . ومن جملة المطالعة وعد ووعيد ، وتهديد وتشديد فمن جملة ذلك « أنك مملوك تباع وتشترى ، ولا تصلح لك ولاية ، وأنا ملك بن ملك الى عشرين جدا ، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة » . وذكر فى مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط . ثم ذكر فى أثناء المطالعة « وان أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة الى مصر ، ولنا من الشام الى الفرات ، وان لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل الى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل ، وأقتل الأجنة التى

فى بطونهن من الجراكسة » . وأظهـر التعاظم
وقوة البأس ، ولعل الله تعالى أن يخذله بسبب
هذا التعاظم الزائد . وفى آخر مطالعته : « وما
كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . فلما قرئت هذه
المطالعـة على السلطان بكى وحصـل له غاية
الرعب . وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنه
اذا طلع القاصد الى القلعة ، يقطعونه بالسيوف ،
فلم يطلع الى القلعة بسبب ذلك .

وفيه أشيع بين الناس ما فى مطالعة ابن عثمان
من هذه الدعاوى العريضة كما تقدم ذكره . ثم
اضطربت أحوال الديار المصرية ، وأخذ كل أحد
حذره من ابن عثمان ، وقالوا مثل ماطرقتنا قصاده
على حين غفلة ، كذلك هو يطرقنا أيضا على حين
غفلة . فشرع الناس فى تحصين أماكن فى أطراف
المدينة وجوابها ليحتفوا فيها اذا دخل ابن عثمان
الى مصر ، وبعض الناس عول على أن ينزل هو
وأولاده وعياله ويتوجه الى أعلى الصـعيد اذا
تحقق مجيء ابن عثمان .

وأشيع أن خاير بك نائب حلب ، الذى عصى
ودخل تحت طاعة ابن عثمان ، أرسل مطالعات الى
بعض الأمراء المقدمين ، وهو يرغبهم فى الدخول
تحت طاعة ابن عثمان ، وشرع يطنب فى محاسنه
وعدله بين الرعية ، وأنه اذا دخل مصر يبقى كل
أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه . وكل
هذا حيل وخداع ، حتى يتمكن من الدخول الى
مصر .

ثم ان السلطان نادى للعسكر أن أول النفقة
يوم الأربعاء ثالث عشرى الشهر ، فجلس السلطان
بالحوش على الدكة ، وطلع العسكر لقبض النفقة
فلما طلعوا أنفق عليهم لكل مملوك ثلاثون دينارا
وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا ، فرموا تلك
النفقة فى وجهه ، وقالوا ما نسافر حتى نأخذ مائة
دينار كل مملوك ، فاننا لم يبق عندنا لا خيول ولا
قماش ولا برك ولا سلاح ، فنزلوا كلهم من القلعة
على حميـة ، وهم على غير رضـا ، فحنق منهم
السـلطان وقام عن الدكة وطلع المقعد ، وقال
« ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك ، والخزائن
فارغة من المال ، وان لم ترضوا بذلك فولوا عليكم
من تختارونه فى السـلطنة ، وأنا أتوجه الى مكة
أو غيرها من البلاد » فوقع فى ذلك اليوم بعض
اضطراب ، وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان
« ان كنت تعمـل سـلطانا فامش على طريقة من
تقدمك من الملوك ، وان رحت لعنـة الله عليك ،
غيرك يجى يعمل سلطانا » . فسـمع ذلك بأذنه
منهم .

وأشيع أن السلطان قال للعسكر « أنتم أخذتم
من السلطان الغورى ثلاثين دينارا ولم تقاتلوا شيئا ،
وكسرتم السلطان وحنتموه حتى قتل » . فنزل
العسكر على غير رضا ... وأشيع اثارة فتنة بين
العسكر .

ثم انه فى ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع
الأمراء من الأكابر والأصـاغر يطلعون غدا باكر
النهار ، فان العرض عام . وانفض المجلس على
ذلك .

فلمـا كان يوم الخميس رابع عشريه ، جلس
السلطان على الدكة بالحوش ، وطلع الأمراء قاطبة
والعسكر ، وطلع سـيدى محمد ابن السـلطان
الغورى ، فقال السلطان : « هذا ابن أستاذكم قد
حضر ، اسألوه ان كان أبوه ترك فى الخزائن شيئا
من المال يخبركم بذلك ، وان كنتم تسلطنونه فانا
أول من يبوس له الأرض » . فقـالت المماليك
الجلبان : « نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بثأر

أستاذنا » . وقالت المماليك القرانصة « نحن ما نسافر حتى نأخذ مائة وثلاثين دينارا كما أعطي من سافر قبلنا » . فانفض المجلس مانعا أيضا ... وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم .

وأشيع أن بعض الأمراء قال للسلطان : اعمل كما عمل الأشرف قايتباى والسلطان الغورى ، وخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والاقطاعات لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر . فلم يوافق السلطان على ذلك ، وقال : ما أحدث فى أيامى مظلمة أبدا . فشكره الناس على ذلك ، ودعوا له . ولو فعل ذلك جاز وقالوا يعذر لأجل دفع العدو . وما ثم فى الخزائن مال ولكن وفقه الله تعالى الى فعل الخير ، وسطر أجر ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة ، فكان كما قيل فى المعنى :

للخير أهل لا تزا ل وجوهه تدعو اليه
طوبى لمن جرت الأمو ر الصالحات على يديه

وفى هذا اليوم أشيع أن السلطان أرسل يقول لأولاد الملك المؤيد . وأولاد الملك المنصور ، وأولاد الأمراء الذين بمصر ، اعملوا برفكم واخرجوا للسفر ، والذى لا يسافر منكم يقيم له بديلا عوضا عنه للسفر

وقيل وزع على جماعة من المباشرين والخدام من الطواشية مالا له صورة مساعدة السلطان على النفقة . وشرع السلطان فى بيع قماش وسلاح وتحف وذخائر وصوف وسمور وبعلبكى وغير ذلك من الأصناف ، وأخذ من ابن السلطان الغورى مالا له صورة مساعدة على النفقة

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان أرسل بعض الخاصكية الى الأتابكى قيت الرجبى لينقله من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط ، وأرسل مراسيم شريفه الى الظاهر فاتصوه السى بسر [illegible] أن يسكن فى قاعة الملك المؤيد بالاسكندرية ، وأن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس فى الجامع ، وأن يسير نحو البساتين التى بالاسكندرية .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه خرج الامير خاير بك المعمار أحد الأمراء المقدمين والأمير أزبك المكحل ، فخرجا فى ذلك اليوم الى التجريدة وطلبا أطلابا حربية .

وفى يوم السبت سادس عشريه طلع العسكر بسبب العرض ، ولم يطلع فى ذلك اليوم أحد من الأمراء المقدمين ، واحتجب السلطان فى الدهيشة ولم يخرج الى العسكر ، فنزلوا الى بيوتهم من غير طائل .

وفى هذا اليوم ، نادى السلطان بأن لا أحد من الناس يتجاهر بالمعاصى ، ولا يهودى ولا نصرانى يبيع خمرا ، ومن شهر عليه بيع الخمر شنق من غير معاودة ، وكذلك البوزة والحشيش . فلم يسمع له أحد ذلك ولم ينتهوا عما هم فيه .

* * *

وفى ذى الحجه ، كان مستهل الشهر يوم الخميس ، طلع القضاة الذين تولوا جديدا فى الشهر الماضى ، وهنوا السلطان بالشهر ونزلوا الى بيوتهم .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم السبت ثالث الشهر ، وقد اتفق مع العسكر على أنه ينفق لكل مملوك خمسين دينارا ، ويصرف ثمن اللحم المنكسر خمسة أشهر ، والعليق المنكسر ، فتراضوا .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية نحو عشر أنفس ، منهم شخص يقال

... خير بك الجمدار ، وهو من خيار مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه أشيع أن السلطان خرج عن ألف دينار فرقها على الفقراء الذين فى الزوايا وفى المزارات التى بالقرافة وغيرها من المزارات ، وفرق عليهم أيضا قمحا لكل زاوية خمسة أرادب . وقال لهم ادعوا بالنصر للسلطان وهلاك العدو . وقرأ عدة ختمات فى المزارات ، منهـا عنـد الامام الشافعى والامام الليث وغير ذلك من المزارات .

وفيه استحث السلطان أولاد السلاطين وأولاد الأمراء والمباشرين والخدام فيما قرره عليهم من المال بسبب النفقة ، وأشـيع أنه أخـذ من ابن السلطان الغورى مالا له صـورة . وقيـل ان السـلطان الغـورى كان قد خصص ولده قبل أن يسافر الى البلاد الشامية بمائة ألف دينـار ... هكذا أشيع .

وفى يوم السبت ثالثه طلع العسكر الى القلعة ليقبضوا النفقة كما نادى ، فورد على السلطان فى ذلك اليوم أخبـار ردية بأن العسـكر الذين توجهوا الى غزة قـد انكسروا فى يوم الأحد رابع عشرى ذى القعدة .

ومن العجائب أن الواقعـة الأولى التى انكسر فيها السلطان الغورى كانت فى يوم الأحد خامس عشرى رجب ، فكان التفاوت بينها وبين هـذه الواقعة يوما واحدا ، وهذا من العجائب . وهذه الكسرة الثانية كانت يوم الأحد .

وكان من ملخص أخبار هذه الكسرة ، أن جان بردى الغزالى — نائب الشـام — خـرج الى التجريدة قبل العسكر بمدة أيام ، وصار الأمراء والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد فلما أبطأوا على الغزالى جمع بعض عربان وتقدم الى غزة هو والأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين الذى ولى نيابة حماه ، ودولات باى نائب غزة ، وأصله من مماليك السلطان الغورى ، وجماعة من المماليك السلطانية ، فقاطعوا على عسكر ابن عثمان من طريق الدرب السلطانى ، فتلاقوا مع عسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان .

وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا ومعه آخرون من أمرائه ومن العسـاكر العثمانية الجم الكثير ، وكان جان بردى الغزالى ومن معـه من الأمراء فى فئة قليلة من العسكر ، فوقع بين الفريقين هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وكان ذلك بالقرب من بيسان ، فانكسر الأمير جان بردى الغزالى ومن معه من العساكر والأمراء ، وقتـل الأمير خدابردى أحد الأمراء المقدمين ، وقتل الأمير على باى السيفى ، وأزدمر الدوادار أحد الأمراء الطبلخانات ، وأشيع موت جماعة من الأمراء ولكن لم أقف على صحة من قتـل من الأعيان فى هـذه المعركة .

وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالى قد جرح والأمير أرزمك الناشف أيضا . وقتل من المماليك السلطانية جمـاعة ، ومن الغلمان ما لا يحصى عددهم ، وقد حزت رءوسهم بالسيوف . وقيل ان هذا الخبر ورد من عند الأمير طقطباى حاجب الحجاب ، وكان من حين خرج الى السفر وهو مقيم بالصالحية ، فورد عليه بعض المماليك السلطانية وأخبره بذلك ، فطالع السلطان بمـا قد جرى من أمر هذه الحركة المهولة .

وأشيع أن عسـكر ابن عثمان قد احتوى على برك الغزالى وأرزمك الناشف لما وقعت الكسرة ، فلم يتركوا لهمـا بركا ولا خيولا ولا جمـالا ولا سلاحا . وقد تقوى العثمانية ثانيا بهذه الكسرة

الثانية ، ولم ينج من عسكر مصر فى هذه المعركة الا من طال عمره .

وقيل ان مماليك الغورى هم الذين أحسوا بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه الكسرة الثانية ، ولما تزايدت الأقوال فى ذلك عين الأمير سنبل مقدم المماليك بأن يتوجه الى الصالحية ليكشف الأخبار ، فخرج من يومه وسافر .

وفى يوم الأحد رابعه وقعت حادثة مهولة وهى أن السلطان نزل الى الميدان ، واجتمع الأمراء والعسكر فلم يشعروا الا وقد قامت ضجة كبيرة فى الرميلة ، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى الريدانية ، فقال السلطان للعسكر : « كم قلنا لكم اخرجوا للتجريدة ما ترضون تسافرون . فاخرجوا ولاقوا ابن عثمان » . فلبس العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة ، ورجت القاهرة رجا مهولا ، ووزع الناس قماشهم فى الأماكن المخفية .

فلما اضطربت الأحوال ركب العسكر وتوجهوا الى الريدانية ، فلم يروا هناك أحدا من العثمانية ، فرجع العسكر الى بيوتهم بعد ما ارتجت القاهرة ، وعول الناس على أن يحنقوا فى فساقى الموتى ، ثم أسفرت هذه الواقعة عن جماعة من العربان نزلوا من الجبل وأتوا الى الريدانية فأشاع الذى رآهم من بعد أنهم من العثمانية ، فانتشرت هذه الأخبار فى القاهرة من غير سبب

وفى هذا اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب حلب ، وسلم القلعة الى ابن عثمان من غير قتال ولا محاصرة . فتغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه فى البرج بالقلعة ، فأقام به مدة ثم أفرج عنه فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين خامسه دخل الأمراء والعسكر الذين توجهوا الى غزة وانكسروا من عسكر ابن عثمان ، فدخل جان بردى الغزالى وأرزمك الناشف وبعض أمراء عشراوات ، ودخل العسكر وهم فى أنحس حال مما جرى عليهم من النهب والقتل ، أنحس من المرة الأولى ... فدخل بعض المماليك السلطانية وهم راكبون على حمير ، وبعضهم على جمال ، وقد نهب قماشهم وخيولهم وسلاحهم ، ولم يسلم من القتل الا من كان فى أجله مدة . وذكروا عن ابن عثمان أن مع عسكره رماحا بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض . وذكر جان بردى أنهم رموه على الأرض ولولا غلمانه قاتلوا عنه العثمانية لكانوا حزوا رأسه مثل الأمير خدابردى الذى قتل .

وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر ، لا يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر ، وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط .

وحضر الأمير دولات باى نائب غزة الذى كان بها . وحضر أيضا الأمير بخشباى الذى كان مشد الشون ، أخو الأمير كرتباى الذى كان والى القاهرة ، وكان أشيع موته فى الواقعة التى وقعت فى مرج دابق ، فظهر أنه فى قيد الحياة ، وكان مختفيا عند العرب ، فحضر فى ذلك اليوم ، وحضر أيضا شخص من الأمراء العشراوات يقال له قرقماس الرجبى ، وكان أشيع موته فى الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، فظهر أنه فى قيد الحياة ، وحضر أيضا جماعة كثيرة كان أشيع موتهم ، فظهر أنهم فى قيد الحياة .

فلما طلع الأمير جان بردى الغزالى والأمير أرزمك الناشف الى القلعة ألبسهما السلطان كلاريات بسمور ونزلا الى منزلهما . وقد فرح

كل واحد من الناس بسلامتهما لأنهما فرسان الاسلام ، فدقت لهما البشائر على أبواب دورهما .

فلما حضر الغزالى ومن معه من الأمراء والعسكر ، ظهر أمر من قتل من الأمراء العشراوات والعسكر والغلمان ، فصار فى كل حارة نعى مثل أيام الفصول .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الثلاثاء سادسه ، فلما طلع النهار بادر العسكر بالطلوع الى القلعة فابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العسكر ، فأعطى لكل مملوك خمسة وعشرين دينارا ، وأعطاهم ثمن الأضحية على العادة ، وكان أولا سألهم بأن يعطيهم ثلاثين دينارا كل مملوك فأبوا ذلك .

فلما رأوا عين الجد وأن ابن عثمان زاحف على البلاد ، وقد وصل الى قطيا ، رضوا بخمسة وعشرين دينارا نفقة ، ونزلوا من القلعة وأخذوا فى أسباب آلة السفر .

وفيه ورد على السلطان أخبار ردية بأن سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذى ملك مدينة غزة قد لعب فى أهل غزة بالسيف ، وقتل منهم نحو ألف انسان ما بين نساء ورجال وصغار . وكان سبب ذلك أن الغزالى لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع فى غزة أن الغزالى قد انتصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل سنان باشا ، وعسكر ابن عثمان . فبادر على باى دوادار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانية وأحرقوا خيامهم ، وقتلوا من كان فى الوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ، ومن كان بها مريضا ، وأحرقوا الخيام التى كانت فى وطاقهم .

فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر ، وقتل من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا الى غزة ، فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : « من فعل ذلك بنا ! » ، قالوا : « على باى دوادار نائب غزة وأجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئا من ذلك » . فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم . فقال لهم سنان باشا : « نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ » قالوا لا ، فقال لهم : « كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ؟ » فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ... فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا .

وقد قيل فى المعنى :

ان ترمك الأقدار فى أزمة
أوجبها أجرامك السالفه
فادع الى ربك فى كشفها
ليس لها من دونه كاشفه

وفى يوم الأربعاء سابعه حضر الى الأبواب الشريفة جماعة من طوائف العربان من غزالة ومحارب ، ومن عربان هوارة . وكان السلطان ألزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن هو أشجعهم ، حتى يتوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر . فلما حضروا نزلوا بالجيزة ، واجتمع بها الجم الكثير من العربان ، ثم دخلوا الى الرميلة ونزلوا بها حتى يعرضهم السلطان بالميدان . وقد انحط أمر الترك عند العرب والفلاحين بسبب هذه الكسرات التى وقعت للعسكر ، وتملك ابن عثمان البلاد الشامية ، وثبت عند الناس أن دولة الجراكسة قد آلت الى الانقراض ، وأن ابن عثمان هو الذى يملك البلاد

وصار جماعة من الفلاحين اذا أتاهم قاصد من باب أستاذهم يقولون ما نقدر نعطي خراجا حتى يتبين لنا أن البلاد لكم أو لابن عثمان ، فنبقى نورد الخراج مرتين . وقد اضطربت الأحوال برا وبحرا والأمر الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع بين الناس أن السلطان وسم بتغريق القاصد الذى حضر من عند ابن عثمان ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فأشيع أنهم أغرقوه ومن معه من العثمانية تحت الليل ... هكذا أشيع .

وفيه ابتدأ السلطان بتفرقه الأضحية على العسكر ولم يعط المماليك الذين كانوا صحبة الغزالى وانكسروا ، فقال لهم السلطان : أنتم هربتم ولم تقاتلوا شيئا ، وخنتم الأمراء حتى انكسروا .

وفيه أشيع بين الناس أن أوائل عسكر ابن عثمان قد وصل الى قطيا ، وقد تملكوا القلعة التى بالطينة ، وهرب من كان بها من أولاد الناس القاطنين بها . وقيل لم يثبت أمر هذه الاشاعة

وفى يوم السبت عاشره كان عيد النحر فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش والقماش على جارى العادة وكان موكب العيد حافلا ، لكن كان الناس فى غاية الوجل والخوف من ابن عثمان . وقد بلغ الناس أن أوائل عسكره وصل الى قطيا ، ولا سيما ما بلغ الناس مما فعله عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب وسبى النساء وقتل الأطفال ، كما أشيع ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان الزردخاناه الشريفة التى يخرجها صحبة العسكر ، فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة ، فكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانية ربة ، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق الرصاص ... فنزل السلطان من المقعد وركب وفى يده عصا ، وصار يرتب العجلات فى مشيها بالميدان ، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة طارقة ، ومحملة أيضا بارودا ورصاصا وحديدا ورماح خشب ، وغير ذلك . وقدام العجلات أربعة طبول وأربعة زمور . وقدامها من الرماة نحو مائتى انسان ما بين تركمان ومغاربة ، وبأيديهم صناجق بعلبكى أبيض وكندكى أحمر ، وهم يقولون الله ينصر السلطان . وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم يرمون بالنفط قدام العجلات .

وركب قدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير ، ويوسف الزردكاش الثانى ، وجماعة من الزردكاشية ، وعبد الباسط ناظر الزردخاناه ، والشهابى أحمد بن الطولونى ، وقدامهم الجم الكثير من النجارين والحدادين الذين تعينوا للسفر مع التجريدة ... فخرجوا من باب الميدان الى الرميلة ونزلوا من جهة القبور ، وشقوا من البسطين ، ودخلوا من باب زويلة ، وشقوا من القاهرة فرجت بهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا . وارتفعت الأصوات له بالدعاء بالنصر على ابن عثمان الباغى ، وتباكى الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى من السلطان فيما صنعه . واستمروا شاقين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الريدانية عند تربة العادل التى هناك .

وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم من شدة الازدحام ، فلما وصلت العجلات الى تربة العادل صفوهم هناك الى أن تخرج الأمراء . فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ، أشيع أن بعض

الناس شفع فى المماليك الذين حضروا من غزة ، ولم يصرف لهم السلطان الأضحية ، فصرفها لهم فى ذلك اليوم بعد ما ويحهم بالكلام ، وقال لهم كيف هربتم حتى كسرتم الأمراء ولم تقاتلوا وبقى وجهكم أسود بين الناس ؟

وفى يوم الأربعاء رابع عشره ، حضر الى الأبواب الشريفة الناصرى محمد بن شمس الدين القوصونى رئيس الطب ، وكان فى حلب آسيرا عند ابن عثمان ، فهرب من هناك مع العربان ، وغرم لهم مالا له صورة حتى أتوا به الى مصر فطلع وقابل السلطان فى ذلك اليوم ، وقد غير هيئته وحلق ذقنه وتزيا بزى العرب ، حتى نخلص من جماعة ابن عثمان ، وأخبر السلطان أنه قد بلغه عن ابن عثمان أن عسكره مختلف عليه ، وأنه مات له من الجمال والخيول ما لا يحصى عدده من الثلج الذى وقع بالشام ، وأن الغلاء هناك ، وأن عسكره قد قلق من البرد والثلج وموت الخيول .

وأشيع فى ذلك اليوم أن عسكر ابن عثمان كان فى غزة ورحل عنها ، وقد صارت العربان تقتل منهم جماعة كثيرة ممن يجدونه فى الضياع ، فيقتلونهم ويهربون فى الجبال .

وفى يوم الخميس خامس عشره طلع العسكر لقبض الجامكية ، فقال لهم الطواشية : « يا أغوات ما فى هذا اليوم جامكية ، البلاد خراب ، والعرب مشتتة فى الطرقات ، والمدركون ومشايخ العربان ما أرسلوا من التقاسيط التى عليهم شيئا ، فان حصل شىء على يوم الاثنين ينفق لكم » .. فنزل العسكر من القلعة وهم فى غاية النكد ، فان لهم ستة أشهر لم يصرف لهم السلطان من اللحم المنكسر شيئا ، وقد تعطلت الجوامك أيضا .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على قانصوه رجلة ، أحد الامراء المقدمين الذى كان نائب قطيا ، وقرره كاشف الشرقيه عوضا عن قجماس الذى كان بها ، فانه كان عاجزا عن اصلاح أحوال الشرقية . وخلع على آلماس كاشف الغربية بأن يستمر على عادته فى كشف الغربية . وخلع على الأمير آبرك الوزير والاستادار باستمراره على عادته . وكان أشيع عزله . وقد صارت أحوال الديار المصرية فى هذه الأيام فى غاية الاضطراب من وجوه شتى

وفى يوم الجمعه صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع على الأتابكى سودون الدواداری ، وقرره باش العسكر على التجريدة .

وفيه حضر الأمير طقطباى حاجب الحجاب وكان قد توجه صحبة التجريدة المعينة الى غزة ، فأظهر أنه مريض ، وأقام بالصالحية فلما انكسر جان بردى الغزالى ورجع الى مصر ، أقام بقية الأمراء فى الصالحية الى أن تخرج التجريدة التى تعينت ثانيا ، فلما حضر الأمير طقطباى دون الأمراء الذين هناك عز ذلك على الأمراء والعسكر ، ونسبوه الى العجز ، وصار ممقوتا عند العسكر قاطبة .

وفيه أشيع أن السلطان رسم لطوائف العربان الذين حضروا بأن يرجعوا الى بلادهم . وقد أشار بعض الأمراء على السلطان أن العربان ليس لهم فائدة فى خروجهم مع التجريدة ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم .

وفى يوم الأحد ثامن عشره ورد على السلطان أخبار ردية بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه هو وعساكره ، وهو قاصد مصر ، وقد أشيع أنه قسم عسكره فرقتين ، فرقة تجىء من الدرب السلطانى ، وفرقة تجىء من التيه .

وفى أثناء هذا الشهر خلع السلطان على الأمير

اينـال خازندار الأمير طـرابای ، أحـد الأمراء العشراوات ، وقرره فى نيابة دمياط عوضا عمن كان بها ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر المتقدم أرسـل أحضر الأمراء وضربوا مشورة فى ذلك . وأشيع أن السلطان يخرج الى الريدانية ويقيم بها ، ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتوجه الى ناحيـة عجرود ، والفرقة الثانية تتوجه الى المكان الذى جاء منه القاصد الذى تقدم ذكره . وكان الأمراء عـولوا على خروج التجريدة من أول السنة الجديدة ، فلما وردت عليهم هـذه الأخبار اضطربت أحوالهم ، ورسم لهم السلطان أن يبرزوا خيامهم فى الريدانية بسرعة ، ويكونوا على يقظة ، فان ابن عثمان قد وصـل الى غزة ... وقيل انه توجـه يزور بيت المقدس ، ثم يمشى بعساكره الى مصر ، وقد كثر القال والقيل فى ذلك ، واضطربت أحوال الناس قاطبة ، الى أين يذهبون حتى تنقضى هذه الفتنة .

وفى ذلك اليوم رسم السـلطان لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ، ويقول لهم برزوا خيامكم بالريدانية فى هذا اليوم . فخرجت خيام جماعة من الأمراء فى ذلك اليوم الى الريدانية .

وفى هذا اليوم نادى السلطان بأن جميع المغاربة الذين فى مصر والقاهرة يحضرون غدا للعرض .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره ، جلس السلطان على الدكة فى الحوش ، وطلع الجم الكثـير من المغاربة . فلما طلعوا الى القلعه لم يجتمـع عليهم السلطان ، وأرسل اليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم . « السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة » فأرسلوا يقولون للسلطان : « نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ، ونحن ما نقاتل الا الافرنج ، وما نقاتل مسلمين » وأظهروا التعصب لابن عثمان .

فلما عاد الجواب على السلطان بما قاله المغاربة ، عز على السلطان ذلك ، وأرسل يقول لهم : « ان لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمـان والا فالمماليك الجلبان يقتلون كل مغربى فى مصر حتى لا يخلوا فيها مغربيا يلوح » . فنزلوا من القلعـة على غير رضا من السلطان .

وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل كتابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر ، يقول له فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمـان ، ولاقينـا من الصـالحية ، وصحبتك ألف أردب شعير »

وأشيع أن عبد الدائم أحمد بن بقر الذى كان عاصيا توجـه الى ابن عثمان لغزة ، والاشاعات فى أخبار ابن عثمان كثيرة .

وفى يوم الاثنين المقـدم ذكره نادى السلطان للعسكر قاطبة من كبير وصغير بأن يعرضوا غدا فى الريدانية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح .

ثم ان السلطان نزل الى الميدان ، وصلى صلاة العصر وركب من هنـاك وتوجه الى الريدانية ، وبات بها فى الوطاق . وهذا أول نزوله من حـين ولى السلطنة .

وفى يوم الثـلاثاء عشريه لبس العسـكر آلة السـلاح وخرجوا للعـرض بالريدانيـه بحضرة السلطان .

وفى ذلك اليـوم صـارت الأمـراء المقدمون يخرجون الى الريدانية ، وهم الأمراء الذين تعينوا للتجريدة وصـاروا يخرجون شـيئا بعـد شىء وهم بأطلاب حربيـة ، ومماليكهـم لابسـه آلة الحرب ، وهم على جرائد الخيل .

ثم خرج الأتابكى سودون الدواداری ، وجان بردى الغزالى نائب الشام ، وأركماس امير سلاح ،

وبخشباى أمير مجلس ، وأنص باى أمير آخور كبير ، وتمر رأس نوبه النوب ، وعلان الدوادار الكبير ، وطقطباى حاجب الحجاب ، وقيسل بل أعفى من السفر بسبب ضعفه ؛ ولكن الأصح سفره .

وخرجت بقية الأمراء المقدمى الالوف قاطبة ، والأمراء الطبلخانات ، والعشراوات قاطبة ، وعساكر مصر ، ولم يبق بها من الأمراء والعسكر الا القليل . وهذه التجريدة أكثر عسكرا من التجريدة التى خرجت مع السلطان الغورى .

وكان هذا السلطان له عزم شديد فى عمل هذه العجلات وسباك المكاحل ، وعمل البندق الرصاص ؛ وجمع من الرماة ما لا يحصى ، وكانت له همة عالية ومقصد جميل ؛ ولعل الله تعالى أن ينصره على ابن عثمان . وكان ابن عثمان باغيا على عسكر مصر ، وقد عاداهم وتعدى عليهم بغير سبب ، والباغى له مصرع .

وفيه أشيع أن السلطان رسم بأن الأفيال الكبار تخرج صحبة العسكر اذا تقاتلوا مع ابن عثمان بعد ثلاثة أيام .

وفى ذلك اليوم لما خرج العسكر ركب السلطان من الوطاق ، وتوجه الى المصطبة التى بالريدانية ، التى تسمى المطعم ، فجلس بها واجتمع الجم الكثير ، وهم لا يسون آلة السلاح ، وقد سدوا الفضاء واجتمع هنالك السواد الأعظم من العوام حتى النساء ، وقد أطلقوا الزغاريت هنالك ، وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان بالنصر ، وكان يوم مشهود .

فلما نظر السلطان الى العسكر لم يعرضهم باستدعاء هناك ، بل نادى بأن جميع العسكر المنصور من كبير وصغير لا يتأخر منهم أحد ، وأن العرض فى الصالحية ، وأن السلطان لا يتوجه الى الصالحية حتى يخرج العسكر قدامه من هناك ثم يعود الى القلعة وكان ذلك عين الصواب .

وفى يوم الاربعاء حادى عشريه استمر السلطان مقيما بالريدانية وخرج فى ذلك اليوم بقية العسكر وقد ترادف الخروج من غير عذر ولا حجة والسلطان يستحثهم فى سرعة الخروج .

ولما نزل السلطان من القلعة أخذ صحبته قاسم بك ، وهو الصبى الذى من أولاد ابن عثمان ، وقد تقدم ذكره . فجعل له السلطان بركا وسنجقا على انفراده ، ورسم له بأن يسافر صحبة العسكر ، ويقف وقت الحرب تحت الصنجق السلطانى .

وأشيع أن سليم شاه فى قلبه الواجس من هذا الصبى . وقيل ان غالب عسكره مائل الى هذا الصبى ، ويقولون اذا انكسر سليم شاه مالنا الا ابن أستاذنا هذا سلطنه عوضا عن سليم شاه .

وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس ، أرسل الى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق الرصاص . وأرسل اليه عدة مراكب فيها بارود ، فدخلت تلك المراكب الى ثغر دمياط ، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وهذه عونة من صاحب رودس الى سلطان مصر ، حتى يستعين بذلك على قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر . فلم يظهر لاشاعة هذه العونة خبر ولا نتيجة ، وانما هى اشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها .

ولما خرج السلطان الى الريدانية أشيع أنه يتوجه من هناك الى الصالحية ليلاقى عسكر ابن عثمان ؛ فمنعه الأمراء من التوجه الى الصالحية ، وقالوا ما تقع بيننا وبينه قتال الا فى الريدانية .

ثم ان التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من الدكاكين التى فى الأسواق ، ويدخلونها فى الأماكن المنسية ، حتى تسلم ، وما سلم منها شىء .

وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا القاهرة وسكنوا بها ، ونقل أعيان الناس قماشهم الى الترب ، والى المدارس والزوايا والمزارات ، والى بيوت العوام التى فى الرباع ، لعله يسلم وما سلم منه شىء ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى آخر هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أسنبغا الطيارى رأس نوبة النوب كان . وكان الشهابى أحمد من أعيان أولاد الناس الرؤساء ، وكان حشما رئيسا لا بأس به ، ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة ، وكان من المعمرين فى الأرض .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزة ، وأن أوائل عسكره قد وصل الى العريش . وأشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان الجبل الأحمر والى آخر غيطان المطرية ، ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة بالمدافع ، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك .

ثم ان السلطان رسم للأمير ماماى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوقة وأرباب البضائع من الزياتين والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى الوطاق عند تربة العادل ، وينشئوا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك .

ثم ان السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذين تأخروا بأن يخرجوا الى الريدانية ولا يتأخر منهم أحد . فنادت المشاعلية فى الحارات والأزقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم الى الوطاق ، وكل من تأخر منهم شنق على باب منزله من غير معاودة . وجعل يكرر المناداة فى ذلك اليوم مرتين ، فانه قد بلغ السلطان أن جماعة من المماليك السلطانية صاروا يتوجهون الى الوطاق فى باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ، ثم يرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ، فشق ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يبيتوا فى الوطاق كل ليلة .

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله الى قطيا ، فاضطربت أحوال الناس لذلك .

وفى يوم السبت رابع عشريه عرض السلطان العسكر الذين بالوطاق ، فاجتمع منهم الجم الكثير فوعدهم السلطان أنهم اذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب ، وانتصروا عليهم ، ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفيات ، وينعم على كل واحد منهم بسيفه وترس . ورسم للأمير أنسباى أمير آخور بأن تصلح بين زعر الصليبية وزعر المدينة .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها المكاحل التى نصبها بالريدانية ، وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين . فلما رأى العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه ، صار المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق ، وعمل الحائط التى تستر المكاحل .

ثم وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى بلبيس .

وفى يوم الأحد خامس عشريه ، حضر الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، اذا كانوا قد وصلوا الى هناك ، أى الى القرب من الصالحية . فلما وصل الأمير قانصوه الصالحية ، رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد

وصلوا الى هناك ، فقبض على شخصين منهم وحز رأسيهما وأحضرهما بين يدى السلطان . وكان صحبة تلك الرءوس شخص من أبناء حلب من جماعة خايربك نائب حلب الذى خامر على السلطان الغورى والتف على ابن عثمان . فلما وقف بين يدى السلطان طومان باى أخبره أن الواصل اليك خايربك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وان هذا الجاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، وأن الغلاء موجود فى عسكره . ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبى عدة مطالعات من خاير بك نائب حلب الى الأمراء المقدمين الذين بمصر ، فأخذ السلطان المطالعات التى كانت معه ، ووضع ذلك الرجل الحلبى فى الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد من العساكر العثمانية شوش على أحد من أهل بلبيس ، ولا الفلاحين قاطبة .

ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى العكرشة ، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقيهم من هناك ، فلم تمكنه الأمراء من ذلك ... ولو لاقاهم من هناك كان عين الصواب ، فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع والتعب ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب ، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الى الخانكاه ، ويجدوا العليق والمأكل والمشرب والراحة من التعب ... فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول الى الخانكاه .

ثم رسم السلطان للعسكر بأن يبيتوا تلك الليلة قدام الوطاق ، وهم على ظهور خيولهم لابسين آلة الحرب ، ولا ينساموا الا بالنوبة خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية . وقد اشتد الرعب فى قلوب الجراكسة من عسكر ابن عثمان .

فلما قرب عسكر ابن عثمان من الخانكاه خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقماشهم ... ودخلوا الى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان ، وكذلك غالب فلاحى الشرقية وأهل بلبيس ، قد دخلوا الى القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية .

ثم ان العربان من السوالمة صاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العثمانية ، ويقطعون رءوسهم ويحضرونها بين يدى السلطان ، فيرسم السلطان بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة .

ثم ان السلطان عرض العسكر بالريدانية وهم لابسون آلة الحرب حتى عرض الأمراء المقدمين والعشراوات ... وحضر الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزمور ، وكان لهم يوم مشهود بالريدانية .

ثم ان السلطان سار الى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر قاطبة فسير بهم ، ثم رجع الى الوطاق وقدامه الطبول والزمور والنفوط ، فامتدت العساكر من الجبل الأحمر الى غيطان المطرية حتى سدت الفضاء .

وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان الى بلبيس ، رسم بحرق المسود التى فى بلبيس وما حولها ، حتى المسود التى فى الخانكاه ، فأحرقوا أشياء كثيرة من التبن والدريس وغير ذلك من القمح والشعير والفول ، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا ينهبوها بسبب خيولهم ، فيقوى بذلك العسكر على القتال .

وفى هذه المدة صارت العربان تقطع رءوس العثمانية الذين يظفرون بهم فى الطرقات ، فيرسل السلطان يعلق تلك الرءوس على أبواب المدينة .

ومن الحوادث فى هذه السنة انه اشيع أن السلطان كان جالسا فى الخيمة واذا بشخص من التركمان قد دخل عليه وهو لابس زنطا أحمر وفى وسطه محمق وتركاش ، وقد ضرب على وجهه لثاما ، وكان السلطان فى نفر قليل من الخاصكية . فلما هجم ذلك الشخص على السلطان وقرب منه دفعه بعض الطواشية الذين كانوا واقفين بين يدى السلطان ، فلما مس صدر ذلك الشخص وجد فى صدره ثديين طويلين فكشف اللثام عن وجهه ، فاذا ذلك الشخص امرأة من نساء التراكمة ، فتوهم السلطان انها تقصد قتله ، فقال أخرجوها من قدامى . فلما خرجت من بين يديه وجدوها لابسة زردية من تحت ثيابها وهى متحملة بخنجر كبير من تحت ثيابها ، فلما عاينها المماليك الجلبان على تلك الحالة ضربوها بالسيوف ، وقد تحققوا أنها هجمت على السلطان تريد قتله لامحالة . فلما قتلوها رسم السلطان بأن يعلقوها على باب النصر ، فأتوا بها وهى عريانة وصاروا يسحبونها من الريدانية الى باب النصر ، حتى علقوها هنالك على مكان تجاه باب النصر ، واستمرت معلقة هنالك يومين عريانة وعورتها مكشوفة بين الناس ، ثم دفنت .

ثم ان السلطان أرسل مع دوادار الوالى رأسين مقطوعين ، فزعموا أن أحدهما رأس ابراهيم السمرقندى ، والآخر رأس أمير من أمراء ابن عثمان ، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة . وقد تحيل بعض العربان على ابراهيم السمرقندى وأضافه وبات عنده ، وكان السمرقندى أتى صحبة ابن عثمان . فلما بات تلك الليلة عند البدوى حز رأسه تحت الليل ، فلما طلع النهار أحضرها بين يدى السلطان طومان باى وقال له : « الذى يأتيك برأس ابراهيم السمرقندى ايش تعطيه ؟ » فقال له السلطان : « أعطيه ألف دينار » . فأخرج رأس السمرقندى من تحت برنسه وقال له : « هذا رأس ابراهيم السمرقندى » ، فلما تحقق السلطان ذلك دفع لذلك البدوى ألف دينار . وكان ابراهيم السمرقندى أصله من المدينة الشريفة ، وطاف من بلاد العجم الى بلاد الروم ، وكان يعرف اللغة التركية ... فلما دخل الى مصر تحشر فى السلطان الغورى وصار من جملة أخصائه ، فلما جرى للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن عثمان وصار من أخصائه . وقيل هو الذى حسن لابن عثمان أن يدخل مصر ويملكها ويقطع جادرة الجراكسة من مصر ، وأطمعه فى ذلك حتى دخل مصر ... وكان السمرقندى من الظلمة الكبار ، ولو عاش الى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل لأهلها منه خير قط . وكان يرافع فى أعيان مصر أشد المرافعة ، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة وكفاهم شره .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرى ذى الحجة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل الحاج ، فاضطربت أحوال عسكر مصر ، وأغلقوا باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب الشعرية ، وباب البحر ، وباب القنطرة ، وغير ذلك من أبواب المدينة . وغلقت الأسواق التى بالقاهرة ، وتعطلت الطواحين ، وتشحط الدقيق والخبز من الأسواق .

ثم ان السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان الى بركة الحاج ، زعق النفير بالوطاق ، فركب العسكر قاطبة وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وركب قاسم بك بن

عثمان ، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقاً ، واجتمع من العساكر من أرباب الوطاق ومن المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ، ودقت الطبول والزمور حربيا ، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه ، وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم ، وصف العسكر من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، فاجتمع هناك الجم الكثير من العسكر ، وكان السلطان طومان باى له همة عالية ، ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض ما فعله السلطان طومان باى ، لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ، ولم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ، ولم يبرز كل منهما الى غريمه . فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رءوس من العثمانية ، وأرسلوا علقوها على أبواب المدينة .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذلك الا أن السلطان طومان باى لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق ، حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك طوارق ، وصنع عليها تساتير من خشب ، وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك . ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف حمل جمل وعليها زكائب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق بيض وحمر تخفق فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، أو أن الحصار يبقى مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج ، أقام بها يومين ، فلم يجسر السلطان طومان باى أن يتوجه اليهم . ولو توجه وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب .

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ، ونادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان ، فركب الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا ، وركب العسكر قاطبة حتى سدوا الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر ، وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق . فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا ابن عثمان ، وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان الى تربة الأمير يشبك الدوادار

ثم ان العثمانية تحايوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية . وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرة ، فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر ما لا يعلمه الا الله تعالى . وقتل من الأمراء المقدمين جماعة كثيرة منهم أزبك المكحل ، وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذه فاختفى فى غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار ، فلم تكن الا ساعة سيرة مقدار خمس عشرة درجة ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة . فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة ، وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك

السلحدارية فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى . فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ، ورأى العسكر قد ذهب من حوله ، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه ، فطوى الصنجق السلطاني وولى واختفى ، قيل انه توجه نحو طرا وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر .

وأما الفرقة العثمانيه التى توجهت من تحت الجبل الأحمر ، فانها نزلت على الوطاق السلطاني ، وعلى وطاق الأمراء والعسكر ، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبغال وغير ذلك ، ثم نهبوا المكاحل التى كان نصبها السلطان هناك . ونهبوا الطوارق والتساتير الخشب والعربات التى تعب عليها السلطان وصرف عليها جملة من المال ، ولم يفده من ذلك شىء . ونهبوا البارود الذى كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، فكان ذلك مما جرت به المقادير ، والحكم لله العلى الكبير .

ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا القاهرة بالسيف عنوة ، وتوجه جماعة منهم الى المقشرة ، وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس ، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية ، فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان فى الديلم والرحبة والقاعة أجمعين .

ثم توجهوا الى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين ، فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس ، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية ، فانطلق فى أهل مصر جمرة نار .

ثم دخل جماعة من العثمانية الى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والاكاديش وأخذوا عدة جمال من جمال السقائين ، وصارت العثمانية فنهب ما يلوح لهم من القماش ، وغير ذلك . وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود ، واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم الى ما بعد المغرب ، ثم توجهوا الى شون القمح التى بمصر وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال حق المسلمين . وهذه الحادثة التى وقعت لم تكن لأحد على بال ، وكان ذلك مما جرت به الأقدار فى الأزل .

وقتل فى هذه المعركة ابن سوار بالريدانية ، ودفن على جده سوار فى تربته التى تجاه يشبك الدوادار ، وقتل سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر . وفى ذلك يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نبكى على مصر وسكانها
قد خربت أركانها العامره
وأصبحت بالذل مقهورة
من بعد ما كانت هى القاهرة

وفى يوم الاثنين — سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة — دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله القاهرة ، وصحبته وزراء ابن عثمان والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ودخل ملك الأمراء خاير بك ، ودخل قاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، وكل هؤلاء كانوا فى أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى .

فلما دخل الخليفة من باب النصر ، شق القاهرة وقدامه المشاعليه تنادى للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وأن لا أحد من العسكر العثمانى يشوش على أحد من الرعية . وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل ، وان كل من كان عنده مملوك چركسى ولا يغمز عليه وظهر عنده يشنق من غير معاودة ، والدعاء للملك المظفر

سليم شاه بالنصر . فضج له الناس بالدعاء ، ولكن لم يلتفت أحد من العثمانيه لهده المناداة ، وصاروا يهجمون بيوت أولاد الناس ، حتى بيوت الربوع فى حجه أنهم يفتشون على المماليك الجراكسه فاستمر النهب والهجم عمالا فى بيوت الأمراء والعسكر وأهل البلد ثلاثة أيام متواليه لا يتردون خيلا ولا بغالا ولا قماشا ولا قليلا ولا كثيرا ، وما أبقوا فى دلك ممكنا .

ودخل فى دلك اليوم يونس العادلى ، وخشقدم الذى كان متسد الشون بمصر ، وكان قد هرب من المحورى الى البلاد العثمانية ، وهو الذى كان سببا لهده الفتنه العظيمة .

وفى يوم الجمعه خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء فى خطبته فقال : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا مبينا يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين » .

وقد قلت فى دلك :

حم العام بحرب وكدر
وجرى للناس غايات الضرر
وأتاهم حادث من ربهم
كل هدا بقضاء وقدر

سنة ثلاث وعشرين وتسعمايه (١٥١٧ م) :

كان مستهل المحرم يوم السبت ، وفيه أرسل السلطان سليم شاه جماعة من الانكشارية وأوقفهم على ابواب المدينه يمنعون النهابه من نهب البيوت ، ولما انكسر عسكر مصر حول السلطان سليم شاه وطاقه من بركة الحاج ونصبه فى الريدانية ، وشرعت العثمانيه تقبض على المماليك الجراكسة من الترب وسواقى الموتى ، ومن غيطان المطريه ، فلما أحضروهم بين يدى السلطان أمر بضرب أعناقهم

ثم ان بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكى سودون الدواداري ، وأحضره بين يدى السلطان سليم شاه . فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام فوجده قد جرح وكسر فخذه وهو فى حالة الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقه ، بل أركبه على حمار وألبسه عمامه زرقاء وجرسه فى وطاقه ، وقصد أن يشهره فى القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار ، وقيل حز رأسه بعد الموت وعلقوها فى الوطاق .

وصار العثمانية يكبسون الترب ، ويقبضون على المماليك الجراكسة منها ، وكل تربة وجد فيها مملوك چركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التى وجدوه فيها من الحجازيين ، وعلقوا رءوسهم فى وطاق ، فضرب فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأسا من سكان الصحراء . وقيل كان فيهم ينابعة وأشراف ، فراحوا ظلما لا ذنب لهم ، وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ، ويقبضون على المماليك الچراكسة من اصطبلاتهم باليد ، ويتوجهون بهم الى الوطاق بالريدانيه ، فيضربون أعناقهم هناك . فلما كثرت رءوس القتلى بالريدانية نصبوا صوارى وعليها حبال وعلقوا عليها رءوس من قتل من المماليك الچراكسة وغيرهم ، حتى قيل قتل فى هذه الواقعة بالريدانية فوق أربعمائة انسان ، ما بين چراكسة وغلمان ، وعربان من الشرقية والغربية . وصارت الجثث مرمية من سبيل علان الى تربة الأشرف قايتباى ، فجافت منهم

الأرض وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة المملوك ، وهم ابدان بلا رءوس وأما من قتل من عسكر ابن عثمان فى هده الواقعة فلا يحصى عددهم

ثم ان ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى . فلما حضر ألبسه قفطانا من مخمل أخضر مذهب ، وألبسه عمامه عثمانيه ، وأعطاه ورقه بالأمان له على نفسه ، ورسم له بأن سكن فى مدرسه أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين . وأسكن الدفتردار فى بيته الذى فى البندقانيين ، وهو احد وزراء السلطان سليم شاه .

ثم توجه اليه الأمير يوسف البدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا مخملا وأقره متحدثا على جهات العربيه . وخلع على الأمير فارس السيفى تمراز وأقره كاشف المنية ، وغير دلك من الجهات القبليه وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وجعله متحدثا فى الحسبة على أن يقرر بها من يختاره

وفى يوم الأحد ثانى المحرم أشيع أن السلطان سليم شاه نقل وطاقه من الريدانيه ونصبه فى بولاق من تحت الرصيف الى آخر الجزيره الوسطى ، وقد أحضروا اليه مفاتيح قلعه الجبل فلم يلتفت الى دلك ، واختار الاقامه على شاطىء بحر النيل فلما كثرت العثمانيه بالقاهره صاروا يدورون فى الحارات والأزقه والأسواق . وكل من رأوه من أولاد الناس لابسا زنطا أحمر وتخفيفه يقولون له أنت جركسى ، فيقطعون رأسه فلبس أولاد الناس كلهم عمائم حتى أولاد الامراء والسلاطين قاطبـة ، وأبطلوا لبس التخافيف والزنوط من مصر .

وفى يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ، ودخل الى القاهره من باب النصر وشق المدينة فى موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة العدد ، والعساكر التراكمة ما بين مشاة وركاب ، حتى ضاقت بهم الشوارع . واستمر سائرا من المدينـة حتى دخل من باب زويلة ، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاق ، ونزل بالوطاق الذى نصبه تحت الرصيف .

فلما شق من المدينة ، ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبـة . وقيل ان صفته درى اللون ، حليق الذقن ، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة وكان عنده خفه ورهج ، كثير التلفت اذا ركب الفرس . وقيل انه كان له من العمـر حين ذاك نحو أربعين سنه أو دون ذلك ، وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوك السالفـة . وكان سيىء الخلق ، سفاكا للدماء شديد الغضب ، لا يراجع فى القول .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر ، وكان ينادى كل يوم فى القاهره بالأمان والاطمئنان ، والنهب عمـال من جماعتـه ، ولا يستمعون لمناداته . وحصل للناس منه الضرر الشامل .

ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسـه بين أخصائه وهو بالشام : اذا دخلت الى مصر أحرق بيوتها قاطبـة ، وألعب فى أهلها بالسيف . فقيـل تلطف به الخليفة حتى رجع عن دلك ، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه ، ولكن الله سلم والله غالب على أمره .

ولما زاد ضرر العثمانية فى القاهرة صارت أعيان الناس والمباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانيه يحفظون بيوتهـم من النهب ، وصارت العثمانية يمسـكون أولاد الناس من الطرقات ، ويقولون لهـم أنتم جراكسـة فيشهدون الناس

عندهم أنهم ما هم چراكسة . فيقولون لهم اشتروا أنفسكم من القتل ، فيأخذون منهم بحسب ما يختارونه من المبلغ . وصار أهل مصر تحت أسرهم ، ثم صار الزعر وعياق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر . فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء جليل ، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط في بلادهم ، ولم يروها قبل ذلك ، ولا أستاذهم الكبير .

ومن هنا نرجع الى ترجمة سليم شاه ابن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من أخباره بحسب ما يتيسر لي من ذلك ، على ما مشت عليه طريقة التاريخ من مبتداه الى هذه الواقعة .

سليم شاه بن أبي يزيد

هو الملك المظفر سليم شاه ، بن السلطان أبي يزيد ، بن السلطان محمد بن السلطان مراد خان ابن أبي يزيد المعروف بيلدرم بن أرخان بن أردن بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير ، الشهيد بالغزاة بعد أن عاش تسعا وستين سنة .

وسليم شاه هذا هو الشهير بابن عثمان ، من خلاصة ملوك الروم ، وهو الثامن والاربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من ملوك الروم بمصر . فان أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم ، والثاني الظاهر تمربغا ، والثالث سليم خان ابن عثمان .

ملك القاهرة عنوة بقائم سيفه ، وقد حصل له سعد عظيم لم يحصل لآبائه ولا لأجداده من قبله . وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ، فتصدى الى قتال شاه اسماعيل الصفوي سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فانكسر منه الصفوي ، وقتل غالب عسكره ، واحتوى على أمواله وسلاحه من غير مانع ، وملك غالب بلاده التي بالعراقين .

ثم تصدى الى قتال الملك الأشرف قانصوه الغوري ، وتلاقى معه على مرج دابق في رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فلم يحمل معه غير مدة يسيرة وانكسر ، ومات قهرا في وسط الحرب .

وملك سليم شاه مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة . فلما ملك قلعة حلب أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أعور وفي يده دبوس خشب ، وهو ماش على أقدامه ، فتسلم الأموال والسلاح التي كانت بها ، حتى قيل كان بها من الأموال السلطانية للغوري مائة ألف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار ، خارجا عن السلاح والكنابيش الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق والخلع التي بالطراز الذهب اليلبغاوي ، وغير ذلك من التحف الفاخرة . فاحتوى على ذلك جميعه خارجا عن برك السلطان والأمراء وأولادهم ، وبرك العساكر وخيولهم وبغالهم وجمالهم ، وخيامهم فاحتوى على ذلك جميعه .

ثم توجه الى الشام فملكها بالأمان ، ثم نزل اليه اغات الشام بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام ، وملك قلعتها واحتوى على ما فيها من الأموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها .

ثم خرج من الشام وقصد التوجه نحو الديار المصرية ، فتسلم طرابلس وصفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد من تلك الجهات ... تسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع ، ولم يتفق ذلك لأحد من الملوك قبله .

ثم توجه الى القاهرة فتلاقى مع الأشرف طومان باى على الريدانية فوقع بينهما قتال هين ، فلم يكن الا عشرون درجة وانكسر الأشرف طومان باى وولى مهزوما ، وقتل من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائم سيفه .

ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه فاتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية عنوة بقائم سيفه ، لم تفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ، ولم يقع مثل ذلك الا لبختنصر فى قديم الزمان .

ومن هنا نرجع الى أخبار ابن عثمان ، فانه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم .

فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان الا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق بما معه من العسكر ، واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان الى الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة . وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، وأوقع فيهم السيف تحت الليل ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجم الكثير من الزعر وعياق بولاق من النواتيه وغيرهم ، وصاروا يرجمون فى الوطاق بالمقاليع وفيها الحجارة . واستمروا على ذلك الى أن طلع النهار ، فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فأسعفهم .

وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر ، هناك واقعة تشيب منها النواصى ، فسلكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر ، والى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى ما بعد المغرب .

ثم أشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية .

ثم ان المماليك الچراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية ، كما كانت العثمانية تكبس البيوت على الچراكسة ، ومثل ما تعمل شاة الحمى فى القرظ ، يعمل القرظ فى جلدها ، فصاروا يدورون فى الحارات ، وكل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ، ويحضرونها بين يدى السلطان طومان باى ، وصار الطالب مطلوبا ، ولكن لم يتم لهم ذلك .

فلما كان يوم الخميس سادس المحرم ، اشتد القتال بين الفريقين ، ونادى السلطان طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن « كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ، ويقطع رأسه ، ويحضرها بين يدى السلطان » .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة الفيل . وملكوها منهم ، ثم ان الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ، ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى بالناصرية ، وقبضوا على من بها من المماليك الچراكسة ، وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام ، وفيهم صغار وشيوخ لا ذنب لهم .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من الناصرية الى قناطر السباع ، ثم ان السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو بالعمرى الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر . ثم رسم بحفر خندق فى رأس

الصليبة ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند رأس الرملة . وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر .

ثم ان السلطان طومان باى رسم بحرق خان الخليلى ، فمنعه بعض الأمراء من ذلك ، وأشيع أنه قسم العسكر الى أربع فرق . فرقة الى جهة قناطر السباع ، وفرقه الى جهة الرملة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهه باب زويلة . فلم يقاتل من المماليك الجراكسة الا القليل ، وصاروا يختفون فى الاصطبلات والزوايا خوفا من القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية فما بقى يخرج منها .

ثم ان طائفه من العثمانية توجهوا من جهة مصر العتيقه ، وطلعوا من جهة باب القرافه ، وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا الى ضريحها ، وداسوا على قبرها ، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كانت عند قبرها ، وبسط الزاوية ، وأخذوا من مقامها شيئا كثيرا ، وقتلوا أيضا فى مقامها مماليك جراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا اجتمعوا بها حين هربوا من المعركة .

ثم أن السلطان قصد أن يهدم قناطر السباع ، فهدم من عقدها بعض شىء ثم ان الأتراك سجنوا جماعة من العثمانية ، فهربوا وطلعوا الى مآذن الجوامع . فطلعوا مئذنة المؤيد ، وصاروا يرمون الناس بالبندق والرصاص ، ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلع لهم الأتراك وقتلوهم فى المئذنه شر قتلة .

ثم صارت القتلى من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع ، والى الرميلة والى تحت القلعة ، وفى الحارات والأزقة ، وهم أبدان بلا رءوس .

هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب يعرون الناس ، ويأخذون أثوابهم ، ويقتلونهم ويقتلون كل من يلوح لهم من العثمانية ، وغيرهم ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على الناس فى القاهرة ، ونهبوا أسواقها ودورها .

ثم ان السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من أمسك احدا من العثمانية ، وطلب منه الأمان لا يقتله ويأتى به حيا .

ومن العجائب فى هذه الواقعة ، أن السلطان طومان باى لما ظهر فى هذه المرة بعد انهزامه فى الريدانية ، خطب باسمه فى القاهرة ، وكان فى الجمعة الماضية خطب باسم سليم شاه بن عثمان فكان كما يقال فى المعنى :

لا تيأسن من فرج ولطف
وقوة تظهر بعد ضعفه

فاستمر السلطان طومان باى يرتفع امره مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى من يوم الأربعاء الى طلوع شمس يوم السبت ثامن المحرم ، فتكاسل العسكر عن القتال ، واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء عنه كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان طومان باى يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء ، كالأمير شاد بك الأعور ، وآخرين من الأمراء العشراوات . فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله كما قيل فى المعنى :

قليل الحظ ليس له دواء
ولو كان المسيح له طبيب

وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا .

ولما هرب السلطان طومان باى وقعت فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، وهو أنه لما هرب السلطان طومان باى صبيحة يوم السبت ثامن المحرم . طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، فاحترق سقف الايوان الكبير والقبة التى كانت به ... فعلوا ذلك لكونه كان به وقت الحرب لما تقدم ، وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز ثم هجموا على الشرف يحيى بن العداس خطيب الجامع ، واحضروه بين يدى سليم شاه ابن عثمان ، فهم بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ، ركب وأتى الى ابن عثمان ، وشفع فى ابن العداس ، وخلصه من القتل ، ولولا أنه كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال ، وقاسى شدة من الضرب .

ثم ان العثمانية طفشت فى جميع الحارات والأماكن ، وحطوا عندهم فى العبيد والغلمان والعوام من الزعر وغيرهم ، ولعبوا فيهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وربما عوقب من لا ذنب له فصارت جثثهم مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرملة ، ومن الرملة الى الصليبة الى قناطر السباع ، الى الناصرية الى مصر العتيقة فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة من بولاق الى الجزيرة الوسطى الى الصليبة فوق العشرة آلاف انسان ، فى مدة هذه الأربعة الأيام ، ولولا لطف الله تعالى لفنى أهل مصر قاطبة بالسيف .

ثم ان العثمانية صارت تكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات ، فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه ، وكذلك الجوامع الكبار ، والمدارس والزوايا . فهجموا على الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وغيرها ، وقتلوا من وجدوه من المماليك الجراكسة فيها . فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، ومماليك سلطانية . فضربوا رقابهم أجمعين بين يدى السلطان سليم .

وقيل ان المشاعلى الذى كان هنالك افرنجى ، وقيل يهودى من الروم . وكان اذا ضرب عنق أحد من الجراكسة يعزلها وحدها ، ويعزل رءوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الحبال على الصوارى ويعلق عليها تلك الرءوس فى الوطاق الذى بالجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا حز رأس المماليك يرمى جثثهم فى البحر .

وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير قانصوه رجله أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا وهى مرمية قدام سبيل السلطان ، والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فانه كان رجلا جسيما .

وقتل فى هذه الواقعة الأمير يخشباى الذى كان قرره السلطان طومان باى أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية وغير ذلك ، وصارت الجثث مرمية فى الرملة الى سوق الخيل ، ثم الى الحمصيين ، وقد تناهشت الكلاب أجسادهم .

ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط . الا ما كان فى زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعسكره وخربها وهدم بيت المقدس . ثم دخل مصر وخربها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف انسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ، ليس بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من

يزرع عليه الأراضى ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة وهى قبل ظهور عيسى ابن مريم عليه السلام .

ثم وقع مثل ذلك فى بغداد فى فتنة هولاكو ، وهو المعروف بتتار ، لما زحف على بغداد وخربها وأحرق بيوتها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، واستمرت من بعد ذلك خرابا الى الآن ، فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك ، وما زالت الأيام تبدى العجائب .

فلما هرب السلطان طومان باى وقتل من قتل من الأمراء والعسكر ، رجع السلطان سليم شاه الى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ، ونصب فى وطاقه صنجقين أحدهما أبيض والآخر أحمر ، وذلك اشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدينة . هكذا عادتهم فى بلادهم اذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف عنوة .

وفى هذا الشهر توفى الشيخ شهاب الدين القسطلانى ، وكان علامة فى الحديث ، وله شهرة طائلة بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفى تلك الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والنهى بالديار المصرية . وصارت أولاد السلاطين جالسه فى دهليز بيته لا يعبأ بهم ، مثل المقر العلائى على بن المؤيد أحمد ، وابن الظاهر خشقدم ، وأولاد الملك المنصور عثمان ، وغير ذلك من أولاد الأمراء ، وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين ؛ وجماعة من الأمراء مثل قانى بك رأس نوبة ثانى ، وسنبل مقدم المماليك ، وغير ذلك من الأمراء ، فى دهاليز بيته لم يلتفت اليهم ، وصار رنكه مضروبا على غالب البيوت . وكانت مراسلته ماشية فى المدينة لا ترد ، وشفاعته كافية فى كل أمر اشتد . وصار هو فى مقام سلطان مصر فى نفوذ الكلمة ، وظهور العظمة فى تلك الأيام . ودخل عليه من الناس أموال وتقادم عظيمة لم تصل لآبائه ولا أجداده ، وصارت الستات والخوندات مرمية فى دهاليز بيته لا يلتفت اليهن ، وصارت خوند ابنة الأمير أقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة فى بيته ، وقد قرر عليها السلطان سليم شاه مالا جزيلا توررده الى الديوان . فلا زال الخليفة يتلطف بالسلطان سليم شاه حتى حط عنها جانبا من المال الذى قرره عليها . وحصل له من الستات والخوندات خدم جزيلة . فطاش الخليفة فى تلك الأيام الى الغاية ، وظن أن هذا الحال بنم له ، وما علم أن القبان بآخره . كما قيل فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث أن أولاد الزنكلونى الدين جرى لهم مع السلطان الغورى ما جرى ، ومات أبوهم تحت الضرب . وابن نور الدين المشالى الذى شنقه الغورى — كما تقدم ذكره — لما تغيرت الدول ودخل ابن عثمان الى القاهرة ، ونادى من كانت له ظلامة يرفع أمره الى السلطان سليم ، ثار أولاد الزنكلونى وابن نور الدين المشالى على القاضى شمس الدين وحيش ، وقالوا له أنت كنت سببا لشنق نور الدين المشالى ، وضرب الزنكلونى . وقصدوا أن يمضوا به الى ابن عثمان ليقطع رأسه ، فترامى على الخليفة فى عمل المصلحة بينه وبين أولاد الزنكلونى وابن المشالى ، فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وحيش يدفع الى أولاد الزنكلونى ثلثمائة دينار ، ولابن المشالى مائتى دينار ، فأبوا من ذلك ، واستمرت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وحيش الى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، نادى لسلطان سليم شاه بعد العصر فى القاهره بأن لأمراء المقدمين والأمراء الأربعينيات والأمراء العشراوات الذين اختفوا بعد الواقعة نظهرون وعليهم أمان الله تعالى .

وقيل ان السلطان سليم شاه كتب للامراء عهدا وأمانا فى ورقة طويلة وعلقها المنادى على جريدة ، ونادى أيضا بأن الأمراء المختفين يظهرون ويتوجهون الى مدرسة السلطان الغورى وعليهم الأمان . فظهر الأمير أركماس أمير سلاح ، والأمير أنص باى أمير آخور كبير ، والأمير تمر الحسنى رأس نوبة النوب ، والأمير طقطباى حاجب الحجاب ، والأمير تانى بك الخازندار أحد المقدمين ، والأمير تانى بك النجمى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين .

ومن الأمراء الطبلخانات الأمير مصرباى الأقرع ، والأمير قانى بك رأس نوبة ثانى ، والأمير يشبك الفقيه دوادار السلطان طومان باى ، وكان مختفيا فى الجامع الأزهر فطلع بالأمان .

وظهر من الأمراء العشراوات نحو أربعين أميرا وأكثر من ذلك وآخرون من الخاصكية .

فلما ظهروا واجتمعوا فى المدرسة الغوريه احتاط بهم جماعة من العثمانية ، ثم مضوا بهم الى الوطاق وأرادوا أن يخونوهم . فلما قابلوا السلطان سليم وبخهم بالكلام وبصق على وجههم ، وذكر لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ، ثم رسم لهم بأن يطلعوا الى القلعة ، ويقيموا بها محتفظا بهم فطلعوا الى القلعة .

وفيه أشيع أن جان بردى الغزالى أرسل يطلب الأمان من السلطان سليم شاه . وقد وصل الى الخانقاه وصحبته جماعه من المماليك الجراكسه الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل له السلطان سليم شاه أمانا .

وفيه أشيع ان السلطان طومان باى لما هرب من الواقعة التى كانت بالصليبية ظهر بعد ذلك أنه توجه الى البهنسا وأقام بها ، فلما ضجر من الذى قاساه من الحروب والشرور ، أرسل القاضى عبد السلام قاضى البهنسا ليطلب له الخليفة الأمان من السلطان سليم شاه .

وفيه أشيع أن العثمانية هجموا على مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من البسط والقناديل فى حجة المماليك الجراكسة ، وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه .

وفى يوم الثلاثاء ، ثامن عشر المحرم ، دخل جان بردى الغزالى القاهرة وعلى رأسه منشور فيه أمان من السلطان سليم شاه ، فتوجه اليه وهو فى الوطاق وقابله هناك . وكان الغزالى لما انكسر السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أنه هرب الى عكة ، وقيل الى غزه ، ومعه جماعة من المماليك الجراكسة . وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى الباطن من أيام الغورى . وكان سببا لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب حلب ، وانهزما قبل العسكر ، وأشاعا الكسرة على عسكر مصر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم ، أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة ، وكانوا نحو أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان . فلما ظهروا قبض عليهم وغدر بهم ، وكان من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر بهم فى الحال ، فكان لا يثق أحد منه بالأمان .

وفيه قرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه فى الولايات على بعض البلاد ، منهم نائب غزة ، ومنهم كاشف المحلة والشرقية والغربية ، فولى عدة كشاف فى أماكن مختلفة من البلاد .

وفى يوم الخميس عشرى المحرم ، نادى السلطان سليم شاه فى الصليبية وقناطر السباع بأن أصحاب الأملاك الذين فى الصليبية وجامع ابن طولون يخلون بيوتهم ، فان السلطان سليم شاه طالع الى القلعة ليقيم بها ، وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك ، فأخلى الناس بيوتهم .

فلما طلع الى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وكيف الأمان وقد حرجت الناس من بيوتهم على وجوههم فى أسوأ الأحوال ، وانطلقت فى قلوبهم جمرة نار ، وهجمت الطوائف العثمانية على الناس فى بيوتهم ، وأخرجوهم منها وسكنوا بها ، حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم ، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، من الصليبية الى جامع قوصون الى قناطر السباع الى داخل باب زويلة ، وما خلا منهم موضع فى المدينة . وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الحوخ حتى لا تدخل فيها الخيول ، ولم يفد ذلك شيئا ، وهدموا ما بنوه وسكنوا بها .

ثم ان السلطان سليم شاه طلع الى القلعة فى موكب حافل رجت له القاهرة ، وكان معه المماليك الذين طلعوا بالأمان ، وقيدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى .

وفى أوائل هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، كان عالما فاضلا فى مذهبه ، بارعا فى العلوم ، ورعا زاهدا ... ولى قضاء الشافعية فى أيام السلطان الغورى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، ثم قرره الغورى فى مشيخة مدرسته ، وقاسى فى أواخر عمره شدائد ومحنا من السلطان الغورى وأقام مدة طويلة وهو عليل ، حتى مات ، وعاش من العمر فوق الثمانين سنة . ولما أن مرض ثارت الحروب والفتن وتكاثرت الأهوال على الناس بمصر ، فمات ولم يشعر بموته أحد من الناس ، رحمة الله عليه .

وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكف بصره قبل موته بمدة طويلة ، وكان أنشأ له تاريخا لضبط الوقائع ، وكان علامة فى كل فن ، رحمة الله عليه .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم ، خلع السلطان على الشرفى يونس الاستادار قفطانا من المحمل بالذهب ، وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية ، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من اقطاعات المماليك الچراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف . فأخذ فوائم من أولاد الجيعان بمعنى ذلك . ونزل الى الشرقية ، فما أبقى من أبواب المظالم شيئا حتى فعله بالشرقية . وقرر فخر الدين ابن عوض وبركات آخا شرف الدين الصغير متحدثين فى جهات الغربيه . وقرر الزينى بركات بن موسى متحدثا على جهات المحلة . وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الاصطبل متحدثين فى الجهات القبلية ، فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الاقطاعات والرزق .

وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير

التى بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم ، فحصل لهم غاية الضرر بسبب ذلك .

وفى آخر هذا الشهر تشحطت الغلال وارتفع الخبز من الأسواق ، وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا القاهرة نهبوا المغل الذى فى الشون ، وأطعموه لخيولهم ، حتى لم يبق فى الشون شىء من الغلال . ونهبوا القمح الذى كان بالطواحين ، واضطربت أحوال الناس قاطبة

ثم ان الأخبار ترادفت بأن طومان باى ظهر أنه فى الصعيد ، عند أولاد عمر ، ومنع المراكب من الدخول الى مصر بالغلال . فبموجب ذلك وقعت التشحيطة بمصر .

وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ، ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما ، ولم يفصل بين ظالم ومظلوم ، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق . وكان هذا على غير القياس . فانه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم ، قبل أن يدخل سليم شاه الى مصر ، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجه ، ولا مشى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة ، ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه و لاعسكره ... بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأستاذ .

ولما أقام ابن عثمان بالقلعه ، ربطت العسكر الخيول فى الحوش الى باب القلعة عند الايوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة ، وصار روث الخيل هناك كأنه كيمان التراب على الأرض ، حتى سد الطريق .

وخرب ابن عثمان غالب الأماكن التى بالقلعة وفك رخامها ونزل به فى المراكب يتوجهون به الى القسطنطينية .

ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرميلة من باب القرافة الى سوق الخيل ، ثم ان العثمانية نصبوا خيمة فى وسط الرميلة وجعلوا فيها دنان بوزه ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد لأجل المحارفة كعاداتهم فى بلادهم .

وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته ، والتف عليه جماعة كثيرة من العربان ، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الكثير

وأشيع أنه وصل اليه من ثغر الاسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك الأشرف طومان باى ، وصار على رأس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى الواقعة التى كانت بالصليبية ، فخشوا من مثل ذلك .

* * *

وفى صفر وكان مستهله يوم الأحد ، فى يوم الثلاثاء ثالثه حضر العلائى على ناظر الخواص ، وكان قد توجه الى ثغر الأسكندرية ، فلما حضر أحضر صحبته جماعة من المماليك الجراكسة كانوا هناك ، فأحضرهم فى زناجير . ثم أشيع بعد ذلك أن ناظر الخواص كان قد توجه الى ... [1] ويقول لهم سبحان الله ان كنتم نسيتونا فنحن ما نسيناكم .
وأرسل يعتب عليهم ويتحرش بهم .

ثم بعد أيام أشيع أن طومان باى أرسل يقول لابن عثمان : « ان كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك ، وأكون أنا نائبا عنك بمصر ،

(١) بياض بالأصل .

وأحمل اليك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله اليك فى كل سنة ، فارحل عن مصر أنت وعسكرك الى الصالحيه ، وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل فى خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وان كنت ما ترضى بذلك اخرج ولاقنى فى بر الجيزة ، ويعطى الله النصر لمن يشاء منا » .

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة السلطان طومان باى ، أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة ، وأحضر جماعة من وزرائه ، وكتب بحضرتهم صورة حلف الى السلطان طومان باى ، وكتب ابن عثمان خطه عليها ، ووقع الاتفاق فى القلعة على أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون الى السلطان طومان باى بذلك الحلف على أيديهم .

ثم ان ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة خلعا سنية وقال لهم : « انزلوا فى هذا الوقت واعملوا برقكم حتى تتوجهوا الى طومان باى نحو الصعيد » . فنزلوا من القلعة على ذلك .

ثم ان الخليفة امتنع من التوجه الى السلطان طومان باى ، وقال أنا أرسل دواداری برد بك الى طومان باى صحبة القضاة الأربعة . وأشيع أن المطالعة التى أرسلها طومان باى الى ابن عثمان ذكر فى ذيلها : « ولا تحسب أنى أرسلت أسالك فى أمر الصلح عن عجز ، فان معى ثلاثين أميرا ما بين مقدمى ألف وأربعينيات وعشراوات ، ومعى من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا ، وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين » .

ثم فى عقب ذلك توجهت القضاة الأربعة ، وبردبك داوادار الخليفة ، الى السلطان طومان باى نحو الصعيد .

وفى هذه الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان فى بر الجيزة . فكثر القيل والقال ، ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك .

ثم أشيع أن الأمير علان بن قراجا الدوادار الكبير قد توفى بالصعيد ودفن فى بعض الضياع هناك وصلى عليه السلطان طومان باى والأمراء الذين كانوا هناك . وكان الأمير علان جرح فى الواقعة التى كانت بالريدانية ، واستمر عليلا من ذلك الوقت حتى مات هناك ، وكان من فحول الأمراء وأشجعهم والله غالب على أمره .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية ، وصاروا يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم ، ونهبوا بلاد عبد الدائم بن أبى الشوارب وأحرقوها ، ونهبوا عدة بلاد من الشرقية ، منها قليوب وقلقشنده ، وغير ذلك من البلاد ، ووصلوا الى شبرى ، وصاروا يعدون من شبرى الى قنطرة الحاجب . فلما تزايد الأمر أرسل اليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى ، وجعل عليهم جان بردى الغزالى باشا ، فخرجوا من القاهرة على حسية وتوجهوا الى الشرقية فأقاموا بها أياما ، فذهبت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبال فرجع العسكر ولم يلاقوهم .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من الصعيد بأن القضاة الأربعة وبردبك دوادار الخليفة ، وقاصد ابن عثمان مصلح الدين الذى كان أرسله معهم ،

وجماعة من العثمانيين ، وصلوا الى قريب البهنسا ، فحرج عليهم جماعه من الجراكسة فقتلوا العثمانيه ، وهرب بردبك دوادار الخليفة حتى نجا من القتل ، ونهب جميع ما معه من القماش ، وغيره . وأشيع قتل قاضي البهنسا عبد السلام ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل الا بعد جهد كبير .

فلما بلغ ابن عثمان ذلك اغتاظ غيظا شديدا وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم ان ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش .

وفى يوم السبت حادى عشرى صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعه ومعه الجم الكثير من العساكر ببركة الحبش ، ونوجه المباشرون صحبته ، حتى القاضى كاتب السر ، وأخذ السقائين بجمالهم ، فضج الناس من العطش لأن السلطان ابن عثمان طلب جميع السقائين بجمالهم ورواياهم ليسافروا معه الى الصعيد بسبب السلطان طومان باى ، وان كان يهرب منه الى بلاد الزنج ويتبعه ، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف .

وفى يوم السبت ثامن عشرى صفر أشيع أن أوائل عسكر السلطان طومان باى قد وصل الى ترسه بالقرب من الجيزة ، فرسم ابن عثمان بعمل وحسات على شاطىء البحر بجهة طرا لأجل تعديه العسكر ، وكذلك فى بر مصر العتيقة . وفى هذه الأيام امتنع جلب البضائع التى كانت تدخل الى القاهرة من الجبن والسمن والأغنام وغير ذلك من البضائع التى كانت تجلب من الجيزة ونواحيها ، وقليوب وشبرى وغير ذلك من البلاد ، واضطربت أحوال القاهرة جدا بسبب اقامة هذه الفتنة .

* * *

وفى ربيع الأول ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، أشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج من بلاد الشرقية ، كبس على عدة بلاد منها حين وصل الى التل والزنكلون ، فنهب مافيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج ، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات ، وصاروا يبيعونهم فى القاهرة بأبخس الأثمان ، كما فعل أقبردى الدوادار فى الأحامدة وأولادهم . فاشترى بعض الناس بنتا بأربع أشرفيات وأعتقها ووهبها الى أمها ، وقد رق عليها .

ثم ان جان بردى الغزالى فعل فى الشرقية ما لم يفعله بختنصر لما دخل الى مصر . ثم ان يونس باشا نادى فى القاهرة أن كل من اشترى شيئا من نهب بلاد الشرقية من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه ، وكذلك أولاد الفلاحين . ولام الغزالى على فعله ذلك فى الشرقية لوما عنيفا . وقد قيل فى المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
يبع الهوان ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا بالقلعة فى الترسيم يحضرون بين يديه فى الوطاق الذى فى بركة الحبش ، فنزلوا بهم من القلعة : شىء على بغال ، وشىء على حمير ، وشىء مشاة . وهم فى جنازير وعليهم كبوره عتق ، وعلى رءوسهم كوافى بغير شاشات . وقيل كان فيهم من الأمراء المقدمين سبعة ، وهم : أركماس أمير سلاح ، وأنص باى أمير آخور ، وتمر رأس نوبة النوب ، وطقطباى حاجب الحجاب ، وتانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وتانى بك النجمى أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخانات فهم قانى بك رأس نوبة ثانى ، ومصرباى الأفرع ، والماس والى القاهره ، وماماى النسعير المحتسب ، ويوسف الأشرفى الزردكاش الثانى . وآخرون من الأمراء الطبلخانات لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأما الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة لم تحضرنى أسماؤهم . فكان مجموع هؤلاء الأمراء المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك . فلما مثلوا بين يدى السلطان سليم شاه ، وبخهم بالكلام ، ثم امر بضرب أعناقهم أجمعين فضرب أعناقهم فى الوطاق الذى ببركة الحبش ، وذلك فى يوم السبت خامس ربيع الأول . وصارت أجسادهم مرمية على الأرض تنهشهم الكلاب بالنهار ، والضباع والذئاب بالليل وصارت المرأة من نساء الأمراء المقدمين تبرطل المشاعلية بمال له صورة حتى يسكنوها من نقل جثة زوجها فتحضر له تابونا وحمالين يحملونه من بركة الحبش الى المدينة ، فتغسله وتكفنه وتدفنه فى تربته ان كان له تربة . وتركت جثث البقية هناك مرمية تنهشها الكلاب .

وكانت هذه الكائنة من أعظم الكوائن فى حق الأمراء . وقد ظهروا بالأمان لابن عثمان ، ثم غدرهم وقتلهم ، فكان لا يثق أحد له بالأمان ، وليس له قول ولا فعل .

وقيل كان سبب قتل هؤلاء الأمراء أن السلطان طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان وجماعه من عسكره الذين توجهوا صحبه القضاة الأربعة ، لما طلب طومان باى الأمان من ابن عثمان ، فلما فعل ذلك طومان باى علم ابن عثمان أنه قد أبى من الصلح ، فقتل هؤلاء الأمراء ظلما بعد أن أعطاهم الأمان وكان ذلك من شدة غيظه وحنقه وقد قلت فى هذه الواقعة :

جل الذى أفنى عساكر مصرنا
من دولة أتراكها من جركس
وأتت الينا دولة عوجاء من
أولاد عثمان ذوى الفعل المسى
قتلوا أكابرنا بأيسر حيلة
عملت عليهم لا بأسهام القسى
ياليت شعرى دولة الأتراك هل
تأتى كما كانت ونذكر مانسى ؟!

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل هؤلاء الأمراء أرسل فقبض على نسائهم ورسم عليهن ، وأرسلهن الى بيت ناظر الخاص وأشيع أنه بقصد مصادرتهن ، وقرر عليهن مالا يوردنه . فأقمن فى بيت ناظر الخاص أياما ، ولم يوردن من المال شيئا ، فنقلوهن الى بيت الدفتردار فقصد أن يعاقبهن ، وقيل سجن منهن جماعه فى الحجرة حتى يوردن ماقرر عليهن من المال . ورسم على مباشرى الأمراء الذين قتلوا حتى يعملوا حساب اقطاعاتهم فأقاموا فى الترسيم مدة .

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان سليم الى بر الجيزه بسبب قتال الأشرف طومان باى . وقد بلغه أنه وصل الى المنوات ، ومعه من العربان والعسكر ومن المماليك الجراكسه الجم الكثير .

فلما عدى الى بر الجيزة أقام بها الى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول ، فتلاقى عسكر ابن عثمان وعسكر السلطان طومان باى على وردان ، وقيل على المنوات ، فكان بين الفريقين واقعة لم يسمع بمثلها ، أعظم من الواقعة التى كانت بالريدانية . وقيل كانت هذه الواقعة عند كوم الحمام وانكسر عسكر ابن عثمان فوق ما مرة ، وطردتهم الأتراك

الجراكسة حتى ألقوا أنفسهم فى البحر ، وكانت الكسرة عليهم أولا ، وقتـل منهم جماعه كثيرة .

ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانيه على الأتراك ، وطرشتهم الرماة بالبندق الرصـاص ، فهزموهم هزيمه منكرة ، ووقعت الكسرة على الأتراك ، وولى السلطان طومان باى مهزوما فتوجه الى قرية تسمى البوطة فى أعلى تروجه ، وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر . وكان السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته ، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس ، كما يقال فى المعنى :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر ، قطع رءوس المماليك الجراكسه ، وقطع رءوس جماعه كثيرة من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى فلما تكامل قطع الرءوس رسـم ابن عثمان باحضار مراكب ، فلما حضرت وضعوا فيها رءوس الذين قتلوا ، فلما عدوا الى بولاق صنعوا مدارى خشب ، وعلقوا عليها تلك الرءوس ، وحملتها النواتيه على أكتافهم ، ولاقتهم الطبول والزمور ونادوا فى القاهرة بالزينة فزينت زينه حافلة ، وشموا بتلك الرءوس من البحر الى باب القنطرة ، وطلعوا بهم على سوق مرجوش ، وشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود وقيل كان عدة الرءوس الذين قتلوا فى هذه الواقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك ، والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول ، كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس . وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد من اجتماع العلماء والقضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطانى ، والأسمطة التى كانت تعمل فى ذلك اليوم ، وما كان يعطى للمقرئين والفقراء من الشقق والأنعام فى تلك الليلة ، فبطل ذلك جميعه .

وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرضت عليه الحواصل التى بها رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها قطعا وباعوها للناس ستائر وسفر . وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا لم يعمل مثلها قط . قيل ان مصروفها على الأشرف قايتباى ثلاثون ألف دينار ، وقيـل أكثر من ذلك ، وكانت غاية فى التجمل حين تنصب ليلة المولد الشريف . وكانت كهيئة قاعة ، ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمريات ، والكل من قماش . وكان فيها تقاصيص غريبة ، وفصـوص غريبة ، وصنائع لا يعمل الآن مثلها أبدا ، وكانت اذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة انسان حتى ينصبوها فى الحوش السلطانى ، وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة ، فابتيعت بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها ، وفقدتها الملوك من ذلك الوقت ، وهذه من جملة مساويه التى فعلها بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن الدفتردار رسم على نسـاء الأمراء الذين قتلوا ، أنكر على الدفتردار ذلك ، وأمر باطلاقهن من الترسيم ، وأمر ألا يأخذ أحد منهن شيئا ويترك لهن ماتأخر عليهن من المال .. فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، ولم يظهر لهذا الكلام نتيجة فيما بعد ، واستمرت المصادرات عمالة كما كانت بل ازدادت أضعافا .

وفيه جاءت الأخبار من البهنسا بأن قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة قد قتل هو وأخوه أبوبكر . وكان

السلطان سليم شاه أرسله مع القضاة الثلاثة الى السلطان طومان باى بالبهنسا ، لما أرسل يطلب من ابن عثمان الأمان . فكتب له أمانا وصورة حلف ، وأرسله على يد قاضى القضاة ، وأرسل صحبتهم أميرا من أمرائه ، وجماعة من العثمانية . فلما وصلوا هناك لم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ، ولم يمكنه الأمراء من ذلك ، وثاروا على جماعة ابن عثمان وقتلوهم عن آخرهم وقتلوا عبد السلام قاضى البهنسا وقتلوا قاضى القضاة محمود بن الشحنة .

ويقال ان سبب قتله أن أخاه أبا بكر كان عنده عمرسه وملوحة رقبة ، فلهذا سماه الناس المو ر ، فزعموا أنه غمز على شخص من المماليك الجراكسة كان مختفيا فى مكان ، فدل العثمانيه عليه ، فهجموا على ذلك المملوك وقطعوا رأسه .

فلما سافر قاضى القضاة محمود بن الشحنة الى السلطان طومان باى بسبب الأمان الذى أرسله اليه ابن عثمان ، سافر أبو بكر صحبة أخيه محمود الى البهنسا ، فثارت الجراكسة على جماعة ابن عثمان فقتلوهم هناك ، فكان للمملوك الذى قتل أخ هناك فغمزه بعض المماليك على أبى بكر وقالوا له هذا الذى غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه فوثب ذلك المملوك على أبى بكر وقطع رأسه هناك . فتعصب له أخوه محمود بن الشحنة ، فوثبوا عليه فقطعوا رأسه أيضا ، ودفنا هناك .

هذا ما أشيع واستفاض بين الناس من أمرهما . ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر أقام فى بر الجيزة أياما ، وسار من هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره نادوا فى القاهرة بابطال الفلوس العتق . وضربوا للناس فلوسا جددا كل اثنين بدرهم ، وعليها اسم سليم شاه ، وكانت فى غاية الخفة ، فتضرر الناس منها الى الغاية .

وفى أثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد الأشقر شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس ، وكان اصيلا عريقا من ذوى البيوت . وكان والده القاضى محب الدين الاشقر ولى نظارة الجيش . وكتابة السر بالديار المصريه . وكان من أعيان الرؤساء رحمه الله عليه ، مات وله من العمر فوق الثمانين سنة . وكان عنده لين جانب مع تواضع زائد ، وكان أسمر اللون جدا ، كانت أمه جاريه حبشيه مسولدة الأشقر .

ومن هنا نرجع الى اخبار السلطان طومان باى فانه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المنوات وقبل بوردان ، انكسر عسكر السلطان طومان كما تقدم القول على ذلك ، فتوجه طومان باى الى نحو تروجه بالغربيه منهزما . فلاقاه حسن ابن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوصه ، فعزما على السلطان طومان باى ليضيفاه . وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة ، فركن له السلطان طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة .

ثم ان السلطان طومان باى أحضر الى حسن بن مرعى وشكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه انهما لا يخونانه ، ولا يغدران به ، ولا يدلسان عليه بشىء من الأشياء ، ولا بسبب من أسباب المسك ، ولا يدلان عليه . فحلفا له على المصحف سبع أيمان بمعنى ذلك ، فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما .

فلما استقر عندهما احتاطت به العربان من كل جانب وهو لايدرى بما به المقادير تجرى . ثم انهما

أرسلا الى السلطان سليم شاه أعلماه به ، فأرسل اليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ، ووضعوه فى الحديد ، وتوجهوا به الى ابن عثمان ، ولما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ، وتشتتوا فى البلاد . وتمت الحيلة على السلطان طومان باى ، وخانه حسن بن مرعى بعد أن حلفه على المصحف الشريف وركن اليه .

وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب السلطان طومان باى ، وله عليه غاية الفضل والمساعدة من أيام السلطان الغورى ، وقام بما عليه من المال مرارا ، فلم يذكر له من هذه الأخلاق شيئا ولا أثر فيه الخير . فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركنن الى الحريف فماؤه
مستوخم وهواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها
ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان وهو لابس مثل لبس العرب الهوارة ، وعلى رأسه زنط ، وعليه شاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال . فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض كلمات ، فلما خرجوا به من قدامه توجهوا به الى خيمة من الخيام ، فأقام بها ، واحتاطت به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابه .

وفيه وردت الأخبار الى القاهرة بمسك السلطان طومان باى ، فصارت طائفة من الناس تكذب بمسكه ، وطائفة تصدق ذلك . فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان ، وهو فى الحديد الى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأول من تلك السنة . وكان ذلك اليوم يوم الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر . فعدوا بالسلطان طومان باى من بر انبابة الى بولاق ، وطلعوا به من هناك وهو راكب على أكديش : وهو فى الحديد ، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكانت مدة اقامته فى الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوما . وأشيع أن ابن عثمان قصد أن يرسل طومان باى الى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له بعد ذلك ما سنذكره .

فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى ، حنق من ذلك وعدى به الى بولاق ، فلما طلع الى بولاق وشق من المقس ، كان قدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق ، حتى وصل الى باب زويلة وهو لا يدرى ما يفعل به .

فلما أتوا الى باب زويلة ، أنزلوه عن فرسه وأرخوا له الحبال ، ووقفت حوله العثمانية بالسيوف مسلولة . فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات . ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك .

فلما وضعوا الحبة فى رقبته ورفعوا الحبل ، انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين ، وهو يقع على الأرض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه جوخ احمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجليه لباس من جوخ أزرق ... فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شابا حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، سنه نحو أربع وأربعين سنة . وكان

شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات ، وهو فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة .

وكان لما سافر عمه السلطان الغورى ، جعله نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب ، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية فى غيبة السلطان ، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك .

لما مات السلطان الغورى عمه ، وتسلطن عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولم يشوش على أحد من المباشرين فى مدة سلطنته .

ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج اليه ، قيل له ان الخزائن خالية من الأموال . فقال له الأمراء وجماعة المباشرين : « افعل كما فعل السلطان الغورى ، وخذ أجرة الأماكن التى بالقاهرة سبعة أشهر ، وخذ من الرزق والأقطاعات خراج سنة » . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ، وقال : « ما أجعل هذا مسطرا فى صحيفتى » .

وكان ملكا جايلا قليل الأذى . كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، فانه تسلطن رابع عشر رمضان ، وانكسر وهرب تاسع عشرى ذى الحجة .

وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد ، وقاسى شدائد ومحنا ، وحروبا وشرورا وهجاجا...وتشتت فى البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة . وأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى فاحت رائحته .

وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ، ووضعوه فيه ، وتوجهوا به الى مدرسة السلطان الغورى عمه ، فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت دولته كأنها لم تكن ، وقد قلت من أبيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لن يذكرا

شنقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا

يا رب فاعف عن عظائم جرمه
واجعل جنان الخلد رب له قرى

وكان شنق السلطان طومان باى من غايات سعد السلطان سليم شاه بن عثمان ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولم نعهد مثل هذا ، ومن عهد شاه سوار الذى كلموه على باب زويلة ، لم نعلق أحد ممن له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى .

ثم ان ابن عثمان لما شنق طومان باى صفا له الوقت ، وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام عليها .

ثم أخذ فى أسباب التوجه الى نحو بلاد القسطنطينيه ، فأشيع أنه يجعل يونس باشاه نائبا عنه بمصر . ثم خلع على شخص من جماعته وقرره نائب غزة . وخلع على شخص آخر وقرره نائب القدس . فخرجا من القاهرة فى أواخر هذا الشهر ، وقدامهما طبلان وزمران وجنائب . وخرجا فى موكب حافل .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشريه صنع بعض النفطية الى السلطان نفطا ، وتوجه به الى وطاقه بانبابة ، فأحرقوه قدامه بالوطاق .

ومن الحوادث المهمة أنه قد أشيع أن السلطان سليم شـــاه ، عول على جمـــاعه من أهل مصر من أعيانهم يرسلهم الى اسطنبول .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه أتى الســلطان سليم شاه من وطاقه الذى فى ابابه ، وعدى الى بولاق وتوجه الى القاهرة ، وشق من باب الخرق ، ودخل من باب زويلة ، وتوجه من هناك الى الجامع الأزهر ، وزينت له القاهرة ، فصلى بالأزهر صلاة الجمعة ، وتصـــدق هناك بمبلغ له صـــورة . ثم توجه الى بولاق من الطريق التى أتى منها ، وكان فى موكب حافل .

ثم بعد أيام أشيع أنه دخل الى حمام الاستدار التى بيـــولاق فأتى من الرملة ولم يشق بولاق . وكان أهل بولاق زينوا له السوق ، ولما خرج من الحمام عاد من الطريق التى أتى منها ، وقيـــل انه أنعم على الحمامى فى ذلك اليوم بعشرين دينارا ، وأعجبه حمام بولاق وشكره ثم عاد الى الوطاق .

ثم ان جماعه من وزراء ابن عثمان وأهل مشورته جلسوا فى المدرسة الغورية ، وشرعوا يطلبون جماعة من القضاة والشهود والمباشرين ، وأعيـــاد تجـــار المغـــاربة ، وتجـــار الوراقين ، وتجـــار الشرب ، والباسطية ، وجماعة من البزدارية والرسل ، وجماعه من السوقة المتسببين فى البضـــائع ، وطائفـــه من البنائين والنجارين والمرحمين والمبلطين والحدادين وغير ذلك من أرباب الحرف ، حتى طلبوا جمـــاعة من أعيان اليهود . فلما تكامل عرضهم فى المدرسة الغورية عينـــوا جمـــاعة منهم أن يســـافروا الى اسطنبول . فكتبوا أسماءهم فى قوائم ، وألزموا كل واحد منهم بأن يحضر له ضامنا يضمنه . فلما أحضروا لهم الضمان أطلقـــوهم الى حال سبيلهم .

ويأتى الكلام بعد ذلك فى أمورهم وما تم لهم فى هذه الحركة .

وفى يوم الأحد سابع عشريه قبض الوالى على شخص من العمالية قيل انه خطف امرأة من السوق وزنى بهـــا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالى أن يقطع رأسه فقطع رأسه فى الحال ، وطاف بها فى القاهرة وهى على رمح ، فظهر من ابن عثمان فى ذلك اليوم عدل عظيم لعل أن يعتبر بمثله عسكره ويكفوا عن الأذى .

وفى أثناء ذلك الشهر وقع أن ابن عثمان شرع فى فك الرخام الذى بالقلعـــه فى قاعة البيسرية والدهيشة ، وقاعة البحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التى كانت فى الايوان الكبير ، قيل انه قصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسه السلطان الغورى ، فلم تتيسر له ذلك .

ثم صار يحيى بن بكار بركب ويأخذ معه جماعة من المرحمين . فيهجمون قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام الســـماقى والزرزورى الملون . فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيـــوت الأمراء قاطبة ، حتى القاعات التى ببولاق ، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركه الرطلى ، وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار وأبناء الناس ، والمدارس التى فيها الكتب النفيسة ، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ، ولم يعرفوا الحلال من الحرام .

وفيه نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتـــق وضربوا للناس فلوسا جددا خفافا جـــدا ، فخسر الناس الثلث ، ووقف حال الناس بسبب ذلك ... فصارت البضائع تباع بسعرين : ســـعر بالفلوس العتق ، وسعر بالفلوس الجدد .

وفيه صاروا يقبضون على جماعة من مباشرى الأمراء ، ويقولون لهم حاسبونا على خراج الأمراء الذين قتلوا فى المعركة .

* * *

وفى ربيع الثانى وكان مستهله يوم الأربعـاء ، أشيع أنه قد حضر قاصد من شاه اسمعيل الصفوى وعلى يده مطالعـة لابن عثمان ، فلما قرآها تنكد وقصد أن يقبض عليه ، فهرب ذلك القاصـد من عند ابن عثمان ، وكان بالمقياس . فلما هرب صاروا يكبسون بيوت مصر العتيقة ، وبيوت الروضة ، فلم يحصلوه لا فى البر ولا فى البحر ، فحصل لأهل مصر العتيقة غاية الضرر من كبس البيوت بسبب هروب هذا القـاصد . فمن الناس من يقول انهم قبضوا عليه فيما بعد وقطعوا رأسه ، ومنهم من يقول انهم لم يحصلوه واستمر هاربا .

ومن الحوادث أن شخصا من التجـار الأروام كان له دين على الزينى عبد القادر الملكى وآخيه آبى بكر بن الملكى ، نحو خمسه آلاف دينـار ، وقيل عشرة آلاف دينار ، فكان كلما طالبهما سوفا به ومطلاه . وتماديا على ذلك مدة طويلة ، فشكاهما الى الدفتردار ، فأرسل خلفهما ، فلمـا حضرا اعترفا لذلك التاجر بالقدر المذكور ، فأمرهما الدفتردار بأن يدفعا له ذلك ، فقالا ما معنا شيء من المال ، ولكن يصبر حتى يبعث الله لنا بشيء من المال ، فندفع له حقه . فقال لهما ما بقيت أصـبر عليكما . فحنق منهما الدفتردار وآمـر بسـجن عبد القادر وآخيه آبى بكر ، فسجنا فى سـجن الديلم ، وآقاما به أياما حتى سعى لهما الشـهابى أحمـد ابن الجيعـان وأطلقـا من السـجن ، ثم استرضوا ذلك التاجر حتى أفرج عنهما .

وفى أوائل هـذا الشهر حضر قاضى القضـاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى محيى الدين بن الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، وكانوا توجهوا الى نحو البهنسا بسبب الأمان الذى توجهوا به من عند ابن عثمان الى السلطان طومان باى ، ولم نفد توجه هؤلاء القضاة اليه شيئا .

ولما حضر هؤلاء القضـاة آخبروا بصحة قتـل قاضى القضاة حسـام الدين محمود بن الشحنة الحنفى وآخيـه آبى بكر ، وقد تقدم القول على سبب قتلهما ودفنا هناك .

وفى يوم الاثنين سادسه آشيع آن ابن عثمان عدى الى المقيـاس ، وكان فى ذلك اليـوم رياح عاصفة فكاد آن يغرق . فلمـا سلم من الغرق أقام بالمقياس ونقل وطاقه الى الروضة ومصر العتيقة ثم ان أمراءه طردوا السكان الذين بالروضة وبمصر العتيقة ، وسكنوا فى دورهم ، فحصـل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فأعجبه المقياس فأقام به مدة أيام ، وكان وزراؤه يعـدون الى الروضة فى كل يوم ويطالعونه بالأمور التى يفعلونها فى الناس من خير أو شر .

وفى يوم الثلاثاء سابعه توفيت ابنة الأمير يشبك ابن مهدى أمير دوادار ، وهى زوجة قانى باى آمير آخور كبير ، وقاست قبل موتها شدائد ومحنا ، وصودرت غير ما مرة من السلطان الغورى ، ومن ابن عثمان آيضا ، واستمرت مختفية حتى ماتت . وكانت من آعيان الستات فى سعة من المال ، وكانت لا بأس بها .

وفيه خلع السلطان على شخص من العلماء ، يقال له الشيخ شمس الدين بن يس الطرابلسى ، وقرره فى قضاء الحنفية عوضـا عن محمود بن الشحنة بحكم قتله كما تقدم

وفيه وقعت كائنة عظيمة لخوند ابنة المقر آقبردى

الدوادار ، وهى زوجة السلطان طومان باى ، وذلك انه كان عندها جاريه بيضاء جركسيه رقاصه ، فهربت من عندها وتوجهت الى بعض وزراء ابن عثمان ، فعرفته بمكان حاصل سيدتها ، فتوجهوا اليه ونقلوا كل ما كان فيه من بشاخين زركش وعنبر ومقاعد سمور ووشق وحياصات ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصع وكوامل ذهب ، وغير ذلك من الامتعه الفاخرة ، وأوانى بلور وأوانى فضة ونحاس مكفت بالذهب ، وصينى موشى بلازورد ، وغير ذلك . فنقلوا جميع ما كان لها فى الحاصل . فذهب لها أشياء كثيره بنحو خمسين ألف دينار . وما قنع ابن عثمان بذلك . فصادرها وقرر عليها وعلى والدتها بنت العلائى على بن خاص بك عشرين ألف دينار . وقيل أكثر من ذلك القدر . فحصل لها ولوالدتها الضرر الشديد ؛ وقاسا شدائد عظيمة ومحنا وبهدلة وتهديدا بالقتل . وما جرى عليهما خير .

وفى يوم الجمعه سابع عشره رسم الدفتردار باخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين الى السفر الى اسطنبول . فخرجوا فى ذلك اليوم جملة واحدة . فنزلوا فى المراكب وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية الى أن يمضوا الى اسطنبول ... فأخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا . وفى عقب ذلك خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين ، وفيهم البعض من النصارى . وطائفة من الفعلة ، وذلك بسبب المدرسة التى أراد ابن عثمان أن ينشئها باسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى . وأشيع أنه أرسل طائفة من المغاربة أيضا تقيم باسطنبول .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج الى السفر لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة والشهود فمنهم القاضى شمس الدين الحلبى أحد نواب الشافعية ، وقد قاسى من العثمانية غاية البهدلة من الضرب والصك ، وأنزلوه المركب على رغم أنفه ، ومنهم الزينى زين الدين الشرنقاشى ، أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأثميدى ، أحد نواب الشافعية ، والقاضى بدر الدين البلقينى ، نقيب قاضى القضاة الشافعى ، والقاضى شهاب الدين بن الهيثمى ، أحد نواب الحنابلة . والشريف البردينى الحنفى ، وآخرون من نواب القضاة الأربعة .

وخرج فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من تجار السرب والوراقين ... منهم محمد المسكى الأسود . ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، ومن تجار خان الخليلى وغيره ... وخرج يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وخرج ابن شقيرة التاجر الذى بمرجوش . ومن تجار الهرامزة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير الناس ... فهؤلاء خرجوا فى ذلك اليوم ثم تبعهم طائفة أخرى يأتى الكلام عليها . وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان . وهذه عبارة عن أسر المسلمين ونفيهم الى اسطنبول .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشريه أشيع بين الناس أن ابن عثمان كان فى أصبعه خاتم من الفضة وهو مرصود للمقابلة . وكان يتبرك به فسقط من أصبعه فى البحر وهو فى المقياس ، فتأسف عليه غاية الأسف ، وأحضر الغطاسين فغطسوا عليه عدة مرات فلم يجدوه فى ذلك المكان . ويقال ان هذا الخاتم كان فى ذخائر أجداد ابن عثمان حتى فقد منه .

وفى أواخر هذا الشهر أرسل ابن عثمان يقول لأمير المؤمنين : « اعمل برقك حتى تسافر الى

اسطنبول » فلما تحقق الخليفة ذلك اضطربت أحواله ، وشرع فى عمل برفه وقال سافر أنت واولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك . فلما بلغهم ذلك تنكدوا أجمعون .

وفيه نزل ابن عثمان بالرخام الذى فكه من القلعة ، فوضعه فى صناديق خشب ونزلوا به فى المراكب لتوجهوا به الى اسطنبول

ومن العجائب أن السلطان الغورى ظلم أولاد ناظر الخاص يوسف ، وأخذ رخام قاعتهم التى تسمى بنصف الدنيا ، وجعل ذلك الرخام فى قاعة البيسرية ، فسلط الله تعالى عليه بعد موته ابن عثمان ، ولم ينتفع به أحد من بعده ، والمجازاة من جنس العمل . وقد خرج هذا الشهر على الناس وهم فى أمر مريب مما جرى عليهم من ابن عثمان .

* * *

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم الجمعة ، ففى ذلك اليوم خرج المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف اينال ، وكان تعين الى السفر الى اسطنبول ، فخرج فى ذلك اليوم ، وخرج جماعة من الفقهاء وأعيان التجار ممن تعين الى اسطنبول ، فمنهم شمس الدين ابن روق وكان القاضى بدر الدين بن الوقاد أحد نواب الحنفية تعين الى السفر الى اسطنبول ، فلما تحقق ذلك اختفى ، وحصل على نقيب الجيش من الدفتردار ما لا خير فيه ، وبهدله وهم بضربه لأنه كان ضامنه .

وفى يوم السبت ثانى الشهر ، عرض السلطان سليم شاه عسكره ببر الجيزة ، وعين منهم جماعة يسافرون صحبته الى ثغر الاسكندرية ، وأشيع سفره الى هناك

وفى يوم الاثنين رابعه عدى ابن عثمان من المقياس الى بر مصر العتيقة ، وشق من جامع ابن طولون وطلع الى القلعة ، ثم عاد من يومه الى المقياس وأقام به .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الشافعية قيل عنه انه زوج امرأة من نساء الأتراك لشخص من العثمانية ، فظهر أنها لم تكمل عدة زوجها الذى مات ، فدلس ذلك على القاضى الذى زوجها الى العثمانى فلما رفع أمرها الى ابن عثمان احضر ذلك القاضى ولم تقبل له عذرا ، وبطحه وضربه ضربا شديدا ، ثم كشف رأسه وألبسه عليها كرشا من كروش البقر بروثه ، وركبه على حمار مقلوبا ، وأشهره فى القاهرة ، وكان قبل ذلك نادى السلطان فى القاهرة بان لا أحد من قضاة مصر يعقد عقدا لعثمانى ، ولا يزوجه بأحد من نساء الأتراك . وكذلك الشهود . وخرج عليهم فى ذلك الى الغاية ، فلم يسمع له قضاة مصر شيئا من ذلك ، وصاروا يزوجون العثمانية بنساء الأتراك الذين قتلوا فى الحرب كما تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الخميس سابع هذا الشهر نزل السلطان سليم شاه من المقياس فى مراكب هو وجماعة وقصدوا التوجه الى ثغر الاسكندرية وقيل كان معه من فرسان عسكره ألف فارس ، وتوجه يونس باشا من البر على تروجة بعسكر آخر يلاقيه من هناك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى خرج أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا السفر الى

اسطنبول ، وخرج صحبته أولاد عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج صحبته الناصرى محمد ابن العلائى على بن خاص بك صهر الخليفة ، وخرج الشرفى يونس ابن الاتابكى سودون العجمى ، وآخرون من الأعيان ، فتوجهوا الى بولاق ، ونزلوا من هناك فى المراكب لتوجهوا الى ثغر رشيد ، فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف ، وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت باسطنبول ... وهذه من الحوادث المهولة .

ثم ان الخليفة عوم من بولاق الى رشيد ، ثم بعد ذلك وردت الاخبار بأن الخليفة مقيم بالمركب ببر بولاق الى يوم الثلاثاء تاسع عشره ، فعوم فى أثناء ذلك اليوم من بولاق ، وتوجه الى رشيد . ثم بعد ذلك وردت الأخبار بأن الخليفة قد وصل الى ثغر رشيد ، وأقام به هو وجماعته من الذين سافروا ، ثم دخلوا الى ثغر اسكندرية ووجدوا الصهاريج التى بها مشحونة من الماء ، فبلغ ملء كل كراز خمسة أنصاف ، وذلك من كثرة الخلق الذين اجتمعوا هناك ، ولا سيما لما دخل اليها عسكر ابن عثمان .

وأشيع أن السلطان سليم شاه لما دخل ثغر الاسكندرية ، رسم بأن الجماعة الذين أتوا من مصر يسجنون فى الخانات ، وفى أبراج الاسكندرية الى أن يتكاملوا ، ثم يسافرون دفعة واحدة . فوضعوهم فى الأبراج ونساءهم فى الخانات ، فقاسوا مشقة عظيمة بسبب ذلك .

وخرج فى عقيب ذلك مقدم المماليك سنبل وسافر الى اسطنبول ونائبه جوهر ، وقيل توجه سنبل الى بيت المقدس من بعد ذلك

وفى يوم الجمعه ثانى عشرى جمادى الأولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشهابى أحمد ناظر الجيش وابن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وخرج صحبته بدر الدين وأخوه كمال الدين ، وخرج ناصر الدين العزى ويحيى بن الطنساوى موقع الدرج ، وخرج جان بك دوادار طراباى .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره حضر السلطان سليم شاه من ثغر الاسكندرية ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة خمسة عشر يوما ذهابا وايابا ، وقيل انه أقام بثغر الاسكندرية ثلاثة أيام لا غير . ودخل عليه من التقادم من مشايخ العربان بالغربية شىء كثير ما بين خيول وجمال وأبقار وغير ذلك . فلما حضر أتى الى المقياس وشق من جهة الروضة بالمراكب ، فانطلقت له النسوان من الطيقان بالزغاريت .

وفى يوم السبت ثالث عشريه عرض يونس باشا الذى قرر نائب السلطنة بمصر عسكر ابن عثمان ذلك اليوم ، وأشيع أن ابن عثمان قد طرقته الأخبار الرديئة من عند الصفوى وأنه قد زحف على بلاده وملك منها عدة بلاد .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرى جمادى الأولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة الشيخ كمال الدين الشافعى الطويل ، فكثر عليه الأسف والحزن فانه كان محببا للناس ، وخرج زين الدين البتنونى ناظر المواريث أيضا وآخرون من مباشرى المواريث . وخرج جماعة من الزردكاشية منهم يحيى بن يونس ومحمد العادلى المعروف بابن البدوية وزين الدين بن محمود الأعور وأحمد بن الهوارى وآخرون من صناع الزردخانة . وخرج ابراهيم مقدم الدولة وخرج جماعة من مباشرى الخوشكانة .

وفى أثناء هذا الشهر توفى تقى الدين بن الطرينى كاتب السعيين بالشون السلطانيه ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع ابن ابى الرداد ببشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة ثمانى اذرع وست عشرة أصبعا . وكانت القاعدة فى العام الماضى لما أخذ قاع النيل اثنتى عشرة ذراعا ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة

* * *

وفى جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأحد . فى ذلك اليوم كان أول المناداة على النيل المبارك فزاد ثلاث أصابع ... وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان سليم شاه خلع على وزيره يونس باشا وقرره نائبا عنه بمصر وأعمالها اذا سافر الى بلاده . فلما تقرر يونس باشا فى النيابة بمصر ، وأشيع سفر ابن عثمان ، ظهر جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة وتزيوا بزى العثمانيه ولبسوا الطراطير والقفاطين الحرير ، وصاروا بخالطون العثمانية ، ويركبون معهم فى الأسواق بطول النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع هذا الشهر نادى السلطان فى عسكره بأن كل من كان متزوجا من مصر بامرأة بطلقها ، والا شنق من غير معاودة فمنهم من طلق زوجته ومنهم من أبقاها فى عصمته .

ومن الحوادث أن القاضى بدر الدين بن الوقاد لما تعين للسفر الى اسطنبول وضمنه نفس الجيش تخلص واختفى أياما فغمز عليه فقبضوا عليه من المكان الذى كان به . فلما أحضروه بين يدى الدفتردار وبخه بالكلام ، وبطحه على الأرض ، وهم بضربة حتى شفع فيه بعض الحاضرين ، وقاسى من البهدلة والسب ما لا خير فيه ، وغرم مالا له صورة ، وآخر الأمر سافر الى اسطنبول ، والذى خاف منه قد وقع فيه .

وفى يوم الخميس خامسه ، عدى السلطان سليم شاه من الروضة ، وطلع الى الرميلة ، وعرض عسكره فى الميدان الذى تحت القلعة ، وعين منهم جماعة يقيمون بمصر صحبة يونس باشا ، وعين جماعة يسافرون صحبته ، ورسم للمشاة من عسكره بأن يسافروا فى البحر ، واستمر يعرض عسكره ثلاثة أيام متوالية

وفى ذلك اليوم خرج حريم ملك الأمراء خاير بك ، وحريم جان بردى الغزالى ، للاقامة بحلب الى أن يأتى السلطان هناك . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان عن قريب

وفى يوم الجمعة سادس هذا الشهر ، خرج جماعة من المباشرين للسفر الى اسطنبول ، منهم القاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وخرج الناصرى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان كاتب الخزائن أيضا ، وخرج الزينى عبد القادر بن الملكى مستوفى ديوان الجيش ، وخرج شخص من أولاد ابن البارزى يقال له بهاء الدين ، وخرج محمد المجولى مهتار السلطان الغورى بالطشتخاناه الشريفة ، وخرج عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانة وولده زين الدين ، وخرج فى ذلك اليوم بعض نصارى من كتاب الخزينة . وخرج كمال الدين برددار الطرابية ، وخرج فرج الدين البريدى رأس نوبه حاجب الحجاب ، وخرج فتح الدين بن فحيرة أحد كتاب المماليك . وخرج جماعة كثيرة من البزدداربة ، والرسل وأرباب الصنائع من كل فن ممن تعين الى اسطنبول ، وخرج الشهابى أحمد ابن البدرى وحسن بن الطولونى معلم المعلمين ، وخرج يحيى شكار دوادار ، وشيخ سوق الغزل بدر الدين ، وخرج ابراهيم مقدم الدولة ، وخرج

جماعة كثيرة غير هؤلاء فى أوقات متفرقة ، ونزلوا فى المراكب ونوجهوا الى ثغر الاسكندرية ، ومن هناك يتوجهون الى اسطنبول . وقيل ان عدة من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة انسان ، وقيل دون ذلك .

وقيل ان السلطان سليم شاه لما أخذ من مصر هؤلاء الجماعة أحضر غيرهم من اسطنبول يقيمون بمصر عوضا عن الذين خرجوا منها ، وقيل ان هذه عادة عندهم اذا فتحوا جهة أخذوا من أهلها جماعة يمضون الى بلادهم ، ويحضرون من بلادهم جماعة يقيمون فى تلك المدينة عوضا عن الجماعة الذين أخذوهم .

وفيه نادوا فى القاهرة أن لا عبد ولا جارية ولا امرأة ولا صبى أمرد يخرج الى السوق حتى يخرج العسكر العثمانى من مصر ، وذلك خوفا عليهم من التركمان أن يخطفوهم ويسافروا بهم .

وفيه توجه السلطان سليم شاه الى بئر البلسان التى بالمطرية واضافه هنـاك الناصرى محمد بن الريس شمس الدين القوصونى ومد له هناك مدة حافلة ، وكذلك الشـيخ دمرداش ، وانشرح ابن عثمان فى ذلك اليوم الى الغاية ، وغسل وجهه من مائها ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، ثم رجع الى الوطاق » .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الدفتردار ضيق على الناس أصحاب الأملاك بسبب أملاكهم ، وندب الشرفى يونس نقيب الجيش الى ضبط البيوت التى فى القاهرة قاطبة . فصـار النـاس يعرضون عليه مكاتيبهم ، فالذى يكون من الأعيان يفرج له عن بيته ، ويواسى نقيب الجيش بشىء من الدراهم ، ويكتب على مكتوبه « عرض » . والذى يكون جاريا فى ملك المماليك الجراكسة ، ولم يظهر له أصحاب ، يكون ملكا للسلطان ، ويدخل الى الذخيرة .

ويقرب من هـذه الواقعة أن الدفتردار رسم لقـاضى القضـاة المنفصل علاء الدين بن النقيب أن يتحدث على أوقاف الحرمين الشريفين قاطبة ، ورفع يد قاضى القضاة كمال الدين الطويل الشافعى من التحـدث على أوقاف الحـرمين الشريفين ، فكان أصحاب الأوقاف يعرضون مكاتيبهم على قاضى القضـاة علاء الدين ويكتب عليها « عرض » ، ثم يمضون بهـا الى الدفتردار فيخرج مراسيمهم بالافراج عن ذلك . فيقع عليهم كلفة للقاضى علاء الدين ، وكلفة لمراسيم الدفتردار ، وان لم يفعلوا ذلك ، ولم تخرج مراسيم الدفتردار بالافراج عن جهـات الأوقاف ، يضع المباشرون والظلمة أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الخراج ، ويروح ذلك على النظار . وهذا من جملة مساوى ابن عثمان فيما فعله فى أهل مصر من الأنكاد والضرر الشامل لهم .

وفى يوم الجمعة ثالث عشر جمـادى الآخرة ، حضر الشرفى يونس النـابلسى الأستادار ، وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين والأتراك والأمراء الذين قتـلوا فى المعركة ، فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غاية الضرر . وضيق على النـاس فى أرزاقهم من نساء ورجال ، ووضع يده على خراجهم بغير حق ، وما حصل لأحد منه خير . فكان كما يقال فى المعنى :

مبـاشر فى الورى لم تخف سيرته
بين الأنام وما يخشى من الريب
تنجو به رجله مما جنت يده
كأنه القط فى خطف وفى هـرب

وفى يوم الأحـد خامس عشره ، حضر الى

الأبواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، وكان سبب حضوره أنه أتى ليهنىء ابن عثمان بمملكة مصر ، وأحضر صحبته تقادم فاخرة ، وحضر صحبته بيبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ، وحضر قراكز الذى كان محتسبا بمكة . فلما حضر أشيع بين الناس أن حسين نائب جدة قد قتل على يد الرئيس سلمان العثمانى ، وقيل انه أغرقه فى البحر . وكان حسين قد ظلم وجار على أهل مكة وجدة ، وجدد مظالم فى أيام السلطان الغورى ، وكان من المفسدين فى الأرض ، فقتل كما تقدم ، وكان غير محب لأهل جدة ومكة .

ومن الحوادث أن النيل المبارك توقف فى أثناء الزيادة واستمر فى التوقف ستة أيام ، فقلق الناس لذلك ، وزاد سعر القمح ، وتشحطت سائر الغلال ، واضطربت الأحوال جدا . ثم بعد ذلك زاد النيل المبارك أصبعا واحدة فسكن الحال قليلا .

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا قد توجهوا الى الغربية والمنوفية والمحلة ... فحضر ابو البقاء ناظر الأسطبل ، وبركات أخو شرف الدين الصغير ، ويحيى بن الطنساوى وآخرون من المباشرين .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره أشيع أن بيبردى باش المجاورين وقراكز المحتسب والمماليك الذين حضروا صحبتهما من مكة يريد قتلهم ابن عثمان ، فشفع فيهم ابن الشريف بركات من القتل ، فرسم أن يتوجهوا الى اسطنبول ، فخرجوا فى ذلك ونزلوا فى المراكب ، وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية ومن هناك توجهوا الى اسطنبول .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشره ، حضر الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وحضر فخر الدين بن عوض ، وكانا فى بعض جهات الغربية ، بسبب استخراج الخراج وعمارة الجسور التى هناك

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، توفيت ابنة السلطان طومان باى . وكان لها من العمر نحو عشر سنين ، وكان قد حصل لها طربة على أبيها لما قتل .

وفى يوم الأحد ثانى عشريه اضطربت أحوال القاهرة ، وصارت الأدراك تقف على أبواب المدينة ويمسكون الناس من رئيس ووضيع ، ويضعونهم فى الحبال حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود ، وما نعلم ما يصنع بهم . فلما طلعوا بهم الى القلعة أسفرت هذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار التى كانت بالقلعة ، وينزلوها الى شاطىء البحر ، ثم يضعوها فى المراكب ، ويمضوا بها الى اسطنبول .

وكان قبل ذلك بمدة نزلوا بالعمودين السماقى اللذين قلعوهما من الايوان الذى بالقلعة ، فارتجت لهما الصليبة لما نزلوا بهما من القلعة . وقاسى الناس فى سحبهما غاية المشقة ، وحصل لهم بهدلة من الضرب والصك وخطف العمائم والشدود ثم فى عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا يربطون الرجال بالحبال فى رقابهم ، ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس . فحصل للناس بسبب ذلك ما لا خير فيه .

وفى يوم الخميس سادس عشريه رسم السلطان سليم شاه باحضار ألف رأس من الغنم ، ومائة جمل ومائة بقرة ، فلما حضرت بين يديه أمر أن تفرق قربانا على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ومزارات الصالحين التى بالقرافة وغيرها من المزارات المشهورة ، حتى على أبواب ترب

السلاطين المتقدمين . ففرقوا ذلك جميعه وصاروا يذبحون الغنم والبقر والجمال على أبواب الجوامع والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين بها وقيل ان سبب ذلك أن لهم عادة فى بلادهم اذا حلت الشمس فى برج الأسد يفرقون هذا القربان على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ، ويفرقونها على المجاورين الذين فى بلادهم قاطبة ، ففعل مثل ذلك بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه نزل فى مركب وتوجه نحو الآثار الشريف ، فهاج عليه ريح عاصف فانقلبت به المركب فى البحر ، فكاد أن يغرق ، وأغمى عليه وما بقى من موته شىء ، وقيل انه كان سكران لا يعى ، فكان فى أجله فسحة حتى عاش الى اليوم .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الخليفة لما سافر الى اسطنبول أخرجوا عنه نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان ذلك بيد الخلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم . وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت ، وكان يحصل لهم فى كل يوم من الصندوق الذى تحت رأس السيدة نفيسه مبلغ له صورة من النذور التى كانت تدخل عليهم ، فخرج ذلك كله عنه ، وحصل للخليفة يعقوب والد المتوكل على الله غاية الضرر بسبب ذلك ، وشق عليه ذلك ، ولم يفده من ذلك شىء .

وفى أثناء هذا الشهر ، خرج الشرفى يحيى بن البرديني الذى كان ولى قضاء القضاة فى دولة الأشرف طومان باى ، ولما رأى الأحوال مضطربة وبعثوا أعيان الناس الى اسطنبول ، سعى بمال له صورة حتى قرر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، كما كان جاهين الجمالى . فخرج من هذا الشهر وسافر من البحر المالح وتوجه الى المدينة الشريفة من الينبع ، وكان من قديم الزمان لايلى مشيخة الحرم الا الطواشية .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان بالمقياس ، أحضر فى بعض الليالى خيال الظل ، فلما جلس للفرجة قيل ان المخايل صنع صفة باب زويلة وصفه السلطان طومان باى لما شنق عليها ، وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مخملا مذهبا ، وقال له اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصرا من خشب بالمقياس فوق القصر الذى أنشأه السلطان الغورى فوق بسطة المقياس ، وصار يجلس به فى اليوم الحر ، وأحضر جماعة من النجارين والبنائين وشرع فى بنائه حتى فرغ فى أيسر مدة . وقد قلت فى ذلك :

لو علم الغورى أن قصره
يسكن للمظفر المؤيد
أضرم فيه النار من يومه
ولم يدع فى جدره جلمد

* * *

وفى رجب وكان مستهله يوم الاثنين ، فى يوم الأربعاء ثالثه ، توفى القاضى رضى الدين الحلبى الموقع ، وكان شابا حسن الشكل والهيئة . وكان من أخصاء القاضى كاتب السر محمود ابن أجا ، وكان من أعيان الموقعين ، وكان من جملة أصحابنا رحمة الله عليه . وكان له مدة وهو متوعك فى جسده ، وكان تعين الى سفر اسطنبول فمرض عقيب ذلك . فدخل انكشارى من العثمانية فرآه مريضا ، فقال له اخرج فى هذا اليوم وسافر . فقال

له لا أستطيع القيام ، فحمله العثمانى بالنطع الذى تحته ، وأراد أن يخرجه من الباب ، فدخلوا عليه ودفعوا له سبع أشرفيات حتى تركه ومضى . فمات تلك الليلة من الرجفة التى حصلت له .

وفى يوم الخميس رابعه خرج الى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه الى وطاقه الذى بالريدانية ، فكان له موكب حافل ، وخلع عليه السلطان قفطان تماسيح مذهب ، وقدامه الرماة بالنفط . وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد أشار عليه السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج صحبته الى اسطنبول .

وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضا عن الباشا الذى بها ، وجعله هو المتصرف فى أمر مكة قاطبة . وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضا ، وأنصفه غاية الانصاف . وتزايدت عظمة السيد بركات الشريف الى الغاية ، وأكرم ولده غاية الاكرام .

وفيه ترافع جماعة من المباشرين مع بعضهم ، واتنبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى ، وألزمهم بالعود الى البلاد ثانيا ليغلقوا ما كان بقى عليهم من الخراج فى البلاد ، فانهم كانوا أرسلوا خلفهم بالاستعجال الى سفر اسطنبول .

وفى أثناء هذا الشهر توفى القاضى ناصر الدين محمد بن العمرى ، موقع الأمير يشبك الدوادار ، وكان من المعمرين فى الأرض .

ومن الحوادث أن الدفتردار أوقف المناشير التى فى يد أولاد الناس بسبب اقطاعاتهم ، ولم يمض غير الأوقاف والرزق التى بالمكاتيب ، والمربعات الجيشية فقط . فحصل لأولاد الناس غاية الضرر بسبب ذلك ، ووضع المباشرون أيديهم على حراجهم ، وراح عليهم الحراج فى هذه السنة بين الفلاحين والمباشرين .

وفى يوم الأربعاء عاشر رجب حضر شيخ العرب أحمد بن بقر ، وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور ، فحضر وقابل يونس باشا وبقية الوزراء ، وكان له مدة وهو عاص فى وادى العباسة ، ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ، وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت .

وفى يوم السبت ثالث عشر رجب ، الموافق ثامن مسرى من الشهور القبطية ، أظلم الجو ظلمة شديدة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى توحلت منه الأرض والأسواق . وكانت الشمس فى برج الأسد ، فتعجب الناس غاية العجب من كون المطر جاء فى غير أوانه ، وكان قد بقى على ميعاد الوفاء أربع وستون أصبعا ، والنيل فى قوة الزيادة ، فخشى الناس على النيل من النقص ، وأشيع كسوف الشمس فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره تحول السلطان سليم شاه من المقياس ، وأتى الى بيت الأشرف قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى المطل على بركة الفيل ، فأقام به ، فتعجب الناس لذلك كيف ترك المقياس فى ليالى الوفاء وسكن فى هذا المكان الذى بين الدروب ، فاختلف الناس فى الأقوال بسبب ذلك ، ولم يعلم ما سبب تحوله من المقياس الى هذا المكان مع وجود كثرة رغبته فى اقامته بالمقياس . فلما سكن فى ذلك المكان طفشت عساكره فى بيوت الناس التى حول الصليبة وأعمالها ، وطردوا أصحابها منها وسكنوها ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس خامس عشريه طلع ابن عثمان الى القلعة ودخل الى الحمام الذى بها بالبحرة ، ثم

رجع الى بيت الأشرف قايتباى . فتيل اصطفت عساكره من الصليبه الى باب السلسلة ما بين مشاة وركاب .

وفيه وردت الأخبار من البحيرة بأن حسن بن مرعى محاصر مع الجويلى . فأرسل لهما السلطان تجريدة الى البحيرة ، وعين بها ألف عثمانى من عسكره .

ومن الحوادث المهولة أن النيل المبارك توقف ليالى الوفاء على اصبع واحدة . وكان مضى من مسرى ثمانية عشر يوما ، فاضطربت أحوال الديار المصرية بسبب ذلك . ثم أشيع أن النيل قد نقص أربع أصابع ، واستمر فى ذلك التوقف ستة أيام ، وقد مضى من مسرى واحد وعشرون يوما ، فاضطربت الأحوال بسبب ذلك . ولولا خوف السوقة من ابن عثمان لرفعوا الخبز من الأسواق ، وكادوا أن ينشئوا علوة عظيمة . وقد توقف النيل فى هذه السنة مرتين ستة أيام فى أبيب وستة أيام فى مسرى ، ولولا أن الله بعث الزيادة بعد ذلك لأكل الناس بعضهم بعضا ، وقال القائل فى المعنى :

لو نطق النيل قال قولا
يشفى به غاية الشفاء
قد كثر الجور فاعذرونى
لما توقفت فى الوفاء

فلما كان يوم السبت سابع عشرى رجب ، الموافق لثانى عشرى مسرى . زاد الله فى النيل المبارك اصبعا واحدة عن النقص الذى كان نقصه . ثم فى يوم الأحد ثالث عشرى مسرى القبطى ، الموافق لثامن عشرى رجب ، زاد النيل ما كان نقصه ، ووفى ست عشرة ذراعا واصبعا من السابعة عشرة ، وكان النقص أربع أصابع عن الوفاء ، فزاد النقص وأوفى وزاد أصبعا من السابعة عشرة ، وذلك من فضل الله تعالى على عباده . فلما كان يوم الاثنين تاسع عشرى رجب الموافق لرابع عشرى مسرى فتح السد وجرى الماء فى الخليج الحاكمى والناصرى ، وقد قيل فى المعنى :

عجبت لنيل مصر حين وفى
على جور الأنام العاديات
فخضنا فى حديث النيل لكن
مزجناه بأوصاف الفرات

وكان الذى فتح السد فى ذلك اليوم يونس باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة . وبطل ما كان يعمل فى ذلك اليوم من الأسمطه التى كانت تصنع بالمقياس ، والمجامع الحلوى ، والمشنات الفاكهة التى كانت تفرق فى ذلك اليوم . فنزل يونس باشا فى الحراقة السلطانية وتوجه الى السد وفتحه على العادة . ولكن أين الثريا من يد المتناول بالنسبة لما كان يعمل يوم الوفاء بمصر .

ومن الحوادث أنه لما دخل الماء الى بركة الرطلى سكنت العثمانية فى بيوت الجسر قاطبة . وربطوا خيولهم فى القواطين المطلة على البركة ، وأخذوا الأبواب والطيقان والدرابزانات وأوقدوها فى النار ، وكذلك بيوت المصطاحى وحكر الشامى ، وسكنوا فى بيوت الأكابر التى كانت على البركة قاطبة . فامتنعت مراكب البياعين من الدخول الى البركه ، وكذلك المتفرجون ، ومنعوا المتفرجين من الدخول الى الجسر ، وصاروا يهوشون على الناس بالعصى . وأما الجزيرة الوسطى فانها خرجت عن آخرها . ولم يبق منها الا الجدر ، ونقل أصحاب الأملاك سقوف البيوت والأبواب والطيقان ، ولم يدعوا منها غير الحيطان . وأما بركة الأزبكية فان

التركمان نصبوا وطاقهم بهـا ومنعوا المـاء من الدخول اليها وحربوا غالب بيوتها ، وأخذوا غالب ما فيها من الأبواب والطبقان وغير ذلك من الأخشاب

وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب أشيع أن حسن ابن مرعى شيخ عربان البحيرة قد حضر بالأمان ، وكان قد بقى له ادلال على ابن عثمان ، من حين تحيل على السلطان طومان باى وقبض عليه . فلما قابل ابن عثمان قبض عليـه وسجنه بالبرج الذى بالقلعة ، وقبض على ابن صقر ، وقبض على ابن أخى الجويلى ، وسجنهم بالبرج أيضـا . وكان شيخ العرب أحمد بن بقر أتى ليقابل ابن عثمان ، فلما رأى ما جرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع بعد أن دخل القاهرة ، ومضى الى الشرقيه . وقد شمت فى حسن بن مرعى كل النـاس ، فانه كان سببا لمسـك السلطان طومان باى حتى شنق . والمجازاة من جنس العمل

وفى آخر هذا الشـهر توفى صاحبنا القـاضى أبو الفتح السراجى أحد نواب الحنفية رحمة الله عليه ، وكان عالما فاضلا بارعا فى النحو ، وكان له شعر جيد وألف عدة كتب . وكان من الأفاضل فى عصره ، عارفا بطريقة صـنعة التوقيع ، حسـن العبارة وكان مجلسه بخط جامع ابن طولون وعاش من العمر ما قارب السبعين سـنة ، وكان حسن الهيئة ، وقلت :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى
من حادث عمت مصيبته الورى
زالت عسـاكرها من الأتراك فى
غمض العيون كأنها سنة الكرى
وأتى اليهـا عسـكر سيماهمو
حلق الذقون ولبس طرطور يرى
وأميرهم بين الورى قـد حقرا
لا يعرف الأسـتاذ من غلمـانه
جـل الاله مصـدقا عما حكى
فى سورة الروم العظمـة أخبرا
قد أوعد الرحمن وعدا صـادقا
أن ابن عثمـان يلى وكذا جرى
ولاه رب العرش سـلطانا على
مصر وهـذا الأمر كان مقدرا
أين الملوك بمصر من سـاداتها
مثل البدور تضى وكانت أنورا
يا لهف قلبى للمـواكب كيف لم
تلقى بقلعتها الحزينة عسـكرا
لهفى على ذاك النظـام وحسنه
ما كان فى الترتيب منه أفخـرا
لهفى على ضرب الكرات ولعبها
فى الحوش صارت فى الحضيض الى ورا
لهفى على النشاب والرمح الذى
كانا مع الدبوس يكسر عنتـرا
لهفى على لبس الكلوتة والقبـا
كانا بها التجميل من غير ازدرا
لهفى عـلى تلك التخافيف التى
كانت على الأمراء تزهو منظـرا
لهفى على لبس الكراف بقندس
بطلت وألغوا كل زنط أحمـرا
لهفى على المهماز والخف الذى
كانا نهـار الحرب أصون للثرا
لهفى على أعيـاد مصر كيف قد
أفنت تشـاريفا بهـا ومتمسرا
وكذا الكنابيش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلمعهـا
كانت كبرق أو كليـل أقمـرا

لهفى على الأبواب كيف تكسرت
وخلت أماكنها وصاحبها سرى

لهفى على نهب القماش وبيعـه
وبأبخس الأثمان صارت تشترى

وأشيع بيع الخيمه العظمى التى
للمولد النبوى أحسـن ما يرى

بيعت بأبخس قيمة عمـا حكى
يالهف قلبى كـم يزيد تحسرا

لهفى على شبحو وجامعه الذى
قد كان للصلوات مجمع للورى

درست معالمه بحرق صـار من
بعـد التزخرف والرباضة أغبرا

لهفى على سوق الصليبة كيف قد
أخلت حوانيت به ممـا جرى

لهفى عـلى فك الرخام ونقـله
من كل بيت كان زاه أزهـرا

زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بهـا تزهو على كل القرى

لهفى على الأمراء كيف تشتتوا
وخلت منـازلهم وعادت مقفـرا

لهفى على أتراك مصر اذ غـدت
مكسـورة وقلوبهـا لن تجبرا

لهفى على الفرسان كيف تقطعت
أعنـاقهم بيـد العدو اذ افترى

صارت على الطرقات من أجسادهم
رمم حكت عيد الضحى الأكبرا

لهفى على ذاك الحـريم وهتكه
من بعد صون فى الحريم مخدرا

وتيتمت أطفـال جند قد غدت
أجسامهم نهش الكلاب على الثرى

قتلوا بأصغر بندق من شأنهـا
كالسم تجرى فى الجسوم ولا ترى

لمـا تـسكرت الجراكسـه التى
كانوا بمصر أذلهـم رب الورى

لهفى على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لم يذكـرا

شـنقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقـد أذاقـوه الوبال الأكبرا

يارب فاعف عن عظـائم جرمه
واجعل جنـان الخلد رب له قرا

يالهف قلبى للخليفة كيف قـد
طـردوه عن مصر بجور وافترا

وأذيق من ذل السؤال وفاقة ال
أيدى وأتعـاب بما قـد أقهرا

وكذا بنو عم له قـد أخرجـوا
معه لأسطنبول وامتـد السرى

وكذاك أبنـاء الملوك تحـيروا
عند الخروج ولم يراعوا الأوقرا

وكذاك أعيان التجار وغـيرهم
صـارت دموعهمو بمصر أنهرا

لهفى على الشرع الشريف وحكمه
قد كان فى زمن القضـاة موقرا

يا لهف قلبى للشـهود بمجلس
كانوا بهم تقضى الحوائج للورى

الله أكبـر انهـا لمصيبة
وقعت بمصر ما لها مثـل يرى

ولقد وقفت على تواريخ مضت
لم يذكروا فيها بأعجب ما جـرى

لهفی علی عیش بمصر قد خلت
أيامــه كالحــلم ولى مــدبرا
وأتى من التكدير ما لا مخبـــر
ســمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا
فى هــذه الأيام آخر ما جرى
وتزايد الكرب العظيم لأجله
حتى وفى وبه المنــادى بشرا
قد كان هــذا الانتقام بمصرنا
سبقت به الأقدار كان مصــدرا
ياليت شعرى بعــد هــذا كله
تنفى الهموم ونرتجى فرجا نرى
يارب انا بالنــبى المصــطفى
والأنبياء الكل ســادات الورى
نســألك كشــفا للأمور بسرعة
واعف عن الأجرام عفوا واغفرا
قد جاد لابن اياس شــعر قاله
لكن منه النظم يحكى جــوهرا
ثم الصــلاة على النبى محمــد
والآل والأصــحاب ممن بشرا
ما ماس غصن فى الرياض وغردت
أطيــاره عند النسيم اذا سرى

***

وفى أول شــعبان المكرم وكان مســتهله يوم الأربعاء ، أشيع أن شيخ العرب أحمد بن بقر لما رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة ، وسجنه بالبرج ، خاف على نفسه ، وخرج من القاهرة على حين غفلة ، وتوجه الى جهات الشرقية ، ولاقتــه العربان . ولو تكاسل يوما واحدا لقبض عليــه ابن عثمان وسجنه ، كما قد فعل بحسن بن مرعى .

وفيه أشيع أن جماعة من العثمانية قتلوا أميرا من أمراء ابن عثمان وهو نائم على فراشه ، وكان صاحب صنجق ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وقيل قبضوا على من فعل ذلك من العثمانيه وشنق منهم جماعة من اجل ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة بمصر ، ويولى ملك الأمراء خاير بك عوضا عنه لأمر قد عن له .

ومن الحوادث ، ان ابن عثمان لمــا سكن فى بيت الأشرف قايتباى المطــل على بركة الفيــل ، وجرى الماء فى الخليج الحاكمى ، أمر بسد الخليج من عند قنطرة عمر شــاه حتى تملأ بركة الفيــل بسرعة .

وفى يوم الجمعــة ثالث شعبان ، أشيع أن ابن عثمان قوى عزمه على العود الى بلاده ، وخروجه من مصر ، فعين شخصا من أمرائه يقال له على بك فى ذلك اليوم ، وصحبته جماعه من العثمانيــة ، بسبب اصــلاح الآبار فى طــريق غزة ، وتنظيف الطرقات من الوعر قبل خروج السلطان ، فلمــا تحقق عسكره أمر خروجه الى السفر لأسطنبول شرعوا فى عمــل برقهــم ، ومشترى أزوادهم ، فارتجت لهم القاهرة بسبب ذلك .

وفى يوم السبت رابع شــعبان ، وقعت حادثة مهولة ... وهى أن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من عسكره نحو أربعه وعشرين انسانا ، وقيل أكثر من ذلك . فلما قبض عليهم رسم بشنق جماعة منهم فى أماكن مختلفة ، وكلب منهم اثنين على باب زويلة ، واثنين على باب الصاغة ، واثنين بين القصرين ، والبقية عند جامع قوصون ، وشىء فى الصليبية ، وشىء فى قناطر السباع . وأشيع أن سبب ذلك ان جماعة من الانكشارية قصدوا أن

بقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس ، فاستدرك أمره ، وتحول الى بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وصار يقبض على من كان سببا لاشاعة قتله .

وفيه حضر الريس سلمان العثمانى الذى كان قد توجه صحبة المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى الى الهند .

وفيه أشيع أن الريس سلمان هو الذى أغرق حسين نائب جدة ، وكان بينهما عداوة من أيام الغورى ، فلما مات الغورى وظفر سلمان بحسين قتله على ما قيل . ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان آسرهم من بحر الهند ممن كان يعبث به ، ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون من هناك .

وأشيع أن الريس سلمان ، وحسين نائب جدة ، كانا فتحا عدة بلاد بالهند من بلاد الشيخ عامر ، وغنموا منها أموالا جزيلة لا تحصى هم والعسكر الذين توجهوا صحبتهما فى أيام الغورى ، وهم من عسكر الطبقة الخامسة التى كان جددها الغورى فى زمانه .

وفى يوم السبت حادى عشر شعبان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية . وفيه أشيع ان ابن عثمان أرسل الى خاير بك الذى قرره فى نيابة السلطنة صنجقا ، وتحقق الناس أنه نائب السلطنة عوضا عن يوس باشا ، وكان ابن عثمان قرره فى نيابة السلطنة قبل ذلك .

وفيه عرض ابن عثمان عسكره بالميدان الذى تحت القلعة وهم لابسو الزرديات ، وفى أيديهم الرماح والأتراس . وأشيع سفره أواخر الشهر الى اسطنبول

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره وقفت جماعة الوالى على أبواب المدينة ، وصاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العوام وغيرهم ، فاذا قبضوا عليهم يضعونهم فى الحبال . وصاروا يقبضون على الناس من شطوط بولاق ، ومن شطوط مصر العتيقه ، وكذلك يقبضون على جمال السقائين بالروايا التى عليها ، فاضطربت أحوال الناس ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، واختفت الناس فى البيوت ، وكثر القيل والقال فى ذلك فمن الناس من يقول انهم يقبضون عليهم بسبب أنهم يمسكون الخيول الجنائب اذا سافر ابن عثمان ، ومنهم من يقول انهم يقبضون عليهم حتى يسافروا بهم الى أسطنبول فى المراكب . فحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذا .

وأما سبب مسك جمال السقائين ، فانهم أشاعوا ان ابن عثمان اذا خرج يأخذ معه جمال السقائين بالروايا الى ان يصل الى غزة ، لأجل عدم الماء فى الطريق من هنا الى غزة ، فامتنع السقاءون من الخروج فى هذه الأيام وعز وجود الماء ، فضجت الناس لذلك ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية .

وفيه خرج الوالى الذى كان ابن عثمان قرره فى ولاية القاهرة ، فخرج وبرز الى الريدانية الى أن يخرج ابن عثمان .

وفيه أشيع ان ابن عثمان أطلق الجماعة الذين كان قبض عليهم من العوام والفلاحين والسوقة ، وكان أشيع عنهم أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول . وكانوا لما قبضوا عليهم سجنوهم فى أماكن متفرقة حتى يكون من أمرهم ما يكون . ثم نادى فى القاهرة بأن لا أحد يشوش على أحد من العوام ولا من الفلاحين ، فسكن الاضطراب قليلا ، وفتحت الدكاكين فى الأسواق ، وخمدت هذه

الحركة . قيل ان بعض وزراء ابن عثمان شفع عنده فى اطلاق الناس الذين سجنوهم كما تقدم .

وفى يوم الجمعة سابع عشره توجه السلطان سليم شاه الى الجامع الأزهر وصلى به الجمعة وتصدق فى ذلك اليوم بمال له صورة ، ثم شق من القاهرة فى موكب ، وكان ذلك آخر مواكبه فى القاهرة ، ثم رجع الى المكان الذى كان به .

وفى يوم الاثنين عشريه عرض السلطان سليم شاه كسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وكسوة ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة . وقد تباهى فى كسوة الكعبة بخلاف العادة ، وتباهى فى زركشة البرقع الى الغاية ، وكذلك فى ثوب المحمل الشريف ، وما أبقى فى ذلك ممكنا .

وفيه أطلق ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا فى سجن الديلم فأطلقهم أجمعين ، وكانوا نحو أربعة وخمسين مملوكا ، وقد راج أمر المماليك الجراكسة قليلا .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشريه خرج القاضى محب الدين بن أجا — كاتب السر الشريف وصاحب ديوان الانشاء — فخرج هو ونساؤه وعياله وصهره الجمالى يوسف بن الطحان ، فخرجت النساء فى محائر وشقادف . فلما خرج القاضى كاتب السر سكن فى بيته الذى عند قنطرة سنقر الوزير يوسف البدرى .

وفى يوم الخميس ثالث عشرى شعبان خرج وتوجه الى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه بن عثمان ، فخرج من بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وشق من الصليبة وطلع الى الرميلة ، فخرج فى موكب حافل ، وقدامه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب الشام ، وقدام العسكر طبلان ورمران وعدة جنائب حربية . وكان راكبا على بغلة صفراء عالية — قيل انها من بغال السلطان الغورى كان يركبها فى الأسفار — وكان عليه قفطان مخمل أحمر ، وقدامه جماعة من الوزراء ، منهم يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء والجم الكثير من عساكره ما بين مشاة وركاب . فطلع من جهة الصور ، ونزل من جهة تربة الأشرف قايتباى ، ووقف هناك وقرأ سورة الفاتحة وأهداها اليه . وكان قدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط المرعبة . ثم شق من بين الترب الى تربة العادل التى بالفضاء ، واستمر على ذلك حتى نزل بالوطاق الذى نصبه ببركة الحاج . ولو شق من القاهرة لكان يوما مشهودا ، ولكن خرج على حين غفلة فلم يشعر به أحد من الناس .

ولما خرج من بين الترب قسم عسكره فرقتين: فرقة مرت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة من تربة العادل ، ثم تلاقوا على بركة الحاج . ولما وصل الى الوطاق لم ينزل به وتوجه على ظهر الخانقاه فنزل هناك .

ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره ، ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك ، نحو خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام . وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا ، وجعله نائب القلعة ، يقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوى ملك مصر

الذي افتخر به فرعون اللعين حيث قال : « أليس لى ملك مصر » وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ويتم أطفالها ، وأسر رجالها ، وبدد احوالها ، وأظهر اهوالها فلم يدخل اليها أحد من الخوارج ، ولا ملكها قط أحد ، ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان فى زمن بختنصر البابلى ، فقد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من بختنصر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ، ما بين ذهب وفضة ، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس والمكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ، وأخذ منها من كل شىء أحسنه ، مما لم يفرح به آباؤه ولا أجداده من قبله أبدا وكذلك ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره ، فانهم غنموا من النهب مالا يحصى وصار أقل ما فيهم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف ، مما غنمه من مال وسلاح وخيول وغير ذلك ... فما رحلوا عن الديار المصرية الا والناس فى غاية البلية .

وفى مدة اقامة ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل . وبطل منها نحو خمسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ، ولم يعمل بها فى أيامه بمصر . وكانت مدة اقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر الا أياما قلائل . ومدة استيلائه على مصر والبلاد الشامية والحلبية من حين قتل الغورى ، واستيلائه على حلب الى خروجه من مصر ، سنة وشهر واحد . وهو مالك من الفرات الى مصر الى الشام ، ويخطب فيها باسمه ، وكذلك السكة على الذهب والفضه باسمه ، وكذلك ما حول العراقين ، وقد وعده الله بذلك .

وفى مدة اقامه ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوما من ظالم[1] بل كان مشغوفا بلذته وسكره واقامته فى المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه . فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الچراكسة ، وما كان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض لا يثبت على قول واحد كقول الملوك وعادتهم فى أفعالهم ، وليس له سماط يعرف ، ولانظام كعادة السلاطين فى سماطهم كانت تجلس عليه الخاصكية فى كل يوم .

وأما عسكره فكانوا جميعا عيوبهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ، وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين ، يتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم ، وهم همج كالبهائم .

ولما خرج ابن عثمان من مصر ، رسم لابن السلطان الغورى بأن يسافر معه فيرز سنبحه ، وخرج وسافر صحبته . وأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج مع ابن عثمان كان وعده بنيابة الشام ، بل قيل انه ولاه نيابة طرابلس ونيابة صفد ونيابة غزة ونيابة الرملة وبيت المقدس وجبل

(١) فى الاصل : « ولا أنصف ظالما من مظلوم » .

نابلس ولم يوله نيابة الشام ، فشق ذلك عليه ، ثم قرره فى نيابة الشام وتوجه اليها صحبته .

وفى يوم السبت خامس عشريه نادى خاير بك بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى . فظهر منهم الجم الكثير وهم فى أسوا حال فى زى الفلاحين ، وعليهم زنوط قرع وبرد سود وقمصان بأكمام كبار . فاذا رآهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وفيه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى بلبيس ، وحصل له توعك فى جسده ، فأرسل الى خاير بك يطلب محفة ، فأرسل له خاير بك محفة الى بلبيس .

وفى يوم الأحد سادس عشرى شعبان ، طلع المقر السيفى ملك الأمراء خاير بك بن بلباى نائب السلطنة بالديار المصرية الى قلعة الجبل ، فكان له موكب حافل ، وقدامه عدة جنائب بغواشى حرير أصفر ، وقدامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاة يرمون بالنفط ، وقدامه الجم الكثير من عسكر ابن عثمان . فشق من الصليبة بعد طلوع الشمس ، وطلع الى القلعة وأقام بها ... وصارت مصر نيابة بعد أن كانت سلطنة ، وتقلبت الأحوال ، وكثرت الأقوال . وقد قلت فى خاير بك لما تولى نيابة السلطنة شعرا وهو :

مصر أضحت فى سرور عندما
قد تولى للنيابة خير بك
فلسان الحال عنها قائل
يالعمرى قد أتانى خير بك

فلما أقام خاير بك بالقلعة ، أرسل خلف البنائين والنجارين والمبلطين ليرموا ما فسد من أماكن القلعة . ثم ان خاير بك خلع على شخص من الأتراك يقال له كسبغا ، وقرره فى ولاية القاهرة وهو مملوكه .

وفيه خلع ملك الأمراء خاير بك على جماعة من المباشرين وقررهم فى وظائف سنية : فخلع على القاضى ناظر الجيش « علاء الدين ابن الامام » وقرره كاتب السر الشريف ، عوضا عن محمود بن أجا بحكم توجهه الى السفر كما تقدم ، وقرره ناظر الجيش ايضا عوضا عن الشهابى أحمد ابن ناظر الخاص ، وأبقى علاء الدين فى نظارة الخاص مضافة لما بيده من هده الوظائف . وقيل انه قرره فى نظر الكسوة الشريفة ، وجعله أمير ركب المحمل أيضا ، فصار بيده خمس وظائف سنيه ، فتضاعفت عظمته فوق ما كان .

وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وقرره مدبر المملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصورى ، وناظر الدخيرة الشريفة ، وغير دلك من الوظائف . وتزايدت عظمته ، واجتمعت الكلمة فيه ، وصار عزيز مصر فى هذه الفترة ، فتوجه الناس الى بابه لقضاء حوائجهم ، وصار هو حاكم البلد ، وقد قلت فيه :

يا نجل موسى عدت بالبركات فى
أعلى المراتب حيث كنت وأزيدا
قد كان قطعا زال عنك ولم تزل
فى السعد عالا على رغم العدا

وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر على عادته ، ورسم له بأن يتوجه الى مكة من البحر المالح وكسوة الكعبة بصحبته .

وخلع على القاضى شرف الدين الصغير وقرره متحدثا فى ديوان الوزارة . وخلع على الشرفى يونس النابلسى وقرره استادار العالية وصاحب الديوان المفرد . وخلع على فخر الدين وأخيه\

شمس الدين كاتب المماليك ، وقررهما فى التحدث على جهات الذخيرة . وخلع على عبد العظيم الصيرفى وقرره فى استادارية الشعير وغير ذلك من الوظائف ... فنزلوا من القلعة وهم بالقفطاطين المخمل عوضا عن الخلع ، فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ، وهذا أول تصرف خاير بك فى أحوال المملكة .

وفيه أشيع أنه قد عقد لخاير بك على خوند مصرباى زوجة الظاهر قانصوه .

وفيه ظهر الزينى أبو بكر ابن الملكى وكان له مدة وهو مختف ، فلما ظهر خلع عليه خاير بك قفطانا مخملا ، وقرره فى استيفاء الجيش على عادته

وفى يوم الثلاثاء ، ثامن عشرى شعبان ، حضر الأمير قايتباى الذى كان نائب الكرك ، وكان قد ارسله خاير بك الى ابن عثمان بمطالعة من عنده لأجل أن جماعة من عسكره الانكشارية ثاروا على خاير بك ، وقالوا له « رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ المماليك الجراكسة ، واجعل لنا لحما وعليقا مثل الجراكسة » فقال لهم : « حتى أرسل أستأذن استاذكم بذلك » .. فأرسل الأمير قايتباى نائب الكرك الى ابن عثمان بسبب ذلك . فلما حضر ما علم احد بما أجاب ابن عثمان عن تلك المطالعة التى أرسلها بسبب جماعه الانكشارية كما تقدم . فلما حضر قايتباى أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى الخطارة قطع رأس يونس باشا ، ولا يعلم ما سبب ذلك . وكان يونس باشا أعظم وزرائه ، وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع الأتراك . وكان قرره أولا فى أن يكون نائبا عنه بمصر ، ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك فى النيابة . وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء ، ويقال ان يونس باشا هو الذى كان سببا لولاية سليم شاه على مملكة الروم دون اخوته ، فما زال يجتهد ويسعى حتى ولاه الروم ، ثم سار معه على ذلك حتى دخل الى مصر وملكها .. ولكن سليم شاه ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ، ولا آمان منه لأحد من وزرائه ولا من عسكره ، ومن طبعه الرهج والخفة ، ويحب سفك الدماء ولو كان لولده . ويقال انه قتل آباه واخوته لأجل مملكة الروم ، وآخر الأمر قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة ، وكان يونس باشا يظن أن سليم شاه يرعى له الود القديم ، فكان كما قيل فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من آمله
رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

فلما آشيع قتل يونس باشا ، اضطربت القاهرة وغلقت أبواب المدينة من بعد العصر ، وخشوا من هجمة العرب على المدينة ، ثم سكن ذلك الاضطراب قليلا .

* * *

وفى شهر رمضان ، وكان أوله يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الرؤيا ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب من المدرسة المنصورية ، وقدامه الفوانيس موقودة والمشاعل كذلك على العادة ، وكان له موكب حافل .

فلما كان صبيحة شهر رمضان ، خلع ملك الأمراء خاير بك على القاضى شرف الدين الصغير وابن موسى ، قفطانين مخملين كما هى عادتهم فى أول شهر رمضان ، ونادوا فى القاهرة بأن لا أحد يحتمى على الزينى بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة .

وفى يوم الخميس ، مستهل الشهر ، خلع ملك الأمراء خاير بك على الأمير قايتباى الشهير

بنائب الكرك وقرره فى الدوادارية ، وكانت شاغرة من حين مات الأمير علان الدوادار .

وفى يوم الخميس ثامن شهر رمضان طلعت الى القلعه خوند مصرباى — وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء خاير بك قد تزوج بها — وطلعت الى القلعة فى ذلك اليوم قبل شروق الشمس وصحبتها نساء كثيرة من نساء أعيان وهن على حمير المكارية .

وفى يوم الجمعة تاسع الشهر آشهروا فى القاهرة أربع نسوة ، وهن على حمير ووجوههن ملطخة بالسواد ، قيل انهن كن يجمعن عندهن الأجانب من الأتراك فى شهر رمضان ، ويأتين لهم بالنساء الأجنبيات ، فغمز عليهن ، وأمر خاير بك باشهارهن على تلك الحالة .

وفى يوم السبت عاشره ظهر الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقيه ، وقد أرسل اليه ملك الأمراء خاير بك منديل الأمان ، وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة . فلما طلع الى القلعة ، وقابل خاير بك ، خلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل فسكن فى بيت الأمير قانصوه جركس الذى فى حارة السقائين . وأشيع ظهور جماعه من الأمراء العشراوات .

وفيه قابل شيخ العرب أحمد بن بقر ، وخلع عليه وعلى ولده بيبرس ، وقد التزما باصلاح جهات الشرقيه ولم يتم ذلك . واستمرت أحوال الشرقية فى غاية الفساد من عبد الدائم بن بقر واخوته .

وفى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان — وكان أول بابه من الشهور القبطيه — ثبت النيل المبارك على اربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، واستمر فى ثبات الى آخر أيام بابه ، وشرق غالب بلاد الصعيد ، وأكثر البلاد العالية التى لا تروى الا من عشرين ذراعا ، وكان نيلا شحيحا من أوله الى آخره .

وفيه ظهر أبو البقاء ناظر الأسطبل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر ألبسه خاير بك قفطانا مخملا ، وأقره على عادته متحدثا على جهات الاسطبل الخاص .

وفى يوم الاثنين المقدم ذكره ، عرض ملك الأمراء خاير بك كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ، وكسوة مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدة ستور من قبل ابن عثمان ، وقد تناهوا فى زركشة البرقع ، وسبيج كسوة الكعبة الى الغاية ، بخلاف العادة . فشقوا بها من القاهره وقدامهم الأعيان من المباشرين والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، وكان ذلك اليوم مشهودا . فلما طلعوا الى القلعة عرضوا على خاير بك نائب السلطنه ، ثم رجعوا ثانيا من حيث جاءوا .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر رمضان ، نادى ملك الأمراء خاير بك ، بأن المماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر يركبون الخيول ويشترون السلاح ، وكان قبل ذلك نادى فى القاهرة لتجار القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا من آلة السلاح ، فشق ذلك على العثمانية ، ووقفوا لخاير بك فى الحوش ، وكلموه وأرادوا معه فتح باب الشر ، وقالوا له : « نحن ما يكفينا هذا القدر الذى رتبته لنا ، وهو ثلاثة أنصاف فى كل يوم ، وكل شىء فى السوق عال » . ثم قالوا له : « رتب لنا جوامك فى كل شهر ألفين ، ولحما وعليقا ، وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة » . وأغلظوا عليه فى القول ، فقال لهم :

« ليس لى هـذا التصرف ، لأنى انـما أنا نائب السلطنة ، وهذا لا يكون الا بأمر السلطان ، فهو الذى يفـرق عليكم الاقطاعات ، ويجعل لـكم الجوامك واللحوم والعليق » . فلما سمعوا ذلك منه سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله ، فقام ودخل البيت مسرعا ، وأغلق عليه الباب دونهم . فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب بالقلعة ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة . وثاروا على خير الدين الذى جعله السلطان نائب القلعة ، فأغلق باب القلعـة واختفى . ثم أشيع أن خاير بك أرسـل الى ابن عثمان ساعيا يخبره بما وقع من أمر هذه الحركة ، وعول خاير بك على رد الجواب عن ذلك .

وفى يوم الاحد ثامن عشر رمضـان ، نادوا فى القـاهرة بأن المماليك الجراكسـة الذين ظهروا يلبسون الزنوط الحمر والملاليط على عادتهم ، ولا يتزيوا بزى العثمانية ولا يخرجوا الى الطرقات . وسبب ذلك أنه أشيع أن جماعة من الجراكسـة يتزيوا بزى العثمانية ، ويخرجون الى الطرقات . ويخطفون عمائم النـاس . وما بلوح لهـم من البضائع وغيرها فى حجة العثمانية . فـنادى خاير بك تلك المناداة حتى يمتاز الجراكسه من العثمانية ، ولم يفد ذلك شيئا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خرج الشهابى أحمد ابن الجيعان نائب النسر . ومصـلح الدين خازندار ابن عثمان ، وصحبتهما كسوة الكعبـة الشريفة وهى محزومة محملة على الجمال ، وأشيع أنهما يتوجهان بها من البحر المالح الى جـدة الى مكة المشرفة ، فكان لهما فى القاهرة موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صحبتهما ألفا عثمانى وقدامهـم طبلان وزمران ورماة بالنفط وركب قدامهما الأمير قاينباى الدوادار الكبير ، وأعيان المباشرين ، فلما خرجوا من القاهرة رجت

لهم مصر ، فخرجوا من باب النصر ، وتوجهوا الى الوطاق بالريدانية .

وفى ذلك اليوم ثارت جماعة من العثمانية على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، بسبب الفلوس الجدد ، فان ابن عثمان ضرب فلوسا جددا وجعل فيها اسمه ، ورسم للسوقة ونادى لهم بأن يصرف كل ستة عشر جديدا بنصف فضه معاددة . وكانت هذه الفلوس فى غاية الخفة ، فحصل للناس الضرر الشـامل بسـبب ذلك ، ووقف حالهـم وغلقت الدكاكين . فلما جرى ذلك نادى الزينى بركات بن موسى بأن النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين جديدا ، ليعرف الدرهم الفلوس من الدرهمين فى المعاملة ، فثارت العثمانية على ابن موسى ، وقالوا له : « هل مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، حتى تبطل من مصر معاملتـه » ؟ وهموا بضربه فنادى فى ذلك اليوم بأن كل شىء على حاله من الفلوس ، كل ستة عشر جديدا بنصف فضة كما كان فى الأول . فأغلقت السوقة دكاكينهم ، ورفعوا البضائع ، ووقع فى القاهرة بعض اضطراب .

وأشيع أن خاير بك نائب السلطنة صـنع من الخوازيق الحديد عدة ، وأنه بعد العيد يخوزق جماعة من السوقة على باب القاهرة ، فلما أشيع ذلك خافت السوقة وفتحت الدكاكين ، ومشـوا صرف النصف بسـتة عشر جديدا ، كما كان فى الأول .

وفى يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضـان ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى تربة العادل ليودع مصلح الدين والشـهابى أحمد بن الجيعان ، فودعهما ورجع ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه نحو ألفين من العثمانية ، وجماعة مشاة يرمون بالنفط ،

فرجت له القاهرة فى ذلك اليــوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، وهــذا أول مواكبه بالقاهرة من حين تولى نيابة السلطنة .

ثــم فى يوم الخميس ثانى عشريه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ثانيا ، وتوجه الى باب الشعرية ، وزار الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وجلس عنده ساعة . فقيل ان الشيخ عبد القادر قال له استوص بالرعية فانك تسأل عن ذلك يوم القيامة . فبكى خاير بك ، وقبل يده وخرج من عنده ، وعاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم السبت رابع عشرى شهر رمضان ، ظهر الأمير آرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين . فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خاير بك ومنديل الأمان على رأســه ، قام له خاير بك واعتنقــه وأجلسه بين يديه . وكان لما طلع القلعة لابسا زى العرب ، وعليه زنط وشاش وملوطة بأكمام كبار ، فألبسه خاير بك قفطانا مخملا بتماسيح ، وألبسه عمامة عثمانية . وكان لما قابله معه ستة أنفار ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، فخلع عليهم قفاطين مخملة ونزلوا من القلعة الى أماكن أعدت لهم .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرى شهر رمضان ، ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وحضر ملك الأمراء خاير بك والقضاة الأربعة وجماعة من أعيان العلماء والفقهاء وأعيان المباشرين .

فلما انفض المجلس خلع خاير بك على القضاة قفاطين من جوخ أزرق بوجه صوف ، وفرق على الفقهاء والعلماء صررا فيها دراهم ، وكان ختما حافلا . وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل فى ختم السلاطين الماضية فى مثل هذا اليوم .

ولما سافر سليم شاه بن عثمــان ، وخرج من مصر ، استمرت الخطبــة والسكة عمالة فى مصر باسمه ، فكان سائر الخطباء يدعون فى يوم الجمعة باسمه ، ويقولون : « وانصر اللهم السلطان الملك المظفر سليم شاه » . وكذلك اسمه على الدنانير والدراهم والفلوس الجدد .

* * *

ثم كان مستهل شوال يوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة وجماعة من أعيان المباشرين ، فخرج ملك الأمراء خاير بك وصلى صلاة العيد بجامع القلعه .

ثم أنه مد مدة حافلة لجمــاعة من العثمانيــة ، فنزلوا على ذلك السماط مثل الصقورة ، فلم يبقوا منه غير العظام ، ولم يفضل لغلمان القلعة شىء . وكان خاير بك يظن أن الأمراء الجراكســة الذين ظهروا والخاصكية يطلعون ويحضرون المدة ، فلم يطلع له أحد من هؤلاء ، وخافوا أن تكون مكيدة أو حيلة . وكان هذا اليوم لم يكن عيدا ، بل كان فى غاية الخمود فى كل شىء .

وفى هذا العيد لم يخلع خاير بك على أحد من قضاة القضاة ، ولا على أحد من المبــاشرين قاطبة كما كانت العادة القديمة .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى نحو البريم على سبيل التنزه ، ونصب له هناك خياما ، وأراد أن يبيت على شاطىء البحــر ، وأحضر جمــاعة ممن يقلون السمك ، وقصد أن ينشرح فى ذلك اليوم هناك ، فصنع له السيد نقيب الأشراف مدة حافلة وأحضرها هنالك ، فخرج عليها جماعة من العثمانية فى أثنــاء الطريق ، فخطفوا ذلك الأكل من فوق رءوس الحمالين . فلما بلغ خاير بك ذلك تنكد من العثمانيه بسبب هــذه الفعلة ، ولم يكن له عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له فى سائر الأحوال .

وفى ذلك اليوم فتح البريم بحضرة خاير بك ، وأحضر جماعة من الصيادين فى مراكب ومعهم أسماك كثيرة ، فصار القلايون يقلون من هذه الاسماك ويطعم العسكر الدين بصحبته ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، وأقام هنالك الى ما بعد العصر ، ثم نزل فى مركب وشق من جهة الروضة ، وطلع من بر مصر العتيقة الى القلعة .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان أرسل مطالعة الى خاير بك على يد ساع ، فكان من مضمونها انه وصل الى الشام ودخل اليها ، وزينت له لما دخلها ومن مضمون تلك المطالعة أن ابن عثمان أرسل يطلب من خاير بك أربعين ألف أردب شعير وقمح يرسلها له فى مراكب من البحر المالح الى الشام ، فألزم خاير بك المباشرين بذلك ، فأخذوا فى تجهيز ذلك وارساله من البحر كما برز الامر .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من عند الجماعة الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول ، بأن مركبا من المراكب التى توجهوا بها قد غرقت فى البحر المالح ، وغرق للناس فيها جملة مال ، وغرق فيها أربعمائة انسان ، وفيهم جماعة من الأعيان الذين خرجوا من مصر ، ولكن لم يثبت الى الآن أسماء من غرق فيها من الأعيان .

وقد أشيع أنه كان فيها يبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ، وحضر صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب قراكز الجكمى رأس نوبة عصا ، الذى كان محتسبا بمكة ، وكان بها نحو أربعين مملوكا ، وكانوا صحبة باش المجاورين ، وحضروا صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة . وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب محمد بن ابراهيم السرابيتى . الذى كان ناظر الاوقاف المتعلقة بالزمامية فى أيام السلطان الغورى ، وكان بها غير هؤلاء جماعة كثيرة من الناس فأشيع غرقهم أجمعين ، ولكن لم يتأكد القول بذلك الى الآن . وأشيع غرق جماعة من البزدداريه الدين كانوا خرجوا من مصر ليتوجهوا الى اسطنبول . وأشيع أن الطاعون عمال باسطنبول وبها الوخم والغلاء ، وهذا ما أشيع والله أعلم بصحة ذلك .

وفى يوم السبت خامس عشر شوال ، حضر أمير من عند ابن عثمان من الشام يقال له الأمير على ، فيل هو الذى كان واليا بالقاهرة لما كان بها ابن عثمان ، فخرج الأمير قايتباى الدودار الى ملاقاته ، فدخل من باب النصر .

وحضر صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، وجماعة من المماليك المتعلقين بسلك الأمراء خاير بك الذين كانوا بحلب . فيل انهم نحو ثلثمائة مملوك ، فأنزلوا هذا القاصد فى بيت الأتابكى سودون العجمى الذى فى قنطرة سنقر ، فلم تصح هذه الاشاعة ، وأنزلوه فى مكان غير ذلك المكان الذى ذكروه ، فأخبر هذا القاصد بأن ابن عثمان دخل الى الشام وهو مقيم بها . وقيل انه يشتى هناك ، وأن أهل الشام فى غاية الضنك والشدة من عسكره ، لأنهم طردوهم عن بيونهم وسكنوا بها ، وحصل منهم لأهل الشام الضرر الشامل أكثر مما حصل لأهل مصر . وأخبر أن الغلاء بالشام حتى بلغ ثمن العليقة الواحدة ستة أنصاف ولا توجد .

واختلفت الأقوال فى مجىء هذا القاصد ... فمن الناس من يقول جاء بسبب استعجال هذا المغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان ، ومن الناس من يقول ان ابن عثمان ولاه نيابة الاسكندرية ،

وقيـل جاء بسبب غير ذلك . والأقوال فى ذلك كثيرة .

وفى يوم الأحد سادس عشره نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى منشيه المهرانى ، بسبب وسق المراكب بالمغل الذى أرسل بطلبه ابن عثمان ، فقيل جهز من المغل نحو ثلاثين ألف أردب قمحا وشعيرا ، وقيل أكثر من ذلك

وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة فى موكب حافل ، وكان أمير ركب المحمل فى تلك السنة القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، الذى قرر فى كتابة السر كما تقدم .

وقد خرج الحاج فى هذه السنة ركبا واحدا ، الأول والمحمل معا . وكان الحاج فى هذه السنة قليلا جدا خوفا من فساد العربان فى الطريق ، لأنه فى السنة الماضية — فى دولة الأشرف طومان باى — لم يخرج المحمل من القاهرة ، ولم يحج فيها من أهل مصر أحد .

ولما خرج القـاضى ناظر الخاص ، طلب طلبا حربيا ، يشـتمل على أربعـة نوب هجن بأكوار مخمل ، وبعض خيول جنائب عليها بركستوانات فولاذ وكنابيش زركش ، وثلاثة خزائن بأغشية حرير أصفر ، ومحفة جوخ أزرق ، وقدامه طبلان وزمران من غير صنجق . وقد احتفل بعمل سنيح حافل بسبب من حج معه من العثمانية فى هـذه السنة .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الأمير قايتباى الدوادار والأمير أرزمك الناشف أحـد الأمراء المقـدمى الألوف الذى ظهر عن قريب ، والأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ، وكان قدامه جماعة من أمراء ابن عثمان ومن عسكره وركب قدامه سائر الأعيان من المباشرين من كبير وصغير ، ثم أتى بعـده المحمل وقدامه القضـاة الأربعة على العادة

وممن حج فى هـذه السنة من الأعيان قاضى القضـاة محيى الدين المالكى — وهو ابن الدميرى — فألبسه خاير بك قفطانا محملا ، وقرره قاضى المحمل وحج آخـرون من الأعيان لايحضرنى أسماؤهم الآن .

وقد جـدد ابن عثمان كسوة المحمل فى هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخـرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، ولما شقوا من القـاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة . هذا ما كان من ملخص خروج المحمل فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت ثانى عشريه خلع ملك الأمراء خاير بك على قانصوه العـادلى قفطانا مخملا بتماسيح ، وقرره كاشف الشرقية كما كان أولا .

وفى يوم الأحد ثالث عشريه قبض الوالى على خمسة أنفار من العثمانيه أشيع عنهم أنهم يخطفون العمائم ويعرون الناس فى الطرقات ، وأنهم يخطفون النساء والصبيان المرد ، وتزايد منهـم الفساد . فلما قبض عليهم ، رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان أن يشـنقوا على باب زويلة فشنق منهم اثنان على باب زويلة ، وواحد على باب الشعرية . وأما الاثنان فقد شفع فيهمـا من الشنق فى ذلك اليوم فسجنا

وكانت العثمانية الذين بمصر كثر منهم الأذى فى حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم ، وصـاروا لا يسمعون لخاير بك كلامه ، ولا له عليهم حرمة .

وفى يوم الاثنين رابع عشرى شـوال توجهت المماليك الجراكسة الى بيت الأمير قايتباى الدوادار

بسبب أنه وعد المماليك أنه يصرف لهم جوامك فى ذلك اليوم ، فطلع الى القلعه واجتمع بملك الأمراء خاير بك ، وأقام بالقلعه الى قريب الظهر ، والمماليك الجراكسة فى انتظاره على بابه ، فلما نزل قال لهم : « يا أغوات شاورت ملك الأمراء عن أمركم ، فقال حتى نجمع المال ، وننفق عليهم الجوامك » . ولم يواعدهم على يوم معين ، فرجعوا من عنده بغير طائل .

وقد صارت المماليك الجراكسة فى غاية الذل من الفقر والعرى ، ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به ، ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشترى به كبشة فول يأكلها ، فسبحان من يعز ويذل . وصاروا يمشون فى الأسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت تأويهم ، ولا اصطبلات ولا عبيد ولا غلمان ، وقد نظر الله اليهم بعين المقت جزاء ما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر الجبابرة بعز سلطانه .

* * *

وفى يوم الأحد كان مستهل ذى القعدة الحرام ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بالشهر ، وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم الخميس خامسه خلع ملك الأمراء على يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان أولا ، فخلع عليه قفطانا مخملا عوضا عن المتمر . وقد صارت الأمراء الجراكسة الذين ظهروا كلهم بقفطانات مخملة ، وبعضهم بقفطانات جوخ وطراطير جوخ أسود ، وعليهم عمائم مدورة ، وفى أرجلهم سقمانات جلد فى زى العثمانية ، فصارت الأمراء الجراكسة والمماليك السلطانية كلهم على هذه الهيئة ، واختلط العثمانية مع الجراكسة ، حتى صاروا لا يعرف هذا من هذا الا بشىء واحد وهو أن المماليك الجراكسة تعرف بذقونهم ، والعثمانية بغير ذقون . وقد قلت فى هذا المعنى مواليا :

امشى مع الدهر قدر الجهد يا غلطان
واخلع ثياب المواكب واتبع السلطان
فى لبس سقمان أو طرطور أو قفطان
وكن مع القوم فى الملبوس والأوطان

وفى يوم الأحد ثامن الشهر ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة باكر النهار ، وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ومد فى ذلك اليوم مدة حافلة ، واهدت اليه جماعه من المباشرين مجامع حلوى ، ومشنات فاكهة ، وسكر وخرفان شوى ، وأقفاص أوز ودجاج ، وغير ذلك أشياء فاخرة ، على أعناق الحمالين وظهور الدواب ، وكان يوما سلطانيا . ولم يتم حتى وقعت حادثة ... وهى أنه فى ذلك اليوم بعد العصر ، نزل جماعة من العربان من نحو الجبل الأحمر ، بالقرب من سبيل علان ، فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال محملة قمحا وبطيخا ، فأخذوا منهم نحو أربعين جملا ، وذهبوا بها الى الجبل ، ومضوا بها ولم تنتطح فيها شاتان . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد غاية النكد بسبب ذلك ، فلما ذهبت العرب بالجمال أتى الفلاحون الى ملك الأمراء واستغاثوا بين يديه وبكوا ، فقام من وقته وهو منكد ، وطلع الى القلعة بعد العصر ، ولم يخرج من يده شىء فى رد الجمال من أيدى العربان الى أصحابها .

وفى يوم الثلاثاء عاشر ذى القعدة حضر الى الأبواب الشريفة شيخ العرب عبد الدائم بن شيخ

بالحارات ، وأقامت الأبواب مغلقة الى ضحوة النهار ، ثم فتحت بعد ذلك . وسبب ذلك أن حسن ابن مرعى شيخ عربان البحيره ، الذى كان سببا لمسك السلطان طومان باى ، تحيل عليه السلطان سليم شاه بن عثمان حتى قبض عليه ، وقيده بقيدين ، وأودعه فى الاعتقال فى طبقة عند باب القلعة ، ووكل به جماعة من العثمانية يحفظونه ، فأقام على ذلك مدة ، وعافلهم ، وبرد القيدين بمبرد حديد ، وتدلى بحبل من السور الذى بالقلعة ، وهرب بعد العشاء من القلعة . فلما بلغ ملك الأمراء هروب حسن بن مرعى من القلعة تنكد لذلك غاية النكد ... وهرب حسن بن مرعى وفاز بذلك ، ونخوف الناس من هروبه

وفيه وردت الأخبار من الشام ، بأنه لما أقام بها ابن عثمان وقع بها فى تلك الايام وخم عظيم ، ومات من عسكره جماعة كثيرة من ذلك الوخم . وأشيع موت حليم چلبى فقبه ابن عثمان وندبمه ، وأشيع موت أخى حليم چلبى أيضا ، ومات من أمرائه جماعة كثيرة ، وأنه وقع بالشام غلاء عظيم ، حتى وصلت كل علبقة الى خمسة أنصاف ، ووصل سعر الرغيف الخبز نصف فضة وأن عسكره تقلق من الغلاء والوخم ، وتفرقوا عنه فى الضياع والجبال

وأشيع أن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكه من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار ، وطردوا الناس من بيوتهم وسكنوا بها ، وخربوا غالب بيوت الشام ، وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر ، أكثر مما حصل منهم فى حق أهل مصر من الفساد بها

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع فى هذا الشهر

من أن جماعة من المباشرين بالديوان المفرد ، منهم يوسف النابلسى الأستادار ، وفخر الدين وأخوه أولاد ابن عوض ، وبركات أخو شرف الدين الصعير . وشرف الدين الكبير ، وأبو بكر بن الملكى مستوفى ديوان الجيش ، وبركات بن موسى وعلاء الدين ناظر الخاص . وعبد العظيم أستادار النعير ... فهؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، اتفقوا على أخذ أموال المسلمين ، فاستباحوا أموالهم ودماءهم ، وما ذاك الا أن غالب البلاد قد شرق فى هذه السنة بسبب خسة النيل . وكان المباشرون التزموا بتغليق المال الذى على البلاد ، فلما حصل هذا الشراقى ضربوا مشوره بين بعضهم وقالوا : « نحن فى العام الماضى أوقفنا اقطاعات أولاد الناس التى بالمناشير ، وأخذنا خراجهم ، وفى هـذه السنة أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية ، ونضع أيدينا على خراجها فى هذه السنة فى نظير شراقى البلاد » فطلعوا الى ملك الأمراء خاير بك ، وعرضوا عليه ذلك وحسنوا له عبارة فى استخراج خراج الرزق فى هذه السـنة فى نظير الشراقى ، فقال لهم : « انزلوا افعلوا ذلك » فنزلوا من عنـده ، وأطلقوا فى الناس النار ، وأرسلوا العمال بالمراسيم الى البلاد ليستخرجوا منها الأموال من الرزق التى بالمربعات قاطبة ، حتى الرزق الأحباسية ، ولو كانت الرزقة تشترى بمربعة شريفة . فضجت أولاد النـاس والنساء الأرامل من هذه الحـادثة المهولة ، وحصل الضرر الشـامل للأرامل والأيتام . والله تعالى لا يغفل ولا ينام .

وصار الناس يقفون الى ملك الأمراء خاير بك ، ويشكون اليه ذلك ، فيقول لهم : « أنا أوقفت المناشير والمربعات بأمر الخنكار ابن عثمان » ، فنزلوا من عنده فى أسوأ حال ، وصاروا يسألون الأستادار بمال يدفعونه له حتى يفـرج عن رزقهم ، فلا يجيبهم ولا يقضى لهم حاجة .

ثم ان فخر الدين بن عوض — لا جـزاه الله خيرا — استدرج من الرزق الى خراج بلاد الأوقاف التى كانت بالمكاتيب الشرعيه ، فصـار يستخرج خراج الأوقاف ويأكله على أصحابه رغما عن أنفهم ، فحصل للناس فى هـذه الحركة غاية الضرر الشامل ، وقد اشتد الأمر على الناس بسبب ذلك ، وكل هـذا من المباشرين وأذاهم فى حق المسلمين . وقد قلت فى المعنى مواليا :

كان ابن عثمان مذ جا مصر مثل الضيف
رحـل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجـوروا فى الشتا والصيف
أطراف أقلامهم تفعل مثل فعل السيف

وفى يوم الأحد ثانى عشرى ذى القعدة ، خرج الأمير قايتباى الدوادار ، وعدى الى بر الجيزة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، ومعهم مكاحل نحاس ومدافع نحاس وعجل ، وقد أشيع أن عدة قبائل من العرب نزلوا على الجيزة فافتتنوا مع عرب عزالة ، وحصل منهم غاية الفساد . فخرج الأمير قايتباى وصحبته تجـريدة وعسكر من الچراكسة بسبب العـربان وطـردهم عن البلاد فخرج وقام فى بر الجيزة الى أن يتكامل العسكر .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، اجتمع المماليك الچراكسـة فى بيت الأمير قايتباى الدوادار — وهو بيت الأتابكى قـرقماس الذى عند حـوض العظام — واجتمع القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، ولم يكن الأمير قايتباى الدوادار حاضرا ، بل حضر أخوه جان بك . فأنفقوا على المماليك الچراكسة لكل واحد منهم ألفا درهم .

وصاروا يستوعبونهم طبقة بعد طبقة ، فأنفقوا عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء رابع عشريه ، وأنفقوا يوم الأربعاء ويوم الخميس أيضا ، وقد ظهر من المماليك الجراكسة الجم الكثير فوق الخمسة آلاف مملوك ، وقد كانوا متوزعين فى البلاد عند الفلاحين ، وآخرون قد اختفوا فى البيوت والحارات ، حتى خمدت الفتنة ثم ظهروا بعد ذلك .

وفى يوم الخميس سادس عشريه ، أشيع أن الأمير قايتباى الدوادار ، لما توجه الى بر الجيزه بسبب فساد العربان ، وأقام هنالك أياما حتى يتكامل خروج العسكر ، وردت الأخبار بأن العسكر العثمانى لما توجهوا الى هنالك ، وقع بينهم خلف فى بعضهم ، فوثبوا على باشهم ، وهو شخص من أمراء ابن عثمان ، وراموا قتله فهرب واستجار بالأمير قايتباى . فلما جرى ذلك أرسل الأمير قايتباى كاتب ملك الامراء بما جرى من العثمانية فى حق باشهم .

ثم أشيع واستفاض بين الناس ، أن حمادا شيخ عربان عزالة قد حضر عند ملك الأمراء خاير بك ، وأخبره أن العربان الذين أتوا الى بر الجيزه ، عدة قبائل لا تحصى ، وأن العسكر الذى أرسله لا يقاوم هذه العربان الكثيرة ، فانهم فوق العشرين ألف انسان . ونشأ هذا كله من حسن بن مرعى لما هرب من الحبس ، فانه طاف بالعربان وأنشأ هذا الفساد . ثم قال له : « ان لم تخرج أنت بنفسك ، وتعدى بر الجيزة ، والا فما يقع للعسكر اتفاق بينهم » ، فصلى ملك الأمراء خاير بك صلاة الفجر ، ثم نزل من القلعة وقدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط ، والجم الكثير من العثمانية ، ومعهم صناجق حرير أحمر ... فشق من الصليبه وتوجه الى بولاق ليعدى الى الجيزة .

وفى يوم الجمعة سابع عشريه ، حضر الأمير قايتباى الدوادار ، وكان قد خرج باش التجريدة الذى توجهت الى الدرب ، وأخبر أنه لم يظفر بحسن ابن مرعى ، وتراجع هو والعربان الى الأودية والجبال . وأشيع أن باش عسكر العثمانية هو الذى أهمل فى أمر حسن بن مرعى حتى أخلى من وجه العسكر ، ومضى بجمعه ، ودخل الى الأودية والجبال .

وفى آخر هذا الشهر وقع بين القاضى فخر الدين بن عوض ، وبين خشقدم الاشرفى مملوك السلطان الغورى -- الذى كان شاد الشون وهرب وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، وكان سببا لانشاء هذه الفتنة بين سليم شاه بن عثمان وبين السلطان الغورى -- وقد تقدم القول على ذلك -- فلما دخل ابن عثمان الى مصر وملكها قرر خشقدم هذا كاشف أسيوط مع منفلوط فلما رحل ابن عثمان عن مصر ، وقرر ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بمصر ، عزل خشقدم من التحدث على أسيوط . فلما حضر خشقدم من أسيوط وقع بينه وبين فخر الدين بن عوض فتنة بسبب الرزق التى هناك ، فحصل بينهما تشاجر عظيم ، فتشاتما وتسابا سبا قبيحا . وقال فخر الدين بن عوض لخشقدم : أنت كنت سببا لوقوع الفتنة بين أستاذنا الغورى وبين ابن عثمان ، فتحمل خشقدم من فخر الدين بن عوض ، وشق عليه ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن عشرى ذى الحجة ، طلع خشقدم الى القلعة ، ووقف الى ملك الأمراء خاير بك ، وشكا له فخر الدين بن عوض مما قاله فى حقه ، فتعصب له جماعة من العثمانية ، وأغلظوا على خاير بك فى القول بسبب فخر الدين بن عوص فلما طلع ابن عوص الى القلعة يوم السبت ، وبخه

خاير بك بالكلام ، وقامت عليه الثائرة من أمراء ابن عثمان الدين بمصر ، وقالوا له : « هذا خلى أستاذه الغورى وهرب من عنده وجاء الى الخنكار وصار من جماعته ، وأنت تبهدله وتشتمه ! » ، فقامت البينة على ابن عوض بأنه شتم خشقدم وسبه ، فغضب خاير بك على ابن عوض ، وأمر بوضعه فى الحديد ، وأسلمه للوالى ، ورسم له بأن يوسطه ، فقصد الوالى أن ينزل به من القلعة ليوسطه . فقامت جماعة من المباشرين وتداخلوا على خشقدم ، وأصلحوا بينه وبين فخر الدين بن عوض ، فدخل الى ملك الأمراء خاير بك ، وشفع فيه من التوسيط وقاسى ابن عوض فى ذلك اليوم غاية البهدلة من أمراء ابن عثمان بسبب خشقدم .

وكان ابن عوض مستحقا لذلك ، فانه صار فى هذه الأيام من وسائط السوء ، ولا سيما مافعله فى جهات الغربية . ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم ، واستخراج خراجهم ، وضاعت على الناس حقوقهم ، وحصل منه الضرر البليغ ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفى ذلك اليوم حضر هجان بكتب الحاج ، وقد حضر فى السابع والعشرين من ذى الحجة ، وأشيع عن كتب الحجاج أن مكة بها غلاء ، وقد وصل الحمل الدقيق الى أربعين دينارا ، ووصل الأردب القمح الى عشر أشرفيات ، ووصلت البطة الدقيق الى ثلاث أشرفيات . وكذلك اشتد السعر فى سائر البضائع والأصناف والغلال . وذكروا أنه مات من الجمال ما لا يحصى ، حتى وصل كراء الموهبة الى أربعين دينارا . وذكروا من هذا النمط أشياء كثيرة ، وأن أمير مكة السيد الشريف نادى فى مكة أن لا أحد من الناس يجاور بمكة تلك السنة بسبب الغلاء .

وأشيع عن كتب الحجاج أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد جاور بمكة ، وكذلك مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، وغير ذلك من الأعيان ، والذين كانوا بها نزلوا صحبة الحجاج لما اشتد أمر الغلاء بمكة .

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرت فيها أمور شنيعة لم تجر فى سالف الأزمان ، وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك السلطانية فى فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلما . فقتل من الناس مالا يحصى عددهم ، ولعب السيف فى أهل مصر سبعة أيام ، وقتل فيها ثلاثة سلاطين وهم : الأشرف الغورى ، والأشرف طومان باى ، والظاهر قانصوه — قتل فى البرج بثغر الاسكندرية — وتغير فيها ثلاث دول ، وخربت فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش لا يحصى . وتيتم فيها أطفال ، وترملت فيها نساء ، وجرت فيها مفاسد كثيرة لم يسمع بمثلها . ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه الا فى زمن بختنصر البابلى ، فانه خرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا . فكان النيل يطلع ويهبط ، ويفرش على الأرض فلا يجد من يزرع شيئا من أراضيها . وهذا كله بتقدير الله تعالى فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة ، ورد العاقبة الى خير .

وقد وقفت على كتاب تأليف الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه ، ذكر فيه « أن فى هذا القرن يبدو الخراب فى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر الى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى

يفنى من أهل مصر نحو النصف » . وقد ظهرت علامة ذلك فى هذه السنة . ومن أعظم مساوىء ابن عثمان اخراج أعيان الرؤساء بالديار المصرية ، ونفيهم الى اسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر فنقول :

ذكر من توجه فى هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية

وهم : مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل ، وهما : أبو بكر وسيدى أحمد ، ثم المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء : الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى . ومن الأمراء بيبردى ابن كسباى الذى كان باش المجاورين بمكة أحد الأمراء العشراوات ، وقراكز الجمكى أحد الأمراء العشراوات ، وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة المشرفة ، وجان بك دوادار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس : الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان نقيب الجيش ، ويحيى بكار الذى كان دوادار الوالى

ومن نواب السادة الشافعية : الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن دوق ، والشيخ شمس الدين الحلبى والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر ، والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأبناسى ، والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين بن الآدمى الدمياطى ، والقاضى شمس الدين المفسى العزيزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتنونى ابن الشرمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفيه الشيخ زين الدين الشرنفاشى ، والسيد الشريف البرديسى ، والشيخ بدر الدين بن الوفاد السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد بن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية : الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيشى ، والشيخ شهاب الدين الابناسى .

ومن نواب السادة الحنابله : الشيخ شهاب الدين الهيتمى ، والشيخ جلال الدين الطنبدى ، والقاضى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه الى اسطنبول من المباشرين السلطانيه فهم : المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين ابن كمال الدين ، والجناب الشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان أحد كتاب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمسى محمد البارزى .

ومن كتاب المماليك وغيرهم : شمس الدين محمد بن فخر الدين ، وسعد الدين وفرج وكريم الدين ، وفتح الدين من أولاد ابن فحيرة ، وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحيى الدين ابن بهاء الدين من أولاد ابن البقرى ، وأبو الحسن ابن الرفيق ، وعبد العظيم بن غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد العظيم بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وولده زين الدين ، وتاج الدين أخو عبد الكريم اللادبى ،

وكمال الدين من أولاد ابن البغرى ، وشرف الدين وعلى المرجوشى ، وأخو يونس الاستادار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأحمد ابن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وأبو السعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين العزى الموقع ، وولى الدين ناظر المواريث ، وعامل المواريث . وسعد الدين أخو علاء الدين ناظر الخاص ، وبركات المنوفى وسعد الدين المنوفى ، ومحمد الكوير ناظر الخاص ، وأحمد بن حنسو البطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين صهر عبد الفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين بن الهيصم ، وتاج الدين بن البغرى ، وشقيقه بركات بن سلمان ، وكمال الدين بن الناصرى ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر الوالى ورفيقه ، والعبادى ورفيقه ، وبدر الدين مباشر الأمير أنص باى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

ومن أعيان الناس : المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى كان ، والمهتار سليمان ، ومحمد ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين جلبى السلطان الغورى ؛ وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية : يحيى بن يونس ، ومحمد العادلى الشهير بابن البدوية ، وزين العابدين بن محمود الأعور ؛ وجماعة من السيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية : شهاب الدين الخطيب الأسمر ، وأحمد الديروطى ، وأولاد ابن نفيس ، وعلى بن خشيم ومن تجار سوق مرجوش : ابن الشعيرة ، وأبو العوز الحصنانى . وبدر الدين شيخ سوق الغزل . ومن تجار المغاربة : الشيخ سالم التاجورى ، وسعيد اللبدى ، وأبو سعيد ، وآخرون لم تحضرنى أسماؤهم من المباشرين والتجار بأسواق القاهرة وغيرها .

ومن الخدام : مقدم المماليك سنبل العثمانى ونائبه ، وعثمان الرومى ، وشهاب الدين أحمد الجارحى . فيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام .

ومن البزدارية كمال الدين بن بزدار أمير كبير ، وعبد القادر بن المنقار ، وابن الشيخ محمد ابن رسلان ، وناصر الدين واسمعيل ومحمد الكاتب ، وأبو بكر وابن السمينى ، ويحيى بن يحيى ، وبركات بن المبيض ، ومحمد بن الجيعان ، وبركات النائب ، وسعد الدين بن البحلاق ، ويحيى مقدم الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ، ومحمد قطارة ، ومحمد بن فرو شيخ جهات الأميرية ، وآخرون ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

ومن رءوس النوب : فرج بن البردينى وآخرون .

ومن مقدمى السقائين : عبيد وأبو الخير وابن فريخ النار .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلاء جماعة كثيرة لم تحضرنى أسماؤهم الآن . وقد زعموا أن الخنكار ابن عثمان نقصد أن ينشىء له مدرسة فى أسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى التى بالشرابشيين .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرية . ومن طائفة النصارى : بانوب الكاتب بالخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ الملكيين الأسكندرى وولده ، وآخرون من النصارى واليهود لم تحضرنى أسماؤهم . فيقال ان جميع من خرج من أهل مصر وتوجه الى اسطنبول دون الألف انسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وفيهم

نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع ، ومنهم كبار .

ولم يقاس أهل مصر من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمع بمثلها فى التواريخ القديمة ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا ... ففارق الناس أوطانهم وأولادهم وأهاليهم وتغربوا من بلادهم الى بلد لم يطئوها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وكانت سنة مشومة على الناس ، مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون فى المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما ما فعلوه فى جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد ، ووضعوا أيديهم على رزق الناس والاقطاعات ، ثم استدرجوا الى أن أخذوا أموال الناس بغير حق شرعى ، ثم استدرجوا ثانيا الى أن أخذوا أموال الأوقاف . وصاروا ليس على يدهم يد ، يفعلون ما شاءوا من هذا النمط ، فغنموا فى هذه السنه أموالا جزيله من البلاد مما أخذوه من خراج الناس ... فكان مجىء ابن عثمان غنيمة للمباشرين ، وبعض الأفراد الذين أودع عندهم الأمراء الجراكسة والعسكر الأموال والقماش وقتلوا فى الواقعة ، فقعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راحت ، فكان كما يقال فى المعنى : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

سنة اربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م) :

فيها كان افتتاح شهر المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء خاير بك بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم

فلما كان يوم السبت رابع المحرم ، شكا الناس من أذى العثمانية الذين بمصر ، وتزايد منهم الفساد فى حق الناس ، وصاروا يتوجهون الى الاماكن التى فى زقاق الكحل والمسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والأزبكية ويأخذون ما فيها من الأبواب والسقوف والشبابيك الحديد والطيقان ، ويحملونها على الجمال بين الناس على النداء والاجهار ، ويبيعونها بأبحس الأثمان ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك .

ثم صاروا يطلعون بالنساء الى القلعة ويتحشرون بهن فى أطباق المماليك الذين بالقلعه ، وصنعوا بالطباق أطباق بوزة ، وصارت خانه برسم حرافهم . وصاروا يأخذون ما بالطباق من الأبواب والسقوف ويطبخون بها الطعام ، حتى خربوا غالب السقوف التى بالقلعه .

ثم تزايد منهم الفساد حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرقات والأزقة والأسواق فى النهار والليل ، وصار الناس على رءوسهم طيرة من العثمانية ، ويجدون القتلى مرمية فى الطرقات .

فلما تزايد هذا الأمر دخل جماعه من الناس الى القاضى الذى جعله ابن عثمان فى المدرسه الصالحية أمينا على قضاة مصر ، فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وأركبه وطلع به الى القلعه ، وأخبروا ملك الأمراء خاير بك بهذه الأحوال التى تصدر من العثمانية .

ثم ان قاضى ابن عثمان أغلظ على خاير بك فى القول وقال له : « انظر فى أحوال المسلمين والا تحرب مصر عن آخرها ، فقد فسدت الأحوال جدا ، ومتى بلغ الخنكار هذه الأخبار يرسل يضرب أعناقنا ، ويقول لنا كيف كتمتم عنى أخبار مصر ، وغفلتم عن أحوال المسلمين ، حتى جرى فيها ما جرى » .

فلما سمع ملك الأمراء خاير بك هذا الكلام وعد القاضى والأمير قايتباى الى يوم السبت حادى

عشر الشهر ، فأحضر الأنكشارية والأصباهية وعرضهم ، وفحص عمن يفعل هذا منهم .

ثم أن خاير بك نادى فى القاهرة بأن لا امرأة تخرج من بيتها ولا صبى أمرد ، ولا يتوجهون فى هذا الشهر الى السيدة نفيسة ، ولا الى مشهد الحسين ، ولا الى بين القصرين ، وان الدكاكين والأسواق تغلق بعد المغرب ، ولا يمشى أحد من الناس بعد المغرب .

وفى يوم الاحد ثانى عشر المحرم ، حضر من الشام من عند ابن عثمان قاصدان زعما أنهما من أعيان أمرائه ، وقيل ان أحدهما آغات طائفة الانكشارية ، والآخر آغات الأصباهية ، فلما بلغ ملك الأمراء حضورهما نزل من القلعة ولاقاهما ، وكان لهما موكب حافل ، فطلعا الى القلعة . واجتمعت الأمراء العثمانيه والأمير قايتباى الدوادار وقرءوا مطالعة الخنكار .

ثم أشيع أن ابن عثمان أرسل يطلب الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تمرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الأصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ، فكثر القيل والقال فى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشره أرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تمرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الاصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ... فكثر القال والقيل فى ذلك .

وأرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أربعمائة دينار وقال له . هذه نفقة السفر ، فاعمل بها برقك واخرج سافر . فشكا أرزمك من ذلك وقال ايش يكفينى هذا القدر لعمل برق السفر . ثم ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار وشكا له من أمر هذه النفقة ، فقال له : اصبر حتى أطلع الى ملك الأمراء خاير بك فى ذلك اليوم » .

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشره ، أشيع بين الناس أن جماعة من الانكشاريه والاصباهية لما تحققوا أن الخنكار أرسل يطلبهم أظهروا العصيان ، وخرج بعضهم الى نحو الشرقية والغربية وتفرقوا فى البلاد .

ومن الحوادث الغريبة أنه فى يوم الجمعة سابع عشر المحرم من هذه السنة ، أشيع واستفاض بين الناس أنه قبض على قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ملك الروم . وقاسم بك هذا هو الذى كان قانصوه الغورى اجتهد كل الاجتهاد حتى أدخله الى مصر ، وصار ضدا لسليم شاه ابن عثمان . وكان سليم شاه يخشى من أمر قاسم بك هذا أن يلتف عليه عسكر الروم من عساكر جده ويولوه مملكة الروم . وسافر قاسم بك هذا صحبة الأشرف قانصوه الغورى الى حلب ، وصنع له برقا وسنيحا حافلا ، وجعل له صنجقا من حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم ، وحضر الواقعة التى كانت فى مرج دابق . فلما فقد السلطان الغورى وجرى ما جرى ، رجع قاسم بك صحبة الأمراء الى مصر وصار معظما عند السلطان طومان باى ، وحضر معه فى الواقعة التى كانت بالمطرية ، فلما انكسر السلطان طومان باى هرب معه الى جهة الصعيد ، فلما وقع السلطان طومان باى هو وابن عثمان فى الجيزة بالقرب من وردان انكسر طومان باى وهرب . فلما قبضوا عليه وشنق اختفى قاسم بك ولم يعلم له

خبر مدة طويلة ، وقد فاته القتل مرارا عـديدة . وكان السلطان حاسب حسابه جدا ليلا ونهارا ، وكان عسـكر ابن عثمان قصـدهم المخـامرة عليه والتوجه الى قاسم بك . وقد أشيع بين الناس انه لما هرب بعـد كسرة طومان باى ، توجه مع بعض العربان الى نحو الجبل الأخضر الذى بأعلى البحيرة ، وكان قد نسى أمره .

فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم قد قبضوا عليه فى مكان عند العطوف بالقرب من البرقية ، وقد غمز عليه بعض غلمانه فى ذلك المكان ، فتوجه اليه كمشبغا والى القاهرة وشخص آخر يقال له جانم الحمزاوى شاد الشون من خدمة ملك الأمراء خاير بك ، وهو دوادار الآن ، فتوجها اليه وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور . فلما قبضوا عليه عروه من أثوابه وقلعوه عمامتـه وألبسوه برنسا أسود وغطوا وجهـه . وسبب ذلك أنهم خشوا أن العثمانية متى بلغهم أنهم قبضوا عليـه وهو طالع الى القلعة يخلصونه ويقتلون من معه ، وتثور بين العثمانيين فتنة عظيمة ، وتكون سببا لزوال ملك سليم شاه بن عثمان . فلما طلعوا به الى القلعـة بعد العصر قريب المغـرب من يوم الجمعـة ، عرضوه على ملك الأمراء خاير بك ، فرسم بادخاله الى سجن العرقانة الذى هو داخل الحوش السلطانى ، فأدخلوه به وأغلقوا عليه باب السجن .

ثم اجتمـع ملك الأمراء خاير بك ، والأمير قايتباى الدوادار ، ومن الأمراء العثمانيين فائق بك وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نائب القلعة . فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر قاسم بك ، فقال ملك الأمراء خاير بك : دعوه فى السجن وأرسلوا كاتبوا الخنكار فى أمره وانتظروا الجواب فيما يرسم به . فقال فائق بك : هذا ما هو رأى ، متى بات فى قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة . فلما دخل وقت العشاء أحضروا المشاعلى ودخلوا عليـه وهو فى العرقانة فخنقوه بها ، وكان آخر العهد به .

فلما أصبح يوم السبت ثامن عشره ، أخرجوا قاسم بك من العـرقانة وهو ميت ، ورقدوه على مسطبة بالحوش ، وكشفوا عن وجهه ، وأرسلوا خلف العثمانيين قاطبة حتى رأوه ، فقالوا لهم : هذا قاسم بك بن أحمد بك ابن أبى يزيد بن عثمان . ثم صاروا يقلبونه باطنا وظاهرا ، ثم شهد منهم جماعة كثيرة أن هذا هو قاسـم بك ابن أحمد بك ابن عثمان . ثم بعد ذلك أرسل ملك الأمراء خاير بك خلف قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى الطرابلسى ، وقامت عندهما البينة بصحة معرفة قاسم بك هذا ، فكتبوا بذلك محضرا وثبت عند قاضى القضاة . ثم انهم شرعوا فى تجهيز قاسم فغسلوه وكفنوه ، وأخرجوه قدام الدكة التى بالحوش السلطانى ، فصلوا عليه هناك ، وكان الذى صلى عليه قاضى القضاة الشافعى . وكانوا أطلقوا له نداء فى القاهرة بأن الصلاة على الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان ، فانه ينزل من القلعة . ثم ان ملك الأمراء خاير بك أشهر المناداة فى القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمـان صلاة الغيبة فى الجوامع ، كل هـذا حتى يتحقق الناس موته عن يقين .

فلما صلوا عليه بالحوش حمل الأمراء نعشـه على أكتافهم ، ثم نزلوا به من سلم المـدرج ، ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علمـا أبيض ، ثم توجهـوا به الى تربة البجانى فدفنوه فيها على أقاربه . وكانت جنازته مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، فانه كان شابا جميل الصورة ، حسن المنظر ، له من العمر سبع

عشرة سنة ، وقد قتل ظلما بغير ذنب ، وقد تناحرت عليه العثمانيون بالبكاء

فلما دفنوه ولحدوه قطعوا رأسه بليل ووضعوها فى علبه وتوجه بها جانم الحمزاوى هى والمحضر الى الخنكار بالشام ... هذا ما أشيع واستفاض بين الناس ، والله أعلم بصحة ذلك .

وقد عد مسك قاسم بك وقتله أعظم من مسك الأشرف طومان باى وقتله ، فتعجب الناس من عوة سعد سليم شاه بن عثمان من مبدئه الى منتهاه ، وهذا أمر من الله تعالى ليس فى قدرة بشر . وكانت الناس تظن أن قاسم بك هذا سيلى مملكة الروم بعد عمه سليم شاه ، فخابت فيه الظنون وعاجله ريب المنون ، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار ، والحكم لله الواحد القهار

وفى يوم الأحد تاسع عشره أنفقوا الجامكية على المماليك الجراكسة فى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، فأنفقوا لكل مملوك ألفى درهم ، وهى جامكية شهر واحد ، فأنفقوا عليهم يوم الأحد ويوم الاثنين .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء خاير بك فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يخبى فى بيته عثمانيا ولا انكشاريا من عسكر ابن عثمان ، وكل من خبأ عنده أحدا وغمز عليه شنق على باب داره من غير معاودة . وسبب ذلك أن الخنكار بن عثمان لما أرسل يطلب جماعة من الانكشارية ومن الاصباهية اختفى منهم جماعة وجماعة تفرقوا فى الشرقية والغربية وتوجهوا اليها هاربين فى البلاد ، وأظهروا العصيان ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الاثنين سابع عشريه أشهروا المناداة فى القاهرة حسبما رسم ملك الأمراء بأن جميع الانكشارية والاصباهية يحرجون يوم الاثنين صحبة القصاد ، وكل من تأخر منهم شنق من غير معاودة ، فشق من القاهرة جماعة من الأمراء العثمانية وقدامهم مشاعلى ينادى بالتركى وآخر ينادى بالعربى وذلك بعد الظهر . فلما بلغ العثمانية ذلك اضطربت أحوالهم وخرج غالبهم الى نحو الشرقية ، وقد التفت عليهم المماليك الجراكسة ، وصاروا يرمون بينهم وبين الأمراء العثمانية الذين بمصر الفتن حتى يقع بينهم الشر ويظهروا العصيان على ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى المحرم ، دخل الحاج الى القاهرة ودخل المحمل الشريف ، والقاضى علاءالدين ناظر الخاص أمير ركب المحمل ، وقاضى قضاة المالكية محيى الدين بن الدميرى ، وبقية الحجاج ، وأخبروا أنهم قاسوا فى هذه الحجة مشقة زائدة وشدائد عظيمة من الغلاء وموت الجمال ، وفساد العربان فى الطريق ، وكثرة الأمطار والسيول ، وقلة العليق . ومشى غالب الحجاج على أقدامهم فى الرجعة ، وقد أثنوا على ناظر الخاص فيما فعله بالحجاج فى الطريق من البر والصدقات وفعل الخير ، وكان اذا رأى أحدا من الحجاج منقطعا يركبه على جماله وينعم عليه بالماء والبقسماط فى الطلعة والرجعة . فرجع الحجاج وهم عنه راضون فيما فعله بهم ، وقد رفق بهم فى مشى الركب بسبب المنقطعين من الحجاج ، وقد أثنوا عليه خيرا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشريه ، دخل الى القاهرة الأمير قانصوه العادلى كاشف جهات الشرقيه ، وكان أشيع عنه العصيان من حين عين للسفر ، فأتى لتبطل عنه الاشاعات . فلما طلع يوم الخميس الى القلعة خلع عليه ملك الأمراء خاير بك قفطانا مخملا مذهبا ، ونزل يعمل برقه *

وقد مضى هذا الشهر وعسكر ابن عثمان فى خلف بينهم بسبب السفر الى الشام ، واستمرت الانكشارية فى أمر العصيان عن السفر ، وصاروا يكبسون عليهم بيوتهم وحاراتهم ، ويقبضون على نسائهم اللاتى تزوجن بهن من مصر ، وحصل لهن الضرر الشامل بسبب ذلك .

* * *

وفى صفر الخير ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، فهنئوا ملك الأمراء خاير بك بالشهر ورجعوا الى دورهم .

وفى هذا اليوم خرج جماعة من الانكشارية والاصباهية من الطائعين منهم دون العاصين الذين هربوا كما تقدم ، فخرجوا صحبة القصاد الذين جاءوا لطلبهم من الشام حسبما رسم الخنكار سليم شاه بن عثمان . قيل انه أرسل بطلب ألف انسان من الاصباهية ، ومن الانكشارية أربعمائة انسان .

وفى يوم الاثنين رابع صفر ، خرج بقية العسكر العثمانى الذى تعين للسفر ، وخرج الأمراء المعينون للسفر ، وهم : الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تمرباى العادلى ، والأمير خشقدم الأشرفى الذى كان شاد الشون أيام السلطان الغورى . ولم يشعر بخروجهم أحد من الناس ، ولم يطلبوا طلبا على جارى العادة ، فلما خرجوا توجهوا الى الريدانية ونزلوا بها الى أن يرحلوا منها .

وفى هذه الأيام تزايد القال والقيل بين الناس بوقوع فتنة كبيرة .

وفى يوم الثلاثاء خامس صفر خلع ملك الأمراء خاير بك على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وقرره فى مشيخة جهات الشرقية عوضا عن ابنه عبد الدائم ، وقد أظهر عبد الدائم العصيان ونهب منية غمر وأحرقها وغيرها من بلاد الشرقية ووقع الاضطراب بها ، وطفشت العربان فى البلاد بالفساد والنهب ، وحصل منهم الضرر الشامل . وصار عبد الدائم رأس كل فتنة فى كل دولة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم السبت تاسعه قويت الاشاعات بعصيان عبد الدائم ، وأنه قد التف عليه عربان كثيرة من الشرقيــة والغربية ، وطردوا أباه من الشرقيــة . واضطربت أحوال الشرقية الى الغاية

وأشيع فى البلاد أن مصر ما بقى فيها أحد من عساكر ابن عثمان . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لخير الدين بك نائب القلعة وجماعة من الأمراء العثمانية بأن يشــقوا من القاهرة ومعهم الانكشارية الذين تأخروا بمصر . فنزل من القلعة وقدامه من الانكشارية نحو ثلثمــائة انسان وهم مشاة وبأيديهم مكاحل ، وشق من الصليبة وتوجه من بين الصورين وطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة فرجت له فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك أخذ فى أسباب تحصين القلعة ، وسد منهــا عدة أبواب ، وأبقى منها الأبواب الكبار على حكمها ، وقصد أن يسد بعض أبواب من القــاهرة ، وأظهر الخوف والفزع ، ودخلت رأسه الجراب من عبد الدايم بن بقر وكثرة العربان التى اجتمعت معه . وكثر القيل والقال فى ذلك والروايات مختلفة .

وفيه أشيع أن الريس سلمان العثمانى الذى كان فى البرج بالقلعة وضعه خاير بك فى الحديد وأرسله الى ابن عثمان بالشام ، وكثرت الحوادث فى هذه الايام جدا .

وفى يوم الاثنين حادى عشره أشــيع أن ملك

الأمراء خاير بك عين الأمير قايتباي الدوادار بأن يخرج الى عبد الدائم بن بقر وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ومن العثمانية . وعرض فى ذلك اليوم طائفة من العثمانية يقال لهم كلمبا ، فعرضهم فى بيت سنان باشا العثمانى ، وعين منهم جماعة يخرجون الى التجريدة صحبة الأمير قايتباى الدوادار بسبب عبد الدايم كما تقدم .

وفى أثناء هذا الشهر أشيع أن الخنكار سليم شاه ابن عثمان خرج من دمشق وقصد التوجه الى حلب ، وما يعلم سبب ذلك . وكثرت الأقاويل فى خروجه من الشام الى حلب .

وفى يوم الأربعاء عشرى صفر عرض الأمير قايتباى الدوادار المماليك الجراكسة فى بيته الذى بين القصرين ، وعين جماعة منهم يخرجون الى الشرقية بسبب عصيان شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وقد قويت الاشاعات بعصيانه ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من العربان ، وفسدت أحوال الشرقية قاطبة من قطع الطريق على القصاد ، ونهب البلاد ، ووقع الاضطراب جدا هناك حتى كادت أن تخرب بلاد الشرقية ، ولما عرض الأمير قايتباى الجراكسة وجد غالبهم مشاة على أقدامهم بغير خيول ولا سلاح ، فبطل أمر العرض والتجريدة .

وفى يوم السبت ثالث عشريه خرج شيخ العرب بيبرس بن بقر أخو عبد الدائم وصحبته الشيخ أبو الحسن بن الشيخ أبى العباس الغمرى يسعون بين عبد الدائم وبين أبيه الأمير أحمد وبين اخوته بالصلح . وأشيع أن ملك الأمراء خاير بك أرسل صحبتهما خلعة الى عبد الدائم لعله يقع الصلح على أيديهما ، وكذا جرى .

* * *

وفى يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول حضر جانم الحمزاوى دوادار ملك الأمراء خاير بك ، وقد تقدم القول على أنه كان توجه الى الشام عند السلطان سليم شاه ابن عثمان بيشارة قتل قاسم بك بن عثمان ، فلما أخبر سليم شاه بذلك سر الى الغاية . وأشيع أنه أنعم على جانم الحمزاوى بنيابة ثغر الاسكندرية ، ثم رسم له بالعود الى القاهرة ، وأرسل على يده خلعة الى ملك الأمراء خاير بك فى استمراره بنيابة السلطنة بمصر على عادته ، وأرسل خلعة الى الأمير قايتباى الدوادار ، وقيل الى كمشبغا والى القاهرة لكونه قبض على قاسم بك ابن عثمان . فلما وصل القاصد صحبه جانم الحمزاوى الى الريدانية بات فى تربة العادلى .

وفى هذا اليوم نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة وصحبته الأمير قايتباى الدوادار والأمراء العثمانية الذين بمصر ، وطائفة من الانكشارية والاصباهية وغير ذلك من الطوائف الذين تركهم ابن عثمان بمصر ، وصحبتهم جماعة كثيرة من الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر كما تقدم . وخرج الجم الكثير من العساكر العثمانية وفيهم من يرمى بالنفوط . فتوجه الى تربة العادلى وجلس على المسطبة التى هناك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك لبس القفطان المخمل المذهب الذى أرسله له السلطان سليم شاه ابن عثمان ، فأشيع ذلك اليوم أن ابن عثمان جعله مستمرا على نيابته بمصر على عادته ، وأن يجعل السكة والخطبة باسمه ، فلم تصح هذه الاشاعات فيما بعد .

ثم ان ملك الأمراء ركب من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وقدامه قضاة القضاة . وموجب ذلك أن هذا اليوم كان مستهل الشهر ، فتوجهت اليه القضاة هناك ليهنوه بالشهر . فلما رجع الى القاهرة رجعوا صحبته وركبوا قدامه الى أن طلع الى القلعة ،

وركب قدامه أيضا أعيان المباشرين ، ولاقته النصارى بالشموع فى أيديهم من باب النصر . فلما وصل الى بين القصرين ومر على بيت الأمير قايتباى الدوادار نثرت على رأسه كبشة جيدة من الفضة ، فتخاطفتها الناس .

فلما شق من القاهرة زينت له زينة خفيفة فى بعض أماكن ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من بعض الناس ، وأشهروا النداء قدامه بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية ، وأن كل من ظلم أو قهر عليه بباب ملك الأمراء خاير بك ، والدعاء بالنصر لمولانا السلطان سليم شاه ابن عثمان . فضج الناس له بالدعاء قاطبة . واستمرت الانكشارية يرمون قدامه بالنفوط وهم مشاة حتى طلع الى القلعة وكانوا نحو أربعمائة انسان .

وكان أشيع أن ملك الأمراء خاير بك يستقل بمملكة مصر ، ويجعل السكة والخطبة باسمه حسبما رسم الخنكار ابن عثمان ، فلم تصح هذه الاشاعة ، وخمدت كأنها لم تكن ، واستمر نائبا على حكمه وكانت هذه الاشاعة من الكلام المختلق من جملة كذب الناس ، وصار غالب أهل مصر فى هذه الأيام يختلقون الكلام الكذب ، ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ، ثم يبطلونه وينقضونه ويأتون بكلام غيره . والكل ليس له صحة وهو من جملة المختلق . وقال القائل فى المعنى :

أبناء مصر مقالهم عجب
تواتر الصدق منه مرفوض
مقالهم لا يزال مختلقا
وكله ناقض ومنقوض

ولما حضر جانم الحمزاوى أشيع بين الناس أن السلطان سليم شاه لما أقام بالشام رسم لقاضى القضاة الشافعى محب الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور بأن يتقلد بمذهب الامام أبى حنيفة ويترك مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه . وأشيع أنه لا يحكم بالشام غير قاضى قضاة الحنفية لا غير ، كما هى عادة بلاد الروم . وأبطل من الشام المذاهب الثلاثة فتفاءل الناس له بسرعة الزوال عن قريب بسبب ذلك ، وأشيع أنه أبطل الوكلاء والرسل من أبواب القضاة ونوابهم . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لقضاة القضاة بمصر أن يخفوا من نوابهم ، فرسم لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب ، وقاضى القضاة الحنفى بأربعة من النواب ، وقاضى القضاة المالكى بثلاثة من النواب ، وقاضى القضاة الحنبلى باثنين من النواب ، من غير زيادة على ذلك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك رسم لنواب القضاة أن يبطلوا الوكلاء والرسل من المدرسة الصالحية ، وأن نواب القضاة لا يحكمون الا فى بيوتهم من غير رسل ولا وكلاء ، فلم يتم هذا الأمر ولم يسمع له شىء .

ومما وقع فى هذه الأيام من الحوادث الشنيعة ، أن شخصا من أمراء ابن عثمان صار يجلس على دكة بباب الصالحية يسمونه المحضر ، وحوله جماعة من الانكشارية ، فكان لا يقضى أمر من الأحكام الشرعية حتى يعرض عليه فكان يقف بين يديه الشاكى والمشتكى ويخاطبونه بترجمان بينهما عن أمر الشكاية ، فكان يقرر على كل محكمة فى كل أشرفى ستة دراهم نقرة ، يأخذها لنفسه من الشاكى والمشتكى ، يسمون ذلك مصلحات . وكان اذا أمر بشىء لا تعارضه القضاة . وكان يزعم أنه مستوفى على القضاة فى الأمور الشرعية . وكان يضرب من يستحق الضرب ، ويسجن من يستحق السجن ، ولا يراجع القضاة

فى ذلك ، فكان يتصل له فى كل يوم من ذلك القدر المعلوم مال له صورة ، يأخذه من الشاكى والمشتكى .

ثم انهم أحدثوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم قرروا انصافا على كل دكان من الشهود ومجالس القضاة الذين بمصر والقاهرة قاطبة كل شهر ستة ، ويزعمون أنهم يوردون ذلك القدر لبيت مال المسلمين ، ويجهزونه الى السلطان ابن عثمان . وقد ضعفت شوكة الشرع فى هذه الأيام جدا ، وقد قال القائل فى المعنى :

يارب زاد الظلم واستحوذوا
والفعل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا الاك فانظر لنا
ونجنا منهم وخذهم اليك

ولما حضر الأمير جانم الحمزاوى دوادار ملك الأمراء خاير بك أخبر بأن السلطان سليم شاه لما دخل الى الشام استقر بالأمير جان بردى الغزالى نائب الشام . وجعل له التحدث من غزة الى الشام وأعمالها ، يولى من يختار ويعزل من يختار . وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخلوا الى الشام طردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا فيها كما فعلوا بمصر ، وخربوا غيطانها وزروعها ، وقطعوا أشجارها ، وأكلوا جميع فواكهها .

وفى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول أشيع بين الناس بالمراسيم التى حضرت من عند الخنكار سليم شاه على يد الأمير جانم الحمزاوى ، فكان مضمونها أنه أرسل يقول لملك الأمراء خاير بك « اصرف لأولاد الناس جوامكهم على العادة ، وكذلك المماليك الجراكسة ، وكل من له جامكية يصرفها له ، ويجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير » . فشكر له الناس ذلك ودعوا له .

فلما بلغ أولاد الناس ذلك طلعوا الى القلعة ونزلوا أسماءهم عند القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، حتى كل من كان له جامكية أشرفى أو مائتا درهم . وأرسل يقول له احتفظ بالرعية .

وفى يوم الاثنين عاشره طلع المماليك الجراكسة الى الميدان الذى تحت القلعة ، وحضر كاتب المماليك شرف الدين الصغير ، وأنفق على المماليك جامكية شهر واحد ، وبقى لهم شهران مكسوران . ولم يحضر ملك الأمراء تفرقة الجامكية بالميدان ، بل حضر شرف الدين الصغير وجماعة من كتاب المماليك . وشرع شرف الدين كاتب المماليك يقول للمماليك : يا أغوات كل من أخذ الجامكية يعمل برقه للسفر . ويقول له : اذا طلبت منك هؤلاء المماليك للسفر فأحضر بهم . فنزلوا من القلعة على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فصنع له ملك الأمراء مولدا لم يشعر به أحد من الناس . فقيل أحضر عنده عشر جوخ للمقريين فضجوا من ذلك ، وقالوا نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين ؟ فرسم لكل منهم بجوخة بأربع أشرفيات لا غير .

ثم بعد العصر مد سماطا فى المقعد الثانى الذى بالحوش ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية فى لمح البصر وبات غالب الفقهاء بلا عشاء ، وأين الحسام من المنجل بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الأسمطة الحافلة ، والشقق الحرير التى كانت تدخل على المقريين والوعاظ ، ولا سيما ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى ، فكان يصرف على مولده فوق الأربعة آلاف من

الدنانير ، ويحضر عنده فى تلك الخيمة المعظمة التى لم يسمح الزمان بمثلها أبدا القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش ، فأين هذا النظام من ذلك النظام العظيم . فما أسفى على تلك الأيام ، كأنها منامات أحلام ! وقد قال القائل فى المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
بيع الهوان ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منهم تستحى

وفى يوم السبت خامس عشر ربيع الأول خلع ملك الأمراء خاير بك على الزينى بركات بن موسى المحتسب واستقر به أمير ركب المحمل الشريف ، وكانت هذه الوظيفة لا يستقر بها الا أمير مقدم . ولعمرى أن هذه الوظيفة قد هانت حتى سامها كل مفلس ، فخلع عليه قفطانا مخملا مذهبا ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أعيان المباشرين والأمراء العثمانية ، وجماعة من الأمراء الچراكسة ، والمماليك الچراكسة ، فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم ، وزينت له الدكاكين بالشموع ، وعلقت له الأحمال بالقناديل ، ولاقته مشايخ العربان من بنى هلال ، وكاشف الشرقية ، ومشى قدامه جماعة من الانكشارية نحو مائتى انسان يرمون بالنفوط ، ومشى قدامه جماعة من القواسة نحو ثلثمائة انسان ، ومشى قدامه السقاءون يرشون الماء بطول الطريق ، ومشى قدامه الضوية بالمشاعل وعليها الفوط الزركش ، ومشى قدامه جميع الرسل قاطبة وبأيديهم العصى ، ولاقاه الشعراء والشبابية السلطانية مثل مواكب السلاطين ، ولاقاه المغانى من النساء بالطارات ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وساق قدامه البرجاس عربان بنى حرام ، وكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة قل أن يقع لأحد من الأمراء مثل ذلك ، فلهج الناس بهذا الموكب ، وقالوا لعل هذا نهاية سعد الزينى بركات بن موسى . ولم يقع مثل هذا الموكب للملك المظفر سليم شاه ابن عثمان لما دخل الى القاهرة حين ملكها . فلما نزل الزينى بركات بن موسى الى داره ، أنعم على الانكشارية بثلثمائة دينار ، فحصل لكل واحد منهم أشرفى ، وأنعم على القواسة والسعاة والسقائين أيضا بمبلغ جيد . وقد قلت فى هذا الموكب أبياتا :

ان ابن موسى لم تزل حركاته
تأتى بسعد خارق بين الورى
عاينته فى موكب حفل فلا
سمعت به أذن ولا عين ترى
فى يوم سبت شرفوه بخلعه
فاق الملوك وصار يزهو منظرا
لما استقر أمير محمل سرنا
واستبشرت لقدومه أم القرى
وتفاءل الحجاج أن بكعبة
يلقوا الرخا والأمن ممن بشرا
يا ربنا فأطل بقاه بنعمة
تحمد بها الركبان عاقبة السرى

وفى يوم الأحد ثالث عشريه أنفق ملك الأمراء على جماعة من الأمراء الچراكسة : فأعطى لكل أمير طبلخانات أربعين دينارا ، وأعطى لكل امير عشرة عشر أشرفيات ، وقيل خمسة وعشرين أشرفيا فى نظير أقاطيعهم ولحومهم وعليقهم ، وأعطى المماليك الچراكسة لكل واحد منهم ألفى درهم من غير زيادة على ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول ، وافق

ذلك اليوم دخول أول يوم من الخماسين وهو يوم عيد النصارى وفطرهم . ومن جملة انعام الله تعالى أنه لم يقع فى هذه الخماسين طاعون بمصر ولا غيرها من البلاد .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد بن منكلى بغا ، وكان موته فجأة . وكان لطيف الذات ، حسن المحاضرة حسن العبارة فى كلامه ، رقيق الطباع ، عشير الناس ... وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر حضر الناصرى محمد المعروف بابن الورد لاعب الشطرنج ، وكان بالشام من حين أرسل خلفه السلطان سليم شاه ، وكان السلطان أرسل له مبلغا له صورة يستعين به . فلما توجه الى الشام وجد الحنكار غير منشرح بسبب الصفوى ، فأقام مدة بالشام ثم استأذن السلطان فى عوده الى مصر ، فأذن له بالعود الى مصر ، فأخبر الناصرى محمد بن الورد أن قصاد الصفوى قدموا على ابن عثمان وهو بالشام من مكان غير الطريق السالكة ، فما شعر بهم ابن عثمان الا وهم بين يديه ، فدفعوا اليه مطالعة من عند الصفوى ، وتقدمة حافلة . فلما قرأ تلك المطالعة وجد فيها عبارة لطيفة ، وألفاظا رقيقة تتضمن أمر الصلح بينه وبين الصفوى ، ونعته بنعوت عظيمة فى المطالعة . فلما قرأ المطالعة اضطرب لذلك، وقال هذا كله مخادعة من الصفوى حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ، ثم يطرقنى على حين غفلة ، كما فعلت أنا مع السلطان الغورى . فرحل من الشام على الفور ، وقصد التوجه الى حلب . وقال لوزرائه : أنا أعلم من حيل اسمعيل الصفوى ومخادعته ما لا تعلمونه . فكان كما قال فى المعنى :

توقع كيد من خاصمت يوما

ولا تركن الى ود الأعادى

فان الجرح ينكث كل حين

اذا كان البناء على فساد

ثم أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى حلب أخذ فى أسباب تحصين المدينة ، ثم قبض على جماعة من أهل بانقوسه ممن كان مشهورا بالفساد ، فشنق منهم جماعة . ثم أشيع أنه صادر جماعة من أهل حلب ، وأفرد عليهم الأموال الجزيلة ، وحصل لأهل حلب منه ومن عساكره غاية الضرر ، والأمر لله .

***

واستهل شهر ربيع الآخر ، وكان أوله يوم الأحد . ففى يوم الخميس خامسه قدم الى الأبواب الشريفة مصلح الدين بك خازندار ابن عثمان ، وكان توجه الى مكة من البحر المالح صحبة الشهابى أحمد بن الجيعان ، فلما نزل ببركة الحاج خرج الأمير قايتباى الدوادار الى ملاقاته ، وكذلك أعيان المباشرين ، فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خلع عليه ونزل الى منزله فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء العثمانيه والجراكسة والجم الكثير من العساكر .

وفى يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ، وهى أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء فى القاهرة بأن كل من رأى كلبا تقتله ويعلقه على دكانه . فبادر الناس بالقبض على الكلاب ، وصارت التراكمة يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونها بالسيوف نصفين ، فقتلوا فى ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب ، حتى قيل انهم قتلوا فى ذلك اليوم فوق الخمسمائة كلب على ما أشيع . وصار العياق يمسكون الكلاب من الحارات والأزقه ويقتلونها شر قتلة ، وصاروا يعلقونها على الدكاكين ، ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع بأن عادة التراكمة فى بلادهم باسطنبول اذا كثرت عندهم الكلاب فى المدينة يقتلون منها جانبا كبيرا فى أيام الخماسين ، يزعمون أن بذلك يخف الطاعون من المدينة ، فصارت عندهم عادة ، ثم استمر السيف يعمل فى الكلاب يوما وليلة حتى

هجت الكلاب مما دهاها الى الترب والصحراء .
وقد قلت فى المعنى :

تأملوا ما جـــرى بمصر
من حادث عم بالعـــذاب
فســا رعى الترك فى دماء
فكيف يرعـوا دم الكلاب !

فلما تزايد الأمر فى قتل الكلاب ، طلع الزينى بركات بن موسى المحتسب الى ملك الأمراء خاير بك وشفع فى الكلاب من القتل ، وقال لملك الأمراء لا نتعرض لقتل الكلاب لأن أزبك أمير كبير نعرض لقتل الكلاب التى كانت بالأزبكية ، فلم يعش بعد ذلك غير سنة واحـــده ومات ، فرجع ملك الامراء عن قتل الكلاب ، ونادى فى القاهرة بأن يرفعوا القتل عن الكلاب ، وكل من قبض على كلب يطلقه الى حال سبيله . فدعا النـــاس للزينى بركات بن موسى الذى شفع فى الكلاب من القتل ، ثم سكن الاضــطراب الذى كان بالقــاهرة بسبب قتــل الكلاب .

وفى هذه الأيام أشيع أن ملك الأمراء أخـــذ فى أسباب تحصين القلعة وسد منها أبوابا ، وحصن الأبراج التى بها وركب عليها المكاحل ، وشرع فى عمل عجلات وعمل مكاحل ومدافع ، وعمل نشاب ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أحضر مصحفا شريفا وأحضر الأمراء العثمانية الذين بمصر وحلفهـم بأنهم لا يخونونه ، ولا يغــدرونه ، وأن يكونوا هم واياه على كلمة واحدة . ثم انه حلف الأمير قايتبـاى الدوادار بمعنى ذلك ، فأقام الامراء فى القلعة على ذلك الى بعـد الظهر وهم فى ضرب مشورة بينهم .

ومن الوقائع الغريبة أنه فى يوم الثلاثاء سادس عشره وقعت نادرة ، وهى أن شخصا ظهر بالنحارية وزعم أنه السلطان قانصوه الغورى ، وصار يفسد عقول الفلاحين ، ويقول لهم أنا السلطان الغورى ، وصار يكتب كتبا ويرسلها الى مشـايخ العربان ، وهى مخلقة بالزعفران ، فصدق غالب الناس بأن السلطان الغورى قد ظهر وهو فى قيـد الحياة ، فامتلأت القاهرة بهذه الاشاعة . فلما قويت أخبار هذا الرجل ارسل ملك الأمراء بالقبض عليه من المحاربة فقبضوا عليه ، واحضروه بين يدى ملك الأمراء . فلما مثل بين يديه عرفه، وكان نصب عليه قبل ذلك وهو نائب وادعى انه قانصوه خمسمائة الذى تسلطن ، وأفسد عقول الناس أيضا بحلب . فضربه ملك الامراء فى حلب بالمقارع وقطع انفه ثم أتى الى مصر وأشاع أنه الأمير محمد بك قريب السلطان الغورى الذى قتل فى غزاة الفريج . وقد نصب بسبب ذلك واحد من الكشاف ومشـايخ العربان جملة تقادم . وقد قرب الى عقولهم أنه الامير محمـــد بك قريب السلطان ، فقبض عليـه السلطان الغورى وضربه وسجنه بالمقشرة ، فأقام بها مدة . وقيل كان أصله من القواســة ببعض جهات دمشق ، فلما سافر السلطان الغورى الى حلب واســتقر الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبه أطلقه من المقشرة مع جملة من أطلقه ، فلما ادعى أنه السلطان الغورى وقبض عليه ملك الأمراء خاير بك وقال له : « أنا ما قطعت أنفك فى حلب وقلت لى انى تبت عن الكذب على الملوك » . ثم انه رسم بتكليبه على باب الشعريه ، فنزلوا به من القلعة وربطوا رجله فى ذنب أكديش ، وصـــار يسحبه على وجهه الى باب الشعريه ، والمشاعليه تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .
فرجت له القـــاهرة فى ذلك اليـوم ، وكان يوما مشهودا فى الفرجة عليه ، والناس تقول قد مسكوا السلطان الغورى . فلما وصل الى باب الشعرية كلبوه على الباب بين البرجين ، فاستمر مكلبا ثلاثة

أيام لم يمت . فلما بلغ ملك الأمراء أنه لم يمت
الى الآن ، رسم بأن ينزلوه ويوسطوه ، فأنزلوه
ووسطوه عند باب الشعريه فى مفرق الطرق ، بعد
أن قاسى أنواع العذاب ، ودفنوه ومضى أمره
وكفى الناس شره .

وفيه كانت كائنة الشيخ أبرك الرومى ، وقد
تغير خاطر ملك الأمراء عليه فوضعه فى الحديد ،
وقيل ضربه بالمقارع ، وأشيع أنه قصد شنقه فشفع
فيه بعض الفقراء ولم يعلم ما ذنبه حتى تغير خاطر
خاير بك عليه . وقد اختلفت الأقوال فى أمره ،
وكان عنده تحشر زائد فى الاكابر ، وآخر الأمر
وقع فى هذه الكائنة المهولة

وفى يوم الأربعاء سابع عشره نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وعدى الى الروضة وأقام بالمقياس ،
وكان صحبته الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من
العثمانية ، وأضافهم ضيافة حافلة . ومد لهم اسمطة
وطوارى . وسبب ذلك أن ملك الأمراء خاير بك
كان بينه وبين الأمير قايتباى وحشة ، وقد صار
بعض الوسائط يرمى بينهما الفتن ثم ان ملك
الأمراء خاير بك حلف الأمير قايتباى الدوادار على
مصحف شريف بان يكون هو واياه على كلمة
واحدة ، ولا يخون بعضهم بعضا . وقد تقدم
القول على ذلك ، فلما تحالفا زال ما كان بينهما من
الوحشة .

وكان نقل الى ملك الأمراء أن الأمير قايتباى
الدوادار متفق مع المماليك الجراكسه على زواله
وكانت هذه فتنة من الأعداء . ثم أشيع بين الناس
أن الشيخ ابرك كان يسعى بينهما بالفتن وينقل
الكلام الباطل ، فصنع ملك الأمراء تلك الوليمة
فى المقياس . وعزم على الأمير قايتباى وجماعة من
الأمراء العثمانية ، وأقام ملك الأمراء بالمقياس الى
آخر النهار ، فأرسل اليه الزينى بركات بن موسى
هناك مدة حافلة على رءوس الحمالين ، وصار كل
واحد من المباشرين يهدى اليه شيئا من المأكول
الفاخر ، وكان يوما سلطانيا ، ثم عاد ملك الأمراء
الى القلعة بعد العصر من يومه .

وفيه حضر شخص من حلب بهلوان ونصب فى
بركة الفرع التى بالحسينية صوارى وحبالا . وكان
يوم الجمعة ، فاجتمع الجم الكثير من الخلائق .
فلما صعد على الحبال اظهر اشياء غريبة فى صنعة
البهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب
له أدماج وسيه ورمى بالنشاب فى السيه وهو
واقف على الحبال ، ومنها أنه مشى على الحبال
وهو مقيد وعيناه مربوطه بخرقة ، ومنها أنه مشى
على الحبل وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون ،
ورمى فى الادماج وهو واقف على سيوف مسلولة ،
ومنها أنه مشى على الحبال مقلوبا وهو معمى
العينين ، وأظهر من هذه الألعاب العجائب
والغرائب...وكان لمصر لمدة طويلة من أيام الأشرف
برسباى لم يدخلها مثل هذا فى صنعة البهلوانية .
وكان هذا البهلوان يدعى يوسف ، وقيل انه من
أبناء حلب ، وقيل انه نشأ باللاذقية . وكان شابا
جميل الصورة وله عبيد علمهم صنعة البهلوانية
يمشون على الحبال أيضا ويظهرون الفنون الغريبة
مثله .

وفيه حضر الزينى طيلان رأس نوبة ، وكان
توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة
مصلح الدين بك والشهابى أحمد بن الجيعان ،
وكان أشيع عنه أنه توجه الى اسطنبول مع جملة
من توجه هناك ، فلم يصح ذلك ، وانما كان توجه
الى مكة وحضر من البحر المالح أيضا .

وفيه توفى العلائى على بن طوغان الذى كان
دوادار الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان من
أعيان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما لين الجانب
سيوسا فى أفعاله ، وقاسى فى آخر عمره شدائد
ومحنا بسبب قانصوه خمسمائة .

وفيه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ، فلما حضر أشيع بين الناس أن السلطان مقيم بحلب ، وأن شاه اسماعيل الصفوى متحرك على ابن عثمان ، وهو فى جمع كبير من العساكر ، وأن ابن عثمان أخذ حذره منه . وأشيع بين الناس أن نائب الشام جان بردى الغزالى تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغير ذلك من جهات دمشق . فلما تحايل عليه ونمت حيلته عليه قتله وقتل شخصا آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش . وكان ناصر الدين بن الحنش كثير العصيان على نواب حلب ، بل وعلى سلاطين مصر أيضا . وكان لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من المقابلة به ، فتحايل عليه جان بردى الغزالى حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش ، وأرسل رأسيهما الى ابن عثمان وهو بحلب ، فعد ذلك من جملة سعد بن عثمان ، ولولا تحيل الغزالى على قتل ابن الحنش بحيلة صعدت من يده لما قدر على قتله ابن عثمان أبدا ، وقد عجز عن ذلك سلاطين مصر .

وفيه أشيع أن الخنكار سليم شاه لما توجه الى حلب ارسل سيدى محمد ابن السلطان الغورى الى اسطنبول من هناك ، وأرسل صحبته آخرين من امرائه يتحفظون به الى أن يدخل الى اسطنبول

وأشيع أن الخنكار لما دخل الى حلب أقام بها مدة وحصن سورها وأبراجها وابوابها ، وعمر فيها ما يحتاج اليه من العمارة ، وقتل من أهل حارة باقوسه جماعة من شرار أهلها ، وقيل وزع على جماعة من أعيان حلب مالا له صورة ، وعمل فيهم البطيط ، فلما بلغه أن شاه اسمعيل الصفوى يقصد أن يزحف على البلاد الحلبيه أخذ يتلافى خواطر أهل حلب ، ورفع عنهم ما أحدثه عليهم من المظالم . وقد تقدم القول أن ابن عثمان لما كان مقيما بدمشق طرقته قصاد الصفوى على حين غفلة من طريق غير الطريق السالكة ، وهى أسربة قليلة السالك ، وهى طريق يقال لها الحلويه بالقرب من تدمر ، فما شعر ابن عثمان الا وهم بين يديه ، فقال لهم : « لم لا أتيتم من الطرق السالكه » فقالوا له ، ان شاه اسمعيل الصفوى أرسل اليك عدة قصاد ، ونوابك الذين فى البلاد يقتلونهم ، فقال لنا: توجهوا من هذه الطريق ، ثم قدموا اليه مطالعة الصفوى ، فأشيع أن مضمونها أنه أرسل يترفق له فى المطالعه ، ونعته فيها بنعوت سنيه بانك ملكت البلاد والعباد ، وملكت مصر وصرت خادم الحرمين الشريفين ، وأنت الآن اسكندر عصرك ، والماضى بيننا لا يعاد ، فتتوجه أنت الى بلادك ، وأتوجه أنا الى بلادى ، ونصون دماء المسلمين بيننا ، ومهما كان قصدك فعلته لك. فلما وقف السلطان على مطالعة الصفوى قال لوزرائه . « ان هذه الهديه التى ارسلها الينا ، وهذا الكلام الذى فى المطالعة كله حيل وخداع ، حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ويطرقنى على حين غفلة ، كما فعلته قصاده » . فقيل انه أخذ الهدية التى أرسلها ، وقتل القصاد وما أبقى منهم سوى كبيرهم فكان كما قيل فى أمثال الصادح والباغم :

وان من يستنصح الأعادى يردونه بالغش والفساد

ثم ان ابن عثمان لما وردت اليه قصاد الصفوى وهو بالشام رحل عنها ، وتوجه الى حلب ، وأخذ فى أسباب تحصينها كما تقدم .

* * *

وفى جمادى الأولى ، وكان مستهل الشهر يوم الثلاثاء طلع القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم .

وفى يوم الأربعاء ثانيه توفيت زوجة الأمير قايتباى الدوادار ، وهى سرية الملك الأشرف قلومان باى ، التى تدعى نال باى ، فلما ماتت دفنت فى حوش مدرسه السلطان الغورى .

وفى يوم الخميس ثالثه قدم القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، فسبقه مصلح الدين وتأخر بعده مدة ثم حضر . فلما حضر طلع الى القلعه وقابل ملك الامراء فخلع عليه قفطانا احمر مخملا مذهبا ، ونزل من القلعه فى موكب حفل وقدامه علاء الدين الامام كاتب السر ، وأعيان المباشرين من ارباب الوظائف ، وركب قدامه نقيب الجيش الشرفى يونس وجماعة من الأمراء العثمانية ، ومن الأمراء الچراكسة . فزينت له حارة البندقانيين وأوقدوا له بها الشموع على الدكاكين ، وتخلقت جماعته بالزعفران ... وكان ذلك اليوم مشهودا فى القصف والفرجة .

وفيه رسم ملك الأمراء بالافراج عما بأيدى أولاد الناس والنساء من المربعات التى كانوا أوقفوها من أول السنة ولم يمضها المباشرون ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، وعمل المباشرون بجملة مال له صورة ، وأمضوا للناس الافراج عن رزقهم واقطاعاتهم ونفعوا الناس غاية النفع ، ولم يشعر ملك الأمراء بشىء من ذلك .

وفيه وقعت حادثة شنيعة ... وهى أن شخصا من العوام كان أصله مؤذنا ، فدخل فى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها فى قفه ، فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر ، فأغلظ عليه الخولى وأتى به الى بيت الوالى وقص عليه أمره ، فطلع به الوالى الى ملك الأمراء وعرضه عليه وهو حامل القفة التى فيها الخيار الشنبر . فلما علم ملك الأمراء بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار الشنبر ، وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق خيار الشنبر ، فأشهره فى القاهرة ، وعلق القفة التى فيها الخيار الشنبر فى رقبته ، وشق به من القاهرة حتى أتى به الى القنطرة التى بزقاق الكحل فشنقه هناك ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن ، وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار شنبر ما تساوى أربعة أنصاف ، فتأسف الناس عليه كيف راح ظلما على شىء ما يستحق هذا كله . وكان له أولاد وزوجة .

وكان ملك الأمراء يبيت يسكر طول الليل ، ويصبح فى خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ، ولم يظهر العدل فى محاكماته قط منذ ولى على مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره ، فى تلك الليلة خسف القمر ، وأقام فى الخسوف ثمانيا وأربعين درجة .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الأمراء الطبلخانات ، وعلى الأمراء العشروات ، وعلى المماليك الجراكسة ، فأعطى الأمراء الطبلخانات كل واحد أربعين دينارا ، وأعطى الأمراء العشراوات كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، كما أنفق عليهم فى الشهر الماضى . وأنفق على المماليك كل واحد منهم ألفى درهم على العادة . وأنفق على أولاد الناس ممن نزل اسمه فى الديوان ، فأنفق على العسكر جامكية شهرين كانت منكسرة لهم فى الديوان من غير لحوم ولا عليق .

وفى يوم السبت تاسع عشره توفيت والدة الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكانت لها جنازة حافلة .

وفى يوم الأحد عشريه وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء خاير بك كان عين جماعة من الانكشارية والاصباهية أن يسافروا الى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين . فلما قصد مصلح الدين السفر هربت الانكشارية والاصباهية فى تلك الليلة ، وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على

حمية ، وتوجهـوا الى مصر العتيقة ، فنزلوا فى المراكب الكبار ، ثم أخـذوا جماعة من النواتية وسافروا فى المراكب ، وقصـدوا أن يتوجهوا الى جهة الصعيد .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل يقول للأمير قايتباى الدوادار : اخرج فى هذه الساعة وسافر خلف الانكشارية ، وكل من ظفرت به منهم اقتله . فصلى الأمير قايتباى صلاة الصبح وركب وخرج على حمية ، وصـحبته الامير جانم الحمـزاوى ، والامير على العثمانى ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسه ، وجماعة من العسـاكر العثمانية ، فعدوا الى بر الجيزة وأقاموا فيه ذلك اليوم حتى تكامل خروج العسـكر ، وخرجوا أفواجا افواجا ، فرجت لهم القاهـرة فى ذلك اليوم وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم بين الناس بسبب ذلك ، واضطـربت أحوال العثمانية فى بعضهم ، وصاروا فرقتين : فرقة مع ملك الأمراء ، وفرقة منهم عليه

ثم ان الأمير قايتباى رحـل مـن الجيزة هـو والعسكر وتوجه الى نحو الميمون بالقـرب من جزيرة بنى على ، فتلاقوا هنالك مع الانـكشارية والاصباهية الذين هربوا هناك .

ثم ان الزينى بركات بن موسى المحتسب رسم له ملك الأمراء خاير بك بأن يتوجه الى مصر العتيقة ويمسك مراكب ، ويرسـل فيها روادة للأمـراء والعسكر الذين توجهوا الى الميمون . فأوسق عدة مراكب فيها زوادة ما بين بقسماط وجبن حالوم ورز وسمن وعسل وغير ذلك من الزواده ، وأرسل ذلك الى العسكر .

ثم فى يوم الأربعاء ثالث عشريه وردت الأخبار بأن الأمير قايتبـاى الدوادار قـد انتصر على الانكشاريه والاصباهيه الذين هربوا ، فلما تلاقوا معه عند جزيرة بنى على تصدى الى قتالهم الأمير جانم الحمزاوى والأمير على العثمانى ، فحاصر الانكشاريه فى المراكب ، ورموا عليهم بالمدافـع والبندق الرصاص ، فأحرقوا مراكبهم ، فطلبوا الأمان من الأمير على ، والامير جانم الحمزاوى وقد وقع غالبهم فى البحر فغرق من غرق ، وقبضوا على الباقى وأسروهم ، فحزوا رءوس جماعه منهم ، وكانوا نحو ستة وثلاثين رأسا ، وأسروا الباقين بالحياة ثم ان الأمير قايتباى ارسل تلك الرءوس والأسارى الى ملك الأمراء فى مراكب ، فلما طلعوا بها علقوها على مدارى كما فعلوا برءوس الجراكسه ، والمجازاه مـن جنس العمل ، فلما طلعوا بهم الى القلعة قصـد ملك الامراء أن يعلق تلك الرءوس على ابواب المدينه فشق ذلك على بقية العثمانيه ، ومنعوا ملك الأمراء من ذلك . وأما بقية الانكشارية الذين أسروا بالحياة فقطعـوا رءوسهم اجمعين ، فقيل كانت عدة الانكشاريه الذين قتلوا والذين هربوا والذين غرقوا نحو مائة وخمسين انسانا .

ومن العجائب أن التراكمه كانت فى العام الماضى تقتل أولاد الجراكسة ، فعما قريب صارت المماليك الجراكسة تقتل التراكمة فى الليل والنهار ، وهذا عجيب ! وقد ورد فى بعض الأخبار « لا تكرهوا الفتن فان فيها حصاد المنافقين » ، وقد قيل فى المعنى :
لاتكرهو الحرب ان فيه حصاد نذل مع الخبيث
فمسـتريح ومستراح منه كما جاء فى الحديث

وفيه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، الذى قدم من مكة ، فتوجه الى الريدانية ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان . وقد أشيع أن ابن عثمان كان قد أرسـل خلفه ، فلما أقام بالريدانية نزل اليه ملك الأمراء وودعه ، ثم رجع ودخل من باب النصر وشق من القاهره فى مـوكب حافل ،

وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة . ثم ان مصلح الدين أقام بالريدانية أياما ثم عاد الى القاهرة ، فأشيع أن سبب ذلك أن قاصد صاحب اليمن قد وصل الى الطور ، وصحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليم شاه بن عثمان ، فلما بلغ ذلك ملك الأمراء أرسل استرد مصلح الدين الى القاهرة حتى يدخل الى القاهرة قاصد صاحب اليمن ، ويأخذه صحبته مع التقدمة ويمضى الى الخنكار ، فهذا كان سبب رجوع مصلح الدين الى القاهرة .

وفيه رسم ملك الأمراء للقضاة بأن يتوجهوا الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ويقرءوا هناك ، ويدعوا الله تعالى بالنصر للسلطان سليم شاه على اسماعيل الصفوى فتوجه قضاة القضاة الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقرءوا هناك ختمة ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاضرين ، فقرءوا أجزاء الربعة عشر مرار ، وأهدوا ثواب ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم الى السلطان سليم شاه ودعوا له بالنصر على الصفوى .

وفى يوم السبت سادس عشريه حضر الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير جانم الحمزاوى والأمير على بك العثمانى ، وكانوا توجهوا الى الميمون بسبب محاربة الانكشارية الذين هربوا ، كما تقدم . فلما انتصروا عليهم وقتلوهم رجعوا وطلعوا الى القلعة ، فخلع عليهم ملك الأمراء ونزلوا الى منازلهم

وفيه حضر الى القاهرة الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكان لما ظهر ارسل الخنكار طلبه وهو بحلب ، فتوجه اليه هو والأمير قانصوه العادلى ، والأمير تمر باى العادلى ، وأقام عنده مدة ، ثم رسم له بالعودة الى القاهرة ، وكان أشيع بين الناس أن ابن عثمان قرره فى الأتابكية بمصر . فلما حضر لم يظهر لهذه الاشاعة نتيجة ، واستمر بطالا مقيما بمنزله . ولما حضر حضر بصحبته الأمير شاد بك نائب المهمندار ، والأمير جانم الطويل أحد الأمراء العشراوات ، وكان أشيع موتهما بمرج دابق ، فلما ظهر أنهما فى قيد الحياة حضر الى مصر .

وفى آخر هذا الشهر كثرت الاشاعات بأن عربان السوالم قد حضر منهم ما لا يحصى ، وقد قصدوا حرب ابن بقر ، وأظهروا غاية الفساد بالشرقية .

* * *

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثامنه رسم ملك الأمراء بقراءة سبع ختمات : واحدة فى مقام الامام الشافعى ، وواحدة فى مقام الامام الليث ، وواحدة فى مقام الشيخ عمر بن الفارض ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الحسن الدينورى ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الخير الكليباتى رضى الله عنهم أجمعين ، وواحدة فى المقياس ، وواحدة فى الجامع الأزهر . ورسم بأن يهدوا ثواب ذلك للسلطان سليم شاه ابن عثمان ، فانه خرج الى ملاقاة اسماعيل شاه الصفوى .

فلما قدم رسول صاحب اليمن ، وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان سليم شاه بن عثمان ، استمر القاصد مقيما بالقاهرة الى أن سافر صحبة مصلح الدين ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشر هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع وعشر أصابع أنقص من السنة الخالية بذراعين وست أصابع . فانه كانت القاعدة فى السنة الخالية ثمانى أذرع وست عشرة أصبعا .

وفى يوم السبت سابع عشره طرقت ملك الأمراء أخبار رديئه ، بأن عربان السوالم قد طفشت حتى وصلت الى بركة الحاج ، ووصل أوائلهم الى المطرية . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد ، وأرسل الى الأمير قايتباى الدوادار يقول له : « اخرج فى هذه الساعة ، واطرد العربان » . فخرج من يومه هو والمماليك الجراكسة وجماعة من العثمانية ، ورماة من الانكشارية ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، فخرجوا وهم سائقون الى بركة الحاج . فقيل حصل بين الترك والعربان عركة يسيرة ، فقتل فيها جماعة من العربان ، وأسروا منهم جماعة ، وقطعوا رءوس أربعة . ثم رجع الأتراك بعد المغرب وقد وقعت خيولهم وبعض منها تفرقع من العطش ، وما رأوا خيرا ... فهربت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبل .

ثم رسم ملك الأمراء بشنق من أسر منهم على باب قنطرة الحاجب ، وعلقوا عليه تلك الرءوس التى قطعوها من العربان ، وقيل قتلوا من الأتراك جماعة ورجعوا من غير طائل من العربان .

وفى يوم الأربعاء حادى عشريه وقعت حادثة شنيعة ، وهى أن شخصا يقال له حسين وكان طشتدار عند الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، ثم بقى فى طشتخانات السلطان الغورى ، وهو رجل شيخ مسن زعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وقال له امض الى سليم شاه بن عثمان وقل له يرجع الى بلاده ويكف القتال عن المسلمين بسبب اسماعيل شاه الصفوى . وادعى أن ابن عثمان دفع اليه مالا له صورة فلم يقبله منه . ثم ان ذلك الرجل دهب الى ملك الأمراء خاير بك وقص عليه تلك الرؤية فتهاون خاير بك بكلامه . ثم أن ذلك الرجل قال لملك الأمراء : « ارجع عن مظالم العباد أنت والمباشرون ، خربتم مصر بظلمكم » ثم سب المباشرين بحضرة خاير بك سبا قبيحا ، وقال لبركات ابن موسى أنت لو حججت فى هذه السنة ما يقبلك النبى صلى الله عليه وسلم . فلما تزايد فى القول حنق منه ملك الأمراء ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه فى الميدان . وقيل ان ذلك الرجل تكلم بكلام كثير ، وأظهر أنه كشف له عن أمور تأتى فى أواخر هذه السنة من الأهوال ، فان كان صادقا فيما قاله وادعاه من هذه الأخبار التى ذكرها فسوف تقع ، ويظهر أثره أو صلاحه أو كذبه .

وفيه أشهر ملك الأمراء النداء فى القاهرة بأن لا أحد من الحجاج يسافر فى البحر المالح ، ولا يرسل له أحمال من البحر ، وموجب ذلك فساد العربان فى الطرقات ، وعبث الفرنج فى سواحل البحر المالح .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان وتوجه الى نحو الريدانيه ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان ، فخرج وقت صلاة الصبح وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، وأعيان المباشرين ، والأمراء العثمانية . فكان له موكب حافل .

ثم خرج بعده تقدمة حافلة أرسلها ملك الأمراء الى الخنكار هو وولده سليمان بك الذى باسطنبول . فكان ما اشتملت عليه تلك التقدمة من الخيول أربعين فرسا خاصات علها عبى قلعى ، يصحبها أربعون فرسا من الأكاديش ، واثنان وأربعون جملا محملة قماشا محزومه ، قيل ضمنها تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية ، وقماش فارسكورى ، وغير ذلك من شاشات وأزر ، وغير ذلك من مقاطع خمسينى ، وخام رفيع وغير ذلك ... ومن جملتها أربعة وستون جملا محملة سكرا ضمن صناديق جريد بأغشية لباد أبيض . قيل جملة ذلك أربعمائة قنطار . وقيل أن ملك الأمراء كرر السكر ثانيا وجعل فيه المسك والعنبر الخام .

ومن جملة التقدمة جمال محملة عصفرا وحناء وغير ذلك ، ومن جملة التقدمة احمال شفادف ضمنها مرطبنات أشربة مربى .

وأشيع أن ملك الأمراء أرسل الى الخنكار ابن عثمان جمالا عليها مال من خراج مصر عن سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ولم يعلم ما قدر ذلك . فلما مضت تقدمة ملك الأمراء طلع فى عقيب ذلك تقدمة صاحب اليمن ، وهى تقدمة حافلة تشتمل على شاشات وأرز وتحف ومعادن ولؤلؤ وفصوص وطواشية وغير ذلك . فلما مضت تقدمة صاحب اليمن ، طلعت تقدمة الأمير على بن عمر صاحب جهات الصعيد ، وهى تقدمة حافلة منها مائتا قنطار سكر ، ورقيق ما بين عبيد وجوارى وخيل وجمال ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للملوك .

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه رحل مصلح الدين من الريدانية ، وتوجه الى الخانقاه . وأشيع أنه لما كان مصلح الدين بالريدانية سرق من تحت رأسه بقجة قماش قيل ان فيها مبلغا له صورة .

وفى يوم الجمعة المذكور طرقت ملك الأمراء أخبار رديئة ، بأن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتفت عليه عربان قبائل البحيرة وغيرها . فلما تحقق ملك الأمراء صحة هذا الخبر نزل الى الميدان قبل صلاة الجمعة وعرض المماليك الجراكسة ، والعسكر العثمانى . فكتب من الفريقين نحو خمسمائة انسان ما بين انكشارية ورماة ، وعين صحبتهم عشر عجلات تكون قدام العسكر ، وعين الأمير قايتباى الدوادار باش المماليك الجراكسة ، وعين أمير آخور باش العثمانية .

وفى هذه الأيام اضطربت أحوال ملك الأمراء جدا ، وقد بلغه أن العربان طردوا اسمعيل بن الجويلى عن أرض البساط وملكوها منه ، واضطربت أحوال الغربية الى الغاية ، واضطربت أيضا أحوال الشرقية بسبب عربان ال... والم وعبد الدائم بن بقر واخوته ، واضطربت أيضا أحوال جهات الصعيد ، وقد ضاعت مصالح المسلمين بينهم . وخرب من الشرقية والغربية عدة بلاد ، وظهر الفساد والفتن برا وبحرا . والأمر لله تعالى .

وفى يوم السبت رابع عشريه أرسل شكر أخو حسن بن مرعى شخصا من أقاربه يطلب الأمان له من ملك الأمراء ، فأرسل اليه ملك الأمراء منديل الأمان وصورة حلف على يد القاضى فخر الدين ابن عوض ، وأرسل اليه قفطان حرير مخملا . وخلع على شخص من أقارب حسن بن مرعى الذى جاء يطلب الأمان من ملك الأمراء .

وفى يوم الأحد خامس عشريه خرجت التجريدة التى كانت تعينت الى حسن بن مرعى ، وكان باش العسكر أمير آخور أخا ملك الأمراء وصحبته جماعة من العثمانية ما بين انكشارية ورماة بالبندق الرصاص ، وخرج صحبة العسكر تلك العجلات التى عينت لهم ، وكانت عدتها عشر عجلات ، وخرجت طائفة من المماليك الجراكسة وتوجهوا الى البحيرة وصحبتهم الأمان والخلعة الى شكر بن مرعى .

وفى هذا الشهر وردت الأخبار من مكة بأن عدة مراكب فيها افرنج يعبثون فى البحر المالح ويقطعون الطريق على المسافرين فى البحر . وأرسل السيد الشريف مطالعة الى ملك الأمراء بأن يرسل له تجريدة بسرعه ، وقد خشى على بندر جدة أن تطرقه الفرنج على حين غفلة ، ويملكوه من المسلمين .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشريه نزل ملك الأمراء الى الميدان الذى تحت القلعة ، وعرض العسكر ،

وعين منهم جماعة يسافرون الى جدة بسبب حفظ البندر . فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة ما بين جراكسة وأولاد ناس ومغاربة وغير ذلك . وكان مجموع ما كتبه من العسكر في ذلك اليوم نحو مائتين وخمسين انسانا ، وأنفق في ذلك اليوم على طائفة المغاربة على حكم ما كان ينفق عليهم السلطان الغورى . فنزلوا من القلعة ، وشرعوا فى أسباب عمل برقهم الى السفر ، وأما بقية العسكر فلم ينفق عليهم شيئا . وقد صبر حتى يرد عليه من مكة خبر آخر فى أمر الفرنج يعتمد عليه .

***

وفى شهر رجب وكان مستهله يوم الجمعة طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رابعه حضر جان بك دوادار الأمير قايتباى ، والأمير بخشباى قرا الذى كان شاد الشون ، والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين . وكان هؤلاء توجهوا نحو الشرقية بسبب أنهم مسحوا جهات الشرقية ، وميزوا الشراقى من الرى ، ومسحوا الأقاطيع والرزق ، وعملوا بالباع والذراع فى الشرقية ، وجاروا على المقطعين فى المساحة . ثم انتقلوا من الرزق والأقاطيع الى جهات الأوقاف فمسحوها ، وصاروا ينزلون الى البلاد ويفردون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . فجبوا من الشرقية فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ، ورحل منها الفلاحون . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس ، فعمت هذه الحادثة أصحاب الرزق والأوقاف من الرجال والنساء حتى الأرامل والأيتام والمستحقين ، وقد تعطلت الأوقاف بسبب ذلك . وكان هذا كله بواسطة ملك الأمراء خاير بك فانه كان سببا لذلك ، فعد هذا من جملة مساويه فى حق أهل مصر ، وحصل فى هذه الحركة غاية النفع للمباشرين الذين تكلموا فى أمر هذه المساحة بالشرقية . والأمر لله وحده .

وفى يوم الاثنين حادى عشره أشهر ملك الأمراء خاير بك المناداة فى القاهرة بأن المماليك الجراكسة لا يلبسون زنوطا ، ولا يمشون بقبباقيب فى الأسواق ، ولا يجلسون على المساطب فى الحارات ، ولا على أبواب الجوامع ، وكان ملك الأمراء سامح لهم أولا فى ذلك ، ثم ضيق عليهم ومنعهم من هذه الأفعال فيما بعد .

وفى يوم السبت سادس عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص عجمى فشنق ، وكان هذا الشخص تاجرا فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له صورة طمع ملك الأمراء فى ماله وزعم أنه جاسوس من عند شاه اسمعيل الصفوى حضر ليكشف عن مصر وأحوالها ، ويطالع الصفوى بذلك . فشنقه ظلما ، واحتاط على جميع أمواله ، وجعل له ذنبا أنه جاء من عند الصفوى جاسوسا

وفى يوم الأربعاء عشريه حضر شيخ العرب شكر أخو حسن بن مرعى شيخ جهات البحيرة صحبة القاضى فخر الدين بن عوض ، وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء كان أرسل له منديل الأمان على يد ابن عوض ، فأطاع وحضر الى القلعة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه قفطان حرير ونزل من القلعة وتوجه ليحضر أخاه حسن بن مرعى ، فتوجه الى نحو قليوب وصحبته القاضى بركات المحتسب ليحضر حسن بن مرعى ، وأرسل له ملك الأمراء منديل الأمان على يد القاضى بركات المحتسب .

ثم فى أثناء ذلك اليوم حضر حسن ابن مرعى ودخل القاهرة وعلى رأسه منديل الأمان ، وصحبته جماعة من العثمانية ، وأمير آخور أخو ملك الأمراء ، والزينى بركات المحتسب ، وفخر الدين

ابن عوض ، وجماعة كثيرة من العربان . فشق من القاهرة ومنديل الأمان على رأسه . فلما طلع الى ملك الأمراء بالقلعة وقابله خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ، ونزل من القلعه في موكب حافل .

وكان أشيع أن ملك الأمراء سيقبض عليه ، فانه وقع في ذنب عظيم . وسبب ذلك أنه كان مسجونا بالقلعه من حين قبض عليه الخنكار وسجنه بها ، فتسحب من هناك ليلا وهرب ، واستمر في عصيان وهجاج مدة طويلة ، وكثر القيل والقال بسببه ، والتف عليه جماعة كثيرة من عربان الغربية . فلما طلع وقابل ملك الأمراء وخلع عليه بطلت تلك الاشاعات التي كانت تشاع بين الناس بسبب عصيانه .

وفي يوم الاثنين خامس عشرى شهر رجب ، كانت وفاة صاحبنا الشيخ بدر الدين محمد بن محمد الزيتوني العوفي رحمة الله عليه ، وكان أحد نواب الساده الشافعية ، وكان فاضلا عارفا بصنعة القضاء والتوقيع ، ماهرا في الخطب . وكان فكه المحاصرة كثير العشرة للناس . وكان علامة في فن الزجل . وكان ينظم الشعر على فنون ، وهي الشعر ، والدوبيت ، والمواليا ، والموشحات . وكان له شعر جيد ، ونظم أرجوزة مفيدة في الفقه وشرحها شرحا على الأوضاع مفيدا في معناه . ومن شعره الرقيق قوله ملغزا في اسم حمزه :

يا سائلي عن اسم من خدوده كالعندم
في خده وثغره وفي فؤادي المغرم

وكان مولده سنة احدى وثلاثين وثمانمائة ، وذلك في شهر شعبان في سادسه . فكانت مدة حياته أربعا وتسعين سنة الا يوما . فلما مات حضر القضاة الأربعه وصلوا عليه ، وكانت له جنازة حافلة ، ودفن بحوش تربة الصوفيه ، رحمه الله تعالى .

ولما توفي الشيخ بدر الدين الزيتوني رثاه ولده القاضي بدر الدين محمد بهذه القطعة الزجل اللطيفة وهي قوله :

يحق لي أن أرثي لموت والدي
كان أفصح النظام وعقلو رجيح
في درج الأكفان للقياما اندرج
واجب على فقدو بعزمي أصيح
كان والدي في فن الأزجال تقصدوا
حفاظ مصر والكل بيه يعتنون
وفي جميع العلوم مالو نظير
فقيه مدرس في جميع الفنون
يدري الأصول والنحو معرب خطيب
ومنطقي في الصرف عاقل مصون
جا الموت خدو وأصبحت بين الورى
فريد وجميع الناس بحزني تنيح
وينـدبوا هبى عليه بالفراق
وما جرى من جفن عيني الفسيح
قوموا بنا جمع الموالي والصحاب
نرثي الذي قد كان وكان في الدهور
زين الوجود مالو وجود في الورى
عارف بفن الشعر والكل زور
أصحابنا زيدوا النواح والنحيب
على أديب يدري أصول البحور
مثلو ما حد يحسن زجل في الأنام
ولا موشح لو ودوبيت صحيح
والفرق ظاهر مثل صبح الدجى
ما بين قاضي الكل والزمر ريح
كان في الأدب ناظم وناثر فصيح
وقد حوى جملة محاسن ملاح
ان قلت في التحرير حريري النظام
بل سيدو لما تعد الفصاح

أو عنتر العبسي نهار المجال
آو نشر حاتم طى عند السماح

وما لشماخ رقتوا فى البديع
وقس ما ينقاس بنطقو الفصيح

وسائر الحفاظ تراهم لديه
ما يقتدوا الا بقولو الصحيح

يا من روى الأخبار كان والدى
مختص بالآداب وكان لى مفيد

مفتاح لباب الرزق للضيق فرج
وجهو سرور كعبو مبارك سعيد

مختار لفعل الخير بشير الفرح
مرشد ومحسن كل ما فيه مليح

ياقونيا الخط وبجوهراتى
فرقو صباح ظاهر ووجهو صبيح

كان آخر النظام وبحر العلوم
وروض تربه زاهر بديع الصفات

ونقلدان مع راح وريحان وروح
جمع ضريحو ذى المعانى الشتات

كيف لا أحرك للضريح ساكنى
وأبكى عليه طوال الحيا للممات

ومشتكى حُزنى وروضى الترب
والنقل والراح الدى لى يريح

والروح والريحان وما قد عدم
من الوجود موجود بداك الصريح

بعدو على الدوم قد الفت النواح
والحزن عن يعقوب ورتت النحيب

أصبحت من ما نوح سفينى غريق
والدمع طوفان ما طفا لى لهيب

يارب هب لى صبر أيوب عليه
وارسل اليه رحمه بطه الحبيب

قلبى من آجلو صار بحزنى كليم
والدمع لو فى صحن خدى مسيح

ونا غريق محروق بنار الخليل
وشبه اسماعيل بحزنو دبيح

قد نظم الجوهر بتآليف كتاب
حاوى علوم الفقه سهل البيان

وقد شرح لو شرح واضح مفيد
وصار لو بيه تذكار بطول الزمان

وقال دخيرة لى ليوم النشور
آسكنه ربى فى فسيح الجنان

دار النعيم فيها مقيم لم يزل
ما بين آشجار وكونر بسيح

والحور والولدان وما يشتهيه
من الفواكه مع مقام فسيح

ونا ابن ريسونى عريق النسب
يا رب الارباب يا لطيف يا حبير

اجبر بلطفك كسر قلبى الحزين
يا جابر العظم الرميم الكسير

واعطف على بحنو الورى
وما تعسر فاجعلولى يسير

مدح المجد للخلائق شما
به يهتدى قلبى وبو آستريح

ونا آريد آمدح محمد عسى
يطفى لهيبى واهتدى بالمديح

صلوا على المختار حبيب الاله
من آرسلو الله للخلائق شفيع

يوم القيامه والخلائق زمر
ياتوا لآدم يقول ما آستطيع

اشفع تشفع فى آمتك يسمع ال
مولى ويغفر كل ذنب قبيح

ويدخلوا الجنة كذا قد ورد
عن النبى مسند حديث صحيح

وفى هــذا الشــهر توقف النيل وسلســل فى الزيادة ، وصــار يزيد فى كل يوم أصبعا ، وتارة اصبعين وقد مضى من مسرى عشرة أيام ولم يصل النيل الى عشر أذرع . فاضطربت أحوال الناس فى تلك الأيام ، وتشحطت الغلال . وبلغ سعر البطة الدقيق اثنى عشر نصفا ... فعند ذلك رسم ملك الأمراء بأن ينزل الوالى ويكبس الروضة ، فنزل هو وجماعة من الأمراء العثمانية وكبس الروضة ، وقلع الخيــام التى كانت بها ، وأشهر المناداة هنــاك بأن لا أحد يتجاهر بالمعــاصى ولا يجمع جمــوعا ولا ينصب خيمة على شاطىء البحــر ، ومن يفعل ذلك يشنق على باب داره من غير معاودة فى ذلك فانكف الناس عن التجــاهر بالمعاصى بالروضة ، فنزل فى ذلك اليوم غالب النــاس من الروضة .

* * *

وفى شهر شعبان ــ وكان مستهله يوم الأحد ــ طلع القضاة الأربعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الاثنــين تاســع الشــهر كانت وفاة الشيخ الصالح القطب العارف بالله تعالى ، الورع الزاهد الناسك الشيخ محيى الدين عبد القادر ، ابن الشــيخ الصــالح العارف بالله تعالى حسن ، ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى بدر الدين ، المدعو شرف الدين موسى الدشطوطى ، رحمه الله عليهم أجمعين وكان الشيخ عبد القادر شــافعى المذهب مجذوبا واعيا . وكان مكشوف الرأس ، وكان دائما شعره فى رأسه وعلى جسده جبة خشنة دائما . وكان سواحا لا يتخذ له سكنا ولا زوجة ولا ولدا ولا عيالا وكان يتغــذى بالقراقيش والزعتر دائما . وكان لا يأكل طعام اللحم الا قليلا . وكان مهيبا معظما عند الملوك والسلاطين وأعيان الناس ، وكانت رسالته عندهم لا ترد . وكان فى أواخر عمره حصل له كفاف فى عينيه واستمر على ذلك حتى مات وقد عاش من العمر نحو ثمان وثمانين سنة أو فوق ذلك .

وكان محببا للناس ، وكانت النذور التى تدخل عليــه من عنــد الأكابر ينشىء بها جوامع بخطب ومســاجد . وله عدة جوامع ومســاجد فى أماكن شتى . ولما توفى ارتجت له القــاهرة ، ونزل ملك الأمراء والعثمانية والأمير قايتباى الدوادار والقضاة الأربعة وأعيان الناس وأرباب الدولة ، وخرج نعشه من بيت المعلم حسن الصياد المهندس خارج باب الشعرية ، ورفعت له الأعلام على نعشه ، وحضر أطفــال المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف ، ومشوا حول نعشه ، واستمر على ذلك حتى وصــل الى مدرسته التى أنشأها تجاه سيدى يحيى البلخى فدفن بها . وكانت جنازته حافلة ، رحمة الله عليه ، وكان بقية السلف من الأولياء .

وفى هذا الشهر قبض ملك الأمراء على يوسف البدرى الوزير ، ورسم عليه وعلى زوجته وعلى عياله وغلمانه وحاشيته ، وقرر على يوسف البدرى مالا له صورة ، وعلى زوجته وجماعته . وتمادى أمره فى المصادرة حتى ذهب ما يملكه جميعا من صامت وناطق ، حتى باع أثاث البيت من قطارميز وزلع ، حتى الحــصر وغير ذلك ... واستمر فى المصادرة نحو شهرين هو وزوجته وهما فى الترسيم وعياله ، وآخر الأمــر أرســلوه الى اسطنبول . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفيه نادى ملك الأمراء فى القاهرة للمباشرين والعمال بأنهم لا يستخرجون من بلاد الشرقيــة والغربية عن سنة أربع وعشرين وتسعمائة شيئا الا بمرسوم من عند ملك الأمراء ، فاضطربت أحوال

المسلمين والمباشرين . وكثر بينهم القيل والقال بسبب ذلك .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره ، الموافق لسابع عشرى مسرى ، وفى النيل المبارك الست عشرة ذراعا ولم يزد من الدراع السابعة عشرة شيئا ، فلم يفتح السد فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت رابع عشره ، وفى النيل المبارك وزاد اصبعا من السابع عشر ففتح السد فى ذلك اليوم . فلما وفى نزل ملك الامراء وتوجه الى المقياس وخلق العمود ، ومد هناك مدة حافلة . وحضر الأمراء العثمانية ، ثم نزل فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، وتوجه الى السد وفتحه ، وكان يوما مشهودا ، واوكب وهو طالع الى القلعة موكبا حافلا . وكان وفاء النيل فى هذه السنة على غير القياس ، لأنه كان نيلا شحيحا ، وسلسل فى الزيادة وتوقف أياما وتشحطت أسعار الغلال جميعها ، ثم وفى بعد ذلك ففرح به كل أحد من الناس ، وكان الأمر كما قاله المعمار :

النيل وافى وزال الهم وانفرجت
عنا الهموم وهان القمح ثم رمى
وراح خزانه للنيل ينظره
فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

ومن الحوادث فى يوم وفاء النيل أن شخصا من العثمانية غرق فى البحر ، فتنكد ملك الأمراء والعثمانية بسببه .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره حضر قاصد من البحر من عند الخنكار ابن عثمان ، ولم يعلم ما قد جاء فيه ، وما سبب مجيئه . وكثر القيل والقال فى ذلك ، ثم ظهر من بعد ذلك ما جاء بسببه ، وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ولما فتح السد وجرى الماء فى الخلجان ، لم تسكن البيوت فى الجسر ولا التى فى المصطاحى ولا حكر الشامى فشكا أصحاب الأملاك من ذلك الى والى القاهرة ، فنادى للناس فى الجسر بأن يسكنوا وعليهم أمان الله تعالى ، والذى لا يسكن فى بيته ولا يعمره يضرب عليه ملك الأمراء رنكه ويصير ملكه ، فصار يكرر تلك المناداة للناس ثلاثة أيام متوالية . فسكن فى الجسر بعض بيوت ، ودخل بركة الرطلى بعض مراكب البياعين .

وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها غير الجدر ورسوم البيوت لا غير ، وابتاع أصحاب الأملاك بيوتهم انقاضا . وكان السلطان الغورى سد خليج الزربيه بجسر عند قنطرة موردة الجبس ، فتلاشى أمر الجزيرة الوسطى من يومئذ ، وخلت بيوتها من السكان ، وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية . وكان مبتدأ منشئها فى دولة الأشرف اينال سنة اثنتين وستين وثمانمائة ، ولا زالت الناس تنشىء فيها الأملاك الجلجلة الى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فتلاشى أمرها وخربت جملة واحدة لما دخل ابن عثمان الى القاهرة وجرى منه ما جرى ، ونزل فى بر الجيزة على رملة البحر ، فصار عسكره يخرب بيوت الجزيرة ويأخذ سقوفها وأبوابها وطيقانها ، فخربت بالكلية من يومئذ ، وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا . والأصل فى ذلك أنها أسست على غير تقوى ، وكانت بقعة فسق وزنا ، فآل أمرها الى الخراب سريعا .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرى هذا الشهر — وافق ذلك اليوم يوم النوروز — والنيل فى ست عشرة ذراعا ، ولم يدخل فى الذراع السابعة عشرة وكان من مبتداه الى منتهاه نيلا شحيحا .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشريه توفى سودون نائب دمياط ، وهو أحد الأمراء العشراوات ، مات بطالا .

* * *

وفى شهر رمضان ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالصوم ، ثم عادوا الى دورهم . ولما دخل شهر رمضان كانت الأسعار مشحطة فى سائر البضـائع ، وقد تناهى سعر القمح الى آشرفيين كل أردب ، والبطة الدقيق الى أربعة عشر نصفا ، والسكر تناهى سعره الى أربعة وعشرين أشرفيا كل قنطار ، والقطر النبات بخمسة أنصاف كل رطل ، والقطر المكرر بأربعـة أنصاف كل رطل ، والعسـل النحل بثلاثة أنصاف كل رطل ، والعسـل الأسـود بنصفين كل رطل ، والسمن بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن المقلى بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن الحالوم بنصفين كل رطل ، والجبن الأزرار الذى فى مائه بنصف فضة كل رطل . وتشحط اللحم الضانى واللحم البقرى حتى صار لا يوجد الا قليلا . فابتيع اللحم الضأنى بثمانية عشر كل رطل ، والبقرى بثمانية كل رطل ، وابتيعت الحلوى المشبك من القادرى بخمسـة أنصـاف كل رطل ، والمنفوش بستة كل رطل ، وعمت هـذه التشحيطة سائر البضـائع وسائر الحبـوبات حتى الخضر . وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى كان مشغولا بعمل برق الحجاز ، وقد أهمل أمور الحسبة ، ولم يلتفت اليها ، فجارت السوقة على الناس وهم فى أمر مريب بسبب هذه التشحيطة التى وقعت فى تلك الأيام ، وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضا .

وفى يوم السبت ثالث عشره جلس ملك الأمراء فى المقعد الذى بالحوش ، فتكاثرت عليه المماليك الجراكسة فى المقعد فحنق منهم ، فقال للانكشارية الذين حوله : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فلما سمعوا منه ذلك ضربوا المماليك الجراكسة بالعصى على وجوههم ضربا فاحشـا ، فجاءت ضربه على أكتاف جانى بك دوادار الأمير قايتباى الدوادار فانزعج كتفه . فحصل للمماليك الجراكسة فى ذلك اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعـة على أقبح وجه .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع المماليك الجراكسة الى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وفرق الأطلاق ، فأعطى لجماعة من المماليك فدان طين ونصـف ، وبعض فدانا ، وبعض نصف فدان ، فتضرر المماليك من ذلك ، وقالوا : ايش يكفينا النصف فدان ؟ وشكوا من ذلك فسبهم القاضى شرف الدين سبا قبيحا ، وقال لهم : « ياكلاب يازرابين أنتم بقى لـكم باب والا راس حتى تتـكلموا ، بيضـتم وجوهـكم فى اش حتى تستحقوا اطـلاقات » ؟ وبهدلهم غاية البهدلة ، فنزلوا من الميدان على أقبح وجه . وقد قلت أبياتا فى هذا المعنى :

لـما تكبرت الجراكسـة التى
كانت بمصر أذلهم رب الورى
وأذاقهم ذل السـؤال وفاقة
أبدى وأدبهم بما لهمو جرى

وفى هـذا الشهر وقعت بين ملك الأمراء وبين الأمير قايتباى الدوادار فتنة ، وصـار كلما طلع اليـه يمقته . وسبب ذلك أن شخصـا من عربان السوالم كان عند قايتباى ، فأرسل خاير بك اليه انكشاريا أخذه من عنده ، ووضعه فى الحديد ، فصار بينهما حظ نفس فى الباطن .

وفيه قدمت الأخبـار من اسـطنبول على يد شخص من العثمانية ، وصار يفرق مراسيل على عيال من توجه الى اسطنبول ، فذكروا فى كتبهم

وفاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأشيع أن الخنكار لما رحل عن حلب الى بلاد على دولات ، نزل بمرعش وأقام بهـا مدة ، ثم رحل من هنـــاك وتوجه الى اسطنبول ، وهى القسطنطينيـة العظمى محـل كرسى مملكة ابن عثمان ، فقيل ان أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله لما بلغه مجىء الخنكار ، خرج من اسطنبول ولاقاه هو وأولاد عمه ، والعلائى على ابن الملك المؤيد وأولاد الأمراء الذين هنـاك ، والمباشرون وأولاد الجيعان الذين هناك ، وأولاد الناس من أهل مصر الذين توجهـوا الى اسطنبول ... فلما وقعت عين الخليفة على ابن عثمان أراد أن ينزل له عن فرســه ، فحلف عليــه الخنكار ومنعه من النزول اليه ، وقيل انه عظمه غاية التعظيم .

وأما بقيــة أعيان أهل مصر الذين هناك فلم يلتفت اليهم لما خرجوا اليه ولاقوه ، هكذا أشيع بين الناس ، وكانوا يظنون أن الخنكار اذا دخل الى اسطنبول يفرج عنهم ويرسم لهم بالعود الى مصر ، فلم يخاطب منهم أحدا ولم يلتفت اليهم .

وأشيع أنه لما دخل الى اسطنبول دخل فى موكب حافل فأقام نحو ستة أيام ، ورحل عنها وتوجه الى بلد من أعمال مملكته يقال لها أدرنة فأقام بها . وسبب ذلك أنه لما دخل الى اسطنبول وجد بها فناء عظيما ، وقد فتك بها الطاعون فتكا عظيما ، ومات به من عسكره ما لا يحصى . وقيل مات من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول نحو من ثمانين انسانا ، منهم أعيان وغير أعيان ، ولكن لم أقف على حقيقة أســماء من مات هناك من الأعيـان . وسيظهر فيما بعد من توفى هناك من الأعيان .

ومن العجـائب أن الفلكيـة وأرباب النجوم حكموا بأن سليم شاه ابن عثمان ما بقى يدخل الى بلده اسطنبول ، فكذبهم الله تعالى فيما قالوه ، ودخلها وأقام بها أياما ، وبطلت أقوالهم الكاذبة ، كما قال فى المعنى :

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله
فالله يفعل .. لا حدى ولا حمل
مع السعادة ما للنجم من أثر
فلا يضرك مريخ ولا زحل

وقيل بلغ الخنكار أن شاه اسماعيل الصفوى طرد عسـكر ابن عثمان عن البلاد التى كان ملكها ، واستنـــاب بها جمــاعة من العثمانيــة ، فطردهم الصفوى عن بلادهم واستخلصها من أيديهم . فلما بلغ ابن عثمان ذلك خرج من اسطنبول مسرعا ، وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكـون من أمر شــاه اسماعيل الصفوى . هكذا أشيع بين الناس والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفى يوم الخمس مع ليلة الجمعة تاســع عشر شهر رمضــان ، صــنع الزينى بركات بن موسى مسـايرة حافلة ، وركب معه جماعة من المباشرين ، فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة ، وقدامه انكشارية وفوانيـس ومشــاة بفوانيس ومشاعل كثيرة . فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقــان ، وارتفعت له الأصــوات من العوام بالدعاء . وكانت من الليالى المشهورة . وارتجت له القاهرة فى تلك الليلة ، وكان محببا للنـاس قاطبة .

وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العثمانية كان فى خان الخليلى قـد قبض على شخص من العوام زعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف ، فلما قبض عليه طلع به الى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين يديه قص عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى ، وأنه قبض على يده وهى فى جيبه ، وأخذ من جيبه

وهو ماش أربعة أنصاف . فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للوالى أن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة . فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف ، وقد راحت ظلما !

وقد تقدم القول أن ملك الأمراء شنق رجلا على عيدان خيار شبر ، وكان ملك الأمراء يصبح وهو مخمور يحكم بين الناس بالعسف والظلم ، مما لا يسوغ الشرع الحكم به ، وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين فى أفعاله كلها

وفى يوم الخميس خامس عشريه ، حضر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وكان ملك الأمراء أرسل اليه منديل الأمان ، وخلعه بأن يستقر فى شياخة الشرقية . فلما حضر وقابل ملك الأمراء تقدم اليه والده شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ومسك ابنه عبد الدائم من طوقه بين يدى ملك الأمراء ، ثم التفت الى ملك الأمراء وقال له : يا ملك الأمراء متى أطلقت هذا صار فى ذمتك الى يوم القيامة ، وخرب الشرقية عن آخرها . فتعصب للأمير أحمد خير الدين بك نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء : « اذا كان أبوه يشكو منه فكيف تطلقه أنت ؟ » فساعده على ذلك سنان باشا ، فما وسع ملك الأمراء الا أنه وضعه فى الحديد ، وسلمه الى خير الدين نائب القلعة .

ثم ان ملك الأمراء قبض على جماعة عبد الدائم الذين كانوا حضروا صحبته قاطبة ، وكانوا نحو ثلاثين نفرا من أعيان العربان ، ووضعهم فى الحديد ، وأرسلهم الى السجن ، ثم أحضر قفطان حرير أخضر وخلعه على الأمير بيبرس ابن الأمير أحمد بن بقر ، وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن عبد الدائم

وقد سر بمسك عبد الدائم كل أحد من الناس ، فانه كان من المفسدين فى الأرض ، ووقع منه أمور شنيعة من حين دخل ابن عثمان الى مصر ، وقطع الطريق على القوافل التى تأتى من الشام ، وقتل التجار وأخذ أموالهم ، وقتل جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا قد طفشوا فى البلاد ، وأخذ سلاحهم وخيولهم . وقد فعل من هذه الأفعال القبيحة ما لا يحصى ، ووضع يده على خراج بلاد الأوقاف واستخرجها ، وفعل من هذا النمط أشياء كثيرة .

ثم ان ملك الأمراء أرسل ضرب الحوطة على موجود عبد الدائم من صامت وناطق ، حتى على سواقيه وزروعه ومواشيه وثيرانه وأبقاره وغير ذلك ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا

وفى يوم السبت سابع عشرى شهر رمضان نبت النيل المبارك على ست أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وهبط سريعا ولم يزد فى بابة غير خمسة أيام ونقص . وكان نيلا شحيحا من مبتداه الى منتهاه .

وفى ذلك اليوم نزل ملك الأمراء وشق من القاهرة ، وقد بلغه أن قاصدا حضر من عند الخنكار ابن عثمان فنزل الى ملاقاته . فلما شق من القاهرة ضجت اليه العوام من قلة الخبز فى الأسواق ، وانطلقت الألسن فى حق ملك الأمراء بالكلام الفج ، وقالوا له انظر فى أحوال المسلمين بنور الله تعالى والا يصير ذلك فى ذمتك . فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .. وكان صحبته الزينى بركات ابن موسى المحتسب ، فقاسى فى ذلك اليوم من ملك الأمراء ما لا خير فيه . وقال له : « قد غفلت عن الناس حتى صارت غلوة بمصر » .

ثم ان ملك الأمراء لما طلع الى القلعة ، رسم بفتح شونتين وأن تفرق على الطحانين ، ففعل ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان ، أرسل ملك الأمراء أمير علم الى بيت الأمير قايتباى ، وقال له قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك فى هذه الليلة طبلخانات وكئوسات . فلما سمع ذلك الأمير قايتباى أرسل يقول لملك الأمراء : «أدق الطبلخانات على بابى دائما ، والا فى هذه الليلة فقط» ؟ فلما عاد الجواب الى ملك الأمراء قال : قل له فى هذه الليلة فقط . فلما بلغ الأمير قايتباى ذلك لم يوافق على دق الطبلخانات على بابه فى هذه الليله فقط ، وقال : « أدق الطبلخانات على بابى ليلة واحدة حتى تضحك على الناس ؟ » . وامتنع من ذلك ولم يدق الطبلخانات على بابه فى تلك الليله . وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء من حين دخل ابن عثمان الى مصر وقد قلت فى ذلك :

لهفى على الكاسات قد دقت على
باب بسعد اميره قد بشرا

* * *

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الأربعاء ، فخرج ملك الامراء وصلى صلاة العيد فى جامع القلعه وخطب به قاضى القضاه كمال الدين الشافعى ، وانفض موكب العيد كأنه لم يكن ، ولم يخلع فيه ملك الأمراء على أحد من أرباب الوظائف ، ولا على قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين ولا على الأمير قايتباى الدوادار . وبطل ما كان يعمل فى يوم العيد من تلك المواكب الجليلة والخلع المثمرات ، والتشاريف السنية . وبطلت تلك الطرز اليلبغاوية العراض ، والفوقانيات الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة . ووقع لى فى المرثية التى قلتها فى مصر أبيات فى معنى ذلك وهى :

لهفى على أعياد مصر كيف قد
أفنت تشاريفا بها ومثمرا
وكذا الكنابيش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى
وكذا السروج المفرقات بلمعها
كانت كبرق أو كليل أقمرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى

ثم نزل الزينى بركات بن موسى من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه الملالية والمشاعل بالنفوط الزركش عليها ، والانكشارية بالنفوط قدامه ، والفواسة قدامه مشاه . فشق من القاهرة فى ذلك الموكب .

وفى يوم الخميس ثانى شوال طلع جماعة من أعيان المباشرين الى القلعة على جارى العادة ، فلما تكاملوا أخرج اليهم ملك الأمراء مرسوم الخنكار ابن عثمان الذى أرسله على يد صوباشى من العثمانية ، الذى تقدم ذكر حضوره من البحر المالح . وكان من مضمون ذلك المرسوم أنه أرسل يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون الى اسطنبول وهم : العلائى على ناظر الخواص الشريفة ، والشرفى يونس النابلسى ، والقاضى بركات أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب الرجع ، والقاضى فخر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل . وأرسل يطلب الأمير يوسف البدرى الوزير الذى كان كاشف العربية وأرسل يطلب الشرفى يونس نقيب الجيش ... فلما تحققوا ذلك اضطربت أحوالهم ، ورسموا عليهم بالقلعة ، وقالوا لهم اكتبوا وصاياكم ، ويوم الجمعة تسافرون من البحر .

ثم فى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على القاضى شهاب الدين بن الجيعان ، واستقر به فى كتابة السر

عوضا عن علاء الدين ناظر الخاص . وخلع على القاضى شرف الدين بن عوض أخى فخر الدين ، واستقر به فى كتابة الخزانة ومتحدثا فى جهات الشرقية . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبة على عادته ، وجعله متحدثا على الاستادارية عوضا عن يونس النابلسى ، وأشرك معه الشرفى يونس النابلسى استادار ملك الأمراء ، وخلع على القاضى أبى بكر بن الملكى وقرره على عادته مستوفى ديوان الجيش ، وخلع على يوسف ابن نقيب الجيش واستقر به فى نيابة الجيش عوضا عن أبيه . فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم القفاطين الحرير .

وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الأمراء من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير سنان باشا وفائق بك ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة من المماليك الجراكسة . ولما وصل الى سبيل علان ساق قدامه الركاب بالخيل الجنائب ، وساقت معهم خيول الأمراء ، فسبق فرس الأمير قايتباى الدوادار فرس سنان باشا .

قيل ان هذه عادة عند العثمانية أنه فى أيام العيد يخرج الخنكار ويسير فى الفضاء ، ويسوقون قدامه بالخيول ، فمن سبق فرسه ينعم عليه الخنكار بمائة دينار ، والذى تقصر فرسه عن السباق ينعم عليه ببطيخة ، وهذا من أنواع المماجنة . فانشرح ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه قبض ملك الأمراء على الخواجا شهاب الدين أحمد بن أبى بكر السكندرى ، ووضعه فى الحديد ، وقرر عليه مالا له صورة . وأشيع أن الخنكار أرسل بطلبه الى اسطنبول ، فاضطربت أحواله بسبب ذلك الى الغاية .

وفيه خلع على محيى الدين بن يوسف بن أبى أصبع ، وقرره على عادته استادار الذخيرة الشريفة.

وفى يوم الجمعة عاشره حضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك الى الميدان ، وعرض جماعة من أولاد الناس ومن المماليك ، وكتب منهم جماعة بأن يتوجهوا الى عقبة أيلة ، ويقيموا بالأزلم ... فكتب منهم جماعة فى ذلك اليوم نحو ستين انسانا أو فوق ذلك . فحصل لأولاد الناس بسبب ذلك غاية الضرر لأجل قلة العليق ... وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الانشحات من قلة العليق ، وعدم الجمال بسبب خروج الحجاج .

وفى يوم السبت حادى عشره نزل ملك الأمراء وجلس بالميدان ، وعرضت عليه كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم والمحمل ، وشقوا بهم من القاهرة . وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الأحد ثانى عشره أشيع أن ملك الأمراء أفرج عن القاضى نور الدين على الفيومى الحنفى ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بالقلعة ، بسبب مكتوب ثبت عليه ، وكان غير محمود السيرة فى أفعاله ، وجرت له وقائع كثيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق ملك الأمراء على العساكر الذين تعينوا للعقبة والأزلم ، فأعطى لكل واحد منهم جامكية ثلاثة أشهر معجلا ، وهى عبارة عن ستة آلاف درهم . وقيل رتب لكل واحد منهم فى كل يوم رطلين بقسماطا تصرف لهم فى العقبة ، ورسم لهم بأن يجيئوا مع الحجاج اذا حضروا الى القاهرة . وتوجه هذا العسكر الى هناك لأجل حفظ ودائع الحجاج ، وملاقاتهم التى تتوجه لهم من مصر . فان العربان تزايد فسادهم فى حق الحجاج ، وأرسلوا يطلبون لهم نجدة عند عودهم الى مصر .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره رسم ملك الأمراء بشنق عشرة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بقر ، فانهم كانوا من المفسدين ، فشنقوا وعلقوا فى أماكن شتى من القاهرة ، فشىء فى قنطرة الحاجب ، وشىء فى رأس الحسينية ، وشىء فى باب النصر . وقد وسطوا منهم جماعة ، وشنقوا منهم جماعة ، وشىء خوزقوهم .

وفى يوم الجمعة سابع عشر شوال أنزلوا من القلعة جماعة من المباشرين ممن كانوا فى الترسيم . وقد تقدم القول أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول ، فأنزلوهم من القلعة بعد صلاة الصبح : منهم من هو راكب على بغلة ، ومنهم من هو راكب على حمار . فشقوا بهم من الصليبة وتوجهوا بهم الى بولاق ، وحولهم جماعة من الانكشارية مشاة بالسيوف فى أوساطهم . والصوباشى الذى هو متسفر عليهم راكب قدامهم . فكثر عليهم الأسف والحزن والبكاء من الناس ... فكانت عدتهم سبع أنفس ، وهم : القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، والشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، والقاضى فخر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر الخاص والأسطبل ، والشرفى يونس نقيب الجيش ، والأمير يوسف البدرى وزير الديار المصرية ، وأصله من مماليك الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، كان قدمه للأشرف قايتباى ، ولا زال يترقى حتى رأى من العز والعظمة غاية العلاء ، وجرت عليه بعد ذلك شدائد ومحن ، وآخر الأمر نفى الى اسطنبول .

فلما وصل هؤلاء الى بولاق نزلوا بقصر ناظر الخاص الذى هناك حتى تنتهى أشغالهم ، فحصل لنساء القاضى أبى البقاء والقاضى أبى البركات كاتب الرجع على أزواجهن غاية الحزن ، فقمن لنعيهم ودققن عليهم بالطارات ، وكذلك زوجة يوسف البدرى وبقية المباشرين . وكانت هذه الحادثة من أشنع الحوادث التى لم يقع قط مثلها فيما مضى من الزمان . فاستمروا بقصر ناظر الخاص ببولاق الى يوم الاثنين عشرى شوال ، فنزلوا وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية .

وكان هؤلاء المباشرون لما صفا لهم الوقت طاشوا وصاروا كأنهم هم الملوك بمصر ، يتصرفون فى أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد واستغرقوا فى اللذات ، وعكفوا على شرب الخمور ، وسماع الزمور ، ولم يتفكروا فى عواقب الأمور ، فاستمروا على ذلك حتى طرقتهم الأخبار الردية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فكانوا كما قيل فى المعنى :

من يرتشف صفو الزما
ن يغص يوما بالكدر

ثم فى عقيب ذلك سافر الى اسطنبول الناصرى محمد بن الورد لاعب الشطرنج ، ورفيقه الشهابى أحمد الاسكندرانى . وقيل ان الخنكار سليم شاه أرسل يطلبهما الى اسطنبول على لسان الخواجا يونس العادلى ، وأرسل لهما مبلغا له صورة بسبب كلفة السفر ، وعمل الزوادة .

ويقال ان جماعة من المباشرين الذين توجهوا الى اسطنبول سألوا ملك الأمراء بأن يعطوه مالا له صورة ويعفيهم من السفر الى اسطنبول ، فما قدر على ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم ، وكان امير الركب الزينى بركات بن موسى المحتسب ، فخرج بطلب حافل ، فكان ما اشتمل عليه الطلب خمس عشرة نوبة من الهجن ، عليها آكوار ، ما بين مخمل

ملون وجوخ أصفر ، وبعض جنائب بركستوانات فولاذ ، وطبول ومحفتين جوخ لنسائه ، وثلاث خزائن على العادة ، وكاسات على العادة وطبلين وزمرين ، وعلى رأسه صنجق عثمانى حرير أحمر . وركب صحبته جماعة من المباشرين الذين تأخروا بمصر ، وهم : الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، والقاضى تقى الدين أبو بكر بن الملكى ، والقاضى عبد العظيم الصيرفى ، وآخرون من المباشرين . وكان قدامه انكشارية ورماة وقواسة نحو مائتى انسان ... فلما شق من القاهرة دعا له العوام ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلهج الناس بأن ذلك سيكون آخر سعده . وخرج فى هذه السنة حجاج كثيرة وغالبهم فلاحون وريافة .

وأشيع أن العربان وقفت لهم فى الطريق ، وأن الغلاء موجود معهم من حين خرجوا من مصر ، وكذلك العليق كان مشحوتا . فلما خرج الحجاج وقف جماعه من أولاد الناس ، والمماليك الذين عينوا الى العقبة الى ملك الأمراء ، وشكوا له من عدم الجمال وأنها لم توجد . فرسم بابطال جماعة منهم نحو ثلاثين انسانا . وكان الذين تعينوا فى الأول نحو ستين انسانا أو فوق ذلك

وأشيع أن أرباب الأدراك من العربان وقفوا الى القاضى بركات بن موسى بسبب عاداتهم من الصرر ، فنفر فيهم ونهرهم وسبهم ، فخرجوا من عنده على غير رضا ، وقيل ان ناظر الخاص لما حج فى السنة الخالية أنعم على العربان وأرباب الأدراك بألف جوخة حتى رجع بالحاج وهو سالم وبيض وجهه عند الناس .

* * *

وفى شهر ذى القعدة وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس وقع تشاجر بين قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى الدميرى ، وبين قاضى القضاة نور الدين على الطرابلسى الحنفى ، فتفاوضا الكلام فى ذلك حتى خرجا عن الحد بسبب وقف الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير ، فانه شرط فى وقفه النظر والتكلم للأمير تغرى بردى الاستادار ، وانه يدخل من شاء ويخرج من شاء من المستحقين ، ويستمر ذلك حتى يتوفى الأمير تغرى بردى . فسعت ابنة الأمير يشبك عند قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة فى ابطال ما كان شرطه والدها للأمير تغرى بردى ، ويجعل لها النظر على ذلك والتحدث على وقف والدها ، فحكم بنفسه فى ذلك ، وقد ساعدها على ذلك السلطان الغورى . فلما ثبت ذلك على يد القاضى عبد البر وحكم بما فيه ، أبطل ما كان اشترطه الأمير يشبك لتغرى بردى .

فلما توفى قاضى القضاة عبد البر ، وتوفيت ابنة يشبك ، سعى جماعة من معاتيق يشبك الدوادار لتغرى بردى ، فحكم بصحته وتبع فى ذلك شرط الواقف . فلما جرى ذلك عز على بقية القضاة ذلك لكونه نقض حكم قاضى القضاة عبد البر . فحضر فى ذلك اليوم شخص من أولاد عبد البر ، وقال لقاضى القضاة نور الدين الطرابلسى : « أتنقض حكم شيخ الاسلام عبد البر وأنت من بعض طلبته » ؟ وساعده قاضى القضاة على ذلك ، وحط عليه ملك الأمراء خاير بك ، وكان المجلس كله عليه ، فما وسعه فى ذلك المجلس الا أنه قال : « رجعت عن حكمى ، وأبقيت حكم قاضى القضاة عبد البر على ما كان عليه » . فشهدوا عليه فى ذلك المجلس بابطال ما كان حكم به ، فعد ذلك منقصة

فى حق قاضى القضاة نور الدين الطرابلسى ، ولامه الناس على سرعة نقضه لحكمه فى الحال ... فعد ذلك من النوادر الغريبة . وصارت الوحشة عمالة بين قاضى القضاة المالكى والحنفى فى الباطن ، فنزل قاضى القضاة الحنفى من القلعة فى ذلك اليوم وهو فى غاية التعس

وفى عقيب ذلك عزل قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل نوابه أجمعين ، ولم يبق منهم سوى أربع أنفس لا غير ... فاستمروا على ذلك مدة . ثم انه فوض لجماعة من أعيان نوابه ممن اختاره .

وفى مستهل هذا الشهر خلع ملك الأمراء على القاضى عبد العظيم الصيرفى وقرره فى نظر الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى الى أن يحضر من الحجاز . فلما ولى القاضى عبد العظيم أمر الحسبة أظهر النتيجة العظمى فى انحطاط سائر أسعار البضائع بعدما كانت تشحطت الأسعار فى تلك الأيام ... وصارت غلوة كبيرة بمصر ، واضطربت أحوال الناس ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وغلقت الطواحين ، وارتجت القاهرة بسبب ذلك .

وكان عقيب ذلك خروج الحجاج ، وسافر المحتسب ، فجارت السوقة على الناس فى سائر البضائع . فلما ولى القاضى عبد العظيم صار يطوف القاهرة كل يوم ثلاث مرات ، وشرع يضرب الطحانين والخبازين ضربا مبرحا ، ويشهرهم فى القاهرة ، وصار يوعدهم والزياتين بالشنق والخوزقة ، حتى انحطت أسعار البضائع قليلا ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان بمصر .

ثم رسم للجبانين والسماكين بأن يقلوا بالسيرج الطرى دائما ، وكتب قسائم على المعصرانيين الا يصنعوا الزيت الحلو أبدا . ثم نادى فى القاهرة بتسعير اللحم الضانى والبقرى والجبن وسائر البضائع ، ثم سعر الدقيق وجعل كل بطة بثلاثة عشر نصفا ، وكانت البطة الدقيق وصلت الى ستة عشر نصفا ، فنفع الناس غاية النفع بعد ما صار بمصر غلوة شديدة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . ثم أحضر القزازين والتجار وعمل معدلهم فى بيع الغزل والمقاطع الخام وسائر القماش الأبيض قاطبة . فهابته التجار والسوقة ، ودخل فى الحسبة دخولا مهولا ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة .

وفيه توفى الأمير ماماى أمير آخور ثانى كان . وكان من الأمراء الطبلخانات ، وأصله من مماليك الأمير تانى باى أمير آخور كبير . وكان موته فجأة على حين غفلة ، وقيل انه كان صحبه جماعة من العثمانية فوقع بينهما تشاجر ، فضربه ، أحدهم فمات فى ليلته .

وفيه ثارت العثمانية على ملك الأمراء وقالوا له : « زد فى جوامكنا والا أعطنا دستورا نرجع الى بلادنا ، فاننا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا ، وان فى مصر غلاء ، وكل شىء غال ، وهذه الجوامك ما تكفينا » . فوعدهم أنه يرسل يشاور الخنكار ، وأمهلهم الى شهرين . وكان القائم فى هذه الحركة جماعة الأصباهية .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد الصعيد بأنه قد فشا الموت هناك فى الأبقار والأغنام ، فمات منها ما لا يحصى عدده ، ووقع مثل ذلك بالشام ونواحيها ، ووقع مثل ذلك بجهات الشرقية والغربية ... وزيادة على ذلك ان الدودة رعت البرسيم من أرض الجيزة وغيرها من الأراضى التى زرعت بدريا . ووقع فى أواخر هذه السنة تشحيطة عظيمة فى سائر الغلال .

وفى يوم الأربعــاء سادسه رسم ملك الأمــراء بشنق ستة أنفار من جماعة عبــد الدائم بن بقر ، فشنقوا فى عدة أماكن .

وفى يوم السبت تاسعه نودى فى القــاهرة بأن لا أحد من الناس يصنع خيال الظل ، ولا مغانى عرب ، ولا غير ذلك ، ولا يبطىء بزفة عريس الى بعد العشــاء ، ولا يمشى فى الأســواق من بعد العشاء ، وأن الأسواق تغلق من بعــد المغرب وسبب ذلك أن العثمانية صــاروا يشوشون على الناس فى الليل ، ويخطفون العمــائم والتسدود ، ويخطفون النســاء والمردان من الطــرقات ليــلا ونهارا ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل ، وصارت المماليك العثمانيه تؤذى الناس ، وصارت الطرقات من بعد المغرب مقفرة من فله السالك بها ، وصار على الوجود خمدة

وفيه قدمت الأخبار من ثغــر الاسكندرية بأن الجماعة الذين توجهوا هناك من المباشرين ، لمــا نزلوا فى المراكب وسافروا فى البحر المالح ، غابوا فيه ثلاثة أيام ، ثم عادوا الى ثغر رشيد . وسبب ذلك أنه فى تلك الأيام ثار ريح عظيم فرد المراكب من حيث جاءت ، فأقاموا فى رشيد أياما حتى طاب الريح ، ثم سافروا وقصدوا التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب يطلب من ملك الأمراء تجريدة تلاقيــه من الأزلم عند عود الحجــاج ، فان العــربان شوشوا على الحجاج وأخذوا منهم جمالا محملة بمــا عليها من الأحمال ، وحصل منهم غاية الفساد فى حق الحجاج .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك نزل الى الميــدان وعرض جماعة من العساكر . وعين تجريدة تلاقى الحجاج من الأزلم ، فكتب الى جماعه من المماليك الجراكسة وجماعة من العسكر وجماعة من أولاد الناس ، واستحثهم فى سرعة الخروج الى الأزلم .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه نزل ملك الأمراء من القلعة بعد صلاة الصبح ، وعدى الى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو شبرامنت وقناطر العشرة ، وذلك على سبيل التنزه ، فصنع له الشهابى احمــد بن الجيعان هناك مدة حافلة ، وكذلك القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . وكان صحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير آرزمك النــــاشف ، وسنان باشا ، وفائق بك ، وجمــاعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة فاستمر هناك الى ما بعد العصر ، وركب وعــدى من بر الجيزة ، وطلع الى القلعة . وأشيع أنه كان بين ملك الأمراء وبين الأمير قايتباى الدوادار حظ نفس فى الباطن ، فعزم عليه هنــاك وزال ما كان بينهما من تلك الوحشة ، وطابت الخواطر منهما .

وفى يوم الجمعة سلخ الشهر خرج الأمير قايتباى الدوادار ، وسافر الى نحو العباسة ، وسبب ذلك أنه تغيب من المماليك الجراكسة من خشداشينه لأجل تفرقة الأضحية ، فانها كانت غالية ومشحوتة ولا توجد .

* * *

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة الى القلعــة ، وهنئــوا ملك الأمراء بالشهر ، وعادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس سادسه خرج العسكر المعين الى الأزلم . وكان باش هذه التجريدة شــخص يسمى اياس ، فخرج مع العسكر

وفيه قدمت الأخبار من الصعيد بأن الأمير على ابن عمر ، خرج يغزو صاحب النوبة ، وأن الصعيد حواله مضطربة .

وفى يوم الجمعة سابعه خرج الأمير جانم الحمزاوي دوادار ملك الأمراء وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، وسبب ذلك أن ملك الأمراء أرسل على يده تقدمة حافلة الى شخص من أمراء ابن عثمان يقال له برى باشا ، وكان من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان مقيما على البيرة ، وقيل بحلب . فلما خرج الأمير جانم الحمزاوى ووصل الى العكرشا ، وردت عليه الأخبار من هناك بأن الأمير برى باشا الذى خرج بسببه قد توجه الى نحو اسطنبول ، وقد تغلب عليه العسكر الذين كانوا على البيرة من الغلاء وشدة البرد ، فرجع الى اسطنبول الى أن يذهب الشتاء . فلما تحقق الأمير جانم الحمزاوى رجوع الأمير برى باشا الى اسطنبول ، أرسل يشاور ملك الأمراء فى أن يرجع الى مصر أو يسافر الى حلب ، فرسم له ملك الأمراء بالعود الى مصر ، فرجع من العكرشا ، وصحبته التقدمة التى عينت لبرى باشا .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة بسد قناطر الحروبى الثلاث ، فورعوا سد هده القناطر على السكان الدين بيوتهم فوق السور . فحصل للسكان الذين بيوتهم فوق السور غاية الضرر من مصروف العمارة على ذلك . وأشيع سد قناطر السباع أيضا ، وقنطرة الموسكى ، ولم يعلم ما القصد من دلك . فسدوا قناطر الحروبى الثلاث بالحجارة ، فعد ذلك من النوادر العريبه ، وكثر القيل والقال فى ذلك .

وفى يوم الاثنين عاشره كان عيد النحر ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد أضحية ، لا على الأمراء ولا على العسكر ، وقطع ضحايا الفقهاء والمباشرين ، حتى ضحايا الزوايا والمزارات التى فى القرافة وغيرها ، وقال : « أنا ما أمشى الا على طريقة ابن عثمان فى سائر أفعاله » . وقطع الأضحية التى كانت تفرق فى الأعياد .

وفى أواخر هدا السهر وقع بين ملك الأمراء وبين الاصباهيه من عسكر ابن عثمان ، وقالوا له اعطنا دستورا لنسافر الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا . فقال لهم حتى أرسل أشاور الخنكار . فقالوا نحن ما نصبر حتى تشاور . وأغلظوا على سنان باشا فى القول ، وقالوا له هذا كله شغلك ، فانفق معهم ملك الأمراء أنه بعد مضى الشتاء يأذن لهم بالسفر والعودة الى بلادهم .

* * *

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة أربع وعشرين وتسعمائة وخرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة كثيرة الحوادث ، منهما خسة النيل ، ووقوع الغلاء فى سائر البضائع والغلال ، واستمرت هذه التشحيطه تتزايد الى اواخر السنة ، ووقع من الحوادث نفى المباشرين الى اسطنبول ، وغير ذلك حوادث كثيرة تقدم ذكرها .

سنة خمس وعشرين وتسعمائة هجرية (١٥١٩ م) :

كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم مستهل الشهر أمطرت السماء مطرا غزيرا ، فتفاءل الناس بأن ذلك العام يكون مباركا خصبا .

وفى يوم الخميس رابع المحرم ، وصلت من ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالى الى ملك الأمراء خاير بك تقدمة ليست بعظيمة أمر ، وهى أربعة أرؤس خيل ، وثمانية شقادف تشتمل على بطارمير ، ضمنها مخلل ، وفى بعض الشقادف

كمثرى وتفاح وسواقه ، وأرسل ملك الأمراء جان بردى الى الامير قايتباى الدوادار فرسا وأربع شـقادف ، ومثل ذلك للأمير آرزمك النـاشف ، ومثـل ذلك الى جماعة من الأمراء العثمانيـة ، فشكروا له ذلك .

وفى يوم الجمعة خامس المحـرم ، حضر مبشر الحجاج وأخبر بالأمن والسلامة لهـم ، غير أن معهم الغلاء الشديد ، وموت الجمال ، فوصل كراء الجمل الى مائة وعشرين دينارا ، وأن مكة فيها غلاء شديد ، ونزل غالب من بها من المجاورين بسبب الغلاء ، وان العربان جائرة فى الطرقات ، وكانت سنة صعبة شديدة على الحجاج .

وفى يوم الأحد سابع المحرم قدمت الأخبار من قطيا بأن والى قطيا وهو شحص من الأتراك يقال له قان بردى ، وأصله من مماليك الظاهر برقوق ، وقيل من مماليك الغورى قانصوه ، أرسل اليه ملك الأمراء انكشاريين يطالبانه بمال قطيا ، فلم يعطهما شيئا ، فأغلظا عليه فى القول وقالا له نأخذك معنا فى الحـديد الى ملك الأمراء ، فبطحهما على الأرض وضربهما بالمقارع حتى أشرفا على الموت وقيل مات أحدهما من الضرب . وقال لهما امضيا الى أستاذ كما وقولا له ايش ما طلع من يدك افعله ، فحضر أحـدهما وأخبر ملك الأمراء بذلك ، فلما سافرا من قطيا ، أخذ والى قطيا ماله وغلمانه وتوجه الى جان بردى الغزالى فى غزة بسبب ملاقاة الحاج ، وقيل كان عند والى قطيا جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، فلما توجه الى الغزالى توجهوا معـه اليه ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك خلع على شخص من الأتراك وقرره فى ولاية قطيا عوضـا عن قان بردى بحكم عيبته كما تقدم .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره ركب عبد العظيم الصيرفى نائب المحتسب ، ونادى فى القاهرة بأن أرباب الدكاكين من السوقة يبيضـون دكاكينهم ويزخرفونها بالدهان ، ويبيضـون آلات النحاس التى عندهم فى الدكاكين لأجل مجىء القاضى بركات ابن موسى المحتسب من الحجاز .

وفى يوم الأربعاء المقـدم ذكره وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء نزل من القلعة وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وعزم على وردبش دوادار نائب الشام الذى حضر بالتقدمة ، فصنع له هناك مدة حافلة ، ونصب سيباى له هناك سحابة عظيمة ، وحضر عنده الأمير قايتباى الدوادار ، وجماعة من الأمراء الجراكسـة ، وحضر جماعة من الأمـراء العثمانية منهم سنان باشا وفائق بك ، وحضر الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وجماعة من الجراكسة .

فلما انقضى أمر المدة أحضر ملك الأمراء سفرة الشراب ، فلما دارت عليهم الكاسات وطلع الحمر فى رءوسهم ، طفح ما كان فى قلوبهم من الغـدر . فقال فائق بك لكمشبغا الوالى : الجراكسة خائنون . وأجرى ذكر جان بردى الغزالى بما لايليق فقال له كمشبغا الله يعلم من هو الذى خان منا نحن أو أنتم ، وقد كتبتم أمانكم فى أوراق وفرقتوها على الأمراء ووضعوها على رءوسهم ، وطلعوا اليكم بالأمان. فغدرتم بهم وقتلتموهم فمن خان منا نحن أو أنتم . ثم تزايد بينهما الكلام الفج حتى حرجا فى ذلك عن الحـد ، فوثب فائق بك على كمشبغا الوالى بخنجـر ليقتله فجاءت الضربة فى قفطانه فانخرق ، فوثب كمشبغا على فائق بك ليقتله فحال بينهما الحاضرون .

ثم ركب كمشبغا ، وركب جماعة من المماليك الجراكسة ، وسلوا سيوفهم ، وركب جماعة من العثمانية وسلوا سيوفهم ، وقصدوا الوثوب على بعضهم ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة تذهب فيها

الأرواح ، فتنكد ملك الأمراء لذلك وركب على الفور ، وحال بين الفريقين ، وخمدت هذه الفتنة قليلا ، ورسم للعثمانية أن يمضوا على طريق مصر العتيقة ، ومضى هو والأمراء الجراكسة على طريق القرافة ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة من الميدان ، فما رأى نفسه فى القلعة وفى عينه قطرة . وقد اضطربت أحواله وخاف أن هذه الفتنة تتسع . فقيل انه حلف لا يشرب خمرا فى هذه السنة ، واستمرت النفوس معمرة بالعداوة بين فائق بك وبين كمشبغا الوالى ، وهذه الحادثة أول حوادث سنة خمس وعشرين وتسعمائة .

ثم ان ملك الأمراء بعد وقوع هذه الحركة انحجب عن الناس ثلاثة أيام ، لم يظهر لأحد من شدة نكده مما قاساه فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه خرجت المدورة الى بركة الحاج بسبب الملاقاة ، فلما أقامت المدورة هناك يوما وليلة أشيع أنها رجعت الى القاهرة ؛ وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى أرسل هجانا الى ملك الأمراء وأخبره أن الحجاج وصلوا الى عيون القصب ، وأنهم فى غاية ما يكون من الأنكاد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك ، فتنكد الناس لذلك ، ورجع من كان طلع الى بركة الحاج من الملاقين .

وفى يوم السبت سابع عشريه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وحضر صحبته الناصرى محمد الجلبى ، مهمندار ملك الأمراء ، الذى كان توجه صحبة التقدمة المتقدم ذكرها ، وهى التى أرسلها ملك الأمراء الى ابن عثمان .

وحضر قاصد الأمير على بن عمر شيخ عربان جهات الصعيد ، وكان قد توجه صحبة التقدمة التى أرسلها الى ابن عثمان ، فلما بلغ ملك الأمراء وصول القاصد الى سرياقوس نزل من القلعة وتلقاه من تربة العادلى التى بالمطرية . وخرج صحبه الأمراء العثمانية ، والأمراء الجراكسة ، وأعيان المباشرين ، والعسكر العثمانى ، والانكشارية قدامه مشاة يرمون بالنفوط . فلما وصل الى تربة العادل نزل وجلس على المصطبة التى هناك . ثم حضر القاصد وأخرج قفطانا مخملا بتماسيح على أحمر أرسله اليه الخنكار ابن عثمان بالاستمرار على نيابة مصر ، فلبسه ملك الأمراء وقبل الأرض مرارا . وأرسل قفطانات تماسيح الى فائق بك ، وسنان باشا ، وخير الدين بك نائب القلعة ، وأرسل قفطان تماسيح الى الأمير قايتباى الدوادار باستمراره فى الدوادارية فلبسه .

ثم ركب ملك الأمراء من هناك ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة فى موكب حافل ، ولاقاه قضاة القضاة الأربعة من باب النصر ، ثم مشت طائفة النصارى قدامه بالشموع . وكان ذلك يوم السبت فلم تحضر طائفة اليهود فى ذلك اليوم ، واستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع القلعة وكان ذلك اليوم مشهودا .

فلما أقام القاصد أياما أشيع بين الناس أنه حضر يطلب طائفة الاصباهية التى بمصر ، وأشيع أن الخنكار ابن عثمان أرسل تقدمة حافلة الى الأمير على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل اليه قفطان تماسيح باستمراره على عادته ، ورسم بأن التقدمة والقفطان تتوجه اليه صحبة قاصده الى الصعيد ، فتضاعفت عظمة الأمير على بن عمر بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد ثامن عشريه نزل الحاج بالبركة ، وحضر المحمل الشريف صحبة القاضى بركات بن موسى المحتسب أمير الحاج ، فتغدى فى بركة

الحاج ، وتوجه الى مدرسة السلطان الغورى ، فلما طلع النهار من يوم الاثنين تاسع عشريه ، ركب من هناك وطلع الى ملك الأمراء وقابله فخلع عليه قفطانا مخملا احمر مذهبا ، ونزل من عنده وشق القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، فكانوا نحو مائتى انسان ، فشق الزينى بركات من القاهرة وهو لابس عمامة هوارية على زنط ، وهو ضارب لثاما .

ثم أشيع بين الناس أن الحجاج قاسوا فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال وقلة العليق ، وكانت سنة صعبة شديدة بفساد العربان والغلاء ، وقد منعوا مبشر الحاج من الدخول الى القاهرة .

ثم أشيع وفاة الطواشى الأمير بشير رأس نوبة السقاة ، وكان قد توجه الى المدينة الشريفة من حين دخل ابن عثمان الى القاهرة ، فتوجه صحبة قاضى القضاة الشرفى يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى ، فأقام هناك الى أن مات ودفن بالمدينة وأشيع موت آخرين من الأعيان .

وكان غالب الناس قطع وجزم بعدم عود الزينى بركات بن موسى الى القاهرة . فانه حمل ما لا يطيق ، حيث طلع الى الحجاز أمير حاج ، وكانت هذه الوظيفة للأمراء المقدمين ، وكانت هذه السنة شديدة صعبة من فساد العربان فى طريق الحجاز وشدة الغلاء وموت الجمال ، فأعانه الله على ذلك ، ورجع مع السلامة

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن جماعة من الاصباهية غاروا على صبية ، فلما توجهت الى غيرهم كبسوها بالوالى فى ذلك المكان الذى كانت فيه وزعموا أنها كانت عند شخص نصرانى ، فقبضوا عليها وعلى ذلك النصرانى ، فلما عرضوا على ملك الأمراء رسم بأن تعرى المرأة من أثوابها ، وتكتف أيديها وأرجلها ، وأن تربط من رجلها فى ذنب اكديش ، وتسحب على وجهها من الكداشين الى باب زويلة ، ففعلوا بها ذلك وشقوا بها من القاهرة ، وقصدوا شنقها على باب زويلة ، فقيل انها ماتت فى أثناء الطريق ، وقيل بل غرقوها فى البحر عند الجزيرة الوسطى ، وقد مضى أمرها ، وقد قاست ما لا خير فيه حتى ماتت .

* * *

واستهل شهر صفر بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى أوائل هذا الشهر قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية مع بعض تجار البنادقة ، أن جماعة من المباشرين الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول فى البحر المالح ، لما وصلوا الى قرب جزيرة اقريطش خرجت عليهم طائفة من الفرنج الروادسة الذين هم أشد طوائف الفرنج ، فتحاربوا مع الجماعة العثمانية الذين خرجوا صحبة المباشرين ، فقتلوا منهم جماعة ومن جملتهم الخواجا هاشم ، وكان من أبناء العجم ، وكان من أخصاء ملك الأمراء خاير بك ، وكان قرره فى نظر المارستان ونظر جهات الجوالى ، فقتل فى هذه المعركة . وكان قصده أن يتوجه الى الخنكار صحبة المباشرين .

فلما خرجت عليهم الفرنج تحارب معهم حتى قتل فى المركب التى كان فيها الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات كاتب الرجع أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وكان بهذه المركب يوسف البدرى الوزير ، والناصرى

محمد بن الورد لاعب الشطرنج أيضا ، فلما خرج عليهم الفرنج رموا على مركبهم بالمدافع فانخرقت وغرقت ، وغرق كل من كان فيها من المباشرين ، وغيرهم ، فغرقوهم وأموالهم التى كانت معهم جميعا ، فغرق الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، وبركات كاتب الرجع ، ويوسف البدرى الوزير ، ومحمد بن الورد لاعب الشطرنج ، وقيل سلم من الغرق مع رفيقه أحمد الاسكندرانى .

ثم أشيع بأن المركب التى كان بها علاء الدين ناظر الخاص ، وفخر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل ، والشرفى يونس نقيب الجيش ، وأحمد الاسكندرانى لاعب الشطرنج ، سلمت من الغرق ، فسار بها الهواء الى نحو جزيرة افريطش ، فخرجوا وهم عراة حفاة مكشوفو الرءوس ، ومشوا نحو سبعة أيام حتى أعيوا من المشى وتورمت أقدامهم ، وأشرفوا على الموت مرارا . وأما الشرفى يونس نقيب الجيش فانه مرض هناك ومات ودفن بجزيرة اقريطش ، وأما علاء الدين ناظر الخاص ، فانه مرض وعجز عن المشى حتى حمله بعض الفرنج على أكتافه . وكذلك أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وفخر الدين بن عوض فاستمروا على ذلك سبعة أيام حتى وصلوا الى صاحب جزيرة اقريطش ، فلما رآهم أحسن اليهم وكساهم ، وأقاموا عنده مدة طويلة ، ثم جهزهم وأرسلهم الى اسطنبول ، هكذا أشيع والعلم لله تعالى .

فلما ثبت موت هؤلاء المباشرين خرج نعيهم وطيف بالقاهرة ، ودقوا عليهم بالطارات ، وكان هؤلاء المباشرون تزايد ظلمهم على أولاد الناس ، وضيقوا عليهم بسبب أرزاقهم ، وأوقافهم واقطاعاتهم . ولا سيما ما فعله فخر الدين بن عوض فى جهات الغربية من وجوه الظلم ، فكثر عليهم الدعاء من الناس ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، وكان كما يقال فى المعنى :

فاستغن بالسمع عن مرآهمو عظة

فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم

وصاروا يفتحون على الناس أبوابا من المظالم شيئا بعد شيء ، ووضعوا أيديهم على البلاد قاطبة ، حتى على الأوقاف التى على الجوامع والمساجد والزوايا ، وضاع على الناس حراجهم وحصل لهم الضرر الشامل ، ثم انهم أبطلوا الاقطاعات التى بالمناشير ، وأدخلوها فى ديوان السلطان ، ثم فى السنة الثانية أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية التى بيد أولاد الناس والنساء وغير ذلك ، وصاروا يضعون أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الأموال ولا يفرجون عنها الا بعد جهد كبير لمن يأخذون برطيلة .

وكانوا اذا قرروا مع ملك الأمراء شيئا من أمر البلاد يطاوعهم على الفساد ، ويقول لهم افعلوا ذلك ، وهو فى أيديهم مثل اللولب يدورونه كيف شاءوا ، وكان الوقت قد صفا لهم ، وصاروا يتصرفون فى أحوال المملكة بما يختارونه ، فأخذهم الله أخذا وبيلا ، ولم يجدوا لهم من الله سبيلا ، وتكدرت معايشهم بعد الصفا ، وخانهم الدهر بعد الوفا ، وقد قلت :

اذا صفا الدهر يوما ... الى التكدر يرجع

هل من لبيب تراه ... بأيسر الرزق يقنع

فليعتبر من يشاهد ... لمصرع بعد مصرع

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الحاج الشامى قد استولت عليه الأعراب وعوقوهم عن الدحول الى البلاد الشامية ، ونهبوا أموالهم وجمالهم ، وغنموا منهم أموالا لها صورة ، فلما بلغ

الأمير جان بردى الغزالى ذلك ، خرج الى العربان من يومه ، وخرج صحبته نائب غزة بعساكر غزة ، ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وغنم أموالهم وما كانوا غنموه من الحاج الشامى ، وهو شىء لا ينحصر ، فاحتاط على جميع ما معهم ، وهربوا من وجهه الى الجبال ، وخلص ما كانوا أسروه من رجال ونساء وصبيان وغلمان ، فكان له الشكر على ذلك .

وفيه تزايد الضرر من الاصباهية فى حق الناس ، وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل انهم خطفوا امرأة عند سلم المدرسة المؤيدية تحت دكان الذى يبيع الكعك ، والناس ينظرون اليهم وهم يفسقون بها ، فلم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم ، ثم صاروا يقطعون الطرقات على نساء المسلمين ، وعلى البياعين ، وصار أهل مصر منهم فى غاية الضنك والامر لله تعالى .

وفى يوم الاثنين ثامن عشريه نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وأحضر سنان باشا أغات الاصباهية وقد صار بينه وبينهم وحشة بسبب جوامكهم ، فكان يأخذ من ملك الأمراء المال ولا يصرف لهم شيئا ، فلما وقع الحساب وجد فى جهته لهم أحدا وثمانين ألف دينار ، فاعترف أنها فى جهته وسيوصلها الى الخنكار ، فحصل بينه وبين الاصباهية فى ذلك اليوم تشاجر بسبب ذلك ، فقالت الاصباهية لاتعطوا سنان باشا من جوامكنا شيئا من الآن ، واصرفوا لنا مثل جوامك المماليك فى كل شهر على البساط .

ثم فى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء سلخ الشهر عرض ملك الأمراء الاصباهية ، فمثل ما وجد عند سنان باشا وجد فى جهة فائق بك من المال ، وقال مثل قوله ، فكثر بينهما القيل والقال بسبب ذلك ، وقد دبت عقارب الفتن بين الاصباهية وبين سنان باشا وفائق بك ، وأوعدوا سنان باشا بالقتل غير ما مرة .

***

وفى شهر ربيع الأول — وكان مستهل الشهر يوم الخميس — طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين خامس الشهر . نزل ملك الأمراء الى الميدان وعرض الاصباهية وعلم من فقد منهم ومن بقى ، ثم ظهر له ما كان يأخذه سنان باشا وفائق بك من جوامك الاصباهية وليس لهم وجود ، فظهر زيفه فى هذه الحركة .

و فى يوم الخميس ثامن الشهر قبض ملك الأمراء على طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع فى الحوش ضربا مبرحا ، وكان سبب ذلك أن أخت السلطان طومان باى رافعته ، وذكرت أن السلطان طومان باى أودع عنده ثمانية آلاف دينار ، فأنكر طيلان ، وحلف أنه ما أودع عنده شيئا من ذلك ، فلما تزايد الأمر من أفواه الناس بسبب هذه الوديعة ، وصار طيلان ينكر ذلك ، حنق منه ملك الأمراء وأمر بضربه بالمقارع ، وهو لم يقر بشىء . فنزل من القلعة وهو فى الترسيم حتى يحقق ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشره مع ليلة الاثنين ، كان المولد الشريف النبوى ، فجلس ملك الأمراء فى المقعد الذى فى الحوش السلطانى ، واجتمع عنده بعض المباشرين ، وخير الدين نائب القلعة ، وبعض أمراء عثمانية ، واجتمع عنده من القراء والوعاظ ثلاث عشرة جوقة ، ثم فى أواخر النهار مد سماطا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وأين هذا

مما كان يعمل فى مولد من تقدم من السلاطين ، ثم انه خلع على الوعاظ قفطانات واستردها بقدر هين .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره خلع ملك الأمراء على مملوكه برسباى ، واستقر به أمير ركب الحاج الشريف ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس خامس عشره ، حضر قاصد من عند نائب حماه وصحبته تقدمة حافلة الى ملك الأمراء ، وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام قد قبض على أربعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، منهم قراجا بن طراباى ، فلما قبض عليهم حز رءوسهم وأرسلها الى الخنكار بأدرنة ، فلما فعل ذلك اضطربت أحوال جبل نابلس ، وصارت العربان ينهبون الضياع التى حول جبل نابلس ، ويقتلون أهلها ، وتزايد الغلاء بالشام من قلة الجالب اليها .

وفى يوم الثلاثاء عشريه قدمت الأخبار من الغربية بأن اينال السيفى طراباى - كاشف الغربية — قد احتال على حسن بن مرعى وأخيه شكر شيخى عربان الغربية ، وهما اللذان كانا سببا لمسك السلطان طومان باى — وقد تقدم ذكر ذلك — فعزم اينال على حسن ابن مرعى وأخيه شكر فى مكان بالقرب من سنهور ، فأتيا اليه وأمناه وظنا أن ذنبهما قد نسى مما قد فعلاه ، فكان كما يقال فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها
عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

فلما أقاما عنده ذلك اليوم مد لهما مدة حافلة ، ثم بعد ذلك أحضر لهما سفرة الشراب ، فلما شربا ودخلا فى السكر ، هجم عليهما جماعة من المماليك الجراكسة ممن كانوا عند اينال ، فعاجلوا حسنا وشكرا بالحسام قبل الكلام ، فقطعوا رءوسهما ، واشتفوا منهما ، حتى قيل ان بعض المماليك الجراكسة شرب من دمهما ، وبعضهم جزل لحومهما بالسيف ، والمجازاة من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وفى يوم الأربعاء حادى عشريه حضر الى القاهرة رأس حسن ابن مرعى ورأس شكر ، فرسم ملك الأمراء للوالى أن يعلقوهما على باب النصر ، وقيل ان رأس حسن بن مرعى لما دخلوا بها وبرأس شكر ، علقوهما فى رقبة فرس السلطان طومان باى الذى كان راكبا عليها لما قبضوا عليه فى تروجه ، فصودف أن هذا الفرس كان تحت حسن بن مرعى لما أتى الى اينال ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، وقيل ان عيال السلطان طومان باى لما علقت رأس حسن وشكر على باب النصر ، أظهروا فى ذلك اليوم الفرح والسرور ، وأطلقوا الزغاريت ، وتخلقوا بالزعفران . وأشيع أن أخا حسن بن مرعى كان مختفيا بالقاهرة لما قتل أخواه ، فغمز عليه ، فقبضوا عليه من بيت بعض أصحابه .

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه قدمت الأخبار من ثغر دمياط ، بأنه قد وصل الى الثغر قاصد من البحر أرسله الخنكار ابن عثمان يطلب سنان باشا وفائق بك ، فلما سمعا ذلك تنكدا لهذا الخبر ، وقالا لملك الأمراء خاير بك هذا كله شغلك آنت ، تكاتب فينا الخنكار فى الدس وترافع فينا عنده .

فلما وردت الأخبار بمجىء القاصد من دمياط ، رسم ملك الأمراء خاير بك للقاضى بركات بن موسى بالتوجه الى ملاقاته ، فخرج الى قليوب ورمى على البلاد من الشرقية والغربية أبقارا وأغناما وأوزا ودجاجا ، فجمع فى هذه الحركة فوق ألف

رأس من الغنم ، غير البقر والاوز والدجاج ، فمد القاضي بركات بن موسى للقاصد في قليوب مدة حافلة ، فأشيع أنه صنع له في تلك المدة أربعمائة رأس غنم ، ومثلها أوز ، ومثلها دجاج ، وخمسمائة مجمع حلوى وقيل ألف مجمع .

ثم مد له في أبي الغيث مدة ثانية مثل الأولى ، فلما وصل القاصد الى هناك فاذا هم أميران أحدهما يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى فرحات بك ، وصحبتهما من الغلمان نحو مائة انسان ، فلما انتهى أمر المدة أحضرا القاضي بركات بن موسى بين أيديهما ، وقالا له الخنكار يسلم عليك ، ويقول لك بيض الله وجهك ، حيث رجعت بالحجاج سالمين بخلاف ما جرى على الحاج الشامي ، فقام وقبل الأرض عدة مرات ، وكشف رأسه ، فلما وصل القصاد الى شبرا خرج الأمير قايتباي الدوادار الى ملاقاتهم ، وجماعة من الأمراء الجراكسه ، فسلموا عليهم ورجعوا الى دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشريه دخل القصاد الى القاهرة وقت صلاة الصبح ، فطلعوا على الجزيرة الوسطى ، وأتوا من باب الخرق ، وأتوا الى تحت الربع ، وتوجهوا على القربيين ، فأنزلوهم في بيت الأتابكي قرقماس بن ولي الدين الذي عند حوض العظام ، فأنزلوا به اسكندر باشا ، وأنزلوا فرحات بك في بيت الأمير كسباي المحتسب الذي عند مدرسة سودون بن زادة ، فمد لهما القاضي بركات ابن موسى هناك مدة ثالثة لكل واحد منهما على انفراده ، واستمروا هناك يوم الثلاثاء سابع عشريه .

وطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، واجتمعوا بملك الأمراء ، وقرءوا مطالعة الخنكار ، فكان من مضمون تلك المطالعة ، طلب سنان باشا وفائق بك وخير الدين نائب القلعة ، وأرسل يقول لملك الأمراء خاير بك بأن يتوصى بالجراكسة ، وأن يصرف لهم جوامكهم على العادة ، ولحومهم وعليقهم ، وأن ينظر في أحوال المعاملة ، ويزيل عنها الغش من الذهب والفضة ، وأن يحفظ الثغور .

فلما تحقق سنان باشا وفائق بك أن السلطان أرسل يطلبهما ، اضطربت أحوالهما وهموا بقتل ملك الأمراء خاير بك ، وعلموا أن هذا كله مما كان يراسل به الخنكار يشكو له منهما فاختفى ملك الأمراء في الحريم ثلاثة أيام لم يظهر لأحد من الناس ، حتى أشيع أنه هرب من القلعة ، فاضطربت أحوال القاهرة ، ووزع الناس أمتعتهم في الحواصل ، ولهجوا بوقوع فتنة عظيمة تخرب فيها القاهرة ، وتنهب عن آخرها من الاصباهية والكملية ، فأقامت الناس على وجل ثلاثة أيام .

ثم طلع القاضي بركات بن موسى الى ملك الأمراء وقال له : ارسم للوالي بأن ينادي في القاهرة للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن الأسواق والدكاكين تفتح وأن لا أحد يكثر كلامه ولا يتحدث في شيء لا يعنيه ، ومن تكلم في شيء لا يعنيه يشنق من غير معاودة ، فطاف الوالي في القاهرة وأشهر النداء بذلك .

وصار ملك الامراء على رأسه طيرة من الاصباهية فبنى حائطا تجاه باب الستارة وصارت الاشاعات قائمة بوقوع فتنة عظيمة من الاصباهبة ، وكانت عدتهم نحو ألفى انسان غير الكملية ، وصاروا يركبون في كل يوم ويقفون في الرميلة ، ويسبون ملك الأمراء سبا قبيحا ويهمون بالهجوم عليه .

وفيه قدمت الأخبار من الشرقية بقتل شيخ العرب علي الأسمر ابن أبي الشوارب ، وقد احتال عليه كاشف المنوفية وعزم عليه ، وأسكره وهجم

عليه دواداره فقتله بغتة ولعب فيه بالسيف ، فلما جرى ذلك خاف شيخ العرب حسام الدين ابن بغداد على نفسه ، فاختفى مدة أيام ، وقد قوى عزم المماليك الجراكسة من حين قتل الأمير أينال كاشف الغربية حسن بن مرعى وشكرا آخاه .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على يونس الجلبى ، قيل ان أصله فلاح من الشرقية ، فبقى استادارا وكان له مقدار عند ملك الأمراء بسبب انسحاب المال على الجامكية ، فبطحه فى الحوش وضربه ضربا مبرحا نحو ستمائة عصا ، فنزل الى بيته وهو مسطوح على حمار ، فأقام أياما ومات من الضرب .

* * *

وفى شهر ربيع الآخر ، فى يوم الاثنين رابعه ، وقعت فتنة عظيمة بالقلعة بين الاصباهية والانكشارية من عسكر ابن عثمان ، قتل فيها من الاصباهية شخص ، وقيل اثنان ، فرسم ملك الأمراء للانكشارية بأن يقيمون بالقلعة دائما ، ولا ينزلوا الى المدينة ، فبطل أمر الانكشارية الذين كانوا يجلسون على أبواب المدينة ، وتشتكى الناس فى خلاص الحقوق منهم ، فرسم لهم ملك الأمراء بأن يسكنوا باطباق المماليك التى بالقلعة ، ولا ينزلوا الى المدينة أبدا ، وكان يحصل منهم غاية الفساد فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، والضيافات والبضائع من أيدى المتسببين ، وضج الناس من ذلك .

وفيه أشيع ان سنان باشا وفائق بك قد برزا خيامهما فى الريدانية بسبب السفر الى اسطنبول ، وأشيع ان سنان وفائق يتوجهان من البحر وبركهم يتوجه من البر .

وفى يوم الاثنين حادى عشره خرج سنان باشا وفائق بك وتوجها الى بولاق ، وشقا من الصليبة فى موكب حافل ، وقدامهما الاصباهية قاطبة والانكشارية ، وألبس كل منهما قفطانا مخملا ، وقيل أنعم على كل واحد منهما بألف دينار ، فاستمر معهما العسكر العثمانى حتى أنزلوهما فى المراكب من بولاق ، وساروا فى البحر الى ثغر دمياط ، ومن هناك نزلوا فى الأغربة .

وفى يوم الجمعة خامس عشره ، انتهى العمل من الجامع الذى أنشأه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان الذى عند بركة الرطلى ، بالقرب من حدرة الفول ، وخطب به فى ذلك اليوم ، وكان مسجدا قديما بنى فى دولة الناصر محمد بن قلاوون سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، ودفن به الشيخ خليل الرطلى ، وهو الذى تنسب اليه بركة الرطلى ، فاستمر على ذلك حتى خرب فجدده الصاحب سعد الدين بن ابراهيم البشيرى فى دولة الملك المؤيد شيخ ، فأقام مدة طويلة وجعل به خطبة لكونه كان بجوار بيته الذى بالبركة ، فاستمر على ذلك الى أن خرب ، وأقام مدة طويلة وهو خراب ، فجدد بناءه القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر فى هذه السنة ، فاجتمع به فى ذلك اليوم القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من المباشرين ، وغيرهم ، وخطب به ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، فخطب به خطبة بليغة فى معنى انشاء الجوامع .

فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الشهابى أحمد بن الجيعان زبادى صينى فيها سكر نحو عشرين زبدية فطاف بها على الناس . ثم قامت جماعة من المنشدين وأنشدوا قصائد فى انشاء هذا الجامع ، من نظم جمال الدين السلمونى الشاعر ، وعبد اللطيف الدنجيهى ، وغيرهما من الشعراء .

ثم ان الشهابى أحمد بن الجيعان قرر بهذا الجامع حضورا من بعد العصر ، وصوفية ، وجعل

شيخ الحضور الشيخ نور الدين على بن ناصر شيخ حضور الشافعية ، وشيخ الحنفية هو شهاب الدين أحمد بن الصائغ ، وقرر شيخ الحديث الشريف الشيخ شمس الدين الضيروطى .

وفى يوم الأحد سابع عشره أشيع أن المملوك الذى قتل على الأسمر ابن أبى الشوارب ، قد قبض عليه الكاشف ، وأحضره الى ملك الأمراء ، فرسم بشنقه فشنق على باب زويلة ، وقيل ان أصله من مماليك الاتابكى سودون الدوادار ، فأرضى ملك الأمراء مشايخ العربان بشنق هذا المملوك .

وفى يوم السبت ثالث عشريه وقعت فتنة كبيرة بين الاصباهية والانكشارية ، فأغلقوا باب السلسلة وباب الميدان فى ذلك اليوم ، واستمر الشر عمالا بين الفريقين الى ما بعد الظهر ، فنزل الكيخية الكبير ليصلح بين الفريقين فضربوه فولى هاربا .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه ، كان يوم فطر النصارى وهو أول الخماسين .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم السبت ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم ، أن ملك الأمراء أحضر طائفة الانكشارية الى القلعة ، ورسم لهم أن يحضروا بمكاحلهم والبندق الرصاص الذى عندهم ، فلما أحضروا ذلك رسم ملك الأمراء بادخال تلك المكاحل والبندق الرصاص فى الزردخاناه ، ورسم للانكشارية بأن يقيموا فى الأطباق التى بالقلعة ولا ينزلون الى المدينة أبدا ، فشق ذلك عليهم الى الغاية ، وانتصفت عليهم طائفة الاصباهية .

وفى يوم الأربعاء خامسه نزل ملك الأمراء فى مركب وعدى الى المقياس ، فأقام به الى آخر النهار ، ثم توجه فى المركب الى قصر ابن العينى الذى بمنشية المهرانى ، ثم توجه من هناك الى بولاق وأقام بالسبتية . ثم طلع الى القلعة فى أواخر النهار وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه خلع على القاضى شرف الدين الصغير ، والقاضى شرف الدين بن عوض ، واستقر فى التحدث فى جهات الشرقية ، عوضا عن يونس الذى كان استادارا ومات تحت العقوبة .

وفى يوم الأحد تاسعه خرج القاضى بركات بن موسى المحتسب ، الى مساحة بلاد الصعيد واستخراج المغل الذى بها ، وكانت هذه وظيفة الأمير يشبك الدوادار ، والأمير أقبردى الدوادار ، وغيرهما من الدوادارية ، فخرج فى موكب حافل وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط ، وسافر معه جماعة من المماليك الجراكسة ، وفعل فى أمر السنيح والخيام والبرك ما عجز عنه الأمراء المقدمون ، وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ورأى من العز والعظمة فى دولة ابن عثمان مالم يره فى دولة السلطان الغورى .

وفى يوم الخميس ثالث عشره توفى الشيخ صالح المعتقد عبد الرحمن البهنساوى ، الذى كان مقيما بالمدرسة البرقوقية ، وكان للناس فيه اعتقاد .

وفيه عرض ملك الأمراء خاير بك طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع ثانيا ، وسبب ذلك أنه تأخر عليه ألفا دينار مما كان تقرر عليه من المال الذى يورده ، ثم بعد الضرب أرسله الى سجن الديلم فأقام به .

وفيه قبض ملك الأمراء على جماعة من اليهود من معلمى دار الضرب ، ومن الصيارف ، وسبب ذلك أن معاملة السلطان ابن عثمان فى الذهب والفضة قد ذهبت وفسدت وصارت كلها غشا وزغلا ، فقبض على معلم دار الضرب وألزمته بأن يورد الى الخزائن الشريفة مائة ألف دينار ، وأن

المعلمين بدار الضرب قاطبة يتوجهون الى نحو اسطنبول أو يلتزمون باصلاح المعاملة ، فلما جرى ذلك أغلظ عليه جماعة من اليهود ، وقالوا له أرنا مرسوم الخنكار ان كان أرسل يطلبنا الى اسطنبول وأقاموا أياما بالسجن حتى يكون من امرهم ما يكون .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الأمير كمشبغا والى القاهرة فحنق كسشبغا من ملك الأمراء ، فلما نزل الى بيته أغلق الباب وطرد النقباء عن بابه ، ورفع دكته وأقام أياما لم يخرج من بيته ، فنزل اليه الأمير جانم الحمزاوى ، وطلع به الى ملك الأمراء وقابله به ، فخلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل الى داره على عادته بعد ما كان أشبع وقوع فتنة عظيمة ، وقيل انه أورد الى ملك الأمراء ستة آلاف دينار .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ، ضربا مبرحا حتى كادت أن تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القال والقيل .

وفى يوم الاثنين سادس عشريه حضر من عند الخنكار أولاق يبشر بمجىء عسكر عوضا عن الاصباهية الذين بمصر ، وقد عين الخنكار عسكرا وهو فى أدرنه بأن يحضروا الى مصر ، وزعم هذا القاصد أنه أتى من أدرنة الى مصر فى أحد وعشرين يوما ، وكانت الاصباهيه قد تقلقوا من الاقامه بمصر ، فجاء هذا الاولاق يبشر بمجىء العسكر حتى تطمئن الاصباهية بذلك .

***

وفى شهر جمادى الآخرة وكان مستهل الشهر يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى طيلان رأس نوبة وقد نال من الضرب بالمقارع كما تقدم ، فاستمر عليلا حتى مات ، وكان من وسائط السوء ، ظالما عسوفا من جملة أعوان الظلمة

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره حضر قاصد أيضا من عند الخنكار وأخبر أن الفرنج قد تحركت على الخنكار ، وأرسل يقول لملك الأمراء بأن يحفظ الثغور ، ويحصن ثغر الاسكندرية وثغر دمياط بالمكاحل وآلة السلاح وغير ذلك

وفى يوم السبت عشريه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرين أصبعا أرجح من العام الماضى بعشرة أصابع ، وكانت الزيادة أول يوم خمسة أصابع ، فتفاءل الناس بذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه حضر شخص شريف من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرره فى نقابة الأشراف ، وأظهر مرسوم الخنكار بذلك . وأشيع أن الخنكار أرسل يطلب الاصباهية بأن يتوجهوا الى أسطنبول فأخذوا فى أسباب عمل برقهم .

وفى يوم السبت سابع عشريه ، خلع ملك الأمراء على القاضى عبد العظيم ، واستقربه فى التحدث فى نظر الحسبة الشريفة ، عوضا عن الزينى بركات ابن موسى ، وكان مسافرا نحو الصعيد كما تقدم ، وكان سبب ذلك أن ابن موسى لما سافر الى الصعيد جعل شخصا من العثمانية متحدثا عنه فى الحسبة الى أن يحضر من السفر ، فضاعت أحوال المسلمين فى هذه الأيام ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال ، وعز وجود الخبز فى الأسواق وتناهى سعر الأردب القمح الى ألف درهم ،

وتناهى سعر البطة الدقيق الى عشرين نصفا ، وعز وجود الشعير والفول والتبن ، فضج الناس من ذلك ، وعز وجود الأجبان والسمن والشيرج وغير ذلك ، فتوجه طائفة من التركمان الى بيت ابن موسى . وضربوا المباشرين والرسل الذين على الباب ، وهرب التركمانى الذى كان يتحدث فى الحسبة .

ثم ان التركمان توجهوا الى بيت القاضى عبد العظيم ، وهجموا عليه فى حريمه ، وأخذوه وأركبوه غصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وقالوا له ان لم تول هذا الحسبه والا تخرب مصر على أيامك وتنهب المدينة عن آخرها ، فما وسع ملك الأمراء الا ان أحضر له قفطانا وأفاضه عليه ، واستقر به ناظر الحسبة عوضا عن ابن موسى ، فنزل من القلعة بعد العصر ، وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، وكان محببا لأهل مصر قاطبة ، ففرح كل أحد من الناس بولايته ، وظهر الخبز فى ذلك اليوم على الدكاكين وقد تفاءل الناس بكعبه بالرخاء ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان فيه الناس قليلا .

وفى هذه الأيام توقف النيل عن الزيادة أياما فقلق الناس لذلك .

وفى يوم الاثنين سلخ الشهر ثارت طائفة من الأصباهية على الأمير جانم الحمزاوى وهو نازل من القلعة ، وعينوا له الضرب ، وقالوا له قل لملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الموجود ، فلا نلتقى فى الأسواق خبزا ولا شعيرا فاما يأذن لنا بالسفر أو يكفينا من القوت ، فما خلص منهم الأمير جانم الحمزاوى الا بعد جهد كبير ، وذكروا أن لهم ثلاثة أشهر جامكية مكسورة فى الديوان .

* * *

وفى شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد قلق الناس من أمر الاصباهية ، ثم ان النيل استمر فى التوقف لم يزد شيئا ، فأمر ملك الأمراء بابطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش .

ثم ان الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة فى الأزبكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر توردها كل شهر للوالى ، وكان أمرها مشهورا ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، زوجة أحد من الناس يقال له البغيضى ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه فى جمعها البنات الخطا ، فلما قبض الوالى على أنس توجه بها الى قصر ابن العينى الذى فى المنشية ، وغرقها هناك بعد العصر ، فاجتمع الجم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها ، وكان يوما مشهودا ، فغرقت على النداء والاجهار ، وأراح الله تعالى المسلمين وطهرت الأرض منها .

وفى يوم الجمعة رابع الشهر صلى ملك الأمراء صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم نزل منها وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد مدة حافلة للفقراء ، واستمر النيل سبعة أيام لم يزد فيها شيئا وأشيع أنه نقص أربعة أصابع ، فقلق الناس لذلك ووقع الغلاء فى سائر البضائع والاصناف .

وفى يوم السبت خامس رجب زاد الله فى النيل المبارك أصبعا واحدا بعد أن وفى النقص ، ففرح الناس بذلك وسكن الاضطراب الذى كان بمصر قليلا ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

قـد أصـبح الخزان مذ زاد
هذا النيل بعد النقص فى بوسى
وقد عـدا يسـرا على قمحه
قراءة تنسب للسـوسى

فلما زاد النيل هذا الأصبع وسكن الاضطراب شرع القاضى عبد العظيم المحتسب فى تسـعير البضائع قاطبة ، فانصلحت أحوال الديار المصرية قليلا ، ووقع الرخاء وتفاءل الناس بكعبه بالخير ، وقد قلت فى المعنى :

يا قاضيا قد عدا بالله محتسـبا
على الأعادى ولا يخشى من الباس
رخصت أسعارنا من بعد ماغليت
وحزت حسن الثنا من ألسن الناس
لما توليت زاد النيـل وانفرجت
وقـد حزى كل خزان ودراسى
ان زال هذا الغلا من مصر لاعجب
فكعبكم أخضر يزهو على الآس

ومن الحـوادث أنه فى يوم الخميس عاشر رجب ، وقعت واقعة شنيعة ، وهى أن اسكندر بك أحد أمراء ابن عثمان الذى كان حضر الى مصر عوضا عن سنان باشا ، لما أقام بمصر صار يعارض قضاة القضاة فى الأحكام الشرعية ، فوقع بينه وبين نور الدين على الميمونى نقيب قاضى القضاة الشافعى .

ثم انه فى يوم الخميس رسم بعزل على الميمونى من النقابة ، ولم يكتف بذلك حتى أنه تكلم مع ملك الأمراء فى نفيه فنفاه الى دمنهور ، وأخرجه من يومه .

ثم ان ملك الأمراء رسم بابطال نقبـاء قضاة القضاة الأربعة ، فعزل من النقابة شـهاب الدين أحمد بن سيرين نقيب قاضى القضـاة الحنفى ، وعزل نقيب قاضى القضاة المالكى شمس الدين الدميرى ، وعزل من النقابة ابن قاضى القضـاة الحنبلى ، ومنع جماعة من الوكلاء ومن الرسـل أيضا ، وحصل لقضاة القضاة منه غاية الضـنك بسبب نقبائهم

وقد تقدم القول ان ملك الأمراء لما توقف النيل سبعة ايام امر بابطال بيـوت الحشيش وبيوت الخمرة وبيوت البـوزه وعرق انس التى كانت تجمع عندها بنات الخطا اللاتى كن يعملن الفاحشة من امر الزنا ، فلما زاد النيل رجع كل شىء على حاله ، وسبب ذلك أن العثمانيه تعصبوا فى اعادة ذلك ، فان أكثرهم كان يبيع البوزه فى الدكاكين ورسم ملك الأمراء بأن أولاد أنس لا يعارضون فيما يعملون من جمع بنات الخطا ، كمـا كانت تفعل أمهم أنس .

وفى هـذا اليوم قدمت الأخبار من حلب بأن الخنكار أرسل عسكرا يقيمون بمصر عوضا عن الأصباهية الذين كانوا بها .

وفى يوم السبت ثانى عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص سروجى فشنق عند باب خان الخليلى وسبب ذلك انه كان له عبد فباعه لبعض المماليك الجراكسه ، فهرب وخدم عند بعض التركمان ، ثم ان السروجى توجه الى سيدى أحمد البدوى ، فصادف ذلك العبد هناك فقبض عليه وأحضره الى القاهرة ، فهرب ذلك العبـد من بيت السروجى وأتى الى التركمانى ، وادعى أنه لم يكن فى ملك السروجى وأنه معتوق ، فطلع التركمانى وقص خبر العبد على ملك الأمراء ، فاحضر ذلك السروجى وأخبر أنه قد باعه لمملوك جركسى ، وقتـل فى الواقعة ومضى أمره ، فلم يثبت للسروجى عليـه

حق فأغلظ السروجى على ملك الأمراء فى القول فحنق منه ملك الأمراء ورسم بشنقه فشنق عند خان الخليلى ، فقيل ان السروجى سأل ملك الأمراء أن يفدى نفسه من الشنق بخمسمائة دينار ، فأبى ملك الأمراء من ذلك ، وشنق فراح ظلما .

وفى يوم الاثنين رابع عشره وقعت حادثة مهولة وهى : ان جماعة من الكملية والاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء يطلبون منه جوامكهم عن ثلاثة أشهر ، ويأذن لهم بالسفر الى بلادهم ، فلم يلتفت اليهم ، فنزلوا من عنده ووقفوا بالرميلة ، فلما طلع الأمير جانم الحمزاوى أحاطوا به وضربوه وأنزلوه عن فرسه ، وأرادوا قطع رأسه ، فهرب ودخل الى الميدان وهو مكشوف الرأس ، فوقف فى وجوههم شخص من أمراء الجراكسة يقال له الأمير بخشباى — الذى كان كاشف البهنسا — فرموا غبنهم فيه فضربوه بالسيوف حتى أشيع موته ، فحملوه وأدخلوه الى باب السلسلة وفيه بعض نفس .

ثم ان الكملية استمروا بالرميلة طالبين شرا مع الجراكسة ، وانفتح بينهم باب الشر بسبب جانم الحمزاوى ، ثم أنزلوا الأمير بخشباى الى بيته فأقام الى يوم الأحد عشريه ومات ، وقد جرح فى رأسه جرحا بالغا ومات به ، وأشيع أن ملك الأمراء كتب محضرا بأن الكملية قتلوه وأرسل ذلك المحضر الى الخنكار بأدرنه ، ثم حضر جماعة من الأمراء الجراكسة وصلوا على الأمير بخشباى ، وكانت له جنازة حافلة وصنعوا قدامه كفارة .

وفيه قدمت الأخبار من حلب بوفاة القاضى محب الدين محمود ابن القاضى شمس الدين محمد بن أجا الحلبى ، وكان رئيسا حشما أصيلا عريقا فاضلا ، ولى قضاء الحنفية بحلب ، ثم ولى كتابة السر بالديار المصرية ، وأقام فى هذه الولاية ست عشرة سنة ، وهو عزيز فى مصر نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وهو آخر كتاب السر بالديار المصرية ولم يوجد بعده من يناظره فى الرياسة والتعاظم والنظام ، ومشى مشى الرؤساء المتقدمين فى كتابة السر ، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ومات وهو فى ست وأربعين سنة ، وكان كثير الأمراض فى جسده ، وأكثر اقامته فى داره ، والناس تسعى اليه فى أشغالها ، ولما مات رثاه الأديب ناصر الدين محمد بن قانصوه بهذه المرثية :

ألا فى سبيل الله نجل أجا الذى
يكل اذا عدت فضائله الفكر

فضائله كالزهر والزهر ذكرها
ومنظرها اذ فيهما النشر والبشر

كنجم بأفق الملك كان كم اهتدى
به من بليل الهم ضل به الحجر

كتابة سر الملك ماتت لكونها
به ختمت والسر من بعده جهر

لذا كان محمودا وبالقلب ذكره
رعى الله محمودا له الحمد والشكر

فمن مثل محمود ومن مثل قلبه
وذا القلب ممدوح يلذ به الذكر

لقد كان كالنعمان فى العلم والسخا
وفى الفحر نعم العلم والجود والفخر

له فكرة كانت تمد يراعه
بدائع لفظ نظم ابداعها الدر

لعمرك ما فى الفصل والوصل مثلها
بيان معانيها لرب الحجا سحر

أرى الله منه الروح روحا تفضلا
عليه وريحانا وزيد له الأجر
وصير قبرا ضمه خير روضة
تطيب بها فيه له اللف والنشر

وفى يوم الخميس رابع عشريه ثارت الاصباهية على ملك الأمراء وطلعوا الى الرميلة ، ووقفوا بها فأغلقوا فى وجوههم باب السلسلة ، وباب الميدان ، فصاروا يسبون ملك الأمراء سبا فاحشا ، وكان سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة فأنفق عليهم شهرين وتأخر شهر واحد ، فقالوا ما نسافر حتى تنفق علينا الشهر المنكسر ، والا نزلنا فنهبنا المدينه وشوشنا على الناس ، فوقع الاضطراب بالقاهرة ، وغلقت الأسواق والدكاكين فى ذلك اليوم .

ثم ان الاصباهية توجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وأركبوه من بيته عصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وطلعوا أيضا بالأمير كمشبغا الوالى فاجتمعا بملك الأمراء وحدثاه فى أمر الاصباهية بأن ينفق عليهم ذلك الشهر الذى تأخر لهم ، فتوقف فى ذلك . ثم رسم لهم بأن ينفق عليهم ذلك الشهر فيما بعد ، وأخذوا فى أسباب عمل برقهم والتوجه الى اسطنبول .

وفيه أشيع انه حضر من اسطنبول جماعة ممن كان بها من السيوفيه والحدادين والبنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك من الصناع ، وأشيع أن الخنكار أنشأ له هناك جامعا وحماما ، فلما انتهى العمل منهما وقفوا له وقالوا له ان خلفنا أولادا وعيالا وقد أنهينا العمل الذى رسم به الخنكار وما بقى لنا شغل ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم ، وكتب لكل واحد منهم ورقة بعدم المعارضة ، وحضر صحبتهم أيضا الجمالى يوسف ابن نقيب الجيش بن أبى الفرج وشخص من أقارب ابن الطولونى ، وقد أقاموا لهم ضمانا باسطنبول بأن يتوجهوا الى مصر ، ويقضوا أشغالهم ، ثم يعودوا الى اسطنبول ، وأخبر الجمالى يوسف بوفاة جماعة كثيرة من الأعيان الذين توجهوا من مصر الى اسطنبول ، ولم تحضرنى أسماؤهم .

❋ ❋ ❋

واستهل شهر شعبان بيوم الخميس فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء سادس الشهر حضر القاصد الذى أرسله الخنكار بطلب الاصباهية ، وقد أرسل عسكرا صحبة ذلك القاصد عوضا عن الاصباهية ، فلما وصلوا الى الريدانية ، رسم لهم ملك الأمراء بأن يطلعوا من بين الترب ، ولا يشقوا من القاهرة ، قيل ان عدتهم دون ألف نفس ، والباشا الذى عليهم يقال له قراموسى . فلما وصل تحت القلعة أنزله ملك الأمراء بالميدان الذى تحت القلعة ، فنصب خيامه به ، وصارت التركمان الذين حضروا صحبته يهجمون على الناس فى بيوتهم ويسكنون بها .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشره خرج اسكندر بك وخرج صحبته الاصباهية الذين كانوا بمصر قاطبة ، فكان هو الباشا عليهم ، فشق عليه خروجه من مصر ، وكان هو المشار اليه فى أمور الديار المصرية ، وصار يعارض قضاة القضاة فى الأحكام الشرعية ، فقلق الناس منه الى الغاية حتى بعث الله تعالى بالفرج وأخرجه من مصر عاجلا . فلما خرج اسكندر ، نزل اليه ملك الأمراء وودعه وأنعم عليه بأشياء كثيرة من مال وخيول وزوادة وغير ذلك ، ولما دخلت هذه الطائفة من التركمان الى مصر

صارت الناس تضيق أبوابها حتى لا يدخل منهـا راكب لاجل التركمان .

وفى يوم الاربعاء رابع عشره رسم ملك الأمراء بشنق سبعة أنفار من طائفة الكسلية ، فيل هم الذين قتلوا الأمير بختسباى كما تقدم ، فشنق منهم ستة أنفـار على شجرة النبق التى عنـد مدرسة السلطان حسن ، والآخر شنق عند باب النصر ، فشق ذلك على الـكسلية ، ولم يطلع من أيديهم شىء

وفى يوم الجمعه سادس عشر شـعبان كان وفاء النيل المبـارك ، ووافق ذلك تاسع عشر مسرى ، ففتح السد يوم السبت سابع عشر شعبان الموافق لعشرى مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا ، وزاد من الذراع السابع عشر أصبعين . وفتح السد فى العام الماضى ليلة النصف من شعبان ، فكان التفاوت بينهما يومين ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه :

شاهدت عند النيل يوم الوفا
حـرزا عظيما جانب الشط
للعـين والنظرة فيه غدت
كتـابة بالكسر والبسط

فلما طلع ابن الرداد ، وأخبر ملك الأمراء بوفاء النيل المبارك ، نزل من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ،ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى ، فنزل فيه وتوجه الى نحو السد الذى عند رأس المنشية ، ففتحه وأظهر التعاظم فى ذلك اليوم ، وفرق المجامع الحلوى ، والمشنات الفاكهة ، وكان ذلك اليوم مشهودا من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمور . ثم ركب ملك الأمراء من هناك وتوجه الى القلعة ، ثم توجه الأمير كمشبغا الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد ، وفتح سد قنطرة قديدار ، ورجع الى داره ، وكان يوما مشهودا ، وقد عمت هذه الفرجة كل الناس .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على المماليك الچراكسة ، فأنفق لهم شهرين ، وكان لهم جامكية أربعة أشهر مكسورة . ثم ان القاضى شرف الدين الصغير ، عوق جوامك جمـاعة من أولاد الناس بسبب ذلك .

وفيه تعير خاطر ملك الأمراء على جان بك كاشف الشرقية ، فأرسل بالقبض عليه واحضاره فى الحديد وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس ، واستغاثوا من ظلمه ، فلما حضر بين يدى ملك الأمراء وبحه بالكلام ، ثم وضع جنزيرا فى عنقه ، وقيـدا فى رجليه ، وأرسله صحبة جماعة من الانكشارية الى الشرقية ، ورسم باشهار المناداة فى الشرقية بأن من ظلمه جان بك كاشف الشرقية ، عليه بملك الأمراء يخلص حقه ، ثم عزل جان بك من كشف جهات الشرقية ، وقرر شخصا من الأتراك يقال له اياس ، وكان دوادارا بخدمة خاير بك المعمار قديما ، وقد تعين باش العسكر الذى كان قد تعين الى جدة ولم يتم له ذلك .

ثم ان ملك الأمراء فى عقيب ذلك ، أرسـل بالقبض على اينال السيفى طراباى كاشف الغربية ، وأحضره فى الترسيم ، واستمر على ذلك الى الآن لم يخلص من الترسيم .

وفى أواخر هذا الشهر قدمت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة ابنة العلائى على بن خاص بك ، وهى أخت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، وكانت رئيسة حشمة فى سعة من المال ، وقد تزوجت بعدة أمراء

مقدمى ألوف ، وهى حماة الأشرف طومان باى ، جاورت بمكة وتوفيت هناك .

وفى يوم الخميس آخر الشهر ، كانت ليلة رؤية هلال رمضان ، فتوجه قضاة القضاة الى المدرسة المنصورية التى بين القصرين ، وحضر القاضى عبد العظيم المحتسب ، فلما رؤى الهلال وانفض المجلس ، قام القاضى عبد العظيم وركب من المدرسة المنصورية ، فلاقته الفوانيس والمشاعل من هناك ، وعلقت له القناديل على الدكاكين ، ومشت قدامه الشموع والسقاءون بالقرب كما كان يصنع القاضى بركات بن موسى المحتسب ، فاستمر فى هذا الموكب الحافل من بين القصرين الى بيته الذى فى باب النصر ، والرسل قدامه بالشموع الموقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة فى الفرجة والقصف ، وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد ابن قانصوه :

كعب عبد العظيم كعب رخاء
ريح تسعيره الرخاء رخاء
باشر الحسبة الشريفة فى المحـ
ـل فراح الغلا وجاء الرخاء
من كذا كعبه لدى المحل خصب
فهو طب للداء فيه دواء
دام فيها مدبر الحكم بالحكـ
ـمة ماقابل الصباح المساء

* * *

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة ، فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ومما وقع فى ذلك اليوم أن قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل تكلم مع ملك الأمراء فى ذلك المجلس بسبب نقيبه نور الدين على الميمونى ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء نفاه الى دمنهور ، فلما كلمه القاضى كمال الدين بسبب ذلك رسم باعادته الى مصر ، بشرط أن يكون بطالا ، ولا يتكلم فى النقابة بباب القاضى أبدا ، ومنع بقية القضاة أن يجعلوا لهم نقباء على أبوابهم ، ثم انفض المجلس على ذلك وقامت القضاة .

وفى يوم الثلاثاء خامس رمضان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية سنة خمس وعشرين وتسعمائة الخراجية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة بأن فى البحر المالح قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج يعبثون بالتجار ويقطعون عليهم الطرقات ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك عرض جماعة من المماليك الجراكسة وغيرهم ، وعين منهم نحو ثلثمائة مملوك وكملية يتوجهون صحبة الحجاج ، ويقيمون بجدة خوفا من أن يطرقها بعض الفرنج على حين غفلة .

وفيه أشيع بين الناس أن قاسم الشروانى الذى كان استقر فى نيابة جدة ، جمع المال الذى تحصل من جدة فوضع يده عليه ، وأخذ المكاحل التى كانت هناك والسلاح ، ونزل فى مراكب وتوجه نحو بلاد هرمز ، فتنكد ملك الأمراء لهذه الأخبار الردية .

وفيه حضر شخص يقال له كيخيه أرسله ابن عثمان يقيم بمصر عوضا عن أغات الانكشارية الذى كان بمصر ، فانه أراد الحج فى هذه السنة الى بيت الله الحرام .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان قبض على شخص من تجار الوراقين يقال له المحلاوى ، وكان قبيح السيرة مشهورا بأكل الربا ، وقد أنهوا فى

حقه أنه يبيع الخمر والمعجون للتركمان فى شهر رمضان ، وقد شهد عليه جماعة من الورافين بدلك . فلما عرض على ملك الأمراء بالمبدان رسم بسليمه الى الوالى حتى يحرر ما يكون من أمره ، فتسلمه الوالى ونزل به الى داره ليعاقبه حتى يفر بما قيل عنه من بيع الخمر والمعجون ، وقد أوعده ملك الأمراء بالشنق بعد العيد ، فلما نزل به الوالى الى بيته قصد أن يكتب محضرا بسيرته ، فجاء اليه جماعة من الانكشارية من أصحاب المحلاوى الذين كان يبيع لهم المعجون ، فمنعوا الوالى من ذلك وأغلظوا عليه فى القول ، ثم توجهوا الى سوق الوراقين وضربوا التجار الذين تعصبوا على المحلاوى ، وقصدوا نهب التجار ، فأغلقوا الدكاكين قاطبة .

فلما كان يوم الأربعاء عشرى رمضان طلع التجار الى ملك الأمراء وأخبروه بما جرى من الانكشاريه فحنق منهم ورسم للوالى بأن يوسط المحلاوى على باب الميدان ، فوسطه هناك مسرعا ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

ثم قبضوا على عبد المحلاوى فادعى أنه قد اعتقه أستاذه قبل أن يتوسط ، فقطع الوالى أذنه وأطلقه الى حال سبيله ، فعد ذلك من الحوادث المهولة . وما كان يجب على المحلاوى توسيط فراح ظلما .

وفى يوم الجمعة ثانى عشريه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء كان وضع فى الرميلة — عند القماحين تجاه سبيل المؤمنين فلقين حشب نحل كهيئة المشنقة ، ووضع فيهما حبالا وكلاليب حديد كبارا . وأشيع بين الناس أن ملك الأمراء يقصد بعد العيد أن يشنق جماعة من مشايخ العربان

ويشنق جانى بك كاشف الشرقية ، واينال كاشف الغربية ، ويشنق جماعة من الكملبه والانكشاريه ، فجاءوا الى تلك المشنقة ورموا الأخشاب التى هناك ، وقطعوا الكلاليب والحبال ، ثم توجهوا الى بيت كمشبغا الوالى وقصدوا أن يهجموا عليه ، ثم ضربوا النقباء الذين على بابه ، ثم توجهوا الى الوراقين وقصدوا أن يقتلوا الجماعة الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى حتى وسطوه ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة ، وباتوا على ما كانوا عليه من طلب الشر مع ملك الأمراء .

وفى يوم السبت ثالث عشريه ثارت الكملية والانكشارية ، وطلعوا الى الرميلة ، وقصدوا نحو المماليك الجراكسة ، وكان الأمير قايتباى الدوادار واقفا قدام باب السلسلة ، فلما رأى التركمان وتزايد الأمر منهم ، سل السيف هو ومن معه من الأمراء الجراكسة ، وقصدوا مقاتلتهم ، وأغلظ التركمان على المماليك الجراكسة ، وقالوا لهم ايش أنتم واقفون تتفرجوا علينا ، نحن فى بعضنا نفتتن ، ايش أدخلكم بيننا ، ثم انفض ذلك الجمع على غير رضا ، ونزل كل أحد الى داره ، ثم ان التجار نقلوا أمتعتهم من الدكاكين خوفا من النهب ، واختفى غالب تجار سوق الوراقين المعينين الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى .

وفى يوم السبت المذكور توجه جماعه من الانكشارية والاصباهية الى بيت شخص من تجار الوراقين يقال له كريم الدين البلدى ، فنهبوا كل ما فيه ، وقبضوا على أولاده ونسائه وعبيده وجواريه ولم يظفروا به . ثم أشيع أنهم قبضوا على جماعة من الوراقين ووضعوهم فى الحديد ، وقيل انهم ممن تعصبوا وشهدوا على المحلاوى بما قيل عنه . فتنكد جميع التجار لهذه الواقعة ، وصار على رءوسهم الطيرة من التركمان ،

وحولوا أمتعتهم من الدكاكين ، وصارت الناس فى وجل ، خوفا مما يأتى منهم ، واستمر التركمان على ما هم عليه من اقامة فتنة عظيمة والأمر لله تعالى .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه نادى ملك الأمراء بالقاهرة بأن القاضى شيخ سوق الوراقين يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وان لم يظهر بعد ثلاثة أيام وغمز عليه يحرق المكان الذى هو فيه والحارة أيضا ، واستمر كمشبغا الوالى مختفيا لم يظهر . وقد عين التركمان القتل لخمسة من تجار الوراقين وشخص من تجار الجملون يقال له ابن ظلام ، وهم الذين شهدوا على المحلاوى بما تقدم ، وتعصبوا عليه . واستمر الاضطراب عمالا بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشريه ، حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو الصعيد بسبب ضم الغلال وغير ذلك ، وكان له نحو خمسة أشهر وهو مسافر ، فلما طلع وقابل ملك الأمراء خلع عليه قفطانا مخملا ونزل الى داره ، فزينت له سويقه اللبن ودكاكين الحشاشين .

وفى يوم الأربعاء سابع عشريه ، خلع ملك الأمراء على الأمير كمشبغا الوالى وأعيد الى الولاية ، وكان له عدة أيام وهو مختف لم يظهر بسبب واقعة المحلاوى ، وقد وقع بينه وبين الكملية فتنة ، وعينوا له القتل فاختفى وأغلق عليه أبوابه أياما ، فلما تلافى ملك الأمراء خواطر التركمان وأرضاهم ، وزاد فى جوامكهم ، وخمدت تلك الفتنة ، ظهر كمشبغا ، وخلع عليه واستقر على عادته ، فعز ذلك على التركمان .

ولما حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن ابن ظلام شيخ سوق الجملون ، وخلصه من الحديد ، وألبسه قفطانا مخملا ، وأقره شيخ الجملون كما كان ، وضمنه فى مال له صورة يورده الى ملك الأمراء ، وكان ابن ظلام صهر القاضى بركات بن موسى ، فبذل معه المجهود حتى خلصه .

وفى يوم الخميس ثامن عشرى رمضان خرج العسكر المعين الى بندر جدة ، فخرجت تلك التجريدة فى ذلك اليوم وهم مابين مماليك جراكسة وتركمان ، وكانت عدتهم نحو ثلثمائة انسان من الفريقين ، وكان الباشا عليهم شخصا من العثمانية يقال له أغات الكملية ، وقيل انهم يتوجهون الى السويس ، وينزلون من هناك فى المراكب الى البحر المالح ، حتى يصلوا الى جدة ، وقد كثرت الاشاعات بسبب فساد الفرنج وعبثهم فى البحر على التجار ، وقد جاءوا نحو بندر جدة .

* * *

وفى شهر شوال وكان مستهله يوم الأحد ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وصلوا مع ملك الأمراء صلاة العيد ، ثم نزلوا الى دورهم ، وبطل ما كان يخلع فى ذلك اليوم من الخلع على قضاة القضاة والأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف قاطبة ، وزال ذلك النظام العظيم من مصر كأنه لم يكن أبدا

وفى يوم الخميس خامس شوال ، وافق ذلك اليوم أول يوم من بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على ثمانى أصابع من عشرين ذراعا ، وكان أرجح من نيل العام الماضى بذراعين وأصبعين ، فانه ثبت فى العام الماضى على ستة أصابع من سبعة عشر ذراعا ، وهبط سريعا فشرق غالب البلاد

وفى يوم الاثنين تاسع شوال جلس ملك الأمراء بالميدان ، وعرض عليه كسوة الكعبة الشريفة والمحمل الشريف وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الجمعة ثالث عشر شوال انتهى العمل من مدرسة الشيخ الدشطوطي رحمه الله تعالى عليه . التى بالقرب من حدرة الفول تجاه زاوية الشيخ يحيى البلحى ، وخطب فى ذلك اليوم بها ، فاجتمع هناك الأمراء العثمانية ، والأمير جانم الحمزاوى ، وقضاة القضاة الأربعه ، وأعيان المباشرين ، ومشاهير الناس ، فلما كان وقت الصلاه صعد المنبر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخطب خطبة بليغة فى المعنى ، فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الأمير جانم الحمزاوى زبادى صينى ضمنها سكر ، وشى أقسمه ، فطاف بها على الحاضرين ، وكان يوما مشهودا ، وجاءت هذه المدرسة فى غاية الظرف ، وذلك ببركة الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمة الله عليه .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان أمير ركب المحمل فى هذه السنة الأمير برسباى دوادار ملك الأمراء ، فطلب طلبا حافلا يشتمل على محاسن كثيرة ، كما هى عادة الأطلاب القديمة ، وشق من القاهره فى موكب حفل ، وقدامه جماعه من الأمراء الچراكسة والعثمانية وأعيان المباشرين ، والجم الكثير من العثمانية والانكشارية يرمون بالنفوط ، وجماعة من القواسة ، وخرج صحبته سنيح عظيم من الزاد والماء ، وكانت الحجاج قليلة لأجل غلو العليق ، والكراء تشحط فى هذه السنة الى الغاية .

* * *

وفى شهر ذى القعدة — وكان مستهله يوم الثلاثاء — طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ، وأشيع بين الناس أن سبب حضور هذا القاصد أن الخليفه محمد المتوكل على الله ، لما توجه الى اسطنبول ، توجه صحبة أولاد ابن عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، فوقع بينهما وبينه هنالك فتنه ، فترافعوا الى الخنكار ، وقالا انه لما كان بمصر قعد على ودائع كثيرة ما بين مال وقماش أودعه عنده الأمراء الذين قتلوا ، وأخذ من خوند زوجة السلطان طومان باى وأمها مالا كثيرا ، وكذا أخذ من نساء الأمراء المقدمين الذين قتلوا من الأموال ما لا يحصى ، ولم يطالع الخنكار على شىء ، وتكلما فى حقه بالباع والذراع ، وما أبقوا فى ذلك ممكنا . فاعتدى الخنكار على الخليفة المتوكل على الله ، وانحط قدره عنده ، وساعدت الوزراء أولاد خليل عند الخنكار .

وكان الخليفة لما أقام باسطنبول أظهر فتكا زائدا ، واشترى له جوارى يضربن بالجنوك ، ثم انه قطع معلوم أولاد ابن عمه فشكوه الى الخنكار ، فحنق على الخليفة وأمر بأن جهاتهم تقسم ثلاثة أثلاث بين الجميع بالسوية ، فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم على ذلك ، فلما حضر القاصد رسم على مباشرى الخليفة ، وعلى دواداره برد بك ، وقال لهم أقيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل بغاية الانصاف

وفى يوم السبت خامسه جلس الأمراء بالمقعد الذى بالحوش السلطانى ، وحضر قدامه مصارعان ، وهما شخص يقال له الشاطر أبو الغيث الزريكشى ، وخصمه شخص أعجمى شنيع المنظر فى خلقته ، فتصارع مع الزريكشى فغلب الزريكشى ورماه الى الأرض ، وركب فوقه وعصره فى الأرض حتى كاد يموت ، فانتصر عليه وغلب أبا الغيث ، وألبس ملك الأمراء الأعجمى قفطان حرير ، ونزل من القلعة وقدامه طبلان وزمران ، وجماعة من العثمانية وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفى يوم الأحد مع ليلة الاثنين رابع عشره ، خسف جرم القمر خسوفا فاحشا حتى أظلم منه الجو ، وأقام فى الخسوف فوق أربعين درجة ، وقد خسف أول ما أشرق عند طلوعه ، واستمر يتزايد فى الخسوف حتى مضى من الليل جانب كبير ووقع مثل هذا الخسوف فى السنة التى مات فيها السلطان الغورى ، وكان بين موته وبين الخسوف نحو شهرين ، وجرى ما جرى من الأهوال عقيب ذلك . ونسأل الله اللطف فى هذا الخسوف الثانى .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، وسبب ذلك أن الأمير كمشبغا الوالى صنع له هناك مدة حافلة ، وأضافه فنزل اليه ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة ، وكان قبل ذلك بيوم توجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، وقيل انه أقام هناك الى ما بعد العصر ، وعاد الى القلعة من يومه المذكور .

وفى يوم الاثنين حادى عشريه ، وقع بين خير الدين نائب القلعة وبين قرا موسى أغات الاصباهيه بحضرة ملك الأمراء بالقلعة فتنة ، وسبب ذلك انه وقعت فتنة كبيرة بين الانكشاريه وبين الاصباهية ، وصار فى كل ليلة يوجد فى الأزقة والطرقات جماعة مقتولون بالسيوف ، فعز ذلك على قرا موسى ، وقال لنائب القلعة خير الدين . هذا كله فى ذمتك انت الذى أطمعت الانكشاريه فى حق النـاس ، حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان ، ويخطفون عمائم النـاس بأيديهم ، ويعرونهم ويقتلونهم ، ويخطفون بضائع السوقة ، والخنكار ما يدرى بشىء من ذلك ، وان بلغه ذلك فما يحصل لك خير .
ثم فى عقيب ذلك صار الكيخية أغات الانكشارية يركب فى كل يوم ويشق من القاهرة ، فان وجد فى طريقه انكشاريا يأخذ عصاه ويكسرها ، ويقول له اطلع الى القلعة واقعد فى الطبقة ولا تنزل الى المدينة أبدا . وقيل انه منع الناس ألا يشتكوا أحدا من الانكشارية مطلقا ، واستمرت الفتنة ثائرة بين الاصباهية والانكشارية الى الآن ، وكل منهما على حذر من رفيقه

ومما وقع فى الشهر من الحوادث أن جماعة من المماليك الجراكسة ، نحو عشرة مماليك ، فيهم شخص من قرابة الأمير قانصوه ابن الامير جركس ، وشخص آخر كان والى قليوب ، خرجوا على حين غفلة وقصدوا أن يتوجهوا الى الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام ، فلما وصلوا الى قطيا قبض عليهم نائب قطيا ، ووضعهم فى الحديد ، وأرسل كاتب ملك الأمراء فيهم ، فأرسل اليه ملك الأمراء جماعة من التركمان ليحضروهم ، فلما ، وصلوا الى قطيا أظهروا مرسوما من عند ملك الأمراء الى نائب قطيا بأن يضرب رقابهم أجمعين ، فامتثل ذلك وضرب رقاب العشرة مماليك ، وكان فيهم شخص من العربان يرشدهم الى الطريق ، فضرب عنقه أيضا وكان قتلهم فى مكان بين الصالحية وقطيا يسمى جيرة والعافوله . فلما أشيع هذا الخبر شق ذلك على جماعة من المماليك الجراكسة ، وشق ذلك على نائب الشام أيضا ، ووقعت الوحشة بينه وبين ملك الأمراء خاير بك من يومئذ ، ودبت بينهما عقارب الفتن .

وفى يوم الاثنين ثامن عشريه ، كانت وفاة الكاتب المجيد أبى الفضل محمد السنباطى ، المعروف بالأعرج ، قيل انه مات فجأة على حين غفلة وكان له حظ .

ومن الحوادث العجيبة الغريبة التى لم يسمع بمثلها ما وقع فى أواخر هذا الشهر ، وأشيع

واستفاض بين الناس ، أن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد ظهر بعد مضى هذه المدة الطويله ، وأنه باق فى قيد الحياة ، وقد تغيرت هيئته وصار له ذؤابة شعر فى رأسه ، وقد ابيضت لحيته . فكان من ملخص هذه الواقعة أن شخصا من أبناء العجم كان يرسل الى ابنة قانصوه خمسمائة — التى كانت زوجة انسباى حاجب الحجاب — ويقول لها أنا أبوك ، فترسل اليه ما ينفقه ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، ثم أنه حضر اليها تحت الليل صحبة طواشى ، فطلع الى باب السلسلة ، وكانت تزوجت بأمير آخور كبير مملوك ملك الأمراء ، فلما فشا أمره ، ولم يعرفه أحد من حاشية ابنة قانصوه خمسمائة ، بلغ ذلك زوج ابنة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليه ووضعه فى الحديد ، وسجنه فى البرج الذى بباب السلسلة ، حتى يعرضه على ملك الأمراء ، ويتبين ما يكون من أمره ، وقد أنكر ذلك الناس قاطبة ، فان قانصوه خمسمائة له نحو ثلاث وعشرين سنة من حين قتل عند خان يونس الذى بالقرب من غزة ، وكان من أمره ما كان مع الأمير اقبردى الدوادار ، وقطع رأسه هناك وأرسلها الى الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، وعلقت على باب زويلة ، فكان أمر وجوده من الأمور المستحيلة التى لا تقبلها العقول السليمة بعد هذه المدة الطويلة .

* * *

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم الخميس ، طلع القضاة الأربعة وهنوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

فلما كان يوم السبت ثالثه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وأحضر مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أحضر ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فاذا هو شخص أعجمى مربوع القامة ، أبيض اللحية ، وله ذؤابة شعر فى رأسه . فقال ملك الأمراء للحاضرين من مماليك الأشرف قايتباى : أهذا قانصوه خمسمائة الذى كنتم تعهدونه ؟ فقال العسكر قاطبة . ليس هذا قانصوه خمسمائة ، وهذا قصير القامة أشقر اللون . ثم أن ملك الأمراء ضيق على ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فقال له ملك الأمراء : ما حملك على ذلك ؟ قال . الفقر والفاقة وقلة ما فى اليد . فلما اعترف بذنبه رسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم بدا له أن يضرب عنقه بين يديه فى الميدان ، فضرب عنقه ومضى أمره ، ثم أحضروا له تابوتا فحملوه فيه ليغسلوه ويكفنوه ويدفنوه . فخمدت هذه الاشاعة التى أشيعت بسبب قانصوه خمسمائة . وكان غالب الناس الذين ليس لهم عقول صدقوا بذلك ، وقد تبين أن ذلك الرجل نصاب شيطان ، أخذ من ابنة قانصوه خمسمائة ، خمسمائة دينار . ويقول لها أنا أبوك . وكان ينصب على الناس ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ، ويلصهم غير ما مرة ، فأراح الله الناس منه .

وفى يوم الخميس ثامنه ، خرجت تجريدة الى الأزلم تلاقى الحجاج ، وكان بها نحو مائة مملوك ، وكان الباشا عليهم كاشف الشرقية وصحبته جماعة من الانكشارية يرمون بالبندق الرصاص وكان الباشا عليهم شخص من العثمانية .

وفى يوم السبت عاشره ، كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى غاية الغلو ، وقد لا توجد ، فلم يضح من الناس الا القليل . وكان اللحم البقرى يباع فى تلك الأيام بنصف فضة كل رطل ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد من الناس أضحية فى هذه السنة ، وقطع أضحية الزوايا قاطبة ، وعادة الفقهاء والأتراك قاطبة ، كما فعل فى السنة الماضية .

وفى يوم الأحد ثامن عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة وعدى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو

شبرامنت على سبيل التنزه ، فأقام هناك من يوم الأحد الى يوم الثلاثاء ، وأخذ معه خياما كثيرة وسنيحا ، وصنع له هناك القاضي شرف الدين الصغير مدة حافلة ، وكان صحبته جماعة من الأمراء العثمانية وغير ذلك من المماليك الجراكسة ، فلما رجع من شبرامنت أقام بالقلعة ثلاثة أيام ، ثم عزم عليه الأمير كمشبغا الوالى فى خليج الزعفران ، ومد له هناك مدة حافلة ، وأقام عنده الى ما بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة فى يومه ، وكان نهار شعث وغبار وهواء مريسى ، فلم يتهنأ بالفرجة فى ذلك اليوم .

وفيه حضر قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة ، وجرى منه ما جرى كما تقدم ذكره ، فأرسل ملك الأمراء خلفه ، وأحضره فى الحديد ، فأحضره الشريف بركات أمير مكة فى البحر المالح ، فلما حضر سجنه ملك الأمراء بالعرقانة التى هى داخل الحوش السلطانى الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الوقفة كانت عندهم بالجمعة ، وأن الأسعار انحطت عما كانت عليه قليلا ، وأخبر المبشر أيضا أنه لما دخل الحاج الى مكة ثارت فتنة عظيمة بين عبيد أمير مكة بركات ، وبين جماعة من العثمانية ، وقتل من الفريقين نحو عشرة أنفار ، ثم خمدت تلك الفتنة وزال الشر قليلا بعد ما كاد أن يتسع .

وفيه توفى صاحبنا الشرفى يحيى بن الناصرى محمد الأزبكى ، الذى كان أغات الغورى ، فأشيع بعد موته أنه وجد له من الذهب العين عشرة آلاف دينار ، فعد ذلك من النوادر ، فان أباه محمد الأزبكى لم يكن فى سعة من المال ، ولا أجداده ولا أقاربه .

وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، توفى الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ، ابن الشيخ زين الدين قاسم المالكى ، وكان عالما فاضلا ، علامة فى مذهبه ، ولى قضاء المالكية فى أيام السلطان الغورى ، أخذها عن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف .

وفى ذلك اليوم وقع بالقلعة خباط هين ، وهو أن ملك الأمراء وقف له طائفة من المماليك الجراكسة بسبب أن لهم جامكية شهرين مكسورة ، فلما وقفوا اليه وبخهم بالكلام ، وطفش فيهم ، وقال لهم لازلتم حتى أوقعتم بينى وبين نائب الشام ، وأنتم تغدون وتروحون وتشكونى عنده . فقام الأمير قايتباى الدوادار وجعل يرقع للمماليك ويقول له هؤلاء مماليكك وعبيدك ، وانما يفعلون ذلك من الجوع والقلة . فقال ملك الأمراء والله لولا أنا ما خلى الخنكار مملوكا يلوح على وجه الأرض ، فانى شفعت فيكم من القتل . فقال له الأمير قايتباى : الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك ، فرسم بشهر واحد يصرف لهم من جامكيتهم ، وكان لهم شهران مكسوران فى الديوان .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وهم مرتابون من الغلاء وقلة الأمن وجور التركمان عليهم ، وتناهى سعر الأردب القمح الى ثلاثة أشرفية واثنى عشر نصفا كل أردب ، والبطة الدقيق بأشرفى وخمسة أنصاف ، وقد تشحطت الأسعار فى سائر البضائع من المآكل والمشرب ، وصارت التركمان يخطفون عمائم الناس من فوق رؤسهم جهارا ، ولم يجدوا من يمنعهم من ذلك ، ويقطعون الطريق على المتسببين والضيافات التى تطلع من البلاد ، وصاروا يخطفون النساء والمرد من الطرقات كل يوم من بين الناس ، ولم يجدوا

من يخلصهم من أيديهم ، وحصل للناس من أيديهم غاية الضرر .

ووقف الحال بسبب المعاملة من الفضة ، فانها كلها غش ونحاس وزغل ، وصار الأشرفى القايتبايى يصرف بخمسة وستين نصف فضة ، والسوقة لا تقبل من الفضة الا القليل ، وكذلك الفلوس الجدد . وقاسى أهل مصر فى هذه السنة شدة عظيمة ما قاساها قط أحد من الناس ، والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد .

سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) :

فيها فى المحرم — وكان مستهل الشهر يوم السبت — طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء رابعه ، كان ختان ولد قاضى القضاة المالكى يحيى ، بن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم الدميرى رحمة الله عليه ، فكان له فى ذلك اليوم زفة حافلة رجت لها القاهرة ، فمشت من الجامع المؤيدى الى المدرسة الصالحية ، ومشى فيها أعيان الرؤساء من المباشرين والتجار ، ومشاهير الناس ، وغيرهم من الأعيان ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وكان يوما مشهودا . وفى أوائل ذلك اليوم مدت مدة حافلة حضرها الأمير جانم الحمزاوى وجماعة من الأمراء العثمانية ومن الأمراء الچراكسة وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه ، دخل الحاج الى القاهرة صحبة المحمل الشريف ، وأمير الحاج الأمير برسباى ، وقد أثنى عليه الحجاج خيرا بما فعله فى طريق الحج ، وكان معهم الأمن والرخاء بطول الطريق .

* * *

واستهل شهر صفر بيوم الأحد فطلع القضاة الثلاثة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ، ولم يطلع قاضى القضاة الشافعى وكان مريضا منقطعا بداره له مدة طويلة لم يركب .

وفيه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء عزل الشرفى يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى ، واستقر بشخص من أبناء العجم ، وقيل من العثمانية ، عوضا عن يحيى بن التاج ، وكان ذلك الشخص عاريا عن العلم والفضيلة ، ليس له شهرة بين الناس ، فقامت الأشلاء على ملك الأمراء من العلماء والفقهاء ، وأنكروا عليه أنه عزل يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى من غير جنحة ولا سبب ، وقرر بها من هو من غير أهلها ، ولم يكن يستحق ذلك ، وهذا من البدع المنكرة .

وفى يوم الخميس خامسه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ، وصحبته الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء الچراكسة ومن الأمراء العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الچراكسة نحو خمسمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، ومن الاصباهية والكملية والانكشارية الجم الكثير ، وعدة رماة بالبندق الرصاص ، وأشيع عنه أنه يقصد التوجه نحو البلاد الشرقية ، فصلى صلاة الصبح ، ونزل وشق من القاهرة ، وشق من بين الترب ، واستمر سائرا والأمراء والعسكر حوله حتى نزل بالعكرشا ، ثم توجه الى شبين ، ثم توجه منها الى مرصفة ، وقد اختلفت الأقوال فى ذلك ، فمن الناس من يقول انه خرج يسرح فى الشرقية على سبيل التنزه والفرجة ، ومن الناس

من يقول انه خرج بسبب محاربة عربان السوالم ، والأول أصح ، فخرج صحبته سائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره . حضر القاضى بركات بن موسى من عند ملك الأمراء وعليه عمامة هوارية ، وقد خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ، وحضر صحبته ستة أنفار بو وقد سلخوا وحشوا تبنا ، فقيل انهم من عربان السوالم فاركبوهم على خيول ، وعليها بركستوانات محمل ، والبسوهم جوخا وشاشات على زنوط فوق رءوسهم ، وقدامهم اثنا عشر رأسا مقطوعة ، وهى على رماح ، قيل انهم من أعيان عربان السوالم ، فشقوا بهم من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فعلقوا جماعة من المسلوخين ومن الرءوس على باب زويلة ، علقوا الباقى على باب النصر

وكان من ملخص هذه الواقعة ما أشيع واستفاض بين الناس ، أن اياس كاشف الشرقية تحيل على مشايخ عربان السوالم ، وأرسل لهم بالأمان ، فركنوا له وحضروا اليه ، فصنع لهم ضيافة ، فلما استقروا عنده أرسل يعلم ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى ومعه جماعة من المماليك الچراكسة ، فتوجهوا نحو عربان السوالم ، وخرج صحبتهم عربان البلاد المجاورة من منية حمل والجوسق المحروقة وغير ذلك ، فوقعوا مع السوالم ، وكان بينهم واقعة مهولة ، فانكسرت السوالم وقبضوا على بقية مشايخهم .

ثم ان العسكر والعربان نهبوا نجع السوالم عن آخره ، وغنموا منه ما لا يحصى من جمال وخيول وسلاح وقماش ونحاس ومصاغ وغير ذلك من عبيد وجوار ، حتى أخذوا نساءهم وأولادهم ، فلما وقعت هذه الكسرة على السوالم هرب من بقى منهم الى الأودية والجبال ، فلما جرى ذلك سلخ الكاشف مشايخهم وأرسلهم الى القاهرة كما تقدم ذكر ذلك ، قيل كان فيهم من هو من أولاد قراجا بن طراباى شيخ جبل نابلس .

وأشيع أن ملك الأمراء رحل من جهة مرصفة وتوجه الى بنها العسل وأرسل سنيحه ومطبخه الى القلعة وأشيع عوده الى القاهرة .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره رجع ملك الأمراء الى القاهرة ، فأتى من جهة قنطرة الحاجب ودخل من باب الشعرية ، وخرج من باب القنطرة ، وطلع على سوق مرجوش . وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية الرماة ، وقدامه بعض جنائب ، ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية من باب الشعريه ، وكان عليه قفطان جوخ أحمر ، وكان قدامه ما اصطاده من الكراكى والأوز العراقى ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وكان يوما مشهودا ، وكانت مدة غيبته فى هذه السرحة سبعة أيام بلياليها .

ثم دخل بعده شيخ العرب نجم شيخ العائد ، وهو فى الحديد ، وقد نسبوا اليه انه كان متواطئا مع عربان السوالم وهو من أغراضهم ، فقبض عليه ملك الأمراء ووضعه فى الحديد حتى يكون من أمره ما يكون . ولم يكن فى نزول ملك الأمراء الى الشرقية خير للناس ، فرعى العسكر زرع البلاد وقدمت له مشايخ العربان نحو ألفى رأس غنم ، فوزعوا ذلك على بلاد الشرقية ، وأحضروا له من شيبين ستمائة أردب شعير ، وذلك غير التقادم من خيول وجمال وغير ذلك من ذهب عين فوق العشرة آلاف دينار .

وقيل ان ملك الأمراء كان فى هذه السرحة لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا ، حتى أشيع عنه انه أخذ معه أربعين بغلا وهى محملة بيذا

اقريطشى ، فكان فى نزوله هناك غاية الضرر فى حق الناس ، ولولا أنهم أخذوا عرب السوالم بحيله لما قدروا عليهم أبدا .

وفى يوم تاريخه عاين مؤلف هـذه الوقائع بالمشاهدة ، حضـور القاضى بركات بن موسى المحتسب ، وطلوع ملك الأمراء فى ذلك الموكب المقدم ذكره ، فلما طلع ملك الأمراء الى القلعـه قدمت الأخبار من الشرقيه بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصـالحية ونهبوا ما فيها فأحرقوها بمـا حولها من الضياع وحصل منهم غاية الضرر الشامل ، وهذا كله من سوء تدبير اياس كاشف الشرقية ، فانه استعجل بقتل مشايخ عربان السـوالم وكانوا من بوابع أعيان السوالم ، فسلخ الجميع . ومنها أنه نهب نجعهم ، وأخذ أموالهم ومواشيهم ، واسر حريمهم حتى قيل انه أسر ستين امرأة من اعيان نسائهم ، وأسر أولادهم . فلما طفشوا فى البلاد أرسل ملك الأمراء يهول للكاشف أطلق نساء السوالم وأولادهم الذين عندك من كل بد ، وقد استدرك ملك الأمراء ما وقع منه فى حق مشايخ عربان السوالم

وقـد أشيع امر هذه الفتنه من كل جانب ، واستمرت أرباب هذه الدوله فى آراء معكوسه ، ليس لأحد منهم رأى سديد ، ولا له مستشار يرجع اليه ، وصار كل منهم يشير برأى غـير صواب ، ويتكلم بكلام غير مفيد ، وقد ضاعت الكلمه بينهم وآل أمر مملكة مصر الى الخراب ، وكل هذا من سوء تدبيرهم ، وقلة معرفتهم ، وعـدم تجاربهم للأمور ، وقلة نظرهم فى العواقب ، مما يؤول أمره الى خير أو شر ، فنسأل الله تعالى اصلاح الحال ، وحسن الخاتمة ، واخماد هذه الفتن عن قريب

وفى يوم الجمعة ثالث عشره خلع ملك الأمراء على اخى نجم ، واستقر به شيخ العايد ، عوضا عن أخيه نجم ، وقـد بلغـه أن أحوال الشرقية قـد اضطربت الى الغاية ، وثارت بها العربان للفساد ، فلما خلع عليه خرج من يومه الى الشرقية بسبب هذا الفساد .

وفى يوم السبت رابع عشره ، أرسل ملك الأمراء تجريدة الى الشرقية ، وعين بها نحو مائة مملوك من الجراكسة وغيرهم ، وعين جماعة من الكمليـة والاصباهية ، وجماعـة من الرماة الانكشارية ، وجهز عجلات تخرج صحبتهم اذا خرجوا ، وقيل ان اياس كاشف الشرقيـة محاصر مع العربان فى بلبيس ، وقد أرسل يطلب نجدة بسرعة ، وأشـيع أن عربان نجم شيخ العايد لما أمسك صاروا يعرون الناس فى رأس المطرية ، وعند تربة العادلى .

وفيـه أشيع أن جماعة من الانكشارية هجموا على سوق النحاسين وأخذوا ما فيه من النحـاس لأجل أن يسبكوه مكاحل للبنـدق الرصاص ، فحصل للتجار الضرر الشامل من ذلك ، وكانت حركة هؤلاء الجماعة الذين قتلوا من عرب السوالم من أكبر أسباب الفساد فى أحوال المملكة ، وأنهم لو أبقوهم فى قيد الحياة وسجنوهم لكان ذلك عين الصواب ، وأرجى لخمود هذه الفتن ، ولـكن عجلوا بقتلهم حيث ظفروا بهم . فكان كما يقال فى المعنى :

أمـور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبهـا اللبيب

وفى يوم الثـلاثاء سابع عشره خرجت التجريدة التى عينها ملك الأمراء الى السوالم ، وكان الباشا عليها شخصا من أمراء العشراوات يقال له جان بردى الأشقر - الذى كان كاشف البحيرة أخو تنم الذى كان خازندار الملك الناصر محمد ابن الأشرف

قانصای ، وكان بها من المماليك الجراكسة وغيرهم مائة مملوك . وتوجه قبل ذلك الى كاشف الشرقية ستون مملوكا نقموا عنده ، فخرجت التجريدة فى ذلك اليوم ، وتوجه من بها من المماليك الى خانقاه سرياقوس

وفى يوم السبت حادى عشريه ، حضر اياس كاشف الشرقية وصحبته جماعة ممن بقى من أعيان عربان السوالم ، وقد أتوا الى اياس طائعين بعد آن رآوا عين الغلب ، فأحضرهم الى ملك الأمراء ، فلما قابلوه خلع عليهم ، وأقرهم فى مشيخة عربان السوالم عوضا عمن قتل منهم ، وخمدت فتنة السوالم ، وكان ذلك على غير القياس من آمر هذه الفتنة .

* * *

وفى شهر ربيع الأول وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفى ذلك اليوم قدم قاصد من عند الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، وقد حضر من البحر المالح الى ثغر الاسكندرية ، فلما طلع الى القلعة قرأ مراسيم الخنكار على ملك الأمراء .

وآشيع بين الناس أن الخنكار أرسل يقول لملك الأمراء أن يتوصى بالمماليك الجراكسة ، ويصرف لهم جوامكهم ولحومهم وعلقهم والأضحية والكسوة على العادة .

وأشيع أنه أرسل يقول لملك الأمراء كل من شوش من التركمان على أحد من الرعايا يشنقه من غير معاودة ، وأرسل يأمر ملك الأمراء بأن ينادى للناس بقطع الطرقات والشوارع والأسواق قاطبة فأخذ الناس فى أسباب ذلك ، وشرعوا فى قطع الطرقات .

ثم أشهروا المناداة فى القاهرة على لسان الخنكار حسبما رسم بأن لا احد من الانكشارية ولا من الأصباهيه يشوش على آحد من الناس ، ومن فعل ذلك بأحد يمسكه من طوقه ويتوجه به الى خير الدين نائب القلعه ، فأشهر المناداه بذلك أربعة مشاعليه ، اثنان يناديان بالتركى ، واثنان ينادىان بالعربى ، وهم قدام الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وأظهروا العدل فى ذلك اليوم ، وليته دام .

ثم اشيع بين الناس أن الخنكار لما أرسل الى ملك الأمراء بطلب سنان باشا وفائق بك بأن يحضرا هما والأسباهيه الى اسطنبول سافروا ، فلما وصلوا هنالك أحضر الخنكار سنان باشا بين يديه وآمر بتسنفه ، فاقام مصلوبا ثلاثة ايام لم يدفن .

وآشيع أن طائفة من الاصباهيه الدين كانوا بمصر وآرسل طلبهم ، لما دخلوا مدينة اسطنبول ضرب رقاب اربعمائه اصباهى منهم ، ممن آشيع عنه الفساد بمصر من جماعه سنان باشا .

وآشيع أن الخنكار آرسل يحط على ملك الأمراء خاير بك بسبب تراخيه فى حق طائفة الانكشاريه والأصباهيه حتى جاروا على الناس ، وساروا يتشوشون على الرعية ، وقد بلغ الخنكار ما يصنعونه بمصر من خطف النساء والمرد وبضائع المتسببين وخطف صيافات الناس ، فلما حضر القاصد فى ذلك اليوم وقرءوا مرسوم الخنكار بحضرة قضاة القضاة ، شهدوا بأن ملك الأمراء ناظر فى مصالح الرعية ، والناس عنه راضية ، وكانت هذه الشهادة عين الرياء ، واتباع الجاه لأجل المناصب .

ثم ان ملك الأمــراء قصــد أن يكتب محضرا ويأخذ عليه خط القضاة الأربعة بأن مصر فى غاية العدل والرخاء والأمن ، فلم يوافقه القضاة على ذلك ، وقالوا نكتب خطوط أيدينا على شىء باطل ويبلغ الخنكار بخلاف ذلك ، فنجتنى على أنفسنا منــه أن نذكر أن مصر فى غاية العــدل والأمن والرخاء ، وأن التركمان لم يتشوشوا على أحد من الرعية ، وهذا باطل لا يجوز ، فرجع عن ذلك .

وفى يوم الخميس حادى عشره ، عمــل ملك الأمراء المولد الشريف النبوى بالقلعة ، وجلس فى المقعد الذى بالحوش الســلطانى ، وحضر القضاة الأربعة على حكم السنة الماضية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع بين الشريف بركات أمير مكة وبين نائب جدة أغات الكملية الذى يسمى الكيخية ، واضطربت أحوال مكة الى الغاية .

وفى يوم الأحد رابع عشره ، خلع ملك الأمراء على الأمير جانم الحمزاوى كاشف البهنسا والفيوم وقرره أمير الحج بركب المحمل ، فنزل من القلعة موكب حافل

وفيه كانت كائنة الأمير جان بردى الأشــقر ، أحد الأمراء العشراوات ، وهو أخو تمر الذى كان نائب الاسكندرية ، قيل انه عزم عليه شخص يسمى تمر الظاهرى ، فلما دخل عليهما الليل وقع بينهما تشاجر ، فثارت فى ذلك المجلس فتنه كبيرة فقتل فيها جان بردى الأشقر ، ولا يعلم من قتله من الحاضرين ، وقبضوا على من كان حاضرا ، واختفى تمر صاحب البيت ، وكانت واقعة مهولة فلما بلغ ملك الأمراء ذلك شــق عليه قتــل جان بردى الأشــقر ، فانه كان صــاحبه ، فأخذ فى الفحص على كل من كان سببا لقتله ، وألزم الوالى باحضار تمر الذى قتل فى بيته

وفيــه أخرج ملك الأمراء تجريدة الى ثغــر الاسكندرية بسبب عبث الفرنج هناك بالمسافرين وكان بها من العسكر نحو مائة انســان ، ما بين مماليك جراكسه وأولاد ناس وعثمانية وغير ذلك .

❊ ❊ ❊

وفى شهر ربيع الآخر -- وكان مستهل الشهر يوم الثلاثاء -- طلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثالثــه خــرج الأمير جانم الحمزاوى الى السفر ، وقصد التوجه الى اسطنبول فخرج فى موكب وصــحبه الامراء الجراكســة والمباشرون وأرباب الدولة من الأمراء العثمانية ، وقد أرسل ملك الامراء صحبته تقدمة حافلة الى السلطان الملك المظفر سليم خان ، وكان ما اشتملت عليه تلك التقدمة على ماقيل : من الخيول الخاص خمسين فرسا ، وفيها بغلة قيل مشتراها خمسمائة دينار ، ومن القماش الحرير والتفاصيل السكندرى أشياء كثيرة ، ومن الشاشات المابنى أشياء كثيرة منها ما طوله مائة وعشرون ذراعا ، وأرسل اليه ملك الأمراء من جملة هذه التقدمة خمســمائة قنطار سكر معمولة بمسك ، ومن الأشربة والمربات أشياء كثيرة ، وأرسل اليه من الفصوص والمعادن واللؤلؤ أشياء كثيرة ، ومن الصينى اللازوردى والشفاف أشــياء كثيرة ، وغير ذلك من التحف الغريبة مما يهدى للملوك .

وفيه قدمت الأخبار من تونس ببلاد الغرب بأنه قد وقع بها فتنة عظيمة بين صاحب تونس وبين الشيخ محمد بن تليس صاحب بصرت ، وكانت بينهما واقعة عظيمة فى أوائل صفر ، وقتل فى هذه

المعركة نحو أربعين ألف انسان ، وآخر الأمر انتصر السلطان حسن بن محمد صاحب نوس على ابن تليس ، وغنم منه غنائم جزيلة ، مابين مال وقماش وسلاح وخيول وجمال وغير ذلك .

وفيه نزل ملك الامراء الى بولاق ، واقام بها الى قريب الظهر ، فأحضر اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، ما بين خرفان شوى ، وقدور هريسة ، وماموينة ، وفاكهة وحلواء ، ومشموم .

ثم ان ملك الأمراء عرض المراكب الأغربة التى أنشأها ، ولعبت قدامه فى البحر ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ونصب له سحابة فى الجزيرة التى تجاه انبابة ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين حادى عشريه ، كان عيد النصارى ، وهو اول يوم الخماسين ، وكانت خماسين مباركة ، لم يظهر فيها الطاعون بمصر ، ولا فى غيرها من الثغور .

وفيه توفى شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر ديوان الأمير ازدمر الدوادار ، وباشر أيضا ديوان الأمير كسباى المحتسب ، وكان لا بأس به .

ومما وقع من الحوادث الشنعة ، أن امرأة مسلمة ثبتت مع شخص يهودى ، فلما شاع أمرهما قبض على اليهودى وعلى المرأة ، وعلى المكارى الذى أركب المرأة ، وقبض على شخص اسكافى كان واسطة بين المرأة واليهودى ، فلما عرض امرهم على ملك الأمراء ، أمر بضربهم بالمقارع ، وسجن المرأة بالحجرة ، وسجن اليهودى بالديلم ، حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وفيه قدمت الأخبار من حلب : أن عبد الرزاق أخا على دولات ، وثب على ابن أخيه سوار ، وقد التفت عليه جماعة من التركمان البياضة والأكراد .

فحصل بينهما واقعة مهولة ، فقتل بها جماعة كثيرة من التركمان ، وأشيع قتل سوار فى المعركة ، وقد ملك عبد الرزاق من سوار الابلستين والمرعش وغير ذلك من البلاد ، واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين ثمانية أيام ، وانتصر عبد الرزاق على سوار ، ثم خمدت هذه الاشاعات من بعد ذلك كأنها لم تكن .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى هذا الشهر تزايد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وبلغ سعر القمح ثلاث أشرفيات كل أردب ، وبلغ سعر الأردب الشعير أربعمائة درهم ، والفول ستمائة درهم كل أردب ، وشطح السعر فى سائر الحبوب ، وبلغ كل رطل سمن أربعة أنصاف ، والشيرج ثلاثة أنصاف كل رطل ، والأجبان قاطبة فى غاية الغلو ، واللحم الضأنى كل رطل بثمانية عشر درهما ، واللحم البقرى كل رطل بستة عشر نقرة ، وبلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل ، وبلغ سعر العسل الأسود كل رطل ثلاثة أنصاف ، وبلغ سعر الصابون كل رطل خمسة أنصاف ، وعلى هذا فقس سائر البضائع والغلال وغير ذلك ، حتى بلغ سعر الراوية من الماء أربعة أنصاف ، وعم هذا الغلاء أنواع القماش قاطبة ، البياض والملون والحرير والصوف والجوخ ، وغير ذلك من القماش .

وسبب ذلك الغش فى المعاملة من الذهب والفضة ، وصار الأشرفى البرسبيهى يصرف بثلاث أشرفيات فضة ، والأشرفى القايتباهى يصرف بأشرفيين وثمانية أنصاف ، والأشرفى الغورى يصرف بأشرفيين وأربعة أنصاف ، وكذلك الأشرفى العثمانى ضرب الخنكار . وأما الفضة فجميعها فى غاية الغش والفساد ، وصار

النـاس فى أمر مريب بسبب ذلك . وقد تغيرت أحوال الديار المصرية تغيرا فاحشا الى الغاية ، وفوق ذلك جور التركمان فى حق أهل مصر من الخطف والنهب ، وأخذ أموال الناس بغير حق ، وخطف النساء والمرد من الطرقات .

ومن الوقائع الغـريبة ، كائنة الشيخ محمد الرشيدى الذى كان ناظر الكسـوة ، وناظر الجوالى وغير ذلك من النظارات ، وكان الخنكار قرره فى ذلك ، وقد سعى له حليم جلبى فى ذلك ، وكان من جماعة الخنكار ، فاستمر على ذلك . ثم سعوا فى الرشيدى من عند ملك الأمراء ، فأخرج عنه ما كان بيده من النظارات ، فحصـل له غاية القهـر ، فاختفى وخـرج فى الدس صحبة بعض الهجانة على أنه يتوجه الى الخنكار يشكو له ملك الأمراء الذى أخرج عنه النظارات التى كان الخنكار قرره فيها ، فلما وصل الى قطيا قبض عليه نائب قطيا ، وعلى الهجان الذى كان صحبته ، وقال له أمعك مرسوم ملك الأمراء ، فقال انما رسم لى مشافهة ، فضيق عليه نائب قطيا ، فاعترف الرشيدى أنه خرج هاربا من ملك الأمراء . فقبض عليه نائب قطيا ووضعه فى الحديد ، وأشيع أنه شنق الهجان هناك ، وأرسل الرشيدى فى الحـديد الى ملك الأمراء . فلما وقف بين يديه وبخه بالكلام ، وقال له أنت تتوجه الى الخنكار وتشكونى له . ثم ان ملك الأمراء رسم بسـجن الرشيدى فى العرقانة التى هى داخل الحوش السلطانى .

وفيه أرسـل ملك الأمراء بالقبض على شخص يسمى محرات مقدم ، كاشف الغربية ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الفلاحين ، واشيع عنه أنه ضرب شخصاً من الفلاحين حتى مات تحت الضرب ، فلما مثل بين يدى ملك الأمراء أمر بتوسيطه فوسطوه فى باب زويلة .

وفى ذلك اليوم رسم ملك الأمراء بشنق اثنين من الكملية لأمر أوجب ذلك .

ومن الحوادث أنه فى يوم الثلاثاء سادسه ، وقع للأمير قايتباى الدوادار واقعـة مهولة ، وهى أنه سار الى نحو المطرية وعاد ، فلما دخل من باب النصر ، وجد عند وكالة الصابون بعض الانكشارية قد أخذ من شخص يبيع الصابون خمسة أرطال ، ودفع اليه ثمانية أنصاف ، وكان الصـابون قيمته أشرفيا ، فلما رأى صاحب الصابون الأمير قايتباى الدوادار تعلق بلجام فرسه ، وقص عليـه قصته ، وكان الانكشارى ضرب صاحب الصـابون حتى أدمى وجهـه ، فأرسل الأمير قايتباى مع صاحب الصابون بعض مماليكه الى الانكشارى لعله يعطى صاحب الصابون شيئا فوق ذلك القدر ، فلما قابل ذلك المملوك الانكشارى أغلظ عليـه المملوك فى القول ، فحنق منه الانكشارى فضرب المملوك على وجهـه فأدماه . ثم ان المملوك ضربه على وجهه بدبوس فأدماه ، فاتسعت الفتنـة بينهما ، فمضى الانكشارى الى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع مملوك الدوادار ، فاجتمع الجـم الكثير من الانكشارية وتوجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وهجموا عليـه ، وبأيديهم سـيوف مسلولة ، وقصدوا أن يحرقوا بيته وينهبوه فاختفى منهم . فلما بلغ الكيخية أغات الانكشارية ركب ورد الانكشارية ، وخمدت تلك الفتنة . فلما بلغ ذلك ملك الأمراء شق عليه ذلك ولام الأمير قايتباى الدوادار على ما فعله .

ثم ان ملك الأمراء أرسل طلب المملوك الذى ضرب الانكشارى وأثار هـذه الفتنة ، فلما مثل

بين يديه أمر بضربه فضربوه ضربا مبرحا ، وسجن بالعرقانه ، فسكن ذلك الاضطراب قليلا ، وصار الأمير قايتباى على رأسه طيرة من الانكشارية ، وهو مهدد بالقتل منهم فى كل يوم ، وزعم الانكشارى الذى ضرب أنه سقط منه خنجر مفضض وسيف ، وادعى أنه كان معه ثلاثون دينارا فسقطت منه ، فدفع اليه الأمير قايتباى الدوادار عشرين دينارا على ما أشيع . هكذا قيل . وصار الأمير قايتباى لا يأمن على نفسه أن يطلع القلعة وحده ، وكان يركب فى كل يوم ومعه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، ويتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ، ويقيم بها الى آخر النهار ، ثم يعود الى داره ومعه المماليك الجراكسة ، فاستمر على ذلك أياما ، ثم خمدت تلك الفتنة ولله الحمد .

وفى يوم الجمعة تاسعه ، قدمت الأخبار من حلب بأن خارجيا من التركمان يقال له جلال المهتدى ، قد تصدى لمحاربة الأمير على بن شاه سوار ، والتفت عليه جماعة كثيرة من التركمان . وكان جلال هذا من قرية بالروم يقال لها اعلاق شرى بوز ، فكان بينه وبين الأمير على بن سوار واقعة مهولة ، وقتل من التركمان بها نحو ثلاثة آلاف انسان ، وأشيع أن الأمير ابن سوار قد جرح فى وجهه بطبر ، وانتصر ابن سوار على ذلك الخارجى الذى يقال له جلال المهتدى ، وفر منه الى بلاده ، فخلع ملك الأمراء على الهجان الذى أتى بهذا الخبر ، ثم خمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن .

وفى ليلة الخميس خامس عشره ، خسف القمر ، وأظلمت الدنيا ، فأقام فى الخسوف نحو ساعة ثم انجلى عنه ذلك الخسوف .

وفى ذلك اليوم قبض القاضى بركات بن موسى المحتسب على أخى محمد بن خبير ، وضربه ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم أشهره فى بولاق . وكان سبب ذلك أنه حجز على بيع الفول ، وصار يشتريه على ذمته ويخزنه ، فشطح سعر الفول فى تلك الأيام ، وكان أخوه محمد بن خبير متحدثا فى أمر الغلال التى كانت ترد من البلاد قاطبة ، وكان محتميا بالأمير جانم الحمزاوى ، فجار على الناس بسبب بيع الغلال ، فحنق عليه القاضى بركات بن موسى وضربه كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء كان سعر الذهب العثمانى أن يصرف بأشرفيين ، وكان قبل ذلك يصرف بأشرفيين وخمسة أنصاف ، وصار البيع بيعين بيع بالذهب ، وبيع بالفضة ، فوقفت أحوال الناس بسبب ذلك .

ثم ان ملك الأمراء نادى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يرد معاملة الفضة ، وكل من ردها شنق من غير معاودة ، وكانت الفضة يومئذ فى غاية الغش كلها نحاس ، اذا باتت ليلة واحدة تنكشف كلها ، وكانت الانكشارية تدخل الأسواق وترمى تلك الفضة النحاس على التجار ، فكل من رد منها شيئا تنهب دكانه ، ويضرب ذلك التاجر حتى يأخذها غصبا على رغم أنفه ، فيأخذون منه أشرفيا ذهبا ويعطونه أشرفيين من تلك الفضة النحاس ، فحصل للناس فى ذلك غاية الضرر الشامل .

وفى يوم الجمعة سادس عشره خطب فى مدرسة الست خديجة ابنة درهم ونصف ، التى بالقرب من جامع التركمانى عند طاحون السدر ، فاجتمع هناك قضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين ، وأعيان الناس ، وخطب بها فى ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكان أصل هذه المدرسة قاعة أنشأها الدرهم ونصف ، ثم بدا لابنته خديجة أن تجعلها مدرسة ،

فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبرا ومئذنة ، وجعلت فيها خلاوى للصوفيه ، ثم أنها وقفت عليها جميع جهاتها المخلفة عن والدها ، فجاءت من محاسن الزمان ، وكان ذلك عين الصواب ، وقصدت بذلك الأجر والثواب

وفى هذا الشهر قدم جماعة كثيره من اسطنبول ممن كان نفى اليها من الأعيان بالديار المصرية ، منهم كمال الدين بن معين الدين الموقع ، وابن نصر الله ، ومرعى الذى كان من جماعة الأتابكى سودون العجمى ، وأحمد الضيروطى ، ومحمد بن فروشيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن ابراهيم الذى كان متحدثا على الزمامية ، وحضر محمد ابن القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك ، وحضر محمد بن على كاتب الخزانة ، وحضر ابن العسريطى ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرنى أسماؤهم الآن ، والكل فروا من اسطنبول من غير اذن من الخنكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفيه والحدادين والنجارين والبنائين والمرخمين وغير ذلك ممن كان توجه الى اسطنبول ، فحضر الكل هاربين من غير علم السلطان ، فلما حضروا أشيع موت ابن شقيرة التاجر الذى من سوق مرجوش ، وأشيع موت جماعة كثيرة هنالك من اعيان أهل مصر قبل ذلك . وقدمت الأخبار بوفاة جاذ بك دوادار الأمير طراباى ، وكان من وسائط السوء . وتوفى محمد ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط السوء أيضا . وتوفى محمد المسكى الذى كان من سوق الوراقين ، وتوفى هنالك جماعه كثيرة لم يحضرنى أسماؤهم الآن .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من اليهود الصيارفة ، من جماعة المعلم يعقوب اليهودى ، فضربه بالمقارع ثم قطع يده وعلقها فى عنقه ، وأشهره فى القاهرة ... وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه يشترى الفضة النحاس المغشوشة ، ويصرفها فى الجامكية ، وقد قلق العسكر من ذلك

وفى يوم الخميس ثانى عشريه ، كان دخول الشرفى يحيى ابن الأمير طراباى رأس نوبة النوب على ابنه الأمير بيبرس ابن بنت سيرين ، ولست أعلم اسم أبيه ولا جده ، وهو يزعم أنه ينتسب الى الملك الظاهر برقوق بقوله ، فكان كما يقال فى المعنى .

شبهته مثل العقاب فأمه
معلومة وله أب مجهول

فكان له مهم حافل من المهمات المشهورة ، فصرف على المحبوز فى السماط ألف دينار ، وذبح فيه اثنتى عشرة بقرة ، ومن الخيل ثلاثة أرؤس ، ومن الغنم مائة رأس . ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز مائتى زوج ، وصرف على الشمع المزهر مائة دينار ، وصرف على الخيام والتعاليق أربعين دينارا ، وعلى السقائين عشر أشرفيات ، وكان له زفة حافلة مشى فيها جماعة من الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية ، فمشوا فيها من بيت الأمير قانتباى الدوادار الى بيت القاضى عبد العظيم الذى عمل فيه العرس وكانت ليلة حافلة . وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من عمال البلاد ، فشنق على قنطرة الحاجب بعد العصر ، وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه زور مراسيم على لسان بعض المباشرين باستخراج الرزق التى بالغربية ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل أحضره ، فلما حضر أمر بشنقه من يومه ، فشنق بعد العصر وأراح الله الناس منه .

* * *

واستهل شهر جمادى الآخرة بيوم الجمعة ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رابعه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليم خان ابن عثمان ، فكان من مضمونها : انه أرسل يطلب الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وقد بلغه ما فتحه من أبواب المظالم بمصر ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس عند الخنكار ، فطلبه من ملك الأمراء عدة مرار ، وهو يتناسى عليه ، فلما رأى الطلب حثيثا فى أمره ، فما وسعه الا أن أرسله ، فخرج على وجهه فى أثناء هذا الشهر ، وسافر الى اسطنبول من البر دون البحر . وكان من وسائط السوء ظالما غشوما ، عسوفا سفاكا للدماء ، استباح أموال المسلمين ودماءهم ، فلم يتأسف لخروجه أحد من الناس ، وفرح غالب الناس لخروجه من مصر . وكان أصل كمشبغا هذا من مماليك ملك الأمراء رومى الجنس ، سيىء الخلق شديد البأس ، فلهج الناس بعدم عوده الى مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه توفيت الست فضل العزيز ، وكانت يومئذ متزوجة بالشيخ عبد المجيد الطرينى ، فكانت لها جنازة مشهورة

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع للشيخ عبد المجيد الطرينى بسبب القتيل الذى قتل ، واتهموا به جماعته ، واتسعت هذه الكائنة حتى كاد أن تخرب دياره فى هذه الحركة ، وأمرها مشهور بين الناس بما وقع له بالمحلة ، واتصل خبرها بملك الأمراء ، وكان من أمرها ما يطول شرحه ، وتعصب لأبى الصبى الذى قتل الشيخ عبد الله بن الغمرى ، وآل أمر هذه الكائنة الى مال له صورة غرمه الشيخ عبد المجيد الطرينى .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام الأمير جان بردى الغزالى تغير خاطره على قاضى القضاة الشافعى ولى الدين محمد ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقى ، فهم بقتل القاضى ولى الدين غير ما مرة ، ففر منه واختفى مدة طويلة ، ثم ظهر بعد ذلك بمدينة حلب ، قيل انه كاتب ابن عثمان بما وقع له مع الغزالى ، فأرسل اليه مرسومه بأن يلى قضاء الشافعية بحلب ، فاستقر بها وأرسل لاحضار عياله وأولاده من دمشق ، وتزوج بالست حلية زوجة القاضى محمود كاتب السر بن أجا ، وصار صاحب الحل والعقد بمدينة حلب ، فشق ذلك على جان بردى الغزالى نائب الشام ، ولولا أن تدارك القاضى ولى الدين وفعل ذلك لقتله الغزالى لا محالة .

وكان سبب الوحشة بينه وبين الغزالى ، أن الغزالى قبض على شخص من المباشرين ، فوجد معه ثلاث مطالعات متوجها بها الى الخنكار : احداها بخط القاضى ولى الدين الشافعى ، والأخرى من عند شخص يسمى المظفرى شيخ المدرسة التى أنشاها الخنكار بدمشق ، والثالثة من عند نائب دمشق ، فكان من مضمون تلك المطالعات عدة شكاوى الى الخنكار فى الغزالى نائب الشام ، بأنه قد أظهر العصيان وهو يعمل فى برق عظيم ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة . فلما بلغ ذلك القاضى ولى الدين ، فر من الشام واختفى ، حتى ولى قضاء حلب ، وأمره مشهور ، وصار الغزالى فى قهر من القاضى ولى الدين ، وقيل انه شنق المظفرى ،

وشنق الهجان الذى وجدت معه تلك المطالعات ، ولو ظفر بالقاصى ولى الدين لشنقه أيضا

وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى محيى الدين البلبيسى احد نواب الشافعية وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره توفيت زوجة المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكانت چركسية الجنس تدعى شهددار ، وكانت بديعة فى الحسن والجمال من أجل النساء حسنا ، فافتتن بها المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان حتى شغلته عن أحوال المملكة ، قيل انها كانت تحسن الضرب بالسبع آلات المطربة ، وهى الجنك والعود والصنطير والقانون والدريج والكمنجا والصينى . وكان أصل شهددار هذه من جوارى ابنة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير ، فادعت انها معتوقة فتزوجها الشهابى أحمد بن الجيعان ، وأمهرها مائتى دينار ، ودخل عليها فأحبها حبا شديدا دون نسائه ، وافتتن بها الى الغاية ، وأقامت عنده مدة طويله ، ثم تبين بعد ذلك انها فى رق ابنه الأمير يشبك الدوادار ولم تعتق ، وصار الحق فيها الى بنت الأمير يشبك الدوادار ، فاشتراها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان من الورثه بخمسمائه دنار ، وقاسى بسببها مشقة عظيمه زائدة ، فأقامت عنده مده ، ثم انها مرضت وتزايد بها المرض حتى ماتت ، فحصل له عليها حزن شديد وتأسف عليها حتى كاد أن يموت من الحزن ، واستمر مقيما بالتربة أياما ، وبادر اليه الناس بالتعزيه والسلام عليه ، وصنع عدة مآتم ، واجتمع هناك القراء والوعاظ ، وعمل فيها الشعراء عدة مراث بديعة ، قيل لما توفيت زوجه زين الدين عمر بن الوردى أنشأ يقول :

اذا ما زوجة الانسان ماتت
فما بقيت لمسكنه سكينه
وكيف يطيعه نظم ونثر
ولا بيت لديه ولا قرينه

ويقرب من هذه الواقعة التى وقعت للشهابى أحمد بن الجيعان ، ما وقع ليزيد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك أن أحد الخلفاء الأموية قد اشترى جارية مولدة من مولدات البصرة ، وكانت تسمى حبابة ، اشتراها بألف دينار ، وكانت تشتمل على جملة من المحاسن ، منها أنها كانت تضرب بالعود والجنك والقانون وسائر آلات الطرب ، وتحسن الغناء الجيد وتنظم الشعر ، وتحسن العربية ، ولها خط جيد ، وتلعب بالنرد والشطرنج ، وكانت بديعة الجمال ، فافتتن بها يزيد بن عبد الملك وأحبها حبا شديدا حتى أنها شغلته عن أمور الخلافة والنظر فى أحوال الرعية ، فاتفق له فى بعض الأيام أنه توجه الى بستان فى دمشق ، وصحبته تلك الجارية ، وقال لوزرائه وحجابه اذا كان الغد فلا يخبرنى أحد منكم بشيء من أمور المملكة ، ولا بكتاب يرد من سائر الجهات قاطبة

فلما استقر بالبستان أحضر سفرة الشراب ، ودارت بينهما الكاسات ، ولم يكن فى المجلس غير يزيد وحظته حبابة ، فبينما هما فى أرغد عيش ، اذ تناولت حبابة رمانة لتأكلها فشرقت بحبة من الرمان ، فوقفت فى حلقها فانخنقت واضطربت اضطرابا شديدا ، فخرجت روحها فى الوقت والساعة فلما عاين يزيد ذلك كادت روحه أن تزهق من جسده ، وتأسف على حبابة غاية الأسف .

قيل لما ماتت أقامت سبعة أيام لم تدفن وهى بين يديه يشاهدها ويقبلها ويقول ما نظرتها فى عينى أحسن من اليوم ، فلما جافت وتغيرت هيئتها ، ركب

ثيابه آثاره وأين [illegible] ما قبله ، وأخذوا تلك الجارية و[illegible] وخنقوها ، واستمر يزيد في التأسف والحزن حتى مات بعدها بمدة يسيرة .

وفي هذا الشهر اضطربت أحوال القاهرة ، [illegible] المعاملة في الذهب والفضة ، وجعل ملك الأمراء على الأشرفي الانكشارية بسبب صرف الذهب [illegible] بأكثر من أشرفين فضة ، واشيع أن شخصا حجازيا من الصيارفة صرف أشرفيا ذهبا بأشرفين فضة وخمسة أنصاف ، فرسم ملك الأمراء باشهاره في القاهرة وخزم أنفه ، وعلق فيها الميزان ثم شنقه فراح ظلما

وفيه توفي محمد الريس فتات العنبر رئيس المجبلين ، وكان أستاذا في صنعة الحيال ، وكان فاق على بريوه في هذا الفن .

وفي يوم الاثنين خامس عشريه قدم ابن الشريف بركات أمير مكة وهو الذي يسمى تتيه وصحبته صهره عرار ، فلما حضر خرج امراء الجراكسة والأمراء العثمانية الى ملاقاته ، فدخل القاهرة في موكب حافل ، وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط ، فلما صعد الى القلعة تلقاه ملك الأمراء من وسط الحوش السلطاني ، وبالغ في اكرامه الى الغاية ، وخلع عليه قفطانا ، وخلع على من معه من العربان وأنزلهم في مكان أعده لهم .

وفيه توفي الأمير طقطباى استادار الصحبة ، أحد الأمراء العشراوات ، فلما مات دفنه ملك الأمراء في مدرسته التي بباب الوزير .

* * *

واستهل شهر رجب بيوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم . وفي ذلك اليوم قرىء كتاب الشريف بركات أمير مكة بحضرة القضاة ، فكان من مضمونه أنه أرسل يطلب من ملك الأمراء استقرار قاضي القضاة الشافعية بمكة صلاح الدين ابن ظهيرة على عادته فأجيب الى ذلك . ثم عين في ذلك اليوم قاضي مالكي وقاضي حنبلي الى المدينة الشريفة ، وانفض المجلس على ذلك .

وفي يوم الأربعاء خامس رجب ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرة أصابع ، وكانت في العام الماضي أرجح من ذلك بعشرة أصابع .

وفي يوم الخميس سادسه ، رسم ملك الأمراء بشنق شخص من اعيان الاصباهيه وكان من أكبر المفسدين ، يخطف النساء والمرد والعمائم القلهسر الاحمر ولا يجد من يرده عن ذلك ، فلما كثرت فيه الشكاوى تعصب على شنقه ملك الأمراء ، وهو الذي احد أمراء ابن عثمان ، وقام في ذلك غاية القيام ، وأغلظ على ملك الأمراء في القول ، وقال له الخنكار مايدرى بشيء من ذلك ، فلما شنق ذلك الشخص عز على الاصباهية وتأسفوا عليه ، وأنزلوه عن المشنقة وغسلوه وكفنوه ودفنوه وقيل شنق معه في ذلك اليوم اثنان من الاصباهية ، وكانا من كبار المفسدين ، وهما اللذان توجها الى بيت شاد البرلس ، ونهبا ما فيه وسبيا حريمه ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ، وتقدم القول على هذه الواقعة .

وفي يوم الثلاثاء حادي عشره ، خرج قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة وعزل عنها وجرت عليه شدائد ومحن ، وسجنه ملك الأمراء بالعرقانة وقيده ، ثم ان الخنكار ابن عثمان أرسل طلبه فتوجه الى اسطنبول وسافر اليها في ذلك اليوم .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن ملك الأمراء تكلم مع القضاة الأربعة بأن يخففوا من نوابهم ، وأغلظ عليهم في القـول ، فاقتصر قاضي القضاة الشافعي على خمسة عشر نائبا ، وأما القاضي الحنفي فانه عزل نوابه كلهم واقتصر على اثنـين ، وهما شهاب الدين بن شبرين ، وابن بنت البدري محمد ابن الدهان ، الذي كان شيخ الجامع المـؤيدي . فاما القاضي المالكي فاقتصر على سبعة من النواب ، وأما القاضي الحنبلي فاقتصر على سبعة من النواب أيضا ، ولم يتم ذلك فيما بعد ، وحصل للنواب في هذه الحركة غاية الضرر . وكان سبب ذلك أن نائبا من نواب القاضي الحنفي طلب امرأة الى الشرع فامتنعت من الحضـور ، فقبض عليها القاضي ، وضربها نحو ثمانين عصا ، وقع له مثل ذلك مرتين . ثم ان امرأة طلعت وشكته الى ملك الأمراء فمقت القضاة بسبب نوابهم وما يفعلونه ، وقال لهم اعزلوا جماعة من نوابكم المناجيس .

وفيه توفي الأمير ماماي الساقي أحـد الأمراء العشراوات الطبلخانات ، وكان أصله من مماليك السلطان الغوري ، وكان رئيسا حشما لابأس به فنزل ملك الأمراء وصلى عليه وكانت جنازته حافلة .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، كان ختان ولد القاضي شهاب الدين أحمد بن شبرين أحد نواب الحنفية ، فكان له زفة حافلة ، مشى فيها أعيان الناس من المباشرين وغير ذلك .

* * *

واستهل شـهر شعبان بيوم الاثنين ، فصـعد القضاة الأربعة وهنؤا ملك الأمراء بالشـهر ، ثم عادوا الى دورهم . وفيه كانت كائنة محب الدين ابن أصيل الكفيف . فكان من ملخص واقعته أنه كان بيده مشيخة المدرسة الشيخونية والجمالية ، أخـذها بنزول شخص من القضاة عنها فأقامت بيده مدة ، ثم انتدب له من رافعه ، وقال له شرط الواقف أن تكون مشيخة الجمالية لأعلم علمـاء الشافعية ، وأنت شخص عار من العلم ، فأخرجه ملك الأمراء ، وقرر بها شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعي ، فشق ذلك على محب الدين بن أصيل ، وحصل له غاية البهدلة من ملك الأمراء وقصته مشهورة بما جرى له

وفيه وقعت كائنة عظيمة للأمير الماس أخي أمير آخور كبـير قرقماس ابن ولي الدين ، وكان من ملخص هذه الواقعة أنه كان عند الأمير المـاس مملوك عايق يتزيا بزي العثمانية ، ويخرج بالليل يقطع الطريق ويخطف العمائم ، وقد وجدنا هذا المملوك يقطع الطريق في بولاق وغيرها من الأماكن فقال ملك الأمراء هذا مملوك من ؟ فقيل له مملوك الأمير الماس ، فقال له ملك الأمراء ليش ماكنت ترجع مملوكك عن الفساد ؟ فقال الماس ما كان يسمع لي . فقال ملك الأمراء ليش ما كنت شكوته لي وأنا كنت أنصفك منه . فطال بينهما الكلام . ثم ان الأمير الماس أغلظ على ملك الأمراء في القول فحنق منـه فبطحه على الأرض ، وضربه ضربا مبرحا حتى عاين الموت ، قيل ضربه عشر نوب . ثم رسم بنفيه الى منفلوط ، وقيل الى قوص ، ثم رسم بتسليم ذلك المملوك الى الوالي ليعاقبه ، وخرج الأمير الماس منفيا من يومه

وفيـه قبض ملك الأمـراء على شخص من الصـيارف الحجازيين ، وكان يجلس عند شخص بسوق الباسطيين ، فلمـا قبض عليه رسم بشنقه فشفع فيه خير الدين نائب القلعة ، وغرم مبلغا له صـورة ، حتى سلم من الشنق ، ولا ذنب عليه يوجب ذلك سوى انه خالف المناداة وصرف أشرفيا ذهبا بخمسة وخمسين نصفا بزيادة خمسة أنصاف فكاد أن يشنق ظلما .

وفيـه رسم ملك الأمراء بشنق خمسـة أنفار مسكهم شيخ العرب ابن أبي الشوارب ، زعم أنهم

كانوا من أكابر المنسر وأعيان المفسدين . فلما قبض عليهم ابن أبى الشـوارب ، أرسـل كاتب ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب . فأحضرهم الى القاهرة ، فرسم ملك الأمراء بشنقهم ، فشـنقوا . وشنق فى ذلك اليوم شخص من النـاس زعموا أنه سرق ازارا ونقـابا وشعرية فراح ظلما . وكان ملك الأمراء عجولا فى أمر القتل .

وفيه نزل ملك الأمراء وسار الى نحو بلقس ، ثم رجع من هناك ودخـل من باب النصر وشـق القاهرة ، فلما شق منها لم يدع له أحد من الناس بالنصر ، ولا زغرتت له النساء من الطيقـان ، بل أغلظ عليه بعض العوام ، وقال له انظر فى أحوال المسلمين بالشفقة بسبب الخبز والدقيـق ، وسائر الأسعار ، فان البضائع متشحطة .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى القاضى شمس الدين محمد بن عبد الكافى ، أحد نواب الشافعية ، وكان من أعيان النواب ، وكان ضـخم الجسد مثقـلا بالشحم جدا .

وفى يوم الأربعـاء عاشره كان أول مسرى من الشهور القبطية ، ففيه زاد الله فى النيل المبـارك عشر أصابع ، فسر الناس بذلك ، وكان فى أول الزيادة صار يسلسل فى الزيادة أصبعا أصبعا على عشرة أيام متوالية ، ثم فى اليوم الثانى من مسرى زاد الله فى النيل المبارك خمس عشرة أصبعا فى دفعة واحدة فسر الناس بذلك الى الغاية

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد النصف من شعبان ، فأقرأ ملك الأمـراء فى تلك الليلة ختمة بالقلعة ، واستدعى القضـاة الأربعة . فلما تكامل المجلس شرع قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى تتكلم مع ملك الأمراء بأن يشفع فى الفـاصى نور الدين على الفيومى ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه فنفاه الى دمنهور ، وأقام بها مدة طويلة . فلما شفع فيه القاضى المالكى رسم باحضاره من دمنهور ، وكان أحد نواب الحنفية فكثرت فيه الشكاوى ، وكان غير محمود السيرة

ثم فى ذلك المجلس شفع قاضى القضاة المالكى أيضا فى شمس الدين محمد السرماجى ، فتوقف ملك الأمراء فى أمره قليلا ، وعد له جملة مساوى ، فلا زال قاضى القضاة يتلطف به حتى رضى عليه ، وكان منعه أن يعمل قاضيا أو شاهدا ويلزم بيتـه دائما ، فكتب عليه قسامة بذلك فرضى .

ثم ان قاضى القضاة شـفع فى نور الدين على الحسنى المعـروف برصاص المؤذن بأن تعـاد له وظائفه التى كانت فى المدرسـة الغورية ، وكانت خرجت عنه لما توجه الى اسطنبول وأقام بها ، فلما شـفع فيـه رسم له باعادة وظائفـه التى كانت بالغورية ، وكان قاضى القضاة المالكى عنـد ملك الأمراء من المقربين ، وكان يحضر مجلس محاكماته فى كل يوم سبت ، ويفصل المحاكمات بحضرة ملك الأمراء ، ورأى فى أيامه غاية العز والعظمـة فوق ما رآه قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فى أيام الملك الأشرف قانصوه الغـورى ، فعد من النوادر اطاعة ملك الأمراء لقاضى القضاة المالكى فى جميع ما كلمه فيه فى ذلك المجلس بالاجابة ، ولم يرد له شفاعة فى ذلك المجلس فى أمر من الأمور

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأن الأمير جانم الحمزاوى ، لما وصـل الى اسطنبول ، قابل الخنكار وقبل منه الهدية التى أرسلها معه ملك الأمراء ، وأكرمه الى الغاية ، وأذن له بالعود الى مصر ، وهو واصل عن قريب .

وأشيع فى الأخبار الواردة من اسطنبول ، أن جماعة من الأعيان تسحبوا من اسطنبول ، منهم القاضى علاء الدين ناظر الخاص على ابن الامام ، وأخوه محمد ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وأخوه يحيى أولاد ابراهيم المستوفى . وبهاء الدين ابن البارزى وجلال الدين بن الشبراوى وآخرون من المباشرين الذين هناك . فلما بلغ الخنكار تسحبهم من اسطنبول ، شق عليه ذلك وأرسل خلفهم ستين شاويشا ، فقبضوا عليهم من أثناء الطريق ، ووضعوهم فى الحديد ، وقاسوا من البهدلة والاخراق بهم ما لا يمكن شرحه ، ودخلوا بهم الى اسطنبول ، وهم مشاة فى الحديد ثم سجنوهم ولا يعلم ما جرى لهم بعد ذلك .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفرنج توجهوا الى مدينة جربة — وهى من أجل المدن — ثم ان جماعة من ملوك الفرنج حاربوا من بها من ملوك الغرب ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل بها من الفريقين نحو ثلاثين ألفا ، وكانت النصرة لصاحب جربة على ملوك الفرنج ، وغنموا منهم أشياء كثيرة .

وفى يوم السبت عشريه ، خلع ملك الأمراء على ابن الشريف بركات أمير مكة ، وخلع على صهره عرار وأذن لهما بالعود الى بلادهما ، فكان لهما موكب حافل . فلما شقوا من القاهرة كان صحبتهما الأمراء الچراكسة والأمراء العثمانية والجم الكثير من الانكشارية يرمون بالنفوط ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد قاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين الفتوحى المعروف بابن النجار ، فكان له زفة حافلة ، مشى فيها جماعة من الأعيان ، لكن قصر وصفها عن زفة أولاد قاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى ، وابن العصام المنجلى .

ومن الحوادث الشنيعة ، أن شخصا يقال له محيى الدين بن مشرى البزددار . له ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكنا فى المراغة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان على رأس تلك البنت كوفية ذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة ، وكان لهم جار صبى أمرد يعمل صنعة القمريات ، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التى على رأس البنت ، فلعب بعقلها وقال لها أمك فى السيدة نفيسة وأرسلت تطلبك هناك ، فمضت معه وأخذ معه عبدا أسود ، فلما مضوا توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة ، فذبحوها هناك وحملوها وألقوها فى فسقية موتى هناك ، وأخذوا الكوفية التى على رأسها ، وتركوها تتلعبط فى دمها ، فأقامت هناك يوما وليلة ، فكثر التفتيش عليها من أمها وأبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار على الكوفية الذهب التى كانت على رأس ابنته ، فاذا رأوها فليأتوه بها .

فبينما هو فى الصاغة واذا بالصبى الأمرد الذى أخذ الكوفية وذبح البنت فى الصاغة ومعه الكوفية ، فأشهرها فى المناداة ، فتناهى سعرها الى أربعين أشرفيا ، فقال له بعتك فقال له الدلال أحضر لك ضامنا ثقة فلم يجد من يضمنه ، فقبضوا عليه ، وأحضروا أبا البنت فقبض عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشبغا ، فلما عرضوه على الوالى ضربه بعض عصى فأقر أنه أخذ الكوفية عن رأس البنت وذبحها ورماها فى فسقية موتى خلف مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فقالوا له امض معنا وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه ، فخرج معهم وهو فى الحديد ، وأتى بهم الى تلك الفسقية التى

رماها بها ، فنزل أبو البنت اليها فوجدها راقدة وهى مذبوحة وفيها بعض روح ، ولم ينقطع وريدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل فأحضر الجميع بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبى ، وما جرى له مع البنت ، فحزن عليها ملك الأمراء وقال لها من فعل بك هكذا فأشارت الى الصبى والعبد الأسود الذى على باب البيت الذى منه البنت ، وأحضروا للبنت من قطب لها مكان الذبح الذى برقبتها ، وعاشت بعد ذلك وبرئت من الذبح ، فعد ذلك من العجائب والنوادر الغريبة .

قيل ان البنت لما رماها الصبى فى الفسقية وهى مذبوحة ، حكت لأمها وقالت لما مت فى الفسقية دخلت على امرأة وعلى وجهها برقع ، وقالت لا تخافى أنا السيدة نفيسة ، وغدا أخلصك من هذا المكان ، ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال ، وسكن روعى مما كنت فيه . وهذه الواقعة قد اشتهرت فى القاهرة .

* * *

وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم رجعوا الى دورهم . وفى ليلة الرؤيا توجه القاضى بركات بن موسى المحتسب الى المدرسة المنصورية التى بين القصرين واجتمع القضاة الأربعة هناك ، فلم تثبت رؤيا الهلال الا بعد العشاء ، فلما رجع القاضى المحتسب الى داره ، لاقاه ابن عوض بالفوانيس ، وعدة مشاعل كثيرة ، وكانت له ليلة حافلة .

ومن العجائب أن النيل المبارك كان على وفاء ، ولم يتأخر عليه غير أربع اصابع ، فأشيع بعد العصر أن النيل نقص فى تلك الليلة أصبعين ، فاضطربت أحوال الناس بسبب ذلك . وكان قد مضى من مسرى أحد وعشرون يوما ، ولم يف النيل ، وكانت أسعار الغلال والبضائع كلها فى غاية الارتفاع ، فكان كما يقال فى المعنى :

رب وف النيل انا	منه فى كرب وبلوه
ما بقى للناس صبر	يحملون اليوم غلوه

فاستمر النيل فى هذا التوقف على أربع أصابع ، وقيل نقص بعد ذلك أربع أصابع ، فاستمر على ذلك خمسة أيام لم يزد فيها شيئا ، فرسم ملك الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الصوفية بأن يتوجهوا الى المقياس ، ويبتهلوا الى الله تعالى بالدعاء فى وفاء النيل ، فتوجه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى الحنفى الطرابلسى ، والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، ومن مشايخ الصوفية الشيخ محمد المنير وغير هؤلاء من مشايخ الصوفية ، فلما توجهوا هناك وباتوا بالمقياس نقص النيل فى تلك الليلة أصبعين فصار النقص ستة أصابع ، ثم نقص عشرة أصابع ، وكان تأخر عن الوفاء على أربع أصابع ، ونقص من بعد ذلك عشر أصابع فصار النقص أربع عشرة أصبعا عن الوفاء .

فلما كان يوم الأحد سادس رمضان ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى المقياس ، وكان قد مضى من مسرى ستة وعشرون يوما ، فأقام ملك الأمراء فى المقياس ذلك اليوم ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاضرين من الفقهاء فقرءوا فيها عشرين دورا ، ثم قرءوا صحيح البخارى هناك .

وأشيع أن ملك الأمراء فرق هناك على الفقهاء مالا له صورة ، وأحضر الأطفال الأيتام وفرق عليهم

مبلغا له صورة ، وأحضر من الآثار الشريفة القميص من المدرسة الغورية ووضعه فى فسقية المقياس ، وغسلوه فى الماء الذى بها ، وكثر هناك الضجيج والبكاء والتضرع الى الله تعالى بالزيادة ، فأقام ملك الأمراء فى المقياس الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة ، فلما طلع أمر باطلاق من فى السجون من الرجال والنساء والأطفال ، فأطلق منهم نحو ثمانين انسانا ، ونزل الى القرافة وزار من بها من الصالحين ، وفرق على الزوايا التى هناك مالا له صورة ، وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء كثيرة ، وما أبقى فى ذلك ممكنا .

فلما كان يوم الأربعاء ، الموافق لتاسع عشرى مسرى ، عول ملك الأمراء على أن يخرج الى الاستسقاء وصحبته الناس قاطبة يوم الخميس ، وقد تزايد قلق الناس الى الغاية ، واشتد الأمر عليهم بسبب نقص النيل عند ليالى الوفاء وقد قال القائل فى المعنى :

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا
ودب القحط فينا من أبيب
ولم أضرع لمخلوق لأنى
وجدت الله أشفق من أبى بى

وفى هذه الواقعة يقول الأديب البارع الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وقد أجاد حيث قال :

أسبل النيل من عيونى عبره
مذ أرانى من التنقص عبره
يالها عبرة ثوت بفؤادى
ورمت بالهموم فى القلب جمره
شهر مسرى تسع وعشرون يوما
فيه فات الوفا فأين المسره
ربنا الطف بالخلق فى النيل واطلق
بزياداته من النقص أسره
واشرح الصدر بالوفا منك واسبل
ياسميع الدعا بفضلك ستره
واجعل الأرض منه فى خير خصب
ورخاء واجبر بلطفك كسره

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشرى مسرى ، طلع ابن أبى الرداد الى ملك الأمراء بعد الظهر وبشره بأن النيل قد زاد من النقص ثلاث أصابع ، فسر ملك الأمراء بذلك . وقيل أنعم عليه بمائة دينار وفرس وألبسه قفطانا مخملا مذهبا ، وأنعم على الصبى الصياح الذى ينادى على البحر بجوخة حمراء . فلما أشيع ذلك سر به الناس قاطبة ، وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكانت فرحة عامة لجميع الناس قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة حادى عشر رمضان الموافق لأول أيام النسىء زاد الله فى النيل المبارك خمس أصابع ، فسر الناس بهذه الزيادة ، وقد تأخر عن الوفاء ست أصابع ، فكانت مدة توقفه عن الزيادة ثمانية أيام متوالية ، حتى يئس الناس من طلوعه فى هذه السنة .

ثم فى ليلة السبت وفى الله الستة عشر ذراعاً وفتح السد فى يوم السبت ثانى عشر شهر رمضان الموافق للثانى من أيام النسىء ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا وأصبعين من السابع عشر ، وقد فات الوفاء عن ميعاده حتى مضت مسرى ، ودخلت أيام النسىء ... ولكن تقدم أن النيل تأخر عن الوفاء الى سادس أيام النسىء ، وذلك فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، وبلغت الزيادة فى تلك السنة ستة عشر ذراعا ثم هبط سريعا ولم يثبت ،

فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . واتفق مثل ذلك أن النيل وفى فى آخر أيام النسىء ، فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وكان نيلا شحيحا لم يثبت ، وشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . نقل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه .

فلما وفى النيل نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة وفتح السد ، وكان يوما مشهودا ، كما وقع له فى السنة الخالية . وكان الوفاء على غير القياس مما جرى على النيل فى هذه السنة ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال فى المعنى :

الحمد لله زاد النيل وانشرحت
صدورنا وأرانا بشره فرحا
والقلب أصبح بعد الكسر منجبرا
والأمر أمسى عقيب الضيق منفسحا

وقال آخر :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم
ماأحسن الستر قالوا العفو مأمول
ستر الآله علينا لا يزال فما
أحلى تهتكنا والستر مسبول

وفى يوم الأربعاء سادس عشر رمضان كان أول النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية ، وهى سنة ست وعشرين وتسعمائة خراجية ، ففى ذلك اليوم زاد الله النيل المبارك سبع أصابع ، فأوفى الله السبعة عشر ذراعا وأصبعا من الذراع الثامن عشر ، فسر الناس بذلك .

وفى يوم السبت سادس عشريه قدمت الأخبار بأن الأمير جانم الحمزاوى قد وصل الى قطيا ، وقد تقدم القول أنه كان توجه الى السلطان سليم خان ابن عثمان ، وصحبته تقدمة حافلة من عند ملك الأمراء الى الخنكار ابن عثمان ، فلما قابله أكرمه وخلع عليه ، وقبل منه تلك التقدمة فأقام هنالك مدة . ثم ان ابن عثمان رسم للأمير جانم بعوده الى مصر ، وكان أكثر الناس جزموا بعدم عوده الى مصر ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما أشيع وصوله الى قطيا خرج أعيان الناس الى ملاقاته ، وخرج الأمير ناصر الدين محمد المهمندار والأمير برسباى الدوادار وسائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى رمضان ختم صحيح البخارى بالقلعة على العادة ، وفرقت الصرر على الفقهاء ، ومن له عادة ، وخلع على قضاة القضاة .

وفى يوم الاثنين ثامن عشريه ، دخل الأمير جانم الحمزاوى الى القاهرة ونزل بتربة العادلى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشريه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى تربة العادلى ، ونزل على المصطبة التى هناك ، ولبس خلعة الخنكار التى أرسلها له على يد الأمير جانم الحمزاوى باستمراره فى النيابة بمصر ، وهى قفطان بتماسيح على مخمل أحمر ، فركب من هناك ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الأمراء الجراكسة ، ومن الأمراء العثمانية ، والعساكر الاصباهية والانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، ولاقاه طائفة من النصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية .

ولما وصل الى قبة الأمير يشبك التى فى رأس الحسينيه لاقاه القضاة الأربعة ، فكان القاضى الشافعى عن يمينه ، والحنفى عن يساره ، والمالكى والحنبلى قدامه ، والأمير جانم الحمزاوى قدامه ، وعليه قفطان مخمل مذهب كان ألبسه له الخنكار فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا . فكانت مدة غيبة الأمير جانم الحمزاوى فى اسطنبول عند الخنكار ستة أشهر ، وقيل انه قابل الخنكار فيها مرة واحدة .

وأما ترجمة الأمير جانم الحمزاوى فهو جانم بن يوسف بن آركماس السيفى قانى باى الحمزاوى نائب الشام ، كان من أعيان أبناء الناس ، وقد رقى فى دولة ملك الأمراء خاير بك حتى صار صاحب الحل والعقد بمصر ، وصار فى مقام أمير كبير بمصر .

ولما استقر الأمير جانم الحمزاوى فى داره أشيع بين الناس أنه أخبر أن الخنكار ابن عثمان تغير خاطره على الخليفة محمد بن يعقوب المتوكل على الله الذى توجه الى اسطنبول ، فلما تغير خاطره عليه أخرجه من اسطنبول على غير صورة مرضية وهو فى غاية ما يكون من البهدلة ، ونفاه الى مكان عسر يسمى السبع قلبات ، قيل ان بينه وبين اسطنبول سبعة أيام ، وهو المكان الذى يضع فيه الخنكار أمواله وتحفه لكونه فى غاية التحصين .

وقد اختلف فى سبب تغير خاطره عليه ... فمن جملة الأقوال أن أولاد ابن عمه خليل رافعوه بسبب اقطاع الخلافة أن يعطيهم منها الثلث ويأخذ هو الثلثين فأبى من ذلك . الثانى أن الخليفه طاش هناك وصار ينهم العيش جهارا ، واشترى له جوارى يضربن له بالجنوك ، وفتك فى البسط والانشراح غاية الفتك ، فبلغ ذلك الخنكار فتغير خاطره عليه ، وكان الوزراء مساعدين أولاد عمه خليل ، ومحطين على الخليفة . الثالث أن جماعة كثيرة من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، تسحبوا من هناك ، منهم بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وتسحب آخرون من الأعيان ، فخشيت الوزراء أن الخليفة يتسحب من هناك فضيقوا عليه والله أعلم .

❊ ❊ ❊

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة وصلوا مع ملك الأمراء صلاة العيد ، وخطب بهم قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة ، وكان موكب العيد موكبا حافلا .

وفى يوم الأحد رابع شوال ، جلس ملك الأمراء بالدهيشة ، وأرسل خلف القضاة الأربعة ، وأرسل خلف أعيان التجار ومشايخ الأسواق بسبب أمر المعاملة فى الذهب والفضة ، فلما تكامل المجلس قام ملك الأمراء ودخل الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، ودخل معه القضاة الأربعة ، وأرسل خلف الأمراء العثمانية ، وهم قرا موسى ، وفرحات ، وخير الدين نائب القلعة ، والقاصد الذى حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، فلما دخلوا الى الأشرفية لم يدخلها غير هؤلاء ، ولم يأذن للأمراء الجراكسة بالدخول معهم .

ثم ان القاصد أخرج مرسوم الخنكار الذى أرسله صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، فأجلس القضاة الأربعة على أربعة كراسى ، وأجلس الأمراء العثمانية على أربعة كراسى ، وقرىء عليهم مرسوم الخنكار ، وذلك على طريقة النسق العثمانى ، وكانت ألفاظ ذلك المرسوم باللغة التركية . فكان من مضمونه ما أشيع بين الناس أنه قد أرسل يأمر ملك الأمراء بالتوصية بالرعية غاية الوصية ،

وأن يصرف للمماليك الجراكسة جوامكم ولحومهم وعليقهم على العادة القديمة . وأرسل يقول لملك الأمراء أن يتوصى بأولاد الناس قاطبة ، وكل من كان له جامكية وقطعت يردها اليه . وأرسل يقول له فى اصلاح المعاملة من الذهب والفضة ، فأحضروا من حل تلك الالفاظ التركية التى فى المرسوم ، فكان هذا معناها .

ثم ضربوا مشورة فى أمر المعاملة فأشار الحاضرون على ملك الأمراء أن يبقى كل شيء على حاله من أمر المعاملة حتى يراجع الخنكار فى ذلك مرة أخرى ، بأن الذهب والفضة ينقص فى هذه الحركة الثلث ، فخرج ملك الأمراء ورسم باشهار المناداة فى القاهرة بأن كل شيء على حاله ، وأن الأشرفى العثمانى والغورى لا ينصرف بأكثر من حسبين نصفا فضة من غير زيادة على ذلك ، وأن النصف الفضة النحاس يرمى ، وما عدا ذلك يمشى . ثم انفض المجلس على ذلك ، ونزل القضاة الى دورهم ، وسكن الاضطراب قليلا فى أمر المعاملة .

وفى يوم الجمعة تاسع شوال ، قدم من البحر المالح الى ثغر الاسكندريه جماعة نحو تسعة انفار ممن كان أسر وتوجه الى اسطنبول ، فحضر فى ذلك اليوم الشيخ بدر الدين محمد السعودى المعروف بابن الوقاد أحد نواب الحنفية كان ، وحضر الشيخ كمال الدين الذى كان بزددار الامير طومان باى ، وحضر كمال الدين العائق مباشر أمير أخور كبير ، وحضر زين الدين حامل المزرة ، وحضر القاضى كريم الدين المجولى أحد نواب الشافعيه كان ، وحضر الخواجا عمر بن معزوز المغربى ، وحضر المهتار بدر العادلى ، والخواجا زين الدين العجمى ، ويوسف مناخير ، والمعلم حسين معلم المحك بدار الضرب . وكان هؤلاء باسطنبول وشكوا الى الوزراء بأن وظائفهم التى بمصر خرجت عنهم ، وقطعت جهاتهم ، وأخذ النصارى أموالهم بموجب غيابهم فى اسطنبول ، فقال لهم الوزراء : « أقيموا لكم ضمانا وتوجهوا الى مصر صحبة جماعة من الانكشارية ، والكشفوا على جهاتكم ووظائفكم ، وارجعوا الى اسطنبول على وجه الصيف » . ففعلوا ذلك وحضروا الى مصر وصحبهم الانكشارية ، وفيهم من ترك أولاده وعياله باسطنبول الى أن يرجع اليها .

ثم فى عقيب ذلك أشيع أنه حضر أيضا من اسطنبول جماعة ، منهم شمس الدين بن المرحوم المباشر ، وفرج بن البريدى ، والطواشى مسك ، وقيل ان الطواشى أقام بالشام عند الغزالى نائب الشام ، ورتب له ما يكفيه كل شهر ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وآخرون حضروا فى الخفية وصاروا يتسحبون من اسطنبول شيئا بعد شيء ويحضرون ، وكل ذلك من غير علم الخنكار ، فالله يلطف بهم .

وفى يوم الجمعة سادس عشره ، الموافق لأول يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على خمس أصابع من تسعة عشر ذراعا ، وكان فى العام الماضى ثبت على ثمانى أصابع من عشرين ذراعا ، فكان هذا النيل أنقص من النيل الماضى بذراع وثلاث أصابع ، وكان نيلا شحيحا من مبدأ زيادته الى حين هبوطه . وقد شرق غالب البلاد ، واشتد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وتكالبت الناس على مشترى القمح ، وارتفع القمح من السواحل ، وصار اذا وصل مركب قمح لاتباع ولا تشترى الا باوراق من عند المحتسب ، ولو كان ضيافة أو من الخراج ، فحصل للناس الضرر الشامل ، وارتجت القاهرة بسبب عدم القمح ، ووقع الاضطراب الشديد فكادت أن تكون غلوة كبيرة .

وفي يوم الأحد ثامن عشره توفي شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له ماماي الصغير ، ودفن في المدرسة الغورية .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان أمير المحمل الأمير جانم كاشف منفلوط والبهنسا ، فطلب طلبا حافلا على العادة القديمة كعادة الأمراء المقدمين ، وخلع على الأمير باباي أحد الأمراء العشراوات ، واستقر به في مشيخة الحرم النبوي عوضا عن الشرفي يحيى بن البرديني بحكم انفصاله عنها ، وكان قاضي المحمل في تلك السنة الشيخ فتح الدين أبو الفتح الوفائي المالكي أحد النواب بل من أعيانهم ، فحصل للحاج به غاية النفع . ولم يحج في هذه السنة من الأعيان الا القليل ، وكان أكثر الحجاج فلاحين ، ورياقة من البلاد .

* * *

وفي شهر ذي القعدة ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم . وفي يوم مستهله وقع لقاضي القضاة الحنفي الطرابلسي بين يدي ملك الأمراء بعض توبيخ بسبب نائبه كمال الدين ابن زريق ، وقد انكشف وخه في مكتوب ظهر أنه زوره وجرى بذلك أمور يطول شرحها ، فحصل للقاضي بعض مقت من ملك الأمراء ، فما وسعه الا أنه عزل كمال الدين بن زريق بحضرة ملك الأمراء عزلا مؤبدا ما دام حيا ، وانفض المجلس على ذلك .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمراء باشهار المناداة في القاهرة بسبب المعاملة في الذهب والفضة فأطلق أربعة مشاعلية ، في القاهرة ومصر العتيقة ، أن الأشرفي الذهب العثماني والغوري يصرف بخمسين نصفا من غير زيادة على ذلك ، وأن الأشرفي الذي هو ضرب جمال الدين يصرف باثنين وأربعين نصفا ، وأن الفضة على حالها لا يرد منها الا النصف المكشوف ، وكل من خالف في ذلك شنق من غير معاودة ، فسكن الاضطراب قليلا بعد هذه المناداة بعد ما كان أشيع بإبطال هذه المعاملة رأسا ، وتخسر الناس من أموالها الثلث ، فتعطل الناس من البيع والشراء أياما ، وغلقت الأسواق . فلما نادوا بإبقاء كل شيء على حاله سكن الرهج الذي كان فيه الناس .

قيل ان ملك الأمراء أرسل يشاور الخنكار ابن عثمان في أمر المعاملة اذا بلغه يتخسر الناس من أموالهم الثلث ، والأمر في ذلك موقوف على الجواب .

وفي يوم الأحد ، ثاني الشهر ، خلع ملك الأمراء على شخص من العثمانية يقال له الأمير علي الكيخيه آغات الانكشارية ، واستقر به في ولاية القاهرة ، عوضا عن كشبغا الذي كان والي القاهرة وتوجه الى اسطنبول كما تقدم .

وفي يوم الخميس سادسه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى الروضة ونصب له خياما في خرطوم الروضة تجاه مصر ابن العيني ، فنزل هناك وكان صحبته جماعة من الأمراء العثمانية والقاصد الذي حضر مع الأمير جانم الحمزاوي ، والأمير قايتباي الدوادار ، وبعض أمراء من الجراكسة ، والجم الكثير من الاصباهية والانكشارية ، فلما استقر هناك أحضر اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، قيل صرف عليها نحو خمسمائة دينار . فمن جملة ذلك أربعون خروفا شوي ، وأربعمائة صحن حلوى وعدة مطابق ضمنها مأمونية سكب ، ومأمونية حموية محشوة بسكر ، وسنبوسك بسكر ، ورخامية بسكر ، وسمك على أنواع مختلفة ، وأشياء غير ذلك

مونقة ، وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى ، وأطنان قصب ، وأحمـال نشطة وبطط جلاب ، وأحمال موز وغير ذلك ، وما أبقى ممكنا فيما صنعه فى هذه المدة من الأشياء التى تصلح للملوك ، فشكره ملك الأمـراء على ذلك ، وأثنى عليـه بحضرة الأمراء .

وكان القاضى بركات المحتسب ، عالى الهمه ، نافذ الكلمة ، مسعود الحركات فى سائر أفعاله ، وقد وقع له أشياء غريبة لم تقع لأحـد قبله من المباشرين ، ولا غيرهم ، ولا سيما ما كان يصنعه للسلطان . فأقام ملك الأمراء الى ما بعد العشاء ، ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك اليوم السلطانى .

وفى يوم السبت ثامنه ، وقعت كائنة مهولة ... وسبب ذلك أن ملك الأمراء جلس للمحاكمات على العادة ، فعرض عليه ثلاث محاكمات فى ذلك اليوم :

الأولى أن شخصا من الشهود يقال له شمس الدين محمد البساطى ، كان يجلس على رأس حارة زويلة ، وكان يخطب فى جامع ابن قريميط الذى فى حارة زويلة ، فجاءت اليه مبايعة جارية حبشية كانت على ملك شخص من النصـارى ، فابتاعها لشخص من الفـرنج ، فهـربت وأتت الى بيت الوالى وقالت له : « أنا جارية مسلمة ، كنت عند شخص نصرانى ، فباعنى لشخص افرنجى ، وقصد أن يسافر بى الى بلاد الفرنج ، فهربت من عنده وأتيت اليكم » . فعرض الوالى هذه الواقعة على ملك الأمراء خاير بك فطلب النصرانى البـائع فهـرب ، وهرب الفرنجى المشترى ، فقبض على شخص كان واسطة ، وعلى شمس الدين البساطى ، وقبض على النصرانى والأفرنجى فيما بعد ، وعوقبا وقرر عليهما مال له صورة . فلما وقف شمس الدين البساطى بين يدى ملك الأمراء قال له : ليش ماسألت الجارية ان كانت مسلمة أو غير مسلمة ؟ فاختلط فى الكلام وتلجلج لسانه عن الجـواب . فاشتد غيظ ملك الأمراء عليه ، فرسم بقطع يده اليمنى فقطعت ، وأن يشـهر فى القاهرة ففعل به ذلك .

وكان حاضرا فى المجلس قاضى القضـاة المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى شهاب الدين بن شيرين أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين العبادى ، والأمير أرزمك الناشف ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، فلم يجسر أحد منهم أن يشفع فيه لشدة غضب ملك الأمراء عليه ، وكان يوما مهولا .

والمحاكمة الثانية ، عرض عليه شخص يقال له محـمد بن عز الدين ، كان أبوه من جملة رسل الصالحيه ، وكان يعرف بابن بابه ، وكان ابنه قبيح الصورة والسـيرة ، مشهورا بتزوير المراسيم عن لسان المباشرين ، وسبقت له وقائع كثيرة عن لسان الأكابر ، فقيل انه زور مرسوما على لسان القاضى شرف الدين بن عوض ، فقبض عليه ابن العياثى وأحضره بين يدى ملك الأمراء ، فكثرت فيه من الناس الشكاوى ، فرسم بأن يشنق فشنق ، وشهر فى القاهرة وهو مخزوم الأنف ومقطع الآذان ، فأراح الله تعالى العباد منه ، فانه كان كثير النصب والحيل ، وتحكى عنه الغرائب والعجائب فى أمر الحيل والنصب والسرقة .

والمحاكمة الثالثة ، عرض عليه شخص من الفلاحين سرق ثورا ، فرسم بأن يخوزق وتقطع أنفه وآذانه وأن يركب على الثور ، ويشهر فى القاهرة ثم يخوزق . وكان ملك الأمـراء عجولا فى أمـر القتل ، وقد شنق وخوزق ووسط فى أيام ولايته على مصر ما لا يحصى من الناس ، والغالب راح ظلمـا من غير ذنب ، وكان ملك الأمراء شـديد

القســوة صلبا فى الأمور جدا ، وكان الأمر كما قيل فى المعنى :

احذر تعاشر من يكن طبعهم
ظلم الورى دأبا وان أحسنوا

لقول رب العـرش سـبحانه
فى محكم الذكر ولا تركنوا

وفى يوم الخميس ثالث عشره ، رسم ملك الأمراء بشنق ثلاثة أنفار من القواسة كانوا حراسا على قصــب ، فأتى اليهم بعض التركمان ليسرق من القصب ، فضربه أحــد القواسة فجاءت الضربة صائبة فمات ذلك التركمانى . فلما بلغ خشمداشينه ذلك توجهــوا الى قصبرى ونهبوا ما فيهــا ، ثم قبضوا على القواسة وعرضوهم على ملك الأمراء ، فرسم بشنقهم فشــنقوا فى ذلك اليــوم ومضى أمرهم . ويقال انهم أخذوا ظلما فليسوا هم الذين قتــلوا التركمانى . والذين قتــلوه هربوا ولم يحصلوهم ، وراحوا ظلمــا وراحت فى كيسهم .

وقد وقع لملك الأمراء أنه قتل ثمانى أنفس فى هذه الجمعة ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة ، واقترحوا لهــم الصداب حتى صــاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، وراح غالبهم ظلمــا ، والأمر لله تعالى .

وفى يوم الجمعة رابع عشره أرســل كاشــف الشرقية اثنين من العربان المفسدين قطاع الطريق ، فرسم ملك الأمراء بشنقهما فشنقا . وقد وقع لملك الأمراء أنه شنق وخوزق فى هذا الشهر جمــاعة كثيرة بخلاف العادة .

وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون فى بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء ، وآخر والى القاهرة ، ونادوا أن لا أحد يخرج من بعد العشاء ، فقام بعض الصغار وخطف عمامة آخر يميت عليــه ، فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الأمراء ، فرســم للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه ، فدقوا له عصا فى الأرض وأقعدوه عليها غصبا ، فمنهم من قال أن الصبى مات من وقته ، ومنهم من قال لم يمت ، فلما جرى ذلك تواربت الصغار الى حال سبيلهم ، وقد هان القتل فى هذه الأيام حتى عند الصغار . وهذه الواقعة لم تثبت الا اشاعات .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، قدمت الأخبــار بأن الفرنج قد أتوا الى ساحل بيروت وحاصروا من بها ، فكسروهم وملكوا مدينة بيروت ، وأقامت معهم ثلاثة أيام . فلما بلغ ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالى ذلك عين دواداره ومعه الجم الكثير من العساكر ، فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل فيها ما لا يحصى من الفرنج ، وأسر منهم ثلثمائة انسان ، وغنموا منهم أشياء كثيرة من ســلاح وقماش وغير ذلك . وقيل أسروا جماعة من أولاد ملوك الفرنج ، وملكوا ثلاث برشات من كبــار مراكبهم ، وكانت النصرة عليهم للغــزالى نائب الشام ، بعد ما ملك الفرنج بيروت ، فطردهم عنها بعون الله تعالى .

ومن الحوادث العظيمة الغريبة ما وقــع يوم الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة ، أنه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن السلطان سليم شاه بن عثمان ، بأن السلطان سليم شاه قد توفى الى رحمة الله تعالى . وحضر صحبة القاصد مطالعة من عنــد الرئيس شمس الدين محمــد القوصونى الى صهره قاضى القضاة محيى الدين الدميرى ، تتضمن أخبار موت السلطان سليم شاه

ابن عثمان ، وهى الأخبار الصحيحة ، فأخبر أن السلطان سليم شاه خرج يتصيد ، فرجع من الصيد وهو متوعك فى جسده ، وقد طلعت له فرخة جمر ، فتألم بها ولزم الفراش أياما ، وثقل فى المرض واشتد عليه الأمر جدا ، فمات فى يوم الخميس تاسع شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة . فلما مات كتم موته عن العسكر ثلاثة أيام ولم يدفن .

وكان ولده سليمان غائبا عن اسطنبول ، فلما حضر وقد جد فى السير حتى دخل الى اسطنبول وجلس على سرير الملك ، أشيع موت أبيه سليم شاه ، فأحضروه فى سحلية وهو مصبر ، وصلوا عليه ، ومشت الوزراء والعسكر قاطبة قدامه ، وكان دفنه يوم الأحد ثانى عشر شوال أو يوم الاثنين كما قيل ، ودفن على جده السلطان محمد ابن عثمان فى مدرسته باسطنبول ، ومضى الى رحمة الله تعالى كأنه لم يكن ، وزال عنه الملك فى طرفة عين ، فسبحان من لايزول ملكه ولا يتغير . وفى ذلك يقول ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق فى المعنى :

عظم الله أجركم فى مليك الورى سليم
عنه قد زال ملكه وغدا فى الثرى رميم

وتوفى الملك المظفر سليم شاه وله من العمر نحو سبع واربعين سنه على ما أشيع ذلك ، ووقع له من الأمور الغريبة ما لم يقع لأحد من آبائه ولا أجداده ، بل ولا لأحد من ملوك الشرق ، ولا ملوك الغرب ، ولا غيرهم ، فانه زحف على شاه اسماعيل الصفوى ملك العراقين ، وحاربه فكسره وقتل من عساكره ما لا يحصى حتى قيل : قتل فوق الخمسين ألفا ، وملك بلاده وطرده عنها . ثم تحرش بسلطان مصر ، ولا زال يخادعه ويظهر أنه تحت طاعته حتى خرج اليه وغدر به وحاربه وانكسر منه وفقد ، وقد طرقه على حين غفلة ، وجرى عليه منه ماجرى كما تقدم ذكر ذلك ، فملك مدينة حلب وقلعتها فى خمس درج ، واحتوى على أموال السلطان الغورى التى كانت بقلعة حلب من غير مانع ، ثم توجه الى دمشق فملكها وملك قلعتها من غير مانع فى أسرع من طرفة عين ، ثم توجه الى الديار المصريه ، وحارب السلطان طومان باى فكسره ، وقتل غالب عسكر مصر من المماليك الجراكسة ، وقتل من الأمراء ما تقدم ذكره ، وملك الديار المصرية فى نحو عشر درج .

وكانت مدة استيلائه على حلب والشام ومصر أربع سنين وخمسة أشهر ، وهو يخطب باسمه على منابر حلب وأعمالها ، ودمشق وأعمالها ، ثم خطب باسمه فى الديار المصرية وأعمالها وثغورها ، وضربت السكة باسمه فى هذه المدة .

وكان استيلاؤه على مدينة حلب فى أواخر رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، واستولى على دمشق فى سلخ رمضان ، واستولى على الديار المصرية فى المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة اقامته فى القاهرة نحو ثمانية شهور من مستهل المحرم الى أواخر شعبان ، واستقر بخاير بك نائبا عنه بمصر

وأما مدة استيلائه على مملكة الروم من حين توفى والده السلطان أبو يزيد الى الآن ، فنحو تسع سنين الا شهرا ، فان والده أبا يزيد توفى فى ثانى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ،

وكان استيلاؤه على مملكة الروم فى حياة والده بأشهر ، فان والده أقام مريضا ملازما الفراش مدة طويلة ، فيقال انه عجل على أبيه وقتله لأجل الملك ، ثم انه خنق أخاه قرقط ، وقتل أخاه أحمد ، وظن أن الوقت قد صفا له ، فتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بغيره من الملوك ، ودهاه الموت الذى لا يدفع بقوة ولا حيلة ، وقد صار فى رمسه رهين الذنوب ، لا يعلم أهو فى نعيم أو فى عذاب ، وقد رثيته بهذه الأبيات :

لابن عثمان قصة فاسمعوها
واعجبوا من صنع ربى تعالى

ملك الشام للفرات وأضحى
فاتكا فى الأنام روحا ومالا

وأراد الدخول فى كل مصر
قلت هيهات رمت هذا محالا

طردته عنها سهام الدياجى
بدعاء فيها تفوق النبالا

بعد ما جار فى الأنام بقتل
من جيوش يدك منها الجبالا

منذ جاروا وبالغوا فى آذاهم
قد سألنا الاله يكشف حالا

فاستجاب الدعا ومن علينا
بانفراج الهموم جل تعالى

وأتتنا أخباره بزوال
صيرت رشده حقيقا محالا

كم ملوك أذلها بعد عز
وسطا فيهمو وأفنى الرجالا

لهف قلبى على ملوك تفانوا
من سطا سيفه وطال اشتعالا

ذلت الروم بعد ما قد دهاهم
موت أستاذهم وشاعوا المقالا

زال عنا بموته دون حرب
وكفى الله المؤمنين القتالا

وفى ذلك اليوم أشيع موت ابن ملك الأمراء الذى كان مقيما باسطنبول ، وكان رهينا عند ابن عثمان من حين استولى أبوه على نيابة السلطنة بمصر ، ولما تحقق ملك الأمراء موت السلطان سليم شاه أظهر الحزن والأسف وشق أثوابه ولبس السواد . وكذلك الأمير قرا موسى ، وخير الدين نائب القلعة وفرحات ، وسائر الأمراء العثمانية لبسوا السواد ، حتى الأمير قايتباى الدوادار لبس السواد ، ووضع على رأسه شدا أزرق وأظهر الحزن .

وفى يوم الخميس عشريه رسم ملك الأمراء بأربعة مشاعلية تنادى فى القاهرة : اثنان يناديان بالتركى ، واثنان يناديان بالعربى ... ترحموا على الملك المظفر سليم شاه ، وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان شاه . فارتجت القاهرة فى ذلك اليوم ، وتحققوا موت سليم شاه من غير شك ، وقالوا سبحان من هذ الجبابرة ... وأما المماليك الجراكسة فتزايد عندهم الفرح والسرور ، واستبشروا بالفرج كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

فاستمر الأمراء وهم لابسون السواد ثلاثة أيام متوالية وهم يظهرون الحزن على سليم شاه ابن عثمان ، وكان موته من الغرائب على حين غفلة ، ولو عاش وصفا له الوقت ما حصل لأحد منه خير ، فكفى الله الناس شره .

الملك سليمان بن سليم

هو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار الرومية من بنى عثمان ، استولى على الروم بالقسطنطينية العظمى يوم الأحد ثانى عشر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه سليم شاه ، وصار متملكا على المملكة الرومية والديار المصرية ، وما مع ذلك من الممالك ، قيل استولى على الملك وله من العمر نحو ثمان وعشرين سنة ، وله أولاد ذكور واناث ، وقيل عنه انه من ذوى العقول ، وفيه أقول :

سرنا لما ولى سلطاننا
ابن عثمان وصرنا فى أمان
وارثا للملك عن أجداده
فهو فى الملك سليمان الزمان

وأما ترجمته ، فهو سليمان بن سليم شاه الذى أخذ مصر عنوة بالسيف ، ثم والده سليم أبو يزيد . ولد سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وولى على مملكة الروم ، وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وتوفى سنة ثمانى عشرة وتسعمائة ، وكانت مدة سلطنته ببلاد الروم نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ثم والده السلطان محمد وهو أول ملك لقب بالسلطان من ملوك الروم ، ولد سنة خمس وستين وسبعمائة ، وكانت مدة حياته نحو ستين سنة .

ثم والده مراد خان ويدعى غازى أيضا ، ولد سنة عشر وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بمملكة الروم احدى وثلاثين سنة ، وعاش من العمر نحو ثمان وستين سنة .

ثم والده أبو يزيد المعروف بيلدرم ، ويلدرم باللغة التركية اسم البرق ، وهو الذى أسره تمرلنك ووضعه فى قفص من حديد ، وطاف به فى البلاد يتعجب عليه ، وكانت وفاته فى القفص الحديد سنة خمس وثمانمائة ، وكانت مدة مملكته على بلاد الروم تسع سنين أو نحو ذلك .

ثم أبوه أورخان عاش نحو ثمان وستين سنة .

ثم أبوه على أردن ، ثم أبوه عثمان الثانى ، ثم أبوه سليمان ولد فى بلاد الروم ، وكانت مدة استيلائه هو وعثمان الثانى على مملكة الروم من سنة سبع وثمانين وستمائة ، واستمر على ذلك حتى قتل فى الغزاة ببلاد الفرنج ، وخلف ابنه سليمان . فهؤلاء كلهم من نسل عثمان الثانى ، فأطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان ، وهم تسعة بالعدد .

وأما جدهم الكبير عثمان ، فقال بعض المؤرخين انه ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وعاش تسعا وستين سنة ، وأن أصله من عرب الحجاز من وادى الصفراء بالقرب من المدينة النبوية . فلما وقع الغلاء بالمدينة خرج منها عثمان فارا الى بلاد قرمان فنزل هناك ، وكان شجاعا بطلا فتزيا بزى أهل قونيا ، وكان ملك الروم يومئذ بيد طائفة يقال لهم السلجوقية ، فصار عثمان فى خدمة الأمير على بن قرمان ، فعظم أمر عثمان عنده ، ومشى على طريقتهم ، وتكلم باللغة التركية ، وصار له أتباع كثيرة وأعوان ، وعدة عساكر نحو عشرين ألفا . فعند ذلك خرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية ، وصار له عدة بلاد افتتحها ، وصار يغزو بلاد الفرنج فى كل سنة ، ويغنم أموالهم ، ففتح عدة حصون تلى خليج القسطنطينية ، ولا زال ملك بنى عثمان يكثر وجنودهم تكثر ، وأظهروا العدل فى الرعية ، وعمروا التكايا والزوايا والخوانق .

---

(١) هذه العبارة من أولها الى آخرها فيها مخالفات كثيرة لما ذكره المؤرخون . فليكن ذلك معلوما .

وكان عثمان يحب العلماء ويقرب الصلحاء ، وكان طويل القامة أسمر اللون أقنى الأنف . وقيل عاش عثمان هذا نحو سبعين سنه ، ومات شهيدا فى بعض غزوات الفرنج ، وهو جد بنى عثمان قاطبة .

قال الشيخ تقى الدين أحمد المقريزى . لم يكن فى أبناء عثمان من يلقب بملك ولا بسلطان ، بل كانوا اذا كاتبهم أحد من ملوك مصر وعظمهم يقول لهم الخنكار أو الأمير فلان . وقال المقريزى انهم ينسبون الى أبى مسلم الخراسانى ، صاحب دعوة خلفاء بنى العباس ، الذى تعصب لهم ونزع الخلافة من يد الأموية ، وجعلها الى العباسية . انتهى ما أوردناه من نسب ابن عثمان ، وهذا هو النسب الصحيح عنهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك

ومن هنا نرجع الى خبر الملك المظفر سليمان بن سليم شاه ابن عثمان ، فالذى أخبر به القوصونى فى كتابه ان السلطان سليمان لما جلس على سرير الملك ، أظهر العدل فى الرعية ، فأرسل أحضر الخليفة من المكان الذى كان سجنه فيه والده سليم شاه ، فأحضره الى اسطنبول كما كان ، ورتب له فى كل يوم ستين درهما .

وأفرج عن علاء الدين ناظر الخاص ، وعن جماعة كثيرة من المباشرين الذين كان سجنهم والده ، وأفرج عن جماعة من التجار الأعجام الذين كان والده سجنهم وزعم أنهم من عند الصفوى وأخذ منهم حريرا بنحو اثنى عشر ألف دينار . فلما آل اليه الملك أفرج عنهم ، وأعاد لهم الحرير الذى كان أخذه والده منهم ورسم لهم بالعود الى بلادهم وذكر عنه أشياء كثيرة من العدل من هذا النمط .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه رسم ملك الأمراء بأن يصلى على السلطان سليم شاه ابن عثمان صلاة الغيبة بجامع القلعة ، وسائر جوامع القاهرة ، وأن يدعى للسلطان سليمان على المنابر ومضى أمر السلطان سليم شاه كأنه لم يكن .

وفى يوم السبت ثانى عشريه ، نودى فى القاهرة بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنه الملك المظفر سليمان ، فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة حتى داخل الأسواق وغالب الحارات ، ولا سيما خان الخليلى ، فان تجاره زينوا زينة عظيمة ، وصار الأمير على الكيخية والى القاهرة يطوف فى كل يوم عدة مرار ، وقدامه جماعة من الانكشارية ، وهو ينادى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية . وصار يأمر بتقوية الزينة ، ويضرب أصحاب الدكاكين بسببها ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه ابن صادق .

مذ غدت بعد سليم بعد حزن فى تهانى
زينب مصر وأضحت لسليمان الزمان

ومن الحوادث أن طائفة من الانكشارية قصدوا أن ينهبوا حارة زويلة . وقيل جرت العادة عندهم اذا مات السلطان ينهب العسكر حارة اليهود ، فقصد طائفة الانكشارية أن يفعلوا ذلك فمنعهم خير الدين نائب القلعة ، وقرا موسى وفرحات من ذلك ، فتعصبوا منهم وتوجهوا الى بركة الحبش على أنهم يدخلون على حميه ، وينهبون القاهرة عن آخرها ، فترددت الرسل بينهم وبين ملك الأمراء على أنه ينفق على طائفة الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار ، فتراضوا على ذلك ، وعلى أنه لا ينفق على طائفة الاصباهية ولا الكملية شيئا ، فتقرر الحال على ذلك .

ثم فى يوم السبت المقدم ذكره أرسل ملك الأمراء الى الأمير قايتباى الدوادار قفطان حرير صارى وشاش خمسينى ، ثم ان ملك الأمراء صار يتراضى خواطر المماليك الجراكسة ، فأنفق عليهم جامكية شهرين دفعة واحدة ، وصار القاضى شرف الدين الصغير يأخذ بخواطر المماليك الجراكسة

أيضا ، ويخاطبهم يا أغاوات ، بعد ما كان يقول يا كلاب يا زرابين . وقد أقامت المماليك الجراكسة صدورها من حين سمعوا بموت سليم شاه ابن عثمان .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه أشيع أن طائفة الاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء ، وقالوا مثل ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال لهم الانكشارية مماليك الخنكار وأنتم خدامه ، وما عندى ما أنفقه عليكم ، فنزلوا من عنده على غير رضا ، وأشيع أنهم يقصدون نهب الزينة ، فبادر الناس بفك الزينة ، ووقع الاضطراب فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشريه ، أنفق ملك الأمراء على الانكشارية فقط ، فأعطى لكل واحد منهم أربعين أشرفيا ذهبا تصرف بثمانين أشرفيا فضة ، وأعطى الصوباشية أغوات الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار ، فشق ذلك على الاصباهية والكملية ، وأشيع اقامة فتنة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشريه ، حضر قاصد من عند نائب الشام الأمير جان بردى الغزالى ، يقال له خشقدم اليحياوى ، وهو أحد الأمراء العشراوات بدمشق ، وكان أمير جكار عند قانصوه اليحياوى ، فلما حضر بين يدى ملك الأمراء دفع اليه مطالعة نائب الشام جان بردى الغزالى ، ومطالعة الى الأمراء ، فلما قرئت اضطربت أحواله ، ولم يعلم ما فى تلك المطالعات ، فأنزلوا القاصد فى بيت الأمير جانم الحمزاوى ، فأقام عنده فى الترسيم وهو محتفظ به .

ثم أشيع أن ملك الأمراء من حين حضر قاصد نائب الشام الغزالى وهو منكد ، وشرع فى تحصين قلعة الجبل ، وركب على أبراجها المكاحل ، ووزعت أعيان الناس أمتعتهم فى حواصل ، وتزايد القيل والقال بين الناس فى أمر جان بردى الغزالى نائب الشام ، وأشيع عصيانه بالشام ، وقد جمع من العساكر ما لا يحصى .

ثم فى يوم الخميس سابع عشريه رسم ملك الأمراء أن طائفة الانكشاريه يقيمون فى القلعه فى الطباق ولا ينزلون الى المدينة ، وأن طائفة الاصباهيه يسكنون حول القلعه بالقرب من بيت قوا موسى ففعلوا ذلك .

وفى يوم الجمعة ثامن عشريه خرج قاصد من عند ملك الأمراء يقال له أمير شيخ ، فأرسل على يديه مطالعات الى السلطان سليمان بن عثمان يعزيه فى والده السلطان سليم شاه ، ويهنيه باستقراره فى الملك عوضا عن أبيه .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أرسل قاصد نائب الشام وهو خشقدم اليحياوى الذى حضر وعلى يديه المطالعات ، فأرسله الى السلطان سليمان وصحبته تلك المطالعات الواردة من عند نائب الشام ، فقيل أرسله فى الحديد ، وتوجه أمير شيخ الى البحر الى ثغر الاسكندرية ، ومن هناك توجه من البحر المالح الى اسطنبول .

ثم أشيع بعد ذلك أن القاصد قد أغرقوه تحت الليل ، وكان آخر العهد به والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما استفاض بين الناس من أمر واقعة نائب الشام جان بردى الغزالى ، أنه تسلطن بالشام . وقبل له العسكر الأرض وخطب باسمه على منابر دمشق ، وضربت السكة باسمه على الذهب والفضه

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، أرسل يعلم السلطان سليمان ابن عثمان بما وقع من نائب الشام من سلطنته بالشام ، وأرسل اليه المطالعات التى وردت عليه بما جرى منه ، وصار الأمر موقوفا على الجواب عن ذلك ، وقد تحقق عصيان نائب الشام وخروجه عن الطاعة .

وفى شهر ذى الحجة وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الأربعة الى القلعة وحضروا ملك الأمراء بالحوش ، فلما تكامل المجلس ، احضر ملك الأمراء مصحفا شريفا ووضعه على كرسى ، وحضرت الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية ، فتقدم الأمير أرزمك الناشف وحلف أنه يكون تحت طاعة السلطان سليمان كما كان تحت طاعة والده سليم شاه ، وأنه لا يخون ولا يغدر ولا يخامر عليه . فحلف على ذلك بحضرة القضاة الأربعة ، ثم تقدم الأمير قايتباى الدوادار فحلف بمعنى ما حلف به الأمير أرزمك الناشف ، ثم صارت الأمراء الجراكسة يحضر منهم اثنان اثنان ويحلفون على المصحف بمعنى ذلك . ثم قام شخص يقال له قراجا الطويل ، وقال : يا ملك الأمراء مثلما حلفنا للأمراء العثمانية يحلفون لنا هم أيضا . فقال ملك الأمراء : واجب علينا ذلك . فتقدم ملك الأمراء وحلف على المصحف ، وأوسع فى ألفاظ الحلف وأكد فى ذلك . ثم تقدم فرا موسى وحلف على المصحف ، وكذلك فرحات وخير الدين نائب القلعة والكيخية الكبير أغات الانكشارية . فلما تكامل الحلف رسم ملك الأمراء أن ينادى فى القاهرة بالعربى والتركى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن التجار تفتح دكاكينها وأن لا أحد يكثر كلاما ولا يدخل فيما لا يعنيه ، ولا ينقل له قماشا الى داره ، والدعاء بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان ، فلما نودى بذلك سكن الاضطراب الذى كان بين الناس قليلا .

وفى ذلك اليوم عرض على ملك الأمراء شخص من النصارى قيل عنه انه وقع فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلام فاحش ، وشهد عليه بذلك ، فحكم القاضى الحنفى بقتله ، فضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية ، ثم ان العوام أحرقوه بالنار حتى صارت جثته رمادا .

ومن الحوادث الغريبة والنوادر العجيبة أنه أشيع أن بحر النيل زاد فى هذه الأيام بعد ما قد مضى من هاتور نصفه نحو ثلاثة أذرع ، حتى قيل بقى على علام الوفا ست عشرة أصبعا ، فعد ذلك من النوادر الغريبة التى لم يقع مثلها فيما مضى من الزمان ، ولم يحصل بهذه الزيادة نفع للناس ، بل أغرقت الزروع التى زرعت على الشطوط ، والأجنة ، وهذا من جملة عجائب صنع الله تعالى فكان كما يقال فى المعنى :

النيل أفرط فيضا	بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا	حديثنا بالأصابع

ثم أشيع من بعد ذلك أن النيل قد دخل الى خليج الزربية من عند قصر ابن العينى ، فتطير الناس من ذلك ، ثم أشيع أن الماء دخل الى الخليج الناصرى وفاض حتى دخل الى بركة الرطلى ، وغرق الزرع الذى كان بها ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع ان جهات المنوفية غرق ما كان زرع بها ، وهى عدة أفدنة كثيرة ، وكذلك غرق غالب البراسيم التى بالجيزة وما حصل بهذه الزيادة للناس خير .

وفيه أفرج ملك الأمراء عن نجم شيخ العايد ، وخلع عليه وأعاده فى مشيخة العايد ، كما كان أولا . وخلع على أربعة أنفار من عربان السوالم ، وقرر معهم أن يجمعوا من العربان ما يقدرون عليه ، بسبب ملاقاة نائب الشام جان بردى الغزالى ، فانه تزايدت الأخبار بسلطنته بالشام ، وقد تلقب بالملك الأشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت له الشموع على

الدكاكين ، وقبل له الأمراء الأرض . وقد جمع العسكر الكثير وهو قاصد نحو الديار المصرية .

وفى يوم الاربعاء ثالث شهر ذى الحجه توفى الامام العالم العامل شيخ الاسلام والمسلمين ، مفتى الأنام فى العالمين ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، عالم الوجود على الاطلاق ، ومن ذكره قد شاع فى الآفاق . فهو آخر علماء الشافعية بالديار المصرية ، وانتهت اليه رياسة الشافعية ، فهو شيخ الاسلام زين الدين زكريا بن محمد ابن محمد الأنصارى السنيكى الشافعى رحمة الله عليه .

كان مولده فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدها . وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وولى قضاء الشافعية فى دولة الأشرف قايتباى ، وأقام بها نحو عشرين سنة ؛ ومات وهو معزول من القضاء ، وقد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة .

وحضر مبايعة خمسة من السلاطين ، وهم الناصر محمد بن قايتباى ، وخاله الظاهر قانصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعادل طومان باى ، والأشرف الغورى .

وولى تدريس قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه ، وولى فى أواخر عمره مشيخه مدرسه الجمالية ، وكان بيده عدة تداريس ، وألف الكتب الجليله فى العلوم المفيدة ، وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين سنة ، وانتفع منه غالب الناس وخلف ولدا ذكرا من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء وفاته أرسل اليه ثوبا بعلبكيا وخمسين دينارا على يد الأمير جانم الحمزاوى ، وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه ، وأخرجت جنازته من عند المدرسه السابقية ، ومشى فى جنازته قضاة القضاة وأعيان الناس ، وصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ، ونزل ملك الأمراء وصلى عليه ، وحمل نعشه من سبيل المؤمنين أول ما طلعوا وكانت جنازته حافلة ، فلما صلوا عليه توجهوا به الى مقام الامام الشافعى رحمة الله عليه ، ودفن عند الشيخ محمد الخبشانى تجاه قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، فكان أحق بقول القائل حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبه
لها عمرا وبم جنح الليالى
فلا زالت ذوو الأقدار تلقى
من الأيام أنواع النكال
وكم جنت المنون على رجال
وجندلت الكماة بلا قتال
ودائى ليس بشفيه دواء
وجرحى لا ئول الى اندمال
به الأيام قد كانت قصارا
فويلى من لياليها الطوال
وكان ذخيرى فيها وكنزى
وكان هداتى عند الضلال
لقد درست دروس العلم حزنا
وقد ضل الجواب عن السؤال
ودق الناس أبواب الفتاوى
وقد وصلوا الى باب الصيال
بكاك العلم حتى النحو أضحى
مع التصريف بعدك فى جدال
بكت أوراقه بيض المواصى
دما ويراعه سمر العوالى
وعين دواته عمشت وآلت
يمينا لا تداوى باكتحال

تنكرت المعارف فى عيانى
وتمييزى غدا فى سوء حال
وما عوضت من بدل وعطف
سوى توكيد سقمى واعتلالى
فيا قبرا ثوى فيه تهى
فقد حزت الجميل مع الجمال
سقاه الله عينا سلسبيلا
وأسبغ ما عليه من الظلال
وبوأه من الفردوس فضلا
ورقاه الى الغرف الغوالى

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره ، توفى الشيخ شمس الدين محمد البساطى ، الشاهد الذى قطع ملك الأمراء يده ، فراح ظلما بلا ذنب أوجب ذلك وأشيع أن ملك الأمراء أرسل اليه مائة دينار على أنه يحالله على ما وقع منه ، فأبى من أخذ المائة دينار ، وقال حتى أقف أنا واياه بين يدى الله تعالى . وقيل أن يده التى قطعت استمرت عنده الى أن مات فدفنت معه فمات شهيدا

وفى يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة ، قدمت على ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان نزلوا على قطيا ونهبوا ما فيها ، واستمر النهب عمالا من قطيا الى الخطارة ، وطفشت العربان فى الشرقية ، واضطربت أحوالها ، وأشيع أن شيخ العرب أحمد ابن بقر أرسل حريمه وأدخلهم الى القاهرة ، ووزع أمواله وقماشه ومواشيه خوفا من النهب فى البلاد .

وقد وردت عليه أخبار غير صالحة ، وصار القيل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأخبار الكذب أكثر من الصدق .

وفى يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، فوقع فى هذا العيد أمور غريبة بسبب الأضحية ، فبلغ سعر كل بقرة فوق الثلاثين دينارا ، وشىء منها بيع بأربعين دينارا ، ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الزمان ، وبيع الخروف الكبير بعشر أشرفيات ، وشىء باثنتى عشرة أشرفية ، وشىء باثنى عشر ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، وسبب هذا أن الأشرفى الذهب العثمانى صار يصرف بخمسين نصفا من الفضة ، وأما المعاملة من الفضة فان غالبها نحاس ، وأكثرها غش ، فوقف حال الناس بسبب ذلك ، وصار الشىء يباع بمثلين ، وصار كل من البضائع وغيرها يباع بأغلى الأثمان ، وموجب ذلك قلة البقر والأغنام فى هذه الأيام ، وصارت الأبقار تجلب الى دمشق وتباع هناك بأغلى الأثمان ، فان الأبقار التى بدمشق دخل فيها الفناء وقل نسلها هناك جدا .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير ناصر الدين محمد الجلبى المهندار ، وتوجه الى نحو ثغر الاسكندرية بسبب تفقد الأبراج التى هناك خوفا من الفرنج أن يطرقوا الثغر على حين غفلة . وقد تزايد عبث الفرنج فى البحر المالح ، وقد طمعوا فى أخذ البلاد من حين مات السلطان سليم شاه ابن عثمان .

وفيه أشيع أنه حضر ساع من البلاد الشاميه وعلى يده مطالعة الى ملك الأمراء ، فقال له ان كان معك مطالعات الأمراء فأظهرها علينا ، فأنكر الساعى ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء وضربه ضربا مبرحا وسجنه وهو لم يقر بشىء من المطالعات .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن أمير شيخ — الذى أرسله ملك الأمراء الى السلطان سليمان ابن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى أبيه السلطان سليم شاه — قد رجع الى ثغر الاسكندرية وأنه وجد البحر المالح قد امتلأ بمراكب الفرنج ، فلم

يستعلم التوجه منه الى اسطنبول ، ورجع الى ثغر الاسكندرية ، وأرسل يعلم ملك الأمراء بما وقع له .

وفى يوم الأحد حادى عشريه نزل ملك الأمراء الى الميدان الذى تحت القلعة ، وعرض سنيحه وعرض العربات وهى العجلات التى صنعها ، وفرق على المماليك سلاحا ورماحا وغير ذلك ، ورسم لهم بأن يعملوا برقهم بسبب ملاقاة نائب الشام الأمير جان بردى الغزالى ، ورسم للعسكر العثمانى أن يعملوا برقهم أيضا .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه رسم ملك الأمراء للمماليك الجراكسة بأن يعملوا برقهم أيضا ، ويجهزوا أمورهم بسبب السفر ، فتوجهوا الى سوق القبو وجامع قوصون ، واشتروا ما يحتاجون اليه بسبب السفر .

وأشيع أن ملك الأمراء أمر طائفة الاصباهية والكملية بأن يخرجوا الى الصالحية ، ويقيموا بها الى أن يخرج العسكر ، فامتنعوا من ذلك وقالوا نحن لا نخرج الا فى ركاب ملك الأمراء اذا خرج وان لم يخرج ما نخرج . فوقع الخلف بينهما فى هذا الأمر ، وكثر القال والقيل بين الناس ، وأن ملك الأمراء أنفق على الانكشارية وأعوانهم ، ولم ينفق على الاصباهيه ولا على الكملية شيئا فحنقوا منه .

وفيه أشيع أن اليهود حولوا جميع قماشهم من حارة زويلة وبنوا على أزقتها خوخا قصارا ، وقد أخذوا حذرهم من النهب ، وكذلك اعيان المباشرين ، وأن شخصا من الأمراء العشراوات يقال له جان قلج — وهو الذى كان نائب قطيا — حضر فى مجلس لهو ، فلما سكر نقل عن ملك الأمراء كلاما لم يقله ، فلما بلغ ملك الأمراء ما قاله جان قلج ، رسم للأمير قايتباى الدوادار بأن يدعو جان قلج عنده فى الترسيم حتى يعرضه عليه ، ويحقق ما قاله عنه فاستمر فى الترسيم عند الأمير قايتباى .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء ملأ الصهاريج الكبار التى بباب السلسلة ، وملأ عدة صهاريج بقلعة الجبل ، وأخذ فى تحصين القلعة بكل ما يمكن ، وطلع الى القلعة بأحمال بقسماط وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك ، وأرسل طلب من ابن قريسيط المتحدث على شبرى خمسين ثورا من الثيران الكبار بسبب سحب المكاحل التى على العجل والعربات .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب شيخ المغاربة وقال له أحضر لى ألفى مغربى من شجعان المغاربة ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جان بلاط لما تسلطن العادل طومان باى بالشام ودخل هو وقصروه نائب الشام الى القاهرة — وقد تقدم ذلك — وكان الأشرف جان بلاط حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ، ولم يمده منه شىء وانكسر ، وأخذت منه قلعة الجبل فى خمسة أيام ، ثم قبض عليه ونفى الى ثغر الاسكندرية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه ، نودى فى القاهرة بأن أولاد الناس ومن بمصر من الأروام يطلعون الى القلعة للعرض بين يدى ملك الأمراء ، فصار جماعة من خان الخليلى من الطباخين ، ومن يعمل السراميج ، ومن يعمل السنبوسك ، يطلعون الى القلعة ويكتبون أسماءهم فى الديوان ، ويسمون أنفسهم الكملية ويتزيون بزيهم ، وصار العسكر ملفقا من سائر الطوائف والأجناس ففى سبيل الله خيار السبيل .

ثم ان طائفة الاصباهية والكملية تغلبوا على ملك الأمراء ، وقالوا : نحن مانخرج الى قتال نائب

الشام الا بمرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، ونحن ما علينا الا حفظ درك القلعة والمدينة ، فان دخل الينا نائب الشام حاربناه فوقع الخلف بين العسكر العثمانى وبين ملك الأمراء بسبب ذلك .

وكان من حين تولى السلطان سليمان مملكة الروم لم يرسل الى ملك الأمراء خلعة الاستمرار ، فطمع فيه كل أحد بسبب ذلك ، وصارت الأخبار فى كل يوم ترد على ملك الأمراء بأن جان بردى الغزالى نائب الشام قد زحف وخرج من الشام فى عسكر كثيف ، وقصد نحو الديار المصرية ، ومعه طائفة كثيرة من الأكراد ومن عربان جبل نابلس ، ومن عربان بنى عطاء ، وبنى عطية ، وغير ذلك من طوائف العربان ، وغيرهم من عساكر دمشق .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان بنى عطاء وبنى عطية اتفقوا مع عربان طائفة السوالم وكسروا طراباى بن قراجا شيخ عربان جبل نابلس ، وكان ملك الأمراء خلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، وأنعم عليهم بمال له صورة على أنهم يلاقون جان بردى الغزالى ، ويحاربونه قبل أن يدخل الى القاهرة .

وفيه قدمت الأخبار بأن جماعة من عربان الغربية ثاروا على كاشف الغربية ، فهرب منهم وأرسل يعلم ملك الأمراء بذلك ، ليعين لهم تجريدة .

وفيه حصر شيخ العرب بيبرس بن بقر وقابل ملك الأمراء ، فخلع عليه ، وكان أشيع عصيانه .

وفيه عرض ملك الأمراء من بالسجون فأطلق منهم عشرين انسانا ، وقيل صالح جماعة منهم ممن عليهم الديون وقام بذلك من ماله .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الغلمان كان عند جان بردى نائب قطيا الذى تسحب منها ، فلما قبض عليه ومثل بين يديه قال له : أخبرنى عن أحوال الغزالى ، كيف تسلطن ، فقال ما عندى منه علم . وكان أشيع عن ذلك الغلام أنه أتى من عند الغزالى بمطالعات الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فلما انكر الغلام ذلك حنق منه ملك الأمراء ، ورسم بتوسيطه فوسطه عند باب السلسلة قريب المغرب ، ومضى أمره .

وفى يوم الخميس خامس عشريه ، حضر مبشر الحاج ، وأخبر أنه حصل للحجاج مشقة عظيمة بسبب الغلاء فى سائر الأصناف والبضائع ، ومات من الحجاج جماعة كثيرة ، وأشيع الثناء الجميل على أمير الحاج جانم الكاشف .

وفيه قدم الخبر بأن نائب الشام جان بردى الغزالى توجه الى حلب بمن معه من العساكر ، وحاصر المدينة أشد المحاصرة ، وقد حاربه أهل حلب وتعصبوا عليه ، ولم يمكنوه من أخذ المدينة .

وقد انفصلت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب ، من استمرار الغلاء مع قلة الأمن ، والفتن القائمة فى البلاد الشامية والحلبية ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب جان بردى الغزالى ، فانه أشيع عنه أنه تسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف .

ومن أعظم حوادث هذه السنة ، موت الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، فان موته كان من العجائب والغرائب ... ولا سيما ما جرى منه فى حق أهل مصر من الفعائل الشنيعة مما تقدم ذكره .

ومن لطائف صنائع الله تعالى أنه لم يقع فى هذه السنة طاعون ولا غيره فى البلاد الشامية ، ولا أعمال الديار المصرية .

سنة سبع وعشرين وتسعمائة (١٥٢١ م) :

استهل المحرم بيوم الأربعاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر والعام الجديد ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند السلطان سليمان نصره الله تعالى ، وعلى يده مراسيم شريفة ؛ فكان من مضمونها أن ملك الأمراء خاير بك على عادته فى النيابة بالديار المصرية . ثم انه أشيع أن السلطان سليمان أرسل يقول لملك الأمراء : انه عين تجريدة عظيمة الى نائب الشام جان بردى الغزالى ، وأرسل يقول : لا تخرج تجريدة نحن نكفيك أمره .

وفيه قدمت الأخبار بأن جاليش عسكر نائب الشام لما توجه الى حلب ، وحاصر المدينة ، انكسر ذلك الجاليش

ثم أشيع أن عربان الكرك قد استولوا على مدينة الكرك ، ورفعوا يد جماعة نائب الشام ، وقد انتدب الى محاربة جان بردى الغزالى شخص من عربان جبل نابلس يقال له جعيما شيخ عربان الكرك .

وفى رابع الشهر وقعت كائنة عظيمة لشخص من الأتراك يقال له اياس ، قيل انه من مماليك الأمير يشبك الدوادار ؛ رسم ملك الأمراء بتوسيطه فوسط فى الرميلة وكان سبب ذلك أنه كان فى مجلس لهو ، وحضر فى ذلك المجلس جماعة من الاصباهية ، فخلط اياس فى الكلام مع الأصباهية فى ذلك المجلس ، فقال بلغنى عن ملك الأمراء أنه يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام . فلما حضر جماعة من الأمراء العثمانية عند ملك الأمراء ، قالوا له : بلغنا أنك تقصد أن تتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام . فقال لهم ومن نقل عنى ذلك ، قالوا شخص من الأتراك يقال له اياس ، فأمر باحضاره ، فلما حضر قال له : من قال لك عنى انى أقصد أن أتسلطن ؟ فقال له اياس : أنا سمعت ذلك من العوام ، فقال له ملك الأمراء : أحضر لى من نقل عنى ذلك ، فانعقد لسان اياس وتوهم من ذلك ، واضطربت أحواله ، وصار لا يدرى ما يقول ، فأخذ الأمير قايتباى الدوادار يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به .

ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على اياس المذكور ، فقبض عليه ونزل به من القلعة الى الرميلة ، فوسطه بسوق الخيل ، وراح ظلما من غير ذنب يوجب عليه ذلك ، فان أكثر الناس كانوا يحلطون فى ذلك من حين أشيع سلطنة جان بردى الغزالى بالشام ، واستمر اياس مرميا فى الرميلة والكلاب تنهش جثته فى الليل ، ورسم أن لا أحد يدفنه . وكان اياس شيخا مسنا ، وله أولاد وعيال ، ولكن اشتد غضب ملك الأمراء عليه فى ذلك اليوم ، فعد ذلك من مساوى ملك الأمراء .

وفى يوم الثلاثاء سابعه وقع من ملك الأمراء ما هو أشنع من ذلك ، وهو أنه رسم بتوسيط محمد ابن شمس الدين محمد الفرنوى . وسبب ذلك أن ابن الفرنوى قبض على فلاح وسجنه ، فانه كان مباشر وقف السلطان حسن ، فلما سجن ذلك الفلاح حمل بعض أقارب الفلاح على الفرنوى شخصا من العثمانية ، فكلم الفرنوى فى خلاص ذلك الفلاح ، فلم يوافق ابن الفرنوى على اطلاقه فأغلظ عليه العثمانى فى القول وسبه ، فقال ابن

الفرنوى : عن قريب يحضر جان بردى الغزالى نائب الشام وتحرجون على ايتمه . فطلع العثمانى وشكا الى ملك الأمراء ما قاله ، فاحضر ابن الفرنوى وقال له : كيف تقول عن قريب يحضر الغزالى ويتسلطن بمصر ؟ فأنكر ابن الفرنوى ذلك ، فأحضر العثمانى جماعة ممن كانوا حاضرين فشهدوا على ابن الفرنوى بأنه قال ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء ورسم بتوسيطه فوسط فى الرميلة ، وراح ظلما كما وقع للناس . وكان ابن الفرنوى هذا من أعيان الناس ، أمام الأمير أقبردى الدوادار والأمير يشبك الدوادار .

وفيه صار ملك الأمراء يتصدق على الأطفال بالمكاتب قاطبه لكل طفل أربعة أنصاف ، ففرق مالا له صورة وصارت الأطفال يقرءون له الفاتحة ويهدونها فى صحيفة ملك الأمراء . وصار يتصدق على الزوايا والمزارات التى بالقرافة ، ويتصدق على المجاورين بالجامع الأزهر ، فقيل انه صرف من ماله فى هذه السنة نحو خمسمائة دينار .

وفيه عزل كاشف الشرقية اناس واستقر عوضه شخص من الأتراك يقال له جانى بك ، وقد تقدم أنه ولى كشف الشرقية قبل ذلك

وفى يوم الخميس ثالث عشريه ، طرق ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان قد زحفوا على قطيا ، وقد وصلوا الى الصالحيه ، فتنكد ملك الأمراء لذلك ، وعين لهم تجريدة ، فخرج اليهم طائفة من الاصباهية وطائفة من الكملية ، فتوجهوا اليهم على الفور من يومهم وكثر القال والقيل بسبب العربان ، وغيرهم .

وفى يوم الأحد سادس عشرى المحرم ، دخل الحجاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة صحبة الأمير جانم أمير ركب المحمل ، ودخل قاضى المحمل الشيخ أبو الفتح فتح الدين الوفائى المالكى ، ودخل صحبته الشيخ شرف الدين يحيى ابن البردينى شيخ الحرم النبوى ، وكان السلطان سليم شاه قرره فى مشيخة الحرم النبوى ، فسعوا عليه فعزل واستقر بها الأمير بكباى ، كما تقدم ذكر ذلك . فلما عزل الشرفى يحيى بن البردينى عن مشيخة الحرم ، حضر صحبة الحاج .

وأشيع أن الحاج قاسى فى الرجعة غاية المشقة من الغلاء وموت الجمال ، وتعرضت لهم جماعة من العربان ، فتقاتلوا مع الأمير جانم أمير الحاج ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة ، فرجع الحجاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم ، وأثنوا عليه بكل جميل ، وشالوا له الراية البيضاء فى بركة الحاج .

❊ ❊ ❊

وفى شهر صفر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، صعد القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ... وفيه جاءت الأخبار بأن الاصباهية والكملية الذين توجهوا الى الصالحية بسبب محاربة العربان ، ظهر منهم غاية الفساد ، وصاروا ينهبون الضياع التى حول بلبيس والصالحية ، ويأخذون ما فيها من الدجاج والأوز والشعير والتبن ، فضج أهل الضياع من ذلك ، فأتى الفلاحون وشكوا الى ملك الأمراء ، أن التركمان نهبوا معلهم ، وفسقوا بنسائهم وبناتهم ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل خلف الاصباهية والكملية فحصروا الى القاهرة ولم يحصل بهم نفع .

وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص يقال له الحاج ياقوت ، وكان من جملة تجار الوراقين ، وله

شهرة ، وهو فى سعة من المال ، فقتل من غير ذنب يوجب ذلك

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعــة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، فأنزلوها الى البحر قدامه ، ثم رجـع وشق من القاهرة وارتفعت له الأصـوات بالدعاء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خرج الأمير جان بك أخو الأمير قايتباى الدوادار ، فتوجه من البحر وسـافر نحو البلاد الشامية ليكشف أخبار نائب الشـام جانُ بردى الغزالى ، وغير ذلك من الأشغال السلطانية .

وفيه انقطعت الأخبـار من البلاد الشـامية ، وامتنعت القوافـل والمسـافرون من الدرب السلطانى ، وانكتمت أخبار نائب الشام جان بردى الغزالى ، واستمر على ذلك ثلاثة أشهر ، وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ومنع القوافل وجلب البضائع من البلاد الشامية .

* * *

واستهل شـهر ربيع الأول بيوم السبت فطلع القضـاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الثلاثاء رابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعـة وتوجه الى بركة الحبش والبريم ، فأقام هناك الى ما بعد الظهر ، فأرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب خمسـة جمـال ، ما بين خرفان شوى ، وحلوى وفاكهة ، وغير ذلك من مجامع ، ضمنها مأمونية ، وسنبوسك بسكر ، وغير ذلك أشياء فاخرة .

ثم ان ملك الأمراء نزل من هناك فى الحراقة ، وتوجه الى الروضة ، وكشف على المراكب التى عمرها هنـاك ، ثم شق من البحر وطلع من عند قصر ابن العينى ، وتوجه من هناك الى القلعة فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية

ومن الوقائع اللطيفة ما وقع فى يوم الأحد تاسع الشهر ، وذلك انه وقع بين شخص من أرباب الفن يقال له محمد الأوجاقى ، ويعرف أيضا بالشرابى ، وشخص يقال له محمـد بن سرية ، فوقع بينهما رهان فى فن الموسيقى ، فقال محمد بن سرية : أنا أعرف قطعة من الفن ما سمعها أحد من أهل مصر قط . فقال محمد الأوجاقى : ان كان حقا ما تدعيه ، فنجمع مشايخ أرباب الفن ، ونجمع مغانى البلد قاطبة ، ويكون ذلك يوم الأحـد فى وسط بركة الرطلى ، وكان ذلك فى زمن الربيع فلمـا كان يوم الأحـد يوم الميعاد ، حضر جماعة من أرباب الفن ، وحضر مغانى البلد قاطبة ، وأتوا الى بركة الرطلى ، فجلسوا فى وسطها ، واجتمع هناك الجم الكثير من المتفرجين ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فغنى كل واحد من المغنين فى ذلك اليوم نوبة من أحسن ما عنده من الغناء ، وابتهج الناس فى ذلك اليوم غاية البهجة . وأما محمـد بن سرية فانه احتج بأنه ضعيف ، ولم يحضر ، وقال الرهان باق الى يوم الأحد الثانى فظهر عليه العجز ، ولم يف بما ادعاه مما تقدم ، فكان كما قيل :

كل من يدعى بما ليس فيـه

كذبته شـواهد الامتحـان

فانفض ذلك الجمـع ، وعـد ذلك اليوم من النوادر فى الفرجة والقصف .

وفى يوم الاثنين عاشره ، أشيع أن قاصدا حضر من عند السـلطان سليمان ، وعلى يده خلعـة الاسـتمرار الى ملك الأمراء ، فحضر القاصـد وصـحبته الأمير شـيخ والأمير على المحضر ،

وبرسباى استادار الصحبة مملوك ملك الأمراء الذى كان أرسله الى السلطان سليمان بن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى موت أبيه السلطان سليم شاه ، فلما حضر طلعوا الى القلعة ، ومعهم مرسوم مختوم من عند السلطان سليمان بن عثمان ، فاجتمع بالقلعة الأمراء العثمانية والأمراء الجراكسة وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان وهو مكتوب باللغة التركية ، فكان من مضمونه أن السلطان أرسل يقول لملك الأمراء انه فوض اليه نيابة مصر وما معها من الثغور والأعمال ، يعزل من يعزل ، ويولى من يولى ، ولم يرسل اليه خلعة الاستمرار ، فعز ذلك على ملك الأمراء ، وكثر بسبب ذلك القيل والقال بين الناس .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره كان المولد الشريف النبوى بالقلعة على حكم ما ذكرناه فى السنة الماضية .

وفى يوم الخميس ثالث عشره نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء خاير بك بأن من كان له حاجة الى الشام أو غزة يتوجه الى هناك ، فان الدرب السلطانى قد انفتح ، وكان الدرب السلطانى له نحو أربعة أشهر لم يسلك ، ولم تجىء منه القوافل ، حتى عزت البضائع التى كانت تجلب من هناك ، وذلك بسبب عصيان نائب الشام جان بردى الغزالى .

وأشيع أن جماعة من العربان أوقعوا مع جان بردى الغزالى ، وانكسر منهم وهرب ، فقصد ملك الأمراء أن يعلم الناس بأن الدرب قد انفتح وسلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على قرا موسى أحد أمراء ابن عثمان وقرره فى نيابة غزة ، فخرج اليها فى يوم الخميس وسافر .

وفيه قدمت الأخبار من الشام ، بأن السلطان سليمان بن عثمان ، أرسل الى نائب الشام جان بردى الغزالى عساكر عظيمة ، وصحبتهم ابن سوار ، فأوقعوا مع الغزالى فى ثانى عشرى صفر ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة على حلب ، فانكسر منهم وهرب الى حماة ، فتبعوه واقتتلوا معه ، ففر منهم وهرب ، وقصد التوجه الى الشام ، وقطع قناطر الرستنى ، فتبعوه فكان بين الفريقين واقعة عظيمة خارج مدينة دمشق ، فقتل فى تلك المعركة نحو عشرة آلاف انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ما بين عربان ومماليك ، وجماعة من عوام الشام ، وفيهم أطفال وصغار من أهل ضياع الشام ، وغير ذلك ممن حضر تلك الواقعة ، فكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما ملك الشام ، وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبى وحرق ضياع ، وما أبقوا فى ذلك ممكنا ، وليس الخبر كالعيان . والذى قتل تحت أرجل الخيل لا ينحصر ، وآخر الأمر انكسر نائب الشام والغزالى كسرة مهولة ، وقبض عليه وقتل ، وحزت رأسه ، وأرسلت الى اسطنبول مع رأس جماعة من أصحاب الغزالى ممن كان من عصبته ، ونهب وطاقه وبركه عن آخره ، وكانت من الوقائع العظيمة التى لم يسمع بمثلها .

وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وأربعة أشهر الا أياما ، وزال كأنه لم يكن .

وكان الغزالى عنده وهج وخفة زائدة ، أهوج الطبع ، ليس له رأى سديد ، رهاج فى الأمور ليس له تأمل ، وكان ولى نيابة الشام وهو فى غاية العظمة والحرمة الوافرة ، والكلمة النافذة ، وقد أصلح الجهات الشامية فى أيامه حتى مشى الذئب والشاة سواء ، كما يقال فى المعنى :

يا أيهـا الملك الذى سـطواته

فى البيـد يخشى ذئبها من شاتها

وما زال باسـام النفس عليه الجم الكثير من العساكر ما بين عربان جبلى نابلس والكرك وغير ذلك ، والتف عليه جمـاعة كثيرة من المماليـك الجراكسة ، وصاروا يخرجون من مصر فى الخفية ويتوجهون اليه . والتف عليه طائفة من الأكراد والتركمان ، حتى اجتمع عليه اثنا عشر ألف مقاتل ، وفيهم رماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ، وقيل أكثر من ذلك ، فعنـد ذلك حدثته نفسـه بالسلطنة ، وثورته الجهلة فتسلطن وتلقب بالملك الأشرف ، وقبلوا له الأرض هناك ، وخطب باسمه على المنابر فى جمعتين بدمشـق ، وكل ذلك عين الغلط منه ، وكم من عجلة أعقبت ندامة ، فكان كما قيل فى المعنى :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة

حتى تروم التى من دونها العطب

ولما تحقق ملك الأمراء أن الغزالى قد تسلطن بالشـام ، وقبلوا له الأرض هنـاك ، اضطربت أحواله ، وسرت المماليـك الجراكسـة بذلك ، واستبشروا بالفرج ، ويا فرحة ما تمت .

وكان أصـل جان بردى الغـزالى من مماليك الأشرف قايتباى ، اشتراه وأعتقـه ، وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية .

ثم ان الأمير تغرى بردى الأستادار ، قرره شادا فى ضيعة بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب اليها ، وقيل له الغزالى مضافا لاسم تلك الضيعة ثم ان الأشرف قايتباى جعله جمـدارا وقرره فى كشف الشرقية ، ثم بقى أمير عشرة فى أواخر دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم بقى محتسب القاهرة فى دولة السلطان الغورى ، ثم قرره فى حجوبيـة الحجاب بحلب ، فخرج اليها من يومه ، وذلك بعد واقعة مصرباى لمـا انكسر . ثم ان الغـورى نقله من حجوبيه الحجاب بحلب الى نيابه صفد ، وذلك فى سنة سبع عشرة وتسعمائه . ثم نقله من نيابة صفد الى نيـابة حماه ، الى أن توجه السلطان الغورى الى حلب ، وانكسر وجرى له ما جرى ، فرجع الغزالى صحبة العسكر الى مصر ، فوجـد الأشرف طومان باى قـد تسـلطن عوضـا عن الغورى ، فاستقر بالغزالى نائب الشام وقد تقدم القول على ذلك .

فلما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان مصر أقره على عادته فى نيابه الشام ، وجعل له التحدث على الشام وحماه وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقـدس والرملة والكرك وغير ذلك من الأعمال الشاميـة والطرابلسيه ، فلو قنع بذلك لكان خيرا له ، فكان كما يقال فى الامثال السـائرة : « من شرب بكأس الطمع شرق به » .

وفى يوم الأحد ثالث عشريه قدمت الأخبار بأنه وصل قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فلمـا تحقق ملك الأمراء ذلك ، نزل من القلعـه وتوجه الى تربه العادلى ، وبات بها لأجل ملاقاة القاصد الذى حضر . وكان ملك الأمراء أرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب الى الخانكاه ، ليمد له مدة هناك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشريه ، نادى ملك الأمراء فى القاهرة بالزينة بسبب دخول القاصد ، فزينت زينة حافلة ، فلما دخل القاصد لاقاه ملك الأمراء من هناك ، ودخل هوواياه من باب النصر ، وشـق من القـاهرة فى موكب حافل ، وقدامه العسكر قاطبة من الجراكسة والعثمانية ، وقدامه جماعة كثيرة من الانكشارية وهم يرمون بالنفوط ، ودخل قدامه عشرة رءوس على رماح ، زعموا انها

رءوس مشايخ عربان ممن كان من عصبة نائب الشام جان بردى الغزالى ، فشق من القاهرة هو والقاصد ، وكان يوما مشهودا

وفى يوم السبت سلخ الشهر قدم قاصد آخر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وأشيع أنه أتى الى ملك الأمراء بخلعة الاستمرار ، فلما وصل الى تربة العادلى نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، فجلس على المصطبة التى هناك ، فألبسه القاصد الخلعة وهى قفطان مخمل أحمر بتماسيح مذهب ، ثم قام من هناك هو والقاصد ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل أعظم من الموكب المقدم ذكره ، وركب قدامه قضاة القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، وعلاء الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومحيى الدين يحيى الدميرى المالكى ، والشهابى أحمد الفتوحى الحنبلى . وركب قدامه الأمراء الجراكسة قاطبة ، والأمراء العثمانية ، ومشت قدامه الانكشارية والكملية وهم يرمون بالنفوط ، ومشت قدامه طائفة النصارى بالشموع الموقدة ، واصطف الناس له على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكانت القاهرة مزينة فى قوة الزينة ، وعلقوا له أحمالا وثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول المدينة ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، ولا سيما ما فعله تجار الوراقين من الشموع الموكبيات الكبار ، وأطلقوا له المجامر بالعود القمارى ، ومرشات الماورد المسك .

ثم ان جماعة من التجار نثروا على رأسه الفضة فى عدة أماكن من المدينة ، وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من كل جانب من البيوت والدكاكين ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه من عند خان مسرور ، واستمر فى هذا الموكب الحفل ، حتى طلع الى القلعة وعليه خلعة الاستمرار من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وهى بتماسيح مذهب على مخمل أحمر ، وكان ذلك اليوم مشهودا فى الفرجة والقصف .

فلما طلع الى القلعة ، خلع على الأمير قايتباى الدوادار قفطانا مخملا ، ونزل الى منزله ، ثم نادى للناس بفك الزينة .

وقد أقامت الناس مزينة نحو عشرة أيام ، وتكلف الناس بسبب ذلك كلفة عظيمة ، من وقيد وقناديل ، ومشترى زيت ، وحصل فى هذه الزينة من التركمان غاية الفساد من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصى ليلا ونهارا ، حتى خرجوا فى ذلك عن الحد ، ولا سيما ما كان يفعل فى خان الخليلى من الفسق .

وقد ابتهج الناس بهذه الزينة غاية البهجة ، وفى هذه الواقعة يقول صاحبنا الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق يمدح السلطان سليمان بن سليم شاه بن عثمان عز نصره وأجاد حيث قال :

الحمد لله أضحى الملك مبتسما
من بعد ما كان أبدى وجهه كظما

وكيف لا يك يبدى وجهه كظما
على سليم وقد أضحى يرى رمما

وصار بعد سليم لابنه ، وغدا
من السرور به بالبشر مبتسما

وافتر عن شنب الفتح المبين فم الـ
ـنصر العزيز له بالسعد فيه لما

قد قطعت أرؤس الأعداء مخزية
وسيفه ملئت منه البطاح دما

وكيف لا وسليمان مدبره
بخاتم الملك منه مذ به اختتما

وصار من كعبه فينا الغلاء رخا
والخوف أمنا بنا والنور زال عمى

والنيل قد زاد فى هاتور من فرح
به وروى أراضى مصر بعد ظما

وكان أبطا لتوت بالوفا حزنا
على سليم وما روى البلاد بما

ومصر من فرح فى زينة رقصت
لما رأت لرخاها كعبه علما

وأصبحت جنة من سعد خير بك
بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما

وكيف لا وهو خير قد أحل بها
لو لم يكن هو خير قط ما حكما

يا أيها الملك الممدوح دم فرحا
وانظر لقصد عبيد يشتكى ألما

فأنت بالطب أدرى من سواك به
ومن سواك يرى فى حكمه حكما

لازلت من ابن‌قانصوه الوفى ترى
مشنفا بمديح مبدع حكما

والجود كالجود يهمى منك من خلع
نيابة عن سليمان له حكما

وموكب الملك يبديه وأنت بها
كما رأينا بمصر والسرور نما

وأنت فى فرج تبدو وفى فرح
والملك مبتسم منه ترى نعما

وكوكب السعد يسرى فى سما شرف
عليك فى سائر الأوقات محتكما
وقائلا حامدا مذ صار مبتسما
الحمد لله أضحى الملك مبتسما

وقد مضى هذا الشهر عن الناس على خير ، وكان كثير الحوادث ، ووقع فيه أمور غريبة ، وأحوال عجيبة ، ولا سيما ما وقع بالبلاد الشامية من الفتن العظيمة ، من القتل والنهب وحرق الضياع ، وذهاب الغلال ، وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردى الغزالى ، واظهاره للسلطنة . ووقع مثل ذلك بحماه وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية .

* * *

واستهل شهر ربيع الآخر بيوم الأحد ، ففى ذلك اليوم بلغ ملك الأمراء قدوم قاصد ، وهو الثانى من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، قد وصل وعلى يده خلعة ثانية لملك الأمراء ، وهذا القاصد يقال له الأمير على ، فلما تحقق ملك الأمراء وصوله ، نزل اليه من القلعة ولاقاه من عند تربة العادلى ، ولبس الخلعة هناك ، ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وصحبته الأمير على الذى حضر ، ولم يكن صحبته من القضاة سوى قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى بن الدميرى . وكان هذا الموكب على حكم الموكب الذى تقدم ذكره .

ومن العجائب أن ملك الأمراء أوكب ثلاثة مواكب حافلة ، وشق من القاهرة ثلاث مرات ، فى مدة سبعة أيام ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الاثنين ثانى هذا الشهر ، خرج الأمير قرا موسى العثمانى الذى قرر فى نيابة غزة ، فخرج من بين الترب ، ولم يشق من القاهرة ، وخرج صحبته الجم الكثير من الاصباهيه ، ومن التجار فان الدرب السلطانى كان له مدة طويلة وهو منقطع من السالك ، من حين جرى من الغزالى ما جرى ، الى أن أشيع قتله .

وفى يوم الاثنين تاسعه ، كانت وفاة صاحبنا القاضى محب الدين بن آصيل ، وكان رئيسا حشما

من ذوى البيوت ، وكان قد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة ، وحصل له شدائد ومحن ، ومات وهو فى غاية القهر بسبب خروج مشيخة المدرسة الجمالية عنه الى الشيخ زكريا ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره ، توجه ملك الأمراء الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية على سبيل التنزه ، فصنع له المقر الشهابى أحمد بن الجيعان هناك مدة حافلة ، وكذلك الخواجا هاشم ناظر المارستان ، وما أبقى فى ذلك ممكنا .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء فى يوم السبت رابع عشره ، رسم بقطع ثلاث رءوس من أعيان المماليك الجراكسة ، فقطع رءوسهم فى ذلك اليوم تحت شباك الدهيشة ، وأشهر تلك الرءوس على الرماح ، ثم علقها على باب زويلة ، فمنهم شخص يسمى ماماى الساقى ، وشخص يسمى قان بك الأشقر ، وهم من مماليك السلطان الغورى .

وكان سبب ذلك أن هؤلاء المماليك كانوا بالقاهرة ، وكان ملك الأمراء يحسن اليهم غاية الاحسان ، فلما أشيع عن جان بردى الغزالى نائب الشام أنه تسلطن هناك ، وتلقب بالملك الأشرف ، تسحب هؤلاء المماليك من مصر ، وتوجهوا الى الشام ، ودخلوا تحت طاعة الغزالى ، فلما انكسر الغزالى وقتل وجرى له ما جرى ، حضر هؤلاء المماليك واختفوا فى القاهرة ، فغمز عليهم .

فلما بلغ ملك الأمراء بذلك أرسل الوالى فقبض عليهم ، وأحضرهم بين يديه ، فلما مثلوا بين يديه ، وبخهم بالكلام ، فأغلظ عليه فى القول ماماى الساقى ، فحنق منه فرسم بقطع رقابهم بين يديه ، ورسم للوالى بأن كل من كان عند الغزالى من المماليك وحضر الى مصر ، يوسطه من غير اذن ، ولو كان من الأمراء . واشتد غضب ملك الأمراء فى ذلك اليوم بحيث انه حم جسده فى ذلك اليوم ولزم الفراش ، وانقطع عن المحاكمات ثلاثة أيام ، وأشيع أنه قد طلع له تسالك فى مشعره ، واشتد الألم عليه ، وانقطع عن الخروج ، وصار يتصدق على الزوايا والمزارات بمال له صورة ، وصار يذبح الذبائح من الأبقار على أبواب الجوامع الكبار ، ويتصدق بلحومها على المجاورين بالجوامع والزوايا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره ، نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء : « معاشر كافة الناس ، ان كل من كان عنده مملوك من المماليك الجراكسة ، ممن كان عند الغزالى نائب الشام ، وأخفاه ولم يقر به ، يشنق على باب داره من غير معاودة » . وصارت هذه المناداة تتكرر فى كل يوم ثلاث مرات ، نحو ثلاثة أيام على لسان أربعة مشاعلية ، اثنان بالتركى واثنان بالعربى .

وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية بسبب جان بردى الغزالى نائب الشام . فمن الناس من يقول انه باق فى قيد الحياة ، وأن الرأس التى قطعت غير رأسه ، ومن الناس من يقول انه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ، وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ، والأصح أنه قتل على القابون ، وهى ضيعة من الشام . وهذه الواقعة تقرب من واقعة قانصوه خمسمائة لما شك الناس فى قتله .

وفى يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر ، كانت وفاة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، ابن أمير المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله ، وكان مولده سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وأمه تسمى آمنة ، وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن محمد المتوكل على الله فهو هاشمى الأبوين . وكان رئيسا حشما دينا خيرا صالحا لين الجانب متواضعا ، ولى الخلافة فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى

الأشرف ، وأقام فيها احدى عشرة سنة ونصفا ، وبايع اربعه من السلاطين ثم صرف عن الخلافة فى دولة الأشرف الغـورى ، وعهـد الى ولده محمد المتوكل على الله ، وقاسى شدائد ومحنا ، وقد تقدم ذكر ذلك . وحصل له ضعف فى بصره ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وكان رجلا مباركا لم تعهـد له صبوة قط ، ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة أو دون ذلك ، وكان ولده غائبا باسطنبول من حين نفاه السلطان سليم شاه ابن عثمان ، ولما مات رثاه الأديب البارع ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق بهذه المرثية فقال :

رشـق الموت فى مرامى القلوب
من قسي النجوى سهام الكروب
يالهـا من سـهام كرب عظيم
فى مرامى الحشا برمى مصـيب
صـيرت دورنا خـرابا وصرنا
بعـد عـز أذلة للخطـوب
يا لهـا من مذلة بعـد عـز
صيرتنـا من عظمها فى لغـوب
أين خـير الأنام والآل والصحـ
ـب وأين الملوك أهل الحـروب
قـد قضى الله بالممات عليهم
مثـل ما قد قضى على يعقوب
الذى كف عن فـراق مناه
وتلقى البـلاء عـن أيوب
غاب عنه ابنه فمات بحـزن
كمدا .. من يطيق فقد الحبيب ؟
ابن عبـد العزيز أعنى أمـير الـ
ـمؤمنـين النجيب وابن النجيب
صاحب العهـد والخلافة والعقـ
ـد مع الحل واللوا والقضـيب
قلت صبرا على الذى حل لمـا
قد أشان فى ذا الزمان العجيب
هاشـمى أبا وأما وهـذا
غاية المجـد للحسيب النسيب
الـذى كان للأرامـل والأيـ
ـتام كفؤا وكان مأوى الغـريب
يا يتـامى ويا أرامل ضـجوا
واهطلوا عينكم بدمع سـكوب
واسألوا الله أن يسـكنه الفر
دوس فضـلا فالله خـير مجيب
والى مصر أن يجىء قـريبا
ابنـه فى هنـا وعيش خصيب
صـبر الله روح والـده فى
خـير روح بنشر بشر وطيب
وكذا روح من رثاه بهـذا
ان يمت مثـله بأوفى نصيب
وكذا قانصـوه أبوه امتنـانا
منه ما صـاح ذو بكا ونحيب
قائلا والعيـون تجرى عيـونا
رشـق الموت فى مرامى القلوب

ولما توفى الخليفة يعقوب لم يستطع ملك الأمراء أن ينزل من القلعة ويصلى عليه ، فانه كان فى غاية الضرر من تلك التساليك التى طلعت له فى مشعره ، فحضر مشهد الخليفة يعقوب قضاة القضاة ، وبعض الأمراء فصلوا عليه ودفن عند أقاربه بالمشـهد النفيسى رحمة الله عليه ، ودفن يوم الجمعة عشريه .

وتوفى بزدداره الحاج على فى ذلك اليوم ، ودفن عقيب دفن أستاذه يعقوب .

وفى يوم السبت حادى عشريه خرج الأمير قاسم العثمانى كزلك بك الذى حضر صحبة الاصباهيه ،

فرجع الى اسطنبول وصحبته جماعة من العساكر العثمانيه الذين كانوا بمصر ، فاختاروا عودهم الى بلادهم باسطنبول هم وهؤلاء الذين حضروا صحبة الخلعة التى جاءت الى ملك الأمراء من عند السلطان سليمان بن عثمان .

وفيه حضر الى الديار المصرية القاضى بدر الدين محمد المسعودى ابن الوقاد ، وكان توجه الى اسطنبول مع جملة من توجه من الأسارى ، فأقام فى اسطنبول مدة طويلة الى أن مات السلطان سليم شاه وولى ابنه سليمان ، فاستأذن الوزراء فى الحضور الى مصر لتفقد احواله ، ثم يعود الى اسطنبول ، فأذنوا له فى ذلك ، فحضر الى مصر وهو فى الترسيم بشاويش مرسم عليه ، وحضر صحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق ، وكريم الدين المجولى ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى وهو معتوق الناصرى ، ومحمد بن فارس ، فلما حضروا الى مصر أقاموا بها مدة .

فلما انقضى الميعاد الذى قرره معهم الشاويش ، استحثهم على الخروج والسفر الى اسطنبول . فلما كانت ليلة الرحيل ، اختفى القاضى بدر الدين بن الوقاد ولم يظهر ، فشق ذلك على الشاويش الذى كان مرسما عليهم .

وكان ابن الوقاد اختفى باذن ملك الأمراء ، حتى قيل ان ابن الوقاد قدم لملك الأمراء فى هذه الحركة ألف دينار فى الخفية ، وصار ملك الأمراء يظهر الغيظ على ابن الوقاد ويشدد فى طلبه ، ورسم على أصحابه وجيرانه ، وأظهر للشاويش الذى حضر صحبته أنه محث فى طلبه والأمر بخلاف ذلك ، ثم ان ذلك الشاويش قبض على كمال الدين بزددار طراباى ، وعلى كمال الدين العائق ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى ، ووضعهم فى الحديد وأخرجهم من مصر على أقبح وجه ، وسافروا من البحر الى اسطنبول ، وقاسوا شدائد ومحنا

وفيه توفى المعلم عبد الرحمن بن طبيله المعامل فى الدجاج والأوز ، وكان علامة عصره فى هذا الفن ، وكان فى سعة من المال لا بأس به ، وله بر ومعروف .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، كان عيد النصارى وهو أول يوم من الخماسين ، وكان ذلك اليوم رطبا وفى السماء غيم ، وهذا فأل للنيل بأن يكون فى تلك السنة عاليا جدا فى الزيادة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشريه ، حضر أولاقى من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وعلى يده مراسيم تتضمن أن كزك بك قاسم الذى حضر وعلى يده خلعه الاستمرار لملك الأمراء ، يستقر فى نيابة حلب ، عوضا عمن كان بها . وقيل ان كزك بك هذا رضع مع السلطان سليم شاه .

وقد صارت النيابات كلها بيد جماعة ابن عثمان ، فكزك هذا قرر فى نيابة حلب ، وشخص آخر يقال له اياس فى نيابة الشام عوضا عن الغزالى ، وقرر فرحات بك فى نيابة طرابلس ، وقرر قرا موسى فى نيابه غزة . وقد اقتسم العثمانيه النيابات التى كانت بيد أعيان المماليك المصرية .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن نابتة الحنفى ، وكان لا بأس به . ولم يظهر القاضى بدر الدين بن الوقاد ، ولا كريم الدين المجولى ، فلما طال الأمر على الشاويش الذى كان توكل بهما ، تقلق وخرج وسافر من البحر وصحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور ، والخواجا عمر بن معزوز المغربى ، وزين العابدين حامل المزرة ، وبدر العادلى ، وحسين ويوسف مناخير ، فخرجوا من القاهرة

على أقبح وجه من الشاويش الذى وسم عليهم فوضعهم فى الحديد ، وكتف بعضهم بالحبال ، وساقهم مشاة قدامه حتى وصلوا الى بولاق فأنزلهم فى المراكب ، وسافروا نحو اسطنبول ، وحصل لهم الضرر الشامل من الشاويش . وقد حنق من ابن الوقاد والمجولى ، وحط غبنه فى هؤلاء ، ولم يتأخر بمصر ممن حضر صحبته سوى بدر الدين بن الوقاد والمجولى وزين الدين العجمى شفع فيه ملك الأمراء من التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل الأمير على بن عمر شيخ جهات الصعيد ، تقدمة حافلة للسلطان سليمان بن عثمان قيل انها قومت بستين ألف دينار ، وكان السلطان سليمان بن عثمان أرسل الى الأمير على بن عمر خلعة الاستمرار على حاله بمشيخة الصعيد ، وقد رأى الأمير على بن عمر فى دولة ابن عثمان ما لم يره أحد من أجداده ولا من أقاربه ، من العز والعظمة والمال والجاه .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم . ولما طلعوا الى ملك الأمراء وجدوه بالأشرفية التى بجوار الدهيشة ، فقام اليهم وكان له مدة وهو متوعك فى جسده بسبب طلوع التساليك التى فى مشعره ، وقد أشرف على الشفاء وبرىء من ذلك العارض ، وفى ذلك يقول ابن قانصوه :

الحمد لله ثغور الهنا
سرورنا منها أرتنا شفاه
لما الى نائبنا شاهدت
فابتسمت من فرح عن شفاه

وفى يوم الثلاثاء ثامنه ، ركب ملك الأمراء ، ونزل من القلعة ، وقد شفى من ذلك العارض الذى كان قد اعتراه . فلما نزل من القلعه توجه الى بيت الأمير فرحات بك الذى قرر فى نيابة طرابلس ، فنزل اليه وودعه ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة وشق من الصليبة وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، وقد هنأه بالشفاء الأديب البارع محمد بن قانصوه بقوله :

الحمد لله زال الهم والألم
عنا لبرئك والأعدا لها سقم
وقلعة الملك أضحى وجهها طلقا
من بعد ماكان فيه قد بدا الكظم
وأصبحت مصر بعد الحزن فى فرح
بكم وأمست بثغر البشر تبتسم
وقد غدت بلسان الحال قائلة
الحمد لله زال الهم والألم

وفى يوم الجمعة حادى عشره ، قدم الأمير جانى بك وهو أخو الأمير قايتباى الدوادار ، وقد تقدم القول بأنه توجه الى كشف البلاد الشاميه ، وأرسل ملك الأمراء على يده تقدمة حافلة الى الأمير اياس العثمانى ، الذى استقر فى نيابة الشام عوضا عن جان بردى الغزالى ، فلما قابل ملك الأمراء خلع عليه ، ونزل الى منزله ، وهو فى غاية التعظيم .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره ، خرج ملك الأمراء وصلى صلاة الجمعة ، وكان له مده وهو منقطع لم يصل الجمعة فى جامع القلعة . فلما خرج من الصلاه خلع على المزينين والحكماء ، وقيل دخل على المزينين والحكماء ألف وخمسمائة دينار ، من نساء ملك الأمراء ، ومن سراريه ، ومن الأمير جانم الحمزاوى ، ومن الأمير برسباى الخازندار والمهمندار ، والمباشرين وأرباب الدولة قاطبة ، ومن الأمراء العثمانية وغير ذلك من أعيان الناس .

وفي يوم السبت ثاني عشره ، خلع ملك الأمراء على الأمير جانم الحمزاوي ، وخلع على الأمير جانبك كاشف الفيوم ، ... في أمره التاج على سالما ... وخلع على الأمير ... بن الأسعد شيخ جهات الصعيد ، وهو على عادته في مشيخته .

وفيه قدمت الأخبار بأن الأمير برسباي الذي عين في نيابة طرابلس ، لما وصل الى الصالحية ، وجد العربان هناك مفتتنة ، فأرسل يطلب من ملك الأمراء نجدة ، فان العربان قد ثاروا عليه في الطريق ، وكادوا يسلبونه ، فأرسل اليه جماعة من الكملية والاصباهية بسرعة على الفور ، حتى أدركوه واستمروا معه الى طرابلس ، وكانت العربان في هذه الأيام في غاية الفساد في البلاد الشامية ، من عربان بني عطاء وبني عطية .

وفي يوم الأحد عشريه توفي القاضي بدر الدين محمد المعروف بابن العيسى ناظر ديوان الأحباس ، وكان رئيسا حشما حسن السيرة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشريه ، وقع ان ملك الأمراء تغير خاطره على شخص من الخدام يقال له متقال ، فقطع أنفه وأذنيه ، ورسم بنفيه الى مكة ، فنزل من القلعة والدم يقطر من أنفه وأذنيه ، ولم يكن له ذنب كبير يوجب ذلك .

وفيه حضر جماعة كثيرة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخذهم من مصر ، فلما مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، واستقر سليمان ولده بعده ، رسم بعود الأسرى قاطبة الى بلادهم ، ورأف بهم ، وأظهر العدل فيهم . فحضر منهم جماعة في هذا الشهر ، منهم شهاب الدين أحمد بن قريبط ، ومحيي الدين وزين الدين بن بهاء الدين أحد كتاب المماليك ، والخواجا أبو الطيب بن الرئيس يحيى المزين ، وعبد الحفيظ ابن النار تاجر بالوراقة ، وأبو الفضل بن بركات السمسار في الجملون ، وتاج الدين بن ابراهيم ابن القاضي ... ، وبدر الدين محمد ... الأمير ... ، وآخرون لم تحضرني أسماؤهم الآن .

وفي يوم الاثنين ثامن عشريه ، ظهر كريم الدين المجرلي ، وبدر الدين السعودي بن الوقاد ، وقد تقدم القول في سبب اختفائهما من الشاويش الذي كان مترسما عليهما ، وحثهما على الخروج الى اسطنبول .

* * *

وفي شهر جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم الخميس ثاني الشهر خرج الأمير جانم الحمزاوي وقصد التوجه الى اسطنبول ، وكان ملك الأمراء عينه الى السفر الى السلطان سليمان بتقدمة ، كما كان يرسله الى والده سليم شاه ، وقيل ان هذه التقدمة التي أرسلت على يد الأمير جانم الحمزاوي ، قومت بمائتي ألف دينار أو فوق ذلك ، فخرج الأمير جانم الحمزاوي في موكب حافل ، ولم يشق من القاهرة ، بل خرج من التربة . وكان الأمير جانم الحمزاوي يومئذ من أرباب الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمعت فيه الكلمة ، ورأى من العز والعظمة في دولة ملك الأمراء خاير بك ما لم يره غيره من الأمراء .

وأشيع أن ملك الأمراء رسم لكريم الدين المجرلي بأن يسافر الى اسطنبول صحبة الأمير جانم الحمزاوي ، وأما القاضي بدر الدين السعودي بن الوقاد فأشيع أنه قدم لملك الأمراء ألف دينار حتى

أقام بمصر . وكاتب عنه ملك الأمراء بأنه لا يستطيع سفر الى اسطنبول

وفيه قدم الشيخ شمس الدين محمد السمديسي الحمصي ، الذي كان ولي قضاء الحنفية في دولة الغوري بحلب . وكان السلطان سليم شاه بن عثمان لما انكسر الغوري ومات بحلب ، وملك سليم شاه حلب ، قبض على السمديسي وأرسله من هناك الى اسطنبول ، فأقام بها حتى رسم السلطان سليمان بعود الأسرى الى بلادهم ، فحضر السمديسي مع جملة من حضر الى مصر ، وحضر صحبته محب الدين الحنبلي الذي كان مقيما بالخانقاه الشيخونية ، وحضر أبو الفوز بن الحمصاني ، وأفضل الدين موقع السلطان طومان باي ، وحضر شمس الدين محمد المقسمي أحد نواب الشافعية ، فحضر هؤلاء كلهم من البحر المالح من دمياط .

وفيه دخل الأمير جانم الحمزاوي من الخانكاه وسافر .

وفيه حضر من اسطنبول المهتار محمد الخولي مهتار السلطان الغوري ، وحضر من التجار ابن أبي عوانة البرلسي ، وآخرون

وفيه استقر في نيابة جدة شخص من تجار الأروام يقال له عيسى قرا قرر في نيابة جدة عوضا عن حسين الذي كان بها .

وفي هذا الشهر ظهر شمس الدين محمد بن ابراهيم الشرابيشي الذي كان متحدثا في أوقاف الزمامية ، وكان له مدة من حين حضر من اسطنبول في الخفية ، فظهر لما أفرج السلطان سليمان بن عثمان عن الأسرى الذين كانوا باسطنبول .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره ، توفي القاضي محيي الدين النبراوي أحد نواب الحنابلة ، وكان عالما فاضلا ، علامة في مذهبه ، مات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدها ، وهو آخر نواب الحنابلة ممن ولي عن قاضي القضاة عز الدين العسقلاني ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد المنوفي ، صاحب ملك الأمراء ، وكان لا بأس به ، وكان له فيه اعتقاد عظيم بالصلاح .

وفيه توفي الشيخ عبد الصمد خطيب المدرسة الجيعانية وكان لا بأس به

ومن الحوادث أنه في يوم الجمعه سابع عشره ثارت فتنة عظيمة بين الاصباهية والانكشارية ، وغلقوا باب القلعه ، ومنعوا القاضي الشافعي أن يطلع القلعة ويصلي بملك الأمراء صلاة الجمعه

واستمرت هذه الفتنة عمالة بين الفريقين يومين ، وصارت الانكشارية ينزلون من القلعة مشاة ويقتتلون مع الاصباهية في الرميلة ، ويطردونهم الى الصليبة ، فقتل من الاصباهية شخص من أعيانهم ، فلما تزايد الأمر دخل بينهم أغواتهم والكيخية الكبير ، فأصلحوا بينهما ، فاصطلحا على فساد ، وخمدت هذه الفتنة ولله الحمد .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان الشرقية قد خرجوا عن الطاعة ، وأظهروا العصيان ، ونهبوا الضياع ، فعند ذلك عين ملك الأمراء قايتباي الدوادار وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ، بأن يخرجوا الى العربان ويحاربوهم ، فخرج الأمير قايتباي من يومه على جرائد الخيل ، وتوجه الى بلبيس ، وأقام بها .

ثم أشيع أن الأمير قايتباي قد وقع بينه وبين شيخ العرب بيبرس بن بقر واقعة ، وكبس عليه تحت الليل ، فهرب منه وأظهر العصيان ، فتوجه الى

نحو الطور وأقام به ، فلما أظهر العصيان بيبرس ابن بقر اضطربت أحوال الشرقية الى الغاية ، حتى أشيع أن ملك الأمراء قصد أن يخرج الى العربان بنفسه ، فان سبع طوائف من العربان كلهم تحالفوا على العصيان ، والخروج عن الطاعة ، منهم بنو عطية ، وبنو عطاء ، وبنو حرام ، وغير ذلك من طوائف العربان المفسدين .

ثم ان ملك الأمراء خلع على الأمير أحمد بن بقر واستقر به فى مشيخة الشرقية عوضا عن أبيه بيبرس .

***

وفى شهر رجب — وكان مستهله يوم الخميس — اتفق أن ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة بالليل مستهل الشهر ، فتفاءل الناس بأن النيل سيكون فى تلك السنة عاليا مباركا ، ففى أوله طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ، وفى يوم الأحد رابعه قبض ملك الأمراء على شخص من الاصباهية قتل شخصا من المماليك السلطانية فى محل سكر ، فغضب على قتله خير الدين بك نائب القلعة ، فربطوه فى ذنب اكديش وهو على ظهره ، ثم سحبوه وطلعوا به الى القلعة ، وشنقوه ومضى أمره .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة ، وكان له مدة لم يتنزه فى الروضة ، ولا غيرها من المتنزهات ، وسبب ذلك العارض الذى طلع له ولم يختم الى الآن .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كانوا هناك من أهل مصر ، وأشيع أن السلطان سليمان نادى فى اسطنبول بأن الجماعة الأسرى الذين من أهل مصر يرجعون الى بلادهم ولا يتأخر منهم أحد ، وكل من تأخر منهم شنق ، فلم يتأخر باسطنبول سوى سيدى على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وابن السلطان الغورى ، والناصرى محمد بن خاص بك ، ومن المباشرين محمد بن صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر بن الملكى ، وعبد الكريم أخى الشهابى أحمد بن الجيعان ، وآخرين من أعيان الديار المصرية .

فحضر من جملة من حضر من اسطنبول ، القاضى شمس الدين محمد الجلبى أحد نواب الشافعية ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الدمياطى أحد نواب الشافعية بالديار المصرية ، وولى أمانة الحكم أيضا .

ومن العجائب أنه لما حضر الى القاهرة ، حصل له توعك فى جسده فى مدة اقامته فى البحر المالح ، فلما وصل الى منزله أقام به ليلة واحدة ومات رحمة الله عليه ، فكان ترابه بمصر . وحضر زين الدين المنوفى الموقع ، وابن عمه أفضل الدين . وحضر نور الدين على بن عبد الغنى مباشر الدشيشة . وحضر عبد العزيز السمسار فى البهار . وحضر عبد العظيم بن أبى غالب المباشر . وحضر القاضى شهاب الدين أحمد بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة . وحضر شمس الدين محمد بن عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وحضر يحيى بن يحيى مقدم الخاص . وحضر الخواجا أبو بكر الهاشمى . وحضر عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه وولده زين الدين . وحضر ابن الطنساوى يحيى مباشر الديوان المفرد . وحضر ابن السيرجى وغير ذلك .

وفيه قدم شخص من الأمراء العثمانية يقال له نصر باي . فلما بلغ ملك الأمراء قدومه نزل اليه ولاقاه من عند تربة العادلى ، ودخل صحبته وشق من القاهرة وهو راكب عن يمينه ، فأنزله فى بيت الأمير أزدمر الدوادار ، ورتب له فى كل يوم ما يكفيه من دجاج وغنم وأوز وسكر ودقيق وغير ذلك ، وأشيع أنه يقيم بمصر عوضا عن قرجاب الذى قرر فى نيابة حماه .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل اليه ملك الأمراء وأنعم عليه بخمسة آلاف دينار برسم النفقة على جماعته

وفى يوم الخميس خامس عشره ، طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، فجاءت القاعدة ستة أدرع وثمانية أصابع

وفى يوم الجمعة سادس عشره حضر الأمير قاينباى الدوادار من الشرقية ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى الشرقيه بسبب العربان وفسادهم وعصيان بيبرس بن بقر ، فلما رحلوا الى الطور رجع الأمير قايتباى الدوادار الى القاهرة ، وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب صحبته ، فانه كان توجه الى الشرقية أيضا .

وفيه توجه ملك الأمراء الى الجزيرة الوسطى ، وسبب ذلك أن الأمير تنم الناظر على وقف الدشيشة كان قد صنع هناك مركبا عظيمة بسبب حمل مغل الدشيشة ، وكان طولها مائة وعشرين ذراعا ، وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ، ومقعد ومبيت واسطبل للخيل ، فعرضها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال الى الطور ، ومن هناك يرسلها الى البحر المالح . فلما نزل اليه ملك الأمراء مد له مدة حافلة ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعه

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن جماعه من عربان دمشق ثاروا على نائب الشام الأمير اياس بك ، فلما خرج اليهم ووقع معهم ، انكسر وجرح ورد الى الشام وهو مكسور من العرب ، وقتل من عساكر الشام ما لا يحصى ، ومن عربان جبل نابلس أيضا ، وكانت فتنة مهولة بدمشق .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلى ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل ، والأمير تصوح صحبته ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء

* * *

وفى شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — طلع القضاة الأربعه الى القلعه ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى منازلهم . وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول ، بأن طائفة من طوائف الفرنج يقال لها انكرس ، قد تحالفوا على قتال السلطان سليمان بن عثمان ، فلما تحقق ذلك جمع العساكر من كبير وصغير ، وخرج من اسطنبول وتوجه الى قتالهم فى الجم الكثير من العساكر والفرسان .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على شخص من الأتراك يقال له جان قلج ، فسجنه بالعرقانة وأوعده بالتوسيط ، وكان سبب ذلك أنه كان ساكنا فى بيت شخص من أبناء الناس — وهو ابن الأمير شاهين الجمالى الذى كان ناظر الحرم النبوى — فانكسرت عليه أجرة المكان ، فطالبه ابن شاهين ، فلم يعطه شيئا وسبه سبا فاحشا ، فطلع ابن شاهين وشكاه الى ملك الأمراء ، فأرسل خلفه

جان قلج فلم يطلع فى ذلك اليــوم ، وأساء على قاصد ملك الأمراء ، فبلغ ملك الأمراء ذلك ثم ان جان قلج طلع بعد ذلك الى ملك الأمراء وقابله ، فقبض عليه وسجنه بالعرقانة ، وكان تقدم له مع ملك الأمراء واقعه مهولة ، فاستمر فى نفس ملك الأمراء منه أشياء كمينة ، وكان جان قلج عنده بادرة وكلامه يابس ، كثير الفجور

ومن الحوادث المهولة أيضـــا واقعه ســيدى عمر بن الملك المنصــور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وذلك أن سيدى عمر كان مزوجا بابنة الأمير جانم الأشرفى الذى كان نائب الشــام — وكانت زوجة تمراز التمشى — فكان له رزقة وقفها عليها وبها فلاحون ، فلما تزوج بها سيدى عمر تكلم على جهاتها ، فقيل انه جار على فلاحى تلك الرزقة ولم يسش لهم أمر الشراقى فى الحصــة ، فتضرر الفلاحون لذلك ، فوقفوا الى ملك الأمراء وشكوا له من سيدى عمر بأنه قد جار عليهم ، وأخذ منهم أزيد من الخراج عن المقطعين بالناحية . فأرسل اليه ملك الأمراء يقول له انظر فى حالهم ولا تجر عليهم ، فقال سيدى عمر : « وايش كان ملك الأمراء حتى يدخل بينى وبين فلاحينى فى شىء ليس له فيه شغل ؟ » فبلغ ملك الأمراء ذلك فتغير خاطره على سيدى عمر ، فأرسل اليه قاصدا فأغلظ عليه فى القول ولم يطلع ، فحنق منه ملك الأمراء وأرسل اليه جماعة من الانكشارية فقبضوا عليه غصبا وبهدلوه ، وطلعوا به الى القلعة ، فلما دخلوا الى الحوش قبضوا عليه وأدخلوه العرقانة ، فسجن بها وبات تلك الليلة وأقام بها الى ظهر اليوم الثانى حتى شفع فيه بعض الأمراء ، فمضى الى داره بعد أن قاسى غاية البهدلة من الانكشاريه ، فما شكر أحد من النــاس ملك الأمراء على هذه الفعــلة الفاحشة لأنه لا يستحق ذلك كله .

وفى هذا الشهر كانت وفاة الشـــيخ زين الدين المغربى ، وكان صالحا معتقدا دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان متعصبا لمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس ثامن عشرى هذا الشهر ، قدم شخص من عند السلطان سليمان بن عثمان يقال له محمد بن ادريس ، ويعرف بتلفسز الدفتردار ، وصحبته شخص يقال له الأمير كمال . فلما وصل الى تربة العادلى نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، ثم دخل هو واياه من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه الانكشارية والكملية مشاة يرمون بالنفوط ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وأنزل الدفتردار فى بيت الأمير يسبك الدوادار الذى فى حارة البقر ، ومد له هناك مادة حافلة ، وأنزل الأمير كمال فى مكان آخر ، وأشيع أن الأمير كمال حضر يروم الحج الى بيت الله الحرام ، والدفتردار حضر بسبب ضبط مال الثغور من الجهات المصرية .

* * *

وفى شــهر رمضـــان ، وكان مســتهله يوم السبت ، وكان الهــلال عسر الرؤية على خمس درج ، وقيل على أربع درج ، فرآه بعض النــاس وثبت عند القاضى زكرياء أحــد نواب الشافعية ، وركب القــاضى بركات بن موسى من المدرســة المنصورية بعد المغرب ، وقدامه المشاعل والفوانيس وشق من القاهرة فى موكب حافل على العادة .

وفى يوم السبت مستهل الشهر كان وفاء النيل المبارك ، أوفى الله تعالى الستة عشر ذراعا وست أصابع من الذراع السابع عشر ، ثم فتح السد يوم الأحد ثانى شهر رمضان — الموافق الحادى عشر مسرى — ووقع فى دولة الأشرف قايتباى أن السد

فتح فى أول يوم من رمضان ، فلما أوفى النيل نزل ملك الأمراء الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة ، وتوجه الى السد ففتحه على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا فى الفرجة والقصف ، كما يقال فى المعنى :

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعهم
مخلق تملأ الدنيا بشائره

وفى يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان ، صعد الدفتردار محمد بن ادريس الى القلعة ، واجتمع الأمراء العثمانية بالقلعة ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه التوصية بالرعية غاية الوصية ، وان ملك الأمراء ينظر فى اصلاح المعاملة من الذهب والفضة . فوقع فى المجلس بعض تشاجر بين الدفتردار وبين ملك الأمراء بسبب ذلك ، فقال ملك الأمراء : « أنا ما أغير معاملة السلطان سليم شاه ، ولا أخرج عما وقع فى أيامه من أن الأشرفى الذهب يصرف فى المعاملة بخمسين نصفا على العادة » .

ثم ان ملك الأمراء رسم باحضار التجار ، فلما طلعوا الى القلعة تكلموا معهم فى أمر صرف الأشرفى الذهب الواسع بخمسين نصف فضة ، فتضرروا من ذلك ، وقالوا ما يوافقنا أحد من الناس على ذلك ، وانفض المجلس مانعا من ذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ، تكلم مع ملك الأمراء بأن يصرف الأشرفى الذهب بخمسة وأربعين نصفا ، وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا ، وفى البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا ، فوقع الاتفاق على ذلك ، ونودى فى القاهرة بذلك ، فسكن الاضطراب قليلا . ثم ان القاضى بركات جعل القاضى حمزه العثمانى متكلما على دار الضرب .

ثم بعد ذلك لم يتم أمر صرف الأشرفى الذهب الواسع بخمسة وأربعين نصفا ، وصار يصرف بأربعين نصفا ، وعز وجود الفضة جدا ، وصار الأشرفى الذهب يصرف بمشقة زائدة من السوقة ، ويعطون فيه النصف فضة والنصف فلوسا جددا ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه وقع بها طاعون عظيم ، وصار يموت بها كل يوم ما لا يحصى .

وفيه توجه الدفتردار الذى حضر الى ثغر دمياط والبرلس وثغر الاسكندرية أيضا بسبب جبى الأموال التى أضيفت الى خزائن الخنكار بالروم ، فخرج الدفتردار وصحبته القاضى حمزة .

وفى أثناء هذا الشهر ، حضر جماعة من اسطنبول مع جملة من حضر منها ، فحضر القاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص وأخوه . وحضر القاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى . وحضر من نواب القضاة القاضى شمس الدين محمد العبادى أحد نواب الشافعية . وحضر القاضى شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية . وحضر القاضى شمس الدين محمد الابشادى أحد نواب المالكية . وحضر بدر الدين بن الرومى . وحضر القاضى ابن عرفات أحد نواب الشافعية . وحضر تقى الدين العزيزى الشافعى . وحضر بدر الدين محمد بن حازوقة مباشر الأمير علان الدوادار . وحضر أحمد السكندرى الشطرنجى رفيق ابن الورد . وحضر أبو البقاء بن السيرجى . وحضر بدر الدين بن الهيصم وآخرون من المباشرين والقضاة والأعيان لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأشيع أن السلطان سليمان — نصره الله تعالى — أعتق جميع الأسرى الذين كانوا باسطنبول من أهل مصر ، ولم يبق فيها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيعان ممن تقدم ذكرهم ، وجماعة من أعيان الديار المصرية ، وأما الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين كان السلطان سليم شاه نفاهم الى اسطنبول ، فلما ولى ابنه سليمان لم يأمر لهم بالعود الى مصر ، ولم يقبل فيهم شفاعة ، واستمروا فى بلاد الروم الى الآن .

وأشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان كان أرسلهم الى مكان يحاصرون فيه الفرنج ، وقد خمدت أخبارهم ، فلما حضر هؤلاء الجماعة من اسطنبول ، أشاعوا أن السلطان سليمان شاه بن عثمان قد خرج الى القتال بسبب الفرنج ، ولم يرد من عنده خبر من حين توجه اليهم

وأخبر الجماعة الذين قدموا من اسطنبول أن القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، حصل له فى عقله ذهول ، وحصل له ضيق معيشة ، وصار يشترى عشاءه وغداءه من الطباخ فى زبدية ، ويحملها بنفسه على يده ، وهو لابس كنبك لباد أبيض ، وقاسى شدائد ومحنا .

وأخبروا عن زين العابدين ابن قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل أنه تسحب من اسطنبول ولم يعلم له خبر من حين خرج ، وكانت جماعة من الشاويشية ينصبون على من هناك من الأسرى من أهل مصر ، ويقولون نحن نسافر بكم من اسطنبول فى الخفيه ونتوجه بكم الى مصر ، فيخرجون بهم من اسطنبول ويقتلونهم فى الطريق ، ويأخذون ما معهم من مال وقماش ، وقد فعلوا مثل ذلك بكثير من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، ولم يعلم لهم خبر الى الآن .

وفى يوم السبت خامس عشر شهر رمضان ، قدمت الملكة خاتون — عمه السلطان سليمان بن عثمان — وولدها مصطفى صحبتها ، وأشيع انها قدمت الى مصر تروم حج بيت الله الحرام ، فأكرمها ملك الأمراء غاية الاكرام ، وأنزلها فى مكان مطل على بركة الفيل ، ورتب لها فى كل يوم أسمطة حافلة لها ولجماعتها الذين قدموا معها من بلاد الروم .

وفى يوم الخميس عشريه ، وقع فيه كائنه يحيى ظلام ، وكان يتجر فى السكر وله مطبخ يعمل فيه السكر ، فاستمر على ذلك مدة طويلة . ثم انه بعد ذلك انكسر وتجمد عليه جملة ديون كثيرة ، بحيث أشيع عنه أنه تجمد عليه نحو أربعين ألف دينار ، فلما انكسر طالبه أصحاب الديون ، وكان المال لأقوام من تجار خان الخليلى وغيرهم ، فلما طال الأمر عليهم شكوه الى ملك الأمراء ، فرسم عليه ملك الأمراء مدة طويلة بجماعة من الانكشارية حتى يرضى أصحاب الديون ، فاستمر فى الترسيم مدة طويلة ، وكان ملك الأمراء قرر عليه وألزمه بأن يرد لأصحاب الديون فى كل شهر خمسة آلاف دينار ، فما قدر على ذلك وعجز عن ايراد ذلك القدر . وكان ملك الأمراء حلف يمينا برأس السلطان سليمان ابن عثمان ان لم يرض أصحاب الديون فى حقوقها والا يوسطه ، فلما ضاق عليه الأمر خنق نفسه تحت الليل ، وأصبح ميتا . ثم أشيع أن الانكشارى الذى كان مرسما عليه خنقه تحت الليل ، وأخذ ما كان معه من المال الذى كان يورده لأصحاب الديون على أول الشهر ، وأشاع عنه أنه قد خنق نفسه وأصبح ميتا . ومضى أمره الى حال سبيله .

وفى يوم الخميس سابع عشرى شهر رمضان ، كان يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة

النيلية ، وهى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية ، ففى ذلك اليوم بلغ النيــل فى الزيادة سبع عشرة أصبعا من تسعة عشر ذراعا واستمر عمالا فى الزيادة .

وفى يوم السبت تاسع عشرى شهر رمضان ، وقع فيــه من الحوادث كائنة سيدى عمر بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق — وذلك أن القول تقدم بما وقع لسيدى عمر مع ملك الأمراء بسبب أمر الفلاحين ، فاستمر سيدى عمر يتابع عائله مع الفلاحين كما تقدم ، فوقعوا وشكروه الى ملك الأمراء ثانيا ، فتغير خاطره على سيدى عمر واحتد منه ، فأرسل اليه نقيب الجيش ، فقال له رسم ملك الأمراء بأن تقوم فى هذه الساعة وتتوجه الى دمياط ، فاستمر عنده حتى كتب وصيته ، وقام وركب من وقته وتوجه الى بولاق ، ونزل فى مركب وسارت به الى نحو دمياط ، فهــذا كله بسبب الفلاحين من صلابة سيدى عمر وقوة رأسه ، وقلة درايته ، حتى اتسعت هذه الحادثة بينه وبين ملك الأمراء على هذا الأمر الفشروى الذى لم يستحق هذا كله ، ووقعت له هاتان الكائنتان فى شهر واحد ، فشق ذلك على ملك الأمراء وعلى الناس قاطبــة فوقع له البهدلة من ملك الأمراء مرتين ، الأولى بسجنه فى العرقانة ، والثانية بنفيه الى دمياط ، وركوبه على بغلة وهو متوجه الى بولاق ، فلمــا جرى ذلك توجه عيال سيدى عمر الى بيت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان بن عثمان ، وترامو عليها فى أن تشفع عند ملك الأمراء فى عود سيدى عمر من النفى ، فأرسلت الى ملك الأمراء ولدها مصطفى بك ، فشفع عنده فى سيدى عمر بأن يعود الى داره ، فقبل شفاعة الملكة خاتون ، ورســم بعود سيدى عمر الى منزله ، فعاد بعد ما سار فى البحر يوما وليلة ، فلما عاد تخلقت عياله بالزعفران ودقت له على بابه الطبلخانات والزمور ، وهنئوه بالسلامة

وفى سلخ شهر رمضان حضر الدفتردار محمد ابن ادريس الذى كان توجه الى دمياط والبرلس وبقية الثغور ، بسبب تجبى الأموال التى أضيفت الى خزائن مولانا السلطان سليمان ، فلما وصــل الى بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، واستمر معه حتى أوصله الى منزله .

❊ ❊ ❊

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الاثنين ، وقد ثبتت رؤية الهلال بمصر ، فان هلال رمضـــان ثبت على يد القاضى زكريا أحد نواب الشافعية ، وشك الناس فى ذلك ، وقالوا ان ذلك اليوم الذى صاموه كان آخر يوم من شعبان ، فوقع الشـــك بسبب ذلك ، ومالاقى القاضى زكريا خــيرا من الناس بسبب أن هلال رمضان ثبت عنده وكانت الميقاتية حكموا بأنه لا يرى فى تلك الليلة أبدا .

فلما كان هلال شوال أرسل ملك الأمراء يقول للقاضى الشافعى ، أنتم أثبتم هلال رمضان على أربع درج وقد شك الناس فى ذلك ، فما تفعلون فى هلال شوال ؟ فأرسل يقول له قاضى القضاة الشافعى ، هلال رمضان قد ثبت حقا ، وقامت به البينة وزكيت ، وغدا من شوال محقق .

ثم ان قاضى القضاة الشافعى نادى فى القاهرة أن غدا من شوال ، وهذا ما اتفق قط ان ينادى قبل رؤية الهلال أن غدا من شوال ، فعــد ذلك من النوادر ، وكان موكب العيد حافلا بالقلعة .

وفيه كان دخول المقر الشهابى أحمد بن الجيعان على ابنة الأمير خاير بك كاشــف الغربية ، أحــد الأمراء المقدمى الألوف ، وهى التى كانت زوجة

الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وكانت غير محمودة السيرة فى أفعالها

وقيل ذلك بمدة يسيرة تزوج القاضى أبو بكر ابن الملكى بابنة الأمير قانصوه المعروف بأبى سنة أحد الأمراء المقدمين ، ولا ينكر ذلك عليهم فى هذا الزمان .

وفيه قدمت الأخبار بأن السلطان سليمان ابن عثمان لما توجه الى قتال الفرنج أوقع معهم ، وكان بينهم واقعة مهولة ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ، وقتل فى معركته الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان توجه الى اسطنبول ، وقد انتصر السلطان سليمان على الفرنج نصرة عظيمة ، ثم خمدت هذه الاشاعة من بعد ذلك ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل الأمير جانم كاشف الفيوم على العادة ، وخرجت صحبته الملكة خاتون عمة السلطان سليمان وولدها مصطفى بك ، فطلب الأمير جانم طلبا حافلا ، وكان به ست عجلات تسحبها الأكاديش ، وعليها عدة مكاحل نحاس ومدافع حجر ، بسبب قتال العربان الذين فى طريق الحجاز ، فانه كان فى السنة الماضية فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

وفى يوم الأربعاء رابع عشريه ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء ، بأنه لا مملوك ولا عثمانى يلبس زنطا أحمر . ولا أولاد الناس أيضا ، ومن ليس زنطا بعد المناداة شنق من غير معاودة فى ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رأى عبيدا وغلمانا بجمقدارية ، وهم بزنوط حمر ، فلما امضوا بهم الى بيت الوالى يشنقهم ، فشفع فيهم بعض الأمراء .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رسم للأمراء الجراكسة بأنهم لا يلبسون سرموجة تركية ، ولا يطلعون بها الى القلعة ، وهذا كله عين المقت للجراكسة وبغضا فيهم قاطبة .

وفى يوم السبت سابع عشريه ، الموافق لأول يوم من بابه من الشهور القبطية ، ثبت النيل المبارك على ثلاث وعشرين أصبعا من عشرين ذراعا ، فكان منتهى الزيادة عشرين ذراعا الا أصبعا واحدة ، وكان نيلا عظيما الى الغاية ، وللناس مدة طويلة ما رأوا نيلا مثل هذا ، ففتكت الناس فى الفرجة والقصف ، وسكن غالب بيوت الجسر ، بعد ما كان آل الى الخراب وتهدمت بيوته ، وكاد أن يبقى مثل الجزيرة الوسطى فى خرابها .

* * *

وفى شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الجمعة ثالثه ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء بأنلا أمير من الجراكسة ، ولا خاصكيا ، يركب وخلفه بغل وعليه غلام راكب ، بل يمشى على طريقة العثمانية فى أفعالهم ، يأخذ الغلام الغاشية على كتفه ويمشى قدامه .

وفى يوم الأربعاء ثامن الشهر ، أنفق ملك الأمراء الجامكية على المماليك الجراكسة بعد ما عوق جوامكهم وعليقهم ستة أشهر حتى عاينوا الموت من ضيق الحال ، فصرف لهم ثلاثة أشهر ، وأخر

لهم ثلاثة أشهر ، ولم يصرف لهم العليق . فقبض ذلك اليوم كل مملوك من الچراكسه أحــد عشر أشرفيا ذهبا وثمانية أنصاف من الذهب العثمانى ، فأداروا عليهم كل أشرفى ذهب بأشرفيين فضــة ، فخسروا فى صرف كل أشرفى عشرة أنصاف فضة ، فكانت خسارتهم فى العشرين أشرفيا خمسة أشرفيات وستين فضة ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك بعد صبرهم ستة أشهر ، وأخر العليق عنهم .

واتضح ان الديوان مشحوت غاية الانشحات ، وان ملك الأمراء عليه ستون ألف دينار ، والمباشرون استخرجوا من البلاد القسط الأول ، أربعة أشهر معجلا من مغل سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية قبل أن يفى النيل ويزرع الفلاحون وتروى الاراضى ، فحصل للفلاحين غاية الضرر من ذلك ، ورحل بعض فلاحين بسبب ذلك الظلم والجــور وقد انحط سعر الغلال عما كان أولا من الارتفاع .

وكان سبب انشحات الديوان أن المــال الذى يجيء صار ينقسم على سبع طوائف من العسكر ، وهم المماليك الچراكسة وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الاصباهية وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الصوباشية ، والانكشارية ، والكمليــة ، ثم مماليك ملك الأمراء ، وذلك خارج عن كلفة من يرد من المملكة الروميــة من القصــاد والمترددين من اسطنبول وغيرها ، فكان ملك الأمراء ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة .

وقد بلغنى ممن أثق به أنه كان متحصل خراج مصر فى دولة ابن عثمان لما ملكوها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، ومن المغل ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف أردب قمح وثلثمائة ألف أردب شعير وفول وغير ذلك ، وأين هذا القدر مما كان عليه خراج مصر فى الزمن القديم .

نقل الشيخ تقى الدين المقريزى فى الخطط : قد بلغ خراج مصر فى زمن القبط عند تلاشى أحوال مصر مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار

وكان جملة خراجها فى زمن الفراعنة ، ألف ألف دينار بالدينار الفرعونى ، وهو ثلاثة مثــاقيل من مثاقيلنا الآن ، وكان مساحة أراضى مصر فى زمن الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمــانين ألف ألف فدان تزرع غير البور

وجبى خراج مصر فى زمن عمرو بن العــاص ، على عبد الله بن أبى سرح ، فى صــدر الاسلام ، اثنى عشر ألف ألف دينار ، غير الدنانير المتعامل بها الآن .

وجبى خراج مصر فى أيام الأمــير أحمــد بن طولون ، مع وجود الرخاء ، أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينــار ، غير ما يتحصــل من المكوس والغلال .

وجبى خراج مصر فى أيام الأخشــيدية ، فكان ألفى ألف ألف دينار غير دنانير الآن

وجبى خراج مصر فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فكان اثنى عشر ألف ألف دينــار ، مع تلاشى أحوال مصر وانحطاط خراجها الى ذلك .

وكان موجب انشــحات الديوان فى أيام ملك الأمــراء خاير بك أن الاصباهيــة والانكشارية والكملية لما استقروا بمصر ، رتب ملك الأمــراء جوامك فى كل شــهر ، فكان يعطى جمــاعة من الاصباهية فى كل شهر ستين دينارا ، وجماعة منهم خمسين دينارا . وجمــاعة منهم أربعــين دينارا ، وجماعة منهم ثلاثين دينارا ، وباقيهم عشرين . وأما الانكشارية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيته كل شهر خمسة عشر دينارا ، وباقيهم اثنى عشر دينارا ، وأما الصوباشية فلهم فى كل شهر ثلاثون دينارا لكل واحد . وأما الكملية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيته فى كل شهر اثنى عشر دينارا ،

وجماعة عشرة دنانير ، وجماعة منهم ثمانية دنانير ، وهذا كله خارج عن جوامك مماليك ملك الأمراء .

وأما المماليك الچراكسة فان ملك الأمراء رتب لكل واحد منهم فى كل شهر سبعة دنانير فى نظير الجامكية واللحم ، وذلك خارج عما رتب للأمراء الچراكسة القاطنين بمصر . وذلك خارج عن انعام ملك الأمراء للمترددين من المملكة الرومية وغيرها ، حتى قيل : كان يصرف ملك الأمراء على ماذكرناه فى كل سنة نحو ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار . فبواسطة ذلك كله ضاق الحال عن صرف الجوامك فى كل شهر .

وأما المال الذى كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور ، فانه كان يحمل الى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله ، فلا يتعرض ملك الأمراء لشىء من ذلك . وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة وجهات الصعيد فقط لا غير .

فان قال قائل ان السلطان الغورى كان يسد أمر الجوامك فى كل شهر ، وكان العسكر أكثر من ذلك ، والأمراء أربعة وعشرون مقدم ألف ، غير الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية فوق الألف خاصكى ، أقول ان السلطان الغورى ، كان يستعين على ذلك بكثرة المصادرات للمباشرين وأعيان التجار . وغير ذلك من مساتير الناس ، وكان يرد عليه أموال الثغور ، وأموال البلاد الشامية والحلبية والطرابلسية وغير ذلك من الجهات ، والآن البلاد الشامية والحلبية فى غاية الاضطراب ، ولم يرد منها شىء من الأموال ، فبموجب ذلك ضاق الأمر من المال على ملك الأمراء ، ونرجو من الله اصلاح الحال

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، خرج الدفتردار محمد بن ادريس ، وتوجه صحبته ملك الأمراء الى تربة العادلى ، وكذلك الأمراء قاطبة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية والانكشارية ، فتوجه طائفة منهم فى البحر ، وأشيع أنهم توجهوا الى اسطنبول بطلب من السلطان سليمان نصره الله ، وقد بلغه انهم يشوشون على أهل مصر غاية التشويش ، فأرسل أخذ منهم خمسمائة انسان من الاصباهية والانكشاوية ، وأراح الله المسلمين منهم ، فانهم كانوا من كبار المفسدين ، فخرج الدفتردار فى ذلك اليوم فى موكب حافل كما تقدم .

وفيه كانت وفاة الناصرى محمد ابن الأمير جانى بك كوهية ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أولاد الناس ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه قدم من اسطنبول سيدى محمد بن الكويز ، وكان توجه الى نحو اسطنبول مع جملة من أسر من أهل مصر ، فلما أفرج السلطان سليمان عنهم ، حضر الى مصر ، وكان حسن السيرة فى التحدث فى أمر المواريث .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاق من عند السلطان سليمان وعلى يديه مراسيم تتضمن أنه قد انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وفتح عدة مدائن من مدائن الفرنج ، وملك عدة قلاع من قلاعهم ، وصار كلما يملك مدينة من مدائنهم يجعل كنائسهم جوامع بمحاريب ومنابر ، وخطب باسمه فيها ، وكانت هذه النصرة على غير القياس .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك رسم بدق البشائر فى القلعة ، ونادى فى القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام متوالية ، وفتك الناس فى هذه الزينة فتكا ذريعا ، حتى خرجوا فى ذلك عن الحد ، وتجاهروا بالمعاصى ليلا ونهارا .

وفى يوم الخميس ثالث عشريه ، توجه ملك الأمراء الى نحو الجزيرة التى تجاه الجيزة بالقرب من المقياس ، وأقام بها ذلك اليوم على سبيل التنزه ، فأرسل اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هنالك مدة حافلة ، فتعدى ملك الأمراء هناك ، ورسم بأن الذى فضل من المدة يحمل الى القلعة ، وقد فضل منها أشياء كثيرة

ثم ان ملك الأمراء خلع على القاضى بركات بن موسى المحتسب قفطانا مذهبا ، وشكر له ما صنعه من أمر تلك المدة .

وفى يوم الأحد سادس عشريه ، وقعت كائنة عظيمة للشيخ عبد المجيد بن الطرينى ، وذلك أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه بسبب أنه كان تسلط عليه الدين الذى تقدم ذكره ، فلم يعط أصحاب الديون شيئا مما قسطه عليه ، فشكوه الى ملك الأمراء ثانيا ، فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ألم أقسط عليك ذلك الدين فى كل شهر ، وقررت معى أنك ترضى أصحاب الديون بما قسطته عليك ، فلم تفعل من ذلك شيئا » . فلم ينطق فى ذلك بحجة ، فحنق منه ملك الأمراء ، ورسم بضربه فبطح على الأرض ، وضرب ضربا مبرحا ، حتى قيل ضرب ست نوب تبدلت عليه حتى كاد أن يموت . ثم وضعه فى الحديد ، وأرسله الى بيت الوالى ليعصره فى أكعابه بحضرة أصحاب الديون ، فرق له الوالى وأرسله لسجن الديلم ، فسجن به والحديد فى عنقه ، فاستمر فى السجن بالحديد حتى كاد أن يموت ، وقد عجز عن وفاء ما عليه من الديون ، حتى قيل تجمد عليه من الديون نحو سبعين ألف دينار للتجار الأروام وغيرهم

وقد تزايد غضب ملك الأمراء على الشيخ عبد المجيد بن الطرينى حتى كاد أن يوسطه من شدة غضبه عليه ، وكان الشيخ عبد المجيد من أعيان الناس وله بر ومعروف ، حتى قيل كان يصنع فى كل يوم ستة أرادب دقيق برسم الوارد عليه فى المحلة ، ويعلق فى كل يوم اثنى عشر أردبا من الشعير ، والدسوت عمالة بالطعام ليلا ونهارا للوارد عليه من سائر البلاد ، فتجمدت عليه هذه الديون العظيمة ، وسيق كما سيق غيره من الأكابر ، ولكن يلطف الله به ، والكريم لا يضام أبدا . فكان الشيخ عبد المجيد أحق بقول القائل حيث قال :

لنا غنم تعرف وجوه ضيوفنا
تجى من مراعيها تروم الذبائح
لنا خدم ماينبت الشعر روسها
لحمل القرى من آخذات ورايح

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من المماليك الجراكسة قيل هو من مماليك أمير أخور كبير ، وقيل هو خازنداره ، وكان شابا حسنا فشق شنقه على الأتراك قاطبة ، وشنق فى ذلك اليوم معه أربعة من الجراكسة ، وقد تزايد شره فى هذه الأيام .

وفيه أشيع بين الناس أن الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة وتوجهوا الى اسطنبول ، لما دخلوا الى ثغر الاسكندرية وقع بينهم هناك فتنة عظيمة ، وقتل منهم جماعة ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك

تنـــكد لهذا الخبر ، وعين لهم الكيخية الـــكبير أغاتهم ، فسافر الى الاسكندرية فى ساعته ، حتى يصلح بينهم ويكشف عن سبب هذه الفتنة ومن أثارها من الانكشارية أو من الكملية الذين سافروا من القاهرة ، فتوجه الكيخية الى ثغر الاسكندرية بسبب ذلك .

* * *

واستهل شهر ذى الحجة بيوم الجمعة ، فطلع القضـــاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم السبت المبارك ثانيه حضر قاصد من مكة ، وصحبته رأسان فى علبة مقفولة ، زعموا أن الأولى رأس شخص يقال له اسكندر ، وكان أصله من مماليك السلطان الغورى ، أرسله صحبة التجريدة التى أرسلها الى بلاد الهند بسبب محاربة الشيخ عامر متملك زبيد وعـــدن وكرمان ، فلما توجه العساكر الذين أرسلهم السلطان الغورى ، تحاربوا معه فانكسر منهم ، وقتل فى المعـــركة ، فملكوا منه البلاد وأمواله .

ثم ان اسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر وتسلطن بها وعصى على السلطان الغورى ، وجعل له هناك أمراء وعسكرا ، وخطب باسمه على منابر بلاد الشيخ عامر ، واستمر على ذلك ولم يدخل تحت طاعة الخنكار سليم شاه بن عثمان لما ملك الديار المصرية ، ولم يخطب باسمه ، ولم يضرب السكة باسمه هناك ، فلم يزل نائب جدة يتحيل عليه حتى قتله وحز رأسه وأرسلها الى القاهرة ، فعرضت على ملك الأمراء وهو بالميدان .

ثم ان ملك الأمراء أشهر تلك الرأس فى القاهرة ومعها رأس أخرى قيـــل انها رأس دواداره أو خازنداره أو وزيره ، ثم علقتا على باب النصر . وكان اسكندر هذا شجاعا ، بطلا ، مقـــداما فى الحرب قوى القلب ، ملك البـــلاد واحتوى على أموالها ، وفرقها على عسكره ، وجعل له أمراء وحجابا ودوادارية ، ولولا أنهم احتالوا عليه حتى قتلوه ، لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أنه حضر قاصد من اسطنبول الى الشام ، ثم حضر الى القاهرة ، فلما استقر بها أنشر مراسيم من عنـــد السلطان سليمان ، وأحضر معه ذراعا من الحديد يزيد على الذراع الهاشمى الذى تتعامل به أهل مصر بخمسة قراريط ، وأحضر معه سنج نحاس وأرطالا على طريقة اسطنبول . وأشيع أن السلطان سليمان بن عثمان رسم بابطال الذراع والسنج التى يتعامل بها أهل مصر ، وأن التجـار وأرباب البضـــائع لا يتعاملون الا بهذا الذراع وهذه السنج ، فامتثل ملك الأمراء ذلك ، وأجاب بالسمع والطاعة ، ورسم للقاضى بركات بن موسى المحتسب بأن ينـــادى فى القاهرة حسبما رســـم الخنـــكار بابطال الذراع الهاشمى من مصر ، واستعمال الذراع الاسطنبولى فنزل المحتسب مع الوالى ونادى فى القاهرة بذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب كتب قسائم على التجار أنهم لا يبيعـــون ولايشترون الا بهذا الذراع الاسطنبولى ، فشـــق ذلك على التجـــار وأرباب البضـــائع . فلما أشهر المحتسب المناداة بذلك ، وأن كل من خالف مرسوم الخنكار شـــنق على دكانه من غـــير معـــاودة ، صـــارت رسل المحتسب تطلع الى دكاكين التجار الذين فى الأسواق وتأخذ الاذرعة الحـــديد وترميهـــا فى الطرقات ، فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد

الاضطراب . ثم صاروا يكررون المناداة بذلك فى أمر المعاملة بذلك الذراع الاسطنبولى ، واستمر ذلك فى البيع والشراء الى الآن .

وفيه وقعت كائنة عظيمة للوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية وكان سبب ذلك أن شخصا من الوكلاء يقال له على الأزهرى ، توكل عن شخص يهودى فى شغل ، فأخذ منه فى ذلك الشغل أربعين دينارا وقيل خمسين دينارا ، فلما بلغ المحضر الذى فى المدرسة الصالحية ذلك ، طلب على الأزهرى وسأله عن ذلك فأنكر ، وقال ما أخذت منه هذا القدر أبدا ، وحلف وأقسم ، فحنق منه المحضر وأمر بضربه بين يديه .

ثم ان المحضر طلع الى ملك الأمراء وأخبره بأمر الوكلاء وما يصنعون ، فرسم باحضار سائر الوكلاء فاختفى منهم جماعة ، وقبضوا على أربعة منهم ، وهم : على الأزهرى ، وسالم ، ومسعود ، والحكرى . فطلعوا بهم الى القلعة وعرضوهم على ملك الأمراء فأوعدهم بكل سوء ، ثم أرسلهم الى بيت الوالى فأرسلهم الوالى الى سجن الديلم ، فسجنوا به الى أن تظهر البقية . وكان الذى رافع فى الوكلاء وأشلى فيهم بدر الدين بن الرومى ، وتعصب معه خير الدين نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء هذه الأفعال التى يفعلها الوكلاء فى المدرسة الصالحية لاتحل ولا تجوز ، فاضطربت أحوال القضاة الى الغاية .

ثم ان الوكلاء الذين سجنوا بسجن الديلم شفع فيهم القاضى حمزة ، وقيل الأمير على أحد الأمراء الختكارية ، ثم أقام الوكلاء فى السجن أياما ، ثم أخرجوا منه .

وفيه نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء بمنع الصيارف الحجازيين قاطبة ألا يصرفوا دينارا ذهبا ، فانه قد أشيع عنهم أن جماعة منهم يصنعون الزغل فى الذهب والفضة ، ويطيرونها على الناس فى الصرف ، فمنعوا من ذلك

وفيه قدم قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان يقال له قاسم بك ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه انتصر على الفرنج نصرة ثانية ، وملك منهم عدة قلاع ، وقد ظفر بجماعة منهم وقتلهم .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك نادى فى القاهرة بالزينة ، فزينت ووافق ذلك يوم عيد النحر . فحصل للناس المشقة الزائدة بهذه الزينة ، واشتغلوا بذلك عن الأضحية والعيد ، ووقع فى ذلك اليوم مطر غزير ، فأعدم قماش الناس الذى فى الزينة ، وصار الوالى يبطح الناس على الأرض ويضرب الذى مازين دكانه ، فما حصل لأحد من الناس خير ، واستمرت الزينة معلقة الى أن نزل ملك الأمراء وتوجه الى بولاق بسبب ملاقاة القاصد الذى حضر من البحر ، فطلع من سوق مرجوش وشق القاهرة وهى مزينة ، والقاصد صحبته ، ومشى القاضى بركات بن موسى المحتسب قدامه بعصاه الى أن طلع الى القلعة ، فأوقدوا له الشموع بالنهار على الدكاكين ، فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة ، ثم فكت الزينة فى ذلك اليوم ، وانقضى أمرها .

وفى يوم السبت سادس عشره ، جلس ملك الأمراء بالمقعد الذى بالحوش السلطانى ، وطلب قضاة القضاة الأربعة ، فلما حضروا حضر القاضى حمزة قاضى ابن عثمان ، فلما تكامل المجلس تكلم ملك الأمراء مع القضاة فى أمر نوابهم وما يفعلون ، وفى أمر الوكلاء ، فوقع فى ذلك المجلس غاية ما يكون من اللغط ، وكان القاضى حمزة فى ذلك المجلس أشد ما يكون على القضاة ، وصار

يقول لهم : نوابكم يفعلون ما هو كيت وكيت . فجاء ملك الأمراء على القضاة بكل ما فيه بسبب نوابهم ، وقد كثر فسادهم .

فتكلم معهم ملك الأمراء فى ذلك ، فوقع الاتفاق فى المجلس بأن كل قاض من القضاة الأربعة يقتصر على سبعة من النواب لا غير ، على عدد أيام الجمعة ، والقاضى من النواب يجلس فى بيت قاضى القضاة فى نوبته ، ويسمع الدعوى هناك بمفرده ، وأن القاضى اذا عقد عقد نكاح ، يأخذ على من تزوج البكر ستين نصفا ، وعلى من تزوج الثيب ثلاثين نصفا ، يأخذ العاقد شيئا ، والشهود شيئا ، والباقى يحمل الى بيت الوالى ، ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة الأربعة ، وأن الوكلاء تبطل قاطبة من المدرسة الصالحية ، فانفض المجلس على ذلك . وقام القضاة فقيل لهم امشوا على اليسق العثمانى ، فاضطربت أحوال القضاة والشهود قاطبة ، وبطلت أسبابهم ومشوا على هذا الحكم .

وصار مقدم الوالى والجالية يأتون فى كل يوم من أيام الجمعة ، ويجلسون فى بيت كل قاض من القضاة الأربعة الى ما بعد العصر ، ويأخذون ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضون به الى بيت الوالى ، كما تقرر الحال على ذلك اليسق العثمانى . فصار الذى يتزوج أو يطلق تقع غرامته نحو أربعة أشرفية ، فامتنع الزواج والطلاق فى تلك الأيام ، وبطلت سنة النكاح والأمر لله تعالى .

وفيه نزل من القلعة القاضى بركات بن موسى المحتسب ، وأشهر المناداة فى القاهرة وصحبته الوالى بأن لا قاضى ولا شاهد يحكم فى المدرسة الصالحية ، وأن لكل قاض من القضاة سبعة من النواب لا غير ، يحكم كل نائب يوما فى بيت قاض من القضاة الأربعة ، ويسمع الدعوى فى بيت مستنيبه ، وأن لكل نائب من النواب شاهدين لا غير ، وأن القاضى يأخذ على نكاح البنت البكر ستين نصفا ، ويأخذ على الثيب ثلاثين نصفا ، وأن سائر النواب والشهود بطالة من الأحكام الشرعية ، وهذا حسبما رسم به ملك الأمراء ، والمشى على اليسق العثمانى .

فلما سمع ذلك الناس اضطربت أحوالهم غاية الاضطراب ، ولاسيما النواب والشهود حصل لهم الضرر الشامل ، وصارت المدرسة الصالحية ليس يلوح بها قاض ولا شاهد ، بعد ما كانت كدسة العلماء .

ومن الحوادث ما وقع فى أواخر الشهر وهو يوم الأحد خلع ملك الأمراء على شخص يسمى جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ، ويعرف بابن الجاكية — وهو ابن محمد الذى كان نقيب الجيش من أولاد ابن أبى الفرج — واستقر به فى وظيفة التفتيش عن الرزق ، فلما قرر فى هذه الوظيفة أخذ حذره منه سائر الأعيان ودخلت رأسهم منه الجراب .

فلما استقر أمر ملك الأمراء بأن ينادى له عن لسانه حسبما رسم ملك الأمراء لا أحد من الناس يحتمى على الأمير جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ولا يعارضه ، وأنه مسموع الكلمة وافر الحرمة .

فلما جرى ذلك طغى الأمير يوسف بن أبى الفرج وتجبر ، وصار معه الجم الكثير من الرسل والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من رجال ونساء بالرسل الغلاظ الشداد ، فاذا حضروا الى بابه ومعهم مكاتيبهم ومربعاتهم ، يقرؤها ثم ينجش

لهم فيها انجاشا ، ويقول لهم أرونى أصول هـذا والأصول الأصول ، فاذا عجزوا عن ذلك يرسلهم الى بيت القاضى الحنفى ، ويشهد عليه أن لا حق لهم فى هذه المكاتيب ولا استحقاق ، ويأخذ منهم ما معهم من المكاتيب والمربعات ، ويمضوا خائبين . فيطلع بالمكاتيب والمربعات الى ملك الأمراء ، ففعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من أعيان الناس ، فأخذ من الجمالى يوسف نقيب الجيش ابن الشرفى يونس نقيب الجيش سبع عشرة رزقة بمكاتيب شرعية ، وحذف عليه ملك الأمراء ما عنده من المكاتيب جميعها ، فطلع له بها ، وفعل بجماعة كبيرة من أعيان الناس والستات مثل ذلك ، والأمر لله تعالى .

وفيه حضرت مركب من الأغربة التى كان عمرها ملك الأمراء وأرسلها صحبة الأروام والمغاربة البحارة ، فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعبثون فى سواحل البحر المالح فأوقعوا معهم وقاتلوهم فانكسر الفرنج ، وقبضوا عليهم وأسروهم ، واحتووا على مراكبهم ، فوجدوا فيها بضائع وجوخا وأصنافا فاخرة ، فأخذوا جميع ما كان فيها ، وقبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوهم فى الحديد ، وأرسلوهم الى ملك الأمراء ، فلما عرضوا عليه رسم بتوسيطهم فوسطوا منهم تسعة عشر رجلا ، وسجنوا الباقين وأخذ ملك الأمراء جميع أموالهم ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء كانوا تجارا أتوا من بلاد الفرنج فلما رأوهم قاتلوهم فانكسروا وأسروا وأخذت جميع أموالهم . وأشيع أنهم كانوا يعبثون فى سواحل البحر المالح .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كان أسر من أهل مصر فى أيام السلطان سليم شاه بن عثمان فحضر علم الدين چلبى السلطان الغورى ، وحضر عقيب ذلك المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش كان ، وهو ابن المقر الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وحضر كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وحضر الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وحضر الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الحجازى أحد نواب الشافعية ، وحضر آخرون من الأسرى ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

وفى يوم الخميس ثامن عشريه ، قدم مبشر الحاج من مكة وأخبر بالأمن والسلامة عن الحجاج ، وأخبر أن الغلاء معهم عمال فى سائر الغلال والمأكول قاطبة ، وأخبر بموت الجمال مع الحجاج ، فخلع عليه ملك الأمراء ، ونزل الى منزله .

وقد خرجت هذه السنة على خير وسلامة ، وكانت سنه مباركه ، وقع فيها الرخاء فى سائر الغلال قاطبة بعد ما كان تناهى سعر القمح الى أربع أشرفيات ذهب كل أردب وكان النيل فيها عاليا عم سائر أراضى مصر قاطبة وثبت ثباتا جيدا الى أواخر بابه . ومن محاسن هذه السنة أنها خرجت عن الناس ولم يكن فيها الطاعون فى الديار المصرية ولا فى شىء من أعمالها قاطبة .

ولكن وقع فى أواخر السنة حوادث مهولة ، منها عصيان الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام وقتله ، وما وقع بالشام من الاضطراب ، فكان من ملخص واقعة الأمير جان بردى أنه لما استقر به السلطان سليم شاه نائبا بالشام ، أقام بها مدة وهو تحت طاعة السلطان سليم شاه فى الظاهر ، ولما ولى

بعده ابنه سليمان على مملكة الروم ، أظهر جان بردى الغزالى العصيان جملة واحدة ، ولم يدخل تحت طاعة السلطان سليمان بن عثمان ، فقام معه أهل الشام من الأمراء والعسكر والعربان والعشير ، وقالوا له قم وتسلطن فما بقى قدامك أحد تخشى منه ، ونحن نقاتل معك حتى نقتل ، فاستمال لقولهم ، وطاش وخف ، وكم عجلة أعقبت ندامة ، فتسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف أبى الفتوحات ، وقبلوا له الأرض ، وخطب باسمه فى جامع بنى أمية ، وعلى بقية منابر دمشق . فلما تسلطن قالوا له : امض الى مصر وحارب خير بك ، واملك منه مصر ، فقال لهم : مصر فى قبضة يدى ، ولكن أتوجه الى حلب وأخلصها من أيدى العثمانية ، فما يبقى خلفى التفاتة ، ثم أتوجه الى مصر . ولو أتى الى مصر لكان خيرا له ، وكان العسكر من الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة يقلبوا على ملك الأمراء خاير بك ، ويمضوا اليه ، فانه كان محببا للرعية .

فلما توجه الغزالى الى حلب ليملكها ، حاصر أهلها ، وأحرق غالب الضياع التى حولها ، وحصل منه الضرر الشامل لأهل حلب ، فلما حاصر مدينة حلب لم يقدر عليها وعجز عن ذلك . وكان الأمير جان بردى الغزالى أول ما توفى السلطان سليم شاه وتولى بعده ابنه سليمان ، أرسل يقول لملك الأمراء خاير بك تسلطن أنت بمصر ، وأستمر أنا بالشام وأحكم من الفرات الى غزة ، ونطرد هذه العثمانية عن مملكة مصر . فلما وقف خاير بك على مطالعة الغزالى أفشى سره . وكان الغزالى أرسل يقول لخاير بك ان لم تتسلطن فعندى من يتسلطن ، فأراد خاير بك أن يتنصح للسلطان سليمان ، فأرسل له مطالعة الغزالى التى أرسلها له فى السر . فلما وقف السلطان على مطالعة الغزالى ، أرسل يقول لخاير بك : لا تخرج أنت من مصر للغزالى ، فنحن نكفيك شره .

ثم ان السلطان سليمان أرسل تجريدة الى الغزالى نائب الشام ، فجهز له من العساكر العثمانية نحو أربعة عشر ألف مقاتل ، فخرجوا من اسطنبول على حمية ، وتوجهوا من اسطنبول الى حلب ، فأوقعوا مع الغزالى على حلب ، فانكسر منهم ، فتوجه الى دمشق ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة على القابون خارج مدينة دمشق ، فقتل من عسكر الغزالى هناك ما لا يحصى من عربان الكرك وأكراد وتركمان ومماليك جراكسة ، ومن أهل دمشق ، حتى قيل : قتل فى المعركة من أهل دمشق شيوخ وشبان وأطفال ، ومن سوقة دمشق ما لا يحصى .

وكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما دخل الى دمشق ، وقد خرب فى هذه الواقعة ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت ، وتمت الكسرة على الغزالى واختفى ، وقيل : بل قتل على المعركة وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ، ومضى أمره . والى الآن تشك جماعة من الناس فى قتله ، ويقولون ما قتل وهو باق فى قيد الحياة ، وأنه هرب عند الصفوى بعد وقوع المعركة ، والأصح أنه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ووقع الشك للناس فى ذلك ، كما وقع لهم فى قتل قانصوه خمسمائة من الشك .

ومما وقع فى هذه السنة من الحوادث ، حرق النصارى على باب المدرسة الصالحية ، ومنع الشهود من الجلوس فى الحوانيت . ومن الحوادث ما وقع للشيخ عبد المجيد الطرينى وقصته مشهورة .

ومن الحوادث منع الوكلاء من باب المدرسة الصالحية وعزل نواب القضاة الأربعة واقتصارهم على سبعة نواب لكل قاض من غير زيادة على ذلك .

ومنها واقعة العقود وما تقرر على تزويج البكر ستين نصفا والثيب ثلاثين نصفا ، وقد تقدم ذلك فكان ذلك من أشد الكرب على المسلمين .

ومنها جلوس مقدم الوالى والجالية على أبواب القضاة من باكر النهار الى آخره ، ليأخذوا ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضوا به الى بيت الوالى ، ويسمون ذلك اليسق العثمانى . ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة ، فضيقوا على المسلمين غاية الضيق .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء خلع على شخص يقال له جمال الدين يوسف ابن أبى الفرج ، ويعرف بابن الجاكية ، وقرره فى وظيفة وسماه مفتش الرزق الجيشية ، فلما استقر فى هذه الوظيفة أطلق فى الناس النار ، ورافع الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه أخذ من ديوان الجيش أقاطيع سلطانية ورزقا جيشية ، وصنع لها مكاتيب شرعيه بمشترى من بيت المال ، وباعها على الناس .

ورافع أيضا الزينى أبا بكر بن أبى بكر بن الملكى بمثل ذلك ، حتى تكلم فى حق الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه ابتاع من ديوان الجيش رزقا وأقطاعا ، وصنع لها مكاتيب شرعية ، وباعها على الناس بنحو عشرين ألف دينار . وأظن هذا الكلام ليس له صحة ، وهذا باطل لا محالة ، فتغير خاطر ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وصار اذا طلع الى القلعة لا يخاطبه أصلا ، ورسم للزينى أبى الوفاء الحلبى موقع ملك الأمراء من حين كان بحلب أن يقرأ عليه القصص ، بدلا عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، فعظم أمر الزينى أبى الوفا فى هذه الأيام جدا ، حتى صار فى مقام من تقدم من كتاب السر ، وصار من أعيان الرؤساء بالديار المصرية .

ثم ان الجمالى يوسف بن ابى الفرج أخذ من الناصرى محمد بن خاص بك رزقتين بمكاتيب شرعية ، فطعن فى هذه الرزق وقال له أصل هذه الرزق أقاطيع سلطانية ، فأخذ منه المكاتيب وأشهد عليه بأن لا حق له فيها ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وصار يفعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من رجال ونساء ، ويأخذ مكاتيبهم من أيديهم ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ويطلع بالمكاتيب الى ملك الأمراء ، فأطلق فى الناس جمرة نار ، وضج منه الناس قاطبة ، حتى قيل أخذ من أيدى الناس فوق الثمانين رزقة بمكاتيب شرعية ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وحصل للناس منه الضرر الشامل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

وما اكتفى ملك الأمراء بيوسف بن أبى الفرج حيث جعله مفتش الرزق الجيشية ، فجعل الأمير على العثمانى مفتش الأوقاف أيضا من بلاد وبيوت وغير ذلك ، فاجتمع على بابه الرسل الغلاظ الشداد ، والبزددارية ، وصاروا يطلبون الناس أصحاب الأوقاف ، فاذا حضروا ومعهم مكاتيبهم ينجشون عليهم ويقولون لهم ايش على هذا الوقف مصاريف ، وايش متحصله فى كل شهر ، فيدعون أصحاب الأوقاف فى الترسيم ، ويقررون عليهم مبلغا ثقيلا للأمير على هو ودواداره والبزددارية والرسل ومن عنده من المباشرين ، ويكتبون له على مكاتيبه عرض ، ثم يطلقونه بعد أن يلتهب من الغرامة فوق ما لا يطيق ، فصار الأمير على يتكلم

على قرع من أبواب المظالم المهولة ، فأطلق فى الناس النار الموقدة .

وأقول ان أولاد ابن أبى الفرج طول عمرهم بيت ظلم وعسف ، وطبعهم الأذى هم وأجدادهم من أيام الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك .

ومن الحوادث فى أواخر هذه السنة أن ملك الأمراء جهز مراكب أغربة وفيها جماعة من المقاتلين ، فتوجهوا الى البحر المالح ، وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعبثون فى السواحل على المسافرين ، فلما توجهوا الى البحر المالح ، وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ، ومعهم بضائع بنحو خمسين ألف دينار ، فتقاتلوا معهم فكسروا الفرنج ، وقبضوا عليهم واحتاطوا على مامعهم من البضائع ، فلما حضروا الى مصر ، وعرضوا على ملك الأمراء ، رسم بتوسيط نحو تسعة عشر نفرا من الفرنج ، فراحوا ظلما ، وأخذت أموالهم ، وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك ، ويمنعون التجار من المرور فى البحر ، ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم .

وفى هذه السنة قتل ملك الأمراء من الناس مالا يحصى بتوسيط وشنق وخوزقة وأكثرهم راح ظلما ، والأمر لله تعالى .

سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (١٥٢٢ م) :

فيها فى المحرم ، وكان مستهله يوم الأحد المبارك ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى منازلهم .

وفى هذا الشهر تزايد ظلم الجمالى يوسف بن أبى الفرج وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، وكثر على بابه الرسل والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من كبير وصغير ، فيحضرون ومعهم مكاتيبهم ، ويأخذها من أيدى أصحابها غصبا ، ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ولا استحقاق ، ويطلع بها الى ملك الأمراء ، واستمر على ذلك يتزايد ظلمه الشنيع كل يوم حتى ضج منه الناس والأمر لله تعالى .

وفيه توفى الشهابى أحمد بن التمارى ، وكان من مشاهير أولاد الناس ، وكان أمير جكار ، وقد ترحل حاله فى أواخر عمره ومات فقيرا .

وفى يوم الخميس خامسه حضر جماعة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأرسلهم الى اسطنبول ، فحضر بهاء الدين بن البارزى ، وجلال الدين ابن الخواجا بدر الدين حسين الشبراوى ، وحضر الخواجا يحيى بن عبد الدائم اللبدى المغربى من تجار جامع طولون ، وحضر آخرون ممن كان باسطنبول .

وفى يوم السبت سابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، وجلس هناك على المصطبة القديمة ، وكان القاصد الذى حضر بالأمس صحبته ، فمد له هناك مدة حافلة ، وأحضر صقورا وكلابا سلوقية ، ورمى قدام القاصد رماية هناك ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية .

فبينما هو على ذلك ، واذا بجماعة من الأعيان حضروا بين يديه ، منهم الشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى ، والشيخ شمس الدين محمد

المعروف بالديروطى الشافعى ، والشيخ شهاب الدين أحمد بن الچلبى وآخرون من العلماء ، فلما اجتمعوا قالوا . « يا ملك الأمراء قد أبطلتم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرتم تأخذون على زواج البنت البكر ستين نصفا ، وعلى زواج المرأة ثلاثين نصفا ، ويتبع ذلك أجرة الشهود ، ومقدمى الوالى ، وغير ذلك ، وهذا يخالف الشرع الشريف ، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خاتم فضة ، وعلى ستة أنصاف فضة ، وعقد على آية من كتاب الله ، وقد صعف الاسلام فى هذه الأيام ، وتجاهر الناس بالمعاصى والمنكرات ، وتزايد الأمر فى ذلك » . ثم ذكروا له آيات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت ملك الأمراء الى شىء من ذلك ، وقال للشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى : « اسمع يا سيدى الشيخ ، ايش كنت أنا ؟ الخنكار رسم بهذا ، وقال امشوا فى مصر على اليسق » . فقال له شحص من طلبة العلم يقال له عيسى المغربى : هذا يسق الكفر ، فحنق منه ملك الأمراء ، فرسم بتسليمه الى الوالى ليعاقبه ، فتوجهوا به الى بيت الوالى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء .

فلما كان عقيب دلك توجه الى ملك الأمراء جماعة من النجارين والقلافطة ، وعلى رءوسهم مصاحف ، وهم يستغيثون (الله ينصر السلطان سليمان) . فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ، ثم تبين أنهم نجارون وقلافطة ، أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التى عمرها ملك الأمراء فى الروضة ، بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، رسم ملك الأمراء لمن حوله من الانكشارية بضربهم ، فشتتوا أجمعين .

ثم طال المجلس بين ملك الأمراء وبين مشايخ العلم الذين حضروا ، فكان من جوابه للشيخ شمس الدين اللقانى المالكى : « ياسيدى الشيخ أنا أخاف على رقبتى أكثر من رقابكم ، امضوا باسم الله » . فقاموا من عنده وهم فى غاية القهر ، يتعثرون فى أذيالهم ، ولم يلتفت الى أقوالهم ، فقال له بعض الفقهاء الذين حضروا : « نحن نسافر الى السلطان سليمان نصره الله تعالى ، ونخبره بما يفعل فى مصر » . فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم بعد ما كان منشرحا ، ثم قام من هناك وطلع الى القلعة ، وخرج القاصد من هناك وتوجه من يومه وسافر الى اسطنبول .

فلما رجع الفقهاء من عند ملك الأمراء ، قامت الأشلة والنائرة على ملك الأمراء ، وكثر الدعاء عليه بسبب عقود الأنكحة ، وقصدوا يغلقون أبواب الجوامع والمساجد ، فلما جرى ذلك أرسل ملك الأمراء الزينى أبا الوفا الموقع ، يأخذ بخاطر الشيخ شمس الدين محمد اللقانى ، وقال له : لا تؤاخذ ملك الأمراء ، فانه لم يكن يعرفك . وأرسل على يد الزينى أبى الوفاء الموقع مائتى دينار وأربع بقرات ، ففرقت على مجاورى الجامع الأزهر ، وأرسل مثل ذلك الى مقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وأرسل مثل ذلك الى الزوايا التى بالقرافة ، والى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وغير ذلك من الزوايا والمزارات والمساجد ، وقصد أن يستجلب خواطر العلماء والفقهاء مما فعله من الأفعال الشنيعة ، ليمحو ذلك بذلك ، وهذا من المحالات ، كما يقال فى المعنى :

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعذر أتى سرا فأكد ما فرط
ومن ظن أن يمحو جلى جفائه
خفى اعتذار فهو فى غايه الفرط

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، أنفق ملك الأمراء على المماليك الجراكسه ، وكان لهم خمسة أشهر جامكية منكسرة ، وقد ضاع عليهم عليق أربعة أشهر ، فأنفق ملك الأمراء عليهم فى ذلك اليوم شهرين ، وآخر لهم ثلاثة اشهر ، فاضر ذلك بحالهم

وفيه اجتمع العسكر يبصو الجامكية فى الميدان ، فنزل لهم المقر الشهابى احمد بن الجيعان ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، وابن أبى أصبع ، فقالوا للمماليك الجراكسة : ملك الأمراء يقول لكم أنه مسافر بعد الربيع ، فالذى له قدرة يعمل برقه ، والذى ما له قدرة على السفر لا يأخذ جامكية ويقعد يستريح . فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

ثم ان ملك الأمراء جلس فى شباك الدهيشة وأرسل خلف المماليك الجراكسة ، فلما طلعوا ووقفوا بين يديه ، استدعاهم واحدا بعد واحد ، وصار يختار من كل عشرة مماليك مملوكا واحدا ، الذى يجده شابا وله قدرة على السفر ، فيبقيه على جامكيته ، والذى يجده من الشيوخ العواجز يقف جامكيته ، فأبطل فى ذلك اليوم ألف مملوك من المماليك الجراكسة والناس وغير ذلك ، وفيهم من هو من الأغوات من مماليك الأشرف قايتباى ، فتزايدت قسوته فى ذلك اليوم عليهم .

ومما وقع فى ذلك اليوم من النوادر الغريبة ، أن ملك الأمراء لما عرض المماليك صار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها نصفها ، ويعطيها له فى يده ، ويقول له امش على القانون العثمانى فى قص اللحى ، وتضييق الأكمام ، وكل ما تفعله العثمانية ، فنزل المماليك الجراكسة من القلعة فى ذلك اليوم وهم فى غاية النكد مما جرى عليهم .

وكان سبب قطع جوامك جماعة من المماليك الجراكسة ، ان الديوان كان يوسد فى عادة الانشحات ، وقد كثر العسكر وصار المال يقسم على سبع طوائف من العسكر ما بين أمراء عثمانية ، وطائفة من الاصباهية ، وطائفة من الانكشارية ، وطائفة من الكملية ، وطائفة من الأمراء الجراكسة ، وطائفة من المماليك الجراكسة ، ومماليك ملك الأمراء طائفة سابعة ، فكان يصرف فى كل شهر لطائفة الاصباهية أحد عشر ألف دينار ويصرف لطائفة الانكشارية فى كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة الكملية فى كل شهر أحد عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة المماليك الجراكسة وأولاد الناس أحد عشر ألف دينار . ويصرف لمماليكه وخدامه وحاشيته وغير ذلك من الرواتب فى كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، وذلك خارج عن جامكية الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية والمترددين من القصاد العثمانية ، فبموجب ذلك وقع الانشحات فى تأخير الجوامك وكسرها الأشهر .

وكان السلطان الغورى لايستعين على سد الجوامك فى كل شهر الا بكثرة المصادرات للتجار وغيرهم من مساتير الناس وأعيانهم وكان يسد من مظالم العباد ، ويصير انم ذلك عليه .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء قد تغير خاطره على خوند مصرباى الجركسية ، وأنزلها من القلعة ، ورسم لها بأن تسكن بمدرسته التى بناها بباب الوزير ، ورتب لها فى كل شهر مايكفيها من النفقة . وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء قدوم زوجته أم أولاده من اسطنبول ، وقد أتت صحبة الأمير جانم الحمزاوى من اسطنبول ، فاختار بأن تكون صاحبة القاعة عوضا عن خوند مصرباى ، فشق ذلك عليها .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، أكمل ملك الأمراء تفرقة الجامكية على العسكر ، وأوقف جوامك كثير من المماليك الجراكسة ، ومن أولاد الناس ، ومن العواجز والشيوخ ، وقال للذين صرف لهم الجوامك : كونوا على يقظة واعملوا برقكم ، فربما الخنكار يرسل يطلبكم على حين غفلة ، فقالوا كلهم : السمع والطاعة ، ونزلوا على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير فرحات العثمانى نائب طرابلس ، استقر فى نيابة الشام عوضا عن اياس ، الذى كان بها ، وتوجه اياس الى اسطنبول ، فصار الأمير فرحات بيده نيابة طرابلس والشام .

وفى يوم الأربعاء خامس عشريه دخل الحاج الى القاهرة ، ودخل الأمير جانم أمير ركب المحمل وصحبته المحمل الشريف .

ثم أشيع أن الحاج قد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال . ولما طلع الى العقبة اشتد عليه البرد هناك والرياح العاصفة ، فمات من الحجاج ما لا ينحصر ، حتى قيل مات منهم من العقبة حتى دخلوا القاهرة نحو ثمانين انسانا ، ودخل الباقون مرضى من شدة البرد العاصف المضر بالأجساد .

ولما دخل الحاج أشيع موت الأمير باباى ، الذى كان ولى مشيخة الحرم النبوى ، وأشيع موت شخص من الأمراء العثمانية ، كان أغات الانكشارية ، توفى لما دخل المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع ، وكان من خيار العثمانية .

وتوفى الأمير مقرن أمير عربان بنى جبر ، متملك جزيرة بين النهرين الى بلاد هرمز الأعلى ، وكان أميرا عظيما جليل القدر مبجلا فى سعة من المال ، وكان مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق ، وكان أتى الى مكة وحج فى العام الماضى ، وكان يجلب الى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة ، والمسك والزعفران ، والعنبر الخام والعود والقمارى ، والحرير الملون ، وغير ذلك من الأشياء المتحفة . قيل انه لما دخل الى مكة والمدينة تصدق على أهلهما بخمسين ألف دينار ، فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه ، فانكسر الأمير مقرن منهم ، وقبضوا عليه باليد وأسروه ، فسألهم أن يشترى نفسه منهم بألف ألف دينار فأبى الفرنج من ذلك ، وقتلوه بين أيديهم ، ولم يغن عنه ماله شيئا ، وملكوا منه جزيرة بين النهرين ، وملكوا قلعتها التى هناك ، واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده ، وكان ذلك أشد الحوادث فى الاسلام وأعظمها . وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى ، والأمر لله تعالى .

ولما رجع الحجاج أثنوا على الأمير جانم أمير الحاج بكل جميل ، فى حفظه للحجاج ، ومنع الضرر عنهم ، وغير ذلك من أنواع البر والمعروف .

* * *

وفى شهر صفر ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الأربعاء ثالثه ، خرج الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء الجراكسة الى ملاقاة الأمير جانم الحمزاوى الذى كان توجه الى اسطنبول ، وصحبته تقدمة حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ، أرسلها ملك الأمراء خاير بك اليه على يد الأمير جانم كما تقدم ، فأكرمه وأحسن

اليه ، وقبل منه تلك التقدمة ، فأقام باسطنبول مدة ثم رسم له بالعود الى مصر

فلما بلغ الأمراء قدومه الى مصر ، خرجوا اليه قاطبة ، وخرجت اليه أعيان المباشرين قاطبة ، وجميع مشايخ العربان والكشاف المدركين قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر صفر ، وصل الأمير جانم الحمزاوى الى خانقاه سرياقوس ، فمد له القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، هذا بعد أن لاقاه من الصالحية .

وأشيع أنه حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى حريم ملك الأمراء الذى كان باسطنبول من حين ملك السلطان سليم شاه الديار المصرية ، فلما تولى السلطنة ولده سليمان ، رسم بعود حريم ملك الأمراء وأولاده اليه .

وفيه طلعت زوجة ملك الأمراء الى القلعة تحت الليل على المشاعل والفوانيس وهى فى محفة ، فلما طلع النهار طلع اليها جميع المغانى يهنئونها بالسلامة .

ثم ان الأمير جانم الحمزاوى رحل من الخانقاه ، وتوجه الى تربة العادلى وبات بها

فلما كان يوم السبت ثالث عشره ، صلى ملك الأمراء صلاة الفجر ، ونزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فجلس على المصطبة التى هناك ، وسلم على الأمير جانم الحمزاوى ، ثم أحضر الخلعة التى أرسلها له السلطان سليمان ابن عثمان باستمراره على نيابة مصر ، فقام ولبسها ، وقبل الأرض نحو القبلة ، وكانت الخلعة بتماسيح مذهب على أحمر . ثم قصد الدخول من باب النصر ، وشق من القاهرة ، فاصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وعلقت له القناديل والثريات ، ولم تزين له القاهرة فى ذلك اليوم وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء أن السلطان سليمان قد مات له ولد ذكر مراهق ، فمنع الزينة بسبب ذلك .

فلما وصل الى قبة الأمير يشبك الدوادار ، لاقته الأمراء الچراكسة والعسكر من المماليك الچراكسة قاطبة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، ونور الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومحيى الدين الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الفتوحى الحنبلى . ولاقته الأمراء العثمانية . وهم . الأمير على ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، وغير ذلك من الأمراء العثمانية . وخرج اليه طائفة الاصباهية وأمراؤها ، والكواخى من أغوات الانكشارية ، ومشى قدامه الانكشارية قاطبة والكملية قاطبة وهم يرمون بالنفوط ، ولاقاه أعيان الشرقية وهم : الأمير أحمد بن بقر أمير طائفة جذام وأمير الرايتين ، ومشايخ عربان الغربية وهم : حسام الدين بن بغداد ، وشيخ العرب واصل بن الأحدب أمير هوارة ، وشيخ العرب اسماعيل بن أخى الجويلى ، وشيخ العرب جربيش ، وآخرون من عربان الشرقية والغربية . ومشى قدامه النصارى بالشموع الموقدة .

ودخل الأمير جانم الحمزاوى وعليه خلعة السلطان سليمان بن عثمان ، وهى مخمل مذهب . فلما دخل من باب النصر نزل القاضى بركات بن موسى عن فرسه ، ومشى بالعصا قدام ملك الأمراء من باب النصر الى أن طلع الى القلعة . وكذلك الجمالى يوسف نقيب الجيش ، ولاقته الشعراء بالدف والشبابة السلطانية ، فلما وصل الى مدرسة الناصر نثر عليه الحلوانى الذى هناك

شيئا من الفضة ، فقال له ملك الأمراء : كثر الله خيرك ، فلما وصل الى باب سوق الوراقين أطلقوا له مجاجر البخور بالعود القمارى وركزوا له الطبول والزمور والمغانى من النساء والرجال فى عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، ولا سيما تجار الوراقين فانهم أوقدوا له موكبيات شمع كبار مذهب ، وصار ملك الأمراء يسلم على الناس كلما مر عليهم يمينا وشمالا ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة .

وكان الأمير جانم الحمزاوى قدامه وعليه خلعة السلطان سليمان ، وعن يمينه الأمير قايتباى الدوادار ، وعن يساره الأمير أزدمك الناشف ، وأعيان المباشرين قدامه .

ودخل صحبة الأمير جانم الحمزاوى جماعة من أعيان مصر ممن كان أسر مع السلطان سليم شاه ، فلما مات وتولى ولده سليمان السلطنة رسم لهم بالعود الى مصر ، فعد ذلك من جملة محاسنه وعدله وفعله الحسن .

فحضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى ... الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والزينى عبد القادر بن القاضى بركات بن قريميط أحد كتاب المماليك ، والقاضى كريم الدين عبد الكريم بن اسرائيل ، والقاضى كريم الدين المجولى وسعد الدين بن جلال الدين أحد كتاب المماليك وأولاد المستوفى سعد الدين وأخوه بركات ، وكمال الدين العائق مباشر أميراخور كبير ، وشهاب الدين أحمد بن أخى الاستادار يونس النابلسى ، والحاج بدر العادلى المهتار ، وآخرون ممن كان باسطنبول وأسر من أهل مصر .

واستمر ملك الأمراء فى ذلك الموكب الحافل حتى دخل الى الميدان الذى تحت القلعة ، وقد طلع من جهة التبانة الى مدرسة السلطان حسن . وقد شاهدت هذا الموكب بالمعاينة ، وكان من المواكب المشهودة الحافلة .

فلما استقر ملك الأمراء بالقلعة خلع على الأمير على الخماسى ، والأمير قموح ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير شيخ . وخلع على القاضى زين الدين بركات بن موسى المحتسب قفطانا مخملا لكونه مشى بالعصا قدامه من باب النصر الى القلعة ، ولكونه مد للأمير جانم الحمزاوى عند ملاقاته مدة حافلة فى بلبيس ، ثم فى الخانقاه ، وغير ذلك من الأماكن . وفى هذه الواقعة يقول الأديب البارع الفاضل ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال :

أهلا بمن عنه التواضع راوى
شرفا ومنه الجود وجدا راوى

شرفا تخضع له الرءوس لكونه
شرفا على الفرقدين يساوى

يامرحبا من قادم أعنى به
مولى المقر هو جانم الحمزاوى

من جاء مصر بخلعة غرا حوت
والعز من ذى الملك فخرا حاوى

شرف من اسطنبول معه بها أتى
منه لخير بك وخيرا ناوى

لله ذاك اليوم وهو بها يرى
وسلامه داء القلوب يداوى

فى موكب الملك العظيم وحوله
أسد سطاها الراسيات يقاوى

والناس فى فرج وفى فرح به
والجو مثل النحل منهم داوى

وصباحهم بالنصر من عظم الدعا
وعـدوه كالكلب خزيا عاوى

ولبعضهم بعضا أصابعهم غـدت
تبدى الاشارة والرءوس تلاوى

جـانم مفـدى نائب فى مصرنا
والعز فى ذى الخلعتين سـاوى

لازال فى مثليهما مرقاهمـا
فيـه على زحل بغـير تهـاوى

ببقاء ذى الملك الذى أضحى له
شرف على كسرى وقيصر حاوى

أعنى سليمان المقيم بعـدله
أمنـا اليـه من تروع ياوى

والمـدح ممن قانصـوه له أب
يبدى على كبد العدو مكاوى

ولسـانه عن حال مصر قائل
ومقـاله داء الغلاء مـداوى

ان فاخرت بالنيـل مصر غيرها
فنواله لبـلاد مصر تقـاوى

ثم أشـيع ان السـلطان سليمان — نصره الله تعالى — أرسل سبعة قفاطين حرير الى مشـايخ العربان الذين بالصعيد ، والذين بالغربية ، والذين بالشرقية ، والذين بالبحيرة ، وأرسل لكل واحد منهم مرسـوما شريفا على انفـراده مع القفطان وأرسل على يد الأمير جانم الحمزاوى ، قفطانا مخملا مذهبا للسيد الشريف بركات أمير مكة المشرفة وأرسل قفطانا مخملا للأمير على بن عمر شـيخ عربان الصعيد . وأرسـل قفطانا مخملا لشيخ العرب واصل بن الأحدب أمير هوارة . وأرسل قفطانا مخملا الى الأمير أحمد بن بقر أمير جذام وأمير الرايتين . وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب حسام الدين بن بغداد شـيخ عربان الغربية وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب اسماعيل بن أبى الجويلى شيخ عربان البحيرة ، ولبسوا ذلك مع المراسيم ، ومن كان منهم حاضرا فى القاهرة لبس قفطانه بحضرة ملك الأمراء

وفى يوم الأحد رابع عشريه ، حضر بين يدى ملك الأمراء : الأمير على العثمانى ، ومحب الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، والأمير شيخ ، والقاضى حمزة ، وغير هؤلاء من الكواخى . ثم أحضر الأمير جانم الحمزاوى مرسـوم السلطان سليمان ابن عثمان — نصره الله تعالى — فقام اليه الأمراء العثمانية قاطبة ، وملك الأمراء ، ولم يحضر ذلك المجلس أحـد من الأمراء الجراكسة . ثم قرىء عليهم ذلك المرسوم ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضروا من حلها بالعربية .

فكان من مضمونه أن السلطان سـليمان نعت ملك الأمراء نعتا عظيما ، وفوض له التكلم على مصر وأعمالها ، يعزل بها من يختار ، ويولى من يختار ، من الثغور والبلاد الشرقية والغربية وبلاد الصعيد .

ومن مضمونه أنه اذا قدم عليه قاصد من بلاد الروم ، لا ينعم عليه بأكثر من ألف دينار . فانه بلغ السـلطان سـليمان أنه ينعـم على قصـاده الواردة عليه من بلاد الروم بمال جزيل ، فمنعه من ذلك .

ومن مضمونه أن ملك الأمراء ينظر فى أحوال الرعية ، ويصرف للجند جوامكهم فى كل شـهر على العادة ، وأن ينظر فى أمر المعاملة فى الذهب والفضة .

ومن مضمونه أنه أرسـل يطلب جمـاعة من الأصباهية يمضون الى اسطنبول ، ويجىء الى مصر غيرهم .

وأرسل يقول لملك الأمراء أن ينظر فى أمر تسعير البضائع كالقسح وغيره ، وأظهر غاية العدل فى مرسوم ملك الامراء ، وآكد فيه النظر فى أحوال الرعية قاطبة . وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

كعب سليمان كعب خير
أعنى ابن عثمان دام ملكه
من كعبه مصر فى رخاء
ومن سطاه الملوك ملكه

وفيه أشيع أن السلطان رسم للأمير جانم الحمزاوى أنه اذا دخل الى حلب يطلع القلعة ويأخذ المال الذى كان السلطان الغورى أودعه بها لما خرج الى ملاقاة السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكان نحو ستمائة ألف دينار وكسور ، فرسم السلطان سليمان بحمل ذلك الى ملك الأمراء خاير بك ، وأنه يسبك الفضة ويضربها باسم السلطان سليمان بمصر ، وتمشى فى المعاملة للناس ، والله أعلم بحقيقة ذلك هل له صحة أو لا .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ، وعدى الى بر الجيزة ، ونزل بشنبرمنت على سبيل التنزه ، وكان صحبته الأمير قانصوه ، وآخرون من الأمراء الجراكسة ، والأمراء العثمانية والقاضى شرف الدين الصغير ، والشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، وآخرون من المباشرين . وأقام بشبرامنت الى يوم الأربعاء رابع عشرى صفر وأرسل يطلب عليقا ودقيقا ، وغير ذلك من دجاج وأوز . وأشيع أنه توجه من هناك الى نحو النجيلة يتصيد فتوجه اليه الأمير جانم الحمزاوى ، ونقيب الجيش الجمالى يوسف ، والقاضى شرف الدين بن عوض ويوسف بن أبى الفرج المفتش ، وابن أبى اصبع وغير هؤلاء من الأعيان وأرباب الوظائف .

وفيه توفى القاضى بدر الدين محمد بن حجاج الموقع ، وكان من الأعيان وخدم عدة أمراء مقدمى ألوف .

* * *

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأربعاء ، وكان ملك الأمراء غائبا ، فلم تطلع القضاة الى القلعة ولم يهنئوا بالشهر .

فلما كان يوم الثلاثاء سابعه ، حضر ملك الأمراء من تلك السرحة ، فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة خمسة عشر يوما ، فتنزه هناك وانشرح الى الغاية ، وتصيد عدة من الكراكى والغزلان ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان الذين بالعربية والشرقية ، والكشاف المدركين ، ما بين ذهب وفضة وخيول وجمال وبقر وجاموس وغنم وأوز ودجاج وقدور عسل نحل وسمن ، وغير ذلك أشياء فاخرة تهدى للملوك .

فلما رحل من النجيلة لم يتوجه الى الاسكندرية ولم يدخلها فى هذه المرة ، بل قصد العود الى القاهرة . فلما وصل الى قرية قليوب ، تسامع به الناس فخرجوا اليه ، فأضافه هناك شيخ العرب ابن أبى الشوارب ، وبات بقليوب . فلما أصبح رحل من هناك ، وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فمدت له هناك مدة حافلة ، فتغدى هناك ورحل ، فخرجت اليه قضاة القضاة لتلقيه فلم يجتمعوا به ، ولم يكن معه غير قاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى فقط . ثم اصطف له الناس على الدكاكين لأجل الفرجة ، فلم يشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وطلع الى القلعة من بين الترب ، فلم يشعر به أحد .

وفى يوم السبت حادى عشره عمل ملك الأمراء المولد النبوى ، فاجتمعت القراء والوعاظ بالدهيشة

وأرسل يقول لقضاة القضاة : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا القلعة ، فان ملك الأمراء حصل له توعك فى جسده ، فلم يحضر المولد . ثم أرسل خلف قاضى القضاة المالكى على انفراده ، وقال له : اطلع واحضر المولد . وكان قاضى القضاة المالكى من أخصاء ملك الأمراء ، وكان عنده من المقربين .

ثم ان ملك الأمراء أرسل يقول للأمراء الجراكسه والأمراء العثمانية : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا الى القلعة بسبب المولد ، فان ملك الأمراء احتجب فى ذلك اليوم بالأشرفية التى بجوار الدهيشة . ولم يجلس عند المقرئين ، ولا حضر السماط فى ذلك اليوم ، بل قعد على رأس السماط قاضى القضاة المالكى ، والأمير برسباى ، والخازندار ، وآخرون من الأمراء العثمانية ، وانقضى ذلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على القاضى أبى السعود ابن الشحنة ، واستقر أمير جكار عوضا عن الناصرى محمد بن أحمد بن اسنبغا بحكم صرفه عنها .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الطواشى مسك فرسم بتوسيطه ، ثم شفع فيه الأمراء العثمانية فرسم بنفيه الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فخرج من يومه وسافر فى البحر المالح ، وكان سبب ذلك أن مسك هذا لما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان الديار المصرية ، لم يقابله واختفى حتى رحل ابن عثمان عن مصر ، واستقر الأمير جان بردى الغزالى فى نيابة الشام وسافر اليها ، فخرج مسك صحبته فى الخفية ، وأقام عنده بالشام ، فلما جرى للغزالى ما جرى وقتل ، حضر مسك الى القاهرة ، وقابل ملك الأمراء وصار عنده من المقربين .

وكان مسك هذا لطيف الذات ، يشتمل على جملة من المحاسن ، منها الخط الجيد ، والقراءة الحسنة ، وغير ذلك من المحاسن ، فاتفق أن الطواشى الذى يحضر من اسطنبول رأى مسك هذا الذى كان يكره السلطان سليم شاه ، ولما دخل الى مصر هرب وتوجه الى جان بردى الغزالى فتغير خاطره عليه ، فرسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم شفع فيه من التوسيط فرسم بنفيه ، وكان مسك هذا من أعيان خدام الأشرف قايتباى .

وفى يوم الجمعة سابع عشره خرجت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان — وقد تقدم القول أنها أتت الى مصر لتحج — فلما حجت قصدت العودة الى بلادها ، وعين معها ملك الأمراء جماعة من الكملية ومن الأصباهية يحفظونها فى الطريق اذا سافرت . فأشيع بعد سفرها بأيام أن العربان خرجت عليها فى العريش ، ونهبت أطراف بركها من جمال وقماش وغير ذلك .

ومن النوادر الغريبة ما وقع يوم الخميس ثالث عشريه ، وذلك أنه قد أشيع فى القاهرة بين الناس ، أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد شنق نفسه ، فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد الاضطراب ، ولم يشك أحد من الناس فى ذلك ، لأن المقر الشهابى أحمد بن الجيعان حصل له فى تلك الأيام غاية الشدائد والمحن ، وصار ممقوتا عند ملك الأمراء ، وقد تقدم القول على سبب ذلك ، فلما قويت الاشاعات بذلك ، كان الشهابى أحمد بالقلعة ، فقال له الأمير جانم الحمزاوى قم وانزل وشق من القاهرة حتى تخمد هذه الاشاعة ، فقام ونزل من القلعة ، وشق القاهرة . فلما رآه الناس فرحوا به وهنئوه بالسلامة ، وخمدت تلك الاشاعة الباطلة التى ليس لها صحة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

❊ ❊ ❊

وفى شهر ربيع الآخر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر فلما تكامل المجلس حصل فى ذلك اليوم تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى على الطرابلسى ، وبين مستنيبه محب الدين سبط الشيخ بدر الدين محمد بن الدهانة ، وقد ناقضه قاضى القضاة الحنفى فى القول ، وقال له حكمك لا يجوز ، قد وليت بالرشوة . وأسمعه من هذه الألفاظ المنكرة أشياء كثيرة بحضرة ملك الأمراء ، وبحضرة قضاة القضاة ومشايخ العلم ، فقال قاضى القضاة الشافعى لمحب الدين : حكمك الذى حكمته باطل . فقال له محب الدين : ما هو صحيح منك . واستمر المجلس يتزايد فى اللغط بين الفقهاء بحضرة ملك الأمراء . وكان قاضى القضاة الحنفى أهوج رهاجا ، وعنده صعصعة وبادرة حدة مع قلة دربة .

فلما رأى ملك الأمراء المجلس قد انفض على غير طائل ، أصلح بين قاضى القضاة الحنفى وبين مستنيبه محب الدين سبط ابن الدهانة ، فاصطلحا صلحا على فساد ، وانفض ذلك المجلس .

ثم ان ملك الأمراء قال لقاضى القضاة الحنفى : لا تبقى تعارض محب الدين فى أحكامه . فنزل محب الدين وهو منتصف على قاضى القضاة ، وقد بهدله فى ذلك اليوم غاية البهدلة .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه قد وقع بها زلزلة عظيمة ، فهدمت عدة بيوت سفلت على أهلها ، ورمت الأعمدة التى تحت الأماكن والقبب ، وكانت من الأمور المهولة . وذكروا أنه وقع مثل هذه الزلزلة فى أيام الخنكار أبى يزيد جد السلطان سليمان ، فجرى عقيب ذلك ما جرى مع السلطان قايتباى ، وكسر مرتين ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الخميس سابعه أشيع أن شخصا منجما قال انه فى يوم الجمعة تثور على الناس رياح عاصفة ، وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها البيوت ، وتقبض الناس وهم فى صلاة الجمعة . فانتشرت هذه الاشاعة فى القاهرة ، وانطلقت ألسنة الناس بذلك قاطبة . فاضطربت القاهرة لهذه الاشاعة ، وصار الناس يودع بعضهم بعضا ، وباتوا تلك الليلة على وجل .

فلما أصبحوا وجاء وقت صلاة الجمعة دخلوا الى الجوامع فصلوا وعلى رءوسهم طيرة . فلما قضيت الصلاة ، وخرجوا من الجوامع ، صار لهم ضجيج وهم يهنئون بعضهم بعضا بالسلامة ، ويصافحون بعضهم بعضا ، وخمدت هذه الاشاعة التى لا أصل لها .

وقد اتفق وقوع مثل هذه الواقعة فى أوائل سلطنة الأشرف قايتباى . وأشيع مثل ذلك أن الناس اذا صلوا الصلاة يقبضون وهم فى صلاة الجمعة ، فلما دخل الناس الى الجوامع صار على رءوسهم طيرة ، فاتفق أن خطيبا كان فى الجامع الذى عند ميدان القمح ، وكان يعتريه خلط مصرع ، فلما صعد المنبر عرض له ذلك الخلط المصرع ، وهو على المنبر ، فاضطرب وسقط عن المنبر ، فلما عاين الناس ذلك اضطربوا وهربوا من الجامع ، ولم يصلوا وظنوا أن الذى أشيع حق ، فعد ذلك من النوادر وأهل مصر ليس لهم عقول ... يصدقون بالمحالات الباطلة التى ليس لها صحة !

وفى يوم الاثنين حادى عشره نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب الأغربة التى عمرها هناك ، فسيرت قدامه فى البحر ذهابا وايابا ، وهو ينظر اليها والنفوط عمالة ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم السبت سادس عشره ، سقطت القبة العظيمة التى كانت على الايوان باكر النهار ، وهذه القبة من انشاء الناصر محمد بن قلاون . فلما سقطت تفاءل الناس بزوال ملك ملك الأمراء عن قريب ، وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من حين عمرت ، وكانت من خشب وفوقها رصاص ، وكانت مغلفة بقيشانى أخضر . ولم يعمر فى مصر أكبر منها ، وكانت من نوادر الزمان .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره توجه الأمير شيخ العثمانى الى اسطنبول ، وأرسل صحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ، وأرسل يشاور السلطان فى أمور كثيرة من أحوال المملكة ، وينتظر الجواب عن ذلك .

وأشيع أن السلطان سليمان أرسل يطلب من ملك الأمراء نحيل بلح ليزرعها فى اسطنبول ، فشرع ملك الأمراء فى تجهيز ذلك ، فقيل انه أرسل اليه خمسمائة نخلة من البلح الحيانى ، وهى نحيل صغار تطرح بلحا حيانيا أحمر فى غاية الحلاوة ، فأرسل تلك النخيل فى صناديق خشب وهى فى طينها ، وأرسلها فى مراكب الى البحر المالح ، وتتوجه من هناك الى اسطنبول ، وأرسل صحبتها خولة تزرعها هناك .

وفيه جهز ملك الأمراء الأغربة وبها مقاتلون من المغاربة وغيرهم . وقد بلغه أن جماعه من الفرنج تعبث فى السواحل وتشوش على المسافرين فى البحر . ولما سافر بعض التجار من الأروام فى البحر ، وقصد يطلع من الاسكندرية ويتوجه من هناك الى اسطنبول ، أوسق معه عدة مراكب بضائع وأصنافا كثيرة من قماش وغير ذلك بنحو مائة ألف دينار .

وكان فى ذلك المركب رجال ونساء وصغار وتجار من الأروام وعبيد وجوار ، فلما سافروا من ساحل بولاق وأقلعوا ذلك اليوم ثارت عليهم رياح عاصفة ، فلما وصلت المراكب الى شبرا دارب فى البحر وغرقت هناك بكل ما فيها من الخلائق والبضائع والأصناف . وكان فيها تجار مغاربة وبحارة ، وكانوا قبل سفرهم صاروا يشوشون على الناس ويمسكونهم من الطرقات غصبا بسبب المراكب ، فكثر الدعاء عليهم من الناس بظلمهم ، وحصل لأهل مصر فى ذلك اليوم غاية الضرر . فلما سافرت المراكب غرق أكبرها فى يومه لما حلت من بولاق ، وذلك بدعاء الناس عليهم .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى : أن المعلم ابراهيم اليهودى ، معلم دار الضرب ، كان له جاريتان احداهما حبشية والأخرى سوداء ، فوطىء الجارية الحبشية فحبلت منه ، فوضعت بنتا ، فعاشت تلك البنت سبعة أشهر ، ثم ان الجارية الحبشية أظهرت أنها تريد أن تدخل الحمام ، فلما وصلت الى الحمام هربت وتوجهت الى بيت قاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى ، وقالت له : يا سيدى القاضى أنا مسلمة ، وأبدت الشهادة بين يديه ، ثم قالت له أنا سيدى المعلم ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب ، وقد وطئنى وحملت منه بهذه البنت ، وأنا صرت مسلمة مابقيت أقعد عنده ، فحكم قاضى القضاة باسلامها فى الحال ، وأرسل خلف اليهودى معلم دار الضرب بسبب ابنته ، فانها صارت مسلمة تابعة لأمها ، فحكم قاضى القضاة باسلام البنت أيضا وأمها . فقيل ان المعلم ابراهيم دفع لقاضى القضاة خمسمائة دينار على أن يجعل البنت تبعا لأبيها فأبى من ذلك واستمر مصمما على حكمه ، فطلع ابراهيم اليهودى الى ملك الأمراء وكتب قصة بشرح الحال ، ووقف الى ملك الأمراء ، فقال له : « قاضى القضاة حكم باسلام البنت وأمها وصارت مسلمة ، أعيدها أنا الى دين اليهود ؟ » . فلم يطلع من يد ابراهيم

اليهودى فى هذه الواقعة شىء ، ونزل من القلعة وهو مخزى ، وعتقت الجارية وابنتها على رغم أنفه .

وفيه قدمت الأخبار من الغربية أن عربان عزالة قد نزلوا على البساط بالقرب من تروجة وصاروا ينهبون الجرون ، ويرعون الزروع ، فحاربهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى وكسرهم ، واحتوى على جمالهم وأغنامهم وخيولهم وغير ذلك ، ولم يترك لهم شيئا ، وهربوا ومضوا حيث شاءوا . ثم ان اسماعيل أرسل تلك الغنيمة الى ملك الأمراء ، فشكره على ذلك .

* * *

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم . وفى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى كاشف الفيوم ، وقرره أمير ركب المحمل على عادته . وهذه ثالث مرة يسافر أمير الحاج فى دولة ملك الأمراء خاير بك .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء فى القاهرة بأن الدينار السليم شاهى يصرف بأربعين نصفا من الفضة العتيقة ، والدينار السليمانى يصرف بخمسة وستين نصفا حسابا عن كل نصف فضة من الفضة الجديدة يقع بنصفين وربع ، عبارة عن أن الدينار السليمانى يقف فى البيع والشراء بخمسة وعشرين نصفا .

فلما نودى فى القاهرة بذلك اضطربت أحوال الناس فى تلك المعاملة ، وصارت البضائع تباع بسعرين ، سعر بالفضة الجديدة ، وسعر بالفضة العتيقة ، فضج الناس من ذلك ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وبطل البيع والشراء ، ووقف حال التجار والمسببين ، وصار النصف العتيق يصرف بستة دراهم فلوس جدد ، والفضة الجديدة تصرف بنصفين وربع ، وقد لعب ابراهيم اليهودى فى أموال المسلمين من ذهب وفضة وفلوس جدد ، وتحكم فى أخذ ما بيد الناس من أموالهم بغير حق ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء خامس الشهر ، اجتمع الجم الكثير من السوقة والمسببين وجماعة من القزازين من منية أبى عبد الله ، وجماعة من المكاسة وغير ذلك ، وحملوا على رءوسهم مصاحف وربعات وأعلاما وطلعوا الى القلعة ، وزعموا أن محيى الدين بن أبى أصبع قد ظلمهم بسبب مكس الأطرون ، وأخذ منهم على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربع ، وقد ظلمهم وصار يقيم لهم النصف من الفضة العتيقة بستة نقرة . فلما طلعوا الى القلعة لم يجتمعوا بملك الأمراء ، واحتجب عنهم ، وأرسل اليهم الأمير جانم الحمزاوى والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . فقال لهم ملك الأمراء : يقول لكم هذا أمر السلطان فى أمر المعاملة . فكابروا ووقفوا وشكوا وتحسبوا ، فخرج اليهم جماعة من الانكشارية فضربوهم بالعصى على وجوههم ، فتشتتوا ونزلوا على أسوأ حال وهم فى غاية الذل .

وفيه نزل ملك الأمراء وتوجه الى بركة الحبش على سبيل التنزه ، فجهز اليه القاضى المحتسب هناك مدة حافلة ، وأقام الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة فى يومه .

وفيه نودى فى القاهرة بأن السنج والأرطال القديمة التى كانت تتعامل بها الناس من قديم الزمان تبطل جميعها من القاهرة ، وأخرجوا لهم سنج نحاس وأرطالا تسمى العثمانية ، وهى عبارة عن تسعة دراهم ، فتنقص كل مائة درهم أربعة

دراهم فى سائر الأوزان قاطبة فى البضائع ، حتى فى المسك والعود والعنبر وغير ذلك ، فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما ، وعملوا مثل ذلك فى القبان أيضا ، وخرجوا على الناس فى استعمال تلك السنج والأرطال ، وأوعدوا السوقة أن كل من خالف فى ذلك شنق من غير معاودة فى ذلك . وقد تقـدم القول أنهم أبطلوا الذراع الهـاشمى ، وأخرجوا الذراع العثمانى الذى يزيد على الهاشمى خمسة قراريط ونصف قيراط . وكتبوا على التجار قسائم ألا يستعملوا الا الذراع العثمـانى فقط فشق ذلك على الناس قاطبة .

وفى يوم السبت ثامن الشهر ، رسم ملك الأمراء بشنق أنفار منهم يهـودى ونصرانى ، وقد ظهر عليهم شىء من الزغل فى الذهب والفضة ، وقد نم النصرانى على اليهودى ، فكبسوا على اليهودى فى بيته ، فوجدوا عنده آلة الزغل ، وشخص آخر مقـدم درك الأزبكية ، أشيع أنه قتـل فى دركه شخصا من الانكشارية ، وشخص آخر قيل هو ابن أنس التى كانت فى الأزبكية وغرقوها قبل تاريخه ، فخوزقوا الأربعة فى يوم واحد فأما اليهـودى فخوزقوه عند باب الصاغة ، والنصرانى خوزقوه بالقرب من المارستان ، وأشيع عنه أنه لما خوزقوه أسلم وتلفظ بالشهادتين فلم يلتفتوا الى اسلامه ، فخوزقوه وأقام يوما وليلة وهو فى قيد الحيـاة يتكلم حتى مات بعـد ذلك ، وأما مقـدم درك الأزبكية فخوزقوه فى الأزبكية عند الدكة بالقرب من بركة قرموط ، عنـد المكان الذى قتل فيـه الانكشارى ، وأما ابن أنس القوادة التى غرقوها ، فخوزقوه فى الأزبكية ، قيـل انه كان له جرة فى الانكشارى الذى قتل .

ومن الحوادث الشنيعة فى ذلك اليوم ، أن جماعة من الانكشارية مروا بذلك النصرانى الذى خوزقوه عند باب المارستان ، فوجدوه يتلفظ بالشهادتين ، فطلب شربة ماء من الانكشارية الذين حوله ، وكان أربعة مماليك من مماليك الأمير قايتباى الدوادار واقفين مع الانكشارية ، فرفقوا بذلك النصرانى وأنزلوه الى الأرض وقلعوا الخازوق من بطنه ، وسقوه شربة ماء وأرقدوه على الأرض ، فحصل بين الانكشارية وبين مماليك الأمير قايتباى الدوادار تشاجر بسبب ذلك النصرانى ، فاتسع الشر بينهم ، فسحب بعض مماليك الأمير قايتباى خنجرا وهاش به على الانكشارية ، فجرح منهـم شخص وسال دمه ، وانقطعت جوخته ، فتكاثرت الانكشارية على المماليك فهربوا منهم ، وتوجهوا الى بيت الدوادار الذى بين القصرين ، فتبعهم الانكشارية وهجموا عليهـم فى بيت الدوادار ، فأغلقوا البـاب فى وجوههم ، فحنقـوا منهم وقصـدوا أن يحرقوا الباب ، وثارت فتنة عظيمة كما يقال . « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

فلمـا بلغ الوالى ذلك أرسـل دواداره فأعاد النصرانى الى الخازوق ثانيا وفيه الروح ، فلمـا طلع النهار بلغ ملك الأمراء أخبار هـذه الواقعة فتغير خاطره على الأمير قايتباى الدوادار بسبب مماليكه ، فأرسل يطلب منه مماليكه الذين فعلوا هـذه الفعلة ، فطلع اليـه الأمير جانى بك أخو الدوادار ، فلمـا رآه ملك الأمراء طفش فيـه بالكلام ، وقال له ان لم تحضر هذه المماليك الذين أثاروا هذه الفتنة ما يحصـل لك خير ، فنزل من عنده وهو فى غاية النكد .

ثم ان ملك الأمراء نادى فى القاهرة : كل من أخفى عنده مملوكا من مماليك الدوادار شنق على باب داره من غير معاودة ، والذى يحضر مملوكا منهم له مائة دينار وقفطان مخمل .

فلمـا كان يوم الاثنين عاشر الشهر نزل ملك الأمراء الى الميدان وأحضر بين يديه مملوكين من مماليك الأمير قايتباى الدوادار ممن فعل هـذه الفعلة ، وقد قبض عليهما الوالى ورسم بتوسطيهما فوسطوهما على باب الميدان ، ووسط معهما بواب الدوادار أيضـا لكونه أغلق فى وجه الانكشارية الباب ، فراح البواب ظلما . وكان عند ملك الأمراء الأمير قايتباى فمقته ملك الأمراء غاية المقت .

فلما رسم ملك الأمراء بتوسيط البواب ، قام الأمير خير الدين نائب القلعـة ، والأمير نصوح العثمانى ، وشفعا فى بواب الدوادار فان له أولادا وأبا شيخا كبيرا ، فلم يلتفت الى شفاعتهما ، فقاما وقبلا يدى ملك الأمراء ثانى مرة ، وهو لا يزداد الا قسوة ، وحصل للأمير قايتباى فى هذه الحركة غاية البهدلة ، وانحطت كلمته عندالناس قاطبة .

وقيـل ان الأمير قايتبـاى الدوادار دفـع للانكشارى الذى قالوا انه جرح مائة دينار وأعطاه جوخة كانت عليـه وجبتى حرير بفرو سنجاب فى نظير جوخته التى شرطت ، وأعطاه خنجرا عوضا عن خنجره الذى زعم أنه سقط منه ، وأرضاه بكل ما يمكن ، وهذه من أبشع الحوادث وأشنعها .

ومن هنا نرجع الى أخبار ذلك النصرانى الذى أسلم لما خوزقوه ، فاستمر يتلفظ بالشهادتين حتى مات ، فشاوروا عليـه قاضى القضـاة كمال الدين الطويل الشافعى ، فرسم بأن يغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدفنوه فى مقابر المسلمين ، ففعلوا به ذلك ، وسار جماعة من العوام قدام نعشه حتى دفنوه بعد الصلاة عليه فى جامع الحاكم .

وفى يوم الخميس ثالث عشره ، سافر القاصد الذى كان حضر وبشر بأن الأمير مصطفى قد تزوج بابنة السلطان سليم شاه ، وهى أخت السـلطان سليمان ، فأنعم عليه ملك الأمراء بمال له صورة ، وكذلك سائر الأمراء العثمانية وأرباب الدولة ، فدخل عليه فوق العشرة آلاف دينار . ودخل عليه مثل ذلك بالشام وحلب وسائر النواب .

وفى يوم الجمعة رابع عشره ، أشيع قدوم شيخ العرب الأمير أحمد بن قاسم بن بقر ، ويعرف بأبى الشوارب ، وكان توجـه الى الأمير جان بردى الغزالى ، وطلب له من ملك الأمراء الأمان على نفسه ، فحضر الى القاهرة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه ، وصار عنده من المقربين فأقام مدة على ذلك . ثم بدا لملك الأمراء قتله ، فأرسل الى جانى بك كاشف الشرقية بأن يقطع رأسه ، فتوجه اليه جانى بك وهو فى منيـة أبى الحارث بالدقهلية ، فهجم عليه وقطع رأسـه ، وقتل معـه شخصا آخر من مشايخ عربان العايد ، فلما قتل الأمير أحمـد بن قاسم بن بقر نهبت داره ، وسبيت نساؤه وأولاده ولم يعلم أحد ما سبب ذلك .

ثم ان الأمير جانى بك الكاشف أرسل رأس الأمير أحمد بن قاسم ، ورأس شيخ العايد ، فرسم ملك الأمراء بدفن الرءوس ، وقد أخذ ملك الأمراء بثأره من أحمد بن قاسم وكان فى قلبه منه شىء من حين توجه الى الغزالى نائب الشام فكان كمـا يقال فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها
عينـا عليك اذا ما نمت لم تنم

وفيـه توفى الأمير تمراز الشمسى السيفى الأتابكى الذى كان كاشف البحـيرة ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين سابع عشره ، قبض ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمـد بن الجيعان ، وسجنه بالقاهرة بالعرقانة ، وكان ملك الأمراء متحملا منه

فى الباطن غاية التحمل ، وكانت هـذه أول كائنة وقعت له مع ملك الأمراء ، وأمره الى الله تعالى ، فأقام أياما وهو فى الترسيم .

ثم أن ملك الأمراء خلع عليه بعد ما أورد مالا له صورة من التقسيط الذى كان عليه ؛ وقد نفد منه جميع ما معه من المال ولم يبق على ملكه لا رزقة ولا اقطاع ولا بيوت ولا دكاكين ، وباع سـائر قاعاته التى على بركة الرطلى فاشتراها الأمير قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة بأبخس الأثمان ، وجرى عليـه شدائد ومحن دون أقاربه الـذين مضوا ، وما لاقى خيرا فى هـذه الدولة وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الاثنين كان عيد الفصح عند النصارى — وهو أول يوم من الخماسين — وهو أكبر أعياد النصارى ، فحكى عن يونس النصرانى مباشر ملك الأمراء أنه صنع فى ذلك اليـوم خمسين بطة من الدقيق برسم الكعك والخشتنان ، واثنى عشر قنطار شيرج ، وعشرة قناطير سكر ، وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض الذى يفرق على الناس ، ودخل عليه تقادم من الأعيـان وأشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى : أن شخصا يقال له ابن الشاطر حسن المصارع ، خرج من بيته بعد العصر ، وركب على حماره ، ثم جلس على مصطبة تحت بيت فى الجسر ليتفـرج ، فاضطرب ساعة يسيرة ثم طلعت روحه فى الحال ، وصار ملقى على الطـريق ، فمضى النـاس الى ولده وزوجتـه وأخبروهما بموته ، فأحضروا له نعشـا وحملوه عليه بعد المغرب ، ومضوا به الى بيته ، وكان ذلك الرجل يبيع الورق ، فنعوذ بالله من موت الفجأة على حين غفلة .

وفى يوم السبت ثانى عشريه ، قـدم أمير من أمراء السلطان سليمان ، وقد طلع من البحر من ثغر الاسكندرية ، فلما بلغ ملك الأمراء قدومه رسم للأميرجانم الحمزاوى والأمير قايتباى الدوادار أن يخرجا الى ملاقاته ، فخرجا الى وردان ولاقوه من هناك ، ومدوا له هنـاك مدة حافلة ؛ وصارت الكشاف ومشـايخ العربان تمد له المدات بطول الطريق ، فلما وصـل الى بولاق نزل اليـه ملك الأمراء ولاقاه من هناك .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشريه ، دخل الأمير سنان بك الذى أرسله السلطان سليمان الى مصر ليقيم بها عوضا عن الأمير نصوح ، ويسافر الأمير نصوح الى اسطنبول . قيل ان الأمير سنان هذا كان عند السلطان سليم شاه بن عثمان من المقربين ، وكان عنده بوابا لما دخل الى مصر ، وكان موكلا بحفظه ليلا ونهارا ، فلما رجع السلطان سليم الى اسطنبول جعله نائبا على بلد يقال لها انطاكية ، فلما تسلطن ولده سليمان أرسله الى مصر ليكون أمينا على ملك الأمراء . فلمـا توجه اليـه ملك الأمراء أركبه فرسا بسرج ذهب ، وعرقية زركش ، وألبسه قفطانا مذهبـا ، فركب من بولاق ، وملك الأمراء صحبته ، فتوجهوا من باب البحر ، وعلى رأسـه صنجق حرير أحمر ، وخلفه طبلان وزمران ، وكان معه نحو مائة مملوك مشترواته ، فلما دخل من باب البحر استمر فى ذلك الموكب حتى شق من القاهرة وكان ذلك اليـوم مشـهودا ، فانزلوه فى بيت الأتابكى قرقماس الذى عنـد حوض العظـام ، ومدوا له هناك مدة حافلة .

ثم أشيع أنه لما دخل الأمير سنان ، أخبر أن السلطان سليمان بن عثمان جهز خمسمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخـرج بنفسه الى قتال أهل رودس من الفرنج ، وقد جمـع من

العساكر ما لا يحصى عددهم ، وهو قاصد التوجه اليهم

قيل ان الأمير سنان لما مر على ضياع الشرقية التى على شاطىء البحر ، وقف اليه الجم الكثير من الفلاحين واستغاثوا به ، ودعوا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمـــان ، وقالوا قد خربنا من الظلم يأخذوا منا النصف من الفضه الجديدة بنصفين وربع وعند الحساب يقيمونه علينا بنصف فضه ، ما يحل من الله سبحانه وتعالى ، فوعدهم بالنظر فى أحوالهم ولم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد ، واستمر كل شيء على حاله .

وفى يوم الخميس ســابع عشريه طلعت تقدمة الأمير سنان بك الى ملك الأمراء ، فكان من جملتها أربعــة مماليك صغار مرد چراكسه ، وحمـــلان ما بين شربات وطاســات وغير ذلك وحمـــلان شـــقق برصاوى مذهب ، وأثواب مخمـــل ملوز وعليهـــا فرو سمور ووشق وسنجاب ، وحملان أقواس وغير ذلك .

وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمراء العثمانية ، ثم ان الأمير سنان أحضر مرسوم السلطان سليمان الذى حضر على يده ، فلما قرىء عليهم ، كان من مضمونه الوصـــية بالرعيه ، والنظـــر فى أحوال الناس فى أمر المعاملة ، وأرسل يقول لملك الأمراء انه لايمكن أحدا من الانكشارية من النزول الى المدينة حتى لا يشتكى أحد من الناس منهم ، وان ملك الأمراء لا يصرف لهم فى كل يوم أكثر من درهمين فضة ، كما كانوا فى اسطنبول ، وأرسل يقول له أشياء كثيرة من تعلقات المملكة . .

* * *

وفى شهر جمادى الآخرة - وكان مستهله يوم الأحد — طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى منازلهم . وقيل لما طلع القضاة الى القلعة للتهنئة نزل ملك الأمراء لزيارة الامام الشافعى والامام الليث فابطأ عليهم حتى أضحى النهار وهم جلوس بجامع القلعه ، فلما عاد جلس بالدهيشة وأرسل خلفهم فهنئوه بالشهر ونزلوا

وفى ذلك اليـــوم حضر الشريف البرديني من اسطنبول ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان متوج بعلامته ، بأنه استقر به ناظر المدرسة الشيخونية وشـــيخها ، وكذلك مشيخة مدرســـة الأمير قانى باى الچركسى التى فى الرميلة ، والنظر على جهات الســـادة الأشراف قاطبة ، فلم يلتفت الى ما فى مراسيمه ، وعز ذلك عليه ، فانه أخذ عدة أنظار ، ونزع أيدى المتحدثين عليها

ومما وقع فى ذلك اليوم أن شخصا وقف الى ملك الأمراء بقصه واشتكى فيهـــا المقر الشهابى أحمـــد بن الجيعان شـــكوى بالغة ، وكان ملك الأمراء متغيظا عليه ، فلما شكاه ذلك الرجل قبض عليـــه ملك الأمراء وسجنه فى مخزن عند بوابة الحوش ، ورسم أن لا يدخـــل عليه أحـــد من جماعته ، ولا يفرش تحته شيء ولا حصـــير ثم قبض على دواداره محمد وضربه بين يديه وسجنه بالعرقانة داخل الحوش ، وقرر عليـــه ألف دينار يوردها على الجامكية

وفى يوم السبت سابعه ، دخل العسكر الذين أرسلهم السلطان سليمان الى مصر يقيمون بها ، والذين كانوا بها يتوجهون الى اسطنبول ، فلما وصل العسكر الى الريدانيه ، نزل ملك الأمراء الى تربة العادلى ، ولاقى العسكر الذين حضروا من اسطنبول ، وكان باشهم سمى الأمير خضر ، وكان ذلك العسكر كله من الاصباهية ، قيل انهم فوق ألف انسان ، فدخل ملك الأمراء من باب النصر

وشق من القاهرة فى موكب حافل ، فلما دخلت الاصباهية الى مصر طفشوا فى المدينة بسبب البيوت التى ينزلون بها ، فصاروا يشوشون على الناس ويخرجونهم من بيوتهم غصبا بالضرب ويسكنون بها .

ثم أشيع أنه حضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاض من قضاة ابن عثمان وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر فى وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية ، ولا يعارضه أحد من الناس فى ذلك ، ويأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال الأهلية وغير الأهلية ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من المماليك الجراكسة وأولاد الأتراك قاطبة وأرباب الدولة والاصباهية والانكشارية يعقد عقدا على بكر أو ثيب الا عند ذلك القسام ، ويأخذ على عقد البنت ستين نصفا ، والثيب ثلاثين نصفا ، فأخذ قسائم على قضاة القضاة بذلك فاضطربت أحوال الناس لذلك ، ولم يتعصب أحد من قضاة القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الاسلام فى أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم .

وقد ترادفت الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة فى هذه الأيام ، وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . فصار يوسف بن أبى الفرج مفتش الرزق والاقطاعات ، وفخر الدين بن عوض مفتش الرزق الأحباسية التى بالصعيد ، والأمير على العثمانى مفتش الأوقاف قاطبة ، والقسام الذى حضر قسام الترك ، وملك الأمراء يعينهم على ذلك ، فأين المهرب ؟ كما يقال فى المعنى :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها
فكيف اذا الرعاة هى الذئاب ؟

وفى يوم الأحد خامس عشره ، خرج الأمير على العثمانى باش العسكر الاصباهية ، وتوجه الى خيامه بالريدانية .

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره ، خرج الأمير نصوح العثمانى وصحبته من كان تأخر من الاصباهية ، فلما سافروا سكن الأمير سنان فى بيت الأمير أزدمر الدوادار عوضا عن الأمير نصوح ، وسكن الأمير خضر فى بيت الأمير طراباى ، عوضا عن الأمير على الذى توجه الى اسطنبول .

وفى يوم الجمعة عشريه ، حضر القاضى بركات ابن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو المنزلة ، فأقام بها مدة ثم رجع ، فلما طلع الى القلعة ، وقابل ملك الأمراء خلع عليه ، فنزل من القلعة وهو فى موكب حافل . ففى ذلك اليوم أشهر المناداة فى القاهرة بأن الفلوس الجدد كل فلسين بدرهم ، فحصل للسوقة غاية الضرر بسبب ذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن الشهابى أحمد بن الجيعان ، وأفرج عنه من الترسيم ، وكان له مدة فى الترسيم كما تقدم ، ونزل الى منزله .

وفيه عزم الأمير سنان على ملك الأمراء فنزل اليه ملك الأمراء فمد له مدة حافلة ، وحضر أيضا الأمير خضر فأقام ملك الأمراء عنده الى قريب الظهر ، وركب من عنده وطلع الى القلعة .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق ثلاث أنفس ، وكان ذنبهم أنهم سرقوا شيئا يسيرا من الخيار الشنبر ، فشنقوا بسبب ذلك وراحوا ظلما .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، أنفق ملك الأمراء على العسكر جامكية ثلاثة أشهر ، وأخر لهم ثلاثة لأنهم كان لهم ستة أشهر مكسورة لم تصرف .

وفى ذلك اليوم قطع ملك الأمراء جوامك كثير من الجراكسة وأولاد الناس ، وصرف لهم بحكم النصف ، فجعل لكل واحد ألف درهم ، ويصير طرخانا ، فشق ذلك على المماليك الجراكسة ، وكان فيهم من هو كفء للأسفار والتجاريد ، وفيهم من هو شاب بطل ، وكذلك أولاد الناس .

وفى أواخر هذا الشهر حضر أولاق من اسطنبول فى البحر المالح الى الاسكندرية ، ثم قدم الى مصر وطلع الى ملك الأمراء ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه أن الواصل الى الديار المصرية الذى يسمى سيدى چلبى هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم ، وأن السلطان سليمان رسم بابطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم بتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، وأن سائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ويقتصر الأمر على أربعة نواب من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشـــهود لا غير ، وأن النواب الأربعة يكونون فى الصالحية لا غير ، وأن لا أحد يعقد عقـــدا ، ولا يوقف وقفا ولا يكتب وصية ولا عتقا ولا اجارة ولا حجـــة ولا غير ذلك من الأمور الشرعيـــة حتى تعـــرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائما .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، أرسل يقول للقضاة الأربعة اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنـــواب قاطبـــة والوكلاء ، والزموا بيوتكم الى أن يحضر قاضى العسكر ، حسبما رسم به السلطان سليمان ابن عثمـــان . فامتثلوا ذلك وصرفـــوا من كان على أبوابهم من الرسل والوكلاء ، فاضطربت أحـــوال النواب والشهود والقضاة قاطبة ، وضـــاق الأمر على الناس أجمعين .

وفى يوم الجمعه ســـابع عشريه ، وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء أرسل حلف الشهابى أحمد بن الجيعان شاويشا ، فلما حضر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة يضربونه بالعصى .

ثم انه طلب القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك — وكان مريضا ملازم الفـــراش وعينـــه موجوعة — ولما أرسل خلفه اعتذر بأنه قد شرب دواء وهو مريض . فحنق منه ملك الأمراء فأرسل اليه أربعة شاويشية ، فحملوه من فراشه وأركبوه غصبا ، فلما طلع الى القلعة ووقف بين يدى ملك الأمراء بطحه الى الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة ، وهو يقول للمماليك الذين يضربونه : « اضربوه قوى هـــذا عـــدوكم الأكبر » فضربوه حتى كاد أن يمـــوت ويهلك .

ثم طلب القاضى شرف الدين بن عوض ، فلما حضر بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا دون ضرب الشهابى أحمد بن الجيعان .

ثم طلب محيى الدين بن أبى أصـــبع وهـــم بضربه ، فشهد له الأمير برسباى الخازندار أنه غلق ما عليه من التقسيط ، فأقامه ولم يضربه فى ذلك اليوم .

ثم رسم ملك الأمراء بسجن الجميع فى العرقانة فسجنوا فيها ، وقد خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره . وقد اشتد غضب ملك الأمراء على المباشرين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا بالنكد عليهم قاطبة ، وقيل لم يسجن بالعرقانة سوى القـــاضى شرف الدين الصغير ، وسجن الشهابى أحمـــد بن

الجيعان وابن عوض عند باب الحوش الى أن يكون من أمرهما ما يكون .

أقول ان أولاد الجيعان قد خدموا سبعة عشر سلطانا وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزانة فى أوائل دولة الأشرف برسباى ، وكان أول اشتهارهم وظهورهم فى دولة الملك المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا فيها قط ولا ضربوا ولا صودروا ولا جرى عليهم قط تشويش ، وهم فى كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابى أحمد هذا ، وكانت السلاطين تعظمهم غاية التعظيم الى غاية دولة الأشرف الغورى .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا من تجار الروم بخان الخليلى يقال له الخواجا محمود العجمى التبريزى ، وهو فى سعة من المال ، وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ، ويأخذ الربا من الناس على القرض ، ولا سيما المحتاج لذلك . فاتفق أنه سكر يوما وأتى الى منزله ، فوجد جواريه واقعات فى بعضهن ، وتقاتلن قتالا مهولا ، فحنق منهن ، فضرب جارية حبشية منهن على ضلعها ، فجاءت الضربة صائبة فماتت الجارية من وقتها ، وكان معه منها أولاد ، وكادت الأشلة تقوم عليه من الناس من أهل الحارة لأجل ذلك ، فطلع الى ملك الأمراء وقص عليه القصة بأمر تلك الجارية واعترف بقتلها ، فغضب عليه ملك الأمراء ورسم بمسكه ، ثم أرسله عند الوالى ، فركب الوالى وتوجه الى بيت الخواجا محمود ليكشف عن أمر تلك الجارية كيف قتلت ، فوجد الخواجا محمودا كان ظالما عليها ، وقد قتلها بغير ذنب ، وقد شهد أهل الحارة أنه يسكر كل ليلة ويعربد فى الجوارى ، فطلع الوالى الى ملك الأمراء وأخبره بسيرته القبيحة ، وأنه عاش على غير الطريق ، وأثخن جراحاته عند ملك الأمراء ، فرسم بسجن الخواجا محمود فى العرقانة ، وقيل انه سأل ملك الأمراء أن يدفع اليه ألف دينار فأبى من ذلك ، ولو أن الخواجا محمودا أرضى الوالى بمائة دينار ، وستر عليه هذه الكائنة ، ما وصل الأمر الى ذلك ، ولكن اتسعت هذه الواقعة الى الغاية .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب منه عشرة آلاف دينار ، وهذا كله آفة الربا الذى كان يأخذه من الناس ، فانه كان يقرض الألف دينار بألف وخمسمائة دينار ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، فختم ملك الأمراء على حواصله . ثم شفع فيه بعض الأمراء العثمانية ، فأخذ ثلاثة آلاف دينار . ثم ان ملك الأمراء تتبع أصحابه الذين كان يسكر معهم ، فأخذ من كل واحد منهم ألف دينار ، وكانت هذه السكرة سكرة الشوم على الخواجا محمود وأصحابه .

وفى يوم الأحد تاسع عشريه ، عرض ملك الأمراء القاضى شرف الدين الصغير والشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض ، وقصد ضربهم ثانيا ثم وضعهم فى الحديد ، ورسم للوالى أن يشنق الثلاثة على أبواب بيوتهم ، واحتاط بهم مقدمو الوالى ، فضمنهم القاضى بركات بن موسى المحتسب الى باكر النهار ، حتى يسعوا فى سداد ما كان تأخر عليهم من التقاسيط التى تأخرت فى البلاد ، فأخذ الشهابى أحمد بن الجيعان فى أسباب بيع بيوته ورزقه وأملاكه التى كانت على بركة الرطلى ، فاشتراها الأمير قاسم الشروانى بأبخس الأثمان ، ولم يبق بيد الشهابى أحمد لا

ملك ولا رزقة ولا بيت ولا ربع ولا دكان ولا شيء قل ولا جل .

ثم ان أخته باعت جميع ما تملكه من مصوغ وحلى ، حتى باعت البسط من تحتهـا والطراريح واللحف والمخدات وأثاث البيت ، وفعلوا مثـل ذلك بسراريه وجواريه المونقات ، وغير ذلك من حاشيته ، وعبيده وغلمانه .

ثم ان القاضي عبـد الجواد أخا القاضي شرف الدين الصغير ، أخذ فى أسباب ما يؤخذ على أخيه من التقسيط ، فاقترض وتداين وقد أشرف على التخليق وكذلك القاضي شرف الدين بن عوض .

وفى يوم الاثنين سلخ هـذا الشهر ، أشيع أن ملك الأمراء يقصد أن يعرض العسـكر ، فطلع العسكر الى القلعة قاطبة ، فلم يخرج ملك الأمراء فى ذلك اليوم ، وأرسل يقول للعسكر : العرض يوم السبت ، فانفضوا ونزلوا من القلعـة ، ولم يعرضوا فى ذلك اليوم .

وفيه جاءت الأخبـار بوفاة الشريف على بن هجار أمير الينبع ، توفى هو ووزيره أحمد بن زحام فى جمعة واحدة ، وكان من خيار من ولى امرية الينبع .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بأن الغريب يسـافر لأهله وألا يقيم بمصر غـريب . وكان سبب ذلك أنه أشيع أنهم قبضوا على شخصين من الأعجام زعموا أنهم جواسيس من عنـد اسمعيل شاه الصفوى .

***

وفى شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء أهل هذا الشهر والنـاس فى أمر مريب ، بسبب ما وقع من الحوادث من عزل القضاة الأربعة وسائر نوابهم ، والشهود قاطبة ، وما وقع للمباشرين من هذه الكائنة العظمى .

ومنها أمر المعاملة التى حصل للناس منها غاية الضرر ، ولا سيما الفلاحين يقبضون الخراج منهم على حكم الفضة الجديدة بنصفين وربع ، ويقيمونه عند الحساب بنصف واحد ، وقد تزايد الاضطراب فى هذه الأيام جدا من وجوه كثيرة .

وفى يوم الأربعاء ثانيه أشيع هروب شيخ العرب بيبرس بن بقـر ، وأنه توجه الى نحـو الطور وأخوه عبد الدايم بالبرج فى القلعة ، وهو مقيد ، وله نحو ثلاث سنين فى البرج لم يفرج عنه ، وصار أبوهم الأمير احمد بن بقر هو المتكلم فى الشرقية قاطبة.

وفى هذا الشهر قدم الزينى عبد القادر بن الملكى الذى كان توجه الى اسطنبول مع من توجه من الأسرى ، فأفرج عنه السلطان سليمان ابن عثمان مع من أفرج عنه .

وفيـه نزل ملك الأمراء الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى ما بعد العصر ، فأرسـل اليه القاضي بركات بن موسى المحتسـب هنـاك مدة حافلة على حكم ما تقدم له قبل ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثـه ، طلب ملك الأمراء الشـهابى أحمـد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض ، فلما مثلا بين يديه رسم بضربهما ضربا مبرحا فضربا حتى أشرفا على الموت ، وكانا فى غاية الألم مما نالهما من شدة الضرب الأول ، وجاء هـذا الضرب الثانى زيادة على ذلك ، وأمرهما الى الله تعالى .

وفى يوم السبت خامسه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس به وعرض العسكر قاطبة ، وعين منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف وخمسمائة مملوك ، وقال لهم : كونوا على برق ان طلبكم السـلطان من البحر توجهوا اليه ، وان طلبكم من البر توجهوا اليه .

وفى ذلك اليوم طلع ملك الأمراء وقطع جوامك كثيره من العسكر ، وصرف لهم بحكم النصف من الجامكية

وفى يوم الأحد سادسه نودى فى القاهرة بأن كراء بيوت الأوقاف التى تحت نظر القضاة وغيرهم لا يقبضونه الا على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربع ، وأن الأشرفى الذهب يصرف بسبعة عشر نصفا من الفضة الجديدة ، فشق ذلك على الناس قاطبة ، وحصل لهم غاية الضرر .

وفى يوم الاثنين سابعه ، عرض ملك الأمراء جماعة من أمراء الجراكسة ، ما بين أمراء طبلخانات وعشراوات ، فقطع رواتبهم التى كانت تصرف لهم ؛ ثم رسم بأن يصرف لهم بحكم النصف من ذلك ، كما فعل بالمماليك الجراكسة ، فحصل لهم فى ذلك اليوم كسر خاطر عظيم ، وكان فيهم شيوخ من القرانصة الأعوات

وفى يوم الخميس عاشر الشهر ، قدم قاضى العسكر الموعود به المسمى بسيدى جلبى ، واستمر ملك الأمراء بصحبته الى أن أنزله فى بيت الأمير جانم مصبغة ، الذى خلف المدرسة الغورية ، وأرسل اليه مدة حافله ، فلما استقر هناك ، أتى اليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى ، وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وكان قاضى القضاة الحنفى مريضا فلم يحضر اليه ، فقيل لما دخلوا عليه لم يقم لهم ولم يعظمهم ، وكانت صفته أنه شيخ هرم ، أبيض اللحية ، طويل القامة ، وعلى عينه اليمنى فص ، فلم ينظر الا بعين واحدة ، وهو فصيح اللسان باللغة العربية ، حسن المحاضرة ولكن قال القائل فى المعنى :

لا تشكرن امرأ حتى تجربه
ولا تذمنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تبله خطأ
وذمه بعد شكر محض تكذيب

وفى يوم السبت ثانى عشره ، نودى فى القاهرة بابطال الفضة العتيقة قاطبة ، وأنها تدخل الى دار الضرب .

وفى ذلك اليوم نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس به وأحضر الأمراء العثمانية ، والأمير قايتباى الدوادار ، ثم حضر قاضى العسكر وأخرج مرسوم السلطان سليمان الواصل على يده ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضروا من قرأ ذلك فكان من مضمونه الوصيه بالرعية قاطبة ، وانصاف المظلوم من ظالمه ، واصلاح المعاملة فى الذهب والفضة بين الناس . وقد تعاظم عليهم قاضى العسكر ، فلم يجلس بينهم ، ولا حضر قراءة مرسوم السلطان . ومن جملة ألفاظه نعت قاضى العسكر ، فكان من نعته أوصاف جميله تختص به ، وأن يكون له التكلم فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، ويحكم فى المدرسة الصالحية بين الناس .

ثم ان قاضى العسكر جعل شخصا من العثمانية يقال له القاضى صالح أفندى نائبا عنه ، يحكم فى المدرسة الصالحية بين الناس ، وكان حنفيا ، ثم ان قاضى العسكر استناب شخصا آخر يقال له فتح الله ، وكان من العثمانية ، وكان شافعى المذهب ، ثم ان قاضى القضاة جعل تحت يد كل قاض من الأروام ، قاضيا من أولاد مصر ، فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائبا عن القاضى صالح افندى العثمانى ، وجعل القاضى شمس الدين محمد الحلبى الشافعى نائبا عن القاضى فتح

الله العثمانى ، وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، وجعل نظام الدين الحنبلى يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، والمرجع فى الأحكام الشرعية الى قاضى العسكر . ثم رسم لكل نائب من النواب الأربعة أن يقتصر على شاهدين لا غير ، وسائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ثم رسم قاضى العسكر للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية اذا وقفوا قدامه يأخذون فى أيديهم العصى . فاجتمع بالصالحية من الرسل فوق الستين رسولا ، وصاروا على هذه الهيئة ، ثم ان قاضى العسكر أقام من الأروام شخصا وسماه قسام الترك ، فجعل على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الأولاد الذكور والاناث ، فحصل للناس بذلك الضرر الشامل .

وفى يوم الأحد ثالث عشره ، نودى فى القاهرة عن لسان قاضى العسكر ، بأن الشهود قاطبة لا يعقد أحد منهم عقدا ، ولا يكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيئا من الأمور الا فى المدرسة الصالحية عند القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فحصل للناس بسبب التزويج فى هذه الأيام غاية المشقة ، واختار كل منهم العزوبية على التزويج .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قاضى العسكر وسلم عليه ، وقد بلغه أنه توعك فى جسده ، فنزل اليه وعاده ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك الأمراء على المماليك الجراكسة جوامكهم ، وكان لهم سبعة أشهر منكسرة ، فأنفق عليهم فى ذلك اليوم أربعة أشهر ، حتى على الغلمان والمباشرين والفقهاء والمقرئين ومن له عادة .

وفيه منع قاضى العسكر شمس الدين الحلبى من التكلم فى المدرسة الصالحية ، وقرر عوضه القاضى شجاع العثمانى ، وجعله قاضى العسكر متحدثا على أوقاف الجوامع والمدارس ومعالم الأنظار ، فطلب الجباة وقال لهم : ارفعوا لى حساب الأوقاف ، وقدر معاليم الأنظار ، وما قدرها فى كل شهر ، فشرعوا فى أسباب ذلك ، وفى عمل الحساب .

ثم ان قاضى العسكر رسم بأخذ الخلاوى التى فى المدرسة البرقوقية والأشرفية والغورية وغير ذلك من المدارس ، وأنزل فيها جماعة من الأروام الآفاقية .

ثم ان القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، عرض الرسل الذين فى المدرسة الصالحية ، ورسم لهم ألا يأخذ الرسول منهم فى الشغل الذى يتوجه اليه أكثر من نصف فضة من الفضة الجديدة بنصفين وربع ، وجعل على من يتزوج بكرا ثلاثة وأربعين نصفا ، ويتكلف للشهود والعاقد مثل هذا . هذا ما تقرر على العوام ، وأما الرؤساء فشىء غير ذلك . وقرر على كل شهادة تقع فى المدرسة الصالحية قدرا معلوما بحسب كل شغل ثقيلا كان أو خفيفا .

ثم أشيع عن قاضى العسكر أنه قال : قصدى أمشى نساء مصر على قاعدة نساء اسطنبول مع أزواجهن ، فان عادتنا اذا دخل الرجل على زوجته تعطيه نصف المهر الذى أعطاه لها ، وأن الرجل لا يقرر لزوجته لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها فى كل سنة جوخة وقميصا ويطعمها فى كل يوم على ما يختار من قليل وكثير ، وتغزل وتكسى زوجها فى كل سنة . فلما سمع العوام بذلك فرحوا ودعوا لقاضى العسكر بسبب هذه الواقعة ، واغتم النساء

بذلك ، وظنوا أن ذلك الشيء واقع ، وأن قاضي العسكر أبطل كسوتهن ونفقتهن ، فشق ذلك عليهن ، فعد من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن شخصا يهوديا وقف الى القاضي صالح نائب قاضي العسكر وكتب قصة واشتكى فيها الأمير تنم أحد الأمراء الطبلخانات ناظر الدشيشة ، فأرسل خلفه القاضي صالح رسولا وانكشاريا ، فلما حضر الى المدرسة الصالحية ادعى اليهودي على الأمير تنم ، فأنصف القاضي صالح اليهودي من الأمير تنم ، واستمر الأمير تنم في الترسيم حتى أرضى اليهودي .

ثم في عقيب ذلك اشتكت الأمير جاني بك آخا الأمير قايتباي الدوادار زوجته عند القاضي صالح ، فطلبه في المدرسة الصالحية ، ووضعه في الترسيم حتى أرضى زوجته فيما ادعته ، ولم يلتفت الى أخيه الأمير قايتباي الدوادار .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، نودي في القاهرة عن لسان ملك الأمراء وقاضي العسكر ، بأن لا امرأة تخرج الى الأسواق الا العجائز ، وكل من خالف بعد ذلك من النساء تضرب ، وتربط من شعرها بذنب اكديش ، ويطاف بها في القاهرة ، فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر .

ثم بعد ذلك بأيام ، اتفق أن قاضي العسكر طلع الى القلعة ، فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من الاصباهية في وسط السوق ، فعز ذلك عليه ، فلما طلع الى القلعة قال لملك الأمراء ان نساء مصر أفسدت عسكر الخنكار ، ولا بقوا ينفعون لقتال قط . وقص عليه قصة النسوة مع الاصباهية ، فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ، ورسم للوالي بأن لا امرأة تخرج من بيتها مطلقا ، ولا تركب على حمار مكاري مطلقا ، وكل مكاري أركب امرأة شنق من يومه من غير معاودة في ذلك .

ثم في عقيب ذلك اليوم رأوا امرأة راكبة مع مكاري في طريق الصحراء ، فأنزلوها عن الحمار ، وهرب الحمار ، فضربوها وقطعوا ازارها ، فما خلصت الا بعد جهد كبير ، وغرمت نحو أشرفيين .

فلما استمر ذلك الأمر باعت المكارية حميرها قاطبة ، واشتروا عوضها أكاديش ، وشدوها بنصف رحل ، وصارت النساء يركبن عليها بسجادة ، والمكاري قائد لجام الاكديش . واستمروا على ذلك ، وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة .

وركبت الخوندات والستات على الأكاديش على طريقة أهل اسطنبول ، وفيهم من ركب على بغل . ويقرب من هذه الواقعة ما وقع في أيام الأشرف برسباي ، أنه منع النساء من الخروج الى الأسواق مطلقا . وكان الطعن بمصر عمالا ، وكانت الغاسلة اذا خرجت الى ميتة لتغسلها ، تأخذ من المحتسب ورقة وتغرزها في ازارها حتى يعلم أنها غاسلة ، فاستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم في عقيب ذلك مرض الأشرف برسباي ، ومات بعد ذلك ، وأعيد كل شيء على ما كان عليه .

وفيه نزل القاضي بركات بن موسى المحتسب من القلعة بعد العصر ، ونادى بأن الأشرفي الذهب السليماني يصرف من الفضة الجديدة بخمسة وعشرين نصفا ، والأشرفي الذهب السليم شاهي والغوري يصرفه من الفضة الجديدة بخمسة عشر نصفا ، وان الفلوس الجدد كل أربع جدد بدرهم .

ثم ان المحتسب سعر سائر البضائع على ما كانت عليه في أيام يشبك الجمالي المحتسب . فلما نودي بذلك ارتجت القاهرة بسبب أمر المعاملة في الذهب

والفضة ، وحصل للناس غاية الضرر ، وخسروا أموالهم ، ولا سيما التجار ، فغلقت أسواق البلد والدكاكين قاطبة ، وتعطل الناس من البيع والشراء لأجل ابطال المعـاملة ، وصرف النصف الفضـة بنصفين وربع .

وفى يوم الأحد عشريه ، نودى فى القاهرة : « كل شىء على حكمه كما كان أولا فى صرف الذهب والفضـة والفلوس الجدد كل اثنين بدرهم على ما كانت عليه أولا » فسكن الاضطراب قليلا .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشريه ، نزل ملك الأمراء وتوجه نحو قصر ابن العينى الذى فى المنشية ، وكشف على المراكب التى أنشأها هناك ، واستعجل الصناع فى سرعة العمل .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه ، طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاعدة ، فجاءت سبعة أذرع وعشر أصابع ، وذلك أرجح من العـام الماضى .

وفى أواخر هذا الشهر ، قدم قاصد من البحر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه أرسل الى ملك الأمراء خاير بك يطلب منه عسكرا من الأمراء الجراكسة ، فعين الأمير قايتباى الرمضانى الدوادار الكبير بأن يكون باش العسكر ، ثم رسم له بأن يطلب الأمراء الجراكسة الى بيته ، ويعين منهم من يختاره ، فعرضهم عنده ، وكتب منهم جماعة نحو ثلاثة وأربعين أميرا ، منهم أمراء طبلخانات ، وأمراء عشراوات ، بسبب غزاة رودس ، وأن السلطان سليمان قد جهز الى أهل رودس ستمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقـاتلين ، وخرج الى الغزاة الرومية فى البحر المالح .

وفى يوم السبت سـادس عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس فيه ، وعرض جماعة من الكملية وكتب منهم أربعمائة انسان ، وعرض طائفة الانكشارية وكتب منهم نحو مائة انسان .

وفى يوم الأحد سابع عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وعرض المماليك الجراكسة وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك ، وقيل ثمانمائة وكان الأمير قايتباى الدوادار باش العسكر هـو الذى يعين ويكتب منهم من يختاره . فلما تكامل عرض المماليك الجراكسة والاصباهية والانكشارية والكملية كان مجموع ذلك ألفا وخمسمائة انسان .

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشريه ، أنفـق مـلك الأمراء على الجراكسة جامكية أربعة أشهر ، كانت لهم منـكسرة فى الديوان ، ولم يعطهم زيادة على ذلك .

ثم ان ملك الأمراء عين الأمير قايتباى الدوادار باشا على الأمراء والمماليك الجراكسة فقط .

ثم ان ملك الأمـراء جهـز صحبة الأمير جانم الحمزاوى بقسماطا وجبن حالوم وبصـلا وعسلا أسود . فجهز ذلك فى المراكب برسم العسكر يفرق عليهم بطول الطريق ، وقيل أرسل صحبته أربعين ألف دينار بسبب جوامك العسكر .

ومن الحوادث الشنيعه ، ما وقع فى أواخر هذا الشهر ، وذلك أن ملك الأمـراء رسم للوالى بأن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل المراكب حتى يقذفوا فيها بالعساكر ، فنزل الوالى وأطلق فى الناس النار وشرع يقبض على كل من رآه فى الرميـلة وفى الطـريق من الغلمان والفلاحين ، وكل من قبض عليه وضعه فى الحديد وأرسله الى السجن ، الى أن يخـرج العسكر ، فصار يقبض على جماعة من السوفة والعبيد السود

ثم تدرج جماعة الوالى حتى صاروا يقبضون على جماعة من التجار والفقهـاء وغـير ذلك ، فصاروا يشترون أنفسهم من جماعة الوالى بمبلغ له صورة ، حتى تحصل مع الجالية مال له صورة من الناس .

ثم صار الوالى يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ، ويقبض على المواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل .

ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره ، أن يقبضـوا على جماعة من الفلاحين من قلقشـندة وقليوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنيه وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحـون يحتفون فى المطامير ، وكادت مصر أن تخرب فى هذه الحركة عن آخرها . فقيل مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، وحصل للناس غاية الضرر . وقيل مات فى سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبض عليه ، ماتوا من الجوع ، وشدة الحر ، والوخم ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك لم يسمـع بمثلها قط ، انتهى ما أوردناه من حوادث شهر رجب . وكان كثير الحوادث . فوقع فيه أمور غريبة ، ونوادر عجيبة ، والأمر لله .

***

واستهل شهر شعبان بيوم الأربعاء ، فلم يطلع أحد من القضـاة الأربعـه للتهنئة بالشهر ، فانهم استمروا فى العزل المقدم ذكره ، وصـار قاضى العسكر هو المتكلم على المذاهب الأربعة .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أن الأخبار قد قدمت من الصعيد بأن القاضى فخر الدين ابن عوض لما توجه ليمسح جهات الصعيد دخل سائر الرزق الأحباسية قاطبة فى المساحة التى بالمكاتيب الشرعية والمربعات والمناشير ، وقال لأصحابها من أراد الافراج عن رزقتـه يقف الى ملك الأمراء ويحضر مرسومه بالافراج عن رزقته .

ثم انه منع الفلاحين من اعطاء خراج الرزق حتى يحضروا بالافراجات من عنـد ملك الأمراء . فاضطربت أحوال الناس ، وتنكدوا غاية النكد ، وصار كل من وقف الى ملك الأمراء بسبب رزقته ، وأحضر مكتوبه أو مربعته يأخذ منه المكتوب أو المربعة ، ويقول له : امض الى حال سبيلك ، فان الرزق قاطبة دخلت الذخيرة ، فيرجع وهو فى غاية القهر .

(أقول) ان الرزق الأحباسية ما تعرض لها أحد من سلاطين مصر ، ولا أخرج منها شيئا عن أصحابها ولا ضيقوا عليهم بسبب ذلك .

وقيل ان الامام الليث بن سعد رضى الله عنه ، هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه ، وأفـرد للرزق الأحباسـيه ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش ، واستمر ذلك باقيا من بعد الامام الليث الى الآن ، حتى جاء فخر الدين بن عوض ، فنقض ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات ، وأبطل أمر الرزق الأحبـاسية وأدخلها الذخيرة ، وأبطل ما كان صنعه الامام الليث بن سعد رضى الله عنه .

وفى يوم الاثنين سـادس الشهر ، خرج الأمير قايتباى الرمضانى الدوادار وتوجه الى السـفر بسبب غـزاة رودس ، فخـرج صحبته الأمـراء والعسكر قاطبة ، وخـرج صحبته الأمير جانم الحمزاوى مشير المملكة ، وخرج الرئيس حامد القبطان رئيس المراكب ، وصحبته العسكر العثمانى الذى تعين من الأصباهية والانكشارية والكملية ، وخرج العسكر من المماليك الجراكسة ، فكان معه من الأمراء الجراكسة نحو ثلاثة وأربعين أميرا مابين أمراء طبلخانات وعشراوات . فلما طلع الى القلعة

خلع عليه ملك الأمراء قفطان حرير مذهب ، وخلع على الرئيس حامد القبطان قفطانا أيضا ، فخرج الأمير قايتباى من الميدان وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخرج ملك الأمراء من الميدان صحبته ليودعه ، وخرج صحبته قاضى العسكر ، والأمراء العثمانية قاطبة ، فشق من القاهرة فى موكب حافل وليس قدامه جنائب ، وخلفه طبلان ورمران عثمانيه ونزل وشق من القاهرة الى بولاق ، وكان يوما مشهودا .

ثم عاد ملك الأمراء الى القلعة ، وحصل لأهل مصر بسبب خروج التجريده غاية الضرر .

وفى يوم الثلاثاء سابع الشهر ، أرسل ملك الأمراء يستعجل الأمير قايتباى الدوادار فى سرعة التوجه الى رودس ، والنزول فى المراكب ، ثم نودى فى القاهرة بأن العسكر المعين للسفر يخرج فى بقية ذلك اليوم ، وكل من تأخر عن الخروج فى بقية هذا اليوم شنق من غير معاودة ، فخرج المماليك المعينون للسفر قاطبة .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الحنفية يقال له شمس الدين محمد المناوى الحنفى ، شهد شهادة حقا بين شخصين فى تمارى بينهما بسبب دين ، فلما بلغ قاضى العسكر ذلك أرسل خلف القاضى شمس الدين محمد المناوى انكشاريين ، فلما حضر بهدله وهم يضربه ، وقال له : أنا ما منعتكم أن تشهدوا على أحد من الناس الا فى المدرسة الصالحية . ثم أرسله الى السجن ، فشق ذلك على القضاة والنواب ، فاضطربت القاهرة بسببه ، ثم شفع فيه عند قاضى العسكر القاضى شهاب الدين ابن شيرين الحنفى ، فأطلقه من السجن فى يومه هو والعجماوى ، وقد حصل لأهل مصر من قاضى العسكر غاية الضرر للرجال والنساء .

ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد ضيق عليهم غاية الضيق ثم تكلم الناس مع قاضى العسكر فى أمر النساء ألا يمنعوا من طلوع الترب ، ودخول الحمام ، وزيارة الأقارب ، فأذن لهن فى ذلك ، وأن المرأة لا تخرج الى الطريق الا مع زوجها ، وألا يدخل الأسواق غير العجائز فقط ، فسمح لهن قاضى العسكر ، وأن النساء لا يركبن الا الخيول والبغال دائما . فاستمروا على ذلك .

وقد فتك قاضى العسكر بالناس فى هذه الأيام فتكا ذريعا ، وقد جمع بين قبح الشكل والفعل ، فانه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال فى العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئا فى الأحكام الشرعية ، وقدمت اليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشىء ، وقد هجاه الناس هجوا فاحشا فى مدة اقامته بمصر ، وقالوا فيه عدة مقاطيع . فمن جملة ذلك بعض كلام الشهود فيه وهو قوله :

رأينا شبيخا أعورا قبل موتنا
أتى من بلاد الروم يقطع رزقنا

يقدم قانونا على شرع أحمد
فنسأل رب العرش يكشف كربنا

وقلت أنا :

رأيتك لا ترى الا بعين
وعينك لا ترى الا قليلا

فان تك قد أصبت بفرد عين
فخذ من عينك الأخرى كفيلا

وقد أيقنت أنك عن قريب
اذن بالكف تلتمس السبيلا

وفى يوم الجمعة عاشر الشهر قدم الأمير شسيخ الذى كان توجه الى اسطنبول فى بعض أشـغال ملك الأمراء ، فلما حضر أخبر بأن السلطان سليمان جهز عدة مراكب مشحونة بالسلاح والمقـاتلين ، وجهز عساكر كبيرة بسبب غزاة رودس ، وخرج بنفسه ، وذلك فى خامس عشر رجب على ما أشيع بين الناس ، وأرسل على يده مراسيم شريفـة ، تتضمن أن السلطان سليمان قد فوض أمر مملكة مصر الى ملك الأمراء خاير بك ، يعزل من يختار ، ويولى من يختار ، والمرجع فى ذلك اليـه ، فيما يراه من المصلحة .

وفى يوم السبت حادى عشره ، نودى فى القاهرة بأن الأمير والى الجلبى العثمـانى الذى حضر من اسطنبول ، قد استقر ناظرا على سـائر الأوقاف قاطبة ، فلا يعصى عليه أحد من الناس . فتجددت مظلمة أخرى .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره كانت ليلة النصف من شعبان ، فنزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى المقياس ، وأقرأ هناك ختمة ، ومد هناك مدة حافلة ، ورسم بقراءة عدة ختمات فى تلك الليلة : فى الجامع الأزهر ، ومقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وغير ذلك فى أماكن متفرقة .

وفى يوم الخميس سـادس عشره ، خلع ملك الأمراء على القاضى بركات بن موسى المحتسـب قفطانا محمـلا مذهبا ، وقرره فى التحـدث على جهات الشرقية قاطبة ، من المطرية الى دميـاط ، وقد التزم فى كل سنة بأربعمائة ألف دينـار يقوم بذلك على ثلاثة أقساط ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، ومشاعلية قدامه ، تنادى أن القاضى بركات ابن موسى ناظر الذخيرة الشريفة ، متحـدث على الشرقية قاطبة ، فلا يعصى عليه أحد من الناس ، ولا يشتكى أحد من الشرقية الا من بابه ، فتزايدت عظمة القاضى بركات بن موسى الى الغاية .

وفى يوم الأحد سادس عشريه ، خـرج قاضى العسكر بقصد التوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح ، فلما خرج نزل ملك الأمراء وركب صحبته ، وكذلك خير الدين نائب القلعـة ، وجمـاعة من الأمراء العثمانية ، فودعوه من عند تربة العادلى ورجعوا ، فلما خرج قاضى العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه ، فما حصل منه لأهل مصر خير . فعزلت القضاة الأربعة بسببه ، وأخرج عنهم الأنظار ، ومنع الشهود من الجلوس فى المجالس قاطبة ، واستمرت دكاكينهم مغلوقة ، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية ، ولم يبـق منهم غير من تقدم ذكرهم ، وضيق على الناس فى أمر عقود الأنكحة ، وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبـلغ ، وصار لا يعقد عقـــد الا فى المدرسة الصالحية ، وضيق على النساء بما تقدم ذكره من الخروج الى الأسواق ، ومن ركوب الحمير ، فلما خرج من مصر صفقت النساء ، ورقصت . وضيق على أهل مصر فى أمور كثيرة يطول شرحها .

ولـما خرج قاضى العسـكر توجه الى نحـو الطور ، فقيـل ان ملك الأمراء أنعم عليه بعشرة آلاف دينار غير المغل الذى أرسله اليه لما قدم من اسطنبول .

ولما توجه قاضى العسكر الى الحجـاز ، أشيع أن السلطان سليمان أرسل أربعين ألف دينار على يد شخص من العثمانية بسبب عمارة العـين التى بمكة المشرفة ، لما تعطلت ، وهى التى بالحـرم ، وعمارة المنارة التى بالحرم النبوى .

ولما خرج قاضى العسكر خرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية ومن أهل مصر ، وخرجت صحبته زوجة الأمير سنان فى محفة . فلما سافر قاضى العسكر جعل القاضى صالح العثمانى الحنفى نائبا عنه يحكم فى المدرسة الصالحية الى أن يحضر من السفر من الحجاز .

وكان قاضى العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائبا من نواب القضاة الأربعه ، وجعل منهم من هو فى بولاق ، وفى مصر العتيقه ، وفى جامع طولون ، وفى الحسينيه ، وغير ذلك من الأماكن . وجعل فى كل مجلس أربعة نواب يقضون بين الناس بالحق ، وجعل على كل مجلس شيئا معلوما ، وعليهم شاويش من العثمانية يضبط ما يتحصل فى كل يوم من أجرة أشغال الناس ، فيقسم للقاضى من ذلك المتحصل شيئا وللشهود شيئا وله شيء ، ثم يأخذ الباقى ويضعه فى صندوق برسم السلطان سليمان يودع بيت المال .

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع لقاضى القضاة الحنفى على بن ياسين الطرابلسى بسبب وقف الخواجا شهاب الدين أحمد بن صالح السكندرى ، وذلك أنه طلع قاضى القضاة الحنفى الى ملك الامراء ، فلما رآه مقبلا من بعد قال ايش طلع هذا الثقيل يعمل ؟ فلما جلس وأخرج مكتوب الوقف الذى زوروه ، وثبت عليه ، انتبذ له جماعة من القضاة ، وحضر أبو الفتح الوفائى المالكى الذى حكم لابن الخواجا شهاب الدين السكندرى ، وحضر ذلك المجلس القاضى صالح العثمانى نائب قاضى العسكر . ولما أخرج قاضى القضاة الحنفى المكتوب الذى صنعوه ، دفعه ملك الأمراء الى القاضى صالح العثمانى ، وقال له : انظر فى هذا المكتوب ، فلما قرأه قال هذا الحكم الذى حكم به قاضى القضاة الحنفى باطل لا تجوز قراءته ، فحصل لقاضى القضاة فى ذلك المجلس غاية البهدلة ، وأسمعته الفقهاء الكلام المنكى ، وانتصف عليه أبو الفتح فى ذلك الحكم الذى حكمه ، فقام قاضى القضاة من ذلك المجلس وهو يتعثر فى أذياله مما قاسى من البهدلة من ملك الأمراء ومن القاضى صالح وغيره . وكان قاضى القضاة الحنفى غير محب للناس ، وكان عنده صعصعة وجنون ، وسوء تدبير ويبس طباع ، مع وهج وخفة زائدة ، مع عبوسة وجه وشناعة زائدة ، وقد قلت فيه :

رب قاض قد اعتراه جنون
شأنه الوهج ما لديه سكون
لم يفده علمه اذا ضل شيئا
فهو فينا معلم مجنون

وقولى أيضا :

كم ضاع للنعمان من مذهب
فى عصرنا لما تولى فلان
تبا له من حاكم أهوج
أحكامه مشهورة بالجنان

وفى يوم الأربعاء سلخ شهر شعبان ، كانت ليلة رؤية هلال رمضان ، فلم يحضر من قضاة القضاة أحد الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، فانهم كانوا منفصلين عن القضاة ، فحضر بعض نواب القضاة ، منهم شمس الدين المجولى ، وشهاب الدين أحمد بن شيرين الحنفى ، وفتح الدين الوفائى المالكى ، ونظام الدين الحلبى الحنبلى ، وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب .

فلما رئى الهلال ركب من هناك القاضى بركات المحتسب ، وشق من بين القصرين فى موكب حافل ،

وقدامه عدة فوانيس ومشاعل على جارى العادة فى كل سنة .

* * *

فلما كانت ليلة الخميس آهل شهر رمضان ، فلم يطلع من قضاة القضاة أحد للتهنئة بالشهر ، وكان الناس فى غاية الاضطراب بسبب المعاملة ، فان الدينار السليمانى يصرف بخمسة وأربعين نصفا من الفضة القديمة حسابا عن كل نصف بنصفين وربع من الفضة الجديدة ، فوقف الحال بسبب ذلك ، ولا سيما حال الفلاحين فى البلاد ، فان العمال يحاسبونهم فى الدينار عند القبض بنصفين وربع من الفضة الجديدة ، ويفيمونه عليهم وقت الحساب بنصف واحد ، فخرب غالب البلاد بسبب هذه المعاملة وغير ذلك . وكانت أحوال الناس فى غاية الاضطراب بسبب الرزق الأحباسية التى أدخلها فخر الدين بن عوض فى ديوان السلطان ، وصار ملك الأمراء كل من طلع له بمكتوبه أو مربعته ، يأخذ ذلك منه ، ويقول له هذا دخل ديوان السلطان . فحصل للناس غاية الضرر من كل وجه .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء طلب التجار قاطبة ، وكتب عليهم قسائم ألا يتعاملوا الا بالذراع العثمانى فى البيع والشراء ، وأبطل الذراع القديم الهاشمى ، وكتب القسائم على التجار بذلك ، وهو يزيد عن الذراع القديم نحو ربع ذراع .

واستهل رمضان وقضاة القضاة الأربعة منفصلون عن القضاء ، والمباشرون فى الترسيم بالقلعة من حين جرى عليهم ما جرى .

وفى يوم الخميس ثامنه مع ليلة الجمعة ، رأى الناس كوكبا عظيما جاء من نحو الغرب ، وخلفه شرار كمثل عمود النار ، فاستمر ماشيا فى السماء الى نحو الشرق فاختفى ، وقد شاع خبره بين الناس لما طلع النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك ثالث عشر مسرى .

وفتح السد فى يوم الخميس خامس عشر رمضان ، الموافق لرابع عشر مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا وزاد ثلاث أصابع من الذراع السابع عشر . فلما أوفى نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، ففتح السد الذى عند رأس المنشية ، ثم ركب من هناك وتوجه الوالى ففتح السد الثانى الذى عند قنطرة السد ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان ذلك آخر فتح ملك الأمراء للسد ، ومات بعد ذلك بشهرين ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

خليج السد يوم الكسر جبر
بماء للعيون يرى بهيجا
وهذا اليوم يوم الجبر فاسرع
بنا قطعا نرى هذا الخليجا

وفيه قدم أولاق من البحر المالح وأخبر عن السلطان سليمان أنه فى المحاصرة مع الفرنج ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن سوار قد قتل ، وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان سليمان بن عثمان أن ابن سوار قد التف على شاه اسماعيل الصفوى وصار يكاتبه فى الدس ، فندب اليه الأمير فرحات الذى كان توجه الى جان بردى الغزالى نائب الشام ، فتوجه الى ابن سوار وأظهر أنه يقصد

التوجه الى ديار بكر بسبب عسكر الصفوى ، فأنسافه ابن سوار وركن اليه ، فلما جلس معه على مجلس الشراب فى نفر قليل من أصحابه ، وثب على ابن سوار جماعة من العثمانية من حاشية الأمير فرحات ، فقتلوا ابن سوار وهو على سفرة الشراب على حين غفلة ، ولم يشعر به أحد من عسكره .

ولما أشيع قتله اضطربت أحوال السوارية بقتله . وقيل ان فرحات قتل بعد ذلك ثلاثة من أولاد ابن سوار ، وقتل جماعة من أمرائه ، ثم مضى عنهم ، وقد تمت حيلته على ابن سوار حتى قتله

ومن الحوادث أنه حضر الى القاهرة شخص قيل ان أصله من الشرق ، وقيل كان بمكة ، وأقام بها مدة ، فلما حضر ادعى أنه المهدى ، فلما طلع الى ملك الأمراء وقال له أنا المهدى ، وكان حاضرا فى ذلك المجلس القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين ، فسأله عن مسائل فى العلم فلم يجبه بشىء . وكانت صفته أنه شيخ طاعن فى السن ، قصير القامة جدا ، ولم يكن فيه من علامات المهدى شىء ، فلما أغلظ على ملك الأمراء فى الكلام ، رسم بالقبض عليه ، وأن يتوجهوا به الى المارستان ، ويضعوه فى الحديد ، ويسجنوه عند المجانين ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى نحو المارستان ، فكشفوا عن رأسه ، ووضعوه فى الحديد ، فلما بلغ الشيخ ابراهيم الذى فى الجامع المؤيدى ، والشيخ حسن العثمانى ، طلعا الى ملك الأمراء وشفعا فيه ، فرسم ملك الأمراء باطلاقه من المارستان . فأتى اليه الشيخ حسن العثمانى وحمله على أكتافه وأخرجه من المارستان ، وكان هذا الرجل معظما عند العثمانية ، وفى خدمته جماعة كثيرة من الأعجام نحو خمسين انسانا ، فلما خرج من المارستان ازدحم عليه الناس ليروا المهدى ، وكان ذلك اليوم مشهودا بسبب الفرجة عليه لما شق من القاهرة . فاستمر على أكتاف الشيخ حسن حتى توجه به الى المدرسة المؤيدية ، ثم بدا لملك الأمراء أن يرسل المهدى الى بيت الوالى ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى بيت الوالى ، فاستمر به مدة ثم شفع فيه .

وفى يوم الأربعاء حادى عشريه ، قبض ملك الأمراء على يوسف بن أبى الفرج بن الجاكية ، وسلمه الى القاضى بركات بن موسى ليقيم حسابه مما دخل عليه من المال بسبب الرزق ، ولما نزل الى بيت المحتسب هم أن يعريه ويضربه بالمقارع ، وقال له أقم حسابك من حين قررت فى هذه الوظيفة ، فقيل انه أورد سبعمائة دينار ، فقال له القاضى المحتسب : جلبت الدعاء على ملك الأمراء لأجل هذا القدر الهين ... لا جزاك الله خيرا !

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى نحو الجامع الأزهر ليصلى هناك صلاة الجمعة ، وكان صحبته الأمراء العثمانية الذين بمصر ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، منهم الأمير أرزمك الناشف . فلما انقضى أمر صلاة الجمعة ، وقصد أن يركب ، وقف اليه رضى الدين بن الدهانة وجماعة من الفقهاء وقالوا له : يا ملك الأمراء انظر فى أحوال الرعية . فقال : نعم ، وركب بسرعة ، وخرج من باب الجامع ، وتوجه الى القلعة .

وقيل ان ملك الأمراء تصدق فى ذلك اليوم على مجاورى الجامع الأزهر بخمسمائة دينار ، وكان الذى تولى أمر الصدقة فى ذلك اليوم شهاب الدين المحلى امام أمير آخور كبير ، فما لاقى فى ذلك

اليوم خيرا بسبب تفرقة الصدقة ، وحصل له غاية البهدلة من الناس .

وفى يوم السبت رابع عشريه ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء ، بأن جميع القضاة والشهود يحضرون بدفاترهم الى المدرسة الصالحية ، ويسلمون ذلك الى القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فلم يوافق أحد من الناس على ذلك وأبطلوا هذا الأمر .

وفيه أشيع أن العربان قطعوا جسر الحلفاية ، فنقص البحر فى تلك الليلة ثمانى أصابع ، وكان فى قوة الزيادة ، فاضطربت أحوال الناس .

ثم فى يوم الخميس زاد الله فى النيل المبارك اصبعين من النقص ، فسكن ذلك الاضطراب ، واستمرت الزيادة عمالة الى بابه .

* * *

وفى شهر شوال ، وكان مستهله يوم السبت ، وهو عيد الفطر ، فكان أكثر العساكر مسافرا فى غزوة رودس ، وكذلك الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء ، فلما صلى ملك الأمراء صلاة العيد مد مدة حافلة ، وكانت الاصباهية والانكشارية تتخاطفها ، وكان هذا العيد خامدا .

وفى يوم الأحد ثانيه حضر أولاق من البحر وعلى يده كتاب من عند الأمير جانم الحمزاوى الى ملك الأمراء ، فقرىء بحضرة القاضى شهاب الدين بن شيرين ، فكان من مضمونه أن الأمير قايتباى الدوادار ، ومن معه من العساكر والأمراء والمماليك الچراكسة قد وصلوا الى رودس فى ثالث عشر رمضان ، فوجدوا السلطان سليمان فى جزيرة تجاه رودس ، فأقاموا ثلاثة أيام لم يجتمعوا بالسلطان . ثم فى اليوم الثالث أوكب السلطان سليمان وجلس للعسكر جلوسا عاما فى ذلك اليوم .

فلما نظر الأمير قايتباى الدوادار عظمه وأكرمه ، وكذلك الأمراء الذين صحبته ، ووقف المماليك الچراكسة قدامه نشكرهم ، وأثنى عليهم . وقيل ان السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذى قتل المماليك الچراكسة وقال : مثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ ؟

وقيل انه أنزل العسكر المصرى وطاقه عند الوزير الأعظم . وأخبر الأمير جانم فى كتابه أنه الى الآن لم يقع بين السلطان وبين أهل رودس قتال ، وأنه مقيم بجزيرة تجاه رودس ، والميعاد بعد العيد .

وفى يوم الاثنين ثالث الشهر ، قدم الخواجا ابن عبد الله من اسطنبول ، فنزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من عند تربة العادلى ، وخلع عليه قفطان حرير . فلما حضر ابن عبد الله أشيع أن السلطان قرره ناظرا على الأوقاف قاطبة ، وأنه يكشف على سائر الأوقاف والجوامع والمدارس قاطبة ، فيعزل من يشاء ، ويبقى من يشاء . وأشيع عنه أنه يخرج الوظائف عن الفقهاء ، ولا يبقى بيد فقيه وظيفتين فى التصرف ، وأن يقرر الوظائف لجماعة آفاقية من الأروام . فلما أشيع ذلك اضطربت أحوال فقهاء مصر .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الأمير فرحات نائب الشام قبض على جماعة من التجار أتوا من بلاد الشاه اسماعيل الصفوى ، وزعم أنهم جواسيس من عند الصفوى ، فلما قبض عليهم ، أخذ جميع ما معهم من الأموال والبضائع والأصناف التى أتوا بها ، ثم ضرب أعناقهم أجمعين ، وربما يثور من هذه الواقعة فتنة عظيمة بين العثمانية والصفوى .

ومن الحوادث الشنيعة أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون فى بيت عند جامع المقسى على الخليج ، فلما قوى عليهم السكر ، تزايد منهم الضجيج والتجاهر بالسكر ، وكان فى جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به ، فثقل عليه أمرهم ، فأرسل اليهم من ينهاهم عن ذلك ، فأغلظ عليهم فى القول ، وقال لهم : أما تستحون من الشيخ ابن عنان ؟ فسبوا الشيخ ابن عنان سبا قبيحا ، فطلع الشيخ الى ملك الأمراء وشكا من النصارى ، فأرسل ملك الأمراء بالقبض على النصارى ، فهربوا وقبضوا على واحد منهم ، فرسم ملك الامراء بحرقه ، فلما رأى النصرانى عين الجد ، اسلم خوفا من الحرق ، فألبسوه عمامة بيضاء . فلما جرى ذلك خاف بقية النصارى على أنفسهم ، واختفوا عند يوسف النصرانى حتى تخمد هذه الواقعة عنهم

وفى يوم الجمعة قدم قاصد من عند الأمير جانم الحمزاوى ، وأخبر أن العسكر برز للقتال مع عسكر الفرنج الدين برودس ، وأشيع انهم أشرفوا على أخد السور الأول من مدينة رودس ، ولكن قتل فى هذه المعركة من العساكر ما لا يحصى .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره ، كان يوم النوروز — وهو أول توت من الشهور القبطية ، وأول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة خراجية — وكان النيل يومئذ فى عشرين اصبعا من ثمانية عشر ذراعا ، وكان سائر المغل فى غاية الرخص بعد ما كان السعر قد انشحط لما توقف النيل عن الزيادة كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن والى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة عشر انسانا ، وخوزق منهم جماعة ، وعلقهم فى أماكن متفرقة ، وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم ، فأخرهم الوالى فى السجن الى آخر شهر رمضان ، وأتلفهم فى يوم واحد .

وفى ليلة السبت خامس عشره خسف جرم القمر خسوفا كاملا حتى أظلم الجو وصار القمر كالفحمة السوداء ، فأقام فى ذلك الخسوف نحو خمسين درجة ، وكان ذلك نصف الليل .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة فى تجمل عظيم ، وكان يوما مشهودا ، وكان أمير ركب المحمل الشريف الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى ، وهذه ثالث سفرة الى الحجاز سافرها الأمير جانم كاشف الفيوم ، فشق من القاهرة فى موكب حافل ، وطلب طلبا كأطلاب الأمراء المقدمى الألوف ، وكان فى موكبه ست عجلات ، وفى كل عجلة مكحلة نحاس برسم المدافع ، فان درب الحجاز كان فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان ، ولم يركب قدام المحمل أحد من القضاة الأربعة غير قاضى المحمل شمس الدين محمد بن النقيب .

وأشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الأمراء من البحر المالح ، وسبب ذلك فساد العربان . وكذلك المال أرسله السلطان سليمان ابن عثمان الى مكة والمدينة النبوية لأجل الصدقة على مجاورى الحرمين الشريفين صحبة قاضى العسكر لما توجه من البحر المالح خوفا من العربان واضطراب درب الحجاز فى هذه الأيام المشطة

وفى يوم الاثنين رابع عشريه ، حضر قاصد من البحر ، وأخبر أن السلطان سليمان ابن عثمان فى المحاصرة مع الفرنج الروادسة ، وأحضر كتابا من عند الأمير جانم الحمزاوى ، يذكر فيه أن العسكر فى انشحات زائد من الغلاء بسبب القمح والدقيق ، وقد عزت الأقوات هناك ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك ، نزل الى الشون التى بمصر العتيقة ، وأخرج

ثلاثين ألف أردب وخمسمائة حمل دقيق ، فاستمر ينزل الى الشون بسبب ذلك أربعة ايام متوالية ، حتى جهز فى المراكب ثلاثين ألف أردب قمح ، وخمسمائة حمل دقيق ، وخمسمائة أردب أرز ، وقيل مثلها حمص وبسلة ، وقيل أرسل مع ذلك أشياء كثيرة من البصل وغير ذلك مما استحسنه ، فجهز ذلك بسرعة ، وأرسله من البحر الى السلطان والعسكر الذين هناك .

* * *

وفى شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الاثنين ، وكانت القضاة الأربعة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فلم يطلع منهم أحد للتهنئة بالشهر فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء ثانيه عزل الأمير جان بك من كشف الشرقية ، واستقر بالأمير اينال السيفى طراباى .

وفى يوم الاثنين ثامنه توفت أصيل القلعية ، وكانت من أعيان مغانى البلد ، وكان لها انشاد لطيف ، وكانت بارعة فى غناء الخفائف التى هى من فرح الزمان ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والاحسان لها .

وفيه نودى فى القاهرة بابطال الفضة العتيقة من المعاملة قاطبة ، وأن الفضة الجديدة تصرف كل نصف بنصفين وربع ، فازداد وقوف الحال على الناس ثانيا بابطال الفضة العتيقة من المعاملة ، والفلوس الجدد كانت كل اثنين بدرهم ، فنادوا عليها كل واحد بدرهم ، فازداد الحال وقوفا ثالثا .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد مرض ولزم الفراش وتزايد به المرض من يومه وانقطع عن المحاكمات . فلما قوى عليه المرض صار يتصدق على الأطفال الذين بمكاتب القاهرة قاطبة لكل صغير نصف فضة كبير ، بنصفين وربع ، وصار أحد الخازندارية وابن الظريف المقرى يدفع لكل صغير النصف فى يده ، ويعطى الفقيه خمسة أنصاف كبار ، والعريف ثلاثة أنصاف كبار ، ويقولون لهم اقرءوا الفاتحة وادعو بالشفاء والعافية لملك الأمراء .

وقد تكاثرت الأقوال بأن به ثلاثة أمراض ، منها فرخة جمرة طلعت له فى مشعره ، ومنها حدار انصب له فى جميع أعضائه ، وهو من أنواع الفالج ، ومنها كتم البول فصارت الحكماء تبيت عنده فى كل ليلة وقد أعياهم أمره فى هذا العارض الذى به ، وقيل انه مشغول من حين نزل الى الشون .

وفى هذا الشهر ثبت النيل المبارك على احدى وعشرين اصبعا من تسعة عشر ذراعا ، وكان نيلا متوسطا ، وكان فى العام الماضى عشرين ذراعا الا اصبعا واحدة .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه ، أفرج ملك الأمراء عن القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وأفرج عن القاضى شرف الدين بن عوض ، وألبسهما قفطانين حرير مذهب ، وأركبهما فرسين من الاسطبل السلطانى ، ونزلا من القلعة فى موكب حافل ، وشقا من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتخلقت عيالهما بالزعفران ، فانهما خلصا من فم الموت ، وقد قاسيا شدائد ومحنا وضربا وبهدلة ، وسجنا فى العرقانة ، وقد أقاما فى هذه السدة نحو أربعة أشهر ، وقسا قلب ملك الأمراء عليهما . وقد قال فى ذلك الناصرى محمد بن قانصوه :

بالشرفى المقـــر أضــحى
ديوان ذا الملك فى انضباط
لا زال فيــه الى المعــالى
بالســعد يرقى بلا انهباط

فلما نزل القاضى شرف الدين الصغير الى بيته لم يقم به الا ساعة يسيرة ثم ركب وتوجه الى تربة الامام الشافعى رضى الله عنه ، فزاره ثم طلع الى القلعة ثانيا هو والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، فاجتمعا على ملك الأمراء وتكلما معــه على المقر الشــهابى أحمد بن الجيعان ، فان ملك الأمراء توقف فى الافراج عنه ، وقد عول على شنقه على باب زويلة ، فنجــاه الله تعالى من كيده ، ولولا اشتغال ملك الأمراء بنفســه لكان شنق الشهابى أحمد بن الجيعان لا محالة .

فلما تكلم القاضى شرف الدين الصغير ، والقاضى بركات المحتسب ، وقيل ساعدهما خير الدين نائب القلعة ، فى أمر الشهابى أحمد بن الجيعان ، رسم ملك الأمراء بالافراج عنه بعد جهد كبير ، وكان ملك الأمــراء على خطر ، وبانت عليــه لوائح الموت .

فلما أفرج عنه ألبسه قفطان حرير ، وأركبه على فرس من الاصطبل السلطانى ، ونزل من القلعه ، وشق من القاهرة فرجت له ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، وارتفعت له الأصــوات من الناس بالدعاء . فان الشهابى أحمد كان محببا للناس فشق من القاهرة بعد العصر ، فكان له موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتوجه الى منزله بعد ما قاسى شــدائد ومحنا ، وأوعد بالشنق من ملك الأمراء ، فكفاه الله تعالى شره .
وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد بن قانصوه :

الحمــــــــد لله بكم عيننا
قرت بفرحة لنا فى السرور
لمــا خلصــتم ونزلتم الى
منــازل العز وزال الشرور

وفى يوم الخميس حادى عشره ، أشيع بين الناس أن ملك الأمراء بطلت شقته ، وعجز عن القيــام ، وتزايد به ألم الفرخة الجمر ، واشتد عليه مخرج البول والغائط من الورم من تلك الجمرة ، وهذا العارض بعينه قــد وقع للخنكار سليم شاه ابن عثمان ومات به .

ثم ان قضاة القضاة الأربعة ركبوا وطلعوا الى ملك الأمراء وعادوا وسلموا عليه ، فلم يع لهم ، ولم يلتفت اليهم ، فقرءوا له الفــاتحة ونزلوا الى منازلهم .

فلما تزايد الأمر بملك الأمراء أعتق جميــع جواريه وعبيده ومماليكه ، ثم انه دفع للقــاضى بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة ، ورسم بعشرة آلاف اردب قمــح من الشونة ، ورسم للمحتسب بأن يفرق ذلك كله على مجاورى الجامع الأزهر ، والمزارات والزوايا التى بالقرافتين قاطبة ، ومجاورى مقام الامام الشــافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ويفــرق باقى ذلك على الفقــراء والمساكين ومن عليه دين ، ففرق ذلك كما رسم له ملك الأمراء .

ثم انه رسم باخراج مراسيم للقاضى شرف الدين ابن عوض بأن يفرج عن أصحاب الرزق الأحباسية التى كان أدخلها الى الديوان الســلطانى ، وكان قدرها نحــو ألف وثمانمائة رزقة ، فأفرج عنهــا لأصحابها ، وأعاد مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجهــا المفتش يوسف بن الجاكيــة الى

أصحابها ، ثم صار يقول للمباشرين الذين شوش عليهم : حاللونى وأبرئوا ذمتى . فحاللوه غصبا .

وفى يوم الجمعة ثانى عشره رسم باطلاق المحابيس رجالا ونساء ، فتوجه القاضى شرف الدين الصغير والقاضى المحتسب الى بيت الوالى ، وعرضوا من فى سجن الديلم والرحبة ، فطلعوا بالمحابيس فى زناجير مشاة وتوجهوا بهم الى بيت الوالى ، فلما عرضهم هناك ، صار القاضى شرف الدين الصغير والقاضى المحتسب يصالحون أصحاب الديون الذين عليهم من أربعين أشرفيا ونازل ، فيقولون لأصحاب الديون اتركوا لأجل ملك الأمراء الباقى . فصالحوا أرباب الديون بقدر يسير ، وفعلوا ذلك بجماعة كثيرة من أرباب الديون ، وفيهم جماعة من أعيان الناس .

وأطلقوا جماعة كثيرة من الضمان ، وجماعة من الفلاحين ، فقيل أطلقوا من سجن الرحبة أربعين انسانا ، وأطلقوا من سجن الديلم دون ذلك ، ولم يتركوا بالسجنين غير الحرامية ، ومن عليه دم .

ولم ير الناس فى أيام ملك الأمراء خاير بك أحسن من هذه الأيام ، فانه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك شيء ، ويأبى الله الا ما أراد :

ويقرب من هذه الواقعة ما وقع للأشرف الغورى لما حصل له عارض فى عينيه ، فجاد على الناس الى الغاية ، وأفرج عمن بالسجون ، وعن جماعة من المباشرين ممن كان فى الترسيم بمال له صورة ، وكانت تلك الأيام خيار دولته على الاطلاق .

ويقرب من ذلك ما وقع للأشرف قايتباى لما وقع عن الفرس وانكسر فخذه ، وأقام منقطعا فى القاعة التى بجوار الدهيشة ، وجلس على سرير مقور ، وصارت الناس تدخل عليه وتسلم عليه ، فجاد على الناس ، وأفرج عن جماعة كثيرة من المباشرين كانوا فى السجن ، وتصدق بمال له صورة على الفقراء والمساكين ، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات ، وكانت تلك الأيام خيار دولته .

وغالب هؤلاء الملوك ما يعرفون الله الا وهم تحت الحمل ، اذا جرت عليهم مصيبة يجودون فى حق الناس ، ويفعلون الخير . .

وفى يوم السبت ثالث عشره ، أشيع أن ملك الأمراء قد نزل به النزع ، وأنه أرسل خلف الأمير سنان بك العثمانى ، فلما طلع اليه وجده فى حال التلف ، فدفع اليه خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه له .

ثم انه قال له على قدر الأموال التى فى الخزائن ، وقال الأموال ستمائة ألف دينار ذهب عين ، هذا خارج عما كان فى بيت المال من المال ، وخلف من الخيول والجمال والبغال والحمير ما لا ينحصر ، ومن الغلال والأغنام والأبقار أشياء كثيرة ومع وجود هذه الأموال التى تركها كان يكسر جوامك المماليك الجراكسة ستة أشهر لم يعطهم شيئا ، ويشتكى أن بيت المال مشحوت من المال .

وكان أصل ملك الأمراء من مماليك الأشرف قايتباى ، وهو جركسى الجنس أباظا ، وكان أبوه اسمه بلباى الجركسى ، ولهذا كان يدعى خاير بك بلباى ، وينسب الى الأشرف قايتباى .

ومات أيضا أخوه خضر بك ، وأما أخوه جان بلاط فانه بقى مقدم ألف ومات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى ، مات بالطاعون . وأما أخوه قانصوه فانه كان يعرف بقانصوه المحمدى ، فارتقى حتى تولى نيابة الشام ، ومات فى دولة الأشرف الغورى .

وأما خاير بك فانه أقام بالطبقة وصار من جملة المماليك السلطانية ، فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى خاصكيا دوادار سكين ، ثم بقى أمير عشرة فى سنة احدى وتسعمائة فى دولة الملك الناصر محمد ابن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير طبلخانات فى دولته أيضا ، وأرسله قاصدا الى الخنكار أبى يزيد ابن عثمان ملك الروم فى سنة ثلاث وتسعمائة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط ، وخرج صحبة العسكر الى الشام . فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف كما كان . فلما تسلطن الأشرف الغورى ، جعله حاجب الحجاب ، واستمر على ذلك حتى توفى أخوه قانصوه المحمدى نائب الشام ، فنقل السلطان الأمير برسباى من نيابة حلب الى الشام عوضا عن قانصوه برج ، وخلع على الأمير خاير بك وقرره فى نيابة حلب عوضا عن برسباى ، وذلك فى سنة عشر وتسعمائة ، واستمر على ذلك حتى تحرك الخنكار سليم شاه ابن عثمان على السلطان الغورى، وانكسر ، وكان خاير بك سببا لكسرة الغورى .

فلما ملك سليم شاه الديار المصرية وجرى منه ما جرى ، وأراد التوجه الى بلاده ، خلع على يونس باشا وقرره نائبا على مصر ، ثم بدا له أن يقرر خاير بك نائب حلب على نيابة مصر عوضا عن يونس باشا ، فخلع عليه فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفع اليه خاتم الملك ، فاستمر على نيابته بمصر الى أن مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة نيابته بمصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ، بما فيها من مدة انقطاعه عن المحاكمات ، وتوعك جسده .

وأما ماعد من مساويه ، فانه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء . قتل فى مدة ولايته ما لا يحصى من الخلائق ، وشنق رجلا على عود خيار شنبر أخذه من جنينته ، وشنق من الناس ووسط وخوزق جماعة كثيرة ، واقترح لهم أشياء فى عذابهم ، فكان يخوزقهم من أضلاعهم ، ويسميه شك الباذنجان ، فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف رجل ، وغالبهم راح ظلما .

ومنها أنه أتلف معاملة الديار المصرية من الذهب والفضة والفلوس الجدد ، وسلط ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين .

ومنها أنه قرب شخصا من النصارى يقال له يونس ، وجعله متحدثا على الدواوين ، وصار المسلمون يقفون فى خدمته ويخضعون له .

ومنها أنه كان يكره الفقهاء وطلبة العلم والعلماء وعزل القضاة الأربعة ونوابهم قاطبة ، ومنع الشهود أن يجلسوا فى الحوانيت ويتقاضوا أشغال الناس .

ومنها أنه كان يكره المماليك الجراكسة ويعوق جوامكهم ستة أشهر ، ثم يصرف لهم شهرين بألف جهد .

ومنها أنه شوش على جماعة من أعيان المباشرين وضربهم وبهدلهم وعوقهم فى الترسيم نحو خمسة أشهر ، ولا سيما ما جرى على الشهابى أحمد بن الجيعان ، فانه سلب نعمته ، وأخذ منه فوق السبعين ألف دينار ، حتى باع جميع أملاكه وقماشه ورزقه ، وبقى على الأرض

ومنها أنه ندب يوسف بن أبى الفرج وقرره فى وظيفة يقال لها مفتش الرزق الجيشية ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل .

ومنها أنه أرسل فخر الدين بن عوض الى بلاد الصعيد ، ومسح الرزق الأحباسية ، وأدخلها فى

الديوان ولم يفرج عنها ، وحصل للناس بسبب ذلك غاية الضرر ، فقيل انه آخرج آلفا وثمانمائة رزقة ، منها ما كان على الزوايا والمساجد والترب وغير ذلك .

ومنها أنه كان سببا لخراب الديار المصرية ودخول سليم شاه الى مصر ، وحسن له عبارة أخذ مصر ، وضمن له أخذها من غير مانع ، وعرفه كيف يصنع حتى ملكها ، وجرى منه ما جرى ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة ، وشنق السلطان طومان باى على باب زويلة ، وكل ذلك بترتيبه ودولته .

وكان كثير الحيل والخداع والمكر ، وكان من دهاة العالم لا يعلم له حال . ولو ذكرت مساويه كلها لطال الشرح فى ذلك ، وقد قلت فيه هذه الأبيات عن لسانه :

أصبحت بقاع حفرة مرتهنا
لا أملك من دنياى الا كفنا
يا من وسعت عباده رحمته
من بعض عبيدك المسيئين آنا

فلما تحقق الناس موت ملك الأمراء ارتجت القاهرة ، وأشيع أن التركمان ينهبون الأسواق ، فانتقل مكان الجسر من بركة الرطلى على لمح البصر ووزع الناس أمتعتهم فى الحواصل .

ثم طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمير خير الدين بك نائب القلعة ، والأمير خضر بك ، والكواخى أغوات الانكشارية ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر المملكة ، وما يكون من أمر العثمانية ، فالتزم الأمير خير الدين نائب القلعة والكواخى بأمر الانكشارية ، والتزم الأمير سنان بك والأمير خضر بك بأمر الاصباهية وغير ذلك من الكملية ، ثم حضر الأمير أرزمك الناشف ، فالتزم بأمر المماليك الجراكسة وما يحصل منهم .

ثم ختم نائب القلعة والأمير سنان بك على الحواصل التى بالقلعة .

ثم ان الوالى والقاضى بركات المحتسب نزلا من القلعة وناديا فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يغلق له بابا ولا دكانا ، والدعاء للسلطان سليمان بالنصر ، فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء قاطبة ، فكرروا هذه المناداة يوم الأحد ويوم الاثنين .

وكان عند العثمانية عادة اذا مات صاحب المدينة ينهبون المدينة عن آخرها ، فمنعهم الأمراء التركمان من ذلك ، وقالوا لهم متى نهبتم المدينه تقتلكم عوام مصر ، ويحصل بينهم وبينكم فتنة عظيمه ، وتخرب مصر عن آخرها ، فسكن الاضطراب قليلا .

ثم فى يوم الاثنين ، لما دفن خاير بك ، تحول الأمير سنان ، وطلع الى القلعة من يومه ، وسكن بها ، فوقع بين الأمير سنان والأمير خضر تشاجر بسبب النيابة ، فأظهر الأمير سنان مرسوما وعليه علامة السلطان سليمان ، بأنه اذا توفى ملك الأمراء خاير بك يكون عوضا عنه فى نيابة مصر ، فوقع الاتفاق بينهما بأن يستقر بالقلعة ، ويكاتب السلطان بموت خاير بك ، وينتظر الجواب بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

ثم ان الأمير سنان عرض ما فى بيت المال من المال ، فوجد خاير بك خلف من المال على ما قيل ستمائة آلف دينار ، خارجا عما كان فى بيت المال .

ثم ان الأمير سنان بك خلع على القاضى شرف الدين الصغير واستقر به متحدثا على جهات الغربية وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وشرف

الدين بن عوض ، وجعلهما متحدثين على جهـات الشرقية ، فامتنع الشـهابي أحمد كل الامتناع من لبس القفطان وقال : أنا أصبحت رجلا فقيرا لا أملك من الدنيا شيئا ، وأنا ما بقيت أباشر شيئا فأرسلوني الى اسطنبول أو الى مكة المشرفة . ورد على الأمير سنان ذلك القفطان .

وخلع على القاضي بركات المحتسب ، وجعـله متحدثا على جميع جهات الشرقية من دمياط الى المطريـة على عادتـه . وخلع على محيي الدين بن أبي أصبع ، وجعله متحـدثا على ديوان الوزارة وديوان الخاص على عادته كما كان .

وفي ذلك اليوم نزل حريم خاير بك من القلعة على وجوههن وهن في غاية الذل .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره رسم الأمير سنان بتوسيط شخص من الاصباهية فوسطه في الرميلة . وسبب ذلك أنه خطف خرقة جـوخ ثمنها مائة وعشرون دينارا ، فطلع صاحب الجوخة الى الأمير سـنان وشكا له ذلك الشخص الأصباهي ، فقال له الأمير سنان : ألك عليه بينة بأنه خطف منـك الخرقة الجوخ ؟ فقال له : نعم ، وأحضر له من شهد عليه بذلك ، فأرسـل خلف الاصباهي وسأله عن ذلك فاعترف ، وأحضر الخرقة الجوخ ، وأعادها الى صاحبها ، ومضى بها . ثم انه رسم بتوسيط الاصباهي فوسطوه في الرميلة عند باب الميدان ، وهذا أول حكم الأمير سنان في القتل .

ثم ان الأمير سنان رسم بأن يعـين جماعة من الانكشارية في بيت المحتسب يضبطون ما يتحصل من أموال الحسبة في كل يوم ، وجعل مثل ذلك في بيت الوالي ، وبيت محيي الدين بن أبي اصبع لكونه متحدثا في ديوان الوزارة والخاص ، وجعل مثل ذلك في ديوان الوزراء ، يضبطون مايتحصل في كل يوم ، وجعل مثل ذلك على المكاسة الذين في بولاق ومصر العتيقة ، وغير ذلك من القباض

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، سـافر الأمير اينـال السيفي طراباي الذي ولي كشف الشرقية الى محل ولايته بها .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره ، حضر شخص من مماليك الأمير قايتباي الدوادار في بعض أشغال أستاذه وعلى يده كتب ، فكان من مضمونها أن السلطان سليمان نازل على رودس ، وأنه بباب رودس يحاصرها أشد المحاصرة ، وقد قتل من العسكر العثماني ما لا يحصى من البندق الرصاص ومن المدافع التي عمالة نازلة في كل يوم من قلعة رودس ، وكلما هدم من سورها شيئا تبنيه الفرنج تحت الليل بالحجر الفص ، وقد أعياهم أمر الفرنج وقوة بأسهم ، وقد كتم موت من مات من الأمراء الجراكسة والمماليك .

وفي يوم السبت عشريه ، رسم الأمير سـنان لمماليك ملك الأمراء خاير بك أن ينزلوا من الطباق التي بالقلعـة ، فشق ذلك عليهم ، فلما نزلوا من الطباق طلع اليها جمـاعة من الاصباهية ممن هم من جماعة الأمير سـنان ، والانكشارية من عصبة خير الدين نائب القلعة .

ثم أشيع أنه وقع بين الأمير سنان والأمير خضر العثماني تشاجر بسبب النيابة ، فوقع الاتفاق على ما يرد من جواب السلطان على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير اينـال السيفي ، الذي استقر كاشف الشرقية ، تحول عنهـا الى كشف الغربية ، وأعيد الأمير جان بك الى كشف الشرقية كما كان أولا .

* * *

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء ، فكان المتحدث على الديار المصرية يومئذ الأمير سنان بك العثماني ، نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، وكان قضاة القضاة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فلم يطلع الى التهنئة بالشهر أحد .

وفى يوم السبت خامسه ، توفى الشيخ أمين الدين بن النجار خطيب جامع الغمرى ، وكان دينا خيرا من أهل العلم والدين ، من أعيان الشافعية .

وفى عقيب موته توفى القاضى جلال الدين بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن كسيل أحد نواب الشافعية ، وكان عالما فاضلا ، وله نظم جيد ، وكان من أعيان الشافعية

وفى يوم الخميس عاشره ، كان عيد النحر ، فصنع الأمير سنان مدة حافلة بالقلعة لأجل الاصباهية والانكشارية والكملية ، فتناهبوا تلك المدة على لمح البصر ، وقد ذاق الأمير سنان طعم المملكة ، ودخلت حلاوتها فى أسنانه .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، نادى الأمير سنان بعد العصر فى القاهرة بأن السلطان سليمان استقر بالوزير الأعظم مصطفى باشا نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته . وقد وصل ذلك النائب الى الاسكندرية ، ثم نادى فى ذلك اليوم للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء وأن لا أحد يكثر كلاما فيما لايعنيه .

فلما تحقق الناس ذلك ، خرج المباشرون وأعيان الناس الى ملاقاة ذلك النائب ، وأشيع أن الأمير جانم الحمزاوى قادم صحبة النائب ، وأنه قد وصل الى قليوب ، فخرج غالب العسكر العثمانى الى ملاقاته .

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الوزير الأعظم مصطفى باشا الى ساحل بولاق . فلما أشيع ذلك نزل الأمير سنان من القلعة ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وأتى اليهم الأمير خضر العثمانى ، وأتى اليهم الكواخى أغوات الانكشارية ، وأتى الأمير أرزمك الناشف آغات المماليك الجراكسة ، وسائر الاصباهية والانكشارية والكملية قاطبة ، وتوجهوا الى بولاق لأجل ملاقاة النائب مصطفى باشا .

فلما وصلوا الى بولاق ، احضروا للنائب فرسا من الخيول الخاص ، ولبس خلعة السلطان ، وهى بتماسيح على أحمر ، وأحضروا لجماعته نحو أربعمائة فرس ، فركب النائب من هناك هو وجماعته ، ومشت الانكشارية قدامه والكملية قاطبة يرمون بالنفوط ، وركب جميع الاصباهية وأمراؤهم ، وجميع الأمراء الجراكسة وأتباعهم ، وأعيان الناس قاطبة .

فدخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة ، فشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة فى موكب حافل مثل موكب ملك الأمراء خاير بك ، وكان الأمير سنان عن يمينه ، والأمير جانم الحمزاوى عن يساره وعليه خلعة بتماسيح ذهب ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير خضر قدامه ، وعلى رأسه صنجق بقمع فضة ، ومن ورائه طبلان وزمران عثمانية ، وخلفه جماعة بطراطير حمر بعصائب ذهب .

فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكانت صفته أنه أبيض اللون ، عربى الوجه حليق اللحية ، ليس له غير شاربين أصفرين ، معتدل القامة ، وعليه حشمة وخفر ، وقيل هذا أعظم وزراء ابن عثمان ، حتى أطلق عليه أنه وزير الوزراء . واستمر فى موكب حافل حتى شق من الرميلة ، ودخل الى الميدان ، ثم صعد الى القلعة .

وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

لاتحــزنى مصر عــلى
موت الأمــير خــير بك

بل افـرحى بمصـــــطفى
ســـــتنظريه خـير بك

فلما قدم النائب مصطفى باشا الى مصر ، أشيع أن الأخبار وردت على السلطان سليمان بوفاة ملك الأمراء خاير بك وهو على رودس فى يوم الخميس ثالث ذى الحجـة . فلما تيقن موته خـلع على وزيره الأعظم مصطفى باشـا وقـرره فى نيـابة مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، فاستقر فى النيابة يوم السبت خامس ذى الحجة ســنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، وكانت ولايته فى الخامس وهو يوم نحس مستمر .

وكان السلطان على رودس ، فكانت مدة ولايته من حـين ولى برودس ، الى أن دخل الى ثغـر الاسكندرية ، تسعة عشر يوما ، وكانت مدة سفره فى البحر أربعة أيام ، ودخل الى شاطىء بولاق يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة ، فتكون مدة ولايتـه من حين ولى برودس الى أن دخل الى الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما .

فلما طلع النائب مصطفى باشا الى القلعة يوم الأربعـاء مد له الأمير سـنان هناك مدة حافلة بالقلعة ، ثم مد له بساط الأنس وسـلمه مفاتيح بيت المال ، ودفع له خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه لملك الأمراء .

ثم تحول الأمير سنان ، ونزل الى منزله بدرب ابن البـابا ، فكانت مدة نيـابته بالقاهرة الى أن حضر مصطفى باشـا ثمانية وثلاثين يوما ، كأنها أضغاث أحلام .

وفى يوم الخميس رابع عشريه ، نزل النـائب مصطفى باشا الى الميدان ، وحضر الأمير سنان ، والأمير خضر ، والأمير خير الدين نائب القلـعة ، وحضرت الأغوات المتعلقة بالانكشارية ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان الذى حضر على يد مصطفى باشا ، فكانت براعة اسـتهلال ذلك المرســوم :

« الحمد لله الذى أنزل على عبـده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيمـا » . ثم نعت النائب مصطفى باشا بنعوت عظيمـة ، بأنه وزير الوزراء ، وأمير الأمراء ، وما أشبه ذلك من النعوت الحسنة .

ثم رسم له بأن يعطى فى كل سـنة من خراج أراضى مصر مائة ألف دينار له ولمماليكه وحاشيته .

ومن مضمون ذلك المرسوم أنه لا يصرف لطائفة الانكشارية والاصباهية أكثر من أربعة أنصاف فى كل يوم ، فشق عليهم ذلك . وكان ملك الأمراء خاير بك رتب لجماعة من الاصباهية أشرفيين فى كل يوم جماعة ، وأشرف كل يوم ، وكان فى طائفة الانكشارية من كان له فى كل يوم عشرون نصفا ، وشىء عشرة أنصاف ، وشىء ثمانية ، فبطل ذلك جميعه ، واستقرت على أربعة أنصاف كل يوم .

ومن مضمون المرسوم ، الوصية بالرعية قاطبة ، والمماليك الجراكسة ، واصلاح المعاملة ، والنظر فى أحوال الرعية والمسلمين بما فيــه اصلاحهم . وكان من مضمونه أشـياء كثيرة يطول شرحها .

وفى ذلك اليوم طلع القضاة الأربعـة يسلمون عليـه ، فوجدوه بالأشرفية التى بالقلعـة ، فلم يمكنوهم من الدخول اليه حتى شاوروه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه فوجدوه ملقى على ظهره ، فلم يلتفت اليهم ، ولا قام لهم ، ولم يعدهم من البشر . ثم قال لهم على لسان الترجمان النائب : « يقول لكم لولا أنه ضعيف لقام لكم » . فقرءوا الفاتحة وانصرفوا .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه ، نزل النـائب مصطفى باشا الى الميـدان وجلس به ، وعرض موجود ملك الأمراء خاير بك من الجمال والخيول والبغال ، فوجد له من ذلك أشياء كثيرة لا تنحصر ، ثم طلع الى الحوش السـلطانى وعرض مماليك

خاير بك ، ثم عرض الحواصل التى فيها الموجودات من قماش ونحاس وصينى وغير ذلك ، فوجد له أشيــاء كثيرة أعظم من موجود الأشرف قايتباى ، ووجد له من الذهب العين على ما قيل ستمائة ألف دينار . وقد حاز هذا الموجود العظيم فى هذه المدة اليسيرة .

وفى يوم السبت سادس عشريه ، نزل مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وحوله الأمير سنان والأمير خضر والأمير خــير الدين نائب القلعــة والأمير أرزمك الناشف وجماعة آخرون من الأمراء ، فأظهر التعاظم فى ذلك اليوم ، ومشى على طريقــة الخنكار سليم شاه ، وصار كواحد منهم .

وكان النائب مصطفى هذا متزوجا بابنة الخنكار سليم شاه ، وهى أخت السلطان سليمان ، فوقف الوالى قدامه بالعصا ، وكذلك نقيب الجيش أيضا ، واصطفت قدامه الانكشارية والاصباهية والكملية وبأيديهم العصى . ثم ترادفت عليه القصص بحوائج الناس ، فلم يفهم منها شيئا ، وصار الترجمان يقول له معنى ما فى القصص بالتركى ، وهو كالخشبة .

ثم رسم بالمناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن كل من ظلم من بعــد ملك الأمراء خاير بك فعليه بالأبواب العالية .

ثم أشيع أنه نادى أن العمال يقبضون الخراج من الفلاحين ، النصف الفضة بنصفين ، ويقام لهم عند الحساب بنصفين وربع ، ففرح الفلاحون بذلك . ثم من بعــد ذلك تبين أن هذه الاشاعة ليس لها صحة ، وكل شىء على حكمه فى المعاملة .

ثم ان النــائب قام وطلع الى القلعة ، وهذا أول ديوان فى أيامه ، وأول محاكماته بين الناس ، وأول جلوسه للناس عامة .

وفى يوم الأحد سابع عشريه ، أشيع فى القاهرة أن القاضى بركات بن موسى قد انفصل عن الحسبة ، واستقر بها شخص من العثمانية من أقارب النائب مصطفى يقال له قاسم باشــا ، فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، وشق على الناس عزله .

وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب قد أخذ مفاتيح الحواصل كلها جميعا التى فى القلعة من البوابين ، وسلمها لجمــاعة من الأروام من حاشيته ، وطرد البوابين والغلمــان والركابة والبابيــة ، وأبطل الشواش والركبدارية والفراشين وغلمان السلطان قاطبــة ، حتى بطل الطباخين من المطبــخ ، وأقام جماعة من الأروام عوضهم ، وأبطل المقرئين الذين كانوا يقــرءون بالقلعــة قاطبــة ، حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين ، وجعل لجــامع الحوش مؤذنا واحدا ، وأبطل جميع نظام القلعة الذى كانت عليه قديما ، ومشى على القانون العثمانى ، وهو أشأم قانون .

ثم انه شرع فى بيــع موجودات ملك الأمراء خاير بك ، فطلب التجار قاطبة فطلعوا الى القلعة بسبب المبيع .

وفى يوم الاثنــين ثامن عشريه ، طلع أعيــان المباشرين الى القلعة ، وتوجهوا الى بيت الدفتردار ، فاجتمعوا هناك وشرعوا فى أمر تقسيط البــلاد ، وأشيع أنهم قد أفردوا للنائب مصطفى باشا فى كل شهر ثمانيــة آلاف دينــار ، ولمماليكه خاصــة ، ولجماعته وحاشيته ومطبخه وانعاماته ، وغير ذلك مما حكم به الزمان الخبيث على الناس .

ثم ان المعلم الحلوانى العجمى الذى كان دكانه تجاه المدرسة الناصرية ، التى بين القصرين ، صار من خواص الــائب مصطفى باشا ، وصــار من المقربين عنده ، ويتقاضى حوائجه وحوائج النــاس عنده ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار المرجع اليه فى الأمور فى تلك الأيام ، حتى بقى كمنزلة الدوادار الكبير . فكان كما يقال فى المعنى :

ما كنت أحسب أنْ يمتدَّ بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشريه ، قدم مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الغلاء وموت الجمال موجود مع الحجاج ، ولم يكن لما قالوه من أمر الفتن التى وقعت بمكة صحة ، ولله الحمد والشكر على ذلك .

وفى ذلك اليوم ، خلع مصطفى باشا على القاضى شرف الدين الصغير ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الغربية ، وخلع على القاضى فخر الدين بن عوض ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الصعيد ، وخلع على القاضى بركات بن موسى ، والقاضى شرف الدين بن عوض ، واستقر بهما فى التحدث على جهات الشرقية قاطبة كما كانا فى الأول ، فنزلوا من القلعة ، وشقوا من القاهرة فى موكب حافل .

ثم أشيع أن القاضى بركات بن موسى لم يعد الى الحسبة ، فتشوش الناس لذلك .

وفى يوم الأربعاء سلخ الشهر ، ترشح امر القاضى بركات بن موسى المحتسب لعوده الى الحسبة ، وقيل انه رتب لذلك الشخص العثمانى أشرفيين كل يوم ، فنادى فى القاهرة بعد العصر حسبما رسم الزينى بركات بن موسى كل شىء على حاله ، وأن السوقة والمتسببين يحضرون باكر النهار الى بيت القاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة ، وناظر الذخيرة الشريفة ، فهو على حاله فى الحسبة ، ففرح غالب الناس بذلك .

***

انتهى ما أوردناه فى هذا التاريخ من الأخبار العجيبة ، والوقائع الغريبة ، وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية وقد تقدم ذكرها من الأول الى هنا . وقد وقع لى من المحاسن فى هذا التاريخ ما لم يقع لغيرى من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة ، وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير ، ولله الحمد والمنة على ذلك وفيه أقول :

اغفر لمنشيه واصفح	عما جنى بالتهامى
أحسنت لى فى ابتداء	يارب أحسن ختامى

وقولى أيضا :

تاريخنا بهجة المجالس	يطرب من لفظه المجالس
سماعه للورى سرور	يشرح صدرا لكل عابس

وغيره أيضا :

ألفته نعم الجليـ	ـس اذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا	أبدا ويقنع بالنظر

